مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية

سلسلة "التراث"

ديوان ابن فركون

تقديم وتعليق

محمد ابن شريفة

عضو أكاديمية المملكة المغربية

الطبعة الأولى 1407-1987

تقديـــم

تنشر أكاديمية المملكة المغربية المشمولة برعاية مؤسسها العاهل العظيم جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله هذا الديوان الشعري الأندلسي الذي اكتشف أخيرا في المغرب.

ويرجع الفضل في ظهوره إلى معالي الأستاذ الجليل والأديب الكبير السيد الحاج محمد باحنيني، الذي يملك نسخته الخطية الوحيدة، وقد تكرّم سيادته بما هو معهود فيه من أريحية وسخاء، ونبل وعطاء، فأهدى مشكورا هذه التحفة الفريدة إلى خزانة الأكاديمية.

وعندما انتدبت إلى إعداد هذا الديوان للنشر وتصفّحته أول مرة لفت نظري أن ناسخه المجهول على ما يبدو كتب في غلافه وعلى طرّة الورقة الأولى منه ما يلي :

ديوان ابن الخطيب، ورغم جمال الخط الذي كتبت به هذه العبارة فمن الواضح أن كاتبها لا يعرف شعر ابن الخطيب، وهو لو قرأ الديوان لوقف خلاله على اسم صاحبه الذي هو أبو الحسين ابن فركون.

أما نسخة الديوان فيبدو من خطّها وورقها أنها نسخة حديثة، ولعلها انتسخت في آخر القرن الرابع عشر الهجري، وقد أشير في بعض طررها إلى الأصل المنتسخ منه، وتجدر الإشارة إلى أن هذه النسخة التي تفتتح الورقة الأولى منها بالبسملة والتصلية خالية من أي مقدمة أو ديباجة، كما أنها تخلو من أي إشارة تشعر بخاتمتها، وتدل بعض الإحالات فيها على أنها لا تمثل الديوان برمته، وهي مرتبة حسب الموضوعات كالعيديات والمقترحات والأخوانيات وغيرها.

حول فترة مضطربة هي فترة محمّد التاسع و«دُولِه» الأربع مع ما تخلّلها منْ دُوَل غيره، وهذه الرواية لم يتمكن الأستاذ سيكو دي لوثينا من استخدامها في كتابه. عن محمد التاسع : MUHAMMAD IX SULTAN DE GRANADA

وقد ظفرنا في المدة الأخيرة بمجموع شعري نفيس كان في طي العدم، وليس له ذكر في أي مصدر من المصادر الموجودة حتى الآن بين أيدينا.

وهذا المجموع عبارة عن ديوان للشاعر أبي الحسين ابن فركون الغرناطي، شاعر البلاط النصري في عهد السلطان أبي الحجّاج يوسف الثالث الملقب بالنّاصر.

أما صاحب الديوان فقد كنا نعرف اسمه فحسب من خلال مجموع شعريٍّ عُنوانُهُ : «مظهر النور الباصر، في أمداح مولانا أبي الحجاج الملك الناصر»، يوجدُ السِّفْرُ الثاني منه مخطوطًا في الخزانة العامّة بالرباط بِخطِّ أبي الحسين ابن فركون المذكور، وفي مقدمة هذا السفر ما نصه : «يقول العبد الذي شرّفه مولانا الناصر لدين الله بجمع أمداحه على اختلاف فنونها...».

وقد كان هذا المجموع المخطوط في ملك أحمد المنصور الذهبي السعدي وعليه طابعه وتملُّكه، وفي ورقة منه تعليق بخطه.

وأما يوسف الثالث فهو الملك الثالث عشر في ترتيب ملوك غرناطة النصريين، وهو صاحب الديوان الذي نشره مَرَّتَيْن الأستاذ الجليل السيد عبد الله كنون عن نسخة ملوكية عثر عليها في سوس المرحوم الاستاذ المختار السوسي، ويبدو أنّها بخطّ أبي الحسين ابن فركون أيضا.

ويوسف الثالث هو أيضًا ــ كما تأكد اليوم ــ مؤلف كتاب «البقية والمُدْرَك، من كلام ابن زمر ك» الذي وقف عليه المقري بتلمسان، وقال انه : «من تأليف بعض سلاطينها بني الأحمر، وهو حفيد ابن الأحمر المخلوع سلطان الأندلس» ؛ وقد أثبت في أزهار الرياض ونفح الطيب مقدمته، وأورد معظم ما اختاره الملك الشاعر من شعر ابن زمرك.

وتقدّم هذه المصادر الأربعة ــ ولا سيما ديوان ابن فركون الذي ننشره اليوم ــ مادة مهمة، تكشف عن شخصية يوسف الثالث، وأيام ملكه، وسياسته الداخلية والخارجية، وجلُّها ــ إن لم أقلْ كلّها ــ كانت مجهولة.

إن لديوان أبي الحسين ابن فركون قيمتين كبيرتين : أولاهما أدبية تشهد أن الشعر الأندلسي حافظ على فخامته التي كان يُظنّ أنها انتهت بانتهاء عصر ابن الخطيب وابن زمرك ؛ والقيمة الثانية تاريخية ووثائقية، وقد تكون أهمّ من الأولى.

وقبل أن نتناول هاتين القيمتين بالدرس والتحليل لا بد لنا من التعريف بصاحب الديوان ابن فركون، فمن هو هذا الشاعر ؟

التعريف بابن فركون :

إنه أبو الحسين بن أحمد بن سليمان بن أحمد بن محمد بن أحمد بن ابراهيم بن هشام[1] القرشي المعروف بابن فُرْكون (بضمّ الفاء كما ضبطها هو بخط يده دائما في «مظهر النور الباصر»)[2].

وأبو الحسين هذا هو ولد أبي جعفر أحمد بن فركون[3] أحد تلاميذ ابن الخطيب، ومن خاصّته الذين انقلبوا عليه، وكادوا له، وقد كان ابن الخطيب، أثنى على أبي جعفر المذكور عندما كان راضيًا عنه، ووصفه بأنه «شعلة من شعل الذكاء والادراك»، فلما كان منه ما كان ذمّه في كتابه «الكتيبة الكامنة»، وقد اشتغل أبو جعفر هذا بالكتابة السلطانية في عهد الغني بالله بترشيح من أستاذه ابن الخطيب، وكان هذا يكلّفه بنسخ مؤلفاته، ولمّا فارق لسان الدين مخدومه الغني بالله وأوى إلى المغرب، كان أبو جعفر ابن فركون مع المحرّضين على ابن الخطيب، كابن زمرك والقاضي النّباهي «وأنكر المعروف، ونسي الظرف والمظروف» حسب تعبير ابن الخطيب ؛ ويبدو أنه بالغ في الإساءة إلى شيخه الذي رَبّاه وخَرّجه، ونلمس شدة حنق ابن الخطيب على تلميذه العاق الجاحد في قوله :«حرْوٌ مَحْقور، وفي حلديه كلْبٌ عقور، وسفيه، يقال عند ذكره : كفاك اللهُ شر من احست إلَيْهِ» إلى أن يقول : «وعدل الله كفيل باتّباعِه، وقَصّ باعِه، ومجازاة حَتْله، وإهداءِ كبده إلي من بعد قتله، ليُجْعل مَتْنُها على العضّة الدّامية، ويُشوى باقيها على النار الحاميّة». ولا نعلم شيئا عن حال أحمد بن فركون مع ابن رمرك الذي

---

(1) في سلسلة هذا النسب المرفوع بعض اختلاف بين المصادر.

(2) راجع مظهر النور الباصر، مخطوط ح.ع.ر. رقم 23ح.

(3) انظر ترجمته في الاحاطة 1 : 220 والكتيبة الكامنة : 305 ونفح الطيب 7 : 287. تحقيق د. إحسان عباس.

(4) الكتيبة الكامنة : 306.

خلف ابن الخطيب بقية عهد الغني بالله، وخلال عهد ولده يوسف الثاني، وحفيده محمد السابع، الدي بطش بابن زمرك، فكان مصرعه أشد قسوة من مصرع ابن الخطيب، ونجد لابن فركون والد صاحب هذا الديوان بيتين فيهما عمزٌ ولمز وتعريضٌ بابن زمرك[5].

وقد استطاع بذكائه أنْ ينجو من لهيب تلك الدسائس المتعاقبة، وتحوّل من الكتابة إلى القضاء، إذْ نجد في هذا الدّيوان أنّه كان عام 799 هـ قاضيا في برجه[6]، ويبدو أنه ظل في القضاء حتى آخر حياته، ففي آحر ديوان أبي الحسين هدا نراه يشير إلى سفر والده المذكور من غرناطة إلى موضع قضائه عام عشرين وثمانمائة[7]، وكان يومئذ شيخا في الثالثة والسبعين من عمره، إذ أن مولده عام سبعة وأربعين وسبعمائة.

وكان يمدح السلطان في المناسبات، وقد دكر له والده مجموعة من القصائد التي مدح بها السلطان يوسف الثالث عام 811 هـ وما بعده. وهي موجودة في «مظهر النور الباصر، في أمداح الملك الناصر».

هذا عن أحمد بن سليمان ابن فركون والد صاحب الديوان، ولا بأس من الاشارة إلى جده سليمان الذي يفهم من كلام ابن الخطيب أنه كان من أهل العلم، إذ أنه استجاز لولده أحمد شيوخ بلده، وصرّح أنه ترجم له في الاحاطة[8]، ولكننا لم نجد هذه الترجمة في النسخة المطبوعة، ولا فيما رجعنا إليه من نسخها الخطية، ولعله أسقطها كما أوصى بإسقاط ترجمة تلميذه أحمد من الاحاطة، وعلى كل حال فإن ابن الخطيب يصف سليمان جدّ صاحبنا أبي الحسين بعد أن تغير عليْه بأنه «معدن الحمق الذي أعيا الراقي، والسحر المركّب العراقي»[9]، ويورد ابن الخطيب أبياتا لتلميذه أحمد بن فركون يشكو[10] فيها إليه والده «وقد سَرَق له بعض ما أحسنت به له» كما يقول.

---

(5) نفح الطيب 7 : 287.

(6) انظر ص 168 من هدا الديوان.

(7) انظر ص 259 من هدا الديوان

(8) يقول ابن الخطيب في ترجمة تلميده أحمد بن سليمان ابن فركون تحت عنوان أوليته مانصّه : «قد مرّ دلك في رَسْمِ حده قاضي الجماعة وسيأتي في رَسْمِ والده.»

(9) الكتيبة الكامنة : 305.

(10) المصدر نفسه.

و لابدّ من التذكير في الأخير بأشهر أعلام هذه الأسرة قاضي الجماعة أحمد بن فركون[11]، وهو الجد الأعلى لأبي الحسين صاحب هذا الديوان، وإليه تنصرف شهرة ابن فركون إذا أطلقت، وقد نوّه به ابن الخطيب وابن خاتمه والنباهي وغيرهم من مؤلّفي كتب الطبقات، وأصله من المرية، ولكنّه نشأ في غرناطة، ودَرَس بها، وأصبح قاضي الجماعة فيها، فهو مؤسس هذا البيت الذي سقنا أعلامه في هذا النّسق رفعًا لأيّ التباس، وحتى هذا العلم الشامخ الذي نوه به ابن الخطيب في الاحاطة عاد بعد خصومته مع حفيده، فوصفه في الكتيبة الكامنة بأنه كان «شديد القحَة والصَّلَف، مُزْريا بالخلف والسلف، يدعو المشيخة بأسمائها، فتَشْجَى بغمائها، وينبزها بألْقابِها، فَتَنْجَحِرُ بأنْقابِها، تُلوي برِقابِها».

أما أبو الحسَيْن صاحب الديوان، فلا توجد له ترجمة في المراجع الموجودة، ولعل ابن عاصم عرف به في الروض الأريض المفقود الآن.

ولا نعرف له اسمًا إذ أنه يذكر نفسه ويذكره غيره دائما بأبي الحسين، وقد ذكر في ديوانه أخًا له صغيرا بكنية أبي العلى[12]، وقد تكون هاتان الكنيتان اسمين لهما، وذلك ككنية أبي بكر مثلا التي أصبحت من الأسماء.

وقد وجدنا في شعره ما يدل على تاريخ مولده وذلك في قصيدته التي نظمها في الجناب النبوي «وقد أطّل موسم عام ثمانية عشر وثمانمائة» وفيها يقول :

أ مِنْ بَعْد ما لاحَ المشيبُ بلِمّتي ... صباحًا هَـداني ليلُه وهـو مُظلِـمُ
تحَهّمَ وَجْهُ الْأنْسِ وهْوَ بِمَفْـرِقي ... أزاهِـرُ في خُضْر الـرّبى تتـبسّمُ
لعمّتـهِ في الفَـوْدِ فضلُ ذؤابَـةٍ ... عَلَـى لمّـةٍ كادتْ بـهِ تتلثّـمُ
هوالـوارِدُ المرغـوبُ عنـهُ فكُلّمـا ... ألَـمَّ بفَـوْدٍ وفْـدُهُ، يَتألّـمُ
جوادٌ ولَمْ يُسْأَلْ وَفِيٌّ ولَمْ يَعِدْ ... مُـرَدِّدُ وَعْـظٍ وهـو لا يَتكلّـمُ
ومن بعْدِ ما مَرّت ثلاثونَ حِجّةً ... وسَبْـعٌ يُسرامُ الأُنْسُ أو يُتَوَهَّـمُ
وقاربْتُ مـنْ مَرْمـى الأشُدِّ رَمِيّـةً ... تُقَرْطِسُها منْ حادثِ الدّهْرِ أسْهُمُ

(11) ترجمته في الاحاطة 1 : 153 والكتيبة الكامنة : 101 وريحانة الكتاب والمرقبة العليا : 138 ودرة الحجال 1 : 41 وبيل الابتهاج : 64.

(12) انظر ص 259 من هذا الديوان.

وصوّح مرعًى للشَّبيبَةِ مُـخْصِبٌ وأيّ شباب مونِقٍ ليْسَ يَهْـرَمُ[13]

ومعنى هذا أنه ولد حوالي 781 هـ.

وقد ورث عن أبيه الذكاء الحاد والنّبوغ المبكر إذ نجدهُ في عام ثمانية وتسعين وسبعمائة يقول الشعر وكان يومئذ طالبًا صغير السن كما يقول، وفي هذا التاريخ اطلع الشريف أبا العباس الحسني على قصائد من نظمه فكتب له ما نصّه :

تباركَ اللهُ من نجلٍ قد اجتمعت محاسنُ الأب فيه وهْوَ يـزداد
فَلا بَرِحْتُ أرى منكَ الّذي علمَتْ عَنْ جدّه المُنْتقى مصرٌ وبَغْـدَادُ[14]

يشير إلى الأب أحمد بن فركون وجدّ هذا الأب قاضي الجماعة أحمد ابن فركون، والشريف أبو العباس المذكور هو ولد أبي القاسم الشريف السبتي شارح مقصورة حازم، يقول ابن الخطيب في ترجمته : «رسمت هذا الفتى في الكتبَة، سني المرتبة، ثم استعملته في القضاء، خالعًا عليه ملابس الارتضاء...»[15] وقد كان أبو الحسين ابن فركون وثيق الصلة بهذا الشريف وبأخيه أبي المعالي قاضي الجماعة في عهد محمد السابع أخي يوسف الثالث، وبينه وبينهما مطارحات شعرية، جاء في الديوان :

«وكتب إلَيّ أخوه (أي أخو أبي العباس المذكور) قاضي الجماعة الشريف المعظم أبو المعالي أبقى الله حظوته وقد تقدّم في ذلك العهد للكتابة السلطانية دوني من آثره صاحبُ الخُطّة بها ما نصّه في محرم عام خمسة وثماني مائة»[16].

ومما جاء في قطعة أبي المعالي يواسي أبا الحسين ابن فركون :

اصْبِرْ فعمّا قريبٍ أنتَ واردُ مَـا تَهْوَى من العِزّ غَمْرًا غيْرَ ما ثَمَدِ
وَلاَ يـهِضْكَ بتأخيـرٍ تقدّمُهُـمْ إن الفَـذالِكَ تـأْتي آخـرَ العَـدَدِ[17]

---

(13) ص 205 من هذا الديوان.

(14) ص 171.

(15) الكتيبة الكامنة : 301 وبيل الابتهاج : 76 وورد ذكره مراراً في حمة الرّضى لابن عاصم وكذلك في المعيار للونشريسي ونفح الطيب.

(16) ص 173 وانظر في أبي المعالي هذا بيل الابتهاج : 76. ونفح الطيب 5 : 198.

(17) هذا من قول المتنبي : وأتى فذلك إذ أتيت مؤخرا. والفذلكة هي قول الحاسب إذا أجمل حسابه : فذلك كذا وكذا.

وَكَمْ جوادٍ، جيادُ الخيل تسبقُهُ أُولَى الرِّهانِ، قد استَوْلى علَى الأَمَدِ

ومن هنا نفهم أن أبا الحسين كان يتطلّعُ ــ وهو شاب يافع ــ إلى الانخراط في ديوان الإنشاء بعد أن اكتسب الأدوات وامتلك المؤهلات كجمال الخط ــ الذي اشتهر به والده كذلك ــ وجودَةِ الإنشاء، وإحكام النظم وغير ذلك، ولهذا لمْ يلبث أن تحقق لأبي الحسين ما بشره به قاضي الجماعة الشريف أبو المعالي الحسني «فارتسم ــ كما يقول ــ في كتاب المقام العلي في اليوم الرابع والعشرين لصفر من عام ثمانية وثماني مائة»[18].

وقد هنّأه الفقيه القاضي أبو عبد الله الأُلْيُري[19] بقوله :

هنيئًا يا سليلَ أُولي النّجابَهْ بماقُلّدتَ مِنْ سامي الكتابَهْ
ويَهْنيها فقد ظفرَتْ بِكُفْءٍ حَوَى من كلّ مَعْلُوّة لُبابَهْ
أراكَ اللهُ فيها ما تَمَنّى من النِّعَم الجِسام المُستطابَهْ
وزادكَ بعدَها جاهًا عظيمًا تنالُ به الخَطابَة والحِجابَه[20]

ولما مات محمد السابع، وبويع يوسف الثالث، أشار الشريف أبو المعالي قاضي الجماعة على أبي الحسين أن يحتال لنفسه، ويتقدم إلى السلطان الحديد بمدائحه، قائلا له من قطعة :

فاحتَلْ لنَفْسِكَ فيما تتحِفَنّ بهِ كلاّ أو اسْتَرْفِدِ الأعْلامَ تهْديها
الشّمسُ بالرّبْوَة الحَمْراءِ مُشْرِقَةٌ كَمْ نِعمَةٍ لِلْهُدَى لاَرَيْبَ تُسْديها

فأجابه أبو الحسين بقصيدة جاء فيها :

سِبْطُ النبيّ حباني مِنْ عَقائِلِهِ بِبِنْتِ فِكْرٍ يَروقُ السَّمْعَ شاديها
مُشيرَةٌ بالْتِماسِ الرِّفْدِ مِنْ عَلَمٍ ماضَلّت الحَلْقُ قَصْدًا وَهْوَ هاديها
قَدْ لاحَ بالرُّبْوة الحمراءِ شَمْسَ هُدًى فَلَيْسَ يَخْفى عن الأبصارِ باديها

(18) ص 180
(19) ترجمته في نيل الابتهاج : 291.
(20) انظر الديوان ص 180.

فما قَبَضْنا اللُّهى لَوْلا مَكارِمُها ولاَ بَسَطْنا يَدًا لَوْلاأياديها[21]

فرفع أبو الحسين قصائد متتابعات ولَعلَّ أولها هي التي يفتتح بها هذا الديوان، ومطلعها :

إليكَ تباشيرُ البشائِرِ مُقْبِلَهْ تَلوحُ بآفاقِ الهُدَى مُتَهلِّلَهْ

وفيها يهنّىء السلطان بتولّي الملك قائلاً :

فَهُنِّئْتَ ما استقبَلْتَ يا مَلِكَ الهُدَى من العِزِّ لا زالتْ سُعودُك مُقْبِلَهْ
لَقَدْ قَلَّدَ الرّحمَنُ أمْرَ عِبادِهِ إمامًا لَهُ في العَدْلِ أرْفَعُ مَنْزِلَهْ

ثُمَّ يقول على طريقة المتنبّي[22] :

فَعبْدُكَ يُهْديها إليْكَ وسائلاً أبَى اللهُ أن تُلْفَى بجودِكَ مُهْمَلَهْ
أقِلْهُ أنِلْهُ وَفِّ ما قَدْ وعَدْتَهُ قديمًا وبَلِّغْهُ الذي مِنْكَ أمَّلَهْ

وشفع هذه القصيدة، ليومٍ ثانٍ، بقصيدة ثانية، بدأها بالاشارة إلى خلاص السلطان من السجن وحلوله بدار الملك، قال :

هنيئًا فصُنْع اللهِ وافاكَ بالبُشْرى وأبْدَى مُحَيّاهُ الطّلاقَةَ والبِشْرا
وهَلْ هو إلاّ الصّنْعُ أهْداكَ آيَةً فكانتْ على نَيْلِ المُنَى آيةً كُبْرى
هُوَ القَدَرُ المحتومُ حَيّا بِهِ الهُدى فَبُعْدًا لعُسْرٍ أعْقَبَ اليُمْنَ واليُسْرا
حَلَلْتَ بدارِ المُلْكِ والسّعْدُ يَقْتضي لمُلْكِكَ أنْ يَلْقَى بها العِزّ والنّصْرا
وأشْرَقَ ذاكَ الوجْهُ بالقُبّةِ الّتي عَجائبُها تُرْوَى وأنْعُمُها تُتْرَى[23]

وفيها يشير إلى وفائه للملك خلال سجنه فيقول :

---

(21) الديوان ص 176.

(22) أقصد بيته المشهور :
أقِلْ أنِلْ اقطَعْ احمِلْ عَلّ سَلّ أعِدْ رُدْ هشَّ بشَّ تفضّل اذْنُ سُرَّ صِلِ

(23) الديوان ص 2.

بِحَقِّكَ يا مولايَ لا تَنْسَ عهْدَ مَنْ يُحادثُ مَولاهُ بأفكارِه سِرّا
فكَمْ باتَ في جَمْرِ الغَضا مُتَقلِّبًا وذكرُك يُذْكي في جوانحِهِ جَمْرا
إلى أنْ رأى ذاكَ المُحَيّا فأصْبَحَتْ صُدورُ القَوافي تشرَحُ القَلْبَ والصَّدْرا

وكان يطمع أن ينشد قصيدته بين يدي الملك، ولكن ذلك لم يتحقق له فقال :

وقَدْ نذَرَ المَمْلوكُ إنْشادَ هذِهِ لَدَيْكَ، فما وَفَّى يَمينًا وَلا نَذْرا[24]

تم رفع إلى السلطان في آخر شهر ذي الحجّة أي بعد حوالي شهرين من جلوسه على العرش قصيدته المحبوكة التي مطلعها :

حادِيَها أيْنَ بِها تَذْهَبُ إذْ لَيْس عَنْ وِرْدِ المُنَى مَذْهَبُ

وفيها يقول :

فالْهاميانِ رحْمَةٌ لِلْوَرَى : نَوالُهُ، والمطرُ الصيّبُ
والنيِّرانِ في ظَلامِ الدُّجَى : جَبينُهُ المُشْرِقُ، والكوكَبُ
والطيّعان لعُلَى مُلْكِهِ بعَدْله : المَشرِق، والمَغْرِب
والماضيانِ منه يوم الوَغى : عَزْمَتُهُ، وسَيْفُه المُرْهِبُ
والأشْرَفانِ بِحُلَى مُلْكِهِ : مدحي لمولاي، وما أكْتُبُ
والنّاصران : مَنْ لِمَرْوانِها يُنْمى، ومَنْ لسَعْدِها يُنْسَبُ
ذلكَ مَلْكٌ أصلُهُ مَكّةٌ وذا إمامٌ أصْلُهُ يَثْرِبُ[25]

وقدْ أتَتْ هذه الوسائل أُكْلَها إذ ما لبث السلطان أن اظهر على عبده أثر القبول، وفاتح بتبليغ الأمل والسول، كما يقول[26]، وقد عيّنَهُ أوّلا في وظيفة يقول فيها : «أمَرَ لي أيّدهُ الله بتَنْفيذ الغُزاة بِحَضْرته العليّة وسائِر البلادِ النّصْريّة، وأبطأ الظّهير الكريم بذلك في العَلاَمة، فقلتُ في منتصَف ربيع الآخِر عامَ أحَدَ عشَر وثماني مائَة».

(24) الديوان ص 4.
(25) الديوان ص 5 وهو يشير الى عبد الرحمن الناصر الأموي ويوسف الناصر.
(26) الديوان ص 176.

ويبدو في قصيدته شيءٌ من إلحافه وقلّة لباقته إذ يقول :

ولكـنّ يـا مـولايَ أمـرُكَ نافـدٌ فَما بالُهُ في مَطْلَبِ العبْدِ يُبْطِيءُ[27]

ومع هذا فقد لُبِّي مطلبُه بعد خمسة أيام، جاء في الديوان : «ولما وجّه إليّ الظّهيرَ الكريمَ قُلْتُ أشكرُ نعمتَه في اليوم العِشرين من ربيع المذكور»[28]

وفي هذه القصيدة يقول :

أَمَوْلايَ، قدْ بلّغتَني كُلَّ مطلَب بِفَيْض نوالٍ حودُه يُخجل المُزْنا

ولِمْ لاَ وقدْ وافَتْ علامتُك الّتي لها الحُسْنُ في شفْعِ الزّيادةِ بالحُسْنَى[29]

أما العلامة المذكورة في هذا البيت فهي عبارة «صَحّ هذا» التي كان يوقّعُ بها ملوك بني نصر ظهائرهم، وقد ذكرها ابن زمرك في بعض شعره[30]. وأشار إليها شاعرنا في قوله :

ومَنْ أنْحلَتْهُ «صحّ هذا» بِوَعْدِهـا فبالنّـاصرِ المَوْلَـى يَصِحُّ ويَبْـرأ

تَخُـطُّ اليَـدُ العَرّاءُ مِنْها علامَـةً يُقَبّلُهـا وهْـوَ الوجيـهُ المُهَنّـأ[31]

وأما خُطّة تنفيذ الغُزاة فهي مراقبة النفقات المخصّصة لِلْغُزاة والمجاهدين المتطوعين[32].

ومن التاريخ المذكور أصبح أبو الحسين في خدمة يوسف الثالث، وغدا شاعره المختصّ به، المؤرّخ لأيامه بشعره، ثمّ ازداد منه قربًا، بعد أن اختاره لتولّي كتابة سرّه، عام أربعة عشر وثماني مائة[33] ؛ وبهذا صارَ ملازمًا له في الحضر والسفر، ينشد القصائد بين يديه في الأعياد والمناسبات، ويقول الشعر في مختلف الوقائع والأزمات، ولم يترك صغيرة ولا كبيرة ممّا حرى في عهد الناصر إلاّ سجّلها.

(27) الديوان ص 20.

(28) الديوان ص 20.

(29) الديوان ص 22.

(30) الديوان ص 20.

(31) أزهار الرياض 2 : 135.

(32) انظر كلمة تعيد في قاموس دوري.

(33) الديوان ص 90.

وكان الملك من جهته حفيا بكاتب سره، يسمّي له أولاده، ويمنحه الهبات، ففي الديوان أنه وهبه مرّة سرِّيّة رومية ووَهبه مرة أخرى ثوبًا من حرير[34].

وقد أصبح أبو الحسين ابن فركون بفضل منصبه وأدبِهِ مرموقًا في المجتمع الغرناطي، يخطب أهل العلم والأدب ودّه، ويطلبون شعره، فمنهم الشريف أبو المعالي الحسني قاضي الجماعة، وأخوه كبيره أبو العباس، وبين أبي الحسين وبينهما مجاوبات عديدة، أشرت إلى بعضها فيما سبق، وعندما ولد لأبي الحسين ابن فركون ولده أحمد ليلة السبت السابع لرجب عام عشرين وثماني مائة هنأه الشريف أبو العباس بقصيدة أتبعها بنثر يقول فيه : «وقد عجلت الكتب لسيدي تخفيفًا عليه، ثم غلبني الشوق فنهضت نحو الجنان إليه، لتعلموا أني لم أضيع واجبا في جنابكم العالي ولا شغلني شاغل عن قصد تلك المعالي، فعُرِّفت أن الوقت معمور بما شغّف الباطن من تضييع الخدّام، والتفريط في حال قرة العين عافاه الله ووقاه من جميع الآلام» ونعرف سر اشغال أبي الحسين بأمر ولده المشار إليه في هذه الرسالة من قوله : «لم يبق بقيد الحياة لِهذا العهد من إخوانه غيره، ولعلّه يبقى بفضل الله (الديوان : 262 ــ 265).

ومن إخوانه الفقيه القاضي أبو عبد الله الأُليري الذي رأيناه فيما سبق يهنئه بمنصب الكتابة.

ومنهم الفقيه أبو القاسم بن حاتم المالقي الذي خاطب أبا الحسين من جبل طارق بقصيدة طويلة ذيلها برسالة في الشوق إلى لقائه فأجابه بقصيدة يتلوها شيء من النثر في آخر شعبان عام أحد عشر وثمانمائة (183 ــ 189).

ومنهم الفقيه القاضي أبو الفضل ابن أبي جماعة الذي دارت بينه وبين أبي الحسين أشعار مؤرخة بعام 809 هـ (الديوان : 189 ــ 193). وهو من أعلام ذلك العصر.

ومنهم أبو عبد الله ابن الأكحل (الديوان : 193)، والفقيه الأستاذ أبو بكر ابن الأيسر (34 م)، والفقيه الكاتب أبو القاسم بن أحمد بن أبي القاسم بن قطبة، وهو من الأسرة الغرناطية المشهورة، وبينه وبين أبي الحسين مجاوبة شعرية مؤرخة بعام 808 هـ (الديوان : 194 ــ 196)، وأبو زكرياء يحيى بن السراج الرُّنْدي، وأبو القاسم

---

(34) الديوان ص 124 و ص 127 و ص 40.

(34) م انظر في ابن الأكحل : الإحاطة 3 : 204 وفي ابن الأيسر : وثائق غرناطية : 143 ــ 144.

ابن حاتم المالقي، وسيأتي الكلام عليهما.

لا نعرف كيف عاش ابن فركون بعد وفاة يوسف الثالث، ولا ماذا كان مآله خلال الأحداث الناجمة بعد زوال دولة مخدومه، وكل ما نعرفه أنه جمع شعره بعد وفاة الملك الناصر، إذ أنّه يترحم عليه في آخر ما قاله أو جمعه.

بفضل هذا الشعر التسجيلي الجامع أصبحنا نعرف بكيفية مفصّلة تاريخ حياة الملك يوسف الثالث، والعهد الذي ملك فيه، ومدته عشر سنوات ؛ إذ ان الذين تحدثوا باختصار عن هذا الملك من قبل ــ مثل السيد عنان[35] والسيدة أرييه[36] ــ إنما اعتمدوا على مصادر ڤشتالية، أمّا الآن فلدينا رواية عربية كاملة معاصرة لتاريخ هذه الحقبة، تتمثّل في شعر ابن فركون، وفيما جمعه من شعر غيره، وفي شعرِ مخدومه يوسف الثالث نفسه، فقد كان هذا شاعرًا بل لعلّه أكبر شاعر ملك أنجبته الأندلس بعد المعتمد بن عباد، وديوانه المنشور أكبر من ديوان المعتمد.

وكان هذا الملك الشاعر مولعًا ولَعًا شديدًا بالشعر، فقد جمع كما أسلفنا شعر ابن زمرك[37]، كما كان مولَعًا بالمطارحات الشعرية، مقرّبًا للشعراء، يستمع إلى قصائدهم في عيدي الفطر والأضحى وغيرهما من المناسبات، وقد جمع خديمه أبو الحسين ابن فركون الأمداح التي قيلت فيه في مجموع سماه «مظهر النور الباصر، في أمداح الملك الناصر» يقع في عدة أسفار، ووَصل إلينا منها السفر الثاني من نسخته الأصلية بخط ابن فركون الملوكي المذهب الجميل، وقد كان هذا المجموع في ملك المنصور الدهبي، وله توقيفات وتعليقات على بعض الأبيات فيه، ثم انتهى إلى خزانة الباشا الجلاوي، ويوجد السفر الثاني ضمن المجموعة التي وصلت من هذه الخزانة إلى الخزانة العامة بالرباط، وهو يشتمل على ما قيل في مناسبات عام واحد هو عام 811 هـ، ويعلم الله عدد الأسفار الأخرى ومآلها.

إن هذه الثروة الشعرية لها ــ كما أسلفت ــ قيمة مزدوجة :

قيمة أدبية كما هو واضح، وأغلب الظن أنها كانت نموذجًا يُحتذَى لشعراء المديح في عهد الشرفاء السعديين والعلويين.

---

(35) انظر كتابه : نهاية الأندلس ص 153 وما بعدها. ط 3.

(36) انظر كتابها : إسبانيا المسلمة في عهد البصريين ص 127 وما بعدها.

(37) أدرج معظمه المقري في أزهار الرياض 2 : 11 ــ 176 ونفح الطيب 7 : 162 ــ 265.

وقيمة تاريخية تمثل ــ كما قلت من قبلُ ــ الرواية العربية المفقودة حول يوسف الثالث وعصره ؛ وسنعرض هذه الرواية حسب التخطيط الآتي :

1 ــ يوسف الثالث ومملكة غرناطة في عهده.

2 ــ شخصيته وسيرته.

3 ــ علاقاته بالممالك النصرانية.

4 ــ علاقاته بالمملكة المغربية.

1 ــ يوسف الثالث ومملكة غرناطة في عهده :

هو السلطان أبو الحجّاج يوسف الملقب بالناصر لدين الله ولد السلطان أبي الحجاج يوسف الملقّب بالمستغني بالله، ولد السلطان محمد الخامس الملقب بالغني بالله.

وُلد في منتصف ليلة الجمعة السابع والعشرين لصفر من عام ثمانية وسبعين وسبعمائة[38] (15 يوليوز 1376)، وذلك في عهد جدّه الغني بالله، وهو عهد بلغت فيه دولة بني الأحمر ذروة مجدها، وقمّة عزها.

وكان كبير إخوته : أبي عبد الله محمد، وأبي الحسن علي، وأبي العباس أحمد، كما أن والده أبا الحجاج هو أكبر أولاد الغني بالله الخمسة.

وقد نشأ هؤلاء الأولاد والأحفاد في رعاية الغني بالله يستظلّون بوارف ظلّه، ويرفلُون في وافر فضلِه، وقد حفظ لنا يوسف الثالث في كتابه «البقيّةُ والمُدْرَكُ، مِنْ كلام ابنِ زَمْرَك» طائفةً من «الاعذاريات» أو القصائد العصماء التي وصف فيها هذا الشاعر الوزير تلك الاحتفالات الكبيرة التي كان الغني بالله يدعو إليها أهل الأندلس والمغرب، وتُجْرى فيها الجياد في الملاعب، ويُستدعَى إليها أصحاب الألعاب على اختلاف أصنافهم، ومنها قصيدة قيلت بمناسبة إعذار يوسف الثالث وأخيه محمد[39]، وأخرى في إعذار أخويهما أبي الحسن وأبي العباس سنة 789 هـ[40]، وأقتبس من الأولى قول ابن زمرك يصف كيف تقدّم يوسف وأخوه في غير خوف إلى العاذر الذي أجرى لهما عملية

---

(38) ورد هذا التاريخ في رحامة قبره المنشورة في كتاب لعوتي القنطرة عن النقوش العربية الغرناطية ص 41 وكذلك في كتاب لـ بروفنسال حول النقوش العربية الاندلسية ص 171.

(39) أزهار الرياض : 2 : 74.

(40) المصدر نفسه : 81 وصبح الأعشى 5 : 202.

الختان حسبما تقتضيه السنة النبوية :

وقدْ كانَ رَوْعُ الحفْلِ رَوّعَ أهلَهُ وأُشعرتِ الإشفاقَ تلكَ المخافِلُ
فأبدَتْ به أبناءُ نجلِكَ أوْجُهًا تَبينُ إلى السّارينَ مِنْها المَجاهِلُ
فلا الحفْلُ مَرْهوبٌ ولا الخطْوُ قاصرٌ ولا السِّربُ مُرْتاعٌ ولا الرَّوعُ هائلُ
ولا القلْبُ مَنخوبٌ ولا الحِلْمُ طائشٌ ولا العقْلُ معقولٌ ولا الفِكرُ ذاهِلُ[41]

لا نعرف تاريخ إعذار الأمير يوسف هذا ولكنه وقع في الغالب وهو دون العاشرة[42].

وكما دوّن يوسف الثالث قصيدة ابن زمرك التي تسجّل أشهر حدثٍ في صباه، فإنه أشار في مقدمة «البقية والمدرك» إلى بعض شيوخه، وأولهم أبو عبد الله الشّريشي وقد وصفه بقوله : «معلّمُنا الثقة المجتهد» وقال فيه في موضع آخر : «الشيخ العمدة معلّم الجُمْلة منّا كتابَ الله وسنّة رسوله ﷺ» وقد ذكر ابن الخطيب الدي ترجم للشريشي في الاحاطة والكتيبة والريحانة أنه تَرَقّى بإشارته «إلى التي لا فوقها من تعليم وَلَدالسلطان والرياسة القرآنية بباب الإمارة والإمامة بالمسجد الجامع من القلعة»[43].

ومن الشيوخ الذين تثقف بهم أميرنا يوسف : أبو محمد عبد الله ابن جزي، وأبو عبد الله محمد بن علي بن علاق، وأبو مهدي ابن الزيات، وهؤلاء هم الذين اقتصر على ذكرهم مضيفا قوله : «وغيرهم».

لقد تلقى الأمير يوسف ثقافة علمية وأدبية متينة كما تدل على ذلك كتاباته وتعليقاته وأشعاره.

ولما توفي الغني بالله سنة 793 هـ (1391 م) خلفه ولي عهده يوسف الثاني والد صاحبنا وكان هذا يومئذ في الخامسة عشرة من عمره تقريبا، وقد رشحه السلطان والده لولاية عهده نظرًا لأنه أكبر أولاده، ولعلمه وأدبه، وكفاءته ومروءته ؛ وغضب أخوه محمد، وهبّ مع بعض أنصاره إلى الحمراء، وتنسب الرواية المسيحية إلى سفير مغربي

(41) المصدر نفسه.

(42) انظر حكاية توسيط يوسف الثاني الوزير ابن الخطيب ليكلم والده الغني بالله في شأن إعذاره «إذ كان قد جاوز سن الاثغار، دون إعذاره نفح الطيب 6 : 27.

(43) الاحاطة 3 : 168.

كان موجودا في القصر دورًا في تهدئة الثائرين وتفرقتهم[44]، ولم تطل مدة يوسف الثاني في الحكم، إذ توفي في 16 ذي القعدة عام 794 هـ (3 أكتوبر 1392)[45]، وأفلح ولده محمد المذكور بالاعتماد على حزبه في الاستيلاء على الملك وإبعاد أخيه إلى سجن شلوبانية حيث ظل معتقلا إلى سنة 810 هـ (1408)، وهكذا أصابته حُرْفَة الأدب الذي كان به حفيا، وبأصحابه معتنيا.

إنّ في ديوان يوسف الثالث قصائد متعددة قالها أيام السجن أو «أيام الوحشة» كما يسمّيها، منها ما هو في رثاء والده، ومنها ما هو في عتاب أخيه، وبعضها الآخر في الحنين إلى غرناطة ومعالمها كنجد والسّبيكة والمُصلّى وغيرها.

فمن النوع الأول قوله من قصيدة :

فإن دمِعَتْ عيناكَ فلتبكِ يوسُفًا ... فَذاكَ بموصولِ المدامعِ أجْدَرُ
إمامٌ له في الصّالحاتِ تقدُّمٌ ... وليس لَهُ في المَعْلُوات تَأَخُّرُ
تولّى فَوَلّى بعدَهُ الأُنسُ وانقَضَى ... فَلاَ أثرٌ إلاّ الأَسَى والتفكُّرُ[46]

وقوله أيضا :

خليلَيّ أينَ الصّبرُ منّا ويوسُفُ ... وأينَ أياديهِ الكريمَةُ تُعْرَفُ
وأينَ ليالٍ بالسَّبيكَةِ نِمْتُها ... ولا مَنْظَرٌ للدّهرِ نحويَ يَطْرِفُ
علَيّ ظِلالٌ مِنْ عنايةِ يوسُفٍ ... ودوني حُسامٌ للخلافةِ مُرْهَفُ
تُباكِرُني تَتْرَى عَوارِفُه ضُحًى ... وَيَنْتابُني تَسْآلُه والتعَرُّفُ
فَلا هِمَّةٌ للقلْبِ فيها تهَمُّمٌ ... ولاَ كُلْفَةٌ للنّفسِ فيها تكلُّفُ
وَحاجاتِ نفْسٍ لَمْ أُراقِبْ مكانَها ... فكانَ لَها مِنْهُ الرّضَى والتّعَطّفُ
لَقَلْبيَ أوْلى أنْ يذوبَ تفطُّرًا ... وعَيْني بِقاني الدَّمْعِ تَهْمي وتَذْرِفُ
تبَلّدَ فِكْري عندَ فَقْدِيَ يوسفًا ... وخامَرَ قَلْبي مِنْهُ ما ليسَ يوصَفُ[47]

(44) نهاية الأندلس : 150.
(45) إسبانيا المسلمة في عهد المرينيين : 122 ونزهة الخاطر والأبصار للنّاهي.
(46) ديوان يوسف الثالث : 67.
(47) المصدر نفسه : 144.

وهو يعاتب أحاه السلطان محمد في مطولته التي مطلعها :

لَعَـلَّ خيـالَ العامِرِيّـةِ يخطُـرُ بأحفـانِ عـانٍ قَـدْ بَـراهُ التَسَتُّـرُ

فيقول :

وقدْ يَحفَظُ المَرْءُ الكَريمُ إخـاءَهُ ويَلْقَى عليْهِ الموتَ والمَوْتُ أَحْمَرُ
ويصبِـرُ لِلأزْمـاتِ صَبْـرَ محافِـظٍ وفـاءً ليَغْنَـى خِدْنُـه وَهْـوَ مُـعْسِرُ
فكَيْفَ بمَنْ أصْفاكُـمُ الـوُدّ كُلَّـهُ ويَدْفَعُ عَنْ أعراضِكم حينَ تذكـر
أبوكُـمْ أبـوهُ دونَ وُدٍّ مضاعَـفٍ وعطْـفٍ على مَـرّ الزمـانِ يُكَـرَّرُ
إذا لَيْلَةٌ بالسُّقْمِ ضافَتْ جُفونَكمْ تبـيتُ لها أكبـادُه تتسَعّـرُ
فَهَبْكُمْ تناسَيْتُمْ ذِمامي فَما الّـذي دعاكُمْ لذاكَ القولِ وهـو مُـزَوّرُ
أأضْمَرْتُـمُ غَـدْرًا لإظْهـارِيَ الْوَفـا وأظْهَرْتُـم ضدًّا لِمـا أنـا أُضْمِـرُ(48)

وهذه المطوّلَةُ تربو على الثمانين بيتا، وهي كما يقول : «من أوليات القصائد التي نظمناها» وقد نفهم من هذا أنّهُ لم يبدأ قول الشعر إلا في السجن وأنّهُ كان من العوامل في تفجير موهبته الشعرية، وعلى كلّ حال، فهو عندما سجن كان في العشرين أو دونها من عمره.

وهو في عتابه يميل إلى اللين حينًا، ويجنح إلى العنف حينا آخر كما في قصيدته :

أعـاذِلُ يَكْفيكَ التطـاولُ بالهَجْـرَ ألا نَفَسٌ يَسْرِي يُنَفِّسُ مـن ضُرّ

وفيها يقول مشيرًا إلى الفرق بين أخلاقه وأخلاق أخيه :

وَمـا غـرّني جهـلٌ ولكـنْ أُبـوّةٌ رعَيْتُ لها حـقَّ المكانَـةِ والبِـرّ
أطارِحُهُ شَجْوي فَيُصْحُ لي شجًـا تَعَرّضُ لي بينَ اللّهاةِ أو النَّحْـرِ
وأوسعتُـهُ حِلْمًـا فظـنَّ بأنّنـي رَهِبْتُ وأنّ الحِلْمَ يَصْدُرُ عَنْ ذعْر
يمُنّ بما يُسْدي كأنْ لِيَ حاجَـةٌ إلَى وُدّه المَمْقوتِ أو خُلْقِه الوَعْرِ
سيُعْلَـمُ مَـنْ مِنّـا يُسِيرّ ندامَـةً إذا وَضَحَ الإصباحُ عَنْ صادِقِ الفَجْرِ

(48) المصدر نفسه : 68.

ومن ذا يُرَى المَفْؤودَ مِنّا إذا غَدا رَهينَ الرّدَى يُقْتادُ بالنّاب والظُّفْرِ
إذا لم يكن للمَرْءِ دينٌ مع النّهى فَلَسْتُ إلَى ذاك الإخاءِ بِمُضْطَرِّ[49]

وله في الحنين قصائد رقيقة، ومنها قصيدته التي يقول فيها مشيرًا إلى سجنه :

فإنْ سُدّتِ الأبوابُ بَيْني وبَيْنَكُمْ ستَقْضي مُنَانَا شَمْأَلٌ وجَنوبُ
فَباللّهِ ياريحَ الجَنُوبِ تأمَّلي أيُلْقَى سَلامِي مِنْ حَبيبي قَبولُ
وإن جُلْتِ بالحَمْراءِ فاقْرَيْ تَحِيّتي دِيارًا خَلَتْ مِنّي فَهُنّ طُلُولُ
وَهُبّي على القَصْرِ الكَبيرِ عَليلَةً فإنّ بِهِ أهْلَ الْحَبيبِ حُلولُ
وَقُولي : غَريبٌ أتْلَفَ الحُبُّ قلْبَهُ لَهُ أنَّةٌ لا تَنْقضِي وَ عَويلُ[50]

ومن ذلك قوله أيْضًا :

إلَى تاجِ السّبيكَةِ فالمُصَلَّى تُغاديكَ الصّبابَةُ والهُيامُ
إلَى سُكْنَى الأُلَى حَلُّوا بنجْدٍ سَقاهُ ــ غيْرَ مُفْسِدِه ــ الغَمامُ
رُبوعٌ عافَها قلبي بكُرْهٍ كَما عافَتْ مواردَها الحَمامُ
تَعافُ بها مُجاورَةَ الأعادي وشاقَتْها المعاهِدُ والخِيامُ
تَقَسَّم جيرتي وصحابَ وُدّي رياضٌ في رُباها أو رِجامُ
ففي أطباقِها أطوادُ عِزٍّ وفي آفاقِها قَمَرٌ تَمامُ
فيا هَلْ يَرْتوي مِنْها صَدائي ويا هلْ يَنْطَفي هدا الأُوامُ
وهَلْ بَعْدَ القطيعةِ مِنْ وِصالٍ وهلْ يُلْفَى لِفُرقتِنا نِظامُ

إلى أن يقول في الَّذِينَ لم يرعوا عهدَهُ :

رَعيْتُ عهودَهم فأُضيعَ عَهْدي فَسِيّانِ الإضاعَةُ والذِّمامُ
كأنّي لَمْ أكُنْ فيهِمْ جَميعًا وتُفْرِدُني التحيّةُ والسّلامُ

(49) المصدر نفسه : 82.
(50) المصدر نفسه : 192.

كأنّي لـمْ أكُـنْ فيهِـمْ وسيطًـا ... ولمْ يَكُ مَحْتدي المَـلِكُ الهُمـامُ
كـدلك دأبُنـا أحْمـي وأُقْـي ... فَـلاَ مـالٌ ولا عِـرْضٌ يُضامُ
«أضاعُـوني وأيَّ فَتًـى أضاعُـوا» ... إذا حَـلّتْ بعِقْوتِهـا الطّغـامُ
«أضاعوني وأيَّ فَتًـى أضاعُـوا» ... لسدّ الثغْـرِ تلْتُـهُ اللّئـامُ
«أضاعُـوني وأيَّ فَتًـى أضاعُـوا» ... كَـنَصْل السّيـف حـذّادٌ حُسامُ
«أضاعـوني وأيَّ فَتًـى أضاعُـوا» ... ليـومٍ يُـرتجى فيـه الجَهـامُ

إن هذا الشعر الذي ضمنه الأمير الأسير همومه وشجونه، يخلو من الاشارة إلى التواريخ والوقائع، ولكننا مع ذلك نستفيد منه أنه كان يتتبّع الأحوال وهو في السجن، فقد هزته فاجعة ابن زمرك ورثاه وهو في السجن، ثم كتب فيما بعد كتابة يوضح فيها ظروف قتله وأسبابه، وممّا جاء فيها قوله : «وإن سأل سائل عن الخبر الذي ألْمَعْنا بذكره، وضمّنّا هذا البيتَ فظيع أمرِه، فذلك عندما نَسَب صاحِب الأمر (يقصد أخاه السلطان محمد السابع) إليه ما راب، وتلّه وابنيْهِ للجبين مُعَفّرينَ بالتراب، وصدمه في جنح الليل والمصحف بين يدَيْه يتوسّلُ بآياته، ويتشفّع بعظيم بركاته، فأخذته السّيوف، وتعاورَتْه الحُتوف، وأذْهَبه سَلِيبا قَتيلا، مُصَيّرًا مِصْراعَ مَنْزِلِهِ كَتيبًا مَهيلا، وكنّا على بُعْدٍ من هذه الآزِفَة التي أورثت القلوبَ شجَنًا طويلاً، وذكّرتنا بعناية مولانا الجد الغني بالله بجانبه أعظمَ ذِكْرى، فأغْرَيْنا برثائه خَلَدًا وفِكْرا»[51].

أما الرثاء الذي أشار إليه فهو قوله :

يَا نائم الجَفْنِ أسْعِفْ دائِمَ السَّهَرِ ... يَبْكي دَمًا لِقتيلِ الصّارِمِ الذَّكَـرِ
كَمْ ذا الرّقادُ وهذا الدّهرُ يفْجَعُنا ... أما تُفيـقُ لِهـذا الحادِث النّكُـرِ
أوْدى الزّمانُ بمَنْ كُنّا نلوذُ بِـهِ ... في حالَتَيْه معًا في العُسْرِ واليُسرِ
فـلاَ تثِقْ بِجُفـونٍ بـانَ ناظِرُهـا ... ولا بمُلْكٍ فقيدِ السّمْعِ والـبَصَرِ
غَمِّضْ جفونَكَ لا تَنْظُرْ إلى أحدٍ ... فليسَ بَعْدَ أُفولِ البدر مِنْ نَظَـرِ
واعْجَبْ من الدّهر والأيّام إذ طَمَسَتْ ... مَطالعَ الزُّهْر أو أخْفَتْ شذا الزَّهَرِ

(51) أزهار الرياض 2 : 13 ونفح الطيب 7 : 164.

هل كان إلاّ حَيًا يَحْيَى العِبادُ بِهِ ... هَلْ كان إلاّ قذًى في عين ذي عَوَرِ
إن قالَ قَوْلاً تَرى الأبْصارَ خاشِعَةً ... لِما يُخَبِّرُ مِن وَحْيٍ ومن خَبَـرِ
أوْ قامَ في مُنْتَدًى أوْ حَلّ فيه حُبًى ... أراكَ حلمَ ابنِ قيسٍ في تُقى عُمَرِ
يا لَهْفَ نَفْسِيَ لَوْ قد كُنْتُ حاصِرَهُ ... غَداةَ جَرَّعهُ أدْهَى مـن الصّبر
لَمـا تَـرَكْتُ لـه شِلْـوًا بمَضْيَعَـةٍ ... ولا تولّى صَريع النّابِ والظُّفُـرِ
فإنْ عَدانِيَ عَنْهُ مَنْ علَيهِ عَـدا ... فلسْتُ أيأسُ أنْ أُدْعَى بمُنْـتصِرِ[52]

ويقول يوسف الثالث في مقدمة البقية والمدرك : «ولمّا تَبَلّج الصّبحُ لِذي عَيْنَيْن، وتَلَقّينا رايَةَ الْفَرَج بالرّاحَتَين، عَطَفْنا على أبنائه عواطِفُ الشّفَقة، وأطلَقْنا لهُم ما عاثَت الأيدي عَليه صِلَةً لرِحمٍ طالَما أضاعَها مَن جَهِلَ الأذِمَّة، وأخْفَرَ عُهود تخَدُّمِهِ لِمَن سَلَفَ من الأئِمّة، وصَرَفنا للبحْث والتفتيش وجوهَ آمالِنا، وجعَلْنا ضَمّ ما نثرتْه الحوادثُ من منظوماته مِنْ أكيد أعمالِنا، وكانَ تعلّق مِنْهُ بمحفوظنا جملة وافرة من كلامه، مشتملة على ما راقَ وحَسُنَ من نِثارِهِ ونِظامه، فأضفْنا إلى ذلكَ ما وقعَ عليه اجتهادُنا مِنْ رِقاعه الْحائِلَة المُنْتَهَبة بأيْدي النّوائب، الدائرَة المسْتَلَبة بتَعدّي النّواهِب»[53].

إن اعتناءَ يوسف الثالث برثاء ابن رمرك، واهتمامَهُ بجمع تراثه، وعَمَلَهُ عَلَى إرضاءِ أولاده وأودّائِه، وإرغامَهُ خصومَه وأعْداءَهُ على تأبينه ورثائِه، هُو إمّا مراعاةٌ لروابط أدبية، أو مجازاة على مواقف سياسية، ولا نستبعد أن يكون ما حدثَ لابن زمرك كان بسبب تعاطفه مع الأمير المعتقل أو دعوته إلى تحريره من السجن.

ومهما يكن الأمر فقد حضرت «العناية الإلهية» وظهرت «الالطاف الخفية» فاستقل من «الخَطْب الكبير» كما يقول، وذلك بوفاة محمّد السابع في 16 دي الحجّة 810 (13 ماي 1408). وكان هذا قد أمر، وهو في النزع، بقتل أخيه المعتقل، ولما وصل الأمر إلى قائد القلعة صادف الحال أنه كان يلعب التسطرنج مع الأمير، فطلب هذا تأخير التنفيذ إلى إكمال اللعب، وهكذا ربح وقتًا مكّنَ أنصارَه من الإسراع إلى اخراجه من

(52) ديوان يوسف الثالث : 75 ونفح الطيب 7 · 164 وأزهار الرياض 2 : 13.
(53) نفح الطيب 7 : 164 وأزهار الرياض 2 : 13 — 14.

السجن وإحضاره إلى الحمراء، حيث «تولّى الملك يوم الأحد السادس عشر لذي حجّة عام عشرة وثمانمائة»(54).

وهكذا اعتلى عرش غرناطة يوسف الثالث الذي كان ــ قبل أخيه ــ أحقّ به، بعد سجن طويل، وعاد، بَعْدَ طَرْدٍ وَإبْعاد، وهو ينشد من قطعة له :

[ثُمّ] عُدْنا، والعودُ أحمدُ، لَكِنْ إنْ أساءوا فإنّنا مُحْسِنونا

وقد ابتهج الناس بعودته، وأقبلوا على مُبايعته، يتقدّمَهُمْ علماء الحضرة الذين كانوا يهتفون به لغزير علمه، ورفيع أدبه، وشريف خلاله، ونبيل شهامته.

وتبارَى الشعراء في مدحه وتهنئته بقصائد نحدها في مخطوط «مظهر النور الباصر»، وأولهم «الوزير الرئيس أبو بكر بن عاصم» وهو الفقيد المعروف صاحب «التحفة» و«الحدائق» وغيرهما من المؤلفات، وقد سبق لَهُ أن خلَف ابن رمرك في الوزارة ليوسف الثاني، ولكنّه تخلّى عنها بعد أن اغتصب محمّد السّابع حقّ أخيه ولي العهد يوسف الثالث(55).

ومن هؤلاء الشعراء أبو يحيى ابن عاصم ولد المذكور آنفًا ومؤلف «جنّة الرّضَى» و«الروض الأريض» و«شرح التحفة» ورجل الدولة خلال الأحداث التي وقعت بعد عهد يوسف الثالث.

ــ ومنهم عم هذا الأخير وسميه أبو يحيى ابن عاصم شهيد أنتقيرة.

ــ والشيخ أبو جعفر أحمد بن فركون الذي دخل في خدمة الدولة النصرية مُنْذُ أواخر عهد الغني بالله.

ــ وولده أبو الحسين صاحب هذا الديوان، وجامع «مظهر النّور الباصر».

ــ والشريف أبو العباس الحسني ولد قاضي الجماعة أبي القاسم شارح مقصورة حازم.

ــ وأبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن هذيل مؤلف كتاب «تحفة الأنفس، وشعار سكان الأندلس» وغيره، وقد ألّفه برسم محمد السّابع، وأطنب في الدعاء له في المقدمة

---

(54) ورد هذا التاريخ في رخامة قبره؛ أما قصة الشطرنج فهي مذكورة في المصادر المسيحية.

(55) مقالة لويس سيكودي لوثيا حول أسرة بني عاصم.

والخاتمة، ومع ذلك فقد رفع أكثر من قصيدة إلى السلطان الجديد، وهو يشكو في إحدى قصائده من الإقصاء والإهمال (بسبب ما ذُكر غالبا) :

فَعَبْدُكَ يا مَوْلايَ أقصاهُ دَهْرُهُ وأهملَه إذْ ظَلّ بالأرضِ يُلصقُ

وبلغ به الإملاق مبلغًا جعلَهُ يقول :

وزنْبيلي المثقوبُ ما فيه مُسْكةٌ وأنّى لَهُ الإمساكُ وهْوَ مُمَزّق

ويقول إنّهُ يقبل أي وظيفة مدنية كانت أم عسكرية :

فإنْ لمْ يكُنْ في الاشتعالِ ولايةٌ فإنّي أصيلٌ في القيادةِ مُعْرِقُ
ومازلتُ في هذا وذاكَ مُسَخّرًا ومُسْتَعْمَلاً في حيثُ أسْمو وأسْمُقُ[56]

ـ والفقيه الخطيب أبو عثمان سَعْد بن يوسف الأُلْيُري، ويبدو من شعره أن بضاعته في الأدب مُزْجاة، ولكنه كان أثيرًا لدى يوسف الثالث، خفيفًا على قلبه، وبينهما مداعبات نثرية وشعرية وردت في ديوان السلطان الشاعر[57] الذي كانت له عناية بخطباء حضرته عامة، وخطيب الحمراء أبي عثمان خاصّة، ونفهم سِرّها من قوله يخاطب «أودّاءه الخطباء وهو مخيّمٌ على جبل الفتح» (جبل طارق) :

فيا خُطباءَ المِنْبَرين بحَضْرتي حِماكُمْ يُناجيني بمَحْضِ وِدادِهِ
دُعاؤكُمْ في اليَوْمِ يَنْصُرُ عَبْدَهُ ويَجْزِيهِ بالفردَوْسِ يَوْمَ مَعادِه
وَكونوا لفَتْح المُبْهَماتِ وَسيلَةٌ لسامِعِ نَجْوى حَيِّهِ وجَمادِهِ[58]

وخاطب أبا عثمان بقصيدة مَهّد لها بقوله : «وَمِنْ عِنايتنا بخَطيب حَمْرائِنا أنْ خاطيناهُ مِنْ ظاهِرِ جَبَلِ الفَتْحِ وَقَدْ وجّهَ إلينا منظومًا فنظَمْنا ما نَصُّه» وفيها يقول :

إذا ما ارْتَقَى ذِرْوَةَ المِنْبَرَيْن تَرَفّعَ عَنْ خطإٍ أوْ خَطَلْ
وأنّى يُضاهَى يراعٌ لَهُ إذا جالَ حَوْلَةَ شَهْمٍ بَطَلْ
أفادَ الكثيرَ وأهْدَى الخَطيرَ فلم يُبْقِ لِلْغَيْر إلاّ الأقَلّ

(56) مظهر النور الباصر : 143.
(57) ديوان يوسف الثالث : 13، 41، 104 ولأبي عثمان الأليري ترجمة في برنامج المحاري : 147.
(58) نفسه : 49.

فيا مَنْ أعادَ وأبدى الجَميلَ حديثُك تَرْدادُه لا يُمَلّ
دُعاؤُك أنْفَسُ ما يُقْتَنَى لِحِزْبِ أقامَ وَرَكْبٍ رَحَلْ[59]

— ومن هؤلاء الذين رفعوا قصائد إلى النّاصر الشاعر الكاتب الفقيه أبو عبد الله محمد بن إسحاق المعروف بالشرّان صاحب المظومة المشهورة في الفرائض[60].

— ومنهم أبو القاسم بن حاتم المالقي[61] الذي عيّنه السلطان قاضيا لجبل الفتح، وأبو زكرياء يحيى بن أحمد السراج الرندي، ولهما قصّة مع الدولة سنذكرها فيما بعد.

وثمة أعلام آخرون من المشاركين في هذه الأمداح لم نقف لهم على ترْجمَة، وهم أبو القاسم بن سالم المالقي، وأبو الحسن الغافقي، وأبو القاسم العرادي[61م]، وأبو عامر بن أبي منصور الحسيني.

إن مدائح هؤلاء الشعراء تصوّر ابتهاج الأندلسيين برجوع الحق إلى نصابه، وعودة الأمر إلى مستحقه، يقول أبو زكريا يحيى بن أحمد بن السراج الرندي :

لمّا تولّى الأمْرَ وهْوَ حقيقةٌ نِعْمَ الأحَقُّ بِهِ وأكرمُ أهلِهِ
وَجَبَ الهَناءُ على العَبيدِ بمَنْ إذا بَخِلَ الغَمامُ أتى بِهِ في سَجْلِهِ
جاءَ الوفودُ مُبايعينَ إمامَهُمْ مُسْتَمْسِكين بحِلْمِهِ وبِعَدْلِهِ
وأتَى العَبيدُ مُهنّئين وكُلُّهُمْ قَدْ فازَ مِنْ حظِّ السّرورِ بكُلِّهِ

---

(59) نفسه : 103.

(60) ترجمة الشراد في نيل الابتهاج : 311 وأزهار الرياض 1 : 133 وقد أصبح رئيس الكتاب بعد عهد يوسف الثالث، ووالده «الشيخ الفاضل الماجد الأرفع الاعز الأوْحَد أبو إسحاق» كما وصفه بعضهم، وفي احدى القصائد التي مدح بها الشراد يوسف الثالث يراه يشكره ويتوسط لوالده المذكور قائلا (مظهر النور : 160) :

لَقَدْ رِشتمُ في الحاهِ سَهْمِي فانّـرى لأنعَـدِ نَهْـحٍ مِـنْ مَرامـي رابِيـا
وإنّ أبي أرْجـوكَ فيـهِ فطالَمـا وَصَلْتَ بأسْبـابِ اقْتِرَاحِـي راجِيـا
يقولُ بلَغْتُ القَصْدَ يوم عَدَوت مِـنْ مَقـامِ ابـن نصرٍ لانْفِراحـي راحيـا

(61) نقل عنه ابن الازرق في كتابه روضة الاعلام وقال في تحليته : الشيخ الفقيه الاديب البارع أبو القاسم محمد بن أحمد بن عبد الله بن حاتم العاملي المالقي الشهير بابن السّاء روضة الاعلام : 395 مخطوط خ.ع.ر.

(61م) من أسرة عرناطية كان أفرادها أسماء العطارين. انظر الاحاطة 2 : 276.

حلُّوا بساحةِ بابِهِ فَحميعُهُمْ ما عاش يَحْمَدُ حُسْنَ عُقْبى حَلِّهِ
فلتهْنِإِ الدّنْيا ويَهْنأْ أهلُها بِحُلولِ ميقاتِ الظُّهورِ وفَضْلِهِ
صُنْعٌ مِن اللهِ العَظيمِ تبلّجَتْ صُبْحًا يَروقُ سَنًى عجائب فِعْلِهِ[62]

وهي تسهب في الثناء على الملك الجديد، وتطنب في تعداد خلاله وخصاله، وتشير إلى الآمال المعقودة عليه.

كان الملك يوسف الثالث ـــ غداة مبايعته ـــ في الثانية والثلاثين من عمره، وقد قضى حوالي نصفها في سجن شلوبانية، ويبدو أنّه لم يتزوج إلا بعد خروجه من السجن وتوليه الملك، وفي ديوانه أشعارٌ قالها أيام اعتقاله في الحنين والتعزل، وفيها يذكر بعض الأسماء، ومنها اسم إلينورا الأعجمي، ولكن يبدو أنها مجرد أسماء رمزية، وهو يصرح أن تغزله على سبيل المجاز لا الحقيقة، وينبغي أن يكون زواجه وقع في السنة الأولى من حكمه أي في حلال سنة 811 هـ، ولشاعر البلاط ابن فركون قصيدة فَخْمَة مهّد لها بقوله : «وأنشدتُ في إمْلاكِهِ أيَدَ اللهُ مَقامَه، معَ بِنْت الْقائِد المَرْحوم أبي يَزيد خالد مَوْلَى النِّعْمَة النَّصْرية، بالرِّياض السّعيد، وقد اسْتَدْعى أشْرافَ أهْلِ الأنْدلس لذلك، وتَضمّنَتْ كثيرًا مِنْ وَصْف الْحال»[63]. ومطلع القصيدة :

ما لِلرّكائبِ لاَ تُجِلّ حِلالَها وتُطيلُ في تلْكَ الرُّبوعِ سُؤالَها

وفيها يذكر الصّنيع الذي أقامه الملك بهذه المناسبة :

هذا وقَدْ وافَى صَنيعُكَ لِلْوَرى فَمواهبَ الصُّنعِ الجميلِ أنالَها

ويصف الاحتفالات الشعبية بهذه المناسبة، على نحو ما وصفها ابن الخطيب وابن زمرك قبله :

هذِي السَّبيكَةُ مَلْعبُ الخيلِ الّتي أَلْقَتْ بأفئدةِ العُداة خَبالَها
إنْ جُرّدتْ بيضُ السّيوفِ لغارةٍ لَبِسَتْ مِن النّقْع المُثارِ جِلالَها
فإذا المواكِبُ في مَداها اسْتَشْرَفَتْ ماللّكواكبِ في السّماءِ ومالَها
يا حُسْنَهُ خَطَبًا ويا عَجَبًا إذا جالَتْ بِهِ خيْلُ السّباقِ مَجالَها

(62) مطهر النور الناصر : 152.
(63) الديوان : 11

وقد خصّص الشاعر قسمًا من هذه القصيدة للحديث عن وفود بني مرين الذين قدموا إلى غرناطة بهذه المناسبة، قال :

وبَنـو مَريـن والتّحلّـةُ شأنُهـا أنْـدَتْ لَـديْكَ وفودُهـا إحْلالَهـا
أهْلاً بهِمْ مِنْ وافدينَ رِكابُهُمْ حطّت بِمَثْواكَ الكَريمِ رِحالَهـا
قـدْ أقْبلـوا مُتَيَمِّـنِين بدَوْلَـةٍ أحْرانَهـا نَصَرَ الإلَـهُ وَآلَهـا

ويبدو أن يوسف الثالث احتفل بالمناسبة نفسها بإمْلاك أخيه علي، وهذا ما يفهم من قول الشاعر :

واهْنأْ بِهِ إمْلاكَ عِزٍّ لم تَـزَلْ تَنْغي سُعودُكَ نَحْـوَهُ إقْبالَهـا
وَلْيَهْـنِ تالِـيكَ الّـذي أوْلَيْتَـهُ مِنْ أنْعُمٍ مَدَّتْ عليْهِ ظِلالَهـا
حَتّى تُجَرّدَ في رِضاكَ صِفاحَهـا يَدُهُ وترسِلَ في الوَغى آسالَهـا

إذ أنّ تالي السلطان هو أخوه معز الدولة كما يصرّح بذلك الشاعر في قصيدة أخرى إذ يقول (الديوان : 81) :

ورَفَعْتَ قَدْرَ أخيكَ تاليكَ الرِّضَى قُطْبِ الرَّحَى الأهْدَى أبي حَسَنٍ عَلِي

أما أبو يزيد خالد الذي تزوج السلطان بنته، وترحم عليه الشاعر، فقد خدم الغني بالله[64]، وكان وزيرًا لوالد السلطان، ثم قتله في ظروف ذكرها صاحب «الاستقصا»[65] وغيره، وهو من علوج النصارى الذين سُبوا وأسلموا، ثم أصبحوا قادة في الجيش وحجّابا، مثل القائد رضوان النصري، والقائد مفرج، والقائد بنّيغش، وغيرهم.

وفي عام 812 هـ رُزِقَ السلطان ببكر أولاده، وسمع أبو الحسين ابن فركون بالخبر، وهو بسقيفة الكتاب، فارتجل قصيدة قصيرة صدّرها بقوله : «ولمّا وُلِدَ لمولانا أيّدَه الله بِكْرُ أولادِه الذي استَأْثَر الله به ثانيَ يوْمٍ منْ عَقيقتِه، وكانَ مِنْ بنت القائد المعَظّم

(64) انظر قصيدة ابن رمرك التي هنأ فيها العربي بالله بمناسبة عودة القائد خالد من تلمسان في أزهار الرياض 2 : 40

(65) الاستقصا 4 : 81.

المرحوم أبي يريد خالِد مَوْلَى نِعْمَتِهم الكَريمة في آخر مُحَرّم عامَ اثنَيْ عشَرَ وثماني مائة ارتجلْتُ بسَقيفة الكُتّاب ساعةَ الإخْبارِ به :

هنيئًا بِهِ منْ عالَم الكَوْنِ وافِـدا وقدْ بلغَ الإسلامُ فيه المَقاصِدا»[66]

وقد احتفل السلطان بعقيقة المولود حسب العادة المتّبَعَة وسَمّاه يوسف باسمه واسم أبيه، «وفي يوم المَوْسم المشهود، وإجْراءِ عوائِد الكرم والجود، وعقيقة هذا المولود..» قام عدد من الاعلام بإنشادِ قصائدهم في المناسبة، يتقدّمهم الوزير الرئيس أبو بكر بن عاصم، والشريف المعظم أبو العباس الحسني، والشيخ القاضي أحمد بن فركون القرتبي، والفقيه الوزير أبو محمد بن مَليح، والقائد أبو يحيى ابن الوزير الرئيس أبي بكر بن عاصم والفقيه أبو الحسن بن هديل، والكاتب أبو عبد الله الشرّان، والشاعر الكاتب أبو الحسين ابن فركون الذي قدّم لقصيدته في الديوان بقوله : «وأنشدت يومَ عقيقتِه السّادسَ لصَفَر عامَ اثنَيْ عَشَرَ وثماني مائة»[67] وهي موجودة أيضا في «مظهر النور الباصر» مع قصائد المذكورين، وكلها تطنب في وصف مستقبل الأمير، وتدعوه بولي العهد، وقد شاء الله أن تموت والدة هذا المولود، إثر ولادته، وأن يَلْحَق بها بعد الاحتفال بعقيقته، فتفجّع السّلطان، وأكثر من الرثاء، «ووفى لعَهْد السَّكَنِ الكريم حقَّ الوفاء»، وحاءَ من أجل مُصابه في ولده «مما لا يحصيه القولُ من الإبداع ولا يحُدّه»[68] وتوجد هذه المراثي في ديوان الملك الشاعر، وفي «مظهر النور الباصر» وفي ديوان أبي الحسين ابن فركون.

وكان السلطان الناصر قد تزوج ـــ بعد زواجه من بنت أبي يريد خالد على ما يبدو ـــ ببنت قائد آخر كان له ولأولاده فيما بعد ذكر في مملكة عرناطة، وهو القائد أبو السرور مفرج[69]، وهذا ما تدلّ عليه مقدمة قصيدة لأبي الحسين ابن فركون في

(66) الديوان : 22.

(67) الديوان . 23.

(68) مظهر النور الباصر : 64.

(69) انظر رسماً نشره لويس سيكودي لوثيا في مجلة الاندلس 1946 يتعلق بوفاة زهر الرياض بنت أبي السرور مفرج المذكور وزوج السلطان محمد التاسع الملقب بالغالب بالله وكانت وفاتها عام 835 هـ ويفهم من الرسم أنها كانت متزوجة قبله فهل تكون هي أرملة يوسف الثالث هذه أم أنها أخت لها، وفي حنة الرصى ذكر للقائد مفرج بن فتوح الذي كان مكين الخطوه عند محمد التاسع المذكور، وفي النقوش العربية الاندلسية لليفي بروفنسال (ص 174) رخامة القائد أبي النعيم رضوان بن القائد ابي النصر فتوح بن القائد ابي النصر فتوح بن القائد أبي السرور مفرج، وانظر الاخبار التي أشار اليها سيكودي لوثيا حول أسرة مفرج في المصدر أعلاه

المناسبة تقول : «وأنشدتُ في إمْلاكه أيّدهُ الله ونصَره، ودُخولِه ببنْتِ القائد الوَحيه أني السُّرور مُفَرّح مَوْلى بِعْمته الكريمة، وقد استْدْعى وُفود أهْلِ البلاد النّصرية لحضُور هده الوَليمة بالرّياض السّعيد»[70].

ونجد بعد القصيدة التي ذكرنا مقدمتها قصيدة أخرى هذه مقدمتها : «وقلت أهَنّيءُ مَقامه الكريم، ببنْتٍ وُلِدَتْ له، على إثْر وفاة مَوْلود، وبتاريخ يوم السبت الثامنِ لرَجَب عامَ اثنيْ عشَر وثماني مائة»[71].

ولابدّ أن بنت السلطان هذه هي من زوجه بنت القائد مفرج، أما الولد المشار إليه فأعلب الظن أنه يوسف البكر المتقدّم الذكر.

ثم وُلِد للسلطان ولدُه محمّد الدي سيصبح ولي العهد، ويخلف والده في الملك[72]. وعندما كان السلطان بمالقة في ربيع الأول عام 814 هـ جاءهُ البشير بميلاد ولده أبي الحسن علي الدي سُمّي باسم عمّه الأثير عند أخيه السلطان، وقد نظم الشاعر قصيدة بهذه المناسبة، قدم لها بقوله : «وقلتُ مُهنّئًا مقامَه الكريم بولادة السّيّد الأمير أبي الحسن أصْغَرِ وَلَدَيْه الآن، وصلَ الله سعادته، وفي ربيع الأول عام أربعة عشر وثماني مائة وصلَ التعريفُ به من الحَضْرة، والرِّكابُ العَلِيُّ بمالَقة»[73]. ووُلِد للسلطانِ بعد هذا ولدٌ آخر سُمّي باسم عبد الله، وقد نظم الشاعر قصيدة في التهنئة به جاء في تقديمها : «وفي الموفي ثلاثينَ لِرَجَب عامَ ثمانية عشرَ وثمانِ مائة المذكور، وُلِدَ لهُ وَلَدُه عبدُ الله، الذي استأثَر الله به، بعد ذلك بيسير، زمَن الوَباء، فقلت في الهَناء بذلك، مرتجلاً من غير روية»[74].

وفي هذه السنة احتفل السلطان احتفالا كبيرًا جمع فيه بين عقيقةٍ وإعذارٍ وولاية عهد، ونظم الشاعر قصيدة مطولة تشتمل على 136 بيتا، وذكر المناسبة على عادته قائلاً :

«وفي العَشْر الأُخَر لشَهْرِ شَعْبان عامَ ثمانية عشر وثمانِمائَة، احْتَفلَ في عَقيقَة ولِده

(70) الديوان : 27.

(71) الديوان : 30.

(72) الديوان : 59 ــ 60 ولم ترد إشارة الى تاريخ ميلاده.

(73) الديوان : 61.

(74) الديوان : 214

عبْد الله، وإعْذار أخَويْه، وعقْد البيْعة لِوَلِيّ عهْده، متولّي الأمرِ بعْده، أيّده الله، وأنْعَمَ على الخاصّة والعامّة بما قَدُمَ العَهدُ بمِثْله، واستدْعى لذلك أكابِرَ أهْلِ البلاد النّصْرية، وآثَرَهُمْ برَفيع الثّياب، وفاخِر الكُسا، ونَظَمَ خُدّامُ بابه منَ الشّعراء في ذلك قَصائد، فأُنشدت بقُبّة الرّياض قصيدةٌ أُعْجِبَ بها رَحْمَةُ الله ورضْوانُهُ علَيْه»[75].

وفي هذه القصيدة نرى ابن فركون يصف هذه الألعاب التي وصفها قبله ابن زمرك في إعدارياته، فابن زمرك يبدأ وصفه بقوله :

وصاعِدَةٍ في الجَوّ مِلْءَ عِنانِها تُسامِتُ أعْنانَ السّما وَتَطولُ[76]

وابن فركون يفتتحه بقوله :

وصاعِدَةٍ في الجَوّ أُلْقَتْ ديولَها فَراقَ بآفاقِ السّحابِ انْسحابُها

يذكر الشاعر أن هذا الاحتفال «قَدُمَ العَهْدُ بمثله»، ولعله يشير إلى احتفالات العمي بالله بميلاد أولاده وأحفاده، تلك الاحتفالات التي سجّلها ابن زمرك في قصائدَ جمعها يوسف الثالث، وقد كان حفيد الغني بالله هذا يتشبّه بجدّه في عوائده، ويقتدي به في سياسته الدّاخلية والخارجية كما يقول أبو جعفر ابن فركون :

تَشبّهَ بالجَدِّ الرّفيعِ مَقامُهُ فأعْظِمْ بِهِ عَزْمًا وأحْسِنْ بِهِ هَدْيا[77]

وكما احتفل يوسف في مناسبات أولاده وجدناه يحتفل أيضا في مناسبات أخَويْه، فقد احتفل بإملاك أحويه : أبي الحسن علي الملقب بمعز الدولة، وأبي العباس أحمد، وفي «مظهر النور الباصر» قطعة رفعها الفقيه القاضي أبو القاسم بن حاتم قاضي جبل طارق إلى السلطان، بمناسبة إملاك أخيه الأمير أحمد يقول فيها :

مَدَدُ البَحْرِ للْجداولِ فاضَا مَلأ الصّنْوُ مِنْ نَداكُمْ حِياضَا
إنّ أرْضَ السُّرورِ كانتْ مَوَاتًا فاستقامتْ بكُمْ وعادَتْ رِيَاضَا
مَلِكٌ جَدّ في مِلاكِ أخيهِ فتناهى عَلاؤُهُ واسْتَفاضَا

(75) الديوان : 216.

(76) أزهار الرياض 2 : 77 وهذه الالعاب الموصوفة نوع من الاراجيح أو المواعير التي كانت شائعة عندنا الى عهد قريب.

(77) مظهر النور الباصر : 86.

إنّ يوْمًا تـأسّسَ العَقْـدُ فيـهِ مِنْـهُ يَسْتَنْبِـطُ النّهـارُ البيـاضَا
ليْسَ بِدْعًا مِنْ يوسُفٍ أنْ تَـراهُ قـادَ لِلإحـوةِ الأمـاني ورَاضَا
هُوَ أجْرى لهُـمْ عيـونَ التحَفّـي بعْدَ ما كاد فيضُها قـدْ عـاضَا[78]

ونجد بعض الشعراء يذكرون اسميهما في المدائح السلطانية، يقول أبو جعفر ابن فركون :

وعلِيُّهـا السّامـي العَـلاءِ وأحْمَـدٌ يَسْتقبِـلانِ العِـزّ مـن سُلْطانِهـا[79]

وقد كسب يوسف الثالث بهذا محبّة أخويه، وطاعتهما وإعزازهما لدولته، ولم يقع في عهده ما سيقع في العهود التالية من تناحر على الملك بين الاخوة والأقارب[80]. وكان ليوسف تعلق شديد بأخيه علي الملقب بمعزّ الدولة، فعندما توفي هذا رثاه الملك بعددٍ من المراثي التي تذوب كمدا وحسرة[81].

كان يوسف الثالث يحافظ على أبّهة الملك، ويعتني بإقامة رسومه المعهودة، ويحتفل بعيد الفطر وعيد الأضحى بما جرت به العادة، من استقبال رجال الدولة، وإطعامهم وإكرامهم، وتقبل البيعة المجدّدة منهم، والاستماع إلى الشعراء، ويحتوي «مظهر النور الباصر» على القصائد التي أنشدت بين يدي السلطان بمناسبة عيد الأضحى لعام 811 هـ، كما يشتمل ديوان أبي الحسين ابن فركون هذا على العيديات التي نظمها طوال عهد يوسف الثالث في أعياد السنوات الآتية :

ـــ عيد الفطر عام 811 هـ بغرناطة[82].

ـــ عيد الأضحى عام 811 هـ بغرناطة[83]

---

(78) الديوان : 134.

(79) الديوان . 41.

(80) في المصادر المسيحية أنه سجن ولد عمه محمد بن نصر في شلوبانية، وهذا هو الذي سيتمكن فيما بعد من الخروج من السجن ويترع الملك من محمد ولد يوسف الثالث ويتلقّب بالعالب بالله، وهو الذي ألف في حقه ابن عاصم كتابه جنة الرضى.

(81) انظر هذه المراثي في ديوان ص 106 و ص 139 و ص 167 و ص 169.

(82) الديوان 75.

(83) نفسه : 78

ـــ عيد الفطر عام 812 هـ بغرناطة[84]

ـــ عيد الأضحى عام 812 هـ بغرناطة[85]

ـــ عيد الفطر عام 813 هـ بمالقة[86]

ـــ عيد الأضحى عام 813 هـ بجبل طارق[87]

ـــ عيد الفطر عام 814 هـ بغرناطة[88]

ـــ عيد الأضحى عام 814 هـ بجبل طارق[89]

ـــ عيد الفطر عام 815 هـ بمالقة[90]

ـــ عيد الأضحى عام 815 هـ بغرناطة[91]

ـــ عيد الفطر عام 816 هـ بغرناطة[92]

ـــ عيد الأضحى عام 816 هـ بغرناطة[93]

ـــ عيد الفطر عام 817 هـ بغرناطة[94]

ـــ عيد الأضحى عام 817 هـ بغرناطة[95]

ـــ عيد الفطر عام 818 هـ بغرناطة[96]

---

(84) نفسه : 41، 80.

(85) نفسه : 82.

(86) نفسه : 84.

(87) نفسه : 87

(88) نفسه : 90

(89) نفسه : 93.

(90) نفسه 96.

(91) نفسه 99.

(92) نفسه 102.

(93) نفسه : 206.

(94) نفسه : 110 ـــ 112.

(95) نفسه : 113.

(96) نفسه : 238.

ـــ عيد الأضحى عام 818 هـ بمالقة[97]

ـــ عيد الفطر عام 819 هـ بغرناطة[98]

ـــ عيد الأضحى عام 819 هـ بغرناطة[99]

وتشتمل قصائد الشاعر التي نظمها بهذه المناسبات على إشارات إلى وقائع وأحداث سنذكرها فيما بعد.

وفي هذه الأعياد، كما في مناسبات العقيقة والإعذار التي أشرنا إليها فيما سبق، كان يوسف الثالث، يعتني على الخصوص بتوجيه الدعوة إلى أعضاء المجلس العلمي بغرناطة، جاء في ديوانه ما يلي : «ووَجّهها ارتجالاً إلى مجْلسِ عُلماء حَضْرتِنا في وَليمَةٍ شَرْعيّة، اتخذنا صَنيعها بالرّياض منْ قُصورِنا، على مااقتَضتْه عِنايتُنا بمَجْلِسِهِمْ، وتَحفّينا بالمزيد منْ تأنُّسِهِمْ :

يوْمُـــا يـــوْمُ صبـــاحٍ مُشْرِقِ ... فَأجيبُـوا يَـــا نُجُـــومَ الأُفُـــقِ

يوسُفِيًّـــا قـــدْ أقـــامَ سُنّـــةً ... نُظِـــمَتْ أشْرافُهـــا في نَسَقِ

في رِيـــاضٍ حُسْنُهـــا مُتَجـــدِّ ... شائِـعٌ في مَغْـــرِبٍ أو مَشْرِق

وأنَـــا يوسُفُهـــا مِـــن دَوْلَـــةٍ ... أُطْلِـعُ الأنْجُـــمَ مِـــلْءَ الحَـــدَقِ

بيْـــنَ أبطـــالِ جِهـــادٍ تَمْتَطِـــي ... لِلْوَغـــى غُـــرَّ الجيـــادِ السُّبّـــقِ

ووُفـودُ المُـلْكِ قـدْ حَفّـوا بـهِ ... دُرَرَ العِقْـــدِ وتـــاجَ المَفْـــرِقِ

بَـذَلَتْ يُمْنـايَ مـا شاءَ النّـدَى ... وعَلَـــى اللّـــهِ جَـــزاءُ المُنْفِـــقِ

هـذه ـــ يـومَ احتفـال المُنْتَـــدَى ... يا حُماةَ الدّينِ ـــ أسنى حُلُقِي»[100]

وهذه القطعة أشبه ما تكون بلوحة تمثّل الحفل الذي دعا إليه الملك بمناسبة عقيقة أول مولود له عام 811 هـ، وكان صاح العقيقة مشرقا في ذلك «الرياض» العجيب

---

(97) نفسه : 242.

(98) نفسه : 245.

(99) نفسه : 249

(100) ديوان يوسف الثالث 148 ومطهر النور : 9.

من قصور الحمراء، وكان الملك يتوسط المدعوين، وقد حف به قادة الجيش ورجال الدولة، وهو ينثر الهبات على الحاضرين.

2 ــ شخصيته وسيرته :

يُجْمِعُ الشّعراء الذين مدحوا يوسف الثالث على وصف جمال هيئته، وبهاء طلعته، ويذكرون أن اسمه وافق مسماه، وأنه كان بدري الوجه.

وقد ارتجل الشيخ أبو جعفر ابن فركون عندما رآه :

تجلّى مُحَيّاكَ الكَريمُ بِهالَةٍ ... مِنَ القُبّة العَرّاءِ في أبْدَع الحُلا
تَرفّعْ يا مَوْلايَ وجْهُكَ عِنْدَها ... فما زادَكَ التّرفيعُ إلاّ تَهلُّلا
فَلَمْ أُلْقَ نورَ الشّمْس إلا تَمثّلاً ... ولا قَمَرَ العَلْياءِ إلاّ تَخَيّلا
ولَمْ أمْلِكِ النّفْسَ المَشوقَةَ عِنْدَما ... رَأتْكَ رؤوفًا مُنْعِمًا مُتَفَضّلا
ولَوْلاَ حَيائي مِنْكَ أَلْقَيْتُ في الثّرى ... بِوَجْهي ولَمْ أبْرَحْ لَدَيْكَ مُقَبّلا[101]

كما ارتجل الشريف أبو العباس الحسني في مثل هذا الموقف :

أقولُ وقد أبصَرْتُ مَوْلايَ جالسًا ... بكُرسِيّهِ، والنُّورُ مِنْ حوْلِهِ ائْتَلَقْ :
تبَارَكَ رَبّي بارِئُ الخَلْقِ كُلِّهِمْ ... وإنّ الذي أبْصَرْتُ أحْسَنُ ما خَلَقْ
فَعَوَّذْتُ بالسَّبْعِ المثاني كَمالَهُ ... وَزِدْتُ لَها الإخْلاَصَ مَع سورة الفَلَقْ

وقد علّق السلطان أحمد المنصور الذهبي على هذا في النسخة الخطية التي كانت مِلْكًا له بقوله : «لايبغي لعاقل ان يخرج من فيه، مثل هذا القول السفيه»[102].

وأما من حيث شخصيته وأخلاقه، فالمستفاد من شعره، ومن وصف المصادر المسيحية له أيضًا، أنه كان فارسًا نبيلا، مولَعا بركوب الخيل والقنص، وكانَ سياسيا ماهرًا، يميل إلى الرفق بالرعية، ويأخذ بالعفو والصفح، ولو أنه يقول «من باب المداعبة» حسب عبارتِهِ :

---

(101) المطهر : 89.

(102) نفسه : 145.

لايغُرنْكَ مـنْ طاعـي سُكـونٌ ومُحيَّـا يَجـولُ فيـه العَفـافُ
أنـا كالصِّلِّ إنْ لـمَسْت فَلِيـنٌ وهْـو سُمٌّ مَتَـى أُهيـجَ ذُعَـافُ[103]

وكان ـــ كما رأينا ـــ مثلاً فريدًا في البرور بأحويه وأقاربه، حريصًا على الاعتناء بالعلماء والخطباء، وقادة الجند، ورجال الدولة.

وقد أشرنا فيما سبق إلى عنايته بخطباء الحضرة، وعلى رأسهم الخطيب أبو عثمان الأُلْيُري، وذلك لما كان لهم من تأثير على الجمهور. أما التفاتاته إلى الجند وقادته فيشير إليها أبو جعفر ابن فركون في إحدى مدائحه قائلاً :

وللّـهِ في يـوْمِ السّلامِ التفاتَـةٌ إلى جُنْدِهِ تُنْسي رَشيدًا ومَهْدِيّا[104]

ومن محاطات الاعتناء برجال دولته قوله فيمن اسمُه أبو عثمان سعيد ـــ ولعله سفيره سعيد الأمين ـــ :

واشْكُرْ سَعيدًا لِمَا أوْلَى ومَنْ كأبي عُثمانَ إذ حَلّ عَقد الأمْرِ أوْ رَبَطَا
فَتًى سَما في سَماءِ العِزّ مَنْزِلَـةً لَوْ رامَها رُحَلٌ من عُلْوِهِ سَقَطَـا
يُصْمي الوِدادَ ويُولِي الخِلّ صَفْوتَهُ إذا الوِدادُ بِمَذْقٍ شِيبَ أوْ خُلِطَا
بِعْمَ الفَتَى إنْ تركْتُ الأمْرَ في يدِهِ أرضَى الإلَهَ ولم يَحْفِلْ بمنْ سَخِطَا
حُريت عنّي أنا عثمان أفْضَل مـا يُحْزَى الكَريمُ وَعِشْت الدَّهْرَ مُغْتَبِطا[105]

وله في حفظ الود، ورعي العهد لرجال دولته، أشعار عديدة، منها مرثية في مملوك نعمته وصهره القائد مفرج المتوفّى شهيدًا، وفي هذه المرثية المُخَمّسة يقول مشيرًا إليه وإلى من استُشْهِد معه من المجاهدين :

قَصَوْا فِئَةٌ ـــ طَوْعَ الجِهادِ ـــ رئيسَةٌ حَوَتْ أَتَـرًا مَسْموعَـةٌ وَمَقـيسَةٌ
فإنْ أصْبحوا نَهْبًا وعادوا فـريسَةً فمـا بَذلُـوا إلاّ نُفـوسًا نَفـيسَةً
وَلَمْ يقصِدوا إلا الجَنابَ المُكَرّما[106]

(103) ديوانه 145
(104) نفسه : 86.
(105) نفسه 182
(106) نفسه : 118.

ومن هذا القبيل محاطاته للشّريف أبي العباس أحمد، ورثاؤه له، ومحاطاته السالفة لأبي عنان الأُلْيُري، ولكاتبَيْهِ أبي الحسين ابن فركون، وأبي محمد ابن جزي وغيرهم.

وقد اكتسب يوسف الثالث بهذا كلّه محبة شعبه ولم تشهد مملكة غرناطة فتنًا في عهده إلا ما كان من انفصال أهل جَبَل طارق عام 813 هـ، وهرج البارين عام 815 هـ.

وكان يوسف الثالث ملكا حازمًا ويقظًا، ومن مظاهر حزْمِهِ ويقظته، كثرة تنقلاته في مملكته، وفي ديوان ابن فركون قصائد كثيرة تسجل هذه التنقلات، وهي إما تنقّلات لتفقّد أحوال البلاد أو لمعالجة القضايا الطارئة أو للاشراف على تنفيذ خِطَطِه السياسية أو للنزهة والراحة والصّيد.

وله قطعةٌ ارتجلها في إحدى «حركاته» يقول فيها (ديوانه ونفح الطيب) :

فعَوَّضتُها لَيْلَ الصّبَابَةِ بالسُّرى ... وَأُنْسَ التّلاقي بالحبيبِ المُفارِقِ
وَلَمْ يَثْنِني طَرْفٌ مِنَ النّورِ ناعِسٌ ... ولا معْطِفٌ للْبانِ وَسْطَ الحدائقِ
ولاَ مَهْضُ الأشبالِ في عُقْرِ عيلِهِمْ ... ولا مَلْعَبُ العِرْلانِ فوْقَ النّمارِقِ
وعاطَيْتُها صُبْحَ الدّياحي مُدامةً ... تميلُ بها الرُّكْبانُ فوْقَ الأيابِقِ
إذا ما قَطَعْنا بالمَطِيّ تنوفةً ... دَلَحْنا لأُخْرى بالجيادِ السّوابِقِ

ولعلّ أول خروج له من غرناطة بعد مُبايعته بالملك بقليل هو الذي يسجله الشاعر أبو الحسين في قصيدة صدّرها بقوله : «ومِمّا قلتُهُ مُهنِّئًا مَقامَه الكريم أيّده الله عند عَوْدَتِه من الوِجْهة إلى قَرْيَةِ وَادَ متنزّهها.. في التاسعِ والعشرين لربيع الأوّل عامَ أحدَ عَشَرَ وثماني مائة»[107]. ومِمّا جاء في القصيدة :

بِوادٍ حَلَّ مَوْلانَا فَعَمّتْ ... رَكائبُهُ العَوائِرَ والنِّجادا
تَرى كُلاًّ لدَيْهِ مِنْ يَدَيهِ ... يُراوَحُ بالمكارِمِ أوْ يُغادَا
لقَدْ شَرّفْتَ مَغْناهُ فقُلْنا ... حقٌّ أنْ يَسُودَ ولَنْ يُسادا
ستُثْني بالّذي أولَيْتَ فيهِ ... بُنُو الآمالِ مَثْنًى أوْ فُرادَى

(107) انظر هذا الديوان : 8.

وقـدْ أوحشْتهـا حمْـراء مُـلْك فأبدتْـهُ خُلُـوصًا واعتقـادا
كأنَّ الرُّوحَ قَدْ عادَتْ لِجسْمٍ غَداةَ احْتلّهـا المَوْلَـى وَعـادَا[108]

ويبدو من وصف الشاعر للطبيعة في هذا المكان أنه يقع على وادي شنيل حيث القصر السلطاني الذي كان الغني بالله يخرج إليه للنّزهة[109]

وفي عام 811 هـ زار مالقة أول مرة، يقول أبو الحسين ممهّدًا لِقصيدة له بالمناسبة «وممّا صدَرَ عَنّي وقد احتلّ رِكابُهُ العَلِيُّ بمالقة برَسْمِ عَرْضِ جنْدها، في شعبان منْ عام أحدَ عشر وثماني مائة، وأمر أيّده الله، بإراقة الخُمور، وتغيير المُنْكر، وإذاعة أفعال الْبِر»[110]، وممّا جاء في القصيدة :

أسَلْتَ دَمَ العُنْقودِ في الله مُظْهِرًا لأفعالِ برٍّ في الوُجودِ تُذيعُهـا
لذلك جادَ الغَيْثُ منْهـا أباطحًـا بِها زَهْرُ أزْهارٍ جَلاَهـا رَبيعُهـا[111]

وفي مثل هذا يقول الفقيه الخطيب أبو القاسم بن سالم المالقي :

ولَقَدْ غَـدَتْ بِكَ «رَيَّـةٌ» مُرْتاحَـةً مِـنْ بَعْـدِ طُـولِ تَشَوّقٍ وَغَليـلِ
أضْحَتْ بِكُمْ كالرّوضِ باكَرَه الحَيَا وهَما عليْهـا بَعْـدَ فَرْطِ دُبـولِ[112]

وصنيع الملك الناصر هذا في إراقة الخمور، هو كصنيع الحكم المستنصر الذي شكا منه الرّمادي في قصيدته المشهورة[113]. وكصنيع ابن جهور الذي نوه به ابن زيدون في ديوانه[114].

ولمّا عاد السلطان إلى غرناطة، في آخر شعبان المذكور، نَظَم الشاعر قصيدة يهنئه

---

(108) نفسه : 10 — 11.
(109) أنظر أزهار الرياض 2 : 122 ويبدو أنّ قرية وادَ المذكورة هي قرية واطَ (أو حصن واطَ) الواردة في مقدمة الإحاطة وحلال ترجمة عبد الملك بن حبيب.
(110) الديوان : 16.
(111) نفسه 16.
(112) مطهر النور : 166.
(113) جذوة المقتبس.
(114) ديوانه : 34 شرح وتحقيق كيلاني.

بالقدوم على حضرته العلية، ومنها نفهم أنّه كان يقيم في مالقة بالقصر المعروف بالمُحْدَث :

لمالَقَـةٍ حَـقَّ الـتشرُّفُ إذْ لها بِناصِرِ دينِ اللّهِ فَضْلُ التقَـدّمِ
وَ«مُحْدَثُها» جادَ الحَيا مَعْهدًا لَـهُ وعَهْدًا كريمًا فيهِ غَيْرَ مُذَمّمِ[115]

وقد أشار الشاعر في هذه القصيدة إلى المنافسة بين غرناطة ومالقة في اجتذاب السلطان إليهما تلك المنافسة التي ستكون موضوع مقامة معروفة للفقيه عسر الزحّال[116].

ثم انتقل يوسف الثالث، بعد شهور من تفقد أحوال مالقة، واستعراض جيشها، إلى حصن كان له دوره في حماية مملكة غرناطة، ألا وهو حصن المتلين ـــ كذا ـــ يقول أبو الحسين ابن فركون : «ولّما احتلّ رِكابُه العلي، بظاهِر حِصْن المُتْلِين ـــ كذا ـــ، برسْم البناءِ في الزيادةِ بقصَبَتِه، أمر أيده الله، أهل الحضرة بالوصول إليها إدالة... في الثاني والعشرين لجمادَى الآخرة عامَ اثنيْ عَشَر وثماني مائة»[117].

ويبدو أن حصن المتلين الوارد هكذا في الديوان وكذلك في كتاب «جنّة الرّضى» هو تحريف لحصن المُكْلين المعروف الواقع شمال غربي غرناطة ؛ وقد وصف الشاعر المبنى الحديد الذي باشر السلطان أمْرَه بنفسه في قصيدتين، فمما قاله في الأولى واصفًا عُلُوّ الحصن :

إذا ماعـدُوُّ الدّيـنِ جـاسَ خِلاَلَـهُ ورامَ استراقَ السّمْعِ كَفَّ مَرِيدُهُ
تَمُـرُّ بِـه هُـوجُ الرِّيـاحِ فتَنْثَنِـي وقَدْ سَدَّ مَسْرَاها الرّفيعَ صُعـودُهُ
تَـروعُ سُمُـوًّا فَوْقَـهُ وهْـيَ دونَـهُ فتـقصُرُ عَمّـا تشتهي وَتُريـدُهُ
دعَوْتَ لَهُ أهْلَ الجِهاد فأهْطَعُـوا كَما زارتِ البَيْتَ العَتيـقَ وُفـودُهُ
ودارَتْ حوالَيْـهِ الجنـودُ كَأنّهـا وِشاحٌ عَلَى خَصْرٍ يَروقُ فريدُهُ[118]

(115) الديوان : 17.
(116) انظرها في أزهار الرياض I : 125 ـــ 132.
(117) الديوان 32.
(118) نفسه : 35.

ومما قاله في الثانية ذاكرًا معدن البارود الذي عُثر عليه بالموضع واتخاذ الأنقاض المزوّدة منه :

وفي معْدِنِ البارود أعْظَمُ آيــةٍ ... نَدتْ فالنُّهَى فيها يطُولُ اعتبارُها
بصُنْت بها للنّفْطِ أبراجها التّـي ... يُصاهِي بُروجَ السّيّراتِ جدارُهـا
فكيْف منْهُ اللّهُ للْحرب عُـدّةٌ ... ففي القَفْرِ مِنْهُ ما إليهِ افتقارُها[119]

وقد ظلّ هذا الحصن المنيع شامخًا في حلْق القشتاليين، ويبدو أن بعض أسوار هذا الحصن قد تهدمت في السنوات التالية إذ يخبرنا مؤلف «بدة العصر» أنه «في التاسع من شهر شعبان عام 890 هـ خرج الأمير محمد بن سعد بأهل غرناطة إلى حصن المُكْلِين لبناء بعض أسواره»[120] فكانت موقعة المكلين المشهورة.

وفي شعبان من عام 813 هـ حلّ بمالقة، ومنها انتقل إلى جبل طارق في شهر ذي القعدة من العام نفسه[121].

وفي 16 لذي القعدة عام 814 هـ، خرج من غرناطة، قاصدًا جبل طارق، ومنه إلى مالقة، حيث ألمّ به مرض كان إبْلالُه منه في 16 صفر من العام نفسه، ولم يعد إلى غرناطة إلا في 15 شعبان[122].

ونجده عام 815 هـ في مالقة من جديد حيث يقول أبو الحسين : «ولمّا أطلّ عيدُ الفِطْر من عام خمسةَ عشر وثماني مائة أنشدتُ مولانا، أيده الله، برياض السَّيّد من خارج مالقة، حرسها الله، وقد تدارك الله الوجود برحمته، واسترسلت الأمطار بعد جلول ركابه العلي بها، إثر قَحْطٍ أصابها، وجَهْدٍ عظيم رانها»[123] ؛ ولمّا كان مُقيما بقصر السيّد من مالقة، وصله مكتوب طويل، من خطيب الحضرة أبي عثمان الأُلْيُري أكثر فيه من تكرار لفظة سيّد، فأجابه السّلطانُ نظمًا ونثرا، وممّا جاء في النظم قولُه مشيرا إلى تكرار كلمة سيّد :

(119) نفسه : 36.
(120) بدة العصر : 14 ظ تطوان.
(121) الديوان : 50.
(122) نفسه : 55، 57
(123) نفسه 96.

وأعَادَ لَفْظَةَ سَيِّدٍ عَنْ سَيِّدٍ مِنْ سَيِّدٍ حتّى لِقَصْرِ ٱلسيِّدِ[124]

ويفهم من الديوان أن السلطان كان في قصر نُبْله خارجَ الحضرة غرناطة عام 815 هـ[125].

ويخبرنا يوسف الثالث نفسُه في ديوانه أنه كان بقصر الحَمّة أول رجب من عام 816هـ[126].

كما يخبرنا أيضا أنه توجه إلى مدينة المنكب أول شهرِ ربيع الأول من عام 818 هـ[127] ويؤكد هذا قولُ أبي الحسين في ديوانه : «وممّا حقُّه أن يُلْحقَ بما تقدّم من قصائد التّهاني اليوسُفية المتقدّمة قبل هذا قصيدة نظمتها في هَناء المولى المنعم السلطان أبي الحجاج الناصر لدين الله رحمة الله عليه ورضوانه وقد احتل ركابه بقصر نُبْله خارجَ حضرته آيبًا منْ وِجْهته الأولى إلى المنكّب وشلوبانية بتاريخ اليوم التامن عشر لربيع الأول عام ثمانية عشر وثمان مائة[128].

وفي عام 818 قضى عيد الأضحى بمالقة ؛ يقول أبو الحسين : «وأستَدْتُهُ بالقَصْر المُسَمّى بالمُحدث منْ مالقَة في عيد الأضحى منْ عام ثمانيةَ عشر وثمان مائة، وقد اسْتَدْعى فُقَهاءَها وحُنْدَها وأشياخَها، لإقامة ما جَرَتْ به العادةُ في حضرته من البَيْعَة والإطْعام، واحتفل في ذلك»[129].

ويقول في موضع آخر : «وَلمّا عَادَ رِكَابُه العلي منْ مالَقة المَحْروسة، اسْتَقَل بقصْرِ نُبْله مُتَلَوِّمًا به أيّامًا للرّاحةِ والصّيد، في يوم الخميس الخامس عشر لشعبان عام تسعة عشر وثماني مائة، وقَدْ أمَرَ جُنْدَ حضرتِه بتلَقّي ولي عهده، وإيصالِهِ إلى حَمْرائِهِ العلية، وعرَّجَ هو إلى حيْثُ ذُكِر»[130].

وقبل هذا التاريخ في جمادى الثانية من العام نفسه نجدُه بوَلْجَر، من سفح جبل شُلَير،

(124) ديوان يوسف الثالث : 42.

(125) الديوان : 138.

(126) ديوان يوسف الثالث : 153.

(127) نفسه : 112.

(128) نفسه : 206

(129) نفسه : 223 — 224

(130) نفسه . 215

حيث نرى شاعره أبا الحسين يهنّئه بسجاته من كبوة فرسه به[131]، ويخبرنا الشاعر في موضع آخر قائلا : «ولمّا توفّي أخوه الأمير أبو الحسن علي الذي كان لقبه مُعز الدولة، بالحضرة، وركابه العلي بوَلْجَر، وكان تلك الليلة راحلاً إلى الخَرُّوبة، فَعرّج رحِمَه الله إلى الحمْراء لمُواراةِ شقِيقِه المذكور، وبعْدَ ذلك، خرجنا في العِشاءِ الآخرة إلى قرية هَمْدان، منْ قُرى الحضرة، تمّ إلى الخَرُّوبة من قُرى مُلْتِماس بعْدَ مرحلتين، فقلت أُعزّيه، على ظهر الفرس أثناءَ الطّريق إلى مرحلَة وادي النّيل منْ أحواز الحمّة»[132].

وفي يوم الأحد الثامن لرجب عام 820 هـ أعْمَل رِكابَه إلى قصر نُبْلُه[133].

وفي هذه النصوص أسماء أماكن وهي نُبْلُه EL NUBLO قرية في مرج غرناطة، كان فيها قصر ملكي، تردّد عليه يوسف ثلاث مرات حسبما في الديوان، ووولجر : قرية من حوز غرناطة تسمّى اليوم «GUEJARSIERRA» والخرُّوبة قرية من قرى ملتماس أو (متماش) BENTOMIZ وهمدان قرية في مرج غرناطة واسمها اليوم AL HENDIN ووادي النيبل : NIVAR.

وكانت آخر سفرة ليوسف الثالث هي سفرته الثانية إلى المُنَكَّب، حيث كان على موعدٍ مع الموت، في هذا البلد المجاور لشلوبانية، التي قضى في سجنها زهرة شبابه، ويحدثنا أبو الحسين عن ظروف هذه الرحلة فيقول : «وكانَ رَضيَ الله عنه قد اشتدّ بهِ المرضُ الّذي قَضَى عليه، وهُو قَدْ شرَع في حركة توحيه السّلطان أبي يوسُف يعْقوب أيده الله ! وتوجّه على ما بهِ منَ الألم إلى المُنكّب ليُباشِر بنفْسِه إجارَتَهُ مِنْها، فأنفذَ الله عزّ وجلّ حُكْمه في وفاته، بعْدَ جواز السُّلطان (المَريني) بأربعَةِ أيام فجأةً، وأصْبَحَ ميّتًا يومَ الأرْبعاء التّاسِعِ والعشرين لرَمضان عامَ عشْرينَ وثمانِمائة بَعْدَ أن كان أمر بالتأهُّب لإقامةِ ما جَرتْ به العادةُ منْ رسْم العيدِ بالطّعام وغيره»[134].

ثم يقول : «وأسْرَيْنا بِتابُوتِه تلْك اللّيْلة، فوصَلْنا الحَضْرةَ ضُحَى يوْم العيد، ولَم يشعُرْ أحدٌ منْ أهل البلد، لاشتغالِهِمْ بصلاة العيد، حتّى استقرّ الجميعُ بالحَمْراء وعندَ ذلك شرَعْنا في بَيْعَةِ ولي العَهْد، أيّده الله، ومُواراة المولى المُنعّم، رحْمة الله ورِضْوانه عليْه.

---

(131) نفسه : 228.

(132) نفسه : 234.

(133) نفسه : 225.

(134) نفسه : 253.

وفي أوّل يومٍ أُجْلِسَ ولِيّ عَهْدِه بقيّة مشْورِه، حيْثُ حَرثْ عادةُ السّلام قمتُ بين يديه منشدًا هذه القصيدة في هَنائِه بالمُلْك وَرِثاءِ والِدِه قَدّسَ الله روحَه، وبرّد ضريحَه»[135].

إن هذا المرض الذي انتهى به أجل هذا الملك الكبير، هو ثالث مرضٍ اعتراهُ خلالَ سنوات مُلْكِه العشْر حسبما في الديوان ؛ فقد ألمّ به المرض كما رأينا في عام 814 هـ على إثر توجُّهه إلى جبل الفتح، وبقي في مالقة مريضًا بضعة أشهر ؛ وفي عام 818 هـ عاقهُ المرض عن الخروج من غرناطة لمحاربة البرتغاليين الذين أقاموا بالجزيرة الخضراء أيامًا قبل أن يتوجّهوا إلى سبتة، ويصف الشاعر مرضه هذا بأنه «مرضٌ شديد، فُتِحَتْ منْ جِسْمِه فيه مَواصِعُ بالحَديد»[136].

ويبدو أن عقابيل السجن، وأعباء الدولة، وكثرة التنقلات، والتفجّع على الأهل من الزوج والأولاد والاخوة، وما شغل به أيامه من التضريب بين بني مرين، كُلّها كانت وراء هذه الأمراض التي أودت بحياته، وعجلت بوفاته، وهو لم يتجاوز الأربعين إلاّ بقليل.

لابدّ ان ابن فركون سجّل المراثي التي قيلت في الملك الناصر، ولكن هذه المراثي توجد في القسم المفقود من الديوان، وقد وصلتنا مرثية نقشت على شاهد قبره المدروس منذ القرن السادس عشر، وهي تتألف من ثلاثين بيتًا، وأغلب الظنّ أنها من نظم أبي الحسين ابن فركون، ففيها تكرار عبارة «أمَا كَانَ»، وهذه طريقة الشاعر المذكور في عددٍ من قصائده، ولكن خاتمتها لا تخلو من إشكال، فهي تقول :

وإنّ ابنَ نصْرٍ وارثَ المُلْكِ بَعْدَهُ لأَعْلَى مُلوكِ الأَرْضِ أَيّدهُ اللّـهُ
هُوَ المُنْعِمُ الأَرْضَى هُوَ الغالِبُ الّذي حَمَى المُلْك منْ إثْلافِهِ وتَلافاهُ[137]

ومحل الاشكال عِبارة «ابن نصر» إذا كانت تعني البُوّة المباشرة، وكلمة «العالب» إذا كانت اختصارًا للقب «الغالب بالله».

ومهما يكن الأمر فإن قصيدة أبي الحسين التي أنشدها بمناسبة بيعة السلطان الحديد،

---

(135) نفسه : 256.

(136) نفسه : 209.

(137) لـ. بروفنسال في كتابه : نقوش عربية في اسبانيا : 172 — 173.

صريحة في أنه ولي عهده محمد الذي لقبه العرناطيون بمحمد الصّغير، لكونه بويع بالملك، وهو ابن ثماني سنوات، وقد جاء في أول القصيدة :

قضَى نَحْبه مَوْلى المُلوك وأعْمَلتْ ... ركائبُهُ حتّى المَعادِ تَرَحُّلاَ
وفارَ اللهُ الأرضَى وحافظُ عهْدِهِ ... بما حازَهُ من مُلْك آبائِهِ الأُولَى
على صِغَر السِّنّ استقلّ برُتْبةٍ ... تحمّل مِنْ أعْبائِها ما تحمّلاَ[138]

وممّا جاءَ فيها قول الشاعر مسمّيا الملك وذاكرًا مكانته هُوَ عند والده :

وحَيّوْا منَ المَوْلى الإمام مُحمّدٍ ... كريمًا حَليمًا مُنْعِمًا مُتَفضّلاَ
أمَوْلاَيَ مَوْلاَنا أبوكَ أنالَني ... منَ العِزّ ما سامَ النّجومَ تَنَزّلاَ
وأوْلَى مِن النّعماءِ ما كان عاقدًا ... عَلَيّ به عَقْدَ الوَلاء مُسَجّلاَ
وحَرّرْتُ ذَيْلَ العُجْبِ إذْ كُنْتُ عِنْدَهُ ... أُباهِي بأمْداحي جَريرًا وأحْطَلاَ
ولَوْ كانَ يُفْدَى بالنّفوسِ وسابَقَتْ ... لِتَلْقَى المَنايا دونَهُ كُنْتُ أوّلاَ[139]

وكلام ابن عركون هذا يُمَثّل نصًّا حديدًا يُصَحح الخطأ الذي وقع فيه عدد من المؤرخين الاسبان المحدثين حول خلف يوسف الثالث، ويؤيّد ما انتهى إليه الأستاذ لويس سيكودي لوثينا من أن هذا الخلف هو ولده محمد الثامن المدعو بالصغير أو EL PEQUEÑO، وليس محمّد التاسع ابن نصر الملقب بالغالب بالله، على أن هذا قام على أثر عمّه، وأفلح في نهاية الأمر بعد أحداث مشروحة في المدوّنات المسيحية من اعتقاله في شلوبانية، والقضاء عليه وعلى أخيه أبي الحسن[140].

كان يوسف الثالث يقدّرُ مسؤوليات الملك، ومع ما رأياه من عزمه وحزمه، ويقظته وحركته، وقيامه بالواجبات، فقد وجدناه يعبّر عن خوفه من عدم القيام بحقوق الخلائق، وتمنّى في لحظة من اللحظات أن لو لم يكن ملكًا، قال :

مَنْ ذا يُعامِلُني الحُمولَ بِجاهِي ... مَنْ يشْتَري سَرَفي ببَعْضِ كَفافِ

---

(138) الديوان : 256.

(139) نفسه : 258.

(140) انظر كتاب محمد التاسع ص 47 و ص 51 و ص 149

مَالِي عَلَى هدِي الحَلائِقِ قُـدْرةٌ إلاّ بِمَـا عـوّدْتَ مِـنْ ألْطـافِ[141]

وفي هده القصيدة يشكو ذهاب الوفاء والأمانة والصدق والإحلاص، ويصوّر محنته مع من يعيبهم في الحُطط المختلفة، قال :

ذَهبَ الوفاءُ معَ الأمانَةِ مُذْ قَضَى أخْيـارُ قَوْمـي السّادَةِ الأشْرافِ
هَلْ عالِـمٌ أوْ شاهِـدٌ أو حاكِـمٌ يأْتي الّـذي نَـرْضاهُ دونَ خِـلافِ
قَدْ أشْرِبوا حُبّ الحياةِ فَهُمْ لِـدَا يَسْعَـوْنَ لـلإسْلامِ في الإتْـلافِ
كَمْ أسْهَروا الحَفْنَ القَريحَ بِفِعْلِهِمْ كَم أرْسلوا مِـنْ دَمْعي الوَكّـاف
مـا منْهُـمُ مَـن أرْتصيـهِ لِحُطَّـةٍ إلاّ وقالَنـي بِفِعْـلِ جـافِ
واهًـا لَهُـمْ تَرَكـوا الانابَـةَ حايِـا وإذِ انْصِفوا يَأْنَوْا عـن الإنصافِ
حاهَدْتُ جُهْدي في سَبيلِ صَلاَحِهِمْ ورَضيتُ مِنْهُـمْ بالمُطيعِ الـوَافِ
لَمْ يُلْهِـي عَنْهُـمْ مَحاسِنُ مَنْـزِلٍ وحَميلُ رَوْضٍ رَائِعِ الأوْصافِ[142]

وقد قدّم ذات مَرّة في عام 816 هـ أحد هؤلاء لحُطة من الحطط فلم يصلح فعَزله، وتعصّب له أو تشفع فيه بعض العلماء، وكان قد صدر من هدا المدكور كلام أو شعر سفيه، ومع دلك عفا عنه الملك، وأقال عترته إرْضاءً لهؤلاء العلماء، وفي هدا يقول :

يا قَوْمُ لَوْلا حِلْمُ رَبّي لَمْ يَكُنْ في العَفْـوِ مِنّـي يَطْمَـعُ الأقْـوامُ
لا سيّما مَنْ فاهَ بالسَّفَـهِ الّـذي يُدْمي كُلوم القَلْـبِ وهْـوَ كَـلامُ
شخصٌ يَهيـمُ بِكُـلِّ وادٍ مِثْلَمـا لَعِبَتْ بمَجْـود الحِمى الأوْهـامُ
حاءَتْ بِهِ أيامُ دَهْـرٍ قَـدْ قَضَى أنْ تَعْـدِلَ الآراءُ والحُكّـامُ
قَدْ كُنْتُ أعْذِر في السّفاهَة أهْلَها فاعْـجَبْ لِمَـا تـأْتي بـهِ الأيّـامُ
ولأنْتُـمْ يـا راعـيها رايَـةً لِلْعِلْـمِ بِعْـمَ الحِـزْبُ والأعْـلامُ
صُرِفَتْ إلـيَّ قُلوبُكُـمْ بِمَـوَدةٍ يُرْعَى بِها عهْـدٌ لَكُـمْ وَذِمـامُ

---

(141) الديوان 143.

(142) نفسه : 143 ــ 144

نَظَرَتْ إلَيّ عُيونُكُمْ في يقظَةٍ تَصِلُ الدّعاءَ إذا العُيونُ تَنامُ
لَكُمُ أُبَيّنُ ما قَصدتُ بَيانُهُ وأقولُ حُكْمي سأْنُهُ الإحْكامُ

إلى أن يقول :

فأقَلْتُ من عَثراتِهِ مَنْ كانَ في مَهْواهُ قَدْ زَلّتْ بِهِ الأقْدامُ
وأقَمْتُ فَرْضًا لِلْجَميلِ وَسُنّةً فإذا الوجودُ تَحِيّةٌ وَسَلامُ[143]

وقد أشار ابن فركون في مقدّمة عيدية أضحى عام 815 هـ إلى «هَرْجٍ وقَعَ بالحضرة من أهل رَبَض البَيّازين وسواهم ممّن تبعهم» ويفهم من قوله في العيدية المذكورة أنهم من الفقهاء، قال :

وإنْ فِئَةٌ لِلدّينِ تُنْمَى وأذْنَبَتْ لَدَيْهِ عَدَتْ مَعْفورَةً هَفَواتُها
فَيَمْحُو الخَطايا حِلْمُهُ وَهْوَ قادِرٌ إذِ الْعَفْوُ مِنْهُ أمَّلَتْهُ جُناتُها[144]

وكان صبورًا على نوائب الدهر وصروف الزمان، فقد امتحن بوحشة السجن ومثول الموت وفقد الزوج والأولاد والاخوة ممّا جعله يقول :

خَليلي مالي والزّمانُ كأنّما غَدا بيننا وِتْرٌ وها هُوَ طالِبُهْ
فَما الْتأمَتْ إلاّ عَلَيّ صُروفُهُ وَلا اشْتَمَلَتْ إلاّ عَلَيّ نوائِبُهْ[145]

ولكنّ الأزمات لمْ تُؤثّر على ثقته بالرّب المستعان كما يقول :

إذا أزْمَةٌ شدّتْ عَلَيْكَ خِناقَها وضِقْتَ فَلَمْ تُلْفِ لِنَفْسِكَ مَخْرَجا
فَثِقْ بِرَجاءِ اللهِ وارْضَ بِحُكْمِهِ فَكَمْ أزْمَةٍ نَجّاكَ مِنْها وَفَرّجا[146]

وقد اكتسب من هذا كلّه معرفة بالزمان وقلّة اكتراث بصروفه :

تَغافَلْتُ عَنْ هذا الزّمانِ وصَرْفِهِ فَلَسْتُ أُبالي أيَّ حالاتِهِ تَجْري

(143) ديوان يوسف الثالث : 115.
(144) الديوان : 99.
(145) ديوان يوسف الثالث : 183.
(146) نفسه : 183.

فَما في اللّيالي ما أُسَرُّ بِحُسْنِهِ ولا في رَداهَا ما يَضيقُ بِهِ صَدْري
ولسْتُ عَلَى شَيْءٍ مَصَى مُتَلَهِّفًا وَلَوْ كانَ عَيْشي في النّفاسَةِ أَوْ ثَغْري
وأَوْسَعْتُ هدا الدّهْرَ عِلْمًا وفِطْنَةً وحِلْمًا فَلَسْتُ بالغَريرِ وَلاَ الغِرِّ[147]

ونختم هده الفقرة بأبيات تبين عن عاطفته الدينية، وقد نطق بها بين الضراعة والاستغاثة، ناصبًا يديه إلى الله سبحانه، رغبةً في المطر :

يا رَحْمَةَ اللّهِ ويا عَفْوَهُ شَكى لَكَ الإسْلاَمُ مِنْ ضُعْفِهِ
القَحْطُ قَدْ حَلّ بأرْحائِنا وحِلْمُكَ المَرْجُوُّ في صَرْفِهِ
فَلاَ تُؤاخِذْنا بأفعالِنا يا مَنْ تَوَكّلْنا على لُطْفِهِ
قَدْ مَسّنا الضرُّ ولاَ حيلَةٌ إلاّ لُزومَ البابِ مِن حَوْفِهِ
شَفيعُنا التّوْحيدُ يا مَنْ غدا المَسْحُ والإعْطاءُ في كَفِّهِ[148]

هذا وقد كان ليوسف الثالث نصيب موفور في البناء والتشييد، وسبَقَ أنْ رأينا عنايته ببناء حصن المكلين وترميم قلْعته، كما رأيناه يتردّد على عددٍ من القصور في نُبْله والحَمّة وقرية وادَ في شِنيل وغيرها، ولا بد أن له يدًا في بنائها أو الزيادة فيها.

أما الحمراء فقد يكون الملكَ الثّالثَ بعد أبي الحجاج يوسف الأول، ومحمّد العني بالله، في العناية بها، والزيادة في مبانيها، وفي ديوانه وديوان شاعره ابن فركون أخبار وأشعار في الموضوع، ففي ديوانه قصيدة نظمها لتُكْتب في إحدى قِباب الحمراء من تشييده، أولها :

يادارُ شُكْرًا للخليفة يوسُفِ فهْوَ الّذي والَى الجميلَ وأنْعَما
وحَباكِ مِنْ «روْضِ العريف» بَسْمةٍ تَرْوِي الجوانِحَ مِنْ تَباريحِ الظَّمَا

وهي تقع في 13 بيتا[149].

---

(147) نفسه : 183
(148) نفسه : 145.
(149) نفسه : 114.

وفيه قطعة ارتحلها لترسم في الجهة اليسرى من القُبّة التي أمر بتحديدها وتباهت العناية في تشييدها[150].

وفيه قطعة من نظمه أمر أن ترسم في مبنى جاء فيها :

وأمامـــــي وقَـــــفَتْ رَبّـــة التّعْـــبِر البَـــرودْ
حُصّةٌ مُعْجِـــــــــــــةٌ أحَـــــدثتْ أوْجَ الصّعـــــودْ
كُلّمـــــا تُـــــصْبِرُني تَترامَـــــى للسّحُـــــودْ
حجـــــلتْ في مَتْنِهـــــا حِيـــنَ ريـــعَتْ بـــالأسودْ
لا تُراعِـــــي إنّـــــا في حِمَـــى مَوْلَـــى الوُجـــودْ[151]

وتمّة قطعة رابعة نظمت لترسم في مبنى[152].

وفي ديوان ابن فركون تفصيل وتحديد لتواريخ هذه المباني، قال «ولمّا شرع أيّدهُ الله في إعْلاء المَبْنى الماثِل الآن على باب الدّار الكبيرة، أمَرَني بنَظْمِ أبياتٍ تُكْتبُ دائرةَ بالطّبقة الثانية، فقلتُ حَسَبَ ما اقترحَهُ مَعْنًى وقافيةً وعروضا وعدَدَ أبيات، بتاريخ الثاني لشَعْبان عامَ خمسةَ عَشَرَ وثمانمائة»[153]

ومما جاء في هذه القصيدة التي تتألّف من 18 بيتا :

حَلَلْتُ مِنْ بابِ دارِ المُلْكِ منْزِلَةً مِنْ دونِها الشّهْبُ في عليائِها تقفُ
مَوْلايَ حَدّدَ آثارى وأكْمَلَ مـا قَدْ كانَ أعْمَلَهُ من قَبْلِهِ السّلَـفُ
طِيقَانيَ الغُرُّ مَهْما حُلّ مظهَرُهـا لا قَصْرَ إلاّ وبالتقْصير يَعْتَـرِفُ
قابَلْتُ بَحْرًا من الصّهْريجِ لُجّتُهُ كأنّها مِنْ نَدَى كَفّيْه تعْتـرِفُ[154]

ونقرأ في الديوان بعد هذا قول ابن فركون :

---

(150) نفسه 104
(151) نفسه 53.
(152) نفسه 54
(153) نفسه 155
(154) نفسه 156

«وأمرني كذلك أعلى الله مقامه بنظوم يُكتبُ بضيقاتِ الطَّقةِ العُليا مِنْ هذا المَسْى في الخامسِ عشرَ لشعبان عام خمْسَة عشرَ المذكور، فحدوْتُ حَذْوَ الأمْرِ الكريم في ذلك عَرَضًا وعروضًا وقافيةً وعَدد أبيات»[155].

ثمّ أورد ما كتب في الطاقة الكبرى منه. وهو 12 بيتا. وفي الطاقة الكبرى المشرفة على الحمراء المقابلة للكبرى، 8 أبيات. وفي الطاقة الثالثة التي لليمين الكبرى، 8 أبيات أيضا. وفي الطاقة الصغرى الخامسة 5 أبيات ورد فيها هذا البيت :

إنّما «حتّةُ العريفِ» عَروسٌ وأنا تاجُها الرّفيعُ المُحلاّ

وفي الطاقة الصغرى أيضا السادسة، 5 أبيات أيضا. «وفي الطاقة السابعة وموضع التامنة وهو المدخل للمصنع نظم مولانا أيده الله أبياتا تكتب فيه وتنتت في غير هذا. 5 أبيات كذلك»[156].

ويتحدث عن تحديد قنيتين متقابلتين بينهما بحيرة، وفيها حصة، فيقول :

«ولمّا شرع أيّدهُ الله في تَحْديد القُنَّيْن الرّائقتي التّكل، خَلْفَ هذه الدّار الكبيرة، وإحياء رسْمِهما، أمرني بنظْم أبياتٍ كُتِبَتْ دائرةً في إحْداهُما، وبتاريخ التامن والعِشْرين لربيع الأول عامَ خمسة عشر وثماني مائة فقلت» ثم أورد 16 بيتا، منها :

أنا قُنّةٌ للصّنْع إذْ أنا لِلصّنيعَة مَوْضِعُ
قالَتْ مِثْلي فاتَتْ في نَيْلِ وَصْفي تطْمَعُ
وترى البُحَيْرَة بينَنا مرآة هِنْدٍ تلْمَعُ
والحُصّةُ العُلْيا بها كاسٌ بكفٍّ يُرْفَعُ
والماءُ في حَسَناتها مُتدفّقٌ مُتدفّعُ
فكأنّها القَلْبُ الّذي شَمْلَ المَكارِمِ يَجْمَعُ[157]

ومما يتصل بهذا قوله :

---

(155) نفسه 156

(156) انظر هذه الأشعار في الديوان : 156 ــ 159.

(157) نفسه 159 ــ 160

«وبتاريخ الثّاني لرَمضان عام 816 هـ أمَرَ أيّدهُ الله بنظم مقطوعات تُكْتبُ في طيقانٍ محْكية بالجِصّ عير مُفتّحة فقلت» ثم أورد ما كتب في هذه الطيقان الست[158].

ولاشك في أن هذه المعلومات عن الحمراء في عهد يوسف الثالث تحمل شيئًا من الجديد حول تاريخ هذا القصر الرائع الذي ما يزال محطّ الأنظار، وقبلة الزوار.

وقد كان ليوسف الثالث الملك الشاعر ذوق حضاري رفيع تجلّى في اقتراحه أو نظمِه ما يكتب على بعض الأشياء كالقِناع والحائِطي والقوس والسّيف وعيرها[159].

وتظهر عنايته بهذه الأشياء من هذا النص الطريف الذي يتحدث فيه ابن فركون عن بعض هوايات هذا الملك الشاعر الفنّان، قال :

«وابتدَعَ أيّده الله أقْداحًا حُمْرًا تتحلّل بعْضًا منْها زُرْقةٌ، وبعضَها بياضٌ، وكُلُّ ذلك مِنْ نوع المُذهّب المالَقي، فقلْتُ في دلك، بتاريخ التاسع لرَجَب الفرد، من عام أربعة عَشَرَ وثماني مائة»[160] ثم أوردَ سَبْعَةَ نماذج ممّا نظم لهذا الغرض، كل نموذج يتألف من بيتين، وفي النموذجين الأخيرين نجد اسم «المعلم» الذي كُلّف بإنجاز هذا الاختراع المَلَكي، ففي أحدهما :

بِبَدائـــع الـــحُسْنِ الّتـــي تُحْيـــي فُـــؤادَ الهائِـــمِ
حَيّـــا الخَليفَـــةَ عَبْـــدُهُ يَحْـيَ بْـنُ عَبْـدِ الدّائِـمِ[161]

وفي هذا العصر اشتهر الانخار الغرناطي والفخّار المالقي، وقد حدثنا الرحالة المصري عبد الباسط الذي زار غرناطة بعد هذا التاريخ عن كيزان (أقداح) غرناطة المصنوعة من «الانجبار» ووصفها بأنها «كيزان رقيقة غاية في جودة الصناعة»[162] كما حدثنا سفير خَلَف يوسف الثالث إلى مصر عن الفخار المالقي والانجبار الغرناطي اللذين أُهديا إلى الظاهر جقمق المملوكي[163].

ومن اختراعات هذا السلطان — فيما يبدو — أنه أمر شاعره ابن فركون بنظم

---

(158) نفسه : 163 — 164.

(159) انظر هذا الديوان 151 — 154، 161، 167 وديوان يوسف الثالث : 104، 130.

(160) الديوان : 162.

(161) نفسه : 163.

(162) مجلة الاندلس 1933 ص 315.

أبيات تكتب في سَمَاية اتخذها لاستحراح القبلة، فنظم ثمانية نماذج، كلها تتألف من بيتين، نورد منها قوله :

طلعْتُ نَجْمًا في سَماءِ الْيَدِ يُهْدَى بِيَ الرّائِحُ والمُعْتَدِي
حتّى ابْنُ نَصْرٍ وهْوَ قُطْبُ الهُدى بالنّجْمِ مِنّي لَمْ يَزَلْ يَهْتَدي[164]

وسماية هكذا وردت في الأصل المخطوط، ويبدو من وصفها في الأبيات أنها اختراع يشبه «البوصلة»، ولم أقف لهذا الاسم على ذكر فيما رجعت إليه من معاجم.

وفي سياق الحديث عن الغناء نشير إلى أن الموسيقى الأندلسية كانت شائعة في عصر يوسف الثالث، واشتهر من اعلامها شخص يدعى المريني، ونسبته تدل على أنّه مغربي ينتسب إلى بني مرين، وقد أشار إليه ابن فركون في قصيدة وصف فيها حفْلة عرس لبعض أصدقائه، وفيها يقول :

وأفادَتْ سَمْعي وَكَفّي غِناءٌ وَغِنًى راقَني ونَعّمَ بالي
صَوْتُ شادٍ عَلَى تَرَنّم عُودٍ يَهَبُ السُّؤلَ مِنْهُ قَبْلَ السّؤالِ
عودُهُ ناطِقٌ بغَيْرِ لِسانٍ بِخَفيّ الضّميرِ دونَ مَقالِ
نَغَماتٌ عن «المَريني» تُرْوَى وَهْيَ بالمَوْصِلِيّ داتُ اتّصالِ
ولَكَمْ راقِصٍ يَروقُ انْعِطافًا كَقَضيبٍ في دَوْحَةٍ مَيّالِ
طَرَبًا مالَ عِطفُهُ وَتَثَنّى كالرُّبَى في يَدِ الصَّبا والشّمالِ[165]

وهذا «المريني» هو من موسيقيي العصر المريني الذين يعرف منهم ابن الطرّاحة وابن يعقوب وابن أبي ضربة[166].

أما الحركة العلمية والأدبية فقد وجدت في الملك الناصر نصيرًا لها من حيث إنه عالم وأديب وشاعر، وقد عرفنا ممّا سبق أسماء عدد من رجال الأدب والعلم في عصره،

---

(163) مجلة كلية آداب القاهرة، مايو 1954 ص 105.
(164) الديوان : 160 — 161.
(165) نفسه : 197.
(166) انظر المسند الصحيح الحسن · وحدوة الاقتباس · 224، والرسائل الكبرى لابن عباد . 251

ويكفي أن أذكر منهم ابن عاصم صاحب التحفة، والفقيه التنّاني صاحب الأرجوزة العرصية، وأبا يحيى ابن عاصم تلميذ الشاطبي وخلَفه في اتجاهه، وابن أبي حاتم المالقي صاحب المقامات الأدبية، وأبا الحسن ابن هذيل ذا المؤلفات المتعدّدة، وابن فركون صاحب هذا الديوان، وولي نعمته يوسف التالت موضوع هذه المقدمة، وله كما عرفنا كتاب «البقية والمُدْرَك، مِنْ شِعْر ابن رَمْرَك» بالاضافة إلى ديوان شعره الذي نتحدث عنه باختصار فيما يلي :

تدلُّ أشعار يوسف التالت وارتجالاته على أنه كان ذا موهبة شعرية، صقلها محفوظ شعري متنوع، يمتد من العصر الجاهلي حتى عصر الملك الشاعر، ويبدو لنا شعره كنسيج تتشابك فيه خيوط مختلطة مشرقية ومغربية، وهو ينسج كثيرًا على منوال غيره، ولا تتسع هذه المقدمة لدراسة شعره دراسة مفصّلة ولذلك سنكتفي بذكر بعض العلامات البارزة في إنتاجه الشعري، وأولُ هذه العلامات : المعارضة والتضمين البارزان في شعره، فمن ذلك قصيدته التي مطلعها :

حطرتْ فأزرتْ بالغصون المُيّد ورنتْ فأودتْ بالغصون المُيّد[167]

فقد عارض بها «طريقة البابعة» — كما يقول — في قصيدته الدالية، وضمّن بيتها المشهور :

بمُحصّب رخْصٍ كأنّ بنانهُ عمٌّ يكادُ من اللّطافة يُعْقد

وكذلك قصيدته التي يقول فيها :

يا خليلي لوْ كُنْت ترْتي لما بي[168]

فقد حذا فيها حذو قصيدة لعمر بن أبي ربيعة، وختمها ببيت له معروف تصرّف فيه على هذا النحو :

مَنْ شفيعي يَوْمَ الرّسول فإنّي صفْتُ درْعا بهجْرها والكتاب

وبنى قصيدة في النسيب على هذا البيت وضمّنه في الأخير :

حيْثُ النّوى لا عنْ ملالٍ ولا قلى فمثْلي بمثْوصول الملام جديرُ[169]

(167) ديوان يوسف التالت 170 — 171

(168) نفسه 10 — 11

(169) نفسه : 60

وبنى أخرى كذلك في النسيب على هذا البيت وضمنه، وهو :

خَيَّرتُ مِنْ نُعْمان عود أراكة نَهْدٍ ونِكس مَنْ يَنَعْهُ هُدِ[170]

وله دالية أخرى استوحى قافيتها من هذا البيت، وضمنه :

ما أبعد الشيء ترْجوهُ فتحرمُهُ قد كُنْتُ أحسب أنّ الصبْر صوْتُ يدي[171]

وفي ديوانه حمْريّة ديْريّة، قال إنه نظمها «على وجه المجار على طريقة أبي نواس»[172].

وعارض قافية لبعضهم مضمّنا عجز مطلعها هكذا :

«عيْنٌ مُسهّدةٌ وقلْبٌ يحترقْ» هذي تصوبُ وذاك دأْبًا يُحْرقُ[173]

كما عارض دالية له مضمنا في الختام صدر مطلعها هكذا :

واسْتعدْنا حمْد الإله وقُلْنا : «حسم الصُلْحُ ما اشْتهتْهُ الأعادي»[174]

واقتدى بعدد من شيوخ الأندلس الذين وُلعوا بمعارضة عينية تنسب إلى المعري، فعارضها على سبيل المساجلة حسب قوله[175].

كما تابع عددًا من الأندلسيين والمغاربة في معارضة بيتين لابن الحوري في ذكرى الإمام الحسين[176].

ولا تقتصر معارضاته على الشعر المشرقي، فقد عارض أيضا سينية ابن الأبار

---

(170) نفسه 46

(171) نفسه 39

(172) نفسه 124

(173) نفسه 150

(174) نفسه 40

(175) نفسه . 141 وقد أورد أبو الربيع الكلاعي بعض هذه المعارضات في مؤلفه المسلسلات 27 — 29 مخصوص ويوجد بعضها الآخر في ديوان ابن الأبار ورحلة العبدري 252 ونفح الطيب 3 : 474، 516، 5 . 115 والإحاطة 3 22 والكتيبة الكامنة . 61 وعنوان الدراية . 176 — 177

(176) نفسه : 133 — 134 وانظر ما قيل في هذا الموضوع في السفر 8 من «الذيل والتكملة» من ص 465 إلى ص 472.

المعروفة[177]، وعارض رائية للرصافي البلسي[178]، كما عارض أبياتًا لابن عياش صاحب المقامة الدَّوْحِية[179]، وأبياتًا أخرى لحمدة الوادي آشية[180].

وقد ضمن قول زهير :

وَهَلْ يُبْتِ الحَطِّي إلاّ وَشيجهُ[181]

وضمن في قطعة له قول ابن وهبون :

وأقولُ لا سَلِمَت يَمينُ القاتِـلِ[182]

وضمّن في أخرى قول عَمرو بن مَعْدي كَرب :

عَديرَكَ مِنْ خَليلِكَ مِنْ مُرادِ[183]

وضمّن في ثالثة قول العُرْجي :

أصاعُـوني وأيّ فَتًـى أضاعـوا[184]

وضمّن في رابعة قول ابن درّاج :

وفي المَهْدِ مَبْغومُ النّداءِ كأنّـه[185]

وضمّن في خامسة قول الوادي آشية :[186]

وَقَلّت حُماتي عِنْدَ ذاكَ وَأنصاري[187]

وقد وجدنا عبد الله بن جري — وكان من المقرّبين إلى يوسف التالت — يقول

---

(177) نفسه : 154.

(178) نفسه : 72.

(179) نفسه : 160.

(180) نفسه : 61 — 92.

(181) نفسه : 93.

(182) نفسه : 99 وفي ص 140 : «وأقول لا سلّت يمين القاطع».

(183) نفسه . 110.

(184) نفسه : 109

(185) نفسه 16.

(186) نفسه : 62.

(187) نفسه : 62

في بعضهم مكنّيا عمهُ بابن فَعْل ولعلّه يعنيه :

لقدْ صِرْتَ في غَصْبِ القصائدِ ماهِرًا فمَالَكَ حَظٌّ في قريضِكَ غَيرُ لِي
ولَمْ تُبْقِ شِعْرًا لِامْرِىءٍ مُتأخّرٍ ولم تُبْقِ شِعْرًا يا ابْنَ فَعْلٍ لأَوّلِ
فَتبعْرَ حَريرٍ قد غَصَبْتَ ورؤبَةٍ وَشِعْرَ ابْنَ مَرْجِ الكُحلِ وابْنِ المُرَحّلِ
وإنْ دام هذا الأمْرُ أصْبحْت تدّعي «قِفا نبْكِ مِنْ ذكْرَى حَبيب ومَنْزِلِ»[188]

على أن الشاعرين المفضّلين عنده، هما الشريف الرضي وتلميذه مهيار الديلمي، فقد نظم على طريقتهما في لَفّ العزل بالفحر، وحذا حذوهما في النسيب الحجازي، وهذا التيار الشعري ظهر لدى شعراء القرن السادس وما بعده في الأندلس، وقد وجد فيه الشاعر الملك مثله الأعلى في الفحر والعزل، وهما الغرضان الغالبان على شعره.

وثمة تيارٌ مشرقي قريب من عهده، ظهر أثره في الأندلس مع ابن الخطيب في بعض مقطعاته، ألا وهو تيار المدرسة الشّعْرية المصْرية، ومن اعلام هذه المدرسة ابن النبيه الذي يحاريه الملك الشاعر في بعض اغراضه[189].

ويظل الشاعر مع ما ذكرناه قريبا من ترات ابن الخطيب الذي ينظر إليه في بعض معانيه[190]، كما أن له موشحاتٍ لا بد أنه تتلمذ في صناعتها على موشحات ابن زمرك التي كان له الفضل في جمعها، وفي جمع شعره على العموم.

والعلامة الثانية في شعر الملك يوسف أنه كان يتخذ الشعر لعبة للتسلية، وتبدو هذه العلامة في إقباله على تشطير شعره وتخميسه، وفي تذييل شعر غيره، كما تبدو في اقتراح مثل ذلك على شاعر بلاطه أبي الحسين ابن فركون، وثمة امثلة عديدة من هذا النمط في ديوانيهما.

والعلامة الثالثة هي توظيفه الشعر في أعراض زخرفية كالقصائد والمقطوعات التي نظمها لتنقش على جدران وطيقان مبانيه في قصر الحمراء، وما نظمه ليكتب على بعض الأدوات الحضارية.

---

(188) الكتيبة الكامنة : 98 ــ 99.

(189) ديوان يوسف الثالث : 18.

(190) نفسه : 22، 38، 14

وله عدا هذا شعر سياسي سجل فيه الحوادث الوقتية، وهو ذو قيمة تاريخية واضحة كما رأينا.

أما من حيث التشكل فإنّ هذا الشعر يتّسم بالسّهولة والبساطة والضّعف اللغوي أحيانًا وفي بعض أبياته شيء من الخلل العروضي قد يكون مصدرهُ منْ ناسخ الديوان، وعلى العموم فإن يوسف الثالث شاعر مطبوع ارتجل كثيرًا وأرْسل نفسه على سجيتها وقال ما قال غير محتفل، وكان له في أسره وشعره وفجره متألٌ من أبي فراس كما أشار إلى ذلك في صدر ديوانه. وهو يبرع مَنْزعه في مثل قوله :

فَنَحْنُ أُناسٌ لَيْسَ فينا تَوَسُّطٌ فإمّا لِهُلْكٍ أوْ لرفْعة مِقْدار[191]

وقد أداه إعجابه بشعره إلى أن يأمر بتدوينه في ديوان استجابة لمن طلب ذلك، قال : «وصدَرَتْ عَنّا ناشِئاتٌ في حُجور العناية، وسافِراتٌ عنْ وجوه الحُسْن جاءتْ من الحُسْن بآية بَعْدَ آية، بين مُطَوّلَة في فُنونٍ تعَدّدتْ، وبيْن مقْطوعَةٍ رمت الشّاكِلة فأقْصَدَتْ، وعَطَفَنا الإشْفاقُ عليْها مِنْ أن ينالَها إعمال، أو لا يكونُ لها مَحلٌّ من الاحتفاء والاحْتِفال، فظَهَرَ لنا أن نَعْرِض منها عَلَى مَنْ مَدّ يَدَ الرّغبة إلينا، وأحد في حفظِ الشّيء اليَسير يَسْتَفيدُهُ بَيْنَ يَدَيْنا، وأن نُسْعِفَه كِفاءً لرَغْبته وصَراعته، ونتقبّل عمله على إظْهار المسْتَحْسَن وإذاعته»[192].

ولقد ظل ديوان يوسف الثالث محتميا رمسا طويلاً إلى أن ظهر في إقليم سوس كما ظهر مجموع «مظهر النور الباصر» الذي يحتوي على حملة من شعر يوسف الثالث الموجود في ديوانه المذكور، ولم نكن نعرف من شعر هذا الملك قبل ذلك إلاّ مدائح محدودة وردت في نفح الطيب[193].

إن شعر يوسف الثالث ـــ مما تضمّنه من تضمينات وتلميحات ومعارضات ـــ يدّل على ثقافته الأدبية، وتبدو هذه الثقافة أيضا في مؤلفه «البغية والمدْرَك، من شعر ابن رمْرَك»، وهي تتجلى كذلك في تعليقاته الأدبية والتاريخية، ومنها هذا التعليق الطريف الذي يكشف عن ظروف تأليف «الاحاطة» لابن الخطيب، وقد وقف عليه المقري في

---

(191) نفسه 62

(192) نفسه : 2.

(193) نفح الطيب 4 303 تحقيق د. إحسان عباس

حملة كلام هذا السلطان، ونقله في نصح الطيب، ونشته هنا للدلالة على أمنية هذا السلطان واطلاعه، قال المقري :

«وقد أشار ابن الأحمر حميد العبي بالله... إلى ما يتعلق بكتاب الاحاطة في جملة كلام نصه : «وتلقيا ممن نثق به أن الكاتب المُجيد الأصيل حسنًا، البارعَ أدبًا، أبا عبد الله ابن جزي، وفد على السُّلطان أبي عنان صاحب المغرب، في حدود عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة، فأكرم جنابه، وكمّل من تقريبه واصْطناعِه آرابَه، فانتدب إلى ذكر وطنه الأندلس وصاح بمنْ عدله :

أيا ريح الشّمال من الجنوب

وبرع غاية البراعة في التاريخ الذي جمعه، ورفع رايةَ البلاغة لِما كلف به ووَضَعَه، فلم يكنْ شيءٌ من الكلام إلاّ قال : الاحسانُ وأنا معَه، استوْعَب ما شاء، وأبدعَ في كلّ ما نقل سواءٌ كان شعرًا أو إنشاء، لكنّ سابقَ أجلِه، منع من الامتاع بمُجْمَلِه ومُفصّله، وجاءت الحادثةُ العُظْمى من وفاةِ مَولانا والِد جَدّنا أمير المسلمين أبي الحجّاج في غرة شوال مِنْ عام خمسة وخمسين وسبعمائة، فعُيّن لتعريف صاحِب المغرب بالكائِنة، خاصُّ الدولة، ورئيس الحُمْلة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الخطيب، فوقف منْ تاريخ ابن جُزي على شاطىء نَهْر فيّاض، وانتشَقَ منْ ورقاته أزاهِرَ رياض، وحمَله النظر في بدائعه عَلى أنْ يأحد في جمْع كتابه المسمّى بالإحاطَة، فيما تَيسّر مِنْ تاريخ غرناطة، ووجد لذلك موجبًا أعْراه جمعه، وهو أنّ النّبيه الجُحّة النّاعر المُفْلِق أبا إسحاق ابن الحاج وفَدَ على الأندلس، بعد جَوْبه في الآفاق، وتَرَحُّله إلى ما وراءَ الشام والعراق، واعلامه أنّهُ يذْهب في بدأة تاريخ مذْهَبَ ابن جُزي وعيره، وكانَ وجيهًا في فنون الآداب، والمساجلة لأعلام الكُتّاب، وبحكْم الاتفاق على إثْر وصول ابن الخطيب من الرسالة للسُّلطان أبي عنان، وجد الحاجب الخطير أبا النّعيم رِضْوان قد استولى على وظيفة الحجابة والرياسة وأقعده بالاسم منْ ذلك المُسَمّى، بأن أقعَدَهُ دونَ طُموحِه إلى عادته من المَرْقَب الأسْمى، فأنتج الانتباذُ من تلك الرّياسة الخطيبية أن ألْغى الحُطّة على جلالَة مِقْدارِها، وتَوَضُّح أنوارِها، في مُرْتَقى إجلالِها وإكْبارِها، وأخذَ في تأليف الاحاطة مستدعِيا تصحيح المواليد والوفيات، والأسْماء والمُسَمّيات، ومستكثِرًا منْ طُرف المصنّفات، ليتمّ قَصْدَه من الإطْناب، ونقْله العيونَ الرّائقة منْ كلّ كتاب، وألْقى جميعَ مَقاصِده، والمُعْظَمَ منْ تنظيم فرائِده، بيدِ النّبيه العُمْدة مُعلّم الحُمْلَة مِمّا كتابَ الله وسُنّة رسولِه ﷺ أبي عبد الله التّريشي، قدّسَ الله ضريحه، وهذا النّبيه الذي لم يجاور

سنّ الكُهولة في ذلك الوقت، هو الذي تولّى من المبيضات نقلَه، وأحْكَمَ حسنَه وفَصْله، والختَم على محلّداتٍ ستّة، ولمّا عاد ابنُ الخطيب إلى الاندلس بعَوْدة جدّنا الغني بالله تعالى إلى مُلْكه عام ثلاثة وستين وسبعمائة تلاحقت الفروعُ من كِتاب الإحاطة بالأصول، وأُنجز من التحرّ فيه الوعدُ المَمطول ووضعت خانقاه سعيد السعداء بسحته المتمّمة من اتي عشرَ سفرًا»[194] .

أتيا هدا النص على طوله لدلالته على ثقافة يوسف الثالث واطلاعه على حبايا الأمور، وفيه كدلك دلالة على أسلوبه، ولا يماثل هذا النص في طرافته إلا المقدمة التي وضعها بين يدي مجموعة «النقية والمدرك، من شعر ابن رمرك»[195]، وقد حلّل فيها أسباب محنة هدا الشاعر الوزير، وكل دلك يضع الملك الناصر بيْن الصفوة من أهل الأدب والعلم في عصره.

3 ــ علاقات يوسف الثالث بالممالك النصرانية

تراوحت سياسة يوسف التالت تجاه قشتالة وأرغون بين الحرب والسلم والمجاهدة والمهادنة، فقد اعتلى عرش غرناطة في أعقاب هدنة عقدها سلفه مع فرناندو عم ملك قشتالة حوان التاني والوصي عليه والدي سيصبح ملكا على أرغون أيضًا وهوَ يُدْعى في شعر الملك يوسف وشعر شاعره ابن فركون بالإفنت AL INFANTE ومعناها الولد، وهو اصطلاح أندلسي مغربي يطلق على المرشح لوراثة الملك.

كان هذا الإفْنت قد استولى قبل الهدنة على بعض الحصون كحصن الصخرة ZAHARA في ناحية رندة. ولما بويع يوسف الثالث كان أول ما باشره هو أمر الهدنة، وتقول الرواية المسيحية إنه وجّه لهذا العرض عبد الله الأمين سفيرًا إلى بلاط قشتالة، ووقع الاتفاق على هدنة تمتد إلى فاتح أبريل 1409م ثم ريدت إلى ستة غشت من نفس السنة، ثم إلى فاتح ابريل 1410م، ولكنها كانت هدنة على دخن، لأن المسلمين انتهزوا فرصة سانحة فزحفوا على حصن الصخرة واستباحوه وقضوا على حاميته ومهدا نقضت الهدنة[196].

---

(194) نفسه 7 107 ــ 108

(195) انظرها في أزهار الرياض 2 : 11 ــ 12 ونفح الطيب 7 : 162 ــ 170.

(196) تاريخ اسبانيا المسلمة في عصر بني نصر للسيدة أرينة ص 127.

وأما الرواية العربية في هذا فنجدها في هذه الأشعار التي قيلت في تهنئة السلطان بمناسبة اعتلائه العرش، وفي المناسبات التي تلتها. وهي تشير إلى قضية الهدنة وتلمّح إلى تعدّد الرأي فيها، فالفقيه الشاعر ابن السراج الرندي يعبّر عن رأي الدّاعين إلى الجهاد. فيقول في مدح السلطان :

خفقَتْ بميْدانِ الجِهادِ بنودُهُ ... واسْتَرْسلَتْ فيهِ سَوابِقُ خَيْلِهِ
رُمِيَ الضّلالُ بنافِذٍ منْ عَزْمِهِ ... وَدَمُ العِدَى بِمُبيحِهِ ومُحِلّهِ

ولسوْفَ يفْتحُ واثقًا من ربّهِ ... كُلَّ البِلادِ بعَوْنِهِ وبِحَوْلِهِ
ويُتَ شَمْلَ الكُفْرِ سيْفُ جهادِهِ ... حَسْمًا لِكُثْرِ فَريقِهِ وَلِقُلّهِ
ويُجيلُ خيلَ اللّهِ تَمْرَحُ مِثْلَما ... غَرَضَ الفُتوحِ يُصيبُ صائِبُ نَبْلِهِ
فهُبوبُ ريحِ النَّصْرِ آنَ أوانُهُ ... وَوُصولُ وَقْتِ الفَتْحِ دانَ بوَصْلِهِ
حكَمَتْ ميامِنُهُ بِعِزِّ خُنودِهِ ... وقَضَتْ بهولِ عَدُوّهِ وبذُلّهِ
يا صُقْعَ أنْدَلُسٍ حَييتَ بناصِرٍ ... للدّينِ والدُّنْيا مُجَرّدُ نَصْلِهِ
مَطَلَ الزّمانُ بوَعْدِ نَصْرٍ بُرْهَةً ... فأتَى بِهِ مُسْتَغْفِرًا منْ مَطْلِهِ
لاَ عَرْوَ أنّ الشّرْكَ أُنْذِرَ حِزْبُهُ ... بِمُبيدِهِ ومُبيرِهِ ومُذِلّهِ[197]

والشيخ أبو جعفر ابن فركون يرى أن الحالة الداخلية في قشتالة يومئذ مواتية لإعلان الجهاد، ويترك الاختيار للسلطان في المبادرة أو التمهل ريثما يُجْمع أمْرَه :

قد فَتَّ في عَضُدِ «الإفَنْتِ» وَحِربِهِ ... فِتَنٌ تُثُلُّ عُروشَهُ وتُصَوّحُ
لاَ تُخْشَ عَزْمَتُهُ وَلا زُعَماؤُهُ ... فالرأْيُ مِنْهُمْ هادِرٌ لاَ يُلْقِحُ
ما مِلّةُ الإسْلامِ يَسْلَمُ مُلْحِدٌ ... مِنْ بأسِها كَلاّ ولا مُسْتَفْتِحُ
فالسّابقاتُ لَقَدْ أقَرّ عيونَها ... مَرْمًى إلَى الفَتْحِ المبينِ ومَطْمَحُ
والسّابِحاتُ ومَنْ بها لَكَ أجْرُها ... فَمُهَلَّلٌ أثْناءَها ومُسَبِّحُ
لا كَنْ إذا بادَرْتَ أوْ أمْهَلْتَها ... فَلِمُلْكِكَ الرّأْيُ الأصيلُ الأرْجَحُ

(197) مظهر النور الباصر 141.

أويقتضي العَقلُ الحَصيفُ قصيّةً ... فسكَ المعاقِلُ تُستباحُ وتُفتَحُ

ويكرّر هذا المعنى في القصيدة نفسها إذ يقول :

لاكنْ إذا أرجأتَ عَزْمَكَ رُهبةً ... فَضُاكَ جَمعُ كُلِّ طاعٍ يجمَحُ
كالبَحْرِ يُمسِكُ لُجّهُ فإذا ارْتَمى ... لا البَرُّ يستَعصي ولا يتسرّحُ
إنْ رجّحوا يوْمًا مُهادَنَةَ العِدى ... فورادُ رأيكَ في جهادكَ أرْجَحُ[198]

ويقول في قصيدة أخرى :

والسِّلْمُ إن جَنَحَت لها هِمَمُ العِدَى ... فالحربُ تؤدِدُ باقتِراب أوانِها
لا يسْكُنُ الرّوعُ المُلمّ بأرْضِهِمْ ... حتّى ترى الإسلامَ مِنْ سُكّانِها[199]

ويشير الوزير أبو بكر بن عاصم إلى نية السلطان في هذا الأمر فيقول :

واخلصْ للّه الجهادَ فأصْبَحتْ ... بلادُ العِدَى مِنْ خوْفِ بأْسِكَ ترجُفُ
وزُعتْ قُلوبَ الرّومِ قبْلَ قِتالِهِمْ ... فليْسَ لَهُمْ عَنْ مطْلَبِ السِّلْمِ مَصْرِفُ
فما يومُهُمْ بالدعْسِ إلاّ تَهَوّمٌ ... ولا شأْنُهُمْ في الدّهْرِ إلاّ تحوُّفُ
فكَيْفَ إذا قُدْتَ الجُيوشَ لأرضِهِمْ ... تُزلْزِلُ منْها ما اطمأنّ وتَسْسِفُ[200]

أما أبو الحسين ابن بركون ولد السابق الذكر، فهو يميل إلى سياسة المهادنة، ويصح السلطان بقبول الهدنة المعروضة عليه من قبل الروم، يقول :

تأتي وفودُ الرّومِ تخْطُبُ سِلْمَهُ ... فيكُفُّ كفَّ القادِرِ المُتعَفِّفِ
وَوَلِيُّهُمْ يَحْتَى ــ فيُرْدِفُ رُسْلَهُ ــ ... إرْسالَ حيْرَى بالملائكِ مُرْدِفِ
أعِرِ الحوانَ بها عَلى طَمَعٍ لها ... تَقْنَعْ حَوَى المُستَوْقِ المتسوّفِ
واحْنَحْ إليْها مُعْمِلاً مُتَفصّلاً ... لا رِلْتَ أكْرَمَ واهِبٍ مُتعطِّفِ[201]

(198) نفسه : 92.
(199) نفسه : 40
(200) نفسه 75
(201) نفسه 61

وأخيرًا حد السلطان يوسف الثالث نفسه يعلن رأيه في الموضوع. ويعتر عن ميله إلى الجهاد، ولكنه يتحسّر على ما آلت إليه أحوال التعور من إهمال، وما أصبح عليه الناس من فساد واحلال، وحل بالنفس والمال، فيقول :

لهْفُ نفْسي على التُّعور تحـلّتْ ... فهْي صفْرٌ مـنَ الكُماة الحُمـاةِ
وأُناسٍ علـى المعـاصي حهسارًا ... قـدْ أباحُـو حريمـا لِلْعُـداة
لسْتُ للصّيد مـنْ حلائـف بصْرٍ ... يوْمَ أهْـا بسِلْـمِ تِلْكَ العُتـاةِ[202]

ثم يقول من قصيدة أخرى :

وإنّ «إفْتَ آلرّوم» يُقادُ حاضعًا ... كما انقاد منْ بعْدِ الإباء حَموحُ
سيرْضى بِحُكْمِ السّيْفِ منْهُ مُسوِّفٌ ... ويسْمَحُ بالمالِ العَريضِ شَحيحُ
ودلك سَهْلٌ في مشيئـةِ قـادرٍ ... يُميـلُ مرامًـا مُرْتَحـى ويُتيـحُ
أما نحنُ ــ واللّهُ العليمُ بقصْدنا ــ ... نُهجّرُ في نَصْرِ الهُـدى وَنُريـحُ
بأفْئِـدةٍ لا يسْتقِـرُّ قرارُهـا ... وهَـلْ بمُتارِ القْعِ تَهْـدَأُ ريـحُ
يُصَرّحُ مَلكُ الرّوم حهْدًا بصُلْحِهِ ... وبُرْهـانُ مَقْصودي لَدَيْـهِ صَريـحُ
وهلْ لي إلى غيْرِ الحُروبِ تطلّعٌ ... وهَلْ لي إلى غَيْرِ الجِهادِ طُموحُ[203]

وإذا كانت المدائح تقتضي بطبيعة الحال أن يكون «الإنْفَتِ» هو الطالب للهدنة، كما رأينا، فإن شِعْر الملك يفهم منه أن «الإنفت» تلكّأ في الاستجابة لطلب الهدنة أوّلاً، ثم انقاد بَعْد إباء، ولكنها كانت «هدنة على دحن» كما يقول المثل، فالملك الناصر كان يطمح إلى الجهاد، ويأمل أن يسمح الناس بالمالِ العريض الضروري لإعداد العُدّة والعَدَد.

ويبدو أن عدم انقياد فرناندو لطلب الهدنة المشار إليه في شعر يوسف الثالث، كان حلال حصار أنتقيرة، فالرواية المسيحية تقول إنّه طلب بواسطة سفيره سعيد الأمين من فرنندو هدنة لمدة ستين، وحاول شراء انسحاب المسيحيين بأي ثمن، ولكن هذا أبى

---

(202) ديوان يوسف الثالث 5

(203) نفسه 21 ــ 22

أن ينقاد لذلك.[204]

وأما ما يشير إليه ابن فركون من توارد الوفود النصرانية على بلاط الناصر فلعلّه كان بعد واقعة أنتقيرة، وذلك عندما شغر عرش أرغون واحتاج فرناندو إلى بعض الوقت لِيُتِمَّ أمر الاستيلاء عليه، فأرسل دييجو فرناندت القرطبي سفيرًا إلى غرناطة لطلب الهدنة.[205]

إن ديوان ابن فركون وديوان الملك يوسف يقدمان لنا أخبارًا وأشعارًا في الموضوع نعرضها حسب تسلسل تواريخها، يقول ابن فركون :

«ولمّا دخلَ المُسْلمون منْ أهْلِ رُنْدةَ صَخْرةَ عَبّادٍ ــ أعادَها الله ــ واسْتأصَلُوا مَنْ وحَدوا بها قَتْلاً وَإسارًا إلاّ قليلاً منهم اعْتصَموا بقَصَبَتِها، وورَد البشيرُ بذلكَ، قُلْتُ أُهَنّيءُ مَقامَه الكريم لِلْحين، وهيَ من المُرْتحلات، في يوم الأربعاء الرّابع عشر لذي الحِجّة عامَ اثنَيْ عَشَرَ وثماني مائة»[206].

وقد كان هذا «بكْر الفتوح» حسب تعبير كلّ من الملك يوسف في ديوانه وشاعره أبي الحسين الذي وصف «الصّخرة» الشمّاء، واجتياح «حند الله» لها ثم قال :

وإنّ «إفَنْتَ» الرّوم يجْهَدُ كُلّما ... أراهُ المَقامُ اليوسُفِيّ جِهادَهُ
وكان وَلِيُّ الشرْكِ وَافَى مُطاوِعًا ... هَوًى ساقَهُ نَحْوَ الهَوانِ وَقادَهُ
فَفازَ بِها طَوْعًا، وحَلّ بأُفْقِها ... وألْقَى لَدَيْها ذُخْرَهُ وَعَتادَهُ
وسارَ إلى أوْطانِهِ وَهْو ظافِرٌ ... لَها لاَ إلى الأُخرى يُرَجّي مَعادَهُ
وكانَ إليها الآن يأتي بزعْمِهِ ... يُريدُ ويأْبَى اللّهُ إلاّ مُرادَهُ
غَدا جاهِدًا قَدْ شَفّهُ لاَعِجُ الصّدى ... يُؤَمّلُ فيها وِردَه وَمَرادَه
يَقودُ لَها جَيْشَ الضّلالَةِ قاصِدًا ... فَحَلاّهُ المِقْدارُ عَنْها وَذادَهُ
إلَى أنْ أتَى مَوْلَى الخَلائِفِ يوسُفٌ ... فَجَدّ وأبْدَى عَزْمَهُ وأعادَهُ[207]

(204) تاريخ اسبانيا المسلمة في عصر بني نصر للسيدة أريبة : 128
(205) المرجع نفسه.
(206) الديوان : 46.
(207) نفسه : 27.

ويقول يوسف التالت في المناسبة نفسها من قصيدة له في الموضوع :

لئنْ فات في أمْسِ فاءُ «إفْتِهِمْ» سيَلْقَى غدًا رِحْزَ العَذابِ أليما
وسُحْقًا لهُ حيْثُ آستحفّتْ حُلومُهُ ولَمْ يَرْحُ فَيّاصَ الهِباتِ حَليما
ولَمْ يتّحدْ للصُّلْحِ مِنْها وسيلةً يُرضّي مَسِيحًا قَصْدُها وَكَليما[208]

وكان رد الفعل هو زحف النصارى بقيادة «الإنفنت» فرناندو، وقد نزلوا على نهر «أنتقيرة»، وحاصروه من جميع الجهات، وظل الحصار من شهر يونيو إلى شهر سبتمبر 1410م، حين وجدوا ثلمة في السور دخلوا منها[209]، وقد دافع أهل البلد، والمجاهدون من أهل غرناطة، وفيهم الشهيد أبو يحيى بن عاصم، ويقصّ علينا ابن أخيه وسميُّه أبو يحيى ابن عاصم ظروف استشهادِهِ قائلاً :

«فُقِد يوم المُناجَزة الكُبْرى بظاهر أنتقيرة الجاري على المُسلمين فيها التّمْحيص العَظيم، صابرًا محتسبًا، رابط الجأش، ثابت القدَم، وفي ذلك الموقف الصّعب ــ وقد طاشت الأحلام، ودُهِشت الأعْلام ــ عَرَض عليه بعضُ مَنْ معه التحيّر بعدَ الوصول لِلْمحلة [التي] انكشف عنها المُسْلمون، وهو من غير تُرْس، فأبى ذلك، وقال له : لا يجوزُ لهم تحاور محلّتهم، إذ هم الفئة المتحير إليها، فتركه وأقبل بوجهه على الكَفرة القاصدة له، يدافعهم بجَهْده، ورماحُهُم تَنوشُهُ، وانصرف عنهُ الحاكي، فكان آخر العَهْد به، وذلك في صدر المُحرّم عام ثلاثة عشر وثمانمائة»[210] وقد دافع أخَوَا السلطان أبو الحسن علي وأبو العباس أحمد خلال هذه المناجزة الكبرى ما وسعهم الدفاع، ولكن قضاء الله نفذ، فسقطت أنتقيرة في يد المسيحيين[211].

---

(208) نفسه 122.

(209) تاريخ اسبانيا المسلمة في عهد النصريين للسيدة أرينة ص 128.

(210) نيل الابتهاج : 285. وفي نص بعض اصطراب في الأصل، وفيه إشارة إلى آية «ومنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَه» الآية.

(211) تاريخ إسبانيا أعلاه ص 128 ــ 129

وفي ديوان يوسف الثالث تخميسٌ نظمه عند «نزول العدو على ثَغْر أنتقيرة» نراهُ يتهم فيه بعضهم بالتهاون، وعدم الصدق في الدفاع، قال :

ويا عَجَبًا مِنْ تارِكٍ حَقَّ رَبِّهِ تُعُرِّفت البَعْضاءُ مِنْ كُنْهِ حُبِّهِ
فلَمْ يتنشَّقْ رَوْحَ الرضا مِنْ مَهَبِّهِ ومهْما دَعا داعي الهُدَى لَمْ يُلَبِّهِ
فأتى لَهُ بالمَحْرِ والفَوْرِ والأَحْرِ

أقَمْتُ عَلى سَهْلِ الأمورِ وصَعْبِها مُعِدًّا أوانَ السِّلْمِ أوْزارَ حَرْبِها
وكَمْ دِنْتُ بالعُتْبى وإلعاء عَتْبِها بعوسًا توارَتْ في غَياهِبِ حُحْبِها
فأنْدَتْ حَفايا حالِها أَلْسُنُ الدَّهْرِ

وهَلْ يرْتَصِي أنَّ الكفورَ مُؤَيَّدُ سوى مُلْحِدٍ، فضْلُ الهداية يحْحدُ
مَلائِكَةُ السَّبْعِ السَّمَواتِ تَشْهَدُ عَلى حامِحٍ في عيِّهِ يتَرَدَّدُ
ويُرْتاحُ وإلاسلامُ في قَبْضَةِ الكُفْرِ(212)

ولعلّ الفقيه الشاعر الشراد يشير إلى هؤلاء المنافقين إذ يقول مخاطبا الملك الناصر :

عَدُوَّكَ حوفًا مِنْ صِيالِكَ لَمْ يَزَلْ عن الحَرْبِ يختارُ التواني وابيا
سَيَعْتاضُهُ يومٌ مِنْ وَعاكَ يَوَدّ أنْ يرى مِنْهُ لو يُعْطى التمادِي فادِيا
وويْلٌ لمَنْ أمْسَى لأكنافِهِ الّتي بِها سَخِطَ اللهُ المَساعي ساعيا
ومنْ لاذ بالكُفّارِ أصبحَ حيْثُ قَدْ أعدّ لهُ الهُلْكُ المَهاوِي هاويا
وهَلْ هُو إلاّ الجَهْلُ عمّ عُقولَهُمْ عَمًى لَمْ يَزَلْ يغْشَى المُداجي داجيا
لَقَدْ طُهِّرَتْ منهُمْ مَسارِلُكَ الّتي سَقَى وِرْدُ نُعْماها المُصافِي صافيا

(212) ديوان يوسف الثالث 71

وما آمتسكتْ إلاّ بمنْ حدّ عهْدُهُ فليْسَ إذا لاَقَى الدّواهي واهِيا[213]

أما ديوان الشاعر اس فركون فلا نجد فيه شيئا حول واقعة أنتقيرة، ولعله عرض لها في باب المراثي من القسم المفقود.[214]

ومن أحداث هذه الحقبة الحملة التي قادها الأمير معز الدولة أبو الحسن علي إلى شقورة SEGURA في أرض أرغون، ويحدثنا عنها الشاعر قائلا :

«وقُلْتُ أهنّئُهُ، أيدهُ الله، ونصره، بعيد الفطر عام 812 هـ، وقد وصل السيد الأمير أبو الحسن، شقيق مولانا أيده الله، بالحيش من غرْو شقُورة»[215]

وممّا جاء في القصيدة المشار إليها :

لمّا الْتقى الجمْعان في أرْض العِدَى ورمَيْتَ جمْعَهُمُ بَـأْسٍ مُعْجِـلِ
نادَى بأبطال الجهاد ألا اقْدِمـوا وأحـالَ فيهِمْ نَظْـرَةَ المُتأمِّـلِ
فتسارَعـوا إلـى داعـي الهُـدى والرّوعُ عنْ سُبُلِ النّجاةِ بمَعْـزِلِ
صاقتْ عليْهِـمْ أرْضُهُـمْ فتوقّفـوا والماءُ يجْمَـعُ نَـفْسَهُ في الخَذْوَلِ
وتَجَمّعَتْ فِرَقُ العدا ثـمّ ائتَـتْ ما بيْنَ مُنْهَزِمٍ وبيْـنَ مُحَـدِّلِ
شالَتْ نعامتُهُـمْ سَريعًـا بَعْدَمَـا وقَعـوا وُقـوفَ الخاضِعِ المتذلِّـلِ
وتسَلّلُوا طَوْعَ الفِرارِ وجَمْعُهُـمْ قَـدْ ريعَ بيْـنَ مُذلَّلٍ ومُضَلَّـلِ[216]

وفي ديوان الملك يوسف قصيدة تشير إلى مجابهة مع القشتاليين حول حصن متشاقر MONTEJICR وقد وقعت والسلطان مريض خلال سنة 814 هـ.[217]

لقد وقفت حركة الجهاد المحدودة التي دَشن بها يوسف الثالث عهده عند هذا الحد،

---

(213) مظهر النور الناصر : 159

(214) أشار الشاعر في ص 120 إلى الغنائم وفي ص 234 الى المراثي ولا وجود لهذين البابين في هذا الديوان، ولعلهما في قسم آخر منه.

(215) الديوان : 40

(216) نفسه 81

(217) ديوان يوسف الثالث 124.

واتحه بعد ذلك إلى عقد الهدنة، وطلب تحديدها إلى وفاته، وقد فعل هدا لسنين على الأقل :

أولهما التفرغ لاسترجاع حل طارق الدي أعلن أهله الانضمام إلى بني مرين عام 813 هـ.

وثانيهما التشغيب على بني مرين والتصريب بين ملوكهم وأمرائهم.

ومع هدا نرى شاعره ابن فركون في عيدياته وغيرها لا يفتأ يذكر أن السلطان سيعرو أرض الشرك ويَسْتَرجع الحصون وما إلى هدا.

فيقول من قصيدة (107) :

سيعرو أعاديه بشُهْبٍ كتائب تطاولُها شُهْبُ الدُّجَى فتطُولُها
تحُلُّ دِيارَ الكُفْرِ منْها سواتِّ تَحِلّ عِن التشْيِهِ حينَ تحولُها
تَحوصُ إلى الأعْداء بحْرًا منَ الْقَنا سِراعًا وهَوْلُ الرَّوْعِ لْيس يهُولُها
فَتُرْتاحُ حيالُ الله لِلْمُلْتَقَى الّدي يُحيبُ بِهِ داعي الهدى ويُجيلُها

ويقول من أخرى (114) :

سَتَتْرُكُ أرضَ التَّرْكِ وهْيَ بَلاقِعٌ وتُلْقي عَلَيْها النَّقْع في الجوِّ ميسَما
خَيْثُ تراع الوحْشُ أن تصل السُّرى بِبَيْدائِها والطَّيْرُ أنْ تتَرَنّما
لَقَدْ خَطَبَ الخطّي فَتْحَ بِلادِهِ وخاطَبَهُ الهِنْدي عنْك فأفْهَما
فَلِلّهِ مِنْها إذْ تَحُلُّ حِلالَهُ صَنائِعُ حلّتْ قبْلُ أن تُتوهّما

وقد تكررت هذه الحعجعة في قصائد أخرى، وهذا في الوقت الذي «سادت بين بلاط غرناطة وبلاط إشبيلية علائق المودة والاحترام المتبادل، ولم تشهد غرناطة من قبل عهدًا كعهد يوسف ساد فيه الوئام بين الأمّتين الخصيمتين» كما يقول المرحوم عبد الله عنان، ومع دلك وجدنا ابن فركون يهيء سلطانه بوفاة فرناندو بقصيدة يقدمها بقوله :

«وفي آخر صَفَر منْ عامِ تِسْعَةَ عَشَرَ وثمانِ مائَة، وَرَدَ الخَبَرُ عَلَى الحَضْرَةِ بِوَفاةِ طاغيَة رَغُون، المُلَقّب بالإفَنْتِ عَمّ صاحِبِ قَشْتالَةَ وَوَصِيِّهِ، وهو المُتَغَلِّبُ قبلُ عَلَى

معْقِلِ أنتقيرة والصّخْرة وغيْرِهمَا منْ حُصونِ العَرْبيّة أعادَها الله، فقُلْتُ أُهَنِّئُهُ رَحْمَةُ الله عليْه بدلِك».[218]

وقد عبر الشاعر في قصيدته عن إبتهاج المسلمين بوفاة فرناندو الأول، ومما جاء فيها :

أُصيب «إفْنْتْ» الرّوح فارْتاعَ قوْمُهُ ... وأضْحتْ بطاحُ الرُّشْدِ وهْيَ أوَاعِتُ
تحرَّع صاب الموْتِ، لاَ درَّ درّهُ، ... فأيْدِي المَنَايَا كَيْفَ شَاءَتْ عَوابِتُ
أصابتْهُ منْ صرْف الزّمانِ مُصيبــةٌ ... بهَا المَوْتُ عاتٍ في حِمَاهُ وَعائِثُ
وهي رُكْنُ عُبّاد الصّليبِ بمَوْتِــه ... فها هُوَ مِنْ بَعْدِ العُلَى متقاعِثُ[219]

تلكم كانت نظرة سريعة على علاقات يوسف الثالث بالممالك المسيحية، ونتعرف فيما يلي على علاقاته مع بني مرين.

4 ــ علاقات يوسف الثالث بالمملكة المغربية

ــ بوفاة أبي سالم المريني، وعودة الغني بالله من منفاه في المغرب إلى الأندلس، بدأ فصل جديد في العلاقات الأندلسية المغربية، فقد تنكّر هذا الملك المصري لبني مرين الذين آووه وساعدوه على العودة إلى عرشه، واستغلّ ظروف الفوضى التي عمت المغرب بعد مقتل أبي سالم، فاستولى على جبل طارق الذي كان أبو الحسن المريني جعل منه حصنًا حصينا، وبذلك اغلق الغني بالله الباب في وجه المجاهدين المغاربة الذين كانوا يأتون للرباط في هذا الحصن، ولَطالما حضّ ابن الخطيب المرينيين في شعره ونثره على التمسُّك به، كما أن الغني بالله هذا استولى فترة على سبتة، وأبطل مشيخة الغزاة التي كانت تسند إلى المغاربة فصارت تسند إلى أمراء نَصريين، وصرف همّه إلى التضريب بين بني مرين، والعمل على إضعافهم، حتى أصبحوا ألعوبة في يده ؛ وهكذا انقلبت الآية، فبعد أن كانت كفة المرينيين هي الراجحة عدت شائلة، وبعد أن كانت فاس تستقبل رسل بني الأحمر أصبحت غرناطة مقصدًا لضعاف بني مرين ؛ وظل الحال هكذا في عهد خلفاء الغني بالله، ومنهم محدوم ابن فركون يوسف الثالث. فإن هذا الملك الذي مدح نَعْصُهُم سياسته الداخلية، هادن النصارى ليتفرغ إلى التشغيب على بني

(218) الديوان : 222.
(219) نفسه.

مريني، وكان لجوء أفراد من البيت المريني إلى غرناطة يساعده على هذه السياسة التي تمسّك بها حتى آخر يوم من حياته، فقد أدركه الموت بالمنكب وهو يحضر — كما رأينا — صيغة من هؤلاء إلى المغرب.

إن ديوان ابن قُركول يرسم لنا صورة قاتمة عن العلاقات بين الدولتين الجارتين، وبين الملكين المتعاصرين : يوسف الثالث النصري وأبي عنان سعيد بن أحمد بن أبي سالم المريني، فقد كان النصري يطمع ان يكون له من النفوذ في المغرب مثل ما كان لوالده وجده وقد لقبه شاعره بملك العدوتين :

مَـلِكُ العُدْوتَيـنِ شرقًـا وغربًـا مَنْ يُضاهِيهِ في العُلى أو يُنافِسْ[220]

ولكنّه وجد أمامه ملكًا شابًّا صَلْبًا سبقه إلى الحكم وكان له مساعدون من ذوي السياسة والحزم مثل الحاجبين : القسائلي والطريفي.

ولسنا ندري متى بدأت الخصومة والمناوشة بين الملكين، ولا من كان البادىء منهما، ولقد رأينا أن وفودًا مرينية حضرت إلى غرناطة لتهنئة يوسف الثالث بعد إعلانه ملكًا عام 810 هـ.

وفي عام 813 ثار أهل جبل طارق وأعلنوا تبعيتهم للمغرب، وفي السنة نفسها حفّز يوسف الثالث السّعيد المريني ووجهه في أسطول إلى المغرب ليطالب بالملك في محاولة لاسقاط أبي سعيد عنان.

وأغلب الظن أن هذا الاجراء جاء ردًا على عصيان أهل جبل طارق، وانضمامهم لبني مرين، نظرا لسمعتهم في الجهاد والدفاع عن الأندلس، ولأن الجبل كان حتى آخر عهد أبي عنان تابعًا للمغرب.

ومن هذا التاريخ يبدأ صراع لا ينتهي إلاّ بوفاة يوسف الثالث وهو صراع أضعف الدولتين معًا وتسبب للمغرب في ضياع سبتة وفي خراب كثير من المدن والمداشر[221]،

---

(220) نفسه 70.

(221) تسمت حروب «السعيد» الذي حركه ابن الأحمر في خراب كثير من الخيمات وخصوصا في نواحي مكناس يقول ابن عاري «وكانت المحاشر محدقة بها من كل جهة، كلّ محشر ثمارعه وعراساته ومراعيه، إلى أن ظهر فساد السعيد بن عبد العزيز في أرض المغرب وذلك في العشرة الثانية من القرن التاسع فحلت المحاشر واحق عنها أهلها، فيقال حلا من محاشرها حينئذ اثنا عشر الف محشر والبقاء لله وحده (الروض الهتون 38، المطبعة الملكية — الرباط) وذكر الحسن الوزّان انه خرب =

كما تسبّب للأندلس في ضياع أنتقيرة ومُنتشاقر وحصن الصخرة أو صخرة عمّاد بالقرب من رُنْدة وغيرها من الحصون كما رأينا ممّا سبق.

ولقد صرف يوسف التالت جهْدهُ كُلّه في أمرين :

أولهما العمل على استرجاع جبل طارق، ولم يكن أمرًا سهلا كما يفهم ممّا في الاستقصا نقلا عن تاريخ مويل.

فالديوان يخبرنا أن «المخلّة» العرباطية بقيت محاصرة للجبل من سنة 813 هـ إلى سنة 817 هـ، وقد انتقل الملك النصري مرارًا من عرباطة إلى «المخلّة» المرابطة، وكان أخوهُ أبو الحسن علي الملقب بمعز الدولة هو الذي دخل الجبل، واستردّه بعد حصار بري وبحري، وصفه الشاعر في عددٍ من عيدياته وصفًا مفصلا، ونوه بشجاعة معز الدولة، وهنأ ملكهُ بهذا الفتح، ومما جاء في إحدى هذه القصائد قوله :

صار إرْثًا من الغَنِيّ لِعَلْيا ئِكَ ما شادَهُ عَلِيٌّ وَفارِسْ[222]

يعني أن جبل الفتح، وما شاده فيه أبو الحسن المريني، وولده أبو عنان، صارَ إرثًا ليوسف التالت ورثه عن جده الغني بالله.

وجد في ديوان يوسف التالت عددًا من القصائد، يذكر فيها حصار جبل الفتح، ويفخر باسترجاعه، ويفهم من شعره أن أوّل ما استُرجِع منه هو الحصن المعروف بالقشْتور وفي هذا يقول :

وسائِلْ بها «القشْتورَ» إذْ عَزّ مَطْلَبٌ فَها هُوَ مِنْ أسْرِ السّيوفِ عَتيقُ
نَهَدْنا إلَيْهِ بَعْدَ مَا هَوّمَ الدُّجَى وبادَى فَتَحْياهُ وهْوَ عَريقُ[223]

وقد أكثر شاعر البلاط النصري من وصف أهل جبل طارق بالمروق والخيانة مع أنهم، ومعهم طائفة من أهل التقوى والصّلاح، إنّما أقدموا على ما أقدموا عليه عيرة

= خلال حروب هذا «السعيد» مع أبي سعيد عثمان قرى ومدن وقصور عديدة في جميع انحاء المملكة وذكر منها قرارة والمعمورة وتافلفلت (تفلت) وجامع الحمام وسي ماريل والمقرمدة ومدينة الجمعة في أرجاء البطر وصف افريقيا (اسم السعيد في الفهرس)

(222) الديوان 67.

(223) ديوان يوسف التالت : 146 وقد ورد ذكر القشتور في الاحاطة على أنه اسم حصن من حصون جبل طارق. ج 2 ص 87

على دينهم، وحمايةً لبلدهم، وهذا ما يشرحه مويل القشتيلي في تاريخه إذ يقول : «لمّا كانت دولة السلطان أبي سعيد المريني، كان المسلمون أهل جبل طارق، قد سئموا مُلْك ابن الأحمر صاحب غرناطة، وتحققوا بأن المريني أقوى منه شوكةً، وأقدر على تخليصهم، ممّا عسى أن يلقاهم به الاصبيون، من حصارٍ ونحوه، فعمدوا إليه يخطبون ولايته، ويعرضون عليه الدخول في طاعته، إذ هو أمدّهم بما يدفعون به في نَحْر ابن الأحمر، فأعجب أبا سعيد ذلك، وللحين بعث إليهم أخاه عبد الله بن أحمد المعروف بسيدي عمّو ومعه طائفة من الجيش إمدادًا لهم.» (الاستقصا 4 : 93 وحدوة الاقتباس : 417).

ثم إن المرابطين في جبل طارق يومئذ كانوا من أهل المغرب، وكان الجبل في يد المغاربة منذ استرجعهُ أبو الحسن المريني من النصارى، وقد حصنه بأبراج وأسوار، وصنعها المؤرخون، وما تزال ماثلة إلى يومنا هذا، كما بنى فيه دار صناعة، وجدّد أبو عنان تحصينه وتحسينه، وكان عقلاء الأندلسيين كابن الخطيب يوصون بني مرين بالتمسّك به والمحافظة عليه، ولهذا رأينا أبا عنان يولّي عليه ولده أبا بكر السعيد «وبعث معه أنجاد الفرسان ووجوه القبائل، وكفاة الرجال، ودرّ عليهم الأرزاق، ووسّع لهم الإقطاع، وحرّر بلادهم من المغارم، وبذل لهم جزيل الاحسان، وبلغ من اهتمامه بأمور الجبل أن أمر أيده الله بناء شكل يشبه شكل الجبل المذكور، فمثل فيه أشكال أسواره وأبراجه وحُصُونه وأبوابه ودار صنعته ومساجده ومخازن عُدَده وأهْرية زرعه وصورة الجبل وما اتصل به من التربة الحمراء، فَصُبِغ ذلك بالمشور السعيد، فكان شكلا عجيبًا، أتقنه الصناع إتقانا، يعرف قدره من شاهد الجبل، وشاهد هذا المثال، وما ذلك إلا لتشوفه أيده الله إلى استطلاع أحواله وتهمّمه بتحصينه وإعداده، والله تعالى يجعل نصر الاسلام بالجزيرة العربية على يديه، ويحقق ما يؤمله في فتح بلاد الكفّار وشتّ شمل عباد الصليب.» (رحلة ابن بطوطة 2 : 185).

فلا عجب — بعد هذا الكلام الذي هو لأندلسي غرناطي هو ابن جزي — أن يظل أهل جبل الفتح على ولائهم للمرينيين، بعد أن تمكن الغني بالله من أحفاد منهم، خلال فترة من فترات الاضطراب، وما عمر عمه ابن حري في آخر كلامه لم يكن ليعجز أبا عنان وأبا الحسن من قبله، ولكن سياستهما، اتجهتا إلى توحيد المغرب الإسلامي ليكون مدد الجهاد في الأندلس قويا وفعّالا، ثم إن دولة بني نصر قامت على أساس التحالف التام مع المغرب، والاستعانة الدائمة به، ونِظامُ مَتيخة العزاة المغاربة دليل على ذلك، وقد كان أبو الحجاج وولده العني بالله يخاطبون أبا الحسن بالوالد، ومن هنا فقد اكتفى

المرينيون تمشيخة العزاة مع مواقع أقدامهم في جبل طارق ورندة والخزيرة الخضراء.

ولكن الاضطرابات التي وقعت في المغرب بعد أبي عنان، والبوايا السيئة لملوك بني الأحمر، وتهافت بعض شيوخ العزاة وغيرهم من أبناء الأسرة المرينية على الملك، والعوامل الأخرى، كل ذلك أدّى إلى ما أدى إليه من سوء الأحوال، وفساد الأوضاع، وأصبح الشغل الشاغل للغني بالله، بعد عودته من منفاه في المغرب، الذي أحسن إيواءه، وأكرم وفادته، هو التشعيب على بني مرين، والعمل على انتزاع مواقعهم في الأندلس، والتطلع إلى سدة المغربية، والتدخل في شؤون المغرب الداخلية، وسار على هذه السياسة من جاء بعده، مستغلين فترات الاضطراب التي استشرت في المغرب، ووجودَ اللاجئين الطامعين من بني مرين في غرناطة وهكذا، أنقص النصريون الظَّهر الذي يَسْنُدهم، وأهكوا البلد الذي كان يحميهم، ومع ذلك نراهم يرمون أهل المغرب بدائهم ويسلّون، وما أفعال هذا الملك الملقب بالناصر لدين الله إلاّ مثالٌ صارخ على ما نقول.

وفي الديوان معلومات أخرى حول قضية جبل طارق، لعلّ من أطرفها اتهام ابن فركون لشخصيات علمية أندلسية بالخيانة من أجل انحيازهم إلى جانب المغرب في مسألة جبل طارق، قال في مقدمة قصيدة كتب بها إليه أبو القاسم بن حاتم المالقي : «وهو شاعر مفلق، وقد تولّى قضاء جبل الفتح الولاية التي ظهر فيها من سوء رأيه، ما قضى لمسى عزّهَ بسقوطه ووهيه، وهو الآن بعد حطوب فادحة مقيم بسبتة»[224] هكذا يقول ابن فركون.

ونقرأ في غلاف مقامة هذا القاضي الأديب، المدعوة «حضرة الارتياح، المغنية عن الراح» المطبوعة في فاس وتونس، أنه كان قاضيًا بجبل الفتح، ثم إنه امتحن، وأخذ وحمل إلى فاس، واعتقل بها مدة طويلة، فصنّف وهو في السجن كتابَ «جمع المقال، في الاعتقال»[225].

والشخص الثاني الذي كان له دورٌ في قضية حل طارق هذه هو أبو زكرياء السرّاج

(224) الديوان : 183.

(225) تقع مقامة «حضرة، الارتياح» في 15 صفحة أما مؤلفها فلا يعرف عنه إلا ماورد على غلاف هذه المقامة وشعره في «مطهر النور الباصر» وما أشار إليه أبو الحسين ابن فركون وقد نقل عنه ابن الاورق في روضة الاعلام حكاية مهد بها بقوله «رأيت خط الشيخ الفقيه الأديب البارع أبي القاسم محمد بن أحمد بن عبد الله بن حاتم العاملي المالقي الشهير بابن الساد..» روضة الاعلام 395 مخطوط ح.ع.ر.

الذي يخاطبه الشاعر بقصيدة مؤرخة بعام ثمانية وثمانمائة، جاء في التمهيد لها : «وكانت بيني وبين الفقيه أبي زكرياء يحيى بن السّراج، من أهل ربدة، مكاتبات أيام القراءة، إلى أن رلّت به قدمه، وخانته همَمُه، ونزع أيام فتنة الرئيس البائس الواصل إلى حبل الفتح، إليه، ثم استقر أخيرًا بفاس، وبها وافته منيته، أعادنا الله من سوء العاقبة»[226].

أمّا هذا «الرئيس البائس» الواصل من المغرب إلى حبل الفتح لإعادته إلى السيادة المغربية فلم يتمكن من تحديد هويته، وقد وردت الاشارة إليه مرة أخرى في الديوان كما يلي : «وقلْتُ أُهنّىء مَقامَه الكريم، أسْماهُ الله، بعيد الأضْحى، منْ عام ثلاثة عشر وثمانمائة، بالمَحَلّة، من ظاهر حبل الفَتْح، عَصَمَهُ الله، عنْدَ مُحاصَرَته والأحد بمُحقّقه برًا وبَحْرًا، والتّضْييق عَلَى المَحَلّةِ الغَرْبيّة النّازلةِ بإزائِه، مَعَ الرّئيسِ البائسِ المُحَكَّم فيه سَيْفُه اليوسُفِي بعْد دلك، وقَدْ فَرّ إلَيْهِ بَعْضُ العادرين المارقين مُرُوق السّهْم عن الدّين».[227] كما ذُكِرَ مرّةً ثالثة في التقديم الآتي لبعض القصائد :

«وقُلْتُ أمْدَحُ المَقامَ الكَريم اليُوسُفِي، أسْماهُ الله، وقَدْ وافق دلك إيصال الرّئيس البائس الواصِلِ منَ المغْرب مُعْتَقَلاً»[228]

ويقول الشاعر مشيرًا إلى هذا «الرئيس البائس» :

أتى وتيابُ الهونِ تَعْلو قُيودَهُ ... فيَرْسُفُ طوْعَ الذّلّ فيها ويرْفُلُ
وجَاءَ وقَدْ حفّتْ بهِ الشّيعةُ التي ... لها من دميم العذْر ما ليْس يُجْهَلُ
تَحامَى طَريقَ الرُّشْدِ منْ قَبْلُ فاعْتدَى ... تُدلّلُهُ آراؤُهُمْ وتُصَلّلُ
ولَوْ أمّلَ المَوْلَى الخليفة يُوسُفا ... لما راعَهُ خطْبٌ من الدّهْرِ مُعْضِلُ
ولَوْ أمَّ للْبابِ الكريمِ لأصبحَتْ ... وحُوهُ الأمَاني نَحْوهُ تتهلّلُ
ولكنّه ما حَدّ إلاّ لأنْ يُرَى ... كما شاءه المقْدارُ وهْو مُحَدّلُ[229]

ويقول أيضا فيه من قصيدة أخرى :

---

(226) الديوان : 197 — 180
(227) نفسه 87.
(228) نفسه : 59
(229) نفسه 30

فيا مجْمع البحْرين أهْوِنْ بمنْ أتى ... يروهُ لتسْهل الذي فيك تفرُّقا
توارى وقدْ حقّتْ به شيعةُ الهُدى ... وأضْحى به خُنْدُ العَرائم مُحْدِقا
وصلّ طريق الرُّشْد لا درّ درُّهُ ... فلمْ يُلْف إلاّ ساهِرَ الجَفْنِ مُطْرِقا
فمنْ فرقٍ عنْ حربه كفّ إذْ رأى ... يد الله تعْلو منهُ بالسّيف مفْرِقا[230]

ولا نعرف هل هذا الرئيس من بني مرين أم من بعض بني الأحمر الذين كانوا في خدمتهم، وقد ورد وصف «الرئيس البائس» في «حنّة الرصى» لابن عاصم، في حق بعض المصريين الخارجين على محمد التاسع العالب بالله[231]، فهل يكون هذا الرئيس البائس هو الرئيس محمد بن أحمد الأبكم من بني الأحمر رئيس الأسطول المعربي في عهد أبي عنان ومن جاء بعده، وهو الذي أسهم بأسطوله سنة 788 هـ في استرجاع سبتة إلى الايالة المرينية[232] ؟ قد يكون ذلك، ولا سيما أنّ ابن فركون يقول فيه، مشيرا فيما يبدو إلى أعماله السابقة، وتفانيه في نصرة بني مرين على بني أسرته :

تحامى طريق الرشد مِنْ قبْلُ فاعْتدى ... تُدلّلُـــهُ آراؤهـــــم وتُضَلّـــــلُ

أما وصوله من المغرب إلى غرناطة مُعْتقلاً، فلعلّه تم على يد أنصار السعيد.

وأمّا يحيى السّراج المشار إليه فأمْره متشكّل كذلك، إذ يوجد عندنا الشيخ القاضي الخطيب أبو زكرياء يحيى ابن السراج الذي كان مرابطًا في جبل الفتح، حيث لقيه كلّ من ابن الخطيب وابن بطوطة سنة 751 هـ، وهذا الشيخ ـــ كما نعته الأول ـــ توفي في حياة ابن الخطيب، إذْ نراه يترحّم عليه في الكتيبة وريحانة الكتاب[233]، وإذن فليس هو المقصود هنا ؛ وعندنا أبو زكرياء يحيى ابن السراج البصري الزبدي الأصل، وصاحب ابن عباد الزبدي الصوفي المعروف، ولكن هذا كما في فهرسته فاسي المولد[234]، وليس في الموجود من هذه الفهرسة ما يدل على أنه كان في رندة، أو دخل الأندلس[235]،

(230) نفسه 88

(231) هو الرئيس الأبكم من بني الأحمر راجع الاستقصا 4 : 73 وفيض العباب وقد اشترك في استرجاع سبتة الى الايالة المرينية عام 788 هـ.

(232) حنة الرصى، مخطوط الخزانة الحسنية

(233) الكتيبة الكامنة 124 وريحانة الكتاب ورحلة ابن بطوطة 2 183

(234) فهرسة السراج : 24 ـــ 25 مخطوطة ح.ع.ر

(235) راجع في هذا الموضوع أطروحة الأب نويا عن ابن عباد الزبدي : 11 ـــ 14.

هذا فضلا عن أنه ـــ كما في ترجمته ـــ توفي عام 804 هـ أو 805 هـ[236] أي قبل مكاتبة ابن فركون المؤرخة بعام 808 هـ، وقبل حادثة طارق التي كانت عام 813 هـ.

وأما أبو زكرياء يحيى ابن السراج الّذي ذكره ابن فركون، فكل ما نعرفه عنه أنه كانت بينه وبين ابن فركون مكاتبات ومحاورات نثرية وشعرية، وممّا جاء في قصيدة ابن فركون المشار إليها قوله متشوقا إلى زيارة صاحبه في رندة ومادحًا أباه :

فيا لَيْتَ هذا القلْبَ تُوسَى كُلُومُهُ ... بِرَوْرةِ حِلٍّ أَحْرَزَ المَجْدَ أَوْ سيّا
وحُبُّ أبيهِ الماجِدِ العَلَمِ الـرِّضَى ... يدينُ بهِ مَنْ يَقْصِدُ الدّينَ والدُّنْيا
فمَنْ شاءَهُ لِلْعِلْمِ أَلْفَى إمامَهُ ... يُحَلّي لَهُ في كُلّ مُشْكِلَةٍ هَدْيا
ومَنْ حلّ مَثْواهُ يجِدْهُ مَثَابَةً ... بِهَا يَرِدُ العافُون مُسْتَعْذَبَ السُّقْيا
وأمّا إذا أُلْقَى مِن الذِّكْرِ آيةٌ ... فَدونكَ ما تَبْغيهِ منْ عايةٍ قُصْيا
فللهِ دَرّ اللّفْظِ إن نصّ حُطْبَةً ... وللّه بَحْرُ الحِفظِ إنْ فسَّر الوحْيا[237]

وقد اختار له ابن فركون في مظهر النور الباهر 3 قصائد في مدح يوسف الثالث[238]، وقال في تحليته : «الفقيه الأعز أبو زكرياء يحيى بن أحمد ابن السراج من أهل رندة»[239]، وهذا الأخير يتفق في الحقيقة مع الذي قبله في الكنية والاسم واسم الأب والنسبة إلى رندة، ويتفق معه في كون والد كلٍّ منهما كان مقرئا وخطيبًا، ويتفق معه في الوفاة بفاس، فهل يكون ابن السراج صديق ابن فركون هو نفسه صاحب ابن عباد، ووقع خطأ ما في كتابة وفاته بأن سقط منها شيء كأن يكون تاريخ الوفاة 814هـ أو 815 هـ بدلاً من 804 هـ و805 هـ وقد ورد تاريخ وفاة السراج في فهرسة المنتوري هكذا : «توفي في يوم الأربعاء السابع لشعبان عام ثلاثة وثمان مائة» ونقل هذا التاريخ أحمد بابا السوداني في نيل الابتهاج فقال : «توفي السراج بفاس عام ثلاثة وثمانمائة» ومن الممكن أن يَسقط عدد عشرة فيبقى التاريخ كما ورد.

---

(236) نيل الابتهاج 356 وجذوة الاقتباس : 539 وسلوة الأنفاس 2 : 143.

(237) الديوان : 199 ـــ 200

(238) مظهر النور الباهر 140 ـــ 153.

(239) المصدر نفسه

وهذا الافتراض الأول، يدعونا إلى افتراض آخر، وهو أن هجرة أسرة السراج الرندية المقرية، وهجرة أسرة ابن عباد الرندية النفزية كذلك إلى المغرب، كانتا لسبب سياسي، هو ولاء هاتين الأسرتين لبني مرين، الذين ظلوا يحتفظون برندة إلى آخر عهد الغني بالله، وثمة خبر مُبْهم قد يستفاد منه أن ابن عباد سجن بسجن أرباب الجرائم في الأندلس لميوله المغربية[240]، ومن المعروف أن هذا الزعيم الروحي كانت له مكانة كبرى عند السلطان أبي العباس أحمد بن سالم المريني، وأنه ولّي أكبر حظة دينية في المغرب، وهي حظبة القرويين بفاس، ولما مات شهدَ السّلطان المذكور جنازته.[241].

ومع أن افتراض لجوء ابن عباد وبعض الرنديين — الذين سماهم ابن بطوطة في رحلته — إلى المغرب، كان بسبب النفرة من بني نصر، يظل افتراضا وجيهًا، فإن افتراض أن يكون السراج الشاعر الذي ذكره ابن فركون هو صاحب ابن عباد يبقى محل نظر، ومما يقف في وجهه أن هذا المحدث الخطيب لم يشتهر بقول الشعر، وإن وجدنا له أبياتا في رسائل ابن عباد الكبرى (ص 126)، وقد ساق في فهرسته ثلاث قصائد غير منسوبة في رثاء ابن عبّاد، وعرفنا منها واحدة لعلي ولد ابن الخطيب السلماني (الفهرسة : 29 — 31) فلو كان يحسن قول الشعر لقاله في مربيه الروحي.

وهذا بالاضافة إلى ما يذكره في فهرسته من أن والده فاسي الولادة والوفاة، وما تنطق به من عدم دخوله الأندلس إلى تاريخ كتابة الرحلة عام 792 هـ، كما أنه يستعمل في حق بعض الأندلسيين الوافدين على فاس مثل هاتين العبارتين :

«قدم علينا رسولاً من حريرة الأندلس» «ثم ورد علينا أيضا رسولا»، ومع ذلك فيبدو من رسائل ابن عباد أن أسرة السراج لم تكن قد اندمجت تمامًا في المجتمع الأندلسي، ولم يكن يعتبر كفاسي صميم.

ويبقى بعد هذا كله افتراض أخير، ولعلّه الأقرب، وهو أن يكون يحيى بن أحمد السراج صاحب ابن فركون الذي كان يعيش مع والده في رندة عام 808 هـ حفيدًا ليحيى بن السراج، ذلك الشيخ المسن الذي لقيه ابن الخطيب وابن بطوطة في حبل طارق عام 751 هـ، وقد جرت العادة أن يُسَمّى الحفيد باسم الجد، ولو أن ابن فركون رفع نسب صاحبه إلى جدّه لَحُلّ الاشكال، وممّا يجعل هذا الافتراض الأخير مقبولاً عاملُ

(240) الاحاطة 3 252

(241) فهرسة السراج وجدوة الاقتباس وغيرهما.

السن. فابن فركون يتحدث عن هذا السراج وكأنه من أترابه، وقد عرفنا أن أبا الحسين من مواليد 781هـ في حين أن السراج الفاسي ولد بعيد 740 هـ.

ومهما يكن الأمر فقد وجدنا ابن فركون يذكر اسم يحيى مع أخ أو صديق له كان لهما دور في أحداث حول طارق، وذلك إذ يقول :

ويَحْيى الذي قَدْ فَرَّقَ اللهُ جَمْعَهُ ... فمرّ إلى أقْصَى البلاد وفرّطا
وكانَ لمولاهُ حقوقٌ عَظيمةٌ ... عليْهِ، وحلّتْ أن تُضاعَ وتُغْمطا
ولكنَّ مَن تُرضيهِ أفعالُ عَبْدِهِ ... إذا رامَ أن يَرى رضى اللّه أسْخطا
فلا أملٌ منْ قَبْلُ إلاّ مُحَيِّتٌ ... ولا عملٌ من بَعْدُ إلاّ وأُحْبِطا
فقَدْ عادَرَتْهُ حالُهُ واهِيَ القُوى ... وفي وَحلٍ من عَبْدِه مُتورِّطا
وأظْهَرَ تَقْوى اللهِ حينًا وقدْ عدا ... لئيمًا دميمًا فائل الرأي أمْعطا
وحادعَ بالرُّجْعى إليهِ فَعِنْدَما ... تَروّعَ في نار الجحيم تورّطا
ونادى على بُعْدٍ أحاهُ فحاءَهُ ... وحلّ حِماهُ بعْد ما كان أحْلطا
لقدْ خَطا عشْواءَ إذ خطا التي ... بها كلُّ شرٍّ في الوجود تَأنّطا
يُرومادِ بالغدْرِ اهتداءً وإنّهُ ... ليقضي دُحاهُ أنْ يتيها ويَخْبِطَا
وأدْكيا سِقْطَ الزَّنْدِ في الفتْنةِ التي ... قصَتْ بعْد فيها أن يرلاّ ويسْقُطا
وحطّتْ بهُجْرِ القولِ سُلّتْ يداهُما ... وما عرفا حطًّا ولا تركا خَطا
فقالَ لسانُ الحَطْبِ إذْ حار فيهما ... ألاَ فاحطُبا إن شئتُما اليَوْم واحْطُطا[242]

وأحسب أن الابيات الاخيرة تشير الى يحيى السرّاج الذي ربما كان حطياً أو طامعاً في خطة الحطابة جبل طارق، شأن حده فيما نَفْترِضُ، كما أنها فيما بعدهم تشير أيضا إلى أبي القاسم بن حاتم قاضي الجبل، وشريك السراج، في الانضمام الى بني مرين، وقد يتضح هذا حينما نُقارن قول ابن فركون فيهما هنا :

وَأدْكيَا سِقْطَ الزَّنْدِ في الفِتْنَةِ الّتِي ... قصَتْ بعدُ فيها أنْ يَرِلاّ ويَسْقُطَا

---

(242) الديوان 74 — 75

بقوله في أحدهما أيضاً فيما سبق : «ظهر فيها مِنْ سوء رأْيه، مَا قصَى لِمَشْيَى عِزّه بسُقُوطه ووهْيه» وقوله في الآخر : «رلّتْ به قدمُه»؛ وقارن أيضا قوله في يحيى المذكور في القصيدة :

فلا أُمِلّ مِنْ قبلُ إلاّ مُحيّتٌ ولا عَمَلٌ مِنْ بعدُ إلاّ وأُحْطا

بقوله فيه فيما سبق : «أعاذنا الله مِنْ سوء العاقبة».

كثير هو الشعر الذي يؤرخ حصار يوسف الثالث حصن طارق، وتجهيزه من يتغلّب على أبي سعيد عثمان المريني، سواء في ديوان يوسف، أو في ديوان شاعره ابن فركون هذا، ومن حسن الحظ أن هذا الشعر مؤرَّخٌ، ومسوق بمقدمات تشرح مناسباته، وسنستعرضه حسب تاريخ صدوره، جاء في ص 50 ما يلي : «وَمِمَّا صَدَرَ عَنِّي في هنائه أيّدهُ الله بحُلولِ ركابه العَلي، بظاهِرِ مالقة، بإثْرِ مُحالفَةِ المارقين، من أهْلِ حصن الْفتْح، وهي السَّفْرةُ الأُولَى الّتي أحارَ فيها السُّلْطان السَّعيد إلَى الغَرْب، ودَخَل مالقة في يوْم الاثْنَيْن الثّالثِ لِتسْعَان عامَ ثلاثة عَشَرَ وتَمَاني مائة».

والسعيد المذكور هو محمد بن عبد العزيز بن أبي الحسن المريني، بويع بالملك بعد موت أبيه، وهو ابن خمس سنين، ودبر أمور الدولة الوزير أبو بكر بن غازي، ثم خُلع أول 776هـ وعَرَب إلى الأندلس. وها هو يعود بعد 38 سنة و 7 أشهر للمطالبة بالملك ومنازعة أبي سعيد عثمان عليه[243]، وقد دفعه الى ذلك يوسف الثالث انتقاماً من السلطان عثمان، لسعيه في استرجاع حصن طارق، وقبوله بيعة أهله.

وقد كان حوار السعيد في أحضان أندلسية أمدّته بها يوسف الثالث، ويبدو أنّ حوازه كان من مالقة.

ويذكر ابن فركون أن الأحبار وَرَدَتْ «بحُلُولِ أحْفابِهِ الْمُؤَيّدَة بساحِلِ الْمَغْرب، و نُزول السُّلطان السعيد بَرّ العُدْوَة، بالفُرْسانِ والرُّماة، في آخرِ رَمضان عامَ ثلاثَةَ عَشَر»، ويقول مشيراً الى هذا السعيد المُتَوَجّه لأخذ المدينة البيضاء (فاس المرينية) :

وَكَمْ مِنْ يدٍ بَيْضاءَ طَوَّقْتَها فَتًى إلى مَرْبِلِ «البَيْضاءِ» قد أعْمَلَ الرُّحْعَا
رَمَى «دَارَهُ الْبَيْضَاءَ» أحْداً بتأْرِهِ بِمَا قَدْ رَمَى سَيْفُ بْنِ ذي يَزَنٍ صَنْعَا
درأْتَ بِهِ في صَدْرِ كُلِّ مُعَانِدٍ سِهَامُ الْمَنَايا نَحْوه أُحْكِمَتْ وَقْعَا

(243) انظر في السعيد هذا حدوة الاقتباس : 209 والضوء اللامع 8 : 62.

ويقول في الأحفان التي حملته وأتباعَه :

ولله منها مُشتآتٌ قد ارتمتْ على اللُّجِّ رفعاً حينَ أحْكَمْتَها وضْعا
سرَتْ وظلالُ الأمْنِ واليُمْنِ فوقها فأحْسِنْ بِهِ مَسْرًى وأنْجِحْ بِهِ مَسْعا[244]

ويذكر أن توجيه هذا «السعيد» وإعانته كان استجابة لبني مرين :

وآلُ مرين إذْ دعَوْا مِنْكَ ناصِراً ولمْ تُهْمِلِ الدَّعْوَى، ولم تُغْفِلِ المَدْعَى

وهذه المناسبة — على ما يبدو — نظم يوسف قصيدة في مخاطبة أوليائِهِ من بني مرين، وعرب بني حسين، والأحلاف.

وقد نعت في هذه القصيدة أبا سعيد عثمان بالتؤم والتعاون مع النصارى والتفريط في الثغور، ثم دعا أولياءه المذكورين إلى تأييد مرشحه السعيد، وخصَّ بالذكر منهم محمد بن يعيش، ولد وزيره في دولته الأولى، قال :

قُومُوا إلى نَصْرِ «السّعيدِ» حِمايَةً فالدّينُ إنْ لَمْ تَجْمَعوهُ يُبَدَّدُ
وتَمَكّنوا في فاس مِنْ «عُثْمانِها» واسْتَنْصِرُوا بسَنَى الْحَقيقَةِ واهْتَدوا

وهو يزعم أن القصد هو العودة الى العهد القديم، وإحياء الاتحاد بين الدولتين من أجل جهاد العدو :

إنّ النَّصارَى قَدْ تَجمّعَ شَمْلُها فَعَسَى بِبأسٍ سيُوفِكُمْ تَتَبَدَّدُ
وتَروعُهُمْ مِنْكُمْ سُيوفُ حِمايَةٍ يَجْلو دُجَاها يُوسفٌ ومحمَّدُ
أحْوالِ قَدْ قامَا بِنُصْرَةِ دِينِهِ فالدَّهْرُ يَبْلَى والثّناءُ مُخَلّدُ[245]

وهو يعني بيوسف نفسه، أمّا محمد فهو اسم «السعيد» المريني.

ومهما يكن الأمر فقد تمكن السعيد من دخول تازة في 19 ذي القعدة عام 813 هـ وانتظمت جهاتها في طاعته[246].

---

(244) الديوان : 52.
(245) ديوان يوسف الثالث : 51.
(246) الديوان : 53

ووصل البشير بذلك الى يوسف التالث وهو محاصر جَبَل طارق فنظم ابن فركون قصيدةً حاء فيها

ولَقَـدْ حـاءَتِ البَشائِـرُ حَتَّـى أعْـذبَتْ مَـوْرِدَ السُّرورِ وأحْـلَتْ
بِعُـلاكَ السَّعيـدُ مُـلْكَ أرضاً لَكَ ألْقَتْ ما عِنْدَها وتَخـلَّتْ[247]

وكان مع السعيد في هذه الحركة المشؤومة ولدان له، وقد أشار إليهما ابن فركون في قوله من قصيدة (الديوان : 88) :

نَضَيْتَ عَلَى الأعْداءِ مِنْهُ مُشَهَّراً وأرْسَلْتَ مِنْ نَجْلَيْهِ سَهْمَيْنِ فُوِّقا

وهذان الولدان هما عامر والمسعود، فأما عامر فيذكر الشاعر أنه تمكن في ذي القعدة عام 813 هـ بواسطة الاجناد الأندلسية من فتح طنجة ودحول قصبتها وفي ذلك يقول :

هـذه فـاسٌ الحديـدُ تتكَّتْ فأنَـلْتَ السَّعيـدَ مِنْهـا آختيـارَهْ
وابْنُهُ «عامرٌ» مِنَ «الرِّيفِ» يُمْسي عامِـراً رُبْعَـهُ المُنيـفَ ودارَه[248]

وأمّا المسعود فقد ذكره في قصيدة مؤرخة بربيع الأول عام أربعة عشر وثماني مائة، وذلك إذ يقول (الديوان : 62) :

وقَبْلَـهُ وافَتِ الأجْفـانُ مُهْدِيـةً بُشْرَى بِهَا فَوْقَ لُجّ البَحْرِ قَدْ سَبَحَتْ
بُشْرَى أتَتْكَ مِن «الْمَسعود» قائلةً: هدي الصِّفاحُ دَمَ الأعْدَاءِ قَدْ سَفَحَتْ
فَمِنْ مَطالِعِ أنْوارٍ بِهـا اتضَحَتْ ومِنْ ميادِينِ آمالٍ بها آنْفَسَحَتْ
وقبلُ، والدُهُ الأرْضى وهَبْتَ لَـهُ مالا تجودُ بِهِ نَفْسٌ ولاَ سَمَحَتْ
لا كِنَّ ضيّعَ بَعْضَ الْحَزْمِ حينَ رأى مَيْلاً إلى فئةٍ عَشّتْ وَما نَصَحَتْ
فَقُمْتَ بالأمْرِ ثَبْتَ الْعَزْمِ ثانيـةً حَتَّى كَأنَّ جُيُوشَ النَّصْرِ ما بَرِحَتْ
وَفَّيْتَـهُ حَقَّـهُ مِـنْ كُـلِّ مَكْرُمَـةٍ وَإنْ نَأتْ بِك عَنْهُ الدارُ أوْ نَزَحَتْ

وقد كان يوسف التالث يطمع في أن يتعلب السّعيد على فاس وعَلى أبي سعيد عثمان، ويبعثه مقيداً إلى غرناطة :

(247) نفسه : 54.
(248) نفسه : 54.

عَـــنْ قَـــريبٍ يَرورُنـــا في قُيـــودِ الأداهِـــمِ[249]

بيد أن أمله خاب، فقد حرت الهزيمة على السعيد بظاهر فاس، واختلف أتباعه، وفي ذلك يقول ابن هركون :

وكيف تُدْفعُ عن فاسٍ أُسودُ وغىً وما مرابضُها إلاّ مزارعُها
إنْ أحْفلَتْ فِئةُ التَّوْحِيدِ هَا هِيَ قَدْ عادَتْ تُمارِلُ فيهَا مَنْ يُمارِعُها
وَقائعٌ مـحّص الله ٱلْعِنَـاد بِهـا حَتَّـى تَنَيَّـنَ عَـاصِيها وطائِعُهـا
إنْ كانَ ضُيِّعَ حَرْمٌ عِنْدما ٱفْتَرقَتْ فَإنّ حـودَكَ حَامِيهَا وَحامِعُهـا[250]

وأشار الى تضييع الحرم مرة ثانية في قصيدة أخرى[251].

ولمّا أعاد السّعيد الكرة تلو الكرة دون جدوى، وشكا يوسف من «محالفاتِ السّعيد لِما أرْدْنَاهُ مِن الابقاء عَلَى رَمَقِه، وتَرْكِ الرّعايا لِما يَبْتَغِيون بِهِ منَ الأمْرِ وتَمْهيد طُرُقه، ونَظَرْنَا إلى ٱلأمْرِ الّذي أحْهَدَنا تَسَعُّبُ حَرْقِهِ»[252]. استحاب لطلب «الصُّلْحِ الّذي رغِبَ السُّلطان أبو سَعيد في عَقْده بَيْنَهُ وبَيْنَ ٱلسّلطان ٱلسّعيد عَلى قِسْمة ٱلْبِلادِ ٱلْعَرْبيَة بَيْنَهُمَا»[253] وفي هذا يقول شاعره بمناسبة عيد الأضحى من عام 815 هـ :

ولمَّا توالَتْ فِتْنَةُ الْعَرْب واعْتَـدَتْ عَلى أهْله في كُلِّ حيٍّ طُغاتُهـا
وما ٱتّفقَتْ إلاّ عَلَى صُحْبَة الرَّدى كَمـا ٱحْتَلـمَتْ آراؤهـا ولُعاتُهـا
دَعَتْكَ لِعَقْدِ السِّلْمِ بَيْنَ مُلُوكِهـا أكَـارِمُ حـيّ في يَـدَيْك حياتُهـا
فـأصْدَرْتَ للأمْـلاكِ مِـنْك أُوامِـراً إذا نُطِقَتْ في الحَفْلِ طالَ صُماتُها[254]

وبعد هذا التقسيم الذي ذكره الشاعر، كانت نهاية السعيد في أول محرم 816 هـ، إذ «تَقَضّ به فرسُه بحَدَقٍ، وهُو سكرانُ، فأُدْرِك به، وحُزّ رأسُهُ.. وحيء به إلى أبي

(249) ديوان يوسف الثالث : 117
(250) الديوان 97.
(251) نفسه : 62
(252) ديوان يوسف الثالث 52.
(253) الديوان : 99
(254) نفسه 101

سعيد» كما يقول السخاوي في الضوء اللامع[255]، ووقع إثر ذلك صلح بين أبي سعيد عثمان ويوسف الثالث، وعاد «الوداد، بَعْد الثوب الشِّداد» حسب عبارة هذا الاخير[256]، وفي ديوانه قصيدة نظمها بهذه المناسبة في 27 صفر عام 816 مطلعها :

هي بُشْرى دعتْ جميع العباد ... للتهادي على صريح الوِدادِ

وقد ختمها مضمّناً قول المتنبي :

«حسم الصُّلْحُ ما اشْتَهَتْهُ الأعادي»[257]

وهو يعود في هذه القصيدة إلى مدح بني مرين، بعد أن كان قد هجاهم[258]، ويثني على أبي سعيد، ويذكر فضل جدّه أبي سالم على المصريين، فيقول :

هكذا الفخْرُ يا أعزَّ قبيلٍ ... مُحْرِزٍ للسّباقِ حَصْلَ الْجِيادِ

حدُّ سُلْطانِكُمْ أفاد العوالي ... فظفِرْتُمْ بذُخْرِهِ المُسْتفادِ

وعليْنا لِسِبْطِهِ حِفْظُ عَهْدٍ ... مُسْتَقِلٌّ مُصَحَّحِ الإسْنادِ

إذْ نُحيّي أنا سَعيدٍ بأرْكى ... ما تُحَيَّا بِهِ صُدُورُ الوِدادِ

فاتحتْنا يمينُهُ بكتابٍ ... فأرانا كتيبةَ استِعْدادِ[259]

ويتفاءل بأن هذا الصّلح سيمكن من الالتفات إلى العدو المشترك الذي أفاد كثيراً من الهدنة التي عقدها مع الطرفين :

حجَّةُ السِّلْمِ أكسَبَتْهُ عُتوّاً ... وَبَلاَيَا مُحيطَةً بالبِلادِ

ولا نعلمُ مبلغ هذا الصّلح من الصدق، ولا مآله، غير أننا نجد الشاعر أبا الحسين يُشيد سُلطانه قصيدة في مناسبة عيد الاضحى 816هـ، «بالمشْوَرِ السَّعيد، مِنْ حَمْرائِهِ

---

(255) 265 الضوء اللامع 8 : 62 أما الحسن الوزّان فيذكر أنه هلك بالطاعون. وصف افريقيا 1 : 210.

(256) ديوان يوسف الثالث 40.

(257) نفسه 50.

(258) انظر قصيدته التي يقول فيها (109) :

فليْسَ حمَامةٌ مثْلَ آلِ نَصْرٍ ... ولا آباؤُهُمْ ثُمَّ وساءْ

(259) ديوان يوسف الثالث 40

العَلِيّة، وقَدْ وَرَدَ عَلَى بابه ٱلكَرِيم حُمْلَةٌ وافرةٌ مِنْ أكابر بَنِي حَنابه، مُتَمَسّكين بأوْثق أسْبابه، فأولاهم أيده الله مواهب أنعمه وآواهم، ووفّر نزلهم عدَ وفادتهم وكرّم مثواهم، فاطْمأنّت بِهِمُ ٱلدّار، وقرّ بحَضْرَتِهِ ٱلْقَرار». ويقول في القصيدة :

وَحاءَتْ مَرينٌ مِنْ أقاصي بِلادِهَا فَكَانَ لَدى مَوْلَى ٱلْمُلُوكِ حُلُولُها
تَحُلُّ مَطَايَاهَا بِهَا مِنْ جَنابِهِ مَنَازِلَ عِزٍّ ليسَ يشقَى نَزيلُهَا[261]

وقد أشار الشاعر إلى هذه الوفادة، أو وفادة أخرى قبلَها، في عيدية الفطر من العام نفسه، وذلك إذ يقول :

وقفتْ بِبَابِكَ مِنْ مَرِينٍ أُسْرَةٌ طَوْعَ ٱلْوَفاءِ فَمَا تُضاعُ عُهُودُهَا
وافَتْكَ لاَ تَثْنِي أعِنَّةَ سَيْرِهَا وَرَجاؤُها إذْ يَمَّمَتْكَ يَقُودُهَا
فأنَلْتَ ما شاءَتْ مِنَ النِّعَمِ ٱلّتي يُرْجَى، وإنْ عَظُمَتْ لَدَيْكَ، مَزيدُهَا[262]

ومهما يكن الأمر فإن أسباب الخلاف بين الملك النصري والملك المريني تكون قد انتهت، أو خفّت، بعد مقتل السعيد، وعودة حبل طارق إلى مملكة غرناطة، ومع ذلك فقد رأينا سلطان غرناطة يستقبل وفود المرينيين اللاحقين إليه، كما أنه ظل يتدخل في شؤون العدوة، وهذا ما يدلّ عليه قول ابن خلدون : «وقَدْ وَصَلَ العبّاسُ بن غمراسَن، وَوَلَدُ اللُّبابي مِنْ قِبَلِ السُّلْطانِ أبي سَعيد، مُسْتَنْصِراً به عَلى أخيه أبي عَلي المُتوفى أثناءَ إقامتِهما بالحضرة قتيلاً، بَعْدَ هَزيمة انحَرّتْ عليْهِ بظاهر فاس، وقُبِضَ عَلَيْه بَعْد ذلِك، وسيقَ لِمَصْرَعه بَيْنَ يدَيْ أخيه، وكان رسوله قد ٱنصرف صُحبة قاضي الجماعة، وحار ٱلْبَحْر قَبْلَ ذلِكَ بيسير»[263].

لا نعرف من هؤلاء الأشخاص المذكورين في هذا الخبر إلاّ اللّبابي، وهو فيما يبدو، عبد العزيز ابن أبي لُبابة حاجب السلطان أبي سعيد، وقد كان خراب المغرب، وتلف دولة بني مرين على يد هذا الحاجب الذي «غَدَر مَوْلاهُ ومَخْدومَه، وَهَتَكَ سِتْرَهُ، وَخَرّبَ

(260) الديوان : 106.
(261) الديوان : 108.
(262) نفسه : 105.
(263) نفسه : 249

دارَه، وعَبَثَ بحريمه، وقَتَل أوْلاده وإخْوانَه»[264]، وذكر الوزان أنه فعل ذلك انتقاماً لشرفه[265]، واللّبابي المذكور من بيت بني لبابة من بيوتات فاس، وما يزال درب اللبابي معروفا في فاس بأسفل حومة المنية قريباً من زقاق الماء. (البيوتات 46).

وممّا يدلّ على استمراره في التدخّل في أمور المغرب، قول ابن فركون : «لَمَّا وُلِدَ ٱلْولدُ أحْمَدُ، حفِظهُ ٱللهُ، الّذي لمْ يبْقَ بقَيْدِ الْحياة سِوى الْعَهْدِ من إخوانِهِ غَيْرُه، ولعلّه يبقَى بفضْل ٱللهِ، ومَوْلِدُه ليلة ٱلسّبْت السّابع برجَب عام عِشْرينَ وثماني مائة، كنْتُ لمَوْلانا أبي الْحَجّاج، رحِمهُ الله، ساعَتئِذٍ...

وأعْمل رِكابه ثانِيَ يَوْمٍ مِنْ وِلادتِهِ إلى قَصْرِ نُبْلِه، وأنا صُحْبَتَهُ عَلى الْعادةِ، ثُمّ تَشاغَلَ يوم عَقيقتِهِ عَنْ تَسْمِيتِه، بأمْرِ تَوْجيهِ ٱلْوزير أبي عَبْد الله ٱلْقَبائِلي إلَى ٱلْمَغْرِب»[266].

ولا بدّ أن هذا القبائلي، هو قريب أبي العباس القبائلي، حاجب أبي سعيد الذي أُعْدِمَ سنة اثنين أو ثلاث وثمانمائة. ويحدثنا ابن فركون عن آخر محاولات يوسف التالت لإسقاط خصمه أبي سعيد فيقول : «وكانَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ قَدِ ٱشتدّ بِهِ ٱلْمَرَضُ ٱلذي قَضَى عليه، وهُوَ قدْ شَرَعَ في حَرَكَةِ تَوْجيه السُّلْطان أبي يوسُف يَعْقوب، أيَّدَهُ ٱللهُ ! وَتَوَجّه عَلَى مابِهِ مِنَ الألَم إلَى ٱلْمُنكَّب لياشِرَ بَنَفْسِهِ إجازَتَهُ مِنْهَا فأنْفَذَ ٱللهُ عَزَّ وَجَلّ حُكْمَه في وَفاتِه، بَعْد حَواز ٱلسُّلْطانِ بأرْبَعة أيّام فَجْأةً وَأصْبَحَ مَيّتاً يومَ ٱلأربعاء التاسعِ والْعِشرينَ لِرَمضان، عام تسعَةَ عَشر وثمانِي مائة، بَعْد أنْ كانَ أمَرَ بالتأهُّب لإقامَةِ ما جَرَتْ بِهِ ٱلْعادةُ مِنْ رسْم العيد بالطّعامِ وَغَيْرِه»[267].

ثم يقول في قصيدته عن هذا الصّنيعة الدّعي ما يلي :

نُشرَى بوَعْدٍ لنَصْرِ الدّين مَرْقوبِ أتَى بِهِ مُلْكُ يَعْقوبَ بْنِ يَعْقوبِ
وَلّيْتَهُ العِزّ فارتاعَتْ لمَقْدَمِهِ فَمُلْكُه بينَ مَوْهوبٍ ومَرْهوبِ
أنلْتَهُ مِنْ نَدَى كفّيْكَ صَيّبَةً تجودُه بين تَشْريقٍ وتغريب
كَثّرْتَ سائِلَهُ إذ جدت ماحِلَهُ فَرَوْضُهُ بينَ مطلولٍ ومَطْلُوب

(264) نفسه : 251.
(265) وصف افريقيا : 318 ترجمة د. حجي و د الأحضر.
(266) الديوان : 262.
(267) نفسه : 253.

إلى أن يقول :

ولا كَيَعْقوبَ إذْ صالَتْ حلافَتُهُ عما آستحقتْهُ مِنْ فَرْصٍ وتَعْصيب
أنْهَضْتَهُ سُبُلَ آباءٍ لَهُ دَرَجوا حَتّى استقلّ بأمْرٍ غَيْرِ مَعْصوب
أرْكبتَهُ البَحْرَ قصداً ان تُنَعِّمَهُ مِنْ صهْوةِ المُلْكِ أسْنى كُلّ مرْكوب[268]

إن المصادر المغربية لم تشر مطلقاً إلى يعقوب هذا وانما وجدنا ذكره عند السخاوي الذي يقول : «وأرسل ابن الأحمر يعقوب المريني الى فاس فلم يتم له الأمر»[269] وقال في ترجمته :

«يعقوب بن عبد الله الحاباني (أو الياباني). كان من اباء البربر، وتعلّق بالأشعال.

فلمّا رأى الفساد الحادث بفاس بسبب الفتنة بين السعيد وبين أبي سعيد، في سنة 817 هـ، صار يامر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويكف أيدي المُفْسِدينَ، فتبعتْهُ جماعةٌ، وقويت شوْكَتُه، بحيث حاولَ ملوكُ فاس القَبْضَ عليه فأعياهُم أمره إلى أن قتَلهُ أبو سعيد»[270].

ويبدو من تسمية الشاعر لهذا الصبيغة المصري بيعقوب بن يعقوب، ومن سياق الضوء اللامع كذلك أنهما شخصان : يعقوب الوالد، الذي يمكن أن يكون هو المشار إليه في قول يوسف الثالث (ديوان : 126) :

لو كان يعقوبٌ يخافُ جمامَهُ لَنجا بِهِ مِنْهُ جوادٌ مُلْجَمُ
ولكانَ مِنْ شَرَكِ الْحُتوفِ بحَيْثُ لا يَرْجو اللّحاقَ بِهِ العُقاب القَشْعَمُ
لكنَّهُ لما تقارَب يومُهُ لَمْ يَدْفع الْحَدَثان عَنْهُ مُنَجِّمُ

والاخر هو يعقوب ولده، وهو هذا الذي وجهه يوسف الثالث، بعد مهلك والده، وقد ذكر السخاوي أسماء مرينيين آخرين أرسلهم من حلف يوسف الثالث لطلب ملك فاس، وإثارة الفتنة في المغرب[271].

(268) نفسه 253 ــ 254.
(269) الضوء اللامع 10 283
(270) نفسه
(271) نفسه.

بعد هذا نتساءل عن سبب حقد يوسف الثالث على أبي سعيد، هل كان لأن والد هذا الأخير سم والد الأول في حُلّة مسمومة أهداها إليه كما تزعم الروايات[272] ؟ أم أنه كان ردّ فعل على محاولة أبي سعيد استرجاع حبل طارق ؟ أم أنه كان من فعل الخيران المسيحيين الذين كانوا يطبّقون سياسة «فرّق تَسُدْ» ونجحوا بأساليب محكمة في التضريب بين المرينيين ؟ أم أنه طموح الملكين الفارغ ليَتَغَلّب أحدهما على الآخر ؟ أم أنه طمع المتهافتين المرينيين على طلب الملك ؟ أم أنه كل ما ذكرنا ؟ ثم من الذي استفاد من هذا الصراع المدمّر ؟ وما هي نتائجه ؟

أما المستفيد فهم القشتاليون ـــ والبرتغاليون ـــ الذين استغلوا ظروف هذا الصراع.

وأما النتائج فمنها ما هو عام ومنها ما هو خاص، فمن النتائج العامة ضعف الدولتين معاً، فقد انقرضت الدولة المرينية في أعقاب هذه الاضطرابات الدّموية، وانحدرت الدولة النصرية نحو السقوط، وعاشت بين الحياة والموت بقية أيامها.

وتظهر النّتائج الخاصّة بغرناطة في استيلاء القشتاليين على أنتقيرة في قلب المملكة النصرية، وفي سقوط عدد من حصون الحدود.

وأمّا النتائج الخاصة بالمغرب فأحصرها استيلاء البرتغاليين على سبتة، وعلى غيرها فيما بعد.

ولقد وصلت إلينا روايات مختلفة في كيفية هذا الاستيلاء، فالقادري في نشر المثاني يروي قصة قال عنها صاحب الاستقصا إنها تشبه قصة قصير مع الرباء، وتلك هي قصة الصناديق المملوءة بأربعة آلاف رجل التي أنزلت بمرسى سبتة والناس مستغلون بصلاة الجمعة، ونجد صدى هذه الرواية في أبيات يقال إن أهل سبتة خاطبوا بها السلطان عبد الحق المريني (اختصار الأخبار : 77 والاستقصا 4 : 92).

وفي إنباء الغُمر لابن حجر رواية مفصلة سوقها فيما يلي، قال : «وفيها (أي في سنة 816 هـ) أخذ الفرنج سبتة، وكان السبب في ذلك أنّ أحمد بن أبي سالم المريني نزل عنها لابن الأحمر صاحب غرناطة، فانتقل ما كان فيها من العُدَد والأسلحة والذخائر إلى غرناطة، ثم اتفقت الفتنة المتقدّم ذكرها في سنة أربع عشرة بين السعيد وقريبه أبي سعيد إلى أن قتل السعيد، وأعقب ذلك الغلاء والوباء بمدينة فاس والغرب كلّه، فولّى

---

(272) الاستقصا 4 : 82.

السعيد على سبتة رحلاً سامهم سوء العذاب، ثم أرسل أبو سعيد إليها رجلاً من أقاربه يقال له صالح بن صالح فتناهى في الظلم وفشا فيهم الموت، وبلغ ذلك الفرنج فعمّروا عليهم عدّة مراكب فجمع صالح أهل الجبال وأمرهم على البلد، فرجع الفرنج إلى حريرة بين سبتة وجبل الفتح تسمّى طرف القنديل فأقام بها، فطال الأمر على أهل الجبال وظنّوا أن الفرنج رجعوا إلى بلادهم وقلت على أهل الجبال الأزواد فتفرقوا، فبلغ ذلك الفرنج فعادوا أهل سبتة فقاتلوه فعلبهم بالكثرة وملك منهم المينا فجرح المسلمون بأهلهم وأموالهم وما قدروا عليه، فدخل الفرنج البلد في سابع شعبان من هذه السنة ونقلوا ما كان بها حتى الكتب العلمية، وكان بها منها شيء كثير إلى الغاية، ونقلوا ما وجدوا بها من الرخام والآلات والأمتعة حتى الأنوال، وتركوها قاعاً خراباً ومع ذلك فهي بأيديهم فلا قوة إلا بالله».

كما يقدّم لنا الديوان مادة تاريخية حول احتلال سبتة، يقول ابن فركون في مقدّمة قصيدته :

«ولَمّا ظهَرت ٱلْعِمارةُ الْبُرْطُقالية ببَحْرِ الزُّقاق، وأقامَتْ أيّاماً بِمَرْسَى ٱلْحريرَةِ الْخَضْراء، ثُمّ كانَ بَعْدَ ذلِكَ استيلاؤها عَلَى سَبْتَة أعادَها ٱلله عافَيَهُ ــ يَعْنِي السّلطان ــ رَحِمَهُ ٱلله عَنِ ٱلْخُروجِ بِنَفْسِهِ، لِقَصْدِ مُدافَعَتِها، مَرَضٌ شَديد، فُتِحَتْ مِنْ جِسْمِهِ مواضِعُ بالْحَدِيد، بَعْدَ أيّامٍ كثيرَة، فَقُلْتُ في وسَطِ جُمادَى الثّانية، من عامِ ثمانية عَشَرَ وثَماني مائة؛ وظُهُورُ الأجْفان ــ وعَدَدُها مائتانِ ثِنْتانِ وأرْبَعةٌ ــ في السّادس والْعِشْرين لجمادَى الأولى مِنه»[273]

وجاء في القصيدة :

هَذا وإنّ وَلِيّ ٱلكُفْرِ أرْسَلَهـا سُفُناً لنارِ الْوَغَى في مائِها وَهِجُ
هذا الْعَدُوُّ ٱلذي وافَتْ مواكِبُهُ لِلْحَرْب يرفَعُها مِنْ بَحْرِها ثَبَجُ
أقامَ في صَدْرِ مَرْسًى لاَ حَراكَ لَهُ كأنّهُ ٱلصدْرُ مِنْهُ ضيّقٌ حَرِجُ
أتَى بِقَوْمٍ قد استَهْواهُمُ أمَلٌ يعتادُهُمْ هَوَسٌ، يقتادُهم هَوَجُ[274]

وهو يزعم أن البرتغاليين قصدوا أولا احتلال حل طارق والسواحل الأندلسية، ولما

(273) الديوان : 209.
(274) نفسه 210.

رُدّوا على اعقابهم، توجّهوا إلى سبتة التي لم يكن لها مُدافع، قال في مقطع من قصيدة طويلة عنونهُ بقوله :

«ذكر رجوع العُمَارة البرطقالية عن حبل الفتح والبلاد الأندلسية ودخولها سبتة أعادها الله» :

ومنعْت أبدلُساً وقدْ رام العِدَى أنْ يوسِعُوا جَمْعَ الْهُدَى تَبْديدا
حاصُوا ٱلْبحارَ لها وعَرْمُكَ دُونَها فثناهُمُ وَحَمَى الفَلاَ والْبِيدا
قصُرَتْ خُطاهُمْ عَنْ منالِ قُصورِها والنّصْرُ قَدْ مَدّ الطِّوالَ الْمِيدا
أقْفرْت مِنْ أهْل الضّلالة أرْضَهَا ومَلأْتَ آفاقَ السّماءِ بُنودا
وجلوْتَ مِنْ آياتِ عَزْمِكَ أنْجُماً فارْتَدَّ شَيْطانُ الضّلالِ مَريدا
وتَنى عِنانَ القصْدِ عَنْهَا بَعْدَمَا وافَى طريقاً، حادَ عَنْهُ طريدا
واحتَلّ بالوطَنِ الدي لم يَتّخِذْ عُلْياكَ رُكْناً في الْخُطوبِ شَديدا
سُحْقاً لمَنْ لَمْ يَسْتَصِرْ بمُؤَيَّدٍ .لَمْ يَلْوِ طَوْعَ وَفائِهِ مَوْعودا»[275]

وقد ردّدَ الشاعر في عددٍ من قصائده، أن سلطانه سيهب إلى غزو سبتة، وطرد البرتعاليين منها، استجابةً لنداء أهلها واستدعاء قبائلها[276]، ولكنه ــ فيما يبدو ــ مجرد كلام قاله تملقاً للسلطان، وإرضاء للعامّة أي أنه كان كلاما للاستهلاك المحلّي كما يقال اليوم، وقد أكثر الشاعر من نعت أبي سعيد خصْم مَلِكه بولي الضلال والبغي، وظهير الكافرين كقوله :

وَوَلِيُّ الضَّلال والبَغْيِ لَمّا أنْ غَدا وهْوَ مُظْهِرٌ طُغْيانَهْ
طاهرَ الْكافِرينَ واعْتَزَّ حَتّى أظهرَ الحقُّ والهُدَى بُرْهانَهْ
لكأنّي بِهِ وقَدْ حانَ سَعْياً وَجَلَتْ دعوة الرّدَى بُهْتانَهْ[277]

ويقول فيه من قصيدة أخرى :

---

(275) نفسه 240. وطريقا في البيت قلته هكذا وردت في الأصل، ومعناها : ضَريعاً أي حريرة ضريف.
(276) انظر الصفحات : 218، 224، 240، 246.
(277) نفسه : 64

ومَنْ أسْلَمَ الإيمانَ للشّرْكِ عامِداً أيُفْلِتُ مِنْ قَيْدِ الْهَوانِ ويُفْلِحُ
وحلَّ عُرَى الاسْلامِ فِي عَقْدِ سَلْمِهِ عداةَ انْتَنَى طَوْعاً لَهَا وَهْوَ يَحْنَحُ[278]

ويقول أيضا في قصيدة اخرى :

وهذا وَلِيُّ الكُفْرِ أخْفَقَ سَعْيُهُ وحابَ وأعْلامُ الْجهادِ حواقُ
وأحْكمَ عَقْدَ السِّلْمِ يُرْضي بهَا الْعِدى فحُلّتْ عُهودٌ عِنْدَهَا ومواثِقُ
لَئيمٌ غَدا بالسُّوءِ يَبْسُطُ كَفَّهُ ليَقْبِضَ بَسْطَ الرِّزْقِ والله رازِقُ[279]

ويقول أيضاً مخاطباً ملكه أيضاً :

ولما رايتَ العَرْبَ قَدْ فُلّ غَرْبُه وأقْفَرَ مِنْ رَبْعِ الخلافةِ عامِرُ
وقامَ وَلِيّ الكافرينَ بِعِبْئِها فكَمْ مُسْلِمٍ قدْ دلَّ واغْتَرّ كافرُ
تَداركْتَها بابنِ الْخلائِفِ مُنْعِماً وسَيْبُكَ مَبْذُولٌ وسَيْفُك قاهِرُ[280]

والمقصود باب الخلائف محمد السعيد، صيغة يوسف الثالث، كما أنّ في ديوان هذا الاخير قصيدة وجهها الى بني مرين يقول فيها كما سبق :

قوموا الَى نَصْرِ السّعيدِ حمايةً فالدّينُ إن لَمْ تَجْمعوهُ يُبَدّدُ
وتَمَكّنوا في فاسِ من عُثْمانِها واسْتَبْصروا بسُنى الْحَقيقَةِ واهْتَدُوا
أوَ ليْسَ قَدْ أعْطى الْعُداةَ بلادَنا إعطاءَ مَنْ يُرْضي الكَفورَ ويَرْفِدُ
لم يَتّقِ الرحمنَ في الوطنِ الذي مِنْ أجْلِهِ قدْ غاثَ فيهِ المُلْجِدُ[281]

ونشير من باب الموضوعية الى أن أبا سعيد متهم بالتفريط وعدم الدفاع عن سبتة، ونجد هذا الاتهام زيادة على ما سبق عند الحسن الوزان الذي يقول : «استولى أسْطول البرتغال على سبتة عام 818 هـ وفرّ من كان بها، فدخلها النصارى دون عَناء، ومكثوا

(278) نفسه · 91.
(279) نفسه · 94.
(280) نفسه · 84
(281) ديوان · يوسف الثالث 51

فيها حو ثلاثة أسابيع، متوحسين حيفة من ملك فاس أن يأتي لمحدتها، لكن أبا سعيد الذي كان ملكاً على فاس انذاك تخاذل ولم يمض الى استردادها بل بالعكس أتاه الخبر، وهو في وليمة والناس يرقصون فلم يوقف الاحتفال»[282].

ومهما يكن أمرُ هذا الاتهام فإنّهُ شاع في المغرب والمشرق، ففي ديوان. «حَتَى آلْحتّيْن» لابن حجة الحموي قصيدة دالية وجّه بها صاحب الاندلس محمد ابن الاحمر، ولد يوسف الثالث، إلى تونس والقاهرة يطلب نجدة الملك أبي فارس الحفصي والملك المؤيد، فأجاب عنها من تونس أبو محمد القمصي وأجاب من مصر ابن حجة الحموي، وكلتا القصيدتين فيهما اتهام للسلطان أبي سعيد، وممّا جاء في قصيدة ابن حجة معرّضا به قولُهُ، مُخاطباً ابن الأحمر :

وإنْ كان داك «آلْجارُ» صادق«شِرْكهُمْ» عليْها، وعادى بَعْدَ داكَ «مُحمّدا»
فمصْرعُهُ مع عُصْبةِ الشّرْكِ قَدْ دنا مِنَ اليَوْم لَكِنْ حَشْرُهُ مَعَهُمْ عَدَا»[283]

ونشير إلى أن هؤلاء الذين اتهموا أبا سعيد، وخاصة الملك المصري، والملك الحفصي، كانوا من خصومه، كما أنهم هم أيضا لم يفعلوا شيئا سوى الكلام، قال ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب في صدر أحداث سنة سبع عشرة، وثمانمائة ما نصّه :

«في سابع شعبانها دخل الفرنج مدينة سبتة من بلاد المغرب، وخرّبوها، وأخذوا ماكان بها من الأموال والذخائر حتى الكتب العلمية، وتركوها قاعاً خراباً، ومع ذلك فهي بأيديهم، فلا قوة إلا بالله، وكان أهلها وهم محاصَرون أرسلوا قصيدة طنانة يستنجدون فيها أهل الاسلام، من أهل مصر وغيرها، مطلعها :

حماة الهُدى سَبْقاً وإنْ بعُد المَدَى فَقَدْ سألْتكُمْ نصرَها مِلّةُ الهُـدَى

فلم تفدهم شيئا غير أن اجيبوا بقصيدة من نظم ابن حجة ويائيتها متلُها.»[284]، ومعنى هذا أنه كان تضامنا بالكلام، وتراشُقًا بسهام الاتهام.

وتجدر الاشارة إلى أن الروايات الاسبانية والبرتغالية تفيد أن التقصير كان من والي

(282) وصف افريقيا I : 318

(283) حتى الحتين (مخطوط).

(284) شذرات الذهب 7 : 124

ستة صالح بن صالح اليابانى[285]. وقد ذكرنا آنفا ما قاله ابن حجر في حق هذا الوالي.

كما ان الروايات البرتغالية تذكر أن أبا سعيد أرسل جيشاً مهمّاً لتحرير سبتة بقيادة ولد الحاجب عبد الله الطريفي، ولكنه هزم[286]، وتذكر هذه الروايات أيضاً أن صلحاً انعقد بعد ذلك بين بلاط فاس وبلاط غرناطة، وتم على إثره حصار مشترك لسبتة سنة 822 هـ ولكنه كان بدون جدوى[287].

أما وصف الشاعر ابن فركون للسلطان المريني بولي الكافرين فيشير به الى علاقته بفرناندو الأول ملك أرغون، هذه العلاقة التي أفردها الباحث الاسباني أرياس بلاو بدراسة نشرت في تطوان سنة 1956، درس فيها السفارات المتبادلة بين المَلِكين، ونشر رسائل ووثائق تتعلق بالموضوع.

ونحسب أن فرناندو الأول آستغلّ ظروف آلسياسة العدائية والعدوانية التي سلكها سلطان غرناطة مع أبي سعيد، فَعَرض على السلطان المريني مساعدته، بتوجيه قطع من أسطوله لحماية الشواطىء المغربية، والحيلولة دون وصول إمدادات من يوسف الثالث إلى صنيعته السعيد[287] ، ولكن هذا العرض كان مشروطا بتسليم جبل طارق الى القشتاليين، وتسليم النصارى الأسرى عنده، وتحسين معاملة التجار الارغونيين في فاس، وقد يكون أبو سعيد وعد بتحقيق الشرط الاخير فقط.

ومن الغريب أن يكون ملك غرناطة الذي كان يعت ابا سعيد بولى الكافرين ويوحي الى شاعره ابن فركون نعته بذلك أيضا، كان يبيح لنفسه ربط علاقات هدنة وصداقة مع فرناندو الاول، بل تذكر الروايات المسيحية أنه كان يحشر في اتفاقيات الهدنة اسم سلطان المغرب، ويعتبر نفسه مفوّضاً عنه[288]، وهذه الهدنات بين غرناطة وقشتالة في عهد يوسف الثالث وفرناندو الاول ملك ارغون والوصي على مملكة قشتالة، درسها أيضا الباحث أرياس بلاو المذكور في كتاب مستقل نشر بتطوان كذلك سنة 1956.

وعندما يتحدث الشاعر ابن فركون عن هذه الهدنات يؤيدها ويحض ملكه على قبولها، جنوحاً الى السلم وركونا إلى العافية، ويقول :

(285) حث أوغست كور في نشرة الجمعية الجغرافية بالجزائر عام 1905. وانظر ترجمة صالح المذكور في جذوة الاقتباس 358 ودرة الحجال 2 : 330

(286) نفسه.

(287) نفسه.

(288) تاريخ بني نصر للسيدة أرينة ص 130 ح1.

أعرِ ٱلْحَوابَ بِهَا عَلَى ظمإٍ لَهـا تَنْقَعْ حَـوى المُتَشَوّقِ الْمُـتَشَوِّفِ
واجْنَـحْ إليها مُنْعِمـاً مُتَـفَضّلاً لاَ زلتَ أكْرَمَ واهبٍ متعَطِّـفِ[289]

وكرّر هدا المعنى في قصائد أخرى، وهذا عجيب، فعندَما يستقبل السلطان المريني سفراء فرناندو الأول يكون وليا للكافرين، وعندما يستقبلهم السلطان النصري، ويعقد معهم روابط الهدنة والصداقة لا يكون كذلك، وهذا هو التناقض الواضح والنفاق الفاضح.

وكما عبَّر الشاعر عن غيظ ملكه وحقده على السلطان المريني أبي سعيد، نجده يصلت سيفه على حاجبه الطريفي، فيقول من قصيدة :

والطّريفـيّ كانَ أصلاً لهذا الْـــ قَصْدِ لا نَالَ ما ارْتَضَى واخْتارَهْ
وهَلِ العُصْنُ حينَ يُجْتثّ مِنْـهُ أصْلُـهُ تَجْتَنِـي يَـدٌ أثْمـارَهْ
أخَـذَ اللهُ مِنْـهُ خَبّـاً كَفـوراً أمِـنَ ٱللهِ كانَ يَرْجُـو فِـرارَهْ
كَمْ شَكَى ٱلثّغْرُ ظُلْمَهُ عِنْدمَا قَدْ أوْرَثَ الكُفْـرَ أرْضَهُ وديـارَهْ
أصْبَحَ الْبَغْيُ سَاهِراً مِنْـهُ سَيْفـاً رَيْثَما فلّت الخُطوبُ غِـرارَهْ[290]

ويقول فيه من قصيدة أخرى عقب هجاء أبي سعيد :

والطّريفـيّ عَبْـدُه عَبْـدُ سوءٍ جَمَـع اللّـؤْم والخَنـى والخِيانَـهْ
سَارَ مـن قبـلُ للْجَـحِيم بشيراً مُخْبِـراً أنَّ بَعْـدَه إتيانَـهْ
أخْـذَةٌ رَوَّعَتْ وبالـدّم رَوّتْ حين وافَتْ جَنابَـهُ وجنانَـهْ[291]

والطريفي هدا هو أبو محمّد عبد الله، ولي حجابة أبي سعيد بعد وفاة الحاجب فارح بن مهدي ووصف بأنه «كان من فضلاء الحجاب»[292]، وهو باني المسجد المعروف اليوم في فاس بمسجد للاّ غريبة، وقد حبس عليه كتبا كثيرة نقلت فيما بعد الى خزانة

(289) الديوان : 61
(290) نفسه : 55.
(291) نفسه : 65.
(292) الاستقصا 4 : 90

القرويين حيث ما تزال بقية منها وعليها تحبيساته[293]. وفي بيوتات فاس (47) أن «القائد عبد الله بن موسى العلج من نصارى مدينة طريف التي بأيدي الاصبيول»

وفي الديوان إشارةٌ إلى علاقة يوسف الثالث بأبي فارس عبد العزيز الحفصي فقد وجّه هذا هدية الى الاول سجلها الشاعر في قصيدة مهد لها بما يلي : «وقلت أهنىء مقامه الكريم بالهدية المشتملة على الخيل المسومة وسوى ذلك من عجائب افريقية الواصلة من قبل السلطان بها أبي فارس عبد العزيز الحفصي»[294] وتذكر المصادر التاريخية التونسية أن هذا الملك «وظّف لأهل الأندلس في كل عام من الطعام وغيره إعانة لهم على جهاد أعداء الدين»[295].

وفي الديوان أيضا إشارة إلى علاقته مع بني عبد الواد، جاء في إحدى قصائده قوله :

هذا وإنّ تِلمساناً بِهِ ٱنْتَصَرَتْ مُلوكُها ومَعاليه تُراجِعُهَا[296]

ومهما يكن الأمر فقد اتبع يوسف الثالث سياسة حده العبي بالله في تشجيع بني عبد الواد وتحريضهم على عصيان بني مرين وفي التحالف معهم ومع الحفصيين ضد بني مرين.

ورغم مناورات بني الأحمر فقد كانت تلمسان خاضعة في فترة من الفترات لنفوذ أبي سعيد كما تشير الى ذلك بعض الوثائق[297]، كما أن ابا سعيد استجاب لاستنجاد أعراب افريقية فوجّه معهم جيشاً من بني مرين وصل الى غاية حاية، وكان هذا سببا في حدوث نزاعٍ بين أبي سعيد وأبي فارس الحفصي[298].

من هذا العرض السريع تبدو قيمة ديوان ابن فركون، كوثيقة تاريخية نفيسة، حول فترة دقيقة وغامضة في تاريخ المغرب والأندلس، وذلك بسبب ضياع مصادرها الأصلية مثل «الروض الأريض» لابن عاصم، «وتاريخ دولة أبي سعيد» للتاورتي الذي نفهم الآن

(293) الخزانة العلمية بالمغرب للمرحوم العلامة الفاسي 30

(294) الديوان 37

(295) الحلل السندسية 2 : 186 وتاريخ الدولتين 125

(296) الديوان : 98.

(297) بحث الاستاذ أرشباخ حول تبادل السفارات بين أبي سعيد وفرناندو الأول ملك أرغون ص 11

(298) الاستقصا 4 . 90 — 91

سرّ وضعه لهذا التاريخ، إذ كانت دولة أبي سعيد مليئة بالأحداث المؤلمة، ومن الغريب أن أبا سعيد هو ثاني سلطان مريني يُخَصُّ بالتأليف بعد حده الأعلى أبي الحسن المريني غير أن هذا يمثل الدولة في أوج عظمتها وذاك يمثلها في وهدة انحدارها.

ولقيمة هذا الديوان التاريخية آستجبتُ للترغيب في تحقيقه والتقديم له والتعريف بصاحبه الذي هو أبو الحسين ابن فركون، لا ابن الخطيب، كما كتب بعضهم في أوله، مع التعريف كذلك بمحدوم الشاعر يوسف الثالث النصري وعصره، وعلاقاته مع جيرانه؛ واعتمدتُ في ذلك على المضامين التاريخية في الديوان، وهي مضامين تعرف لأول مرة، وتكشف النّقاب عن محنة دولة مجيدة هي دولة بني مرين التي قدمت الكثير لأهل الجزيرة اليتيمة، وضحّت بالغالي والنفيس، في سبيل نصرة الاسلام بالفردوس المفقود، فلم تلق إلا نكران الجميل، وجحود الصنيعة، وحبك الدسائس والمؤامرات.

أمّا قيمة الديوان الأدبية فلا يتسع ما بقي من هذه المقدمة لإبرازها بتفصيل، ولهذا سنكتفي بالاشارة إلى أن هذا الديوان هو خامس ديوان شعري يصل إلينا من العصر الغرناطي، بعد دواوين ابن خاتمه وابن الجياب وابن الخطيب وابن زمرك(٥)، وهؤلاء ــ كما هو معروف ــ هم فرسان الشعر الذين تسنّموا صهوات جياده، وحازوا قصبات السبق في ميدانه، خلال القرن الثامن الهجري في الأندلس، وهم يشكلون سلسلة متصلة الحلقات، فابن الخطيب لابن الجياب وابن زمرك تلميذ لابن الخطيب، وهؤلاء الشعراء الكتّاب يؤلفون مدرسة مشتركة السمات، إذ كانوا رجال دولة، وشعراء بلاط، وشيوخ علم، يجمعون بين تحرير الرسائل الديوانية، وتحبير القصائد السلطانية، وتسيير الأمور المخزنية، وقد كان أهل الأدب يظنون أن ابن زمرك هو آخر شعراء غرناطة المجيدين، وخاتمة أدبائها المحسنين، وذهب بعضهم إلى أن الشعر الوفيع انتهى بموت هذا الشاعر، ولكن اكتشاف ديوان ابن فركون هذا يطلعنا على شعر لا يقل جودة عما قبله، ويعرفنا بشاعر لاحق بطبقة أولئك الأعلام، فقد استطاع هذا الشاعر أن يرقى إلى مستواهم في إتقان البناء وإحكام الصّنعة، بل لعله أن يكون أكثر منهم افتِنانا في التصنيع وافْتِتانا

---

(٥) ديوانه هو «البقية والمدرك» الذي نقل معظمه المقري في النفح والأزهار ويضاف إلى هذه الدواوين ديوان السطي القيسي.

بالبديع، على أنّه إذا كان قد ترسّم خطى هؤلاء الأسلاف فإنه اقتبس في مديحه ونسيبه بعض طرائق المتنبي والرضي ومهيار ونحافي التجنيس والتورية شيئا من مناحي ابن النبيه وابن نباته والبهاء زهير، ويحتاج هذا إلى شرح وتمثيل سنقوم بهما في مناسبة أخرى إن شاء الله، أما الآن فإن جملة القول في قيمة الديوان الأدبية هي أنه يعرفنا بشاعر أنموذج لجيل من الشعراء الأندلسيين ضاعت أشعارهم وأخبارهم، كما أنه يطلعنا على حالة الشعر الأندلسي خلال العقود الأولى من القرن التاسع الهجري.

وفي الأخير فإن هذا الديوان وديوان البسطي القيسي يعتبران حلقتين ـــ كانتا مفقودتين ـــ من حلقات الشعر الأندلسي في العصر الغرناطي، وإن ظهورهما يبعث الأمل في ظهور غيرهما من تراث الفردوس المفقود.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

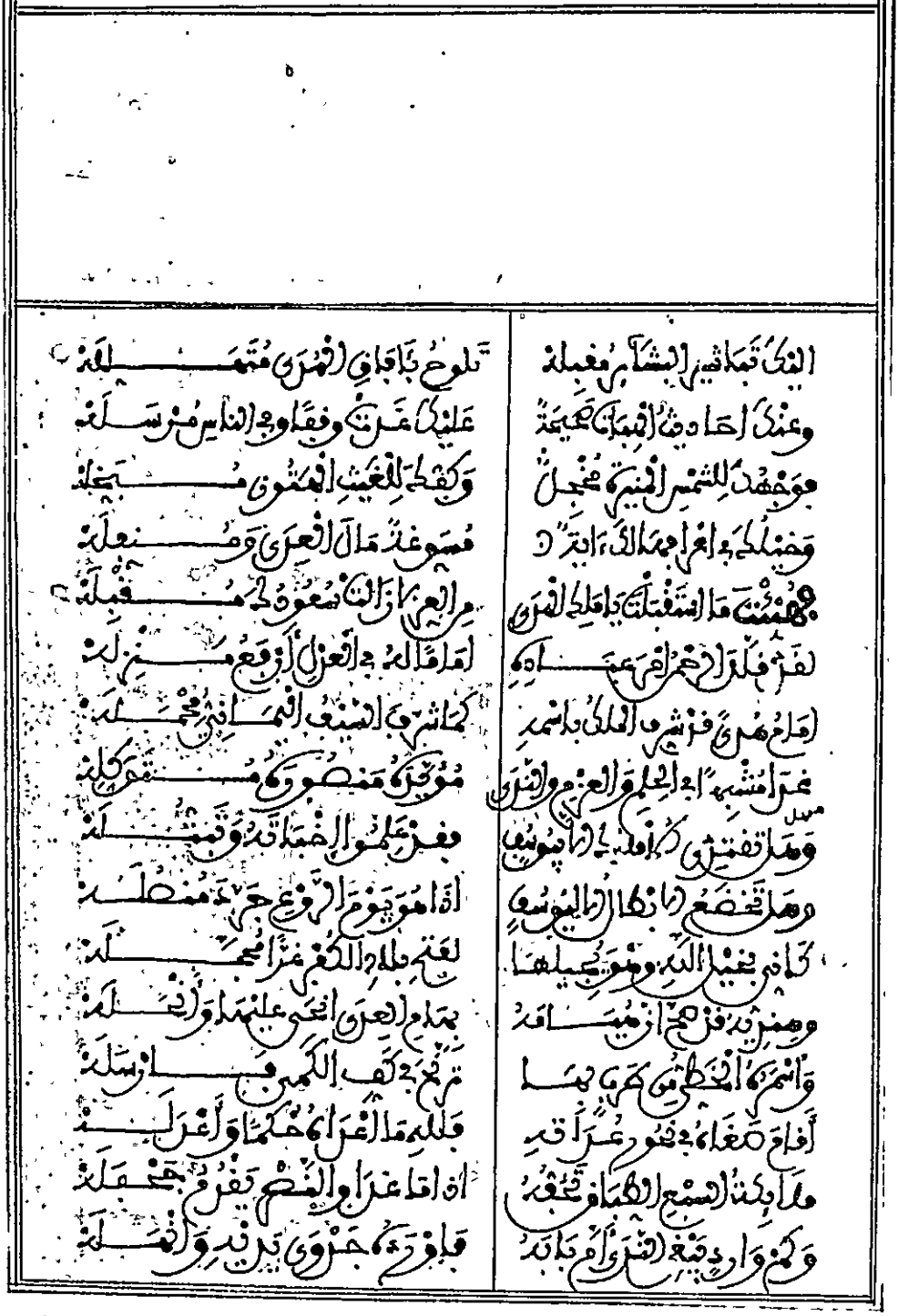

97

صورة الصفحة الأولى من مخطوط الديوان

امين الوفد الوالي ... ثنائي ما غمر ايروى الثناء
هنيئا والهنا لنا جميعا ... بمولود يحوز به الهناء
باتمر كامر وافى التنا ... مر المالا الكرام كما تشاء
كانك بدر تم الفضل منه ... كما والبته ولك البقاء
ويزفر من تفاخر وتعز فيه ... يكون له على اخ استواء
تقر به العيون ويزدهيه ... ذوو الاكمال اعجابا وجاء
هذا اسعد به الهيكاحة ... فاقل ما على هذا عكاء
لقد كرمت اوائل وكانت ... وكرم فعالها تعز انتماء
ابوه ابو الفتيان وفاخر بما ... عليه المجد وفيا والعلاء
بقيت لنا كما تقوى المعالي ... عظيم الفخر ما كلعت كاء
دعوت لك الالهة ذكا صدق ... وارجو ان يجاب لي الدعاء

سيدي ابقاكم الله سنح للخاطر مما تقرر بيننا الا يباع ولا يبتاع وانه حاشى ذمتكم فيه لمن شرع الاختراع وكلما عنه مكتفيه وعهدتنا ان اعود فنكتفيه حبذا علم الله لما اخبتيه ولذاك المجرد اخبتيه وقد عجلت الكتب لتستر تحقيقا عليه ثم غلبني الشوق فمضت تتواجى اليد تتعلموا الخلق اضبع وحجتنا بحجتكم العلية ولا شغلني شاغل عن فضل تلك المعالجة بيد انه قد رأى ان الوقت تقصر يا شغف الباطن من تضييع الحرائر والتغرير بحمل فرة العين عامله الله ووقاه من جميع الآفات وقد ان شاء الله من زيارتكم هنالك والسلوك اليكم على اوضح المسالك والله عز وجل يصل اسعادكم ويفسح بالخير والعافية ايامكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته من مكسر فقيركم ومولاكم محمد وشكر الله لكم ولهما السبب

فراجعته بديهة على منظومه

بحبك في اعتلاء واعتلاء ... فراع لفرع دوحة العلاء

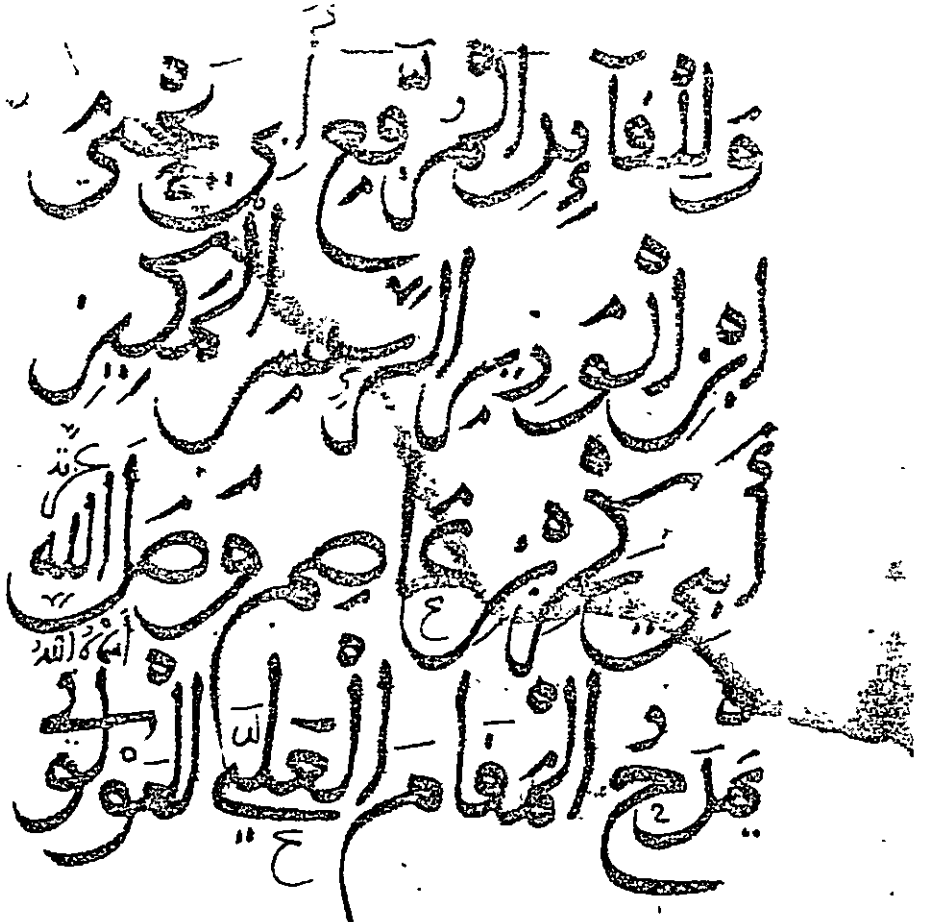

صفحة من مجموع «مظهر النور الباصر، في أمداح الملك الناصر»
من جمع الشاعر أبي الحسين ابن فركون وبخطه عن مخطوط ح.ع.ر (رقم 23 ح)

ديوان ابن فركون

بسم الله الرحمٰن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه

إلَـيْكَ تَبَـاشِير البشَائِـرِ مُقْبِلَـةْ ... تَلـوحُ بآفَـاقِ الهُـدَى مُتَهَلِّلَـةْ[1]

وعنْكَ أحَاديثُ الهِبـاتِ صَحيحَـةٌ ... عَلَيْكَ عَدَتْ وَقْفًا وفي الناسِ مُرْسَلَهْ[2]

فَوَجْـهُكَ لـلشمْسِ المنيرةِ مُخْجِـلٌ ... وكـفّكَ لِلغَـيْثِ الهَتُـون مُخَجِّلَـهْ

وَخَيْـلُكَ في أعْرافِهَـا لكَ آيَـةٌ ... مُسَوّمَـةٌ مَـالَ العِـدَى ومُفَلّـهْ

فهُنِّئْتَ ما استَقْبَلْتَ يا مَلِكَ الهدَى ... مِن العِزِّ لارالتْ سُعودُكَ مُقْبِلَـهْ

لقَـد قَلَّدَ الرحْمـانُ أمْـرَ عِـبادِه ... إمامًا لَهُ في العَدْلِ أرْفـعُ مَنْزِلَـهْ

إمامُ هُدًى قدْ شرَّف المللكُ باسْمِهِ ... كما شَرَّفَ السّيفُ اليَمانيُ مِحْمَلَهْ

عَدا مُشْبِهًا في الحِلمِ والعزْمِ والنّدَى ... مُؤيّـدَهُ مَـنصُورَهُ مُتوكِّلَـهْ[3]

وَهَل تقتدِي الأملاك إلا بيُوسُفٍ ... فقـدْ عَلِمُـوا إخْـاتَـهُ وتَبتُّلَـهْ[4]

وهل تخضَعُ الابطال إلا لِيُـوسُفٍ ... إذا هو يَومَ الرَّوعِ جَرَّد مُصلَهْ

كأنّـي بخَيْـلِ اللّـهِ وهـوَ يُجيلهـا ... لفتـح بـلادِ الكُفْـرِ عـرًّا محجَّلَـهْ

وهِبديـهُ قـد صحّ أنّ هُيامَـهُ ... بهامِ العِدَى أنحى عليها وأنْحلَـهْ

وأسْمَرُهُ الحَطّيُّ من طرَبٍ بهـا ... تَرنَّـحَ في كـفِّ الكَمِـيِّ فأرْسَلَـهْ

---

(1) وردت هذه القصيدة الأولى في الديوان بدون تقديم، ويبدو أنها أوّل قصيدة رفعها الشاعر إلى الملك يوسف الثالث عداة بيعته.

(2) فيه تورية بالصحيح والمرسل المعروفين في مصطلح الحديث.

(3) المؤيد والمنصور والمتوكل ألقابٌ لخلفاء عبّاسيين وغيرهم، ولعلّه يقصد العبّاسيين، ويمكن أن تنطبق الصفات المذكورة عليهم فيكون في البيت لفّ ونشر مرتّب

(4) في الأصل : وَهَلْ، وفوقها : فهل.

أقـامَ صَغـاهُ في نحور عُدَاتـه ... فللهِ ما أعْداهُ حُكمًا وأعْدَلَـهْ[5]

مَلائِكَـةُ السبْـعِ الطِّبـاقِ تَحُفُّـهُ ... إذا ما غَدا والنَّصْر يَقْدُمُ جَحْفَلَهْ

وكمْ وَارِدٍ يَبْغي النَّدَى أمَّ بابـهُ ... فـأوْرَدهُ جَـدوَى يَديـه وأنْهَلَـهْ

هو المِلِكُ المَوْلى الهمامُ الذي لـهُ ... مَكـارمُ تُـزْري بالغمَـائم مُسْبَلَـهْ

ورَأيٌ رشيـدٌ لـوْ تَقـادمَ عَهْـدُهُ ... لأمْلَـهُ فيـه الرَّشيـدُ وأمَّ لَـهْ[6]

مِن النفَرِ العرّ الذيـنَ وُجوُهُهُـمْ ... لإشراقِهـا تعْنـو البُـدورُ مُكَمَّلَـهْ

لك المجْدُ في الأمْلاكِ يُرْوى حَديثُهُ ... وقَيْسُ بنُ سعْدٍ في القَديم تأثَّلَـهْ[7]

فآبـاؤُكَ الأنصارُ جـاءت بذكْرهـمْ ... لنا سُوَرٌ في مُحْكَمِ الذكر مُنزَلَهْ

هُمُ أوْضحوا نَهْجَ الهِدايةِ للوَرى ... وهمْ نصرُوا دينَ الإلاهِ ومُرسلَـهْ

سَعى نحْوَهُ السيْفُ الصقيلُ فَراعَهُ ... وجَدّ لَـهُ الرمْحُ الطويـل فَجَدّلَـهْ

بِماذَا عَسَى يُثْني ٱلبَليغُ وقَدْ أتَتْ ... بِـدلك آيـاتُ ٱلكِتـابِ مُفصَّلَـهْ

أمْوْلايَ لاَ ياتي بوَصفكَ شاعـرٌ ... ولوْ أنَّ قُسًّا فيه أعْملَ مِقْولهْ

ولكـن بالامْـداحِ آتي فإنَّهـا ... بأغراضِ مـن ياتِـي بها مُتكفّلَـهْ

فعبْـدُكَ يُهْديهَـا إلـيك وسائِـلاً ... أبى اللّهُ أنْ تُلفَى بجُودك مُهْمَلهْ

أقِلْـهُ أنِلْـهُ وفّ مـا قـدْ وعَدتَـهُ ... قديمًـا وبَلِّغْـهُ الـذي مـنكَ أمَّلَـهْ

نَـداكَ غَمـامٌ والنّظـامُ حديقـةٌ ... بـهِ قـدْ عـدتْ أدْواحُهـا مُتهَدِّلَـهْ

وهل هُوَ إلا الروْضُ باكرهُ الحَيَا ... فـأوْدَعَ ريَّـاهُ صَبـاهُ وشَمْأَلَـهْ

فتأْخُذُ مـن جَـزْلِ النِّظـام قلائِـدًا ... وتعطِي جَزيلَ المَالِ من غَيْر مَسألَهْ

فَدُمْ ناصِرَ الدِّين الحنيفِ وكَهْفَـهُ ... ومَلجَـأهُ في الحادثـاتِ وموْئِلَـهْ

---

(5) صغاه : ميله.

(6) في البيت تحبيس، والرشيد هو الخليفة هارون.

(7) قيس بن سعد بن عباده الانصاري صحابي ولد صحابي، وله أخبار في المجد والجود، ومن ذريته بنو نصْر ملوك غرناطة.

وشَفَعْتُها ليوْمٍ ثانٍ بقصيدةٍ ثانيةٍ ولَها
حِكَايَةٌ مُتقدّمَةٌ حسبَما يظْهَرُ مِنْهَا[8]

هَنيئًا فَصُنْعُ اللّهِ وافاكَ بالبُشرى ... وأبْدَى مُحيَّاه الطَّلاقَةَ والبِشْرَا
وهل هو إلا الصّنعُ أهْداكَ آيةً ... فكانتْ على نَيْلِ المنَى آيَةً كبْرَى
هُوَ القدَرُ المحْتُومُ حيَّا به الهُدَى ... فُبعْدًا لِعُسْرٍ أعقَبَ اليُمْنَ واليُسْرَا
حَلَلْتَ بدارِ المُلكِ والسّعْدُ يقتَضِي ... لِمُلْكِكَ أن يلْقَى بهَا العِزَّ والنَّصْرا
وأشرقَ ذَاكَ الوجْهُ بالقُبّةِ التِي ... عَجَائِبُهَا تُرْوَى وأنعُمُها تُتْرَى - 2 -
لِذاك لَتمْنَاها يمِينًا كَريمَةً ... ولوْ لَمْ يكُنْ عَذْبًا نَدَاها غَدَتْ بحْرَا
لغرْناطَةٍ أعْمَلتَ وِجْهَةَ ناصِرٍ ... يَهُزُّ لِنَصْرِ الدّين صَعْدتَهُ السّمْرا
مَدَدت إلى التّقبيلِ رَاحَةَ مُنْعِمٍ ... أطَلنَا علَى تقبيلِهَا الحمْدَ والشكْرَا
فلِلّهِ أعْلامُ الجِهادِ كأنهَا ... سَحَابٌ وشمْسُ الأفق طَلْعتُكَ الغرَّا
سَتُنْهِضُ لِلغاراتِ خَيْلاً مُعيرةً ... تُطيلُ ارْتياحًا وهْيَ ما قارَبَتْ خمرَا
وما داكَ إلا حيْث أنت مُملكٌ ... قواعدَها طَوْعًا وكفّارَها قَهْرَا
تَسُلُّ عليْهِمْ في لَظى الحَرب مُرْهَفًا ... فَتُورِدُهُم منه على ظمَإٍ نهْرَا
وتَفْتَحُ أقطارَ العَدُوِّ بعَزْمَةٍ ... فَتَقْمَعُ مغْترًّا وتُوسِعُ مُعْتَرًّا
فَلِلّهِ في الاسْلامِ أيّامُكَ التِي ... أقَرّتْ له عَيْنًا كَما شَرَحتْ صَدْرَا
فكَم من ثُغور كَالعَدارَى تَبَرَّجَتْ ... وقد أضْحكَ الفَتْحُ المُبينُ لهَا ثَغْرَا
فَيا راكِبَ الوَجْناء يَطْوى بها الفَلاَ ... يرُومُ بطيّ القَفْرِ أن يُذْهِبَ الفَقْرَا
وقدْ أُرْسِلَتْ متل السّفينِ ملجّجًا ... وما اتَّخذت إلا السّرَابَ بها بَحْرَا
إذا كنتَ تبغِي مَوْرِدَ الجُود فاعتَصِم ... بِمن تَرْتَجي الأمْلاكُ نائِلَهُ الغَمرَا
بأعْلَى مُلوكِ الأرْضِ دَاتًا ومَحْتِدًا ... وأرْفَعِهِمْ قدْرًا وأشهَرِهِمْ ذِكْرَا

(8) هدا التقديم يشيرُ إلى كلام سبق دكره في سفْر سابق لعلّه السفر الأول من الديوان، وقد يكون الشاعر حكى فيه كيفية تخلّص يوسف من سجنه بشلوبانية وتمكنه من الملك بعد موت أخيه محمّد.

بأكْرَمَ من يكسُو المَلابسَ قد ضَفَتْ ... وأشرَفَ من يمْطِي المحَجَّلَةَ الغرَّا
فكَمْ آمِلٍ قد أمَّ جُودَ يمينِهِ ... فيُسِرَّ للعُسْرى وفُوِّتِحَ بالبُشْرَى
إذا فاض نيلُ الجُودِ من كفِّ يُوسُفٍ ... كفَى نيْلُهُ العافين أن يَهْبِطوا مصْرَا[9]
وإن لاحَ نورُ الصّبحِ من وجْهِ يوسُفٍ ... رأيْتَ نجُومَ الأفْقِ قدْ رَعِشَتْ ذُعْرَا
سيُطلِعُ في ليْلِ العَجاجِ نُصولَهُ ... نُجُوما ويُبْدي مِنْ عزيمَتِهِ فجْرَا

منها بعْدَ أبياتٍ

بحقِّكَ يامَوْلايَ لا تنسَ عهدَ مَن ... يحَادِثُ مَوْلاهُ بأفْكارِهِ سِرَّا
فكَمْ باتَ في جَمْرِ الغَضى مُتقلِّبًا ... وذكرُكَ يُذْكِي في حَوايحِه جَمْرَا
إلى أن رَأى داكَ المحَيَّا فأصبحَتْ ... صُدُورُ القوافِي تَشْرحُ القلبَ والصّدْرَا
فَدُونكهَا تهْدي الهَناءَ حَديقةً ... مُهَدَّلةً دَوْحًا مُؤَرَّحَةً سِتْرَا
وقد راقَ لوْنُ الحِبْرِ فوقَ بَياضِهَا ... كما راقَ لوْنُ الخالِ في وجْنَةِ العَذْرا
ومِن فكْرِ مولانا وخط يمِينِهِ ... غدَا العَبْدُ في جيدِ العُلى ينظِمُ الدُّرَّا
فَرُحْماكَ فيها بنتَ فكْرٍ كأمِّها ... أتَتْكَ على استحيَائِها تَشْتَكِي الدَّهْرَا
ومَقصَدُها منكَ القبُولُ فجُدْ بهِ ... لعبْدٍ محبٍّ أخلصَ السِّرَّ والجَهْرَا
بَدائعُ هَبَّتْ للثناءِ نواسِجٌ ... وما اتخذتْ إلاّ حدَائقها مَسْرَى
فنَثْرٌ يُباهي نثْرةَ الأُفْقِ بهْجَةً ... وشِعْرٌ يُضاهي في مَحاسِنِها الشِّعْرَى[10]
ولِلهِ كمْ أبْدَت يدَاهُ يَراعَةً ... يَفُلُّ شبَاهاَ البيضَ والأسَلَ السُّمْرَا
سَقاهَا مُدامَ الحِبْرِ حتَّى اسْتَمالَها ... فهلْ سَحَدتْ شُكْرًا كما رجَحتْ سُكْرَا
وقدْ نَذَرَ المملوكُ إنشادَ هَذِهِ ... لدَيْكَ فما وَفّى يمينًا ولا نَذْرَا

---

(9) فيه اشارة إلى الآية الكريمة : اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم ؛ وفي البيت تورية وتحبيس.
(10) الثرة والشعرى من أسماء النجوم والمنازل المعروفة.

ولكنَّ حسْبِي مِنْكَ أدْنَى إشارَةٍ إلَيَّ بلحْظِ اللحْظِ ترْفَعُ لِي ذِكْرَا
بَقيت لدينِ اللّهِ تَنْصُرُ أهْلَهُ مُطاعًا إذا ما تُنْفذُ النهْيَ والأمْرَا

وصَدَرَ عَنّي في مَدْح مقامه الكَريم أعْلاهُ اللهُ في آخر شهْرِ ذِي الحجّة المذكُور قبْل[11]

حَاديَهـا أيْـنَ بهَـا تَـذْهبُ إذْ ليْسَ عن وِرْدِ المنى مَـذْهبُ
هَـدا هُـوَ الرّبْـعُ بـهِ للظّبَـا والأنْجُـمِ المَرتَـعُ والمَـرْقبُ
إن تسْأَلِ الرِّفْـدَ يحُـدْكَ الحَيَـا أوْ تسْتَصِيء فالنُّورُ لا يُحْـجَبُ
لا يُظْمِيءُ الوَحد الحُمُـولَ التـي سَرَتْ ومِـن دمْعـي لها مَشْرَبُ
سَامت سَنَـا بَارِقِهـا كُلَّمـا يجِـيءُ في الظلمَـاءِ أوْ يـذْهبُ
إنْ هُـزّ فهْـوَ ذابِـلٌ مُشْرَعٌ أوْ سُلّ فهْـوَ صارِمٌ مُـدْهَبُ
وأدْهَـمُ الليْـل يُجـدُّ السُّرى يَتْبَعُـهُ مِـنْ صبْحِـهِ أشهَبُ
قـد عُقِـدَ الفجْـرُ لـهُ رَايَـةً عِقْـدُ الـدّرَارِي تحْتَهَـا يُنْـهَبُ - 4 -
وحيـرَةُ الحقِّ لهُـمْ أوْحَـتْ نـورُ الضحَـى بحسْنِهـا يعْـجَبُ
يَسِيبّ وَجْدُ القلبِ من ذِكْرِهـمْ مهْمـا تبَـدّى فَـوْدُهُ الأشيَبُ
سَعَـى بـيَ الـوَاشِي لهمْ عندَمـا قـدْ خَيَّمُـوا والسَّعْيَ ما خَيَّبُـوا
مالِـي ولِلعـذّال مـا شأْنُهـمْ كُـلُّ مُـحِبٍّ بِهِـمُ مُتْـعَبُ
قـدْ عَلِمـوا بـأنَّ أهْـلَ الْهَـوَى كُـلُّ عَـذابٍ عِنْدَهُـمْ يَعْـذُبُ
هَـلْ أعْيُـنٌ فُوْقُـنَ أمْ أسْهُـمٌ تُصْمِـي بِهـا قُلُوبنَـا الرَّتْـرَبُ
هـدا وكـمْ للدّهْـرِ مـن حَفْـوةٍ لاتُبْلِـغُ الآمِـلَ مـا يَطْـلُبُ

(11) لم يتقدم ذكر لشهر دي الحجّة فيما سبق، وعليه فالإحالة على ماورد في سفر سابق على هدا السفر الذي بين أيدينا من الديوان، وهدا ما تدل عليه أيضا اشارات أخرى في هدا السفر، وقد وردت هده القصيدة في مجموع «مطهر النور الناصر، في أمداح الملك الناصر» من ص 177 إلى ص 181 مخطوط ح.ع.ر (ح 23). وعلى صوئها أصلحنا ما وقع في الديوان من خلل ونقص.

كَمْ قَلَّبَتْ قلبيَ في جَمْرِهَا ... وإنهُ لحُوَّلٌ قُلَّبُ
دَهْرٌ جَهامٌ سُحْبُهُ كُلَّمَا ... يُرْجى الحيَا وبَرْقُهُ خُلَّبُ
فأيْنَ منهُ يا إمَامَ الهُدَى ... إلاّ إلى عليَائِكَ المَهْرَبُ
حَدَائِقُ الآداب مُذْ أمْحَلَتْ ... ما هَبَّ منهَا نَفَسٌ طَيبُ
ولَمْ يجُدْ للْجودِ غَيْثٌ بهَا ... فلاَ جَنابٌ عندَها مخْصِبُ
لكِنَّ مَوْلانا لهُ راحَةٌ ... ديمَتُهَا الآن بها تَسْكُبُ
لا عَجَبٌ ممَّا جَفا أوجَنى ... فكُلُّ دَهْرٍ شأنُهُ مُعْجِبُ
كَمْ منَعَ المَرْغوبَ لي مانحًا ... ما كُنْتُ عنهُ دائمًا أرْغَبُ
كَمْ صَدَّني عن مَطلبي ظَالِمًا ... وسُدَّ لِي دُونَ المُنَى المذْهبُ
كَمْ حَمَّلَ المُغْرَمَ مَا لا يَفي ... بِحَمْلِهِ رَضْوَى ولا غُرَّبُ[12]
كَمْ ليلَةٍ قَدْ بِتُّها سَاهِرًا ... تَكادُ فيها الشُّهْبُ لا تَغْرُبُ
وَبَدْرُها كأنَّهُ بَيْنَها ... وجْهُ ابْنِ نصْرٍ حَفَّهُ المَوْكِبُ
يُوسُفُ النَّاصِرُ بحْرُ النَّدى[12م] ... ومَن له قَيْسُ بْنُ سَعْدٍ أبُ
فَالهامِيَانِ رَحْمَةٌ لِلْوَرَى ... نَوالُهُ والمَطَرُ الصَّيِّبُ
والنَّيرانِ في ظَلامِ الدُّجَى ... جَبينُهُ المُشْرِقُ والكَوْكَبُ
والطَّيْعَانِ لِعُلَى مُلْكِهِ ... بعَدْلِهِ المَشْرِقُ والمَغْرِبُ
والماضِيانِ منهُ يَوْمَ الوَغَى ... عَزْمَتُهُ وسيفُهُ المُرْهِبُ
والأشْرفانِ بِحُلَى مُلكِهِ ... مَدْحِي لمَوْلاَيَ وما أكْتُبُ
والنَّاصِرانِ مَن لِمَرْوانِهَا ... يُنْمَى وَمَن لِسَعدِها ينسَبُ
ذلك مَلْكٌ أصْلُهُ مكَّةٌ ... وذَا إمَامٌ أصْلُهُ يثْرِبُ[13]

---

(12) جبل رَضْوَى معروف، أما عُرَب فهو اسم جبل في الشام، وقد ورد ذكر عُرَب في شعر لبيد وحران العود والمتنبّي وغيرهم. راجع المادة في معجم اللدان لياقوت.

(12م) بحر الندى : في المظهر : بدر الهدى، وفوقها رواية الديوان.

(13) الناصر المرواني المكي الأصل هو عبد الرحمن الثالث، والناصر السعدي المدني الأصل هو يوسف الثالث ممدوح الشاعر.

أنصَارُ ديـــنِ اللّـــهِ آبـــاؤُهُ ... لِلـهِ مَوْلًـى منهُـمُ أنجَبُـوا[13م]

مَوْلًـى يُنيـل الخلـقَ إرْفَـادَهُ ... إن سألُوا والعَفْـوَ إنْ أذْنبُـوا

مَكـارِمُ الأخـلاقِ تـقضي لَـهُ ... أن يَبْـذُلَ العُتْبَـى ولاَ يَعْـتُبُ

فالحِلْـمُ والعِلْـمُ لَـهُ شِيمَـةٌ ... والحزمُ والعَـزمُ الـذي يُـرْهَبُ

مَآثِـرٌ لـيْسَتْ لمَـلْكٍ مَضَى ... هَيْهاتَ لا تـحْصَى ولا تُـحسَبُ

لـوْ أبصرتْ منْـهُ مُلـوكٌ مضتْ ... مآثـرًا عـن ذاتِـهِ تُعـرِبُ

بالـنَّصرِ والهَـدْيِ وبالـرّشْدِ في ... آرائِهِـمْ وَالْأمـنِ مـا لقّبُـوا

في حَرْبِـهِ أو سِلْمِـهِ سيْفُـهُ ... وسَيْبُـهُ المُـرهِبُ والمُـرْغِبُ

إنْ قَطَّبَ الخَوْفُ وُجُوهَ العِـدَى ... فكُـل ثَغْـرٍ ثغْـرُهُ أشنَبُ[14]

سوْفَ يُـرَى يَفْتَحُ مـنْ أرْضِهِـم ... مـا هُـوَ مُسْتَـعْصٍ ومُسْتَصْعَبُ

والبِيضُ قـد قـامت لديْـه عَلى ... منَابـرِ مـنْ هَامِهِـمْ تخطُبُ

والسُّمْـرُ ترْتـاحُ إذا مـا غَـدا ... سِنـانها مِـنْ دَمِهِـم يُـخْضَبُ

يـا مَـلِكَ الدنْيـا الـذي عَدْلُـهُ ... [به] آنجَلَى عـن أفْقِهَـا الغَيْـهَبُ

بَلَـغتُ آمـالي بمَـا نِلْتَـهُ ... لمْ يَبْقَ لي مـنْ بَعْدِها مَطلَبُ

فـلا يخيبُ اليَـوْمَ لي مـقْصَدٌ ... ولا مَـرَامٌ رُمتُـهُ يَصْعُبُ

مـوْلايَ خذهَـا مِدْحَـةً فَـذَّةً ... ولَفْظُهـا عـنْ مَـقْصَدِي مُعْـرِبُ

قَبُـولُكَ الـقَصْدُ فمَـن نالَـهُ ... فَـوْقَ السّحـابِ ذيْلَـهُ يَسْحبُ

وصْفُكَ لا ياتِـي بـهِ شاعِـرٌ ... سيَّـان مَـن يُطـنِبُ أوْ يُسْهِبُ

فَـدُمْتَ لِـلإسْلامِ مـا أصْبَـحَتْ ... شمْسُ الضحَى أنوَارَهـا تصْحَبُ - 6 -

---

(13م) رواية مظهر النور : أنحتُ، وهي هكذا بعت مولى.

(14) في البيت تجنيس على طريقة قول الشاعر عبد الله بن طاهر :

وإنّـي للثّغْـر المخوف لَكالِـيءٌ ... وللثّغْـر يحْـرِي ظُلْمُـه لَـرَشوفُ

ورواية المطهر في آخر البيت قبله : المرعب والمرهب.

وقلتُ في مدحهِ أيّده الله في أوّل
محرّم عام أحَدَ عَشَر وثماني مائة حسبما يظهر منها[15]

أمِن بارِقٍ أعْلاَمَ نَجْدٍ يصافحُ ... تذكّرتَ عهْدًا بالحِمَى وهْوَ نازحُ
يلوحُ بآفاقِ الثَنَايَا كأنّهُ ... مُصَافِي وِدادٍ بالسَّلامِ مُصَافِحُ
كَلِفْتُ على بُعْدِ المزارِ بجيرَةٍ ... حوَانِحُنا وحدًا إليهِمْ جوانِحُ
لَقَدْ قيّدَ الأبصارَ حسْنُ أوَانِسٍ ... لهُنّ قلُوبُ الهَائِمِين مَسَارِحُ
ومَا هِمْتُ حَال البُعْدِ إلاّ لأنهَا ... قلوبٌ تلاَقتْ والحسُومُ نَوَازِحُ
وما ارْتاحَتِ الركْبان إلاّ لِأنّه ... تُطارِحُها نَثّ الهَوى ونُطارِحُ
وما انعَطفَت إلاّ عُصُونٌ نَواعِمٌ ... وما الْتَفتَتْ إلاّ ظِباءٌ سَوانِحُ
وما حَلَّتِ القلبَ المَشُوق سِوَى حُلًى ... بها الجفْنُ في روْضِ المحَاسِنِ سَارِحُ
وما سال دَمْعُ العَيْنِ إلاّ مُصَرِّحًا ... بما أضمَرَت مِنْ حُبهِن الحَوَانِح
وَما ضُمِّنَتْ إلاّ أحاديثَ خلّةٍ ... أُتيحَ لَها مِنْ صاحِبِ العَيْنِ شارِحُ[16]
وما طَابَ عَرْفُ الزّهْرِ إلاّ لأنّهُ ... تُمازِجُهُ مِنْ ذِكْرِهِنَّ نَوافِحُ
وما رَاقَ نَظمُ الشّعْرِ إلا لِأن عَدَتْ ... لِناصِرِ دينِ اللهِ فيهِ المَدائِحُ
وما أشرَقَ الإصبَاحُ إلا لأن بَدَتْ ... عَلى الشمْسِ من وجْهِ ابْنِ نَصْرٍ مَلامِحُ
وما رَاعَ نَسْرَ الشهْبِ إلاّ جَمَالُهُ ... فَحُثَّ جَنَاحٌ منهُ لِلغَربِ جَانِحُ
وما ارْتاعَتِ الشهْبانُ إلا لأنهُ ... تعالَى لهُ قَدْرٌ على الشهبِ طَامِحُ[17]
وما رَعِشَتْ إلاّ لِتَأخُذَ حِدرَها ... وقدْ راقَ صُبْحٌ من مُحيَّاهُ لائِحُ
وما اعْتَرَّ ديسُ اللّهِ إلاّ لأنّه ... يُدافِعُ أحْرابَ العِدَى ويُكافِحُ

---

(15) توحد هذه القصيدة أيضًا في مجموع «مظهر النور الباهر» من ص 181 إلى ص 185 وبين النسختين تطابق تام.

(16) صاحب «العين» هو «الخليل» بن أحمد الفراهيدي.

(17) الشُّهْبان : الشهْب

وما سَيْفُهُ إلاّ دَمَ الكُفْرِ سافِحٌ ... وما حِلمُهُ إلاَّ عن الذنْبِ صافِحُ

هُو المَلِكُ الأعْلَى الهُمامُ الذي بهِ ... تجلتْ من الدَّهر الخُطوبُ الفَوادِحُ

وهَل يوسُفٌ إلاّ إمام مؤيَّدٌ ... لهُ تخْضَعُ الصيّد المُلوك الجحَاجِح[18] - 7 -

وهل يُوسفٌ إلاّ إمَامٌ لعزمهِ ... تَلينُ صُرُوفُ الخطبِ وهْيَ جوَامِحُ

يُعَوَّذُ بالسَّبْعِ المَثَانِي كمَالُهُ ... وتُتْلَى عليه المُحْكَماتُ الفَواتِحُ

تواضَعَ لِلهِ العَظيمِ وقَدْرُهُ ... لهُ فوْقَ آفاقِ النُجومِ مَطامِحُ

يَمُّ مِن الأمْداحِ طيبُ ثنائهِ ... فَتَسْرِي بَرَيَّاهُ الرّيَاحُ اللَّواقِحُ

8 يَفيضُ عَلَى العَافينَ جُودُ يَمينِهِ ... فَتَروي الندَى عَنهُ السَّحَابُ الرَّوائحُ

لَقَدْ أمَّلَ القصَّاد منهُ مَثَانَةً ... لهَا القَصْدُ مَبْرورٌ بها السَّعْيُ ناجِحُ

كأنّ عَطايَا يُوسفٍ وَاهِبِ النّدَى ... عَوَادٍ غَوَادٍ بالنّوالِ رَوَائِحُ[19]

كأنَّ سجَايَا يُوسفٍ ملِكِ الهُدَى ... كَواكِبُ في أفْقِ السَّماءِ لَوائِحُ

كأنّ مَذَاكِي يُوسفٍ يوْمَ حرْبِهِ ... سَفائنُ في بَحْرِ النَّجيعِ سَوابِحُ[20]

كأنّ عَوالي يُوسفٍ قُضبُ دَوْحَةٍ ... تُظِل وَمتسُوبُ الهواجِرِ لاَفِحُ

سَتَغزُو الأعَادي والبُروقُ صَوارِمٌ ... يَحُفُّ بها لِلشهْبِ رامٍ ورَامِحُ

وتَمْلك أرْضَ اللَّهِ غَرْبًا ومشرِقًا ... وهَل مانِعٌ من ذاكَ واللهُ مانِحُ

حسَامُكَ مسْلولٌ وسَهْمُكَ صائبٌ ... وجُندُكَ منصورٌ وسعْدُكَ فاتِحُ

ورِفْدُكَ ممْنوحٌ وعَفْوُكَ شامِلٌ ... وبِشْرُكَ مبْذُول وفضْلُكَ واضِحُ

وها أنا يا مولايَ قصْدي مُبَلِّغٌ ... بما كُنْتُ أرْجوهُ وتجْرِي رابِحُ

وَربْعِي مَعْمورٌ وأفْقِي نيِّرٌ ... ورَوْضِي مَمْطورٌ وزهْرِي نافِحُ

فحذْها كما شاءَ البَيانُ عَقيلَةً ... إليك بهَا طِرْفُ البَلاغَةِ جامِحُ

---

(18) الجحاجح جمع جحجاح وهو المسارع إلى المكارم.

(19) عوادٍ الأولى جمع عادية وهي السحابة الممطرة، والثانية تقابلها روائح.

(20) المذاكي من الخيل التي أتى عليها بعد قروحها سنة أو سنتان.

وما أنا في نظْمي مُجيدٌ وإنَّما قَبُولُكَ زَندَ الفكْرِ منِّي قادِحُ
وهلْ طائِرُ الفكْرِ الذي أمّل النّدى إلى الورْدِ صادٍ وهْوَ بالمدحِ صادِحُ
وكيفَ تُضاهَى في النّظامِ مَكَانتي لَدَيْك ولمْ يمْدَحْكَ قبْلِي مادِحُ

وممّا قلته مهنّئا مقامَهُ الكَريمَ أيّده اللّهُ عند عوْدته منَ الوجهة إلى قرية وادَ مَتنزّهًا وضمنتها تنبيهًا على وعد سبَقَ حسَبَما يظهَر منهَا في التاسع والعشرين لرَبيع الأوّل عام أحدَ عشر وثماني مائة[21]

أجِلْها في أباطِحِهَا جِيَادَا تُجِدُّ السّيْرَ طَوْعًا وانقِيادَا
وعرّسْ بالرَّكائِبِ في رُباهَا فتِلْكَ حُدَاتُها تَبغي ارْتِيَادَا
على أنِّي عَميدُ القَلبِ شاكٍ ــ وإن قَرُبَتْ مَعاهِدُها ــ البِعَادَا
ستعْلَمُ دوْلَةُ العُشّاقِ أنّي عَميدٌ قَدْ جُعِلتُ لها عِمادَا
خَبالُ القَلْبِ يُذْهِبُهُ حَيالٌ إذا هو قَدْ ألَمَّ دُحًى وعَادَا
ففي الطّيْفِ المُلِمّ لهُ شِفاءٌ ولكِن جفْنُه أِلفَ السُّهَادَا
حَدِيثَ الوَجْدِ أكْتُبُهُ فأُلْقِي بصَفْحِ الخدِّ من دَمْعي مِدَادَا
وكَمْ زمنٍ قطَعْنا في التَّصابِي حَسِبنا غَيَّنا فيهِ رشادَا

---

(21) قرية واد الواردة في هدا التقديم من قرى عرباطة القريبة منها ولعلها هي «قرية الوطاء الواردة هكدا في مقدّمة الاحاطة، ووردت عند ابن الخطيب أيضًا في ترجمة عبد الملك بن حبيب هكدا : «حصن واط من خارج غرناطة» ومنها أصل الفقيه المذكور، ويُظن أنها المعروفة اليوم باسم Huétor Vega كما في حاشية الاحاطة أو Huetor de Santillan كما أخبرني صديقي الاستاذ الدكتور باليه.
راجع الاحاطة 1 :132، 3 :548. وقد ضبط اسم واد بفتح الدال في التقديم ولكن الشاعر اضطرّ إلى كسرها وتوينها إذ يقول :
بوادٍ حلّ مولانا فعَمّت ركائبُه العوائِرَ والنّحادا
أما رسمها بالطاء في الاحاطة وفي الكتابة اللاتينية فهو من باب قولهم في قفد قفط وقولهم في جحدب ححطب. راجع لحن العامة للزبيدي. وقد كان بواد هذه عين تسيل على نهر شبيل وفيها يقول ابن زمرك من موشح له :
شبّيلُها مُدَّ مِنْهُ بيلُ والشّبيلُ ألْفٌ لِمُسْتَبيلْ
وَغَيْلُ «وَادِه بِهِ سَبيلُ مِنْ فَوْقِ حَدٍّ لَهُ أسيلْ

تعَاطيْنا كـؤُوسَ الـوُدّ تُبْـدِي لِشمْـل الأُنسِ جمْعًـا واحْـتِشادَا
أجَلْناهـا جِيـادًا قـدْ أقمْنـا بمَيْـدانِ السرُورِ لها طِـرادَا
وسَاحِـرَةِ الجفُـونِ أرَتْ حُلاَهـا فَلَـمْ تَتْـرُكْ بـلا وجْـدٍ فُـؤَادَا
فَواتِـرُ وَهْـيَ تمْنَحُنـا فتونًـا نـواعسُ وهْـيَ تَمْنَعُنَـا الرُّقَـادَا
فَلولاهـا لَمـا هِمْنـا غرَامًـا ولاَ مِلْنـا إلى الذّكـرَى وذَادَا
ولـوْلا نَـاصِرُ الدّيـن ابْـنُ نَصْرٍ لما نِلنَـا مـنَ الدنيَـا مُـرَادَا
ولـوْلاه لَأوْجَفْنَـا سِرَاعًـا رَكائِبَنَـا نَجـوبُ بهَـا البِـلاَدَا
وقـدْ كُنَّـا نسيـرُ بِـلاَ آنثنَـاءٍ ونتّجِـذُ الثّنَـاءَ عليـهِ زَادَا
إلى أنْ جاءَنـا وعْـدٌ كَرِيـمٌ أفَـادَ مـنَ المَكَـارِم مـا أفَـادَا
فأمْـرَعَ بعْـدَهُ رَوْضُ الأمَـاني وأحصَبَ كلَّمَـا رُمْنـا مَـرَادَا
ومَن أوْفَى بعهْدٍ منكَ يَا مَـن تعَاهِدُنـا بمَكَارِمُـهُ عِهَـادَا
وعبْـدُ مقامِكُـمْ نظمًـا ونثـرًا أجادَ وعَـن سَبيـل الجُودِ حَـادَا
وسَائِلُـهُ لَـدَيْكَ لَهـا صُعُـودٌ تـرُدُّ البِـيضَ والسُّمْـرَ الصِّعَـادَا
بهَا لاَقَى خُطُوبَ الدّهْرِ دِرْعًـا ويـوْمَ الفَخـرِ قَلَّدَهَـا نِجـادَا
سَتكْسُونـا الملاَبِسَ ضافيَـاتٍ وتُعْطينـا المُحَجّلـة الـوِرادَا - 9 -
ومازِلنـا على عِلْـمٍ بأنَّـا لـذلِكَ لـن نُضامَ ولـن نكـادَا
فـإن جـارَ الزمَـانُ ورَاحَ مِنَّـا خضوعًـا كيـفَ نعْطيـهِ قِيـادَا
وكَيفَ ورَاحَةُ المَوْلَى ابْـنِ نصْرٍ تزيـدُ مـن النـوَالِ مَـن اسْتَـزادَا
تقولُ لِمن هَوى مِنّا خضوعـاً : «أرى العَنقـاءَ تكبـرُ أن تُصَادَا»
إذا سُئِـلَ الملـوكُ فـآل نصْرٍ بحُـورٌ قـدْ أمَدَّتْهـا ثِمَـادَا
ويُـوسُفُ للْمُلُـوكِ غـدَا إمَامًـا بمَـا مَلـكَتْ أنامِلُـهُ جَـوَادَا
ويُوسُفُ قدْ غَـدَا بَـدرًا وبحرًا لديْـه لَـن نضِلَّ ولـن نـذَادَا
فبَـدْرُ هُـدَاهُ لا يَلْقَـى مَحَاقًـا وبحْـرُ نَـدَاهُ لا يـخْشَى نَفـادَا
لقَـدْ فـاقَ المُلـوكَ نَـدًى وعِلْمًـا فـلاَ مَـلكٌ يـرُومُ لـهُ عِنـادَا

لِنُصْرةِ مُلكِهِ الأعْلَى تحَلَّتْ ... ملائِكُ تَرتقِي السَّبعَ الشِّدادَا
لوِ الأفْقُ اقتَدَى بحُلَى عُلاهُ ... هُدًى ونَدًى أنَارَ سَنًى وحادَا
ولوْ صَدَرَتْ أوامِرُهُ لأضحَى ... مطِيعًا أمرَهُ فيما أرَادَا
فأمْطَى منْ بوَارِقِهِ جِيادًا ... وَوَتَرَ من كوَاكبِهِ مهَادَا
ومِن عَجبٍ سوَالُكَ حين يَهْمِي ... يَزيد الفِكرَ صَيِّبُهُ اتِّقادَا[22]
وكمْ لِعلاكَ من صُنْعٍ جمِيلٍ ... لجسْمِ الدَّهْرِ قدْ أضحَى فُؤَادَا
ولا كالنُّزهَةِ الغرَّاءِ لمَّا ... لَدَيها العِزُّ أصْبَحَ مسْتَفَادَا
بَوادي الحُسْنِ قدْ لاحتْ بوَادٍ ... مَنَحْناهُ المَحبَّةَ والْوِدَادَا
فأنوَاعُ الجمَالِ وإن تَناهَتْ ... حَوَى جمعًا لها وبهَا انفرَادَا
بَدَا لِلأُنسِ رَبْعًا حِين أضحَتْ ... ظِباءُ الإنسِ تحْسِبُهُ مَرَادَا
إذا جالَ السِيمُ لَدَى رُبَاهُ ... وعادَ حَديثَ بهْجَتِهِ أعَادَا
تَثَنَّى الغُصنُ إذْ أثْنَى عليْهِ ... خَطيبُ الطيْرِ من طَرَبٍ وَمَادَا
بِوَادٍ حَلَّ مَوْلانا فعَمَّتْ ... رَكائِبُهُ الغوَائرَ والنِّجَادَا
تَرَى كُلاًّ لديْه مِنْ يَدَيْهِ ... يُراوَحُ بالمَكارِمِ أوْ يُغَادَى - 10
لقَدْ شرَّفْتَ مغْناهُ فقُلْنا ... بِحَقٍّ أنْ يسُودَ ولَنْ يُسَادَا
سَتُثْنِي بالذي أوْلَيْتَ فيهِ ... نُمُو الآمَالِ مُثْنَى أوْ فُرَادَى
وقدْ أوْحَشْتَهَا حمْراءَ مُلْكٍ ... فأنْدَتْهُ خلوصًا واعْتِقادَا
كأنَّ الرُّوحَ قدْ عادَتْ لِجسْمٍ ... غَدَاةَ احْتَلَّها المَوْلَى وَعَادَا
فلُقِّيتَ المُنَى ظَعْنًا وحَلاًّ ... وهُنِّئْتَ الثَّناءَ المسْتَجَادَا
إذا نادَى الورَى غرْبًا وشرْقًا ... إمامَ مُلوكِها كُنتَ المُنَادى
بَقِيتَ لِنَصْرِ دينِ اللهِ تُعْلِي ... مَعَالِمَهُ دِفاعًا أوْ جِهَادَا

---

(22) في الاصل : صئيبُهُ، وهو تحريف يسقط به الورد ؛ يقال سحاب صيّب وعيث صيّب أي عرير.

وأنشدت في إمْلاكِه أيَّدَ الله مَقامَهُ معَ بنتِ القائِدِ المرْحومِ
أبي يَزيد خالد مولَى النّعمة النّصْرية بالرّياض السعيد وَقَد
استدعَى أشرافَ أهلِ الاندلس لذلك وتضمنتْ كثيرا من وصْف الحَالِ[23]

مَا لِلرَّكائبِ لا تحُـلُّ حِلالَهـا ... وتُطيل في تلكَ الرُّبُـوعِ سُؤالَهـا
كَلَفًا بمَس طَلَعَتْ بأفْقِ خيَامِهَـا ... كالشَمْسِ تتَخِذُ السّحَابَ حِجَالَهَا
كمْ مُغْرمٍ تَصلَى حَوانِحُهُ الجوَى ... صَالَتْ عَلَيْهِ ولـمْ تُبْلِـهُ وِصَالَهـا
يُبْدِي الحنينَ إذَا سَرَى بَرْقُ الحِمَى ... وإذا صَبا نجْدٍ تَهُبُّ صَبَا لَهَـا
يَهْـوَى شمَائِلَهَـا فَهـلا أوْدَعَتْ ... مِنهَـا القَبُـول قَبولَهـا وشمَالَهَـا
طَـنَّ النّـواسِمَ إذْ تَـهُبُّ بَلِيلَـةً ... تشْفِـي النفُـوسَ فهيـحَتْ بَلْبَالَهَـا
تَهْدِي حبَالَ الوَحْـدِ نَـارُ غَرَامِـهِ ... ليْـلا ومـا تهْـدِي إليْـه خَيالَهَـا
عجبًـا لـهُ مـا نَالُـهُ لا يَهْتَـدِي ... بِجَوانِـحٍ يُذْكِـي الغـرَامُ دُبالَهَـا
لِلـهِ كَـمْ نَـفْسٍ شَعَـاعٍ أُثْلِـفَتْ ... حتَّـى ثَلاَفاهـا ونَعَّـمَ نَالَهـا
رِفْقًا بنـفْسِكَ يـا خَليـفَ غرَامِـهِ ... فهْيَ الصّبَابَة قـدْ أحَـالَتْ حَالَهـا
هَـذي مَنازِلُهَـا فَحَـيِّ رُبوعَهَـا ... وأنِـخْ حِمَـالَكَ تسْتَفِـدْ إجْمالَهـا
[وانْظُرْ] سَنَا أقمَارِها واسْتَجْلِ مِنْ ... هَـالاتِ هاتيكَ القِبَـاب كَمالَهَـا
فَلكَمْ لَهَا الرُّكْبانُ وَاصَلتِ السُّرى ... والعزْمُ مِنْهَـا يَقْتَضِي آسْتعجالَهَـا - 11 -
تَرْحِي المَطَايَا والهَواجرُ تَلتَظِـي ... حتّـى تشكّتْ أينها وكَلالهَـا
حَثّتْ إلى كُثَبِ المَنازِل فارْتَـمَتْ ... تَطْـوِي بهَـا كثبَانهَـا وَرِمَالَهَـا
لِمْ لاَ تحِنُّ لها الرّكابُ وَطالَمـا ... حَمِدَت على بُعْدِ المَدَى تَرْحَالَهَا
كَمْ أُصْدِرَتْ عَنْها نوَاهِلَ بَعْدَمَـا ... قدْ أُورِدَتْ وهْيَ الظَّمَـاءُ زُلالَهـا
فـأسِلْ دُمُـوعَكَ في مَعاهِدِهـا إذا ... عَهْدُ الغمائِمِ لـمْ يجُـدْ أطْلاَلَهَـا

---

(23) راجع ما كتبناه في المقدمة حول أبي يزيد خالد هذا.

كَمْ مُرْسِلٍ فيهَا مَدامِعَهُ انْثَنَى مُتَوَلِّيًا لِلظِّلِّ حِينَ سَقَى لَهَا[24]

ولكَمْ تمَايَلَتِ الغُصونُ بِدَوحِهَا لمَّا أدَارَتْ سُحْبُهَا جرْيالَهَا

مَا لاَحَتِ الغُدْرَانُ فيه مَدارِعًا حتَّى أرَتْكَ الذَّارِيَاتُ صِقالَهَا

شقّ النّسيمُ جيُوبَهُ فيها وَمِن وشْيِ الرَّبيعِ قدِ اكْتَسَتْ سِرْبالَها

فهْيَ الربُوعُ نَزِيلُهَا مُتَوَسِّدٌ أو وَارِدٌ أنهارَهَا وَظِلاَلَهَا

لِلْمُجْتَنَى إن شئْتَ أوْ للمُجْتَلَى عَرِّسْ تَنَلْ أحْمالَها وجمالَها

وإذا العُفَاةُ اسْتَقْبَلتْهَا قِبْلَةً وفَتْ صَلاةُ صِلاتِهَا آمَالَهَا

هي حضْرةُ المُلْكِ التي قد أصْبَحَتْ غَيْثًا وغَوثًا ان حلَلْتْ حِلاَلَهَا

مَثْوَى إمَامٍ حلَّ أُفْقَ خِلافَةٍ تجْلُو عليْهِ جَمالهَا وجَلاَلَهَا

هُوَ ناصِرُ الدّين الخليفةُ يُوسُفٌ مَلكٌ غَدَا كهفَ المُلوكِ ثِمالَهَا

مَلِكٌ كأنّ الشمسَ غُرةُ وجْهِهِ تهْدِي إلى سُبُلِ الهُدَى ضُلاَلَهَا

مِلِكٌ كأنّ الغَيْثَ جودُ يَمينِهِ مهْمَا أنالَ القَاصِدِين نَوالَهَا

ولِيَ الخلافَةَ فاسْتقلَّ بعبْئِهَا فعُفَاتُهُ لا تشتَكِي إقلاَلَهَا

يامَنْ يشبِّهُ بالغمائِمِ كفَّهُ ما ساجلتْ سُحُبُ الغمَامِ سِجالَهَا

لوْ ألْفِيت بالشُّهْبِ عَارِفَةُ النّدَى لأنالهَا كَرَمًا وقال أنا لَهَا[25]

فمشَارِقُ الأنْوارِ منهُ قدْ أتَتْ بِشِهابِ هَدْيٍ مُوضِحٍ إكْمالها

أضْحَى بأوْطان الجهَادِ مُؤَمَّلاً لِعُفَاتِهَا ومُؤَمِّنًا أعْمالهَا

ما جَابَ آفاقَ البلادِ بقُطْرِهَا أوْ جَالَهَا إلاّ شَفَى أوْجالَهَا[26] - 2

تُلْفِي لديْهِ عُفاتُهُ وَعُداتُهُ سَلْمًا وحَرْبًا نُزْلَهَا ونِزَالَهَا

فالعزْمُ يفْضَحُ في المَضاءِ صِفاحَهَا والحِلْمُ يرْجحُ في الوَقارِ جبَالَهَا

---

(24) فيه إشارة إلى الآية الكريمة : «فسَقَى لهُما ثُمّ تولّى إلى الظلّ»

(25) لاحظ التجنيس في قوله : أنالها أي أعطاها، وقوله : أنا لها أي أنا صاحبها. ومثل هذا وغيره من ألوان البديع واضح في شعر هذا الشاعر.

(26) لاحظ التجنيس أيضا في قوله : أو حالها، أوحالها.

يرْتاحُ في حرْبِ العِدَى خَطِّيُّهُ ... ليكُفَّ إن أهْوَى لَها أهْوالَها[27]

وسُيوفُهُ هامَتْ بصُحبَةِ هَامِهَا ... فَغَدَتْ لذلِكَ تشتَكي إكْمالَها

وقِسيُّهُ من غيْر رمْي طَالَمَا ... رَامَتْ لِتُثبِت في العُداةِ نِبالها

من ذا يُضاهِي في المَكارِمِ أسْرَةً ... في الذّكرِ قد ذكر الإلاهُ خِلالَهَا

قوْمٌ إذا لبسُوا الدّرُوعَ حَسِبْتَهُمْ ... أُسُدًا حَمَتْ في غِيلِهَا أشبَالَها

وإذا نضوْها عنهُمُ فَأَرَاقِمٌ ... أبْقَتْ على أجْسامِهِمْ أشكَالَهَا

وتهُزُّهُمْ أمْداحُهُمْ فكأنَّمَا ... جَالَ النّسيمُ بدَوْحَةٍ فأمَالَها

هذِي العَساكِرُ والمنابِرُ إن بدَتْ ... أُلْفيْتَهُمْ فُرسانها وَرجالها

أوَليْسَ والدُكَ المنيفُ بصوْلَة ... حَمِدَ الكماةُ دِفاعها وصيَالَها[28]

خضَعَتْ رِقَابُ الكَافِرِينَ لمُلْكِهِ ... فاللّهُ شَاءَ بِعِزِّهِ إذْلاَلَها

وكفى بمَوْلانَا الغني بَربِهِ ... أسَدًا يُجَدِّلُ في الوَغَى أبْطالَهَا[29]

كَمْ أُسْرَةٍ لِلكُفْرِ شَدّ وَثاقَها ... ومَعاقِلٍ لِلشّرْكِ حَلَّ عِقَالَهَا

كَمْ شيِّدتْ من مَعْقِل حتّى أتَى ... فوهَى لهَا ما قَدْ بَنَتْهُ وَهَالَهَا[30]

قَسَمًا بِقَومكَ في مَعَالِمِ مَكَّةٍ ... ما رُتْبَةٌ إلاّ وجَدُّكَ نَالَهَا

قَيْسُ بْن سعْدٍ مَن عَلِمْتَ خِلاَلَهُ ... بالخَيْلِ خيْل الله جَاسَ خِلاَلَهَا

كانتْ بها العُزى تُنِيفُ بِعِزّةٍ ... فأذَلَّهَا دينُ الهُدَى وأزالَهَا

والنَّصْرُ لِلأنْصارِ والخَلَفِ الذي ... لَوْ شاءَ زُهْرَ سَمَائِهَا لَسَما لَهَا

كَم من جُمُوعٍ لِلضّلاَلِ وحِزبِهِ ... جاءتْ لِأمرِ قاطِعٍ آجَالَهَا

ما أمّلتْ لو لمْ يكنْ لكَ إرْثُهَا ... إبْقاءهَا لِمَدًى ولاَ إمْهالَهَا

---

(27) تجنيس آخر في قوله : أهوى لها، أهوالها.

(28) والد الممدوح هو يوسف الثاني ولد محمد الخامس.

(29) العي بالله هو محمد الخامس أبرز ملوك بني نصر.

(30) تجنيس في قوله : وهى لها، وهالها.

فالنّصر يقْدُمُ إن أرَدت لقاءَهـا ... والسَّعْدُ يرْمي إذ أتَيْتَ قِتَالَهـا

لِلّهِ نِيَّتُكَ التي قَدْ أخْلَصَتْ ... لقَبُول رَبكَ حالها ومَآلهـا - 13

أهْدَتْ لك الدنْيا تَبَاشيرَ السّنا ... لتَنَالَ في أُفُقِ السَّماءِ مَنالَهـا

حيْثُ الأهِلَّةُ مَا ارْتقتْ واسْتشْرفَتْ ... إلاَّ لِتُطلِعَ بالمُنَى إهْلاَلَهـا

وَبَنو مَريـنٍ والتّجلّةُ شأنُهـا ... أبْدَتْ لَدَيْكَ وُفُودُها إجْلالَهـا

تعي الهِدايَةَ منْ خليفَةِ ربِّهـا ... وترى القبُولَ أحلّ ما أهْدَى لَها

لَمْ يدْرِ كُنْهَ صِفاتِهِ مُتَمَثِّلٌ ... منْهـا إذا ضربَت بِهِ أمْثالَهـا

هلْ بَدْرُ مَمْساها وشَمْسُ صَباحِها ... أمْ وجْهُهُ مُسْتَقبِلٌ أرْسالَهَـا

أهْلا بهِمْ من وافِدين ركَابُهُمْ ... حَطَّتْ بمَثْواكَ الكَريمِ رِحَالَهـا

قد أقبلُوا مُتَيَمّنِينَ بدَوْلَةٍ ... أحْزابَهـا نصرَ الإلاهُ وآلَهَـا

وقد اقْتَفَوْا من وُدِّكَ النَّهْجَ الذي ... نالَتْ عُدَاتُكَ منْ هُداه ضلالَهـا

هذا وقدْ وافَى صنيعُك لِلْوَرَى ... فمواهِبَ الصُّنْعِ الجميلِ أنَالَهـا

واسْتَقْبَلتْهُ أوْجُهُ البشرَى التي ... بالبِشْرِ أبْدَتْ والرّضَى آسْتِقْبالَهـا

فَعَدَتْ يمينُكَ فيهِ ديمَةَ رَحْمَةٍ ... كُلّ الوُحُودِ يُؤمّل آسْتهلالَهـا

هَيْهَاتَ يَظْمأُ وارِدٌ من بعْدِ ما ... أوردت كُلّ مُؤمّلٍ سَلسَالَهـا

لكَ حِكْمَةُ الوَهّابِ سابقُ حُكْمِها ... نَادَى بخَيْلِكَ أن تجُولَ مَجالهَا

أعْرافُهـا فيهَـا لِمُلكِكَ آيَةٌ ... مَتْلُوَّة أنْ سَوّغتْ أنفَالَهـا(31)

لِلّهِ منهَا والذّوابِلُ شُرَّعٌ ... خيْلٌ تُريكَ منَ النّحيع نِعالَهَا

حَمَلتْ كُماةً لوْ أزَرْتَ جَميعَهمْ ... أرْض العُداةِ لَزُلزِلت رِلزَالَهـا

---

(31) يشير إلى الآية الكريمة الواردة في سورة الأعراف في حق الأنصار وهي قوله تعالى : «فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتّبعوا النّور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون» وقد أشار الشاعر إلى هذا المعنى في قصائد سابقة.

مِن كُلِّ أَرْوَعَ باسِلٍ يوْمَ الوَغَى ... لَبِسَ العَجاجَةَ ساجِيًا أذْيالَها

قدْ أرسَلَ الغرَّ السَّوابِقَ لِلمَدَى ... والنَّصْرُ يَقدُمُ دائِمًا إرْسالَها

ثَبَتَتْ قوَائمُها به ولقَدْ مَحَتْ ... آجال أهْلِ الشِّرْكِ حِينَ أجَالَها

سَتَخِفُّ طَوْعًا نحْوَهمْ والأرضُ مِنْ ... أنفالِهِمْ قد أحرَجت أثقَالَهَا[32]

فترى الكتائِب لِلعِدَى أوْ فِي النَّدَى ... إنْهادَها في اللّهِ أوْ إنْهالَها

هَذِي السَّيكَةُ مَلْعَبُ الخَيْلِ التي ... أَلْقَتْ بأفئِدَةِ العُداةِ خَبالَها[33] - 14 -

إن جُرِّدتْ بيض السُّيوف لِعارةٍ ... لبِسَتْ من النَّقْعِ المثارِ جِلالَها

فإذا المَواكِبُ في مَداها اسْتشْرفتْ ... مَا للْكَواكِبِ في السّماءِ وما لَها

يا حُسْنَهُ حَطَبًا ويَا عَجَبًا إدا ... جالتْ بهِ خيْلُ السِّباقِ مجَالَها

يُذْكِي قُلوبَ الحاسِدِين مَتاعِلاً ... والنارُ ما أبْدَتْ بهِ إشعَالَها

للهِ كَمْ صُوَرٍ بهِ مَجْلُوَّةٍ ... كادَتْ تُحَقِّقُ في العيُونِ مثالَها

نَوْ أفْصحتْ أشكالُها بخِطابِها ... لِلْمُبْصرِينَ لأوْضَحَتْ إشكالَها

يا مَلْحَأَ القُصَّادِ كَفُّكَ كُلَّما ... وكَفَتْ غَمائِمُها كَفَتْ أُمَّالَها

للخَطِّ والخَطِّيِّ فيها آيةٌ ... مَهْما أرَتْكَ حِلادَها وحِدالَها

ولقَدْ فَرَعْتَ من الجِلاَفَةِ مَرْقَبًا ... أطْلَعْتَ فيه للعُيونِ هِلالَها

فَلَيَهْنِها لمَّا حَللتَ بأُفْقِهَا ... شَمْسُ اهْتِداءٍ لا تخافُ زوَالَها

واهنأ به إمْلاكَ عِزٍّ لمْ تزَلْ ... تبْغِي سعُودُكَ نَحْوَهُ إقبالَها

ولَيَهْنِ تالِيَكَ الذي أوْلَيْتَهُ ... من أنعُمٍ مَدَّتْ عليْهِ ظِلالَها[34]

---

(32) فيه اقتباس من الآية الكريمة : «وأخرجت الأرضُ أثقالها».

(33) السيكة (أو مدرج السيكة كما في الاحاطة) بسيط كان يقع جنوب شرقي الحمراء ويدل شعر ابن الحطيب وابن زمرك وابن فركون هنا على أن السيكة كانت ملعبا للخيل وميدانا للفروسية في الاعياد والمناسبات ؛ وقد ذكرت في أشعار عديدة في الاحاطة وغيرها.

(34) يعني بتالي السلطان الممدوح أخاه معز الدولة أبا الحسن علي، فهو تالي أخيه في الرتبة والمكانة ولعلّه تاليه أيضا في السن والولادة.

حتَّى تُجرِّدَ في رِصاكَ صِفاحَها ... يدُهُ وترْسِلَ في الوَغَى آسالَها
لِلعبْدِ أيُّ مَدائِحٍ تُتْلَى فما ... يخْشَى تَناسِيَها ولاَ إغْفالَها
ولمُلْككَ الأعلى مَواهِبُ رَحْمَةٍ ... ومَكارِمٌ لا تَقْتَضي إهْمالَها
فلقَدْ كَفَفْتُ بها زمانًا راعَني ... بزمانةٍ شرَعَتْ إليَّ نِصالَها
أوْلَيْتَني مالاَ أقوم بشكرِهِ ... منْ أنعُمٍ أجْمَلْتَ لي إجْزالَها
وصَف العبيدُ وقدْ عَطَفْتَ مُوكِّدًا ... أسْبابَ رفْدِكَ مانِعًا إبْدالَها
فإليْكَ من حُسْنِ ٱلثّناءِ عَقيلَةً ... حلّ البيانُ إلى المَديحِ عِقالَها
جاءَتْ تُريكَ من النّظامِ لآلئًا ... جيدَ اللّيالي طَوَّقَتْ مُثالَها
جادَتْ حَدائِقَها غمائِمُ للنّدى ... لا تشْتَكِي من بَعْدِها إمْحالَها
ودَعَتْ قَوافيَها مَدائِحَكَ التي ... فكْري لَدَيْكَ أطاعَها وأطالَها
ولأنت خيْرُ مُؤمَّلٍ أصْغَى لَها ... وأقامَ مَائِلَ دَوْحِها وأقالَها
أعْظِمْ بدَوْلتِكَ التي أنا ناظِمٌ ... أوْصافَها والكلُّ قدْ أصْغَى لَها
لاَزلتَ يا شَرَفَ المُلُوك مُخَلَّدًا ... فبِعِزِّ نصْرِكَ بُلِّغَتْ آمالَها
سألَتْ لكَ اللهَ البَريَّةُ كُلُّها ... طُول البَقاءِ وقدْ أجابَ سُؤالَها

وممَّا صَدرَ عنّي وقد احْتَلَّ ركَابُهُ العَلي بمَالقَة برسْم عَرْضِ جُنْدهَا في شعبان من عام أحد عشر وثماني مائة وأمرَ أيَّده الله بإراقةِ الخمُور وتغيير المنكر وإذاعَة أفعَال البر

بُدُورٌ بأُفْق المُلْكِ راقَ طُلُوعُها ... فمالقَةٌ قد أشرَقَتْ وَرُبُوعُها
إذا ابْتَسَمتْ فيها الأزَاهِرُ لمْ تَزلْ ... لذلِكَ سحْبُ الأفْقِ تهْمي دُموعُها
تحُل بِوادِيها الكبيرِ وفُودُها ... فيعْذُبُ فيه وردُها وشرُوعُها[35]

(35) يقصد وادي مالقة الذي يسمى أيضا وادي رية، وقد اشتهر باسم وادي المدينة، وهي التسمية الباقية GUADALMEDINA. والكبير في قول الشاعر : نواديها الكبير، إنما هو نعت لا عير. وراجع ماورد في وصف هذا الوادي في المغرب لابن سعيد ج 1 ص 423 ط. 3.

وكمْ حَلتِ الركْبانُ منها مَعاهِـدًا ... لِتُصْبِـحَ والآمـالُ دانٍ شسُوعُهـا
فبُلّـغَ راجِيها وأُسْعِـفَ قصْدُهُ ... وأُمِّنَ مِن رَيْبِ الزَّمانِ جَزُوعُهـا
ومُذْ أمَّلتْ مَوْلَى الخلائفِ يُوسُفًـا ... فهَلْ حادِثَاتُ الدهْرِ يُخْشَى وُقوعُها
ووافَت إلى المَيْزِ السَّعيدِ وُفودُهـا ... فَراقت على تِلكَ البِطاحِ جمُوعُها
وناصِرُ دين الله يطْلِعُ وجْهُـهُ ... كَشَمْسِ الضحَى يُعْشِي العيُونَ طُلوعُها
وهلْ يكْتُمُ الشمْسَ المنيرةَ كاتِـمٌ ... وأنوارُهـا في الخافِقَيْـن تُشِيعُهـا
بـاصِر دين اللّـهِ عـز جنابُهـا ... فمَن طائِعُ الأمْلاكِ أوْ من مُطِيعُها
أسَلْتَ دَمَ العُنْقودِ في اللّهِ مُظهِرًا ... لِأفعـالِ برٍّ في الوجـودِ تذيعُهـا
لـذلِكَ جادَ الغيْثُ منها أباطحًـا ... بها زهـرُ أزهـارٍ جَلاهَا ربيعُهـا
لك الحُكْمُ فيمَا شِئْتَ غيْرُ مُدافَعٍ ... إذِ الأرضُ في كِلْتَا يديْك جَميعُها
وتاتِي بما تُبغِي سُعُودُكَ في العِدَى ... وقدْ ضَلَّ عاصيهَا وفـازَ مُطيعُهـا
وتَتْـرُكُ آثـارُ الجيـادِ مَحاربًـا ... لها في الوَغَى يبْدي السُّجودَ صَريعُها
بحَيْثُ الحُسَامُ الصّلْتُ نهْرُ حديقةٍ ... يَروقُ عَلى شطّيْهِ وِرْدًا نَجيعُهـا - 16 -
تـروعُ عُـداةُ الدّيـن عنْـهُ فرارَهـا ... وأيْـن لها عـن مضْربيْـهِ نزُوعُهـا
ومن كَبني نصْرٍ إذا سَهِدوا الوَغَى ... لدَيْهِم من الأبْطالِ يبدو خُضُوعُها
فكمْ فئـةٍ منهُـمْ بإفْنائهَـا العِـدَى ... وبـذْلِ النّـدَى لِلْمعْتفيـنَ وَلُوعُهـا
وفي دوْحَةِ الانْصارِ طابَتْ أصُولُها ... وليْسَ عَجيبًا أن حَكتْها فُرُوعُهـا
كـأنْ ببـلاد الكافريـنَ بأسْرِهـا ... لِمـلك مليك العُدْوتيْـن رُجُوعُهـا
وكمْ سابِحٍ يُرْبى عَلَى كلّ سانحٍ ... إذا ما ظِباءُ القَفْرِ يبْدُو مَروعُهـا
فتحْنو على الأبْطالِ حتّى كأنهُـمْ ... لديْـهِ قلـوبٌ ضمّنتْهـا ضُلوعُهـا
مدائِحُكَ الأزهارُ طِيبًا فإن سَرَتْ ... نَـواسِمُ أفكـاري عليْهـا تُذِيعُهـا
وهَا هِيَ قدْ داعَتْ لَديْك وسائِلاً ... وحَاشاكَ يا مَوْلَى المُلوكِ تُضيعُها
أُحيـلُ بمَيْـدان البيَـانِ قِداحَهـا ... فيَلتاحُ في الأوْصاف منْك بديعُها

ومن لي بوَصْفِ البَعْضِ منها وإنها ... لَيَقْصُرُ عنْها لوْ أتاها بَديعُها[36]
أمَوْلايَ دُم لِلْمَكْرُماتِ تُبِلُّها ... بدًى ولأحداثِ الزمانِ تَرُوعُها
ومَمْلوكُ نُعماكَ الكريمةِ كُلّما ... تَعَرَّضَ للشكْوَى فأنتَ سَميعُها
عبيدُكَ يا مَولايَ مِتلي حَقيقَةٌ ... بعزّك حَاشَى أنْ يُرامَ خُضوعُها

وقلتُ أهَنِّئُهُ بالقدُوم على حَضرته العليَّة من هذه الوِجْهَة المبَارَكةِ في آخر شعبَان المذكُور

هَناءٌ كَعَرف الزَّهْرِ للمُتَنَسِّمِ ... وبُشْرَى كنورِ الزَّهرِ للمُتَوسّمِ
فقدْ قامَت الدنيَا على قدَمِ الرّضَى ... تهنّيءُ مَوْلانا بأسْعَدِ مَقْدَمِ
وقد لَهِجَ الإسْلامُ حتّى كأنّهُ ... يُشيرُ لعُلْياهُ بكَفٍّ مُسَلّمِ
وَرَقّ ثناءٌ كُلَّ لَفْظٍ مُمَنَّعٍ ... وَراقَ آنثِناءً كُل غُصْنٍ منعَّمِ
لذلكَ عَرْفُ الروْضِ عنْها مُتَرْجمٌ ... وترْجيعُ سَدْوِ الطائِرِ المُتَرنِّمِ
لِمالقةٍ حقَّ التَّشَرُّفُ إذْ لَها ... بباصِرِ دِينِ اللّهِ فضْلُ التّقَدمِ
ومُحْدَثُها جادَ الحيَا معْهَدًا لهُ ... وعهْدًا كريمًا فيهِ غيْرَ مُذَمَّمِ[37] - 17
فلِلّهِ منهُ منزِلٌ حاءَ أفْقُهُ ... ببَدْرٍ من الوَجْهِ الكَريمِ مُتَمّمِ
ولكنّ من شأن البُدورِ انتقالُها ... وما الكرُّ إلا للجَوادِ المُطَهّمِ[38]
وغرْناطَةٌ للهِ منها مَعاهِدٌ ... تعيرُ الخلِيّ القَلبِ وَجْدَ المُتَيَّمِ
وغرْناطَةٌ دارُ الخِلافةِ لمْ تَزَلْ ... محالاً لأفراسِ الخَميسِ العَرَمرَمِ
أيُجْهَلُ في مِصْرٍ وشامٍ حديثُها ... وشمْسُ الضحَى ما نورُها بمُكتَّمِ

---

(36) يقصد بديع الزمان الهمداني.

(37) المحدث اسم قصر بمالقة شاده العبي بالله محمد الخامس ؛ ولابن زمرك موشحة في وصف المحدث ؛ راجعها في أزهار الرياض 2 : 197 ــ 198.

(38) جواد مطهّم : تامّ الحسن

لقد حل بالحمراءِ هالَةَ مُلْكِهِ ... ولاَحَ بها بَدرًا يُحَفُّ بأنجُمِ

أيُنْسُ للبَدْرِ المُتَمِّمِ نورهُ ... وقدْ يختفي في جَوِّهِ المُتغيمِ

أيُرْوَى عن الرَّوْضِ الانيقِ تَساؤُهُ ... ومسهُ استفادَ الزهْرُ طيبَ التَّسَمُّمِ

أتُعْرى إلى العَيْثِ الملثِّ يَميسُهُ ... ومَاسَاحَلتْها في بَدًى وتكرُّمِ[39]

بَدَى يدِهِ العُلْيا عمَامٌ وسَيْفُهُ ... وَميضٌ بأفْقِ للعَجاجَةِ مُطْلِمِ

كدلك سُحْبُ الغَيْثِ تهمِي دُمُوعُها ... إذا لاَحَ نورُ البارق المُتَبَسِّمِ

إذا هو في يوْمِ الوغَى حَرَّدَ الظّبا ... غَدا الدّينُ في ثَوْبٍ من العِز مُعْلَمِ

وَإن نشَرَ الأعْلامَ حُمْرا خَوافِقًا ... طَوَى كُلَّ ربْعٍ للْعَدُوّ ومَعْلَمِ

أمولايَ لا يُحْصِي مآثِرَك التي ... هيَ السّهْلُ تُسْتَجْلَى سَابِي ولا فَمِي

ومادا يَبُصُّ العبْدُ منهَا وقدْ أتى ... تَاؤُكَ في نصٍّ من الذّكْرِ محْكَمِ[40]

وإنّ يَراعِي كالدوَابِلِ سُرَّعًا ... ولَفْظِي يمْضِي كالحُسَامِ المُصَمِّمِ

وما رَوّعتْ قلبي ٱلْحَوادثُ بعْدما ... تقلّبْتُ في نعْماكَ يا حيرَ مُنْعِمِ

ولكنّنِي أخشى مقالَةَ حاسِدٍ ... رَمانِي من رُورِ الكلاَمِ بأسْهُمِ

فُرُحْماكَ في مملوكِ نعْمتِكَ التي ... أتى قاطِعًا أسْنانَها كُلَّ مُجْرِمِ

فهَا أنا أرْحو أن تكُفَّ مَنِ اعْتَدَى ... وأنْسُط كَفّ الآمِلِ المُتظلّمِ

ودونَكها من جِدْرِ فكْرِي عادةً ... تُيَمِّمُ من مثْواكَ حيْرَ مُيَمَّمِ

وأهْدَيْتُها قِدمًا إليْكَ مَدائحًا ... كزَهْرِ نضِير أو كَدُرٍّ مُنظَّمِ - 18 -

ولمْ أكُ ذا جَهْلٍ بأن تملكَ ٱلوَرَى ... فقدْ كان مَولايا بذلِكَ مُعْلِمِي

وأوْلَيْتَنِي النعْمى فَيا مَلِكَ الهُدَى ... بَدأتَ به صُنْعًا جميلاً فتَمِّمِ

وَأوْرَيْتَنِي الوجْهَ الجميلَ ولمْ تُعِدْ ... فمن لي برُؤيَا بَعْدَها أوْ تكَلُّمِ

وما يُمْنَعُ المَمْلوكُ إن مُنِعَ اللّقا ... إذا يتمنّى أوْ يَرى بالتوهُّمِ

---

(39) العيث الملثّ : المداوم.

(40) يشير إلى آية الأعراف في حق الأنصار سلف الممدوح. راجع ما تقدم.

وقبل ذلك أمَرَ لي أيّدَهُ الله بتنفيذ الغزَاة بحضرتِهِ العليَّة وَسائِرِ البلاد النّصْرية وأبْطأ الظهير الكريمُ بذلك في العلامة فقلتُ في مُنْتَصَفِ رَبيعِ الآخرِ عام أحدَ عشر وثماني مائة[41]

مقَامُكَ للقصَّادِ كَهْفٌ وملْجأٌ ... وللآمِلِ المحْتاجِ وِرْدٌ مهَنَّأُ

وَجودُكَ بَحْرٌ لِلعُفاةِ فإنْ جَرَتْ ... بِهِمْ سُفُنُ الأطْماعِ بابُكَ مَرْفأُ

وَواللهِ ما أدْري ووَجْهُكَ لائِحٌ ... أنُورُ الضحَى أمْ نُورُهُ يتلألأُ

إذا اسْتَفْتحَ المُدّاحُ يوْمًا كلاَمَهُمْ ... فكل بما تُبدِي سُعُودُكَ يبْدأُ

ولاَحَتْ لدين اللهِ منكَ مخايِلٌ ... تَدُل على النَّصْرِ العَزيز وتُنبىءُ

كَذلكَ سُحْبُ الأُفْقِ يُرْجَى آنْسِكابُها ... إذا ما آسْتَنارَ البَارِقُ المُتَلألِىءُ

إذا لمْ يَلُحْ بَدْر الدُّجُنَّةِ مُشْرقًا ... فوجْهُكَ أهْدَى منهُ نورًا وأضْوأُ

وإنْ بخِلَ الغيْثُ المُلِثُّ بجودِهِ ... فجودُكَ آفاقَ البسيطَةِ يمْلأُ

فَلا قُطْرَ إلاَّ وهو يبْغيكَ مالِكًا ... ولا قَطْرَ إلاّ عن سَحابِكَ ينْشأُ

فنورُ الهُدَى للمُجْتَلِي غيْرُ آفِلٍ ... ونارُ القِرَى للمُجْتَدي ليْسَ تخْبأُ

إذا ذُكِرَ المَوْلَى الخليفَةُ يوسُفٌ ... به يخْتَمُ الذّكْرُ الجَميلُ ويُبْدَأُ

وحسْبُ مُجِيدِ النّظمِ والنثْرِ أنّهُ ... يُقَصِّرُ فيما يسْتجِيدُ ويُنْشِىءُ

لأنّ أبا الحجّاجِ مَولايَ حُجَّةٌ ... إذا عُدِّدَ الأعْلاَمُ فهْوَ المبدأُ

إذا احْتفَلَتْ هَالاَتُ أُفْقٍ فإنّها ... لِمَجْلسِهِ منها المِهادُ المُوَطَّأُ

ومنْ ذا يبالي بالهَواجِرِ تلتَظِي ... ونائِلهُ يرْوي إذا هِيَ تُظْمِىءُ

---

(41) في التقديم ذكر لخُطّة تنميد الغزاة، وقد شرحتها في مقدمة الديوان، وفيه ذكر لكلمة الظّهير، وما تزال مستعملة عندنا وقد شاع استعمالها مند عهد الموحدّين ؛ أما العلامة فهي التوقيع المصطلح عليه في دولة من الدول كعلامة «الحمد لله وحده» عند الموحدين وعلامة «وكتب في التاريخ» أو «وكتب في التاريخ المؤرخ به» عند المرينيين. راجع كتاب مستودع العلامة.

(42) وردت هذه القصيدة أيضا في «مظهر النور الباصر» من ص 185 إلى ص 188 وقد مهد لها فيه بقوله : «وقلت أمدحه أيده الله وخلّد ملكه».

يُنَادِي نَدَاهُ والظِّلالُ مُرِيحَةٌ ... أَلاَ أَوْرِدوا ما شِئْتُمُوا وتَهَنَّأُوا - 19 -
ومَنْ أَنْحَلَتْهُ صحَّ هذا بوَعْدِها ... فبالنَّاصِرِ المَوْلَى يصِحُّ ويَبْرَأُ[43]
تحُطُّ اليَدُ الغَرّاءُ منْها عَلامَةً ... يُقَبِّلُها وهوَ الوَجيهُ المُهَنَّأُ
هو المَلِكُ الأَرْضَى الذي عَزماتُه ... بها كُلُّ قصْدٍ ناجحٍ يَتَهيَّأُ[44]
يَصولُ ومَشْحوذُ النِّصَالِ كأنَّها ... تَذُودُ عنِ الأَرْجاءِ مَن يَتَجرَّأُ
وبالسَّعْدِ قَبْلَ السَّيْفِ إنْ شَهِدَ الوغَى ... يكُفُّ عن الدِّين الحنيفِ ويدْرأُ
فَيرتاحُ فيها الرَّمْحُ والرَّوْعُ عابِسٌ ... ويخْطُبُ فيها السَّيْفُ والخَطْبُ يفْجَأُ
بهِ في ثباتِ العَزْمِ والحَزْمِ يُقْتَدَى ... إذا تَحْفِقُ الرَّايَاتُ حينًا وتهْدأُ
مُجاهَدةُ الأنْصارِ قامَ بعِبْئِها ... هُمامٌ بأَمْلاكِ العِدَى لَيْسَ يَعْبأُ
رأى المصْطَفَى من سَعْدِهِمْ أنّ نجْلَهُ ... بمَكَّةَ يغْني عن كثيرٍ ويجْزِئُ[45]
كفَى بكِتابِ اللهِ مَدحًا لأُسْرةٍ ... بطَيْبَةَ منهُم طابَ أصْلٌ وَمَنْشأُ
وإنّ كِتابَ اللّهِ جَلّ جَلالَهُ ... لهُ قَوْلُ صِدْقٍ من مُحالٍ مُبَرَّأُ
إذا الخَزْرَجُ الأَعْلَوْن عُدّدَ فضْلُهُم ... فمَن عامِرٌ أَوَ مَن سُلَيْمٌ وَطيّىءُ
أَمولايَ لا ياتي بوَصفكَ شاعرٌ ... ولَوْ أنهُ الطَّائِيُّ والمُتنبِّىءُ
وكَيْفَ يَرومُ الحمدَ والمَدْحَ كاتِبٌ ... وذِكرُك يتْلَى في الكِتابِ ويُقْرَأُ
ولكِنَّ يا مَولايَ أمْرُكَ نافِذٌ ... فَما بالُهُ في مطْلبِ العَبْدِ يُبْطِىءُ
إذا لَمْ يُؤَمِّلْ منْ جَنابِكَ مَلْجَأً ... إلى أيْنَ يامَوْلَى الخلائِفِ يَلْجأُ
ولَمْ يجْنِ من رَوْضِ المُنَى زَهْرَ رِفْدِهِ ... فأَيَّ ظِلالٍ للنَّدَى يتفيَّأُ
وسَهْمُ رَجائِي صائبٌ كُلَّمَا رَمَى ... بهِ المَدْحُ فاعْجَبْ كيْفَ يَرْمي ويُخْطِىءُ
نَوالك عَذْبٌ للوُرُودِ وكُلُّ مَنْ ... يؤَمِّلُهُ عَنْ وِرْدِهِ لاَ يُحَلَّأُ[45م]

(43) «صحّ هذا» هي علامة ملوك بني نصر، وتوجد في عددٍ من ظهائرهم الباقية.

(44) في الأصل : العظمي، والتصويب من «مظهر النور الناصر».

(45) يشير إلى مكانة قيس بن سعد بن عبادة عند رسول الله ﷺ.

(45م) لاَ يُحَلَّأُ : لا يطرَد ولا يمنع

وما راقَ منّي النظْمُ إلاّ لأنـهُ سَحْر سَوالٍ مس يَمينكَ لُؤلُـؤُ
بَقيتَ لديس الله تـنْصرُ أهْلَـهُ وتحفظُهُم من كلّ خطبٍ وتكْلأُ

ولمّا وجّه إلَيّ الظّهيرَ الكريمَ قلتُ أشكر نعمَتهُ في اليَوْمِ العِشرين من ربيع المذكور[46]

ألا يا مَشوقًا يمّمَ الرّبْعَ وَالْمَعْنَى هيئًا فوجْهُ الحسْنِ حيّاكَ بالحسْنَى
عطفْت على سَلمَى الرّكابَ مُسَلّمًا فأهْدَتْ حَوانًا رائقَ اللفْظِ والمعْنَى
ويا طالَما صَدّت ولمْ تَثْنِ مَعْطِفًا ولَدّتْ وقد حاذَتْها عُصُبًا لَدْنا[47]
وَأمّا وقـدْ لاحَ المحَيّا وحُسْنُـهُ فمِنْ طَلْعَةٍ تجْلَى ومِنْ دَوْحَةٍ تُحْنَى
وقِدْمًا سَرَيْنا بالـرّكائِبِ مَوْهِنًا وبحْمُ الدُّحَى بالأفْقِ لمْ يعرِفِ الوَهْنا
تخُوضُ بنا بحْرَ السّرابِ طَعائِنٌ فَلِلّهِ عيْنًا من رأى البحرَ والسُّفْنَا
ولمْ أنْسَ بالحَيّ الحِلالِ وُقُوفَها وسُكّانُهُ المعْنَى فمالِي وللمَغْنَى
وهل شَعَفِي بالبَانِ إلاّ لأنّهُ بِهِ شَبَهٌ مِمّنْ كَلِفتُ بها معْنَى
هِيَ الظّبْيُ حيدًا والقَضِيبُ تَأوُّدًا تَنَبّي مِلْكًا دُونَ شَرْطٍ ولا اسْتِثْنَا
بَيّنٍ مَرْآهَا وحُسْنِ قَوامِها إذا ما تَنَدّتْ تُخْجِلُ البَدْرَ والغُصْنَا
فيا لَيْتَ منْها الطّيْفُ قد زارَ في الدُّجَى ومن لي بهِ والسُّهْدُ قد ألِفَ الجَفْنَا
أطارَ فُؤادِي الشّوْقُ بعْدَ بِعَادِها فلَمْ يتجِذْ في الصّدْرِ وكْرًا ولا وَكْنَا
عَجِبْتُ لها إذْ أتْلَفَتْـهُ بِبُعْدِها وما اتجَدَتْ لمّا نأتْ غَيْرَهُ سُكْنَى
لَقَدْ عَذَرَتْني ثـمّ ضَنّتْ بوَصْلِها وأعْجَبُ شَيءٍ عاذِرٌ بالمُنَى ضَنّا

---

(46) توجد هذه القصيدة أيضا في «مطهر النور الناصر» من ص 188 إلى ص 191 وقدمها بقوله : «وقلْتُ في مدْحِهِ ــ أيده الله ــ وشُكْرِ بِعَمِه، وتَقْرير ما أسْدَى مِنْ مواهب كَرَمِه»

(47) في الأصل : ولدّت، والصواب : ولدّت، كما في مطهر النور الناصر.

وقد رَحِمَ الواشِي ظُنُونًا كَواذِبًا فمنْ عاذِرٍ قدْ ضنَّ أو عادِلٍ ظنَّا
وأَبْدَعُ شيءٍ طائِرُ الدوْحِ صادِحًا يُذَكِّرُ بالمَعنَى ويُبْدِعُ إن غَنَّى
أذِنْتُ لهُ والسمعُ بابٌ لِسَجْعِهِ فَتاتَ ولمْ يعرِفْ حِجابًا ولا إذْنا
وطوَّق بالأبداءِ حيدًا كأنَّهُ حَبَى يُوسُفًا مَوْلاَيَ بالمَدْحِ فاسْتَغْنَى
هوَ المَلِكُ الأعْلَى هو النّاصِرُ الدي مَعالِي عَوالِيهِ مُؤسّسَةُ المَبْنَى
فَحَسْبُ ملُوكِ العربِ والشّرقِ أنّهُ يُؤمّلُه الأقْصَى من الخلْقِ والأدْنَى
إذا ما تَبَدَّى البَدْرُ نُورًا ورِفْعَةً أرى قدْرَهُ أسْمَى وطلعَتَهُ أسْنَى
تُيَسِّرُ يُسْراهُ لِسائِلِهِ المُنَى وتَبْسُطُ يمْناهُ لآمِلِهِ الأمْنا - 21 -
فَيُرْدِي أعَادِيهِ ويُحْيِي عُفاتَهُ بِمَكْرُمَةٍ قدْ سَنّ أوْ غارَةٍ شَنّا
حَبانِي بالآمالِ والمَالِ رِفْدُهُ فأغْنَى وَعَنْ تسْآل مَنْ دونَهُ أغْنَى
مَدائِحُهُ كانَتْ وَسائِلَ لِلْعِنَى فَلِلّهِ ما أغْنَى ولِلّهِ ما أعْنَى
أمَوْلاَيَ قدْ نَلْتَنِي كُلَّ مطْلَبٍ بِفَيْضِ نَوالٍ جَوْدُهُ يُخْجِلُ المُزْنا
وَلَمْ لاَ وقدْ وافتْ عَلاَمَتُكَ التي هُدَى الحسْنُ في شفْعِ الزّيادةِ بالحُسْنَى
وحُدت بما قد أمَّلَ العَبْدُ مُنعِمًا فشكرًا بما أوْلَيْتَ من مقْصَدٍ أسْنَى
وشرّفْتَ عبْدًا قدْ أتاكَ مُسَلِّمًا يَرى اليُمْنَ في تَقْبيلِ راحَتِكَ اليُمْنَى
وَالكَ كافٍ كافِلٌ كلَّ سائِلٍ لهُ في الورَى معْنًى تَناسَوْا بِهِ مَعْنَا[48]
يمينًا بمنْ حَجَّ الرِكَائِبَ في مِنًى ومنْ حَجَّ بيت اللّهِ والحجْرَ والرُّكْنا
ومنْ قدْ سَرى ليْلاً لِتَكْليمِ رَبِهِ إلَى أن تَدَلَّى قابَ قوْسَيْن أو أدْنَى
لمَا ساجَلَ البَدْر المُنيرُ ولاَ الحَيَا يَلوحُ ويَهْمِي مِنكَ حُسْنًا ولا مَنًّا
وذُوبكهَا بالحمدِ راقَ جَمالُهَا وبالمَدْحِ فاقتْ كُلَّ غانِيَةٍ حَسْنَا
فأثنى عَلَيْكَ العَبْدُ بَدْءًا وَعَوْدَةً إلى أنْ ثَنى صَرْفَ الزّمانِ بما أثْنَى

---

(48) معنا الثانية، يعني بها معن بن زائدة، من أجواد العرب.

ولما وُلد لمولانا أيّده الله بكرُ أولادِهِ الذي استأثر الله بهِ ثاني يوْم من عقيقته وكان من بنت القائد المُعَظَّم المرحُوم أبي يزيد خالِد مولَى نعْمتِهم الكريمة في آخر محرم عام اثني عشر وثماني مائة ارْتجَلتُ بسَقيفَة الكتابِ سَاعة الإخبار به[49]

هَنيئًا بهِ مِنْ عالَم الكَوْنِ وافـدَا ... وقدْ بلـغَ الإسْلامُ فيـه المقـاصِدَا[50]

فما زالَ رَبُّ العَرْشِ جَل جَلالُهُ ... يريكَ منَ الصُّنْعِ الجميلِ عَوائِدَا

لَقَدْ سُلَّ في الأعْداءِ منْهُ مُشَهَّرٌ ... تَراهُ بسَيْفِ اللّهِ فيهِمْ مجَاهِـدَا

يُجَـدِّلُ عُبَّـادَ الصّلـيبِ مُؤيَّـدًا ... ويعْمُرُ لِلدّين الحنيـفِ مسَاجِـدَا

ويُرْسِلهَـا في القاصِديـن مَواهِبًـا ... فتعْمُـرُ منهُـنَ العُهُـودُ المَعَاهِـدَا

ونحْـنُ العَبيـدُ الكاتِبُـونَ جَميعُنَـا ... يُنَظِّمُ فيـه مِـن حُـلاهُ فَرائِـدَا - 2!

ونَبْلغُ مِن أوْصافِهِ كُـلَّ غايَـةٍ ... يجُوزُ بِها المَدْحُ المَدَى المُتَباعِدَا[51]

أمَـا لِوَلـيّ العَهْـدِ غـرُّ مَخائِـلٍ ... تُؤَمِّـنُ مُرْتَاعًـا وتُسْعِـفُ رَائِـدَا

أما لِوَلـيّ العَهْـدِ منكَ شَمائـلٌ ... لها صِلة في الجُوْدِ تُعْقِبُ عائـدَا

بَشائِرُ ظِلِّ العِزّ تُضْفيهِ سَجْسَجًـا ... وتُصْفِـي لِـقصَّادِ النّـوَالِ مَـوارِدَا

بَقـيتَ لِأمْـلاكِ الزّمـانِ مُؤَمَّـلاً ... ومُتَعْتَمًـا بالمُـلْكِ نجْـلاً وَوَالِـدَا

---

(49) سقيفة الكتاب هي المبنى الخاص لجلوسهم وكان في قصور بني الأحمر وبني مرين سقائف للكتاب والحراس وغيرهم.

(50) وردت القصيدة أيضًا في مظهر النور الناصر : 30 ــ 31.
وذكرها فيه بآخر ما قيل في هذه المناسبة وقدم لها بقوله : «وارتجل مملوك مولانا نصره الله أبو الحسين بن فركون كاتب هذاه.

(51) يجوز كما في الأصل، وفي مظهر النور : يجوز، وكتب فوقها الشاعر بخط يده : ينال.

وأنشدتُ يوْمَ عقيقتِهِ السَّادِسَ لِصَفَر عام اثنيْ عَشَر وثمَاني مائة[52]

قـف بالـرَّكائِبِ سَاعَـةً واسْتوقِـفِ تحْظَ الرّكَاتُ ضُحًى بأشْرَفِ مَوْقِفِ
وارْبَعْ بها دِمَنًا أَلِفْتُ بهَا الهَوَى أكْرِمْ بها مِن مرْبَعٍ أوْ مأْلَـفِ
رَاقت مَحَاسِنُهـا ورقّ نسيمُهـا فالرَّوْضُ بيْـنَ مُـؤرَّجٍ ومُفَـوَّفِ
تَسْرِي الصَّبا بِشذاهُ حين تُميلُـهُ فالـقُضْبُ بَيْـنَ تَعطُّـرٍ وتَعَطُّـفِ
وافَى عَليـلُ سيمِهـا ثـمّ انثنَـى والقلْبُ من ألَمِ الصبَابَةِ يحْتَفِـي
لـولاَ البُخُـولُ وإنَّـهُ لمَرِيَّـةٌ لمْ تَرْهَبِ الأبطالُ حَدَّ المُرْهَـفِ
يا أهْلَ نجْدٍ هَل لنَا في حَيّكمْ أو حُبّكمْ مِن مسْعِدٍ أوْ مُسْعِفِ[53]
فإلَى مَعاهِدِكـمْ أطَـلتُ تَشَوُّقِـي وعلى عُهودِكُـمُ قَصرتُ تَشَوُّفِـي
هَـامَ الفُؤادُ بِطَيْبَـةِ البَـانِ التـي منهَا اسْتَفاد البانُ لِيـنَ المَعْطِـفِ
لـمْ يَثْنِهـا قـوْلُ الـوُشاةِ وإنمَـا ريحُ الصَبَا مـالَتْ بـعصْفٍ أهْيـفِ
وتَـبَسَّمَتْ بعَقِيقِهَـا عـن لُؤْلُـؤٍ شَفَقٌ شفَتْ وحْدِي وإنْ لمْ تُرْشَفِ
ولطالَمـا أذكَتْ جَوًى بجَوانِحـي فَطفِـقْتُ بيْـن تَلـهّبٍ وتَلطُّـفِ
دَعْ ما يَريبُ فإنَّني أصْبَحْتُ مِن ريْبِ الحَوادثِ تحتَ ظِلّ أوْرَفِ
حَكمِي ابْنُ نصْرٍ ناصرُ الدّين الرضا إن لمْ يَكُنْ حُكْمُ الزّمانِ بمُنْصِفِ
حَسْبِي مِن العَلياءِ أنّي عبْـدُهُ وكَفَى بـه شَرفًا بـذلكَ أكْتَفِـي - 23 -
وبأنَّنِـي في القـوْمِ أوّل ناظِـمٍ فيـه المَديـحَ تَرفّعِـي وتَسَتُّرِفِـي
إيهٍ أعِدْ ذِكْـر المَعاهِـدِ حادَهَـا عهْدُ الحيَا مِن دمْعِيَ المُتوكِّـفِ

---

(52) توجد هذه القصيدة أيضًا في مظهر النور الباهر من ص 59 إلى ص 64 وقد مهّد لها الشاعر هناك بقوله :

«وأنشد مملوك مولانا نصره الله كاتب هذا أبو الحسين ابن فركون»

(53) نجد هنا من معالم غرناطة التي تغنّى بها الشعراء مثل السبيكة وعين الدمع وغيرها.

وإذا رَوَيْتَ بها أحاديث الهَوَى ... فاصْرِفْ عِنان القَوْل أحْسَنَ مَصْرِفِ

حذْ عن فُؤادِي حين صدَّ به الحَوَى ... وجدًا يصحُّ حديثُهُ عنْ مُدْنَفِ

والهَدْيَ عن شُهُبِ الدجَى عَن بَدرِها ... عن وحْيِهِ مولانا الخليفَةِ يوسُفِ

للـــهِ آثـــارٌ لـــهُ ومآثِـــرٌ ... لِلْمُقْتدي إن شئْتَ أوْ لِلْمُقْتَفِـي

كمْ رعبَةٍ أو رَهْبَةٍ في سيْفِـهِ ... أو سيْبِـهِ للمُعتـدي والمُعْتَفِـي

لمْ أدْرِ ما عَمَّ البَسيطَةَ هلْ نَدَى ... كَفَّيْهِ أمْ صَوْبُ الغَمامِ الوُكَّفِ

مصْرُ البلادِ أفاضَ في أرْجائِهـا ... بِيَلَ الندَى وحَلا الجَمالَ اليُوسُفِي

وقْفٌ عليْهِ الحود يُرْسِلُ حَـوْدَهُ ... فيعُـمّ بيْـنَ تَوَقُّـفٍ وَتوكّـفِ

ولقَـدْ تَناهَـى للمَكـارمِ جمْعُـهُ ... فلذاكَ عَـن قصَّادِهِ لـمْ تُصْرَفِ

رَفَّتْ ظِلالُ الأمْنِ وانعطَفَتْ عَلى ... وطـنِ الجهـادِ برأفَـةٍ وتعَطُّـفِ

بِمُبَـدِّدٍ في الحرْبِ كُـلَّ مُـدَلِّلٍ ... ومُحَـرِّمٍ إبْقـاءَ كُـلَّ مُحَـرَّفِ

تأتي وفودُ الرُّومِ تخْطُبُ سِلْمَـهُ ... فيكُفُّ كَـفَّ القـادِرِ المُتَعَفِّـفِ

وَوَلِيُّهُـمْ يحْتَى فيُـرْدِفُ رُسْلَـهُ ... إرْسالَ حَيْثِ بالمَلائِكِ مُرْدَفِ(54)

أعِدِ الجَوابَ بهَا عَلى ظمَإٍ لَهَـا ... تنْقَـعْ حَوَى المُتَشوِّقِ المُـتَشَوِّفِ

واحْنَـحْ إليْهـا منْعِمًـا مُتَـفضّلاً ... لازِلْتَ أكـرَمَ واهِبٍ مُتَعَطِّـفِ

يا ناصرَ الإسلامِ والمَلكَ الـذي ... نالَ العُلاَ طَوْعًا بغَيْرِ تكَلُّـفِ

أنْسَيْتَ أمْـلاكَ الزّمـانِ مَاقِبًـا ... والشُّهْبُ يحْفيها الصّباحُ فتخْتَفـي

فإذا نَهَيْتَ الدّهرَ أدْعَنَ صاغِـرًا ... وإذا أمَرْتَ النَّصْرَ لـمْ يتوَقَّـفِ

وإذا أحَلْتَ الخيْلَ خلْفَتِ العِـدَى ... صَرْعَى ونصْرُ اللّهِ لـمْ يتخَلَّـفِ

وتَشُقُّ أنهَارُ الظُّبا رَوْضَ ٱلقَنَـا ... عَجَبًا ونارُ حُرُوبِها لا تنْطَفِـي

يـا أيُّهـا الملكُ الـذي قصَّادُهُ ... ونـدَاهُ بيْـنَ تَفَـرُّقٍ وتألُّـفِ - 24

بُشْرَى بأكْـرَمِ وافِـدٍ آبـاؤهُ ... قِدْمًا تَلاقَوْا كُـلَّ خطبٍ مُتْلِـفِ

---

(54) من قوله تعالى : «فاستجاب لكم أني مُمِدُّكمْ بألف من الملائكة مردفين».

واهـاً بأسعـدِ ناجـمٍ أنـوارُهُ ... يُجْلَى بها جنحُ الظَّلامِ المُسْدِفِ[55]
تُبـي مَحائِلُـهُ الكـريمةُ أنَّـهُ ... للجُودِ يُنْجِزُ كُـلَّ وعْـدٍ مُخْلَـفِ
تـقْصي مَناسِبُـهُ الشَّريفَـةُ أنَّـهُ ... بِسِوَى المَكارِمِ والعُلَى لمْ يَكْلَفِ
عُقِدَتْ لهُ رُهْرُ النُجومِ تَمائِمًـا ... فتَشَرَّفَتْ قِبَـلَ الحسَامِ المَشْرَفِـي
وقَفَت تُعيدُ من العُيود كمالَـهُ ... فكـأنهنَّ نَواظِـرٌ لـمْ تُطْـرِفِ
وافَـى فَهَنَّأْنـا إمامًـا مُنْعِمًـا ... لـوْلاَهُ عارِفَـةُ النّدَى لـمْ تُعْـرَفِ
ولَقَـدْ لتِمناهـا يَميْـنًا أمَّـنَتْ ... وطَنًـا مُناويـهِ رَهيـنُ تَخَـوُّفِ
وتهلّـلتْ دارُ الخِلافَـةِ عِندمـا ... حيَّا بـهِ وجْـهُ الزّمان المُسْعِـفِ
وحوافقُ الأعْلامِ فيها قدْ حَكَتْ ... قلبَ العَدُوّ المُلحِدِ المُتَحَـوِّفِ
تهْفُـو على أُفقِ الهُـدَى عَذباتُهـا ... مِثل الكريمِ يجُرُّ ذيْلَ المِطْـرَفِ
واسْتَشْرفَتْ أوْطانُهـا لِـوُرُودِهِ ... ولكَـمْ بها لِعُلاهُ مـن مسْتَشْرِفِ
ولرَاحتيْـهِ ارْتـاحَ شَوْقًـا مـا بِهـا ... طَوْعَ العُلَى من دابِلٍ أوْ مُرْهَفِ
واسَاتَ بهْرُ الجُودِ في رَوْضِ المُنَى ... من تحْتِ ظلِّ للأمانِ مُسَجَّـفِ[56]
ومَابِرُ الدّيـن الحنيفِ زهتْ بـهِ ... زَهْـوَ الخِلافَـةِ بالامِـامِ الأشرفِ
وأسِرَّةُ المُـلْكِ العَزيـز سُرُورُهـا ... قد هَـرّ لـلاسْلامِ أكْـرمَ مَعْطِـفِ
وارْتاحَتْ الحيـلُ السَّوابـقُ وانْثَـنَتْ ... تحْتَـالُ بيْـن تتوُّفٍ وتَشَرُّفِ
ولَسَوْفَ تُبْلِغُ كُلَّ جيـدٍ مُشْرِفٍ ... في الرَّوْعِ يُرْدِي كُلَّ بَاعٍ مُسْرِفِ
ولسَوْفَ يُعْلمُ أنّ نصر اللّهِ قـدْ ... حيّا بوَعـدٍ منـهُ غيْـرَ مُسَوّفِ
فاسْعَدْ بـهِ لازلتَ تمنَحُـهُ الـرِّضا ... وتُريهِ منْ سُبُلِ الهُدَى ما يَقْتَفِي
وإذا سَلِمْتَ فمـا أصيبَ بحادِثٍ ... جَلَلٍ ألَـمَّ ولا بِحـالٍ تَـأسُّفِ
أوَ ما وُجودُكَ لِلخلائِقِ عِصْمَـةٌ ... تَقْضِي لِتسمِلِ وجُودِهِـمْ بتألُّـفِ - 25 -

---

(55) الظلام المسدف : الكثيف.

(56) مسجف : مُستر.

أَوَ ما دوَامُكَ مِنْ عِدَاهُمْ حُنَّةٌ تكْفيهِمُ وبهَا المؤمّلُ يَكْتَفِي
أَوَ ما سُعُودُك فِي لِقاهُمْ آيَةٌ تَشْفِي وصَدْرُ الدّين مِنهُمْ يَتشْتَفِي
مَوْلاَيَ سَمعًا لِامْتِداحِكَ إنّني ولئن أطَلتُ ببَعْضِ وَصْفِك لمْ أُفِ
إن اسْتِماعَك للمدائحِ طالَما رَقّى عيدَكَ لِلمحَلّ الأشْرَفِ
أنا عَرْسُ نِعْمَتِكَ الذي آدائُهُ رَوْضٌ أزاهِرُ مَدْحِهِ لَمْ تُقْطَفِ
صَدَفُ الطُّروسِ يَضُمُّ منْهُ حَواهِرًا أفْكارُهُ عن نظمِها لَمْ تَصْدِفِ
مَوْلَى وعبْدٌ والنّظامُ لآلِيءٌ ثَوّجْ وَطَوّقْ كيْفَ شِئْتَ وشَنّفِ
لارِلْتَ للأملاكِ وِجْهَةَ قصْدِهَا فَجميعُهُمْ يُبْدِي اعْترافَ المُنْصِفِ

وكانتْ والِدَةُ هذا المَوْلودِ قَد تُوُفيتْ إثْرَ ولادَتِه ولحِقَ بها في سادِس صَفَر عام اثنيْ عشَر وثماني مائة فقلتُ للحِين مرْتَجلا(57)

يمِينًا لقَدْ حارَ الأسى منتهى الحَدّ فيا لَيْتَ حُسْن الصّبْر في مِثْلِهَا يُجْدي
مصابٌ به بانتْ من الدّهرِ عثْرةٌ وَضَلّتْ بِهِ الأيّامُ عن سَنَنِ الرُّشْدِ
هُو الدّهرُ مِنْ أصحى عميدًا بغايَةٍ تُصيْبُهُ اللّيالي دونَ ذاكَ على عمْدِ
وهل كان إلاّ النجْمَ أطْلَعَ نيّرًا ووجْهُكَ صبْحٌ لاَح في أُفقِ المَجْدِ
فلاَ تعْجبُوا لما بَدا من غُروبِهِ أيلتاحُ نجْمٌ والضُّحَى نورُهُ يَهْدِي
وكان كَما تهْوَى المَكارِمُ قدْ بَدَتْ مَخائِلُ من قَيْسٍ عليْهِ ومن سَعْدِ
وكانَ كما تَبْغِي الخلافَةُ قدْ غَدَتْ على وَجهِهِ سيمَا من الأبِ والجَدِّ
وقدْ كان منهُ المُلك هزّ مُهَنّدًا وشمّرَ منهُ النّصْرُ عن سَاعِدِ الجِدِّ
وهَل هُوَ إلا السّيْفُ جُرِّدَ لِلعَدَى فلمّا تمادَى سَلْمُها رُدَّ في غِمْدِ

(57) توجد هذه القصيدة أيضًا في مظهر النور الباهر من ص 70 إلى ص 71 ومهّد لها فيه بقوله : «وارتحل عبد دلك مملوك مولانا نصره الله أبو الحسين بن فركوه» ويستفاد من أشعار الملك يوسف في رثاء ولده أن وفاته كانت يوم خميس.

وهلْ هُوَ إلاّ الرُّمْحَ أُشْرِعَ نَصْلُهُ فقصَّدَهُ دَهْرٌ ثناهُ عنِ القَصْدِ
وهلْ هُوَ إلاّ الطّرفُ أُرْسِلَ سابقًا إلى أمَدِ العَلْياءِ فارْتاحَ لِلرَّدِّ[58]
وهلْ هُوَ إلاّ الغيْثُ أقلَعَ إذْ سَقَى مَعاهِدَنا من أفْقِهِ واكِفُ العَهْدِ - 26 -
ولمّا انقضَتْ غُرُّ الولائِمِ وانثنَتْ وُفودُ النّدى تُثْني عَلى صَيّبِ الرِّفْدِ
جَرَى قَدَرٌ فاسْتأثَرَ اللهُ رَبُّهُ بهِ وَخلَتْ منْ بدرِهِ هالةُ المَهْدِ
شِهابٌ تَوارَى في الثّرى بعدَما بدَا مَلاذًا لِمُسْتَحْدِ وَنُورًا لمسْتَهْدِ
فما غابَ إلا بعْدَما نالتِ الهُدَى ولا غاضَ إلاّ حينَ كَفّت عن الوِرْدِ
وما ضمّهُ بَطْنُ الضّريحِ وإنّما تضَمَّنَ منْهُ جوْهَرًا صَدَفُ اللَّحْدِ
تَعَزَّ أميرَ المُسلمين فإنّنا نَرى كُلّ شيءٍ في الوُجُودِ إلى حدِّ
تَأسّ أمير المسْلمين فإنّما هو القدَرُ المحْتومُ جاءَ إلى وَعْدِ
بأفْعالِكَ الغُرِّ الكريمةِ يُقْتَدَى فجمْعُ المَعالي مِنكَ في العالَمِ الفَرْدِ[59]
فلارِلتَ من ريْبِ الحَوادِث آمِنًا تَنال المُنى فيما تُعيدُ وما تُبْدي

وأنشدت في إمْلاكِه أيّده اللّهُ ونصَره ودخُوله ببنْتِ القائد الوجيه أبي السُّرور مفرج مؤْلِى نعْمتِهِ الكريمة وقد اسْتدعَى وُفودَ أهْلِ البلاد النَّصْريّةِ لحُضُور هذه الوليمة بالرياض السعيد[60]

نسيمُ الصّبا راعَ الصَّبابةَ وفْدُهُ فما للجَوَى طَيّ الجوانحِ وقْدُهُ
عليلٌ سَرَى يشْفِي الغليلَ بوافِدٍ قدْ ابْتَلّ منْ دَمْعِ العَمامَةِ بُرْدُهُ
يذَكّرُ مِن تلك المَعاهِد حَلّةً سَقَى عَهْدَها من دمْعِ عيْني عَهْدُهُ
وحيًّا فأهْدَى المُسْتَهامَ تحِيَّةً سَنا بارِقٍ في السُّحْبِ يُقْدَحُ زندُهُ

(58) الطِّرْف : الفرس الكريم.
(59) في مطهر النور : وجمع المعالي.
(60) راجع ما كتبناه في المقدمة عن القائد مفرّح.

يُؤَجّجُ دَمْعَ العَيْنِ سارَ غرامِهِ ... متى ودّ أنْ يلقى خليلاً يَوَدُّهُ

وتَسْلى الليالِي في الهَوَى وفُؤادُهُ ... جديدٌ على مرِّ الجَديدَيْنِ وُدّهُ

فلا مسجِدٌ إلا أساهُ ودَمْعُهُ ... ولا مُسْعِدٌ إلا حواهُ وسُهْدُهُ

ومائلةِ الأعْطافِ لمْ أنْسَ عَهْدَها ... بمَعْهَدِ أُنْسٍ قد تقادَمَ عهْدُهُ

على حُسْنِ مرْآها وقَفْتُ مَحَبّتي ... وإنْ حَدَّ بالقلْبِ المُتَيَّمِ وجْدُهُ

وفوْقَ مُتونِ الْعِيسِ رَكْبٌ حدا بهِمْ ... إلى المُلْتقى نَصُّ المَسيرِ ووخْدُهُ[61]

يميلون للذِّكْرى كأنّ وُرُودَها ... بسيمٌ به مالَتْ من الدّوحِ مُلْدُهُ - 27

يَقُولون ما بال المَطَايَا ضوامِرًا ... ولوْلاَ نحُول السّيْفِ مَا رَاعَ حَدُّهُ

وما وِرْدُها عذبٌ إذا لمْ يَبِنْ لها ... على كَثَبٍ بانُ العُذَيْبِ ورَنْدُهُ

ورَوْضٍ ترَى الآمالَ قدْ حُلّتِ الحُبَا ... لدَيْهِ وعَهْدُ الأُنْسِ أحْكَمَ عَقْدُهُ

كأنّ الرُّبَى والنّوْرُ فوقَ بِطاحِها ... لآلِيءُ في جيدٍ تَناثَرَ عِقْدُهُ

كأنّ النسِيمَ اعْتَلّ فيها وقدْ أتَى ... رسُولاً فلمْ يمْكِن على البُعْدِ رَدُّهُ

كأنّ وميضَ البرْقِ يبْدُو حُسامُهُ ... دُجًى فيوَارِيهِ من السّحْبِ غِمْدُهُ

كأنّ ضِياءَ الفَجْرِ سيْفٌ مُشَهَّرٌ ... مَتَى ادَّرَعَ الليْلُ البَهيمُ يَقُدُّهُ

كأنّ نجومَ الأفْقِ حَيْشٌ مُحَلَّأٌ ... تَواريهِ في نَهْرِ النّهارِ وورْدُهُ

كأنّ طلوعَ البَدْرِ عِنْدَ تمَامِهِ ... مُحَيَّا ابْنُ نصْرٍ والكَواكِبَ حُنْدُهُ

كأنّ الضحَى وَجْهُ الخليفَةِ يُوسُفٍ ... وما احْمرّ فيهِ من سَنَا الفَجْرِ بَنْدُهُ[62]

كأنّ سَنَا الأُفْقِ المُوَرَّدِ سَيْفُهُ ... وقد رَاقَ مِنْ تحْتِ الحيعِ فِرِنْدُهُ[63]

فَللهِ رَوْضٌ باكَرَ الغيْثُ زَهْرَهُ ... وذاعَ بِهبَّاتِ النّواسِمِ نَدُّهُ

تُحَيَّا به الآفاقُ لكِنْ يفُوقُهُ ... ثناءُ أمير المسْلمين وحَمْدُهُ

---

(61) النص : السيْر بأقصى سرعة، والوخد : السير بأوسع خطوة.

(62) السد : العلم الكبير، ويستفاد من البيت أن أعلام بني نصر كانت حمر الألوان.

(63) الفرند : وشي السيف وجوهره وحليته

وللهِ رُهْر الأُفْقِ إذْ لاحَ نُورُهـا وأسْرَق عـوْرُ الجَـوِّ مِنها وبحْـدُهُ
ولكنّها تحْفَى وبورُ الهُدَى الذي يريه آنُسُ نصْرٍ لَيْسَ يُمْكِنُ ححْدُهُ
فقدْ راقَها مـهُ الكَمـال وقُرْبُـهُ وقدْ راعَها منهُ المَـالُ ونُعْـدُهُ
وللـهِ مَولانـا الخليفَـةُ يُـوسُفٌ إمامَ هُدًى عـمَّ البَريَّـةَ رِفْـدُهُ
تَؤُمُّ عُفاةُ الجُودِ مـهُ مؤمَّـلاً عَدا مُسْعِفًا قصْدَ المُؤمّـلِ قَصْدُهُ
جَـوادٌ جـوادٌ إنْ تُسُوبِـقَ للنَّـدَى فَيُعْجِزُ من يَنْعي مَدَى الجُودِ شَدُّهُ
فلـوْ أمّـس المامُـونَ فـارَتْ قِداحُـهُ وأهْدَى الرّشِيدَ الهَدْيَ وافاهُ رُشْدُهُ
إذا قِيسَتِ الأمْلاكُ بالنّاصِرِ الرضَى فما يَسْتَوي هَزْلُ الكَلامِ وجِـدُّهُ - 28 -
وكَيْف يجَارى في مَدًى ملكٌ غدَتْ مَلائِكَـةُ السَّبْـعِ الطِّبـاقِ تُمِـدُّهُ
فيَهْدُ قَـلَ الجيْش للفتْـحِ عزْمُـهُ ويَضْرِبُ قَلْ السّيْفِ في الحَرْبِ سَعْدُه
بطيْبَـة منْـهُ طـابَ أصْلٌ ومَـنشأ وفي طَيْبَةٍ أعْظِمْ بمَا حار جـدُّهُ(64)
ففـي هـده للفتْـحِ قُـدِّم قَـيْسُهُ وآوَى رسُول الله في تِلْكَ سَعْدُهُ(65)
وَمنْ كانَ لِلصّحب الكِرامِ انتِسابهُ فكيفَ يُضاهَى في الخلائِفِ مجْدُهُ
بهِمْ عزّ دينُ اللهِ لمَّـا أعدَّهُـمْ لـنصْرِ الهُـدَى عدْبانُـهُ ومَعَـدُّهُ
لقد انجبوا منهُمْ خلائِفَ فارْتَـقَتْ إلى العِزّ مرْقًى لا يحاوَرُ حـدُّهُ
فإنْ عـرُبَتْ منهُـمْ نجُـومُ هِدايَـة فأنتَ هوَ البَدْرُ الذي طالَ رصْدُهُ
وإن غاصَ من جَدْواهُمُ نيلُ نائِلٍ فنائِلُكَ البحْـرُ الـدي فـاصَ مَـدُّهُ
وإنْ دَرَجوا قد حلّفُوا مكَ ناصِرًا غدا الدّيـن للـنّصْرِ العَزيـزِ يُعِـدُّهُ
لِيَعْلَـم أهْـلُ التّرْكِ أنّكَ فيهِـمُ تُحاهِدُ حتّى يُوهِنَ الكُفْرَ جَهْـدُهُ
وإنّ العُلَى منْ بَعدِهِم بكَ شُيّدتْ مَعالِمُهـا والفتْـح أُنجـزَ وَعْـدُهُ

---

(64) وفي طيبة، كذا في الأصل، ولعلّ الصواب : وفي مكّة، بدليل البيت بعده.

(65) الاشارة إلى ما كان من تقديم الرسول الكريم لقيس بن سعد بن عبادة إذ كان يحمل راية الانصار ويلي أموره، وفي صحيح البخاري أنّه كان بين يدي النبي ﷺ بمرلة الشرطي من الأمير.

وإنّ نُجُومَ الأفْقِ لَمْ يخبُ نورُها ... وإن سحابَ الجودِ ما عزّ وجْدُهُ

وإنَّ مَدَى العَلياءِ لَمْ يكْبُ طِرْفُهُ ... وإنّ لواءَ النصْرِ ما حُلَّ عَقْدُهُ

وإنّ قناةَ العِزِّ ما رُدَّ نصْلُها ... وإنَّ حُسامَ المُلْكِ ما فُلَّ حدُّهُ

حلفْتهُمُ عِلْمًا وحِلمًا وعزْمةً ... حليفُكَ نصْرُ اللّهِ فيها وغضدُهُ

فلاَ أمَلٌ إلاّ تُسدّدُ سهْمهُ ... ولا حَلٌّ في الثغْرِ إلاّ تَسُدُّهُ

وما شَيَّدَ الإشْراكُ مَعْلَمَ دينِهِ ... وأعْلاهُ إلاّ والعَوالِي تهُدُّهُ

يُرومُ عدُوُّ الدّين في الدّين فُرْصَةً ... فتمْنَعُهُ عنْ قَصْدِهِ وتصُدُّهُ

وكَمْ وارِدٍ قدْ أمّ بابَكَ آمِلاً ... ليَحْظَى بِجَدْواكَ المُهَنّإِ وِرْدهُ

فأنجَحَ مَسْعاهُ وأمّنَ سِرْبُهُ ... وفارَ مُعَلاّهُ وبُلِّغَ قَصْدُهُ

وللهِ إمْلاكٌ سَعيدٌ أقمْتَهُ ... مُلوكُ الورَى فيه القِيامَ تَودُّهُ

وقد طَلَعَتْ للسَّعْدِ فيه كَواكِبٌ ... تَحُلُّ حُباها حَيْث أحكِم عَقْدُهُ - 9

دعَوْتَ له أهْلَ الجهادِ فأهْطَعوا ... كَما رارَ بيْتَ اللّهِ للحَجِّ وفْدُهُ

ولله مِن أُفُقِ السّبيكَةِ مُلْعَبٌ ... تُجارِي لَدَيْهِ مُرْسَلَ الرّيحِ جُرْدُهُ(66)

تَروقُ جيَادُ النّصْرِ فيه متَى ارْتَمَتْ ... إلى لَعِبٍ فيه المَسيرَ تُجِدُّهُ

تحولُ كما شاءَ الكَمِيُّ فيُجْتَلَى ... بإقْبالهَا عكْسُ الغوى وطَرْدُهُ

وتُصْمِتُ عُجْبًا كُلَّ ذي لجَب إذا ... أغَارَتْ وعَابُ الحَرْبِ تزأرُ أُسْدُهُ

تَرى الصّبْحَ يَتْلو حُمْرَةَ الفَجْرِ كُلّما ... يُلاعِبُ منْها الأشْهَبَ اللوْن وِرْدُهُ

فَهُنِّئْتَهُ صُنْعًا جميلاً تشوَّفَتْ ... لهُ صِيَرُ معْمور البلادِ وهِبدُهُ

أمَولايَ أمّا الوَصْفُ منْكَ فَمُعْجِزٌ ... ومنْ ذا الذي يحْصِي الحَصَى أوْ يعُدُّهُ

وعبْدُكَ يُلْقِي منهُ ما يَسْتَطيعُهُ ... فإحْصاؤُهُ يُعْيِي البلَيغَ وعَدُّهُ

فحذْ منْهُ ما يُسبِي اللآلِيءَ إذْ غَدَتْ ... نَسيئَتُهُ لا نَقْدَ فيها ونَقْدُهُ

يُؤمِّل من مَوْلايَ عادةَ صَفْحِهِ ... إذا حادَ عَن نهجِ الهِدايَةِ عبْدُهُ

(66) الجُرْد جمع أجرد وهو الفرس السبّاق.

وما تخْلِق الأيّامُ ثوْبَ مَآمِلي ... ونُعْماكَ يا مَوْلَى الورَى تَسْتَجِدُّهُ[67]
فَدُمْ وعَدُوُّ الدّين إنْ أمَّ مقْصَدًا ... لِملكِكَ رُجْعَى مُلْكِهِ ومَرَدُّهُ
فأفضَلُ ما يَرْجوُهُ كل مُوحِّدٍ ... بَقاءُ المَقامِ اليُوسُفِيِّ وخُلْدُهُ

وَقُلْتُ أُهَنِّئُ مَقَامَهُ الكَرِيمَ بِبِنْتٍ وُلِدَتْ لهُ عَلى إثْرِ وفاةِ مَوْلودٍ وبتاريخ يوْم السَّبْتِ الثامِن لِرجَبَ عام اثني عشر وثماني مائة

هنيئًا هنيئًا إمامَ الهُدَى ... وغوْث الوُجوُدِ وغيث النّدَى
وبُشْرَى بوافدةٍ قدْ أتَتْ ... لَها شَرَفٌ حازَ أقصَى المَدَى
على إثْر مَن جَدّ في سَيْرِهِ ... وحادِي المَنايا بِهِ قدْ حَدَا
ولوْ كان يُفْدَى لكانَتْ لَهُ ... نفُوسُ البَرَايَا جَميعًا فِدَا
لقَد طَلَعَتْ هذه عنْدَما ... رأتْ سَيْفَهُ في الثّرَى أُغْمِدَا
وكانَ سَحابًا إذا يُرْتَجَى ... وكانَ شِهابًا بِهِ يهْتَدَى - 30 -
فإنْ غابَ بَدْرُ الدّجَى مشْرقًا ... فشمْسُ الضُّحَى نُورُها قدْ بَدَا
أنارَتْ ومنْ شأْنِها أنَّها ... متَى طَلَعَتْ لَمْ تَدعْ فرْقَدَا[68]
فأيْمِنْ وأسْعِدْ بها طَلْعَةً ... وأعْظِمْ وأكْرِمْ بِهِ مَوْلِدَا
ويا ناصِرًا جاءَ يَطْوي الْفَلاَ ... يُجِدُّ السُّرى طالبًا لِلْجَدا[69]
بمثْوَى إمامِ الهُدَى يُوسُفٍ ... أنِخْ رَكْبَكَ المتْهَمَ المُنْجِدَا
ويَمِّمْ عَلى ظَمإٍ بَابَهُ ... تَجِدْ عندهُ الظِّلَّ والمَوْرِدَا
فَما ذَلَّ مَن بعُلاهُ اعْتَلَى ... ولا ضَلَّ منْ بهُداهُ اهْتَدَى
أما ناصِرُ الدّينِ مَنْ لَمْ يَزَلْ ... يُنيلُ النَّدَى وَيُجِيبُ النِّدَا

---

(67) مآمِل جمع مأمول.

(68) هذا من قول الشاعة : إذا طلعَتْ لم يبْدُ منهنّ كوكب.

(69) ويا ناصرًا، كذا في الأصل، ولعلّ الصواب : ويا قاصدًا.

أما ناصِرُ الدِّينِ مِنْ كَفُّهُ ... حَياةُ العُفاةِ وحَتْفُ العِدَى

من القَوْمِ قامُوا بنَصْرِ الرسُولِ ... قِيامًا ولِيِّ العِدَى أقْعَدَا

فكَمْ وافدٍ إذْ أتَى حَيَّهُمْ ... على المُعْتَدِينَ بِهِمْ أيِّدَا

ويُوسُفُ مِنْ بعْدِهِمْ قدْ أتَى ... فَجادَ وعَهْدَهُمُ جَدَّدَا

فكَمْ حَلَلٍ سَدَّهُ في الثُّغورِ ... وسَهْمٍ لِحَرْبِ العِدَى سَدَّدَا

وكَمْ مِنْ حِمًى قدْ حَماه وَكَمْ ... جِهادٍ بِهِ نَفْسَهُ أجْهَدَا

وكَمْ مِن بِناءٍ بِتَشْييدِهِ ... أبانَ مَعالِمَ دِينِ الهُدَى

وأنت الذي تُرْتَجَى مُنْعِمًا ... يُجيرُ إذا مَا الزّمانُ اعتَدَى

فما ذلَّلَ الدّهْرُ إلاَّ أعَزَّ ... ولاَ ضلَّلَ الغَيُّ إلاّ هَدَى

سُيُعْطِي ولِيُّ العِدَى راغِمًا ... رِمامًا لمَا تِبْتَ أوْ مِقْوَدا[70]

مَتَى قَصدَتهُ الجِيَادُ التي ... تُضَمّرها بالتِ المَقْصَدَا[71]

إذا ما أغَارَت عَلى خيْفِهِ ... أغَارَ بهَا الخَوْفُ أوْ أنْجَدَا[72]

بِذِكْرِكَ تَعْنُو وُجوهٌ غَدَتْ ... إلَى ربّها رُكّعًا سُجَّدَا

بِحُبّكَ دَانت قلوبُ الوَرى ... فهَاهِيَ جَمْعٌ حَوَتْ مُفْرَدَا

ومَدْحُكَ هَامَتْ بتَرْدادِهِ ... فكَل لِسانٍ بِهِ قدْ شَدا - 31

فَهُنِّئْتَها كيفَ تبْغي العُلَى ... صَنائِعَ أرْغَمَتِ الحُسَّدَا

ولازِلتَ تُحْيي رُسومَ النّدَى ... كَما شِئتَهُ ووُقِيتَ الرَّدَى

تُشيِّدُ لِي معْلَمًا لِلْقَبولِ ... فَيغْدُو لِسانِي بِهِ مُنْشِدَا

سِواكَ عَلى الدّهْرِ إذْ جارَ لَمْ ... نَجِدهُ مُعينًا وَلا مُنجِدَا

لئن مَطَلَتْ بكَ أيّامُهُ ... فَقَد أنجَزَتْ مِنكَ لِي المَوْعِدَا

وَدُمْتَ تُجيبُ نِداءَ العُفاةِ ... بمَا تَرتجي من جَزيلِ النَّدَى

---

(70) راجع ما كتباه في المقدمة.

(71) يصمّرها : يعلمها.

(72) الخيف : عرين الأسد.

ولمّا احْتَل رِكابُهُ العَلِيُّ بظاهر حِصْنِ المُتْلِين[73] برسْمِ البناء في
الزيَادةِ بقِصَبَته وأمرَ أيّدهُ الله أهْلَ الحضرة بالوُصولِ إليهَا
ادَالَةً وكنتُ قَد تخلّفْتُ عنهُ لِعُذْرٍ فكتَبَ إلَيَّ أيّده
الله بخطٍّ يَده الكريمة من نظْمِهِ ما نصُّهُ في الثاني
والعشرين لجمادى الآخرة عام اثني عشر وثماني مائة

إليْـــا إلَيْنَـــا سَقَـــتْك العِهـــادْ وخصّكَ مَوْلَـى الـوَرى بالمُـــرادْ
فمـنْ يكُ يجْمَعُ شَمْـلَ ٱلْعُلَـى سَيَحْظَـى بـودّي دونَ العبَـــادْ
ومن شاءَ نظمًا ومـن شاءَ نثـرًا فـأنتَ العميـدُ وأنت العِمـــادْ[73م]
ألسْتَ الصَّديـــقَ ألسْتَ الوَلـــيَّ زمـانَ عَـدَتْ عَـن لِقانـا الأعَـادْ
فكـمْ مـنْ خُطـوبٍ تَجَرَّعْتَهـا وغيْـرُكَ يُهْنـا بأسْمَـى مِهـادْ
يُحـــاولُ منِّـــيَ إبْعادَكُـــمْ ويأْبَـى وفَائِـي لكـمْ والـوِدادْ
فَـدُونكَ أقبِـلْ فـإنّ القَبـولَ ضميـنٌ لكُـمْ باقْتِبـالِ الـرّشادْ[74]

فرحلتُ للحِين ونظمتُ الجَوابَ أثناءَ الطَّريقِ

أ يـا رحْمـة اللـهَ فَـوْقَ العِبـادْ ومَوْلَـى المُلُـوكِ وحَامـي البِـلاَدْ
لَأمَّـــنْتَ أرْجاءَهـــا نَـــاصِرًا بِبيض السُّيُوف وَسُمْـرِ الصِّعَـادْ
ولِلـــهِ ثَغـــرٌ أقـــامَتْ بِـــهِ جُنـودُكَ بين الرَبَـــى والوهـــادْ
وشَيَّـــدتَ مظْهـــرَهُ مُظْهِـــرًا لِعِـزٍّ قَضَى ذُلَّ أهْـلِ العِنـــادْ

(73) حصن المتلين، كذا في الأصل، والصواب : حصن المكلين. راجع ما ذكرناه في المقدمة، وقد ورد محرفا على الصورة المذكورة أيضا في نفح الطيب 4 : 518.

(73م) يمكن أن يقصد ابن العميد والعِماد الأصفهاني.

(74) لا توجد هذه القطعة من نظم الملك يوسف الثالث في ديوانه، وهي تدلّ على طبيعة العلاقة بين ابن فركون ومخدومه وعلى أنه كان من أنصاره وأوفيائه أثناء محنته.

أقـمْتَ شَعائِـرَ ديـن الهُـدَى لديْـهِ وقُـمْتَ بفـرْضِ الجِهـادْ - !
تمدُّ الكتـائبَ في أرْضِهِ مَلائِكَـةٌ فـوْقَ سَبْـعٍ شِدَادْ
إلى أن تُعيـدَ ديـارَ العِـدَى مجالاً إلى الصَّافِنـاتِ الجيـادْ
ولمّـا نـأتْ بإمـامِ الهُـدَى رَكائِبُ أدْنتْ زَمـانَ البِعـادْ
وخَلَّـفَ مـن عبْـدِهِ مُغْرَمًـا مَديـدَ الهُيامِ طَويـلَ السُّهـادْ
يـوَدُّ المَسيـرَ وأجْفانُـهُ تَهيـمُ من الدَّمْعِ في كـلِّ وَادْ
وَلا غيث إلاّ الـذي بالجُفُـونِ ولا بَـرْقَ إلا الـذي بالفُـؤادْ
ومـا خَلَّفـوهُ ولكنَّهُـمْ رَمَـوْهُ بأسْهُـمِ لَفْـظِ الآعـادْ
فقـوْمٌ يقولـونَ لـمْ يتْركـوهُ سُدًى وتَحامَـوْا طَريـقَ السَّدادْ
وقـوْمٌ أشاعُـوا بأنّـي هُجـرْتُ فأذكـوْا هَواجِـرَ ذاتَ اتِّقـادْ
أمـا علمُـوا أنَّنـي عبْـدُ مَـنْ تُعاهِـدُني مـن نـداهُ عِهـادْ[75]
وأنَّ إمـامَ الـوَرى لـمْ يَـزلْ يَزيـدُ مـن العِـز إذْ يُسْتَـزادْ
فنـاصِرُ ديـن الهدَى نـاصِري على رغمِ مَن جاءَ يبْغِي العِنـادْ
مَعَـاذ وسائِلِنـا أنْ تَخـيبَ وحَـاشَا لِعَنْقائنـا أنْ تُصادْ
وإنّـي حُبِـيتُ بتشْريفـهِ فِللعَبْـدِ كـمْ نِعمـةٍ قـدْ أفـادْ
خِطابٌ أتَى من إمامِ الـوَرَى فكـانَ المُـرادَ وكانَ المَـرادْ[76]
وحَيَّـا عَلى ظَمَـإٍ غيْثُـهُ فَجَـدّ ٱشْتِيَاقِي لـهُ حيـنَ جَـادْ
فمِنْـهُ بكفّـيَ أمْضَى حُسامٍ وفي عاتِقِـي منـهُ أبهَـى نِجـادْ
ومَـولايَ لـمْ يـنْسَ مَمْلوكَـهُ عَلى البُعْـدِ حَتَّـى أبـانَ الـودادْ
ويـا طَالَمـا جـادَ لي مُنعِمًـا ومـا بَـدَأ الـفَضْلَ إلاَّ أعَـادْ
ولِلـهِ مـا نلتُـه عنْدَمَـا حَلَـلْتُ لَدَيْـهِ وَثِيـرَ المِهَـادْ

---

(75) العِهاد : المطر بعد المطر.

(76) المراد بضم الميم المقصود، والمَراد بالفتح المرعى والموضع المستراد.

فَيَا ساعَةً لِلتَّلاَقِي انقضَتْ أمَالَكَ يوْمًا [لَنَا] مِن مَعَادْ
وَيَا زَمَنًا لِلرِّضَى قَدْ مَضَى لَعَلَّكَ مِمَّا مَضَى ثُمَّ عَادْ
وسَوْفَ يُعِيدُكَ بَحْرُ النَّدَى وهَادِي الْوَرَى لِسَبِيلِ الرَّشادْ - 33 -
فَرُؤيةُ مَوْلاَيَ أقْصَى المُنَى وفيها المُرادُ ونِعْمَ المُرادْ
فلَيْتَ بهَا جادَ لِي دائمًا فكَمْ أمَلٍ عِنْدَها مُسْتَفادْ
سَأَبْلُغُ مَا أرْتَجِي إنَّنِي عَلى غيْر مَوْلاَيَ مالِي اعْتِمادْ

وَعَلِمتُ أنهُ أيده اللَّهُ يَطلبُ منْظومًا في وصْفِ الحَالِ فنَظمْتُ لحِينِ وُصُولِي لِلمَحَلَّةِ مَا نَصُّهُ(77)

عَسَى الطَّيْفُ في جِنحِ الدُّجَى إذْ يعودُهُ يجدِّدُ عهْدًا لِلرِّضَى وَيُعيدُهُ
نَرومُ إجتماعًا بالخَيالِ إذَا سَرَى ليَدْنُو وإنْ شَطَّ المَزارُ بَعيدُهُ
عجبْتُ لهُ إذ لا يُلِمُّ بِمَضْجِعِي وجَمْرُ الجَوى يُذْكَى بقَلبي وَقُودُهُ
بنارِ فُؤادِي في الظلاَمِ اهْتِداؤُهُ وفي أدْمُعِ الأجْفانِ منّي وُرُودُهُ
دَعُوا أدْمُعِي تهْمِي متَى بَخِلَ الحَيَا وأخْلَفَ ربعًا للحَبيبِ تجُودُهُ
ألاَ بأبِي تِلْكَ المعاهِدُ إذْ بها لنا عهْدُ أُنسٍ قدْ تقضَّى حَميدُهُ
عَلى أنّ رَبْعَ الصَّبْرِ بعْدَكَ قدْ عَفَا تَهائِمُهُ قد أقفَرتْ ونُجودُهُ
رحَلتُ عن الأوْطانِ فالدّمْعُ لم تَجُدْ مَعَاهِدَ ذاكَ الأُنسِ إلا عُهُودهُ
رَماني زماني مِنكَ بالبُعْدِ عامِدًا وأيُّ حَبيبٍ ليْسَ يَشْقَى عَميدُهُ
ومنْ عادَةِ الأيّامِ أن تمْنَعَ المُنَى وان تمْنَحَ السّيْءَ الذي لا نُريدُهُ
ولكنَّ مولانا الخَليفَةَ يُوسُفًا يَزيدُكَ عِزًّا كُلما تستَزيدُهُ
وَلا سِيَّمَا مِثلِي فَمَوْلاَيَ كَفُّهُ لجودٍ وأفْكارِي لمَدْحٍ تُجيدُهُ

(77) المحلة في اصطلاح الاندلسيين والمغاربة هي الجيش الذي يخرج مع السلطان أو يوجهه إلى جهة من الجهات، وهذا من تسمية الحالّ باسم المحل.

فيا نَاصرَ الإسْلامِ والمِلكَ الـذي ... يعُـمُّ نَـداهُ القاصِديـن وَجـودُهُ
كَأنْ بوَلِيّ الكُفْر قد خابَ سَعْيُهُ ... وقُـدّتْ هوادِيـهِ وقِيـدَ شَرُودُهُ
بكَ اسْتَنصَرَ الدينُ الحَنيفُ فأصْبَحَتْ ... تُجَـدِّدُ عَهْـدًا بالجِهـادِ جنُـودهُ
ولا مثْلَ مبْنًى مُعْجِبٍ قدْ وضَعْتَهُ ... يُقَـرِّبُ آمـالَ المَـرُوعِ بعِيـدُهُ
وبـاشرْتَ بالنّـفسِ الكَريمَـةِ أمْـرَهُ ... وذلِكَ فخْـرٌ لـيْسَ يَبْلَى جدِيـدهُ
يَرُومُ وَلِيُّ النّظـمِ والنّثـرِ وصْفَـهُ ... فَيَعجِـزُ عنـهُ سجْعُـهُ وقصِيـدُهُ - 14
تـبَسَّمَ ثغـرُ الثَّغْـرِ عنْـهُ مسَرّةً ... بمَظهَـرِ عـزٍّ منـهُ عَـزَّ وُجـودُهُ
وَلاَحَ بأعْـلاَهُ شِهابًـا لمُهْتَـدٍ ... تُقابِل بَـدرَ الأفْـقِ منكَ سُعـودُهُ
إذا مَا عَدُوُّ الدِّينِ جاسَ خِلالَـهُ ... ورامَ اسْتِراقَ السَّمْعِ كُفَّ مَريدُهُ
كحسْناءَ تستَجْلِي العُيُـونُ جمالَهـا ... فتُبْـدِيءُ معْنَـى حُسْنِهـا وتُعيـدُهُ
وقد أوْمأتْ بالكَفِّ تَدْعُو ضَراعَةً ... لِمُلكِكَ أن يُفْنِي العُداةَ خلُـودُهُ
لدَى جَبَلٍ بالشُّهْبِ نِيطَتْ هِضابُهُ ... فصافَحَتِ الكَفَّ الخضيبَ نُجودُهُ[78]
أشَمَّ بَعيـدَ الصِّيتِ بَـادٍ وقـارُهُ ... ومُرْتاحَـةٌ أعْلامُـهُ وبُنُـودُهُ
تَمُـرُّ بـهِ هُـوجَ الرِّيـاحِ فَتَتَّئِـي ... وقدْ سَدَّ مَسْراهَا الرّفيعَ صُعُـودُهُ
تَـرُومُ سُمُـوًّا فوْقَـهُ وهْـيَ دُونـهُ ... فَتَـقْصُر عمَّـا تَشتَهـي وتُريـدُهُ
دَعوْتَ لَهُ أهْلَ الجِهـادِ فاهْطَعُـوا ... كما زارَتِ البيْت العَتيـقَ وُفـودُهُ
ودارَتْ حَواليْـهِ الجُنـودُ كأنّهـا ... وِشاحٌ عَلَى خَصْرٍ يَروقُ فَريـدُهُ[79]
تَحُلُّ كأسْرابِ القَطَا منهُ مـوْرِدًا ... يَطيبُ بِجَـدْوَى راحَتَـيْكَ وُرُودُهُ
بمشْرَعِـهِ ارْتـاحَتْ عوَالِيكَ شُرَّعًـا ... تَـرُدُّ العَـدُوَّ المعْتَـدي وتَـذودُهُ
فما هُوَ مَعْنًى حَلَّ مَغْناهُ أهْلُـهُ ... ولكنَّـهُ غِيـلٌ حَمتْـهُ أُسُودُهُ

---

(78) الكف الخضيب : تطلق على نجم معين.

(79) فريده : جوهرُهُ ودُرّه.

وَدُونكَ يـا مَـوْلاَيَ مِنها لآلِئًـا فَنَظمِيَ عِقْدٌ صَفْحَةُ ٱلطِّرْسِ جيدهُ
وأنتَ الذي مارِلتَ للدّين ناصِرًا ومُلْـكُكَ أمْـلاكُ الزَّمـانِ عَبيـدُهُ

وقبْلَ وُصُولِ هَذِهِ إلى يَده الكَريمَةِ وقد وجَّهْتها إليْه وَصلَتْنِي بَراءَةٌ بخطّ يَدهِ الكَريمةِ تأمُرُنِي فيها بوَصْفِ المبْنَى وذِكْر معْدِنِ البَارودِ الذي عُثِرَ عليْهِ بالمَوْضِعِ وَوافَقَ ذلِكَ سَاعَةَ رُكُوبِهِ إلَى الصَّيْدِ فتَلَقيتُه عندَ رجُوعِي بِمَا نصُّهُ(80)

هي الهَضْبَةُ الشَّمَّاءُ بادٍ وَقارُهَـا تَحامَـى حِماهَـا ليلُهـا ونَهارُهـا
لقدْ أحَدَثْ مِنْ حادِثِ الدّهْرِ جِدْرَها إلَـى مَالـهُ يـوْمَ الجَـزاءِ ابتِطارُهَـا
فلمْ يرْمِها مَـرُّ الحديديْـنِ بالبِلَـى ولاَ راعَها مِثْـلَ الـدورِ سِرارُهـا - 35 -
سِوَى أن نَدَتْ منهَا الهَصاتُ مَفارقًا بِبِنْيَتِهـا البَـيْضاءِ شَابَ عِدارُهـا
ومَوْلَى المُلوكِ البرُّ يوسفُ الـذي لهُ راحَةٌ بالجُـودِ ماحَتْ نجارُهـا
تَـواضَعَ لِلّـهِ العَظيـمِ بوَصْعِهـا تُصافِحُ عُلْـوَيَّ الـدَّرارِيِّ دارُهَـا
عَلى البِـرِ والتقـوَى أقـامَ بناءَهـا فَقَرَّ عَلى رغْـمِ العُـداةِ قرارُهـا
وأسَّسَ مَنْاهَـا بكَـفٍّ كَريمَـةٍ سَحَابُ نَداهَا لِلعُفـاةِ انهِمَارُهـا
وقد حَجَرَ الأعْداءَ عَن ربْعِهَا الدي تَناقَـلُ بالأيْـدي لدَيْـهِ حِجارُهـا
تروقُ عَلى الرَّاحاتِ حُسْنا كـأنها كُـؤوسُ مُـدامٍ بالأكُـفِّ مَدَارُهـا
ودارَتْ بهَا دوْرَ السّوارِ كَتـائِبٌ بناصِرِ ديـنِ اللّـهِ فيهَـا انتصارُهَـا
كَتائِب عِزٍّ إن أغارَتْ وانجَـدَتْ تُغيـرُ فَيُـرْدِي بالعُـداةِ اعْتِرَارُهـا
لَقَدْ فَرَعَتْ نَحْرَ الكتائِبِ وارْتَقتْ وادٍ عَـرَّ مَرْمَاهَـا وَشَطَّ مَزارُهَـا
فَعُدْتَ مِنَ الشُّهْبِ الثَّواقبِ عندَما أنارَتْ لَدَى جِنْحِ الدُّجُنَّةِ نارُهـا

(80) في هذا التقديم كلمة البراءة ومعناها عندنا الطاقة والرسالة

حَمَيْتَ حِمَاهَا كالضَّبارِمِ والظُّبا ... مُشَهَّرةٌ في الخافِقَيْنِ اشْتِهارُها[81]

وقدْ نِلْتَ بالإنْفاقِ بِرًّا وَرِفْعَةً ... فكمْ بِدَرٍ نحْوَ الأكُفِّ بِدارُها

وَجالَتْ بهَا خدَّامُ مُلْكِكَ جَوْلَةً ... فَبانَ عَلَى الصُّنْعِ الجميلِ اقْتِدَارُهَا

تطوفُ بهَا لِلأمْنِ واليُمْنِ كَعْبَةً ... فِللرُّكْنِ منْها حجُّها واعْتِمارُهَا

وترْمِي بأعْلاَهَا الحجارةَ آخِرًا ... كأنَّ وفُودَ الحَجِّ تُرْمَى جِمارُهَا

وفي معْدِنِ البَارُودِ أعْظَمُ آيةٍ ... بدَتْ فالنُّهَى فيها يَطولُ اعْتِبارُها[82]

نَصَبْتَ بها لِلنَّفْطِ أبْراجَها التِي ... يُضاهِي بُرُوجَ النَّيِّراتِ جِدارُهَا

فكيَّفَ منهُ اللهُ للحَرْبِ عُدَّةً ... ففي القَفْرِ منه ما إليْهِ افْتِقارُها

وقابَلَها المَبْنَى الرَّفيعُ مُجاوِرًا ... لهَا إذْ بِمَوْلَى الحَلْقِ عزّ جُوارُها

يُرِيكَ لدَى الظَّلْمَاءِ غُرَّةَ أدْهَمٍ ... بِهَا عرّةُ الأعداءِ فُلَّ غِرارُها

عَمرْتَ به ثَغْرًا كأنْ بعُداتِهِ ... وقد أقفرتْ أوْطانُها وَدِيارُها - 36

تسُلُّ عليْهَا سَيْفَ عَزْمِكَ إذْ لَهَا ... بِهِ حالَتاها قَتْلُها أو إسارُهَا

أقَمْتَهمَا كالفرْقدَيْنِ لذاك قدْ ... بَدَا منْ شَياطِينِ الضَّلالِ نفارُها[83]

ودُونَكَ يا مَولايَ منْها عُجالَةً ... تَبَيَّنَ لِلتَّقْصير فيها اعْتِذارُها

عَلى أنَّ أفْكاري بوَصْفِكَ لا تَفِي ... فَسِيَّانِ فيهِ طُولُها واحتِصارُها

---

(81) الضّبارم : الأسد المجتمع الخَلْق المُوَثّق التكوين.

(82) في هذا البيت، وما بعده، ما يدلّ على معرفة حقيقة البارود، واستعمال الأنماص، وثمة بعض النصوص التي تشير إلى توصل بني مرين أيضًا إلى هذا، غير أن المسيحيين في الأندلس طوّروا هذا السلاح وكان من أسباب علتهم.

(83) نِفارُها كذا في المتن، وفي الطرّة : فِرارها.

وقلْتُ أُهَنِّيءُ مَقامَهُ الكَريمَ بالهَدِيَّة المُشْتَمِلَةِ عَلى الخَيْلِ المُسَوَّمَةِ وَسِوَى ذلِكَ منْ عَجائِبِ إفْريقْيَةَ الواصِلةِ منْ قِبَلِ السُّلْطان بها أبِي فارِسَ عبْدِ العَزيز الحَفْصِي[84]

سَلْ بالغَميمِ معاهِدًا لَمْ أنسَها ... اتعيدُ أيَّامُ التَّواصُلِ أُنْسَهَا[85]

أبْدَتْ لديْكَ مِن المَعاطِفِ مُلْدَهَا ... أَهْدَتْ إلَيْكَ مِن المَراشِفِ لُعْسَها

عَهْدِي بهَا وزَمانُنا مُتكَفِّلٌ ... بِشَوارِدِ الآمالِ يُدنِي شُمْسَها

نامَتْ عيُون الحَادثاتِ ونحْنُ في ... دَعَةٍ وصرْفُ الدَّهْرِ عنَّا قَدْسَها

باتَتْ جوابِحُنا إلَيْها نُزَّعًا ... لاَ منْ جميلِ الصَّبْرِ تنزِعُ لُبْسَها

لمْ يُشْجِهَا الطَّيْفُ المُلِمُّ وإنَّمَا ... زارَ الخيالُ مع الخَيالِ فمَسَّهَا

فَقلوبُنَا لَوْلاَ التعلُّلُ بالمُنَى ... لأَحَلَّها طُولُ التسَوُّف رَمْسَها

ونفُوسُنا لولاَ الخَليفَةُ يُوسُفٌ ... لاَسْتَشْعَرَتْ فيمَا تُؤَمِّلُ يأْسَهَا

لِلّه سابقَةٌ لهَا أنِسَتْ بِهَا ... مَوْلَى الخلائِفِ يُوسُفٌ لمْ يَنْسَها

فلكَمْ جَلوْتُ لديْهِ غُرَّ فَرائِدٍ ... ضَمَّنتُ أرهَارَ الحَديقَةِ طِرسَهَا

مَلكٌ صَلاَةُ صِلاَتِهِ وَخِلالُهُ ... شَمسٌ تُزيلُ عن النّواظِرِ لَبْسَها

حزْمٌ وإقْدامٌ وعزْمٌ في تُقًى ... في جود كَف قدْ أقامَتْ خمْسَها

إنَّ الخِلافَةَ إذْ رأتْهُ وَلِيَّها ... وَهَبَتْ لهُ شَرْعًا وَطبْعًا نفْسَها

كَفَّ العُداةَ فلمْ تُرَوِّعْ سِرْبَها ... وكَفَى الخُطوبَ فَلمْ تُكَوِّرْ شمْسَهَا

---

(84) إفرقية كما رسمت في الأصل أو افريقية هي المغرب الأدنى أو تونس، وأبو فارس عبد العزيز الحفصي ولي من سنة 796 هـ إلى وفاته سنة 837 هـ انظر أخباره في الحلل السندسية 2 : 185 — 193 وقد كان بينه وبين يوسف الثالث تحالف على بني مرين، ويبدو أن الخيل التي رغم الشاعر أمهاستعير على الروم وجهت في العالب مع المسمى بالسّعيد لإثارة الفتن في المغرب، فقد ذكر ابن حجر في إنباء الغمر أن ابا فارس المذكور كاتب ابن الأحمر بأن يفرج عن «السعيد» ويوجّهه إلى المغرب لمحاربة ملكه أبي سعيد عثمان. إنباء الغمر 6 : 237.

(85) الغميم : وادٍ بين الحرمين على مرحلتين من مكة.

مَوْلاَيَ هلْ في الخافقيْنِ كَيوسُف مَولًى يُشَرِّفُ مِصْرَها أوْ قُدْسَها - 37

لوْ لُحْتَ للأمْلاكِ قِدْمًا لمْ يَسُدْ كِسْرَى وقيْصَرُ رُومَها أوْ فُرْسَها

أيّ الخلائفِ دَوْلَةً ما فُقْتَها أوْ أيُّ أشرفِ حُلَّةٍ لمْ تُكْسَها

هذا ومُلْكُكَ في هَدِيَّةِ تونُسٍ لَكَ يَوْمُها في العِزِّ يُسي أمْسَها

هي دوْلةٌ حفْصِيَّةٌ بِكَ حَقَّقَتْ مَظْنُونَها فيما رَجَتْهُ وحَدْسَها

شادَتْ مَعالِمَ قد أقمتَ على الرِّضَى وَعلى المُوالاَتِ الجَميلةِ أُسَّها

لوْلا آنتسابُ خيولِها نُسِبَتْ إلَى هوجِ الرِّياحِ ولمْ تحالِفْ جِنْسَها

تحتالُ زَهْوًا في أعِنَّةِ سَيْرِها مثْل النّدَامَى قدْ أدارت كأسَها

لِتحُلّ حَضرةَ ناصِرِ الدّين الذي بِحُلَى عُلاهُ اللَّهُ شَرَّفَ قُدْسَها

أضْفَى عَلَيْها الحُسْنُ حُلّتَهُ التي لمْ تسْتَطِعْ أيْدي التّناوُلِ لَمْسَها

فإذا أحَسَّ الرُّومُ منها غارَةً كادَتْ مُلوكُهُمُ تُفارقُ حِسَّها

لَلْحَزْرَجيّينَ الألى لكَ نِسْبَةٌ طاوِلْ بها دُبْيانَها أوْ عَبْسَها

وإلَيْكَها عَذْراءَ راقَ جَمالُها بالطّرْسِ قدْ لَفّتْ حَياءً رأْسَها

وَافَتْ فَما راعَ الوَسائِلَ ردُّها كَلاّ ولاَ الأثْمانُ تحْشَى بَخْسَها

لَمْ تُصْمِتِ الأيّامُ ألسُنَ فِكْرَتي إلاّ وأنصَفَتِ المَواهِبُ خُرْسَها

لَمَّا انثَنَتْ تُثْنِي عَلَيكَ عَقائِلي سَحْبانَها خجَلاً ثَنَتْهُ وقُسَّها

كُلُّ المَقاصِدِ منك ها أنا أرْتَجي إسْعافَها ان رامَ دَهْرٌ عَكْسَها

أنا غرْسُ أنعُمِكَ التي عَمّت وَمن زَهْرِ المَدائِحِ فيكَ تَجْنِي غَرْسَها

وقبْلَ هَذِهِ المَنْظوماتِ اسْتَدْعَاني أَيَدهُ اللّهُ إلى بَيْنَ يديه وهي
أوَّل مرّة شافَهَني بالحديثِ وأمَرَني بنَظم قصيدة أوَطِّىء تخلصَها
عَلى البَيْتَين اللتَيْنِ ينسَبُ التّشْطيرُ منهُما لِلسُّلطان أبي العبّاس
صاحب المَغرب فقلتُها في ذلك اليَوْم وأمَر لي إذ ذاك بمحْبَرَة
رائقة الصّنْعة فَضمّنتُ وصْفَها فيها وبتاريخ الرّابعِ والعشرينَ
لربيع الثاني عام اثنْي عَشَر وثماني مائة (86) - 38 -

ما للمدامعِ فَوْقَ الخدِّ تسكُبُ وما لِقَلبي نارِ الوَجْدِ يَلتَهبُ
فلا تَسَل عنْ فُؤادٍ حَلَّ ساحَتَهُ جَمْرُ الجَوَى عِنْدَما بانَتْ بها النُّجُبُ
يالَيْتَ شِعْري والأيّامُ مُسْعِدَةٌ والبُعْدُ يُعْقِبُها مِنْ حَيِّها كَثَبُ
ورُبَّ لائِمَةٍ تُلقي المَلامَ عَلَى حُبِّ التي وَدُّها طَبْعٌ ومُكْتَسَبُ
قالَتْ لِما هِمْتَ منْ بعْدِ السُّلوِّ بها فقلتُ كُلُّ فَتًى قدْ هَزَّهُ الطَّرَبُ
قالتْ تَمتَّعْ بِبِدْعٍ من محاسِنها فقلتُ قدْ سُدِلَتْ من دونها الحُجُبُ
قالتْ أتَحفَى عنِ الأبصارِ بهْجَتُها فقلتُ هيْهاتَ نُورُ الشَّمْسِ يحْتَجِبُ
قالتْ فما تتمَنَّى بعْد رُؤْيَتِها فقلتُ لمْ يَبْقَ لِي في غَيْرِها أرَبُ
قالَتْ لما أنتَ بالأوْصافِ ذو كَلَفٍ فقلْتُ وَصْفُ حُلاَها للرِّضَى سَبَبُ
قالَتْ فَراسِلِ إذا عَزّ اللّقاءُ وَصِفْ فقُلْتُ ليْسَ تَفِي الأقْلامُ والكتُبُ
قالتْ فمالَكَ إلاّ الطّيْفُ تَرْقُبُهُ فقلتُ مَن لي به والنّوْمُ مُسْتَلَبُ
عَهْدِي بِها وَرياضُ الأُنسِ يجْمَعُنا والدَّهْرُ طَلْقُ المُحَيَّا شأنه عَجَبُ
واللَّيْلُ يُلْحِفُنا أسْتارَهُ وَبِهِ من عَسْكَرِ السّهْبِ جَمْعٌ ليْسَ يُنْتَهَبُ

---

(86) اللتين كذا في الأصل، والصواب اللذين وأبو العبّاس صاحب المغرب هو السلطان المريني أحمد بن أبي سالم وكان شاعرًا مجيدًا. ترجمته في حدوة الاقتباس 1 : 112 ــ 114 ط. دار المنصور وروضه النسرين : 34 ــ 38.
والاستقصا 4 : 61 ــ 69 ــ 73 ــ79

أقولُ والبَرْقُ يحْكِي في مطالِعِهِ خفّاقَ قلْبٍ إذا جَنّ الدُّجَى يجبُ :
يا بارِقًا بأعالِي الرَّقْمَتَيْنِ بَدَا في سُدْفَةِ اللَّيلَةِ الظلْما لَهُ لَهَبُ
أَردتَ تحكي ثغورًا راقَ مَبْسِمُها لَقَدْ حَكَيْتَ ولكِنْ فاتكَ الشَّنَبُ[87]
وجِئْتَ بالبشرِ من وَجه الخَليفة إذْ يُعْطِي ولكنَّ أيْنَ العِلْمُ والأدبُ
ورُمْتَ تحكي جيادَ العِزِّ مُرْسَلَةً لكنَّ أين الشِّيَاتُ الغُرُّ والنَسَبُ
وكِدْتَ تُشْبِهُ سَيْفَ النّصْرِ مُنْصَلِتًا لكنَّ أيْنَ مَضاءُ الحَدِّ والشُّطَبُ
إنْ هَزَّهُ يوسُفُ الأمْلاكِ يوْمَ وَغًى تهابُهُ ثُمَّ تَرْجوهُ إذا يَهَبُ
فَيوسُفٌ مَلِكُ الدُّنْيا وبَهْجَتُهَا وناصِرُ الدّين مهْمَا راعَهُ رَهَبُ
مَن كابْن نَصْرٍ إذا عدّ الملوكُ بها مَوْلًى لصحْبِ رَسول اللهِ ينتَسِبُ
آباؤُهُ النَّفَرُ الغُرُّ الذينَ لَهُمْ مآثِرٌ عَظَّمَتْها العجْمُ والعَرَبُ - 39
هَذِي الكتائِبُ تُزْهَى والكِتابُ بِهِمْ في اللّهِ ما كَتَّبوا في اللهِ ما كَتَبُوا[88]
فأيْنَ مُسْتَنْصِرُ الأمْلاكِ منْهُ نَدًى وسَيْفُ دولَتِهِمْ تُزْهَى بِهِ حَلَبُ[89]
لِعَبْدِهِ الرّاغِبِ الرَّاجِي بِرُؤْيَتِهِ فَوْق السّحَابِ ذيُولَ الفخْرِ تنسَحِبُ
كلَّمتَ عبْدَكَ يَا مَوْلَى المُلوكِ فمَا بالنَّظمِ والنَّثْرِ وفّى بَعضَ ما يجِبُ
إذا رأيْتُ مُحيَّاكَ الكَريمَ فقَدْ بلغْتُ ما كنتُ أرْجو وانْتَهَى الطّلب

---

(87) ورد تشطير السلطان المريني في ديوان يوسف الثالث كما يلي :
(يا بارقًا بأعالي الرقمتين بدا) للّحظ في سدفة الظلما له لهب
كم رمت باللمع أن تحكي الثغور سنًا (لقد حكيت ولكن فاتك الشّنبُ)
قال يوسف الثالث :
فعارضنا القصد الذي قصده، بأن ارتجلنا اصلاحًا لما أورده :
(يا بارقاً بأعالي الرقمتين بدا) في مفرق الليل مس لألائه لهب
اردت تحكي ثغورًا راق مبسمها (لقد حكيت ولكن فاتك الشّنبُ)
ديوان ملك غرناطة : 5 (الطبعة المصرية الثانية)

(88) كتّب الكتائب : حيّش الجيوش

(89) المستنصر لقب أبي العباس المريني، وقد تطاول الشاعر على مقامه تقرّبا إلى ملكه، وفي قوله : وسيف دولتهم إلخ تورية واضحة.

وإنّ أيْسَرَ لحْظٍ مـنكَ يُقْنِعُنـي ... دون العِنايَة عِندِي المالُ والنَّشَبُ
هذا ولمْ يَكْفِ ما أوْلَيْتَ من نِعمٍ ... ومن مَكارِمَ تأتي دُونَها السُّحُبُ
حَتَّى وهَبْتَ التي أضْحَتْ مَلابِسُها ... يُرُوقُ منهُ اللَّجَيْنُ البحْتُ والذَّهَبُ
وَهَبْتَها فَـذَّةً صَفْـراءَ قـدْ جُلِـيَتْ ... كأنهَا بَعْضُ ما تَرْمِي به الشُّهُبُ
لا تعْجَبوا إنْ بَدا كالنّجْمِ ظاهِرُهَا ... فـإنَّ باطِنَهـا لِلّيْـل يَنْـتَسِبُ
دَارَ الجُمانُ بأعْلاها يَرُوقُ سَنًـا ... كأنَّما هي كـأْسٌ فوْقَهـا حَـبَبُ
إنْ أخْفَتِ ٱلحِبْرَ رَهْنَ الصَّدْرَ تَحْجُبُهُ ... لا تعْجَبُوا فَسوادُ القلْبِ محْتَجَبُ
إذا اليَراعَةُ جالتْ عِنْدَهـا فَعَـلتْ ... ما لَيْسَ تفْعَلُـهُ الهِنديَّـةُ الـقُضُبُ
مَولايَ هذا الذي قدْ كنتُ آمُلُهُ ... هَذا الزّمانُ الذي مازِلْتُ أرْتَـقِبُ
لازِلتَ يا مَلِكَ الإسْلامِ في دَعَةٍ ... ومن عُلاكَ جميل الصُّنْعِ مُرْتَـقَبُ

ولِثاني يوْمٍ منْ هَذا وجَّهَ إليَّ كُسْوَةَ حَرير فقُلْتُ أشْكُرُ نِعْمَتَهُ

ثَنـاؤُكَ مـا هَبَّ للنّـاسِمِ ... ضُحًى أمْ شَذَى الزَّهَرِ الباسِمِ
ومَدْحُكَ ما قَدْ بَدا بالطُّرُوسِ ... أمِ الـدُّرُّ في راحَـةِ النّاظِـمِ
وهَـدْيُكَ مـا قَـدْ بَـدا لِلـورَى ... دُجًى أمْ سَنَا الكَوكبِ العـاتم
وعزْمك ما قد بدَا في الأمـورِ ... لنـا أم شَبـا صفحَـة الصَّارِمِ
وَجودُكَ ما قـدْ هَمَـى جَـوْدُهُ ... أمِ السُّحْبُ في غَيْثِهـا السَّاجـم - 40 -
فـإنّ أحـاديثَ بـذْل النّـدى ... لمْرويَّـةٌ عـنْكَ عـنْ حاتـمِ
كتـائبُ جـودِكَ أرْسَلْتهـا ... لَـدَى عَبْـدِكَ الكـاتِبِ النّاظِـمِ
مَـلابِسُ رِفْـدِكَ لمّـا أتَتْ ... كَلِـفْتُ بِهـا كَلَـفَ الهائِـمِ
إذا اللّـوْنُ أشرَقَ مـنْ ثَوْبِهـا ... حَكَى الوَرْدَ في رَوْضِهِ النّاعِـمِ
وفيها الـذي حُسْنُ الوانِـهِ ... كَزَهْـرِ الربَـى الرَّائـقِ البَـاسِمِ

قَدِمْتُ عَلى مدْحِ مَوْلَى الوَرَى فهيَّأ لي تُحْفَةَ القَادِمِ
ألَذّ من المَاءِ بَعْدَ الصَّدَى وأحْلَى مِنَ الطَّيْفِ لِلْحالِمِ
فأوْرَدتني لِلمُنَى سَلْسَلاً يُرَوِّي ظَمَا عُلَّةِ الحَائِمِ(90)
وحَاهُكَ مارالَ سَيْفًا بِكَفِّي وليْسَ لهُ الدَّهْرَ من ثالِمِ
يَكُفُّ الخُطُوبَ وهَل غيْرُهُ لِجَمْعِ الحوادِثِ من هازِمِ
ألاَ يا إمَامَ الهُدَى هَل يُرَى سِواكَ عَلَى الدَّهْرِ مِنْ حاكِمِ
إمَامٍ مُوالٍ لبَذْلِ النَّدَى وعالٍ بدينِ الهُدَى عَالِمِ
حَوادٍ إذا سُئِلَ الرِّفْدُ مِنْهُ لهُ شِيمَةُ المُشْفِقِ الرّاحِمِ
ويَوْمَ الوَغَى سَيْفُهُ في العِدَى لهُ سُطْوَةُ الظَّافِرِ الغانِمِ
وإنّي أتَيْتُ فَقَبّلْتُ مِنْهُ يَمِينًا هِيَ اليُمْنُ لِلآتِمِ
بِمَدْحِكَ شُرِّفْتُ بَيْنَ الوَرَى عَلَى رغْمِ كل امْرِىءٍ راغِمِ
أقَرَّتْ بِفَضْلِكَ أمْلاكُها وهَلْ لِسَنَا الشمْسِ مِنْ كاتِمِ
فَدُمْتَ وَدَهْرُكَ ما إن يُرَى لِفِعْلِ نَوالِكَ بالحَازِمِ

ولمّا أجْلَسَني أيّدهُ اللّهُ بقُبَّةِ مَشْوَرِهِ السَّعِيد بيْنَ يَدَيْهِ
وأوّلُ يَوْمٍ جَلسْتُ فيهِ يوْمُ عيدِ الفِطْرِ منْ عامِ اثْنَيْ عَشَر
وثمانِي مائَةٍ قُلْتُ أشكُرُ نِعْمَتَهُ وأمْدَحُهُ أدامَ اللّهُ أيّامَهُ(91)

41 - ألا ليْتَ شِعْرِي أيَّ نُعْماكَ أشكُرُ وأيَّ جَزيلٍ مِنْ عَطاياكَ أذْكُرُ

---

(90) الحائم : العطشان.

(91) المَشْوَر : مصطلح معربي يطلق في أصله على المكان الذي يجلس فيه الملك للشورى وتسيير أمور الدولة، وما يزال يطلق على ساحة القصر الملكي حيث يحصر رجال الدولة، ويجتمع الناس لرؤية الملك في الأعياد والماسات، وقد المشور هي القاعة المخصّصة لِلا ستقبالات، وقد وردت الكلمة في نصوص أخرى من العهد المريني والنصري.

لأوْليَتي النعْمَى التي جَلّ قدْرُهـا ... وأمّنتَني مِمّا أخـافُ وأحْـذَرُ
ومنْ أمَل المَوْلَى الخليفة يُوسُفًـا ... فَلاَ مَـقْصَدٌ يَـأى ولاَ يَتَعَـذَّرُ
ومِثْلِي مَمْلُوكُ ابْـنِ نَصْرٍ حَقيقَـةً ... عَلَى كُلِّ مَن ناواهُ في الدَّهْرِ يُنْصَرُ
كَفَفْتُ بكَ الأيّامَ عنْ أن تُضيمَني ... فجاهُكَ في كَفّي حُسامٌ مُشَهَّـرُ
وَبَلّغْتَنِي القَصْدَ الذي كُنْتُ آمِلاً ... ومِثْلُكَ منْ يولي الجميلَ ويَقْـدِرُ
وأحْللتَني منْ حَضْرَة المُلْكِ منْـزلاً ... بـهِ راقَ للِدنيـا وللدّيـنِ مَظْهَـرُ
لَـدَى قبّـةٍ عَـرّاءَ عَـرّ مَكانُهـا ... بمُلكِكَ مها راق خُبْرٌ ومَخْبَـرُ
يَلـوحُ سَريـرُ المُـلْكِ فيها كَهالَـةٍ ... بها مِـنكَ فَيّـاضُ الأشِعَّـةِ نَيِّـرُ
تحُفُّ بها من حُنْدِ نصْرِك أنجُمٌ ... ووَحْـهُكَ وَضّاحُ الأسِرةِ مُقْمِـرُ
وتَرتـاحُ قضبٌ للِقـواضِبِ عِنْدهـا ... فهـا هـيَ روْضٌ بالغَمائِـمِ مُزْهِـرُ
لكَ المُلْكُ أصحى تُبَّعٌ تابعًا لـهُ ... وقصَّرَ عنهُ في مَدَى الجُودِ قَيْصَرُ[92]
مُحَيّاكَ عنْهُ مَطلِعُ الصبْـحِ مُشْرِقٌ ... وكفُّكَ فيها عارِضُ الجودِ مُمْطِـرُ
ومهْمَا أفادَ الرَّوْضُ بالعَرفِ والجَنى ... فمدْحُكَ أو كفّاكَ أعْطَى وأعْطَرُ
وان راقَ مَرْأى الشمْس نورًا ورفْعَةً ... فَمَـرْآكَ أوْ مَرقـاكَ أبْهَـى وأبْهَـرُ
بمَولاَيَ قدْ بلتُ المَكارِمَ والعُلَى ... فأصبـحْتُ في أثوابهـا أتبحتَـرُ
هُوَ النّاصِرُ المَوْلَى الذي جُودُ كَفّهِ ... منَ العَيْـتِ أندَى أوْ منَ الشمْسِ أشْهَرُ
إمـامٌ هُمـامٌ حـاشِعٌ مُتَبَتِّـلٌ ... أغَرُّ وَهوبٌ واضِحُ البِشْرِ أرهَـرُ
يُطاوِلُ أمْـلاكَ الزّمـانِ إذا انتَمـى ... قَبيـلٌ إلى صَحْبِ النَّبـيّ ومَـعْشَرُ
وفي حَرْبِـهِ يرْتـاحُ سَيْـفٌ وذابِـلٌ ... وفي سَلمِه يُزهَـى سَريـرٌ ومِنْبَـرُ[93]
ويُطْلِعُ مـهُ الوَجْـهُ أزْهَـرَ باسِمًـا ... ولِلأُفْـقِ وجْـهٌ بالعجاجَـةِ أغْبَـرُ
سَيَعْمُـرُ بالتّوحيـدِ كـلَّ تَنِيَّـةٍ ... ورَبْعُ العِدَى من آهلِ التّرْكِ مُقْفِرُ

---

(92) تبع لقب لملوك اليمن وقيصر لقب لملوك الروم.

(93) الدامل من القنا هو الرقيق.

أمَولايَ أمّا الوَصْفُ منكَ فمُعْجِزٌ فسِيَّانِ فيهِ مُطْنِبٌ أوْ مُـقَصِّرُ
لسانِيَ عنْ شكْرِ الذي نِلْتُ قاصِرٌ نعَمْ نَاذِلُ المَجْهودِ في الشكْرِ يُعْذَرُ - 12
ومالِيَ الاّ أن أرَى الدّهْرَ مادِحًا أنَمِّـقُ أوْصافَ العُلَـى وأُحَبِّـرُ
فلا زِلتَ لِلدّين الحَنيفِيِّ ـاصِرًا بلادُ العِدَى تُطْوَى وبَندُكَ يُـنْشَرُ

وقلتُ وقد وجّهَ إلي أبياتًا من نظْمِهِ أيّدهُ الله علَى هذا الرّويِّ والعَروضِ وإذا وَقَعَتْ لليَد تثَبتُ علَى وجْهِ التّشْريف إنْ شاءَ الله في عشِي يَوْم الخَميس الثامن لِربيع الآخِر عام أحَدَ عَشَر وثمَاني مائة(94)

بَـدْرٌ بقُبَّـتِكَ الغـرّاءِ مَطْلعُـهُ تبـارَكَ اللّـهُ مُبْدِيـه ومُطْلِعُـهُ
حَمْراؤُهـا هالَـةٌ تَبْـدُو أشِعَّتُهـا لأُفْقِهـا مَـرْقَبٌ بالعِـزِّ تَفْرَعُـهُ
فأنتَ يـا مَـلكَ الاسْلامِ نـاصِرُهُ من كُلّ حادِثَة في الدهْرِ تَمْنَعُـهُ
وأنتَ فوْقَ المُلوكِ الصِّيدِ منزلـةً وتحْتَ طوْعِكَ مُلكُ الأرْضِ أجْمَعُهُ
فإن دَجَا لَيْلُ رَوْعٍ أنتَ مَلجَأُهُ وان تفاقَـمَ أمْـرٌ أنتَ مَفْزَعُـهُ
لِلجُـودِ تمنَحُـهُ لِلدّيـنِ تمْنَعُـهُ لِلسَّيْفِ تسْرِعُهُ للرُّمْـحِ تَشْرَعُـهُ
لِلسَّعْـدِ تحْـرِزهُ لِلوَعْـدِ تُنْجِـزُهُ لـلِصَّدْرِ تَشْرَحُـهُ للقـدْرِ تَرْفعُـهُ
يـا طالبًـا معْهَـدًا للرّفْـدِ يَنْزِلُـهُ ارْبعْ قليـلاً فقـدْ حَيَّتكَ أرْبُعُـهُ
بِناصر الدّين قـد لاَحَتْ مَعالمُـهُ وراقَ في أفُـقِ العَلْيـاءِ مَصْنَعُـهُ
ويُوسُفٌ شُرّف المُلْكُ العَزيزُ بـهِ فأيْـنَ قَـيْصَرُهُ صيتًـا وتُبَّعُـهُ
فَقيصَرٌ قـاصِرٌ عـنْ حـودِ راحَتِـهِ وتُبّـعٌ في مَضاءِ العَـزْمِ يَتْبَعُـهُ
أبْدَى الجَمالَ وقدْ أوْلى الجميلَ بهِ فالـحُسْنُ يُبْدِيـه والإحْسانُ يُبْدِعُـهُ

(94) لعل القصيدة المشار إليها هي التي مطلعها :
يا آل يوسفَ لي في قصْرِكُمْ قمرٌ قد هَلَّ مِن فلك الأزْرار مطْلعُهُ
ديوان ملك غرناطة : 137. وهي تذكرنا بقصيدة ابن زريق المشهورة.

كَلَّمْتَ يا مَلِكَ الأمْلاكِ من كَثَبٍ عبْدًا يُناديكَ من بُعْدٍ فتَسْمَعُهُ
فما اعْتِذاري لمَوْلًى لمْ يُحِطْ خجلاً سَمْعي بلَفْظٍ لهُ في القلْب مَوْقِعُهُ
كَمْ حلَّ في كَبِدِ المَلوكِ من ظَمَإٍ إذْ لمْ يُمَتِّعْ بعَذْبِ اللَّفْظ مِسْمَعُهُ
أستغفرُ اللّهَ كَمْ راقتْ حديقتُهُ وكَمْ عَلى ظَمإٍ روّاهُ مَشْرَعُهُ
هَذي صَلاَةُ صِلاتٍ والنّداءُ لَها إن كانَ وتْرًا فمَوْلَى الخَلْقِ يَشفَعُهُ - 43 -
وكَمْ عجائِبَ أبْدَاها النّظامُ بها قدْ راقَ من زَهَرِ الآداب أيْنَعُهُ
ولا كَعَذْراءَ من مَوْلَى المُلوكِ أتَتْ بَابَ القَبول أمامَ العَبْدِ تسترَعُهُ
إذا بَدَا طِرْسُها للهِ كَمْ حِكَمٍ وكَمْ بَدائِعَ مِلْءَ العَيْنِ تُودِعُهُ
بحْرُ المَكارِمِ أبْدَى من بَدائِعِهِ دُرًّا يَرُوقُ بجيدِ المَلْكِ أنْصَعُهُ
فَلَفْظُها الدُّرُّ والزّهْرُ الانيقُ إذا ما راقَ أضواؤُهُ أو رقَّ أضْوَعُهُ
مالتْ بنا طَرَبًا أوْ لوْعَةً فَحَكَتْ كأسَ المُدامِ أمالَ القوْمَ مُتْرَعُهُ
لها آلسَّبِيبُ إذا مَرَّ الخِلِيُّ بهِ يَعُودُ وهْوَ شَجَيُّ القلبِ مُولعُهُ
يُبْدِي الذي قدْ أكَنَّتْهُ جوانِحُهُ وضُمِّنَتْهُ من الأشواقِ أضْلُعُهُ
ماذا يقولُ بَليغٌ في محاسِنها وأبْلَغُ القوْل فيها ليسَ يُقنعُهُ
لكَنَّ ياتِي بما تُبْديهِ فِكْرتُهُ وفَضْلُ مَولاَيَ في الإغْضاءِ يُطْمِعُهُ
لا تُنْكِرُوا نَفَحاتِ الزّهْرِ منْ مِدَحي فَرَوْضُ فِكْرِي نَدَى كفّيْكَ يُمْرِعُهُ
مَدْحٌ يَروقُ ذوي الألْبابِ ناظِمُهُ يُذيعُهُ في إمامٍ لاَ يُضَيِّعُهُ
قد سالَمتْهُ الليالي إذْ عِنايَتُهُ قدْ أمَّنَتْهُ فلا دَهْرٌ يُرَوِّعُهُ
بَقيتَ لِلحمدِ أوْ للمَدْحِ مُنْفَردًا بهِ ودُمْتَ لِستمْلِ الدّين تجْمَعُهُ

وَوَجَّه إلَيَّ أيَّدهُ الله بَيْتَيْ شِعْرٍ أوَّلُهُمَا : وَكَم عائِدٍ، وأمَرَني بالتَّصْديرِ لهُما والتَّذْييلِ عَلَيْهما فقلتُ بِحَسَبِ الغَرَضِ في الإنْحِطاطِ عنِ الجَزالةِ وفي قريبٍ منَ التَّاريخ.

أمِنْها سَرَى طَيفٌ إليَّ حَبيبُ ... ولَيْسَ سِوَى نجْمِ السَّماءِ رَقيبُ
أتَى وَظلامُ اللَّيلِ يَسْحَبُ ذَيْلَهُ ... ولِلبَرْقِ تَعْرٌ في دُجاهُ شَبيبُ
تَطَلَّعَ خفّاقَ الجَناحِ كأنّهُ ... فُؤادُ مُحِبٍّ قدْ جفاهُ حَبيبُ
وهَيْهاتَ يشفِي القَلْبَ طيْفُ خَيالِها ... وقدْ عَلِمَتْ أنّ الخَيالَ كَذوبُ
إذا قَرُبَ الاصْباحُ غادَرَ بَعْدَهُ ... فؤادَيَ يَصْبو والدّموعَ تَصوبُ - 44
أبانَ عرامِي يوْمَ بانَ عنِ الحِمَى ... وقدْ بانَ مِن فوْدِ الظلامِ مَشيبُ
فأذهبَ صَبْرِي والفؤادَ وَسَلوَتِي ... فلمْ يَبْقَ إلاَّ مَدْمَعٌ وَنَحِيبُ
ألاَ فِي سَبِيلِ ٱلْحُبّ قَلْبٌ مُقَلَّبٌ ... مَسُوقٌ لِتَذْكَارِ العُهودِ طَرُوبُ
ألا إنّها الذِّكرى وإنْ بعُدَ الحِمَى ... تُجِدُّ لَدَيَّ الوَجْدَ حينَ تَتوبُ
وإنّ التي قد هِمْتُ وجْدًا بِحُسْنِها ... وبالقلبِ منها لوْعَةٌ ووحيبُ
لَتُخْجِل بدْرَ الوَجْدِ وهْوَ مُتَمّمٌ ... وتُزْرِي بعصْنِ البانِ وهوَ رَطيبُ
فلوْلاكِ يا أخْتَ الغَزالَةِ لمْ أهِمْ ... ولا رابَ قلْبِي من هَواكِ مُريبُ
إذا ألَمَ المُشْتاقَ وجْدٌ عَلى النّوَى ... فَلَيْسَ سِوَى ذِكْرِ الحبيبِ طبيبُ
«وكَمْ عائِدٍ رادَتْ عِيادَتُهُ الأسَى ... ولوْ عُدْتِ قَرَّتْ أعْيُنٌ وقُلُوبُ
فَذِكْرُكِ حَظّ النَّفْسِ في كُلِّ خَطْرةٍ ... فَيا لَيْتَ حَظَّ العَيْنِ منكِ قَريبُ»(95)
عَجبتُ لِمثلِي كيْفَ أصْبحَ بالحِمَى ... يُنادي وما بالحَيِّ منكِ مُجيبُ
عَلى أنّ لفْظِي لؤْلؤٌ مُتناسِقٌ ... لَدَى النّظمِ عذْبٌ لِلوُرودِ شَرُوبُ
إذا أعمَلَتْهُ في الطروس يَراعَتي ... يروق مديحٌ أوْ يَرِقُّ نَسيبُ

(95) لا يوجد البيتان في ديوان يوسف الثالث.

سَبِيبِـيَ مَمْـدُودٌ ولَكِـنْ قَصَرْتُـهُ عَلَى مَن لَهَا النَذْرُ المُبِرُ نَسِيبُ
ومَدْحِي عَلى منْ حادَ قبْلَ سُؤالِهِ ومنْ أرْكَبَ الآمالَ وهْيَ رَكوبُ
هوَ المَلِكُ الأعْلَى الهُمامُ الدي عَدا لدَيْهِ مَجالُ العِز وهْوَ رَحيبُ
فَيَهْمِي نَداهُ كُلَّما بَجِلَ الحَيَا وإن مَطَلَ الإصْباحُ عنه يَنُوبُ
فَتُسْعَفُ قُصادٌ وتُقْضَى مَآرِبٌ ويَمْرَعُ من رَبْعِ العُفاةِ خَديبُ
بَيِمُّ من الأمْداحِ طيب تنائِهِ فتَنعَمُ أسْماعٌ بِه وقُلوبُ
أمَوْلاَيَ عُذْرًا إنّ وصْفَكَ مُعْجِزٌ ولَوْ حاءَ بَشّارٌ به وحَبيبُ
ولكسي أرْحوكَ في كُلّ حالَةٍ عَلَى أن منْ يَرْجوكَ لَيْسَ يَحيبُ
فكُلّ مَرامٍ أبْتَغِيه مُنَلَّغٌ وكُلّ بَعيدٍ أرْتجيهِ قَريبُ

ووجَّهَ أيَّدَهُ الله هَذيْن البَيْتيْن برسْمِ الاجَازةِ - 45 -

في فِتْنَةٍ مِلْءَ الزَّمانِ مَكارِمًا نالُوا العُلَى وأصالَةَ الأحْسَابِ
ما مِنْهُمُ إلاّ مُرَدًّى بالحجى مُتَوَشّحٌ بالصَّارِمِ القِرْصابِ[96]

فارْتَجلتُ مذَيّلاً

مِن كُلِ فَذٍّ ماجِدٍ ألْفاظُهُ مُسْتَمْتَعُ الأسْماعِ والألْبابِ
إنْ أحكَموا الآياتِ من آدَابِهِمْ كَمْ حِكْمَةٍ فيهَا وَفصْلِ خِطابِ
قد أحْرَزوا للسّبْقِ أقصَى غايَةٍ بمَدَى الكَتائِبِ أوْ مَدَى الكُتّابِ
قومٌ إذا ما حَارَبُوا أوْ سالَمُوا قامُوا بِحِفْظِ كَتائِبٍ وكِتابِ
وهَبُوا الجَزيلَ مِنَ الفَواصِلِ وانثَنَوْا يَرْجُودَ فَصْلَ المُنْعِمِ الوَهّابِ
نالُوا المَعالِيَ في مَعَالِمَ أُنْزِلَتْ منْهَا ركائِبُهُمْ أعَزَّ جَنابِ

(96) البيتان من قصيدة ليوسف الثالث. راجع ديوانه : 10

وتَسارَعُوا قَصْدًا إلى دَاعِي الهُدَى يُهْدُونَ لِلقُصّادِ كُلَّ عُجَابِ
بالنّاصِرِ المَوْلَى الهُمامِ قدِ اقتَدَوْا لَمّا اهْتَدَوا من هَدْيِهِ بشِهابِ
كَمْ نِعْمَةٍ أسْدَى وكَم من آيةٍ أبْدَى من الإحْسانِ والإحْسابِ
أمْداحُهُ وَهِباتُهُ قد أصْبَحَتْ رَوْضًا وغَيْثًا دائِمَ التّسْكَابِ
والكاتِبونَ عَبيدُ مَوْلانا الذي عَمَّ الوُجودَ بجُودِهِ المُنْسابِ
ما راقَهُمْ إلا بَديهَتُهُ التي يصْبُو الرّضِيُّ لها وترضي الصّابِي[97]
رامُوا إجازَتَها وكُلٌّ لفْظُهُ سَيْفٌ عنِ القَصْدِ المُؤمَّلِ نابِ
منْ ذا يُجاري نظْمَ مَولًى وصْفُهُ لَمْ يُحْصَ بالإسْهابِ والإطْنابِ
لَكن أجزْتُ وإن عادَةَ صَفْحِهِ لِلعَبْدِ خيْرُ مَثابَةٍ وثَوابِ

ولمَّا دخلَ المُسْلِمون من أهْلِ رُنْدَةَ صَحْرَةَ عنادٍ أعادَها الله واسْتأْصَلوُا مَنْ وجدُوا بها قَتْلاً وإسَارًا إلا قليلاً منهُمْ اعْتَصَمُوا بَقَصَبَتِها وَوَرَدَ البَشيرُ بذلِكَ قلتُ أُهنِّئُ مَقامَه الكَريمَ للحينِ وَهيَ منَ المُرْتَجَلاتِ في يوْمِ الأرْبعاء الرّابع لذي الحجّة عَام اثني عشر وثماني مائة[98]

6 -

هو النّصْرُ قدْ أجْرَى لدَيْكَ جِيادَهُ هوَ الفَتْحُ قدْ أَلْقَى إلَيْكَ قِيادَهُ
أما هذه بكْرُ الفُتوحِ التي بها أتَى الدهْرُ يدْنِي العِزّ مِنكَ بِعادَهُ[99]

(97) الرضي هو الشريف الرضي الشاعر المشهور والصابي هو الترسل المعروف.

(98) صحرة عناد كذا جاءت في الأصل بالنون المشدّدة وكذلك في نظم السلوك للمَلْزُوري مرتين، وفي أعمال الاعلام والاستقصا : صحرة عنّاد من أحوار رندة، وفيها استقتل السلطان يعقوب بن عبد الحق الموسو الملقب بالعالم أو الحكيم ورهن هذا عبد السلطان تاجه الذي كان من ذخائر دار بني مرين (راجع حكاية هذا اللقاء في المصدرين المذكورين والاستقصا 3 : 55) ويمكن ان يكون لاسم عنّاد الذي تضاف إليه الصخرة علاقة بحد ابن عنّاد الرندي الصوفي المعروف. وراجع ماكتبناه في المقدمة.

(99) بكر الفتوح : كتب فوق بكر كلمة أولى وهي إمّا رواية أو تفسير.

أما هَذِه في الخَلْقِ دِيمَةُ رَحْمَةٍ ... بها اللّهُ قد حَيَّا الوُجُودَ وجَادَهُ
هي الصَّخرةُ الشَّمّاءُ قدْ حَلّها ... الهُدَى فعمَّ رُبَى مَعْمورِها وَوِهادَهُ
وَطُهِّرَ مَغْناها من الشّركِ وانثنى ... يكيدُ بها التّوحيدُ من كان كادَهُ
وسَيْفُكَ سَيْفُ اللّهِ إذ حَلَّ رَبْعَها ... أباحَ به جَمْعَ العِدَى وأبادَهُ
وجُنْدُكَ جُنْدُ اللّهِ قدْ جال جوْلَةً ... يَسُلُّ ظُباهُ أوْ يَهُزُّ صِعادَهُ
فكُلُّ كَمِيٍّ هَزّ كُلَّ مُقَوَّمٍ ... يُقيمُ بمَيْدانِ الحُروبِ طِرادَهُ
وسَالَ نجيعُ الكُفْرِ فوْقَ بِطاحِها ... فلمْ يوردِ العَذْبَ الزلاَلَ ورادَهُ
وعادَتْ جُموعُ المُسْلِمينَ برَبْعِها ... تُفَرِّقُ جمْعَ المُعْتَدِي واحْتِشادَهُ
مَعاهِدُ والإسْلامُ فيها كأنّها ... وقدْ حلّها جسْمٌ يَضُمُّ فُؤادَهُ
أذَلّ بها اللّهُ الصّليبَ وحِزْبَهُ ... وبالنّاصِرِ المَوْلَى أعَزَّ عِبادَهُ
وجرَّدَ سَيْفَ النَّصْرِ في الروع مُلْقِيًا ... عَلى عاتِقِ المَوْلَى الهُمامِ نجادَهُ
فكانَ وَلِيُّ الكُفْرِ يُبْدِي تَجَلُّدًا ... إلى أن أراهُ حَرْبَهُ وَجِلادَهُ
وناصِرُ دين اللّهِ في اللّه مُظْهِرٌ ... عَلى اللهِ في كُلِّ الأمُورِ اعْتِمادَهُ
وإنّ إفَنتَ الرُّومِ يَجْهَدُ كُلَّما ... أراهُ المقامُ اليُوسُفِيُّ جِهادَهُ[100]
وكانَ وليّ الشّرْكِ وافَى مُطاوِعًا ... هَوًى ساقَهُ نحْوَ الهَوانِ وقادَهُ
فَفازَ بها طوْعًا وحلّ بأفْقِها ... وألْقَى لدَيْها ذُخْرَهُ وعَتادَهُ
وَسارَ إلى أوْطانِهِ وهْوَ ظافِرٌ ... لها لا إلى الأخْرى يُرَجِّي مَعادَهُ
وكانَ إليها الآن يأتي بِزَعْمِهِ ... يريدُ ويأبَى اللّهُ إلاّ مُرادَهُ
غَدا جاهِدًا قدْ شَفَّهُ لاعِجُ الصّدى ... يُؤَمِّلُ فيها وِرْدَهُ ومَرادَهُ

---

(100) إفَنْت هي الكلمة القشتالية Infante أي الولد، وهي مصطلح أندلسي مغربي أطلق في عهد الأمويين بالاندلس وفي عهد الموحدين على ولد الخليفة المرشّح لولاية العهد ثم استُعْمِلَ كذلك في الممالك المسيحية بالأندلس، وإفنْت الروم هنا هو فرناندو المدعو بصاحب انتقيرة إثر تغلبه عليها والذي أصبح فيما بعد فرناندو الأول ملك أرغون وكان أيضًا وصيا على عرش قشتالة. راجع ما كتبناه في المقدمة.

يقودُ لها جَيْشَ الضّلالَة قاصِدًا فَحَلَّأَهُ المِقْدارُ عنْها وذادَهُ
إلَى أنْ أتَى مَوْلَى الحلائِفِ يُوسُفٌ فَجَدّ وأبْدَى عَزْمَهُ وأعادَهُ
وقامَ بأعْباءِ الخِلافةِ مُظْهِرًا فَجَدّ وأبْدَى عَزْمَهُ وأعادَهُ(٠) - 17
لِداكَ عَدُوُّ الدّينِ رُوِّعَ سِرْبُهُ بحَيْثُ حَكَى خَفْقُ البُنُودِ فُؤادَهُ
كأن بِوَلِي الكُفْرِ قدْ خابَ سَعْيُهُ وكفَّ التّلاقِي بَغيَهُ وَعِنادَهُ
كأنّي بهِ قدْ سارَ والسّيْفُ حَلفَهُ وحَلّفَ لِلفَتْحِ المُبينِ بِلادَهُ
ولَمْ يتجِدْ إلاّ الفِرارَ وِقايَةً ولَمْ يَدَّخِرْ إلا المَدَلَّةَ زادَهُ
فيا ناصِرَ الإسْلام والمَلكَ الدي أرانا بأسْتاتِ الكَمالِ انْفِرادَهُ
هَنيئًا بهِ صُنْعًا جميلاً لديْكَ قد أحالَ بهِ النّصْرُ العريزُ جَوادَهُ
وهُنِّئْتَ ألفًا منهُ فالحالُ تقتَضي بِعِزِّكَ أنَّ الجمْعَ يتْلُو اتِّحادَهُ(100٠)
وخذها علَى أنّ البديهَة لمْ تَزَلْ تَرُدُّ البَليغَ اللّفْظِ عما أرادَهُ
وأوْصافُ مَولانا الخليفَةِ يوسُفٍ تُسكِّتُ قُسًّا حيْثُ لاَقَى إيادَهُ
فلازالَ يا مَوْلايَ عَهْدُكَ سافِرًا يجودُ فَتسْتَحْدِي العُفاةُ عِهادَهُ

ووجَّه إلَيّ أيّده الله قطعَتيْن إحْداهُما وَجوَابُها يُثْبَتَانِ بعْدُ إنْ شاء الله والثّانية نصُّها وكِلاهُما من نظْمِهِ نصَره الله :

لَوْ وجدْنا إلى العَزاءِ سَبيلاً لَمْ تكُنْ وحْنَتِي لِدَمْعِي مَسيلاَ
أوْ رغِبْنا حُكْمَ العَرامِ اخْتِيارًا لَمْ يكُنْ يغْلِبُ الغَرامُ العُقولاَ
من نَصيرِي عَلى فُؤادِي وطَرْفِي إنّما يَشْتَكي الحَليلُ الحَليلاَ
قَدْ أعانَا حُبِّي عَلَيَّ فَمَنْ دا في عَرامي يُحْدي ويُغْنِي فَتيلاَ
كُلُّ خِلٍّ أعْدَدْتُهُ لِزَماني فَزمانِي يُحيلُ ذاكَ الخَليلاَ

( ) كذا في الأصل ورد هذا الشطر مكررا
(100٠) اتّحاده، كذا في الأصل، ولعلّ الصواب آحاده، وفيه إشارة حسابية.

لَـيْسَ خِـلٌّ على الزّمـانِ بـاقِ هاكَ عَيْني وهَـاكَ قَلْبِي دَليـلاَ[101]

فَقلْتُ في الرّوي وَهْيَ منَ المرْتجلاتِ وفي الثاني والعشرين لِجُمدى الأولى عام ثلاثة عشر وثماني مائة وهي لزوميّة.

أَصْبَـحَ الْقَـلْبُ بالْبِعَـادِ عَلِيـلاَ إذْ نَأَيْنَـا وَمَـا سَفَيْنَـا غَلِيـلاَ - 48 -
جِيـرَةَ الحيّ هـلْ عَلمْتُـم بأنّـي لا أذوقُ المَنـامَ إلاّ قَليـلاَ
دونَكُـمْ قلبِـيَ الـمَشوقَ فحُلّـوا طَلـلاً مِنْـهُ بالبعَـادِ مُحِيـلاَ
آهِ لَـوْ لَـمْ تُضيّعُـوهُ لكنْتُـم قـدْ وجَدتُـمْ مُعـرَّسًا ومَقيـلاَ
أيُّهَـا العَادلُـونَ كُفُّـوا فإنّـي لَـمْ أجِـدْ لِلسُّلوّ عنهُـمْ سَبيـلاَ
لا وَشَرْعِ الغَرامِ ما رُمْتُ يوْمًا عن مَغانِيَ الجَمالِ صَبْرا جَميـلاَ
يا نَسيمَ الصَّبا أزِلْ عن فُـؤادِي خلَـلَ الوَجـد نتّخِـذْكَ حَليـلاَ
وتَحمَّـل رسالَـةً مِـن مَشُوقٍ تُلـفِ فيها البَيـانَ والتحْصيـلاَ[102]
إنّ وَصْفَ الجَمـالَ يَعْجِزُ عنـهُ من يرُومُ الإحْمـالَ والتّفْصيـلاَ[103]
والتي هِـمْتُ في حُلاَهـا غَرامًـا بعُـدَت مأْخَـذًا وعَـزّت قَبيـلا
ظَبْيَـةٌ أصْبَـحَ الفُـؤادُ رَهينًـا عنْدَها ما ابتَغَى سِوَاها بَديـلاَ
آه يـا رَبَّـةَ الجَمـالِ أمالِـي أن أرَى الدّهْـرَ لِلـوصَالِ مُنيـلاَ
إنّمـا أنتِ لِلمَحـاسِنِ رَوْضٌ حيـنَ تُبْـدِي قـدًّا وخـدًّا أسيـلاَ
والتِعطافُ الغُصونِ يُرْجَى وما إنْ يَمنَـعُ الـرّوْضُ غُصْنَـهُ أن يَميـلاَ

---

(101) وردت هذه القطعة ضمن قصيدة في ديوان ملك غرناطة ص 109 مع اختلاف في بعض الفاظها وترتيب أبياتها.

(102) قد يكون فيه تلميح إلى عنوان «الياد والتحصيل» لابن رشد.

(103) كأنه يشير إلى قول ابن الرومي في وحيد :
يَسْهُـلُ القَـوْلُ أنّهـا أحْسَن الأشْيـاءِ طُـرًّا ويَصْعُبُ التّفْصيـلُ

لوْ أعَرْتِ القَبولَ عَرْفًا وَطيبًا ... لـمْ يَـهُبَّ النَّسيـمُ إلاّ بَلِيـلاَ
ولـوِ الوَجْـهُ مِـنكِ أُطْلِـعَ لَيْـلاً ... لاتّخَذْنـاهُ هادِيًـا وَدليـلاَ
أنتِ لـولاكِ مـا كَلِفْنـا وَلـوْلاَ ... نـاصِرُ الدّينِ مـا اهْتَدَيْنـا سَبيـلاَ
عَثَـر الدّهـرُ دونَ قَصْدٍ فَلـوْلاَ ... نـاصِرُ الدّيـن مـا وجَدْنـا مُقيـلاَ
ضَلَّ قَصْدَ الصّوابِ والرشْدِ مَن لمْ ... يَتّخِـذْ مـنْ عُـلاَهُ ظِـلاً ظَلِيـلاَ
لِصِحَـابِ النبـيّ يُنْمَـى فأكْـرِمْ ... بِهِـمُ أُسْرَةً وأعْظِـمْ قَبيـلاَ
كُل منْ شاءَ وَصْفَهُمْ وَحُلاهُـمْ ... وَعُلاهُـمْ فلْيَقْـرإِ التّنزيـلاَ
جادَ قبْـل السّؤال حتّـى ظننّـا ... أنّنـا لَـيْسَ نعْـرِفُ التّامِيـلاَ
لَيْتَنـي دائِمًـا أطَـلْتُ لَدَيْـهِ ... حَـيْثُ يُلْقِـي نِعالَـهُ التّقبيـلاَ
لِلعِدَى قـد أعـدّ رُمْحًـا طويـلاً ... وجَـوادًا وَرْدًا وسَيْفًـا صَقيـلاَ - 49
وَلِـقصّادِهِ جَنابًـا مَريعًـا ... ومُحَيًّـا سَمْحًـا ورفـدًا جَزيـلاَ
وَعَـدُوُّ الإسْلامِ خـابَ فـأمْسَى ... خـاسِرًا لـمْ يَنَـلْ مُنـاهُ ذَليـلاَ
والتي حلّ سَوْفَ يَرْجِعُ عنْهـا ... جَيْشُهُ الأخسَرُ اللّئيـمُ فَليـلاَ(104)
هـو فـالٌ والسَّعْـدُ ينطِـقُ عنْـهُ ... إنَّ مـا قيـلَ منْـهُ أصْدقُ قِيـلاَ
والـذي قَـدَّرَ الأمُـورَ كما قَـدْ ... شاءَ في الخلقِ قادِرٌ أن يُنيـلاَ
دُمْتَ لِلدّيـنِ والخَلائـقُ تَدْعُـو ... لَكَ بالـنّصْرِ بكْـرَةً وأصيـلاَ

---

(104) فليلا : مفلولا ومكسورا.

ومِمَّا صدَرَ عَنّي في هَنائِهِ أَيَّده الله بِحُلولِ رِكابِهِ العَلِيِّ بِظاهِرِ مالَقَة بإثْرِ مُخالَفَةِ المَارِقِينَ من أَهْلِ جَبَلِ الفَتْحِ وَهِيَ السَّفْرَة التي أجازَ فيها السُّلْطانَ السَّعيد إلى الغَرْبِ ودخَلَ مالَقَةَ في يَوْمِ الاثنَيْنِ الثّالث لِشَعْبانَ عام ثلاثَة عَشَر وثماني مائة[105]

هُنِّئْتَ يا مَوْلى الوَرَى مَقْدَما ... اطْلَعْتَ لِلسَّعْدِ به أنْجمَا
حَلَلْتَ من مالَقَةٍ مَنزِلاً ... رَاحَمَ في العَلياءِ شهْبَ السّما
يَسْرَحُ منهُ الطَّرْفُ في مَرْبَعٍ ... يُقَيِّدُ المُنْجِدَ والمُتْهِمَا
تَسابَقَ الاعْلامُ من أهْلِها ... لِيَلبِسُوا ثَوْبَ العُلَى مُعْلَمَا
قالُوا وقَدْ وافَيْت لِلِهِ ما ... أشفَقَ مولانا وما أرْحَمَا
هذا مِصْباحُ الهَدْيِ حَيَّاكُمُ ... هَيْهاتَ جَلَّ الصُّبْحُ أن يكْتَما
هَدا المَقامُ اليُوسُفِيُّ الذي ... لِلِهِ ما أعْلَى وما أعْلَمَا
تكُفُّ كَفَّ الظلمِ أحْكامُهُ ... وهَدْيُهُ يَجْلُو الدُّجَى المُظْلِمَا
مَدَدْتَ لِلتَّقْبيلِ كَفًّا وَمِن ... قَبْلُ غَمامُ الأفْقِ لَيْلاً هَمَى
فحارَتِ الأذْهانُ في شَأنِها ... لَمْ تَدرِ ما صَوْبُ الحيَا مِنْهُما
تَحْسِبُهُمْ في حينِ تَقْبيلِهَا ... قَطًّا على مَوْرِدِها حُوَّمَا
ثُمَّ انثَنَوْا بَعْدَ الثناءِ الذِي ... تَلَوْا لَدَيْكَ ذِكْرَهُ المُحْكَمَا - 50

---

(105) راجع ما كتبناه في المقدمة عن خروج أهل جبل طارق عن حكم بني نصر ورجوعهم إلى طاعة بني مرين، أمّا السعيد المذكور فهو محمد بن عبد العزيز بن أبي سالم المريني الذي كان بعد خلعه لاجئًا أو معتقلاً في غرناطة مع جماعة من بني مرين ممن يرشح للملك فأفرج عنه يوسف الثالث «وسلطنه في أول شعبان من سنة 813 هـ وجهّزه، فأجاز البحر حتّى نازل فاس في دي الحجّة» إتحاف العمر 6 : 237 وقد شقي المُعرب بهذا الملقّب بالسعيد، وكان جرأه على يديه. انظر ترجمته وأخباره في جذوة الاقتباس : 208 الضوء اللامع 8 : 62 وإتحاف العمر 6 : 236 ــ 237، 7 : 28 ــ 29، والروض المتون : 78 (المطبعة الملكية) ووصف افريقيا للوزان 1 : 209، 210، 211، 213، 216، 217، 227، 228، 292، 302.

عَـــوْدةُ مَـــولايَ لِأَوْطانِهِـــمْ قَـدْ جَعَلـوهُ العِيـدَ والمَوْسِمَـا[106]

مـا جَبَـلُ الفَتْـحِ ومَـن أَهْلُـهُ إِذْ أصبَحُـوا قَـدْ كَفَـرُوا الأنعُمَـا

كـأن بِهِـمْ والـرَّوْعُ فِي أَرْضِهِـمْ يَأبَى لِشَمْـلِ الأَمْـنِ أنْ يُنْظَمَـا[107]

كـأنْ بِهِـمْ قَـدْ عـادَ مُرْتاعُهُـمْ مُغْـرًى بِمَـا أَوْلَيْتَـهُ مُغْرَمَـا

مُؤَمّـلا مِـنك لِـنصْرِ الهُـدَى مُوَلِّـى هُمامًـا بـأَذِلاً مُنْعِمَـا

أَيْنَ التُّقَى والعَدْلُ والفَضلُ مِـن قَوْمٍ غَدا الجَور لَهُـمْ مِيسَمَـا

وَسوْفَ يَكبُو منهُمُ كُـلُّ مَـنْ أَحْرَى جِيَادَ البَغـي أَوْ أَجْرَمَـا

كـأن بِمَـولايَ الهُمـامِ الـرِّضَى فِي مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ قَدْ حُكِّمَا[108]

كـأن بِمَـوْلايَ إمـامِ الهُـدَى لِلدِّيـنِ يعْلِـي عِنْـدهُ مَعْلَمَـا

وَكُـلّ كَفّـارٍ عنيـدٍ لَـدَى مَغنَى الجِهادِ قـد غَـدَا مَغْنَمَـا

مَولايَ مَـدحُ العَبْـدِ قِدْمًـا إلى نَيْـلِ مُنـاهُ لَـمْ يَـزَلْ سُلَّمَـا

يا آيَةً مِـنْ أَظْلَعَت قَـدْ جَـلَتْ بالعَـدلِ أَمْرًا لَـمْ يَـزل مُبْهَمَـا

يـا رَحْمَـةً مِـن كُـلِّ مـا أَتَّقِـي جَعَلتُهـا كَهْفًـا ومُسْتَعْصَمَـا

يـا نعمـةً سُمِّـيتُ مَمْلوكَهـا قَـدْري بِهـا بيْـنَ البَرايَـا سَمَـا

هـا أنـا كالْعِيسِ وقَـدْ حُمِّـلَتْ عَذْبَ الوُرودِ وهْيَ تشكُو الظَّمَا[109]

جـاهُكَ فَـوْقَ العَبْـدِ ظِـلٌّ ومِـنْ بُعْـدِكَ جمرُ الوَجْـدِ قَـدْ أُضْرِمَـا

لا زِلْتَ والنَصْرُ كَمـا تَـرْتَضِي يَحُـلُّ مِـن بَـابِكَ أَعْلَـى حِمَـى

بالنَصْرِ والعِـزّ لكُـمْ قَـدْ دَعَـا مَـن طـافَ بالبَيْتِ ومَـن أَحْرَمَـا

---

(106) في طرة بالحاشية الأيمن لهذا البيت ما نصّه : «ومنها بعد أبيات»

(107) أرضهم. كُتب فوقها : رَبْعِهم. وكأنه اختيار أو رواية أخرى.

(108) مجمع البحرين : يقصد به مضيق جبل طارق

(109) هذا من قول الشاعر :

كالعيسِ في البَيْداءِ يقتُلها الظَّمـا والماءُ فـوْقَ ظُهورِهـا محمـولُ

وقُلتُ وقد ورَدَتِ الأخبارُ بحُلول أجْفانِهِ المُؤيَّدَةِ بِساحِلِ المَغْرِبِ ونزُولِ السُّلْطانِ السَّعِيد بِبَرِّ العُدْوَةِ بالفرْسانِ والرُّمَاةِ في آخِر رَمضان عام ثلاثة عَشَرَ

أَصابِرَ دينِ اللّهِ هُنِّئْتَهُ صُنْعَا ... بَشائِرُهُ تُهْديكَ ما يَمْلأُ السَّمْعَا - 51 -

جمعْتَ قُلوبَ المُسْلِمين بعَزْمَةٍ ... تَكُفُّ مَنِ اسْتَعْدَى تجيبُ مَنِ اسْتَدْعَى

رمَيْتَ عُداةَ الدّين منْها بفادِحٍ ... لَدَى مُلْتَقَى الهَيْجاءِ يترُكهُمْ صَرْعَى

وكَمْ من يَد بيْضاءَ طوَّقتها فَتًى ... إلى منزِلِ البيْضاء قدْ أعْمَلَ الرُّجْعَى[110]

رمَى دارَهُ البَيْصاءَ أخْذًا بثارِهِ ... بما قَدْ رَمى سَيْفُ ذي يَزَنٍ صَنْعَا[111]

وقُمْتَ بأعْباء الوَفاءِ حَقيقَةً ... وَلاَ كُلْفَةٌ فيما أتَيْتَ بِهِ طَبْعَا

ولِلهِ مِنها مُستآتٌ قدِ ارْتَمتْ ... عَلى اللّجِّ رَفْعًا حين أحْكَمتَها وَضْعَا

سَرَتْ وظِلالُ الأمْنِ واليُمْنِ فوْقَها ... فأحْسِنْ به مَسْرًى وأنْجِحْ بِهِ مَسْعَى

دَرَأْتَ بِهِ في صَدْرِ كُلّ مُعانِدٍ ... سِهامُ المَنايَا نحْوهُ أُحْكِمَتْ وَقْعَا

أتَتْكَ بها البُشْرَى صَنيعَةَ مُنْعِمٍ ... حَباهُمْ بهَا وِتْرًا وعادَتْ لهُ شفْعَا

وشَيَّدتَ لِلدّينِ الحَنيفيِّ مَصْنَعًا ... وفي أوْلِياءِ اللهِ أظهرْتَهُ صُنْعَا

يُجِلُّ بمَن والَى الضّلالَ وأهْلَهُ ... حَوادِثَ جَلّتْ أنْ يُطيقَ لهَا دَفْعَا

غَوِيٍّ بِهِ التّثْلِيثُ عَزَّ مكَانُهُ ... فكَمْ ضارِعٍ لِلهِ ضاقَ بِهِ ذَرْعَا

فلا آيَةٌ تتْلَى ولاَ نعْمةٌ تُرَى ... ولاَ سُنَّةٌ تُحْيا ولاَ ذِمَّةٌ تُرْعَى

عَلى الدّين ظُلْمًا قدْ جَنَى وَهْوَ رَوْضَةٌ ... جَنَى زَهْرَها قَطْفًا وأغْصانَها قَطْعَا

إلى أن تَدارَكت البلادَ وأهْلَها ... فأوْسَعْتَها منْحًا وحصّنْتَها مَنْعَا

---

(110) الفتى يقصد به «السعيد» المذكور، والبيضاء هي مدينة المريين في فاس.

(111) يشير إلى حكاية سيف بن ذي يزن الذي لجأ إلى كسرى من أجل مساعدته على طرد الأحباش من اليمن وصنعاء فجهزه بسفائن مملوءة بالرجال، والشاعر يشبّه صنيع مليكه مع «السعيد» بصنيع كسرى مع سيف بن ذي يزن.

صَدَعْتَ بأمْرِ اللّهِ فيه مُحَكَّمًا فما تَجْبُرُ الأيامُ بَعْدُ لهُ صَدْعَا
وأرْسَلْتَ من رُحْماكَ شامِلِ رَحْمَةٍ تُبَدِّدُهُ شَمْلاً تُفَرِّقُهُ جَمْعَا
فبَايَنتَهُ رُشْدًا وَضَلّلْتَهُ هُدًى ودافعْتَهُ حُكْمًا وجاهَدتَهُ شَرعَا
دِيارٌ خَلَتْ منهُ فقَدْ أقْفَرَ الحِمَى وقَدْ بَعُدَ المَرْمَى وقَدْ صَوَّحَ المَرْعَى
وآلَ مَرينٍ إذْ دَعَوْا منكَ ناصرًا ولَمْ تُهمِلِ الدّعْوى ولَمْ تُغْفِلِ المَدْعَا
أجَبْتَ ومنْ أرْسالِكَ السّيْفُ والْقَنَا شِهابًا وبَرْقًا قدْ أثارَا به نقْعَا
أعوِّذُ بالسَّبْعِ المثانَى خلائِقًا لَدى مُفْرَد بالعزّ أحْرَزَها سَبْعَا
عَفافًا وإقدامًا وعِلْمًا وعَزْمَةً وحِلْمًا وحَزْمًا يوجِبُ المنحَ والمَنْعَا[112] - 52
لهُ بَرْقُ سَيْفٍ في غمامَةِ راحَةٍ يَروقُكَ لمْحًا في دُجَى الحَرْبِ أوْ لمْعَا
وَهاكَ من النظْمِ البَديعِ قَوافِيًا فسَمْعًا إمَامَ الأكْرمين لها سَمْعَا
تُطوّقِني طَوْقَ الحمامَة مُنْعِمًا فبالمَدْحِ في رَوْضِ المُنَى أسْمِعُ السَّجْعَا
وقد جِئْتُ باللفْظِ البَديعِ ومَن أتَى بوَصْفِكَ نظمًا ليْسَ إبْداعُهُ بِدْعَا
فلازِلْتَ تُولِي النّصْرَ بَدءًا وَعَودةً وتَعْمرُ للدّين الحنيفِ بهِ رَبْعَا

ومنَ المَنْظومِ الصَّادِرِ عَنّي والرِكَابُ العَلي اليُوسُفِيّ أسْماهُ الله بظاهِرِ جَبَلِ الفَتحِ عَصَمَهُ الله في السَّفْرَةِ الأولَى وقد وصَلَ البشيرُ في التَّاسِعِ عَشَرَ لِذِي قَعْدَة عام ثلاثة عشرَ المذكورِ بدُخولِ السَّعيدِ مَدينَة تازَةَ وانتِظامِ الجِهاتِ في طاعَتِهِ[113]

سَلْ ركابَ الحِمَى غَداةَ اسْتَقَلَّتْ مَنْ حَوتْ في رِحالِها وأقَلَّتْ

(112) أخذ بعض العَدّ من قول المعري : عفاف وإقدام وحزم ونائل.
وقوله : وحزمًا يقتضي المنح والمنعا لعله يقصد الصمة التي تأتي بعدها وهي : ونائلا. لأن الدي يميل ويمنح قادر على أن يمنع كما قال طرفة :
إن تولُّهُ فقَدْ تَمْنَعُه وتُريه النّجْمَ يجْري بالظّهْرْ
وبهذا يصح للشاعر عدد الخلائق السبع.

(113) ليس ثمة نصّ على الطريق الدي سلكه السعيد إلى تازة وأغلب الظن أنه نزل بسواحل الرّيف ثم توجّه هو إلى تازة ووجّه ولده عامرًا إلى طنجة كما سيذكر ذلك الشاعر في القصيدة التالية لهذه

وثَـنَتْ لـلسُّرى هـوادِيَ لـوْلا أنْ هدَاهـا بَـرْقُ الثّنايَـا لضَلَّتْ
أهِـيَ السُّفْـنُ في بِحـارِ سَرابٍ أمْ مَطايَا لـدَى الكَثيبِ أطَـلَّتْ
غَـرُبَتْ في خدورِهِـنَّ بُـدُورٌ أفَلَتْ لاَ بَلْ غرْبَ صَبْرِيَ فَلَّتْ
كـمْ بُـدور لها الهَـوادِجُ أُفْـقٌ نورُها قدْ جَلاَ الدُّجَى إذْ تَجَلَّتْ
جَدَّدَتْ حالَة الهَوَى حينَ جَدَّتْ وتـوالَى الغَـرامُ حيـنَ تَـوَلَّتْ
حـالَ مـا بَيْننَـا الزّمـانُ ولكـنْ لمْ تَزَلْ طَيَّ أضْلُعِي حيْثُ حَلَّتْ
لمْ يَهُلْنا المَغيبُ لوْ هِيَ وافَتْ لمَواقِـيتِ عوْدِهـا وأهَـلَّتْ
أيُحِيـلُ البعَـادُ عَهْـدَ فَتـاةٍ حالَـة الوجْـدِ بالفـؤادِ أحَـلَّتْ
سَلْ عَنِ الأنْفُسِ الكَريمَة هَـلاّ بَعْدَ حِفْظِ العُهُودِ عَنْهَـا تَسَلَّتْ
وَعَـنِ النـاصر بْـنِ نَصرٍ أجَـدْوَى راحَتَيْـهِ أمِ الغُيـوثُ اسْتَهَـلَّتْ
هُوَ مَولَى المُلوكِ شرْقًا وغَرْبًـا فَحُـلاهُ عَلى مَزايـاهُ دَلَّتْ
حَفِـظَ اللّـهُ مِنْـهُ لِلمُـلْكِ ذَاتًـا بِحُلَـى الـفَضْلِ والكَمـالِ تحَـلَّتْ - 53 -
أيُّهـا النّـاصِرُ الإمَـامُ المُرَجَّـى فِئَـةُ العـزِّ لِلمُنـاوِي أذَلَّتْ
جَبَـلُ الفَتْحِ قـدْ حَللتَ لَديْـهِ ذِرْوةً قـد علَتْ مَكانًـا وجَـلَّتْ
ولأهْلِيـهِ في الخِـلافِ نُفُـوسٌ بشياطيـنَ لـلِضَّلالِ اسْتُـزِلَّتْ
فَتـرامَتْ لهُمْ كتـائِبُ عِـزٍّ لـوْ رَمَتْهـا يَـدُ الزَّمـانِ لَشُلَّتْ
لـوْ تُجارِي الرِّيـاحُ منها جيـادًا لانْثَنَتْ عَنْ مَدَى السّباقِ وكَـلَّتْ
بِهـوادٍ غُـرَّ الفتوحـاتِ أهْـدَتْ إذْ أطَـلّتْ جُموعُهُـمْ وأضلَّتْ
أرِيـاضٌ أنْهـارُهُ فيـهِ سالَتْ أمْ سُيوفٌ في مُلْتَقَى الحَرْبِ سُلَّتْ
وعَـوالٍ يجْلـو الظَّـلامَ سَناهَـا أمْ نجومٌ مـن السّمـاءِ تَـدَلَّتْ
وَلقـدْ جـاءَتِ البَشائِـرُ حتّـى أعْـذَبَتْ مَـوْرِدَ السُّرور واحْـلَتْ
بعُـلاكَ السَّعيـدُ مُـذْ حَلَّكَ أرْضًا لَكَ أَلْقَتْ ما عِنْدَهـا وتخلَّتْ(114)

(114) من الآية الكريمة : وإذا الأرض مدّت وألقت ما فيها وتخلّتْ.

فَتهنَّـــا صَنائِعًـــا حيـــنَ وافَتْ شَيَّدَتْ مَصْنَـعَ القَبـولِ وأعْـلَتْ

وَمنَ المُرْتَجَلاتِ في مثْلِ ذلكَ قوْلِي وقدْ عادَتِ الأجْفانُ
المنصُورَةُ من فَتْحِ طنجَة وحُصولِ ولد السُلْطانِ السَّعيد في قَصَبتها
وذلِكَ عَشيّ السَّابعَ عَشَر لذِي قعْده عَام ثلاثَة عَشَر المذكُورِ

نـاصرَ الدّيـن خُـذ إلَـيْكَ بشارَهْ قـدْ كَسَتْهـا الفُتـوحُ أبْـدَعَ سارَهْ
تُجْتَلَى في البـلادِ غَرْبًـا وشَرْقًـا فَتُباهِـــي الكَـــواكِبَ السَّيَّـــارَهْ
فتهَنَّـأْ صُنعًـا جميـلاً وفَتحًـا يَحْتَلِـي كُـلُّ مِسْمَـعٍ أخْبـارَهُ
جلَّ وصْفًا وطارَ في الخلقِ ذِكْرًا قَصّرتْ عـن مَـداهُ كُـلُّ عِبـارَهْ
هـدِهِ فـاسٌ الجَديـدُ تسكَّتْ فأنـلتَ السَّعيدَ منْهـا الخْتِيـارَهْ(115)
وابْنُـهُ عامِـرٌ من الرّيفِ يُـمْسِي عامِـرًا رَبعَـهُ المنِيـعَ ودارَهْ(116)
إذا أتـتْكَ الوُفـودُ كُـلٌّ يُرَجِّـي ملكَ جُودًا يَحْكِي السَّحابَ انهِمارَهْ
قـاصِدًا كَعْبَـةَ المكـارِمِ منـهُ جاعِـلاً حجَّـهُ لها واعْتِمَـارَهْ - 54
قَطـعَ البَحْـرَ والمَهامِـهَ يُبْـدِي كيفَ تَبغِي في الطّاعةِ اسْتِبصارَهْ
قابَـلتْ والقَبـولُ بـعْضُ حُلاَهَـا بِـدَرُ المَالِ مَـنْ أطـاعَ بِـدارَهْ
وأتـتْكَ الأجْفـانُ منها بـبُشْرَى كُلّ وَجْهٍ يُبْـدِي لها اسْتِبْشارَهْ(117)
والـذي أمَّـلَ العِبـادَ ذَليـلٌ قدْ أبى الدَّهْرُ أنْ يُقيلَ عِثـارَهْ
حانَهُ الدّهْرُ فارْتَقَى الدُّعْرُ منْـهُ مُرْتَقًى حَطَّ في الوَرَى مِقْـدارَهْ(118)

(115) فاس الجديد : ما يزال هذا الاسم معروفا إلى اليوم.
(116) عامر ولد «السعيد» السالف الذكر، والريف : اقليم معروف في المغرب وربعه المنيع مدينة طنجة.
(117) الأجفان : السحب.
(118) يعني بهذا البيت والذي قبله السلطان أبا سعيد عثمان

والطّريفي كان أصْلاً لهذا الـــــــــقَصْدِ لا نالَ ما ارْتَضَى واخْتارَهْ[119]

وهَل الغُصْنُ حينَ يُجْتَثُّ منهُ أصْلُـــهُ تجتَنِـــي يَـــدٌ إثمارَهْ

أخـذَ اللـهُ مسهُ خَبًّـا كَفـورًا أ مِنَ اللهِ كانَ يَرْجـو فـرارَهْ

كمْ شَكَا الثَّغْرُ ظُلْمَهُ عندَما قـدْ أوْرت الكفْـــرَ أرْضَهُ ودِيـــارَهْ

أصْبَحَ البَغْيُ شاهِرًا منْهُ سَيْفًـا ريْثَمـا فَـلَّتِ الخُطـوبُ غِـــرارَهْ

لا يَحيبُ السَّعيد إذْ بابْنِ نصْرٍ ناصِرِ الدّين قـدْ رأينا انـتِصارَهْ

دونَ مـولايَ مـن نظامِـيَ رَوْضًا فَـرْطُ حُبِّـي مُفتّـحٌ أزهـــارَهْ

وَدُعائِـي بـأن تـــدُومَ عُـــلاهُ مـا أرَى الدَّهْـرُ ليْلَـهُ ونَهـــارَهْ

وَفي الوِجْهَة الثّانية إلى حِصارِ جبَل الفَتْح عَصَمَهُ الله عِنْدَ خِلافِ أهْلِهِ وكانَ الانْفِصالُ إلَيْهِ عِنِ الحَضْرَةِ في السّادسَ عَشرَ لِذِي قعْدة عَامَ أرْبَعةَ عَشَر وثماني مائَةٍ صَدَرَت عَنّي منظوماتٌ كثيرةٌ منها :

إنّ التـي شَعَـفَ الفُـؤادَ هواهَـــا قَضَتِ اللّيالِي أن تُطيـلَ نَوَاهَـــا

(119) الطريفي نسة إلى حريرة طريف، ويقصد به الحاجب القائد عبد الله بن موسى الطريفي، وأصله كما يقول صاحب بيوتات فاس ــ علْجٌ من نصارى مدينة طريف، ثم دخل في خدمة بني مرين وعدا صاحب السقيف (قائد المشور) في عهد أبي سعيد عثمان الأصغر وكان مراحما الحاجب أحمد القمايلي وهو الذي تسبب في عزله ومقتله وأصبح حاجبا بعده إلى جانب الحاجب فارج بن مهدي، أما ما يشير إليه الشاعر هنا فقد نبّه ابن حجر في إنباء الغمر إذ قال : «وفي هذه السنة (813 هـ) كانت الحادثة العظيمة بفاس من بلاد المغرب حتى خربت، وذلك أن ملكها وهو أبو سعيد عثمان بن أحمد بن ابراهيم بن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق قرّر في تدبير مملكته الحاجب عبد الله بن الطريفي فأوقع بينه وبين أبي فارس صاحب إفريقية فجهّز محمّد بن أبي يحيى [الحفصي] بالعسكر ليحاصر تونس فمازال أبو فارس يتسبب له أشراك المكايد حتى أوقعه وهزمه ومزّق عسكره، فلمّا تمكّن من ذلك كاتب ابن الأحمر بأن يفرج عن محمد بن عبد العزيز بن أبي سالم وكان معتقلاً عنده مع جماعة من ذرية بني مرين ممن يرشح للملك، ففرج عنه وسلطنه في أول شعبان منها وجهّزه فأحاط البحر حتى نازل فاس في ذي الحجّة، فحرح عبد الله الطريفي لقتاله فكبا به فَرَسُه فقبض عليه محمد (السعيد) وأمر به فأحرق» إنباء الغمر 6 : 236 ــ 237 وانظر أيضا جذوة الاقتباس : 125، 511 وبيوتات فاس : 47 (ط. دار المنصور) وراجع أيضا ما كتبناه في المقدمة.

عجَبًا لها إذْ أتْلَفَتْ بِبعادِها ... قلبًا مَشوقًا لَمْ يَزَلْ مَثواهَا

يا ليتَها رَحِمَتْ مُعَنًّى مُغْرَمًا ... لَمْ يدرِ ما مَعْنَى الهَوَى لوْلاَها

زعَمَ العَواذِل أنّ قلبِيَ عاشِقٌ ... صَدَقُوا وَلكن لا يُرِيدُ سِواهَا

هَيْهاتَ يَطْمَعُ أنْ يدِينَ لِسَلْوَةٍ ... بَعْدَ الذي فَعَلتْ بِه عَيْناها

قالُوا تَناسَتْ عَهْدَ وُدّكَ إذْ نَأتْ ... عَنْها الرّكَابُ وأنتَ لا تَنساها

فأجَبْتُ كُفُّوا لسْتُ أسْمَعُ عَذْلَكُمْ ... أوَ ما عَلِمْتُمْ أنّني أهْواها

كَمْ بتُّ أسْهَرُ قائلاً يا لَيْتَها ... لَوْ أنها سَمَحَتْ بِيَوْمِ لِقاهَا

لَوْ أنها جَادَتْ بأيْسَرِ لَحْظَةٍ ... فازَتْ يَدِي من دَهْرِها بمُناهَا

لَوْ أنها رَضِيَتْ لجُدتُ بكُلِّ ما ... مَلَكَتْ يَمِيني في سَبيلِ رِضاهَا

حتّى أباحَتْ لَمْحَة من وصْلِها ... سَمَحَتْ بهَا الأيّامُ بعْدَ جفاهَا

بَخِلَتْ زمانًا بالوِصالِ وعندَما ... جادَتْ عَليَّ نَوَى الزَّمانُ نَواهَا

قدْ كان طيبُ الوَصْلِ لمْحَةَ بارِقٍ ... آهًا عَلَيْها بَعْدَ ذلِكَ آهَا

عَهْدِي بهَا والسِّحْرُ مِن أجْفانِها ... كُلُّ النُّهَى عن صَبْرِها ينْهاهَا

عَهْدِي بِها والوَرْد من وجَناتِها ... باللحْظِ يُمْنَعُ مَن يَرومُ جَناهَا

عَهْدِي بِها والطِّيبُ يُذْكَى عَرْفُهُ ... مِنْها فأحْيا النَّفْسَ إذْ حَيَّاهَا

تحْكِي الحَدائِقَ نضْرَةً وَشمائِلاً ... فلذاكَ أصْبو إذْ تَهُبُّ صَباهَا

تحْكي الكواكبَ رفعةً وتَهلُّلاً ... فأبيتُ مِنْ كَلَفٍ بها أرْعاهَا

للّه طَلْعَتُها التي قدْ أُطْلِعَتْ ... فجَلتْ عَلى العُشّاقِ شمْسَ ضُحاهَا

لِلهِ ما أحْلَى محاسِنَ وجْهِها ... وأرقَّ معْناها وأعْذبَ فاهَا

لِلهِ ما أحْلَى شَمائِلَها التي ... تَرَكَتْ فُؤادِي هائِمًا بحُلاَهَا

عَجَبًا لها حَلَّتْ فؤادَ مُتَيَّمٍ ... كَلِفٍ بغيْرِ الفكْرِ لاَ يَلْقاهَا

ولَئِنْ كَلِفْتُ بَرَبْعِها فَتَشوُّقِي ... من أجْلِ مَعْناهَا إلى مغْناهَا

وأجيبُ من قدْ لاَمَني في ذكْرِها ... دارُ الحَبيبِ أحَقُّ أن تهْواهَا

55 -

هي حضرةُ المَوْلَى الخَليفَةِ يوسُفِ ... شَرَفِ الملـوكِ إمامِهَـا مَولاهَـا
رَحَلتْ رَكائِبُهُ ضحًى عن ربْعِهـا ... والـنصْرُ يَقدُمُهَـا إلى مَدْعاهَـا
تُنْضِي إلى الجَبلِ المُنيفِ عَزائِمًـا ... أبَتِ المَكـارِمُ أن تُفَـلَّ ظُباهَـا(120)
تَرْمِي إلى الغَرَضِ القَصِيّ بأسْهُمٍ ... نَـزَعَ الوَفـاءُ بهَـا إلَـى مَرْماهَـا
لِتَحُل ذِرْوَتَـهُ كَمـا تَبغـي العُلَـى ... وتحُـلُّ مـن فِئَـةِ الضّلالِ غُرَاهَـا
أوَ مـا عَزائِمُـهُ صَبـاحٌ كُلَّمَـا ... حَادَتْ عنِ النَّهْجِ القَويمِ هَداهَـا - 56 -
حَـلَّ المَعاهِـدَ منـهُ مولًـى نـاصِرٌ ... وَفّـى حُقـوقَ المَجْـدِ إذْ وافَاهَـا
تَبًّا لهمْ لمْ يَقْـدُروا قَـدْرَ الـذي ... جادَتْ بـه يُمْنـاهُ مـنْ جَدْواهَـا
فهِيَ التي ما ساجَلَتْ سُحُبَ الحَيَا ... إلاّ وَفـاقَ الغَادِيَـاتِ نَداهَـا
أوَ لَيْسَ مِن أوْصافِكَ الشّيَمُ التي ... غَـدتِ المُلوكُ بذِكْرِهـا تَتَباهَـى
أوَ لَيْسَ من أوْصافكَ الهِمَمُ التي ... تبغـي النُجُـومُ الـنيراتُ عُلاَهَـا
هَـدا ويـا لِلّـهِ مـن غَرْناطَـةٍ ... دارٌ نُعيـدُ على النّـوى ذِكْراهَـا
لمّا نأى مَوْلايَ عنْهـا أصْبَحَتْ ... وقـدِ اسْتحـالت حالُهـا وحُلاهَـا
إذْ حَيثُ حَلّ الناصِرُ المَلكُ الرِّضَى ... نلقَـى المَكـارِمَ والعُلَـى والجاهَـا
مـا رَجَّعَتْ شَوْقًـا إلَيْـهِ حَنينَهـا ... إلاّ وَصَدَّ العَـزْمُ عـن لُقْياهَـا
ما أظْمأ الشَّوقُ الحَثيثُ بِطاحَها ... إلاّ وَغيثُ الدّمْـعِ قـدْ رَوَّاهَـا
سُحُبُ المَدامِعِ كلّما بَخِلَ الحَيَا ... تَحْدُو بهَـا الذّكْـرى إلى سُقْياهَـا
فقلـوبُ أهْلِيهَـا يُقَلِّبُهـا الجَـوَى ... لمَّـا تحامَـى بالبِعـادِ حِماهَـا
ونُفـوسُ أهْلِيهَـا تَهيـمُ بذكْـرِهِ ... كَلَفًـا بمَـا مـن رِفْـدِهِ أوْلاهَـا
بَسَطَتْ بـنصْرِكَ للدعـاءِ أكُفَّهـا ... واسْتَوْهَبتْ لَكَ في البقـاءِ اللّـهَ

---

(120) تنصي · تجرّد، والحبل المنيف يقصد به حبل طارق.

وقلْتُ أُهَنِّيءُ مَقامَهُ الكَريمَ بإبْلاَلِهِ منْ أَلَمٍ أَلَمَّ بهِ وذَلكَ في السّادِسَ عشرَ لِصَفَر منْ عامِ أَرْبَعَةَ عَشَر وثَماني مائة وبمدينَةِ مالَقَةَ المحْروسَةِ[121]

أَلَـمّ بمَوْلانـا الخَليفَـةِ يـوسُفٍ ... تُلْفِي القُلُوبَ بـه رِهينَ تـأسُّفِ
أَلَـمّ يُقَـلِّبُ قَـلْبَ كُـلِّ مُوَحِّـدٍ ... ويُعـادِرُ الإسْلامَ حِلْـفَ تَحَـوُّفِ
ما كانَ نُورُ الصّبْحِ لمَّا أن بَدَا ... مُتَهَلِّلاً عِندَ الطُّلـوعِ بِمُـنْصِفِ
حَتَّى يُرَى مَوْلَى الخَلائِفِ يوسُفٌ ... مِمَّا لَدَيْهِ من التَّألُّمِ قـدْ شُفِـي 75
أَوَ ما تخال الزَّهْـرَ غَيْـرَ مَنِيـرَةٍ ... في أُفْقِهـا والزَّهْـرَ غَيْـرَ مُفَـوَّفِ
والنّور لا يُبْـدِي ٱبْتِسامَ ثُغـورِهِ ... والـعُصْنَ لا يَثْنِيـهِ لين المَعْطِـفِ
والخَيْـلَ ساهِمَـةَ الوُجـوهِ كـأنها ... ما أُرْسِلَتْ لِقِتـالِ بـاغٍ مُسْرِفِ
والسّابِقـاتِ كأنّهُـنَّ نَواظِـرٌ ... بُهِتَتْ فهُنَّ لأَجْلِهِ لـمْ تَطْـرِفِ
والمُرْهَفـاتِ تقـول في أغمادِهـا ... يُشفَى الامَامُ وَفِي عِـداهُ نَشْتَفِـي
مـوْلايَ عَبْـدُكَ عِنْـدَ ذلِكَ شأنُـهُ ... دمْعٌ يصوبُ ولوْعَـةٌ لا تَنْطَفِـي
فالقـلبُ قلَّبَـهُ عَلى حمْـرِ الـغَضَى ... كَلَفٌ به قدْ حَلّ دونَ تَكَلُّـفِ
أمْسِي وأُصْبِحُ لا أرى مَلكَ الهُدَى ... كَلِفًـا أُطيـلُ تَشوّقِـي وتشوّفِـي
وقد اغْتَدى اليومَ السّتيرُ مُبَشّري ... وبراحَـةِ المَوْلَـى الهُمـامِ مُعَرِّفِـي
فَبَذلْتُ من روحِي وما كَسَبَتْ يَدي ... ما عَزّ عِندي في الوُجُودِ ولمْ أَفِ
فَورُودُهُ أَحْلَى لَـدَيَّ على الظمَـا ... مـن مَوْرِدٍ عَـذْبٍ وظِـلٍّ أَوْرَفِ
قَصْدِي لَدى مَوْلايَ تقْبيـل الثرى ... فبـهِ علـوُّ مَكانَتـي وتَشَرُّفِـي
وهَنـاءُ عُلْيـاهُ براحتِـهِ التـي ... هَزَّتْ لديهِ اللّهِ أشرَف معْطِـفِ
قدْ كان غابَ عنِ العُيونِ فلمْ أَزَلْ ... أَرْجُـو مُشاهَـدة المَحَـلِّ الأَشْرَفِ

---

(121) قابل هذا مما في ديوان ملك غرناطة (ص 96) إذ يقول :
«ومن ذلك وقد ألمّ بنا ألمّ على إثر الوجهة إلى حمل الفتح في وسط صفر عام 814»

وأقولُ ليتَ الدَّهْرَ يُسْعِفُ مَقصدِي بِلقائِهِ والدَّهْرُ لَيْسَ بِمُسْعِفِي
والشَّوْقُ يُذْهِبُ سَلْوَتِي وتَصَبُّرِي حتَّى لجأتُ لِكَتْبِ هاذِي الأَحْرُفِ
خُذْ باللِّقاءِ فَداكَ أَيْسَرُ مطْلَبٍ لفَتًى يَهُبُّ [لَهُ] هُبوبَ المَشْرَفِي
لارِلْتَ يا مَوْلَى الملوكِ مُصاحِبًا للنَّصْرِ وَالتَّخليدِ وَاللُّطْفِ الحَفِي

وَفِي مَطْلَبٍ يَظْهَرُ مِنَ النَّظْمِ

أَذْكُرُ مَولاَيَ ولَمْ يَنْسَ عَبْدَهُ عَلى مطْلَبٍ يُحْظِي بما شِئْتُ عِنْدَهُ
وأَرْغَبُ مِن عُلْياهُ تتْميمَ نِعْمَةٍ تُنيلُ مُنَى الرَّاجي وتسْعِفُ قصْدَهُ
بأَن يُوقفَ المَلْوكَ يَوْمَ سَلامِهِ بقبَّتِهِ في شَمْلِ مِنْ أَمَّ رِفْدَهُ
لِيَبْقَى وإِن عَزَّ اللِقاءُ بِنَظْرَةٍ يُجَدِّدُ بالذَّاتِ الكَرِيمَةِ عَهْدَهُ - 58 -

وفيما حَقُّهُ أنْ يتَّصِلَ بالتّهانِي

قلتُ أَمْدَحُ المَقامَ الكريمَ اليُوسُفِيَّ أَسْماهُ الله وقدْ وافَقَ ذلِكَ إيصَالَ الرَّئيسِ البائِسِ الواصِلِ من المغربِ مُعْتَقَلاً وعَوْدَةَ السُّلطان السَّعيدِ إلى حِصَارِ فاس بعد هَزيمَةٍ جَرَتْ عَلَيْهِ بَظاهِرِها وميلادَ أحدَ السَّادةِ الأمراءِ حَسَبمَا تُسْتَوْفَى هذِه الأَغْراضُ منهَا وهِيَ أَوَّلُ قصيدة مدحْتهُ بها بعْدَ أن وَلاَّني كتابةَ سرِّهِ شكرَ الله نعْمَتهُ وأَبْقَى حُرمَتَهُ[122]

هناءٌ كأَزْهارِ الرُّبَى مُتَحَمِّلُ وبُشْرَى كأَنْوارِ الضَّحَى تَتَهلَّلُ
هُوَ الصُّنْعُ صُنْعُ اللهِ معْنَى وحودِهِ سَبيلٌ لمَا شاءَتْ عُلاكَ مُوَصِّلُ
ولاَ كالذي رامَ العِبادَ سَفاهَةً يَرى الدَّهْرَ عنْهُ مُعْرِضًا وهْوَ مُقْبِلُ

(122) راجع ما كتبته في المقدمة عن هذا الذي يعنيه الشاعر في تقديمه بالرئيس البائس، وهو المعني في القسم الأول من القصيدة.

وأمَّلَ مثوَى العِـزِّ لاَ دَرَّ دَرَّهُ ... ولَيسَ له عن مَرْتَعِ الذِّلِّ مَرْحَلُ
ألَمْ يَدْرِ أن النّاصِرَ المَلِكَ الرِّضَى ... إذا قالَ فالمِقْدارُ ما شاءَ يَفْعَـلُ
لَهُ شِيمٌ في الحِلْمِ والعِلْمِ والنّدَى ... يَفـوقُ بها كُـلَّ المُلـوكِ وَيَـفْضُلُ
فَحَزْمٌ كَلَيْثِ الغَابِ يحمِي ذِمارَهُ ... وعَزْمٌ كما قَدْ هُزَّ في الرَوْعِ مُنْصُلُ
وَجودٌ كما جادَتْ لَدى المَحْلِ ديمةٌ ... وَبِشرٌ كما حَيَّا الضَحَى المُتَهَلِّـلُ
تـواضَعَ فاسْتَعْلَـى بصِدْقٍ يَقِينِـه ... وَعـزَّ فَـذَلَّ المَاكِـرُ المُتَحَيِّـلُ
أتَـى وثيـابُ الهونِ تعْلـو قُيـودَهُ ... فَيَرْسُفُ طَـوْعَ الـذُّلِّ فيها وَيَرْفُـلُ
وجاءَ وقَدْ حَفَّتْ بِهِ الشِّيَعَة التي ... لهَا من ذمِيمِ الغَدْرِ ما لَيْسَ يُجْهَلُ
تحَامَى طَرِيقَ الرُّشْدِ مِن قَبْلُ فاغْتَدَى ... تُزَلِّلُـــهُ آراؤُهُـــمْ وتُضلِّـــلُ
ولَوْ أمَّلَ المَوْلَـى الخليفَـةَ يوسُفًـا ... لَما راعَهُ خَطْبٌ من الدّهْرِ مُعْضِلُ - 59
ولوْ أمّ لِلبَاب الكريمِ لأصبَحَتْ ... وُجـوهُ الأمانِـي نحْـوَهُ تَتَهَلَّـلُ
ولَكنّـهُ مـا جَـدَّ إلاّ لِأنْ يُـرَى ... كما شاءَهُ المِقْـدارُ وهْـوَ مجَـدِّلُ
وقدْ عَزَّ من وَلَّيْتَهُ المُلْكَ مُنْعِمًـا ... وأضْحَى الذي ناواكَ وهْوَ مُذَلَّلُ(123)
حُلاَ المُلْكِ حَلْيٌ منهُ هذا مُطَوّقٌ ... كَما شاءَتِ النعْمَي وذاكَ مُعَطَّـلُ
صَنائِعُ جَلتْ أن يُحيطَ بوَصْفِهـا ... نِظـامٌ بَليـغٌ أوْ نِثـارٌ مُـفَصَّلُ
وقدْ كان فيها الحَزْمُ ضُيِّعَ بُرْهَـةً ... ونالَ العِدى ما أمَّلوا حينَ أُغْفِلُوا
وأمّـــن فيها خائِـــنٌ ومُخـــادِعٌ ... وصُدِّقَ فيها مُلْحِـــدٌ وَمُعَطِّـــلُ
بحَيْثُ جميـــعُ الغَادِريـــن تَفرَّقـــوا ... وفَرُّوا عَنِ النَّهْجِ القَويمِ وأجْفَلُوا
لقَدْ كَفَرُوا نُعْمـاكَ بَغيًـا وطالَمَـا ... وَهَـبْت وأنتَ المُنْعِـمُ المُتَطَـوِّلُ
تحامَوْا جَنابًـا عِنـدَهُ العِـزُّ والعُلَـى ... لهُمْ منهُ كَهْفٌ في الخُطوبِ وموْئِلُ
أينعَـمُ فيـهِ الغـادِرونَ تخَيُّـلاً ... وقَد كَفَرُوا النعْمَى التِي فيهِ خُوِّلُوا

---

(123) يتحدث في هذا القسم عن «السعيد» صبيعة ممدوحه، ويمال من السلطان أبي سعيد عثمان.

وقد عادَ للقَصْدِ الذي كانَ آمِلاً ... وَلَيْسَ لَهُ إلاّ عَلَيْكَ مُعَوَّلُ[124]

وحُكِّمَ سَيْفُ النَّصْرِ فيهم وإنَّهُ ... لَحُكْمٌ بِما شاءَتْ علاكَ مُسَجَّلُ

بحَيثُ الوَغَى تُبْدِي ظُباهَا جَدَاوِلاً ... عَلَيْها مِنَ الخَطّيِّ دَوْحٌ مُهَدَّلُ

وَبُشْراكَ يا مَولَى المُلُوكِ بِراحَةٍ ... تُتَمِّمُ ما شاءَ الهُدَى وتُكَمِّلُ[125]

فلوْ أنصَفَ الخدَّامُ أضحَت نفوسُهُمْ ... وأرْواحُهُمْ طوْعَ البَشائِرِ تُبْذَلُ

ومِنْ قَبْلُ هنَّأنا عُلاكَ بِوافِدٍ ... مَخائِلُه يقْضِي بهَا المُتَأمِّلُ[126]

مُحَيَّاه وضَّاحُ الأسِرة نَيِّرٌ ... تَرَى الشهْبَ تَسْتَهدِي سَناه وتسْأَلُ

تَلاَ صِنْوَهُ الأرْضَى وإنَّ كِلَيْهِما ... لَهادٍ رَشيدٌ مُهْتَدٍ مُتَوكِّلُ

فهذا إلى بذْلِ المكارِمِ يُرْتَجَى ... وذاكَ لِنيْلِ المعْلُوَاتِ يُؤَمَّلُ

لِذلكَ أزْهارُ الفتوحاتِ تجْتَلَى ... وَروضُ المُنَى أدْواحُها تتهَدَّلُ

وإنَّ عَدُوَّ الدِّينِ سَوْفَ تخالُهُ ... لَدَيْكَ وقدْ وافاهُ حَتْفٌ مُعَجَّلُ

وأوْطانُهُ تُمْسِي وَكُلُّ مُوَحِّدٍ ... يُكَبِّرُ في أرْجائِها وَيُهَلِّلُ - 60 -

فَيا راكِبَ الوجْناءِ يَطوي بِهَا الفَلاَ ... إلى طِيَّةٍ آثارُها لَيْسَ تُجْهَلُ

إلى معْهَدِ الاسِ الذي في بطَاحِهِ ... تُفَسَّرُ أوْصافُ الجمالِ وتُجمَلُ

إلَى منْزِلِ العِزِ الذِي كُلُ آمِلٍ ... يُجِدُّ لَهُ السَّيْرَ الحثيثَ ويُعْمِلُ

أرِحْهَا فَقَدْ حَلتْ بمثوى خليفَةٍ ... لهُ السَّبْقُ وهوَ الوَادِعُ المُتمهِّلُ

إمامٌ لَهُ حِلْمٌ وعلمٌ وَنائلٌ ... وحَزْمٌ وإقدامٌ ومجْدٌ مؤثَّلُ

إذا أعْمَلَ القصَّادُ نحْوَ جنابِهِ ... رَكائِبَهُمْ أعْمالُهُمْ تُتَقَبَّلُ

يجودُ غَمامُ الجُودِ من أُفْقِ كَفِّهِ ... فَيفْضَحُ صَوْبَ العَادِياتِ ويُخْجِلُ

إذا ما حَلَلْنا تحْتَ ظلّ جَنابِهِ ... فمَا ضَرّ أن ينْأى حَبيبٌ ومَنْزِلُ

---

(124) يشير في هذا البيت وما بعده إلى عودة «السعيدة» إلى حصار فاس.

(125) يهيء ممدوحه براحته من المرض الذي ألمّ به.

(126) راجع ما كتبناه عن أولاد يوسف الثالث في المقدمة.

أُعيذُ العُلَى مِن أنْ تخِيبَ عِصابَةٌ ... بِحُبّ المَقامِ اليُوسُفِيّ تَوَسَّلُوا
فَمِثْلِي مَن رَقَّيْتَ يا مَلِكَ الهُدَى ... ومِثْلُكَ مِن يُولِي الجَميلَ وَيُجْزِلُ
وَهَمْتَ وقَدْ أمّنْتَ مِمَّا أخافُهُ ... فلَمْ يبْقَ ما يُخْشَى ولاَ ما يُؤَمَّلُ
وَأوْلَيْتَني النّعْمَى التي كنتُ آمِلاً ... فَجِلْتُ خُلاَهَا فَوْقَ ما يُتَخَيَّلُ
وألْبَسْتَني ماتِئْتَ مِن خِلَعِ الرّضَى ... فأصْبَحْتُ في أثْوابِهَا أتَسَرْبَلُ
فماذا أوَفّي شُكْرَ نِعْمَتِكَ التي ... حَديثُ تَوَاليهَا صَحيحٌ مُسَلْسَلُ
فدامَت على المَمْلوكِ مِنها مَلابِسٌ ... تَبيدُ اللّيالِي وهْيَ لا تَتَبَدّلُ
ودُمْتَ لدين اللّه أكْرَمَ نَاصِرٍ ... وهَدْيُكَ يُسْتَحْلَى وَجودُكَ يُسْأَلُ

وقلْتُ مُهَنِّئًا مَقامَهُ الكريمَ بِولادةِ السّيد الأمير أبي الحسن أصغر وَلَديْهِ الآنَ وصَلَ الله سَعادَته وفي رَبيع الأوّل عَام أرْبَعة عَشر وثماني مِائة وصَلَ التّعْريفُ به منَ الحَضْرَة والرّكابُ العلّي بمَالقة(127)

مَعالِمَ الدَّولةِ النّصْرِيَّةِ اتّضَحَتْ ... بِيوسُفٍ ومَرامي قصْدِهِ نَجَحَتْ
مَوْلًى لِذُلِ النَّدَى والبأْسِ راحَتُهُ ... بالسّيْفِ كمْ سَفَحَتْ لِلسّيْبِ كمْ صَفَحَتْ - 61
حُسامُهُ تحتَ دوْحٍ من عوامِلِه ... يسيل نهْرًا ونارُ الحَرْبِ قدْ لَفَحَتْ
يحمِي ويَبْذُلُ ما تَحْوي خَرائِنُهُ ... لِلهِ ما مَعَتْ يُمْناهُ أوْ مَنَحَتْ
ثَبْتٌ إذا ارْتاعَتِ الأبْطالُ يَوْمَ وغًى ... سَمْحٌ يُسِيرُ مُحَيّاهُ وقدْ كَلَحَتْ

(127) أبو الحسن علي ولد يوسف الثالث هدا سمّاه والده باسم أخيه معر الدولة أبي الحسن، وقد كان له دور في الاحداث التي عصفت بمملكة غرناطة في عهدها الأخير فقد وقف إلى جانب أخيه محمد الصغير الدي بويع بعد والده يوسف الثالث وخاض عمرات الصراع الرهيب الدي نشب بين أخيه وابن عمّه محمد التاسع، وكان أبو الحسن على رأس جيش أخيه في دلك الصراع، وتمنحه المصادر القشتالية لقب EL INFANTE وقد تمكن محمد التاسع من التغلّب على أبي الحسن وأخيه الملك الشرعي وسجنهما في شلوبانية حيث سجن والدهما من قبل، وبقيا فيه إلى أن صدر الأمر بإعدامهما في مارس 1431 م.
راجع كتاب محمّد التاسع للأستاذ سيكودى لوثيا ص 47، 51، 75.

تراهُ بَدْرًا ولَيْلُ النقْعِ مُنْسَدِلٌ ... ومَوئلا وبحارُ الرَّوْعِ قدْ طَفَحتْ
ومَوْلِدِ عمّتِ الدُّنْيا نَشائِرُهُ ... كالشمْسِ أنوارُها في أفْقِها وَضَحَتْ
وافَى بهِ شهرُ ميلادِ الذي بِظُبا ... كَفَّيْكَ مِلتُهُ الغرَّا قدِ اتّضَحَتْ
رَاقت بهِ دَوْحَةُ الإسْلامِ وابتَهَجَتْ ... واليُمْنُ فوْقَ رُباهَا طَيْرُهُ سَنَحَتْ
فارتاحَتِ السُّمْرُ والبيضُ الرّقاقُ إلَى ... يُمْناهُ والخيل في ميدانِها مَرِحَتْ
حَلا مُحيًّا يروقُ النّاظِرينَ سَنًى ... لوْ أنّ شمْسَ الضحَى جارتْهُ لافتَضَحَتْ
أهْلاً بها عرةً عَرَّاء لوْ لَمَحَتْ ... صبْغَ الدّياجي بأنوَارِ الهُدَى لَمَحَتْ
فاهْنأْ بهِ وبصِنْوَيْهِ وَقِرَّ بهِمْ ... عَيْنًا ودُمْ ماهَدَتْ عَيْن وما سَرَحَتْ
وقبْلَهُ وافَتِ الأجْفانُ مُهْدِيَةً ... بُشْرَى بها فوقَ لُجِ البحْرِ قدْ سَبَحَتْ
بُشْرَى أتَتْكَ مِن المسْعودِ قائِلَةً ... هَدي الصّفاحُ دَمَ الأعْداءِ قدْ سَفَحَتْ[128]
فَمِن مطالِعِ أنوارٍ بها اتّضَحَتْ ... ومن ميادين آمالٍ بها انفَسَحَتْ
وقبْلُ والِدُهُ الأرْضَى وهَبْتَ لهُ ... مَالاً تَجودُ به نَفْسٌ وَلا سَمَحَتْ
لكِنَّ ضَيَّعَ بَعْضَ الحَزْمِ حِينَ أرَى ... مَيْلاً إلى فِئةٍ غَشّتْ وما نَصَحَتْ
فقُمتَ بالأمْرِ ثَبْت العَزمِ ثانِيةً ... حتّى كأنّ جُيوشَ النّصْرِ ما بَرِحَتْ
وفّيْتَهُ حَقَّهُ مِن كلِّ مكْرُمَةٍ ... وإن ناتَ بكَ عنهُ الدّارُ أوْ نَزَحَتْ
أدارَتِ الرُّومُ أكْواسَ السُّرورِ إلَى ... أن صحَّ عزْمُكَ فارْتاعَتْ لهُ وَصحَتْ
بالأمْسِ قدْ حَمَحَتْ في غيّها ودَعَتْ ... للحرْبِ واليَوْمَ نحْوَ السِّلْمِ قدْ جَنَحَتْ
هذا هُوَ النصْرُ وافتْ من كتائبه ... حِيادُ عِزٍّ بمَيْدان العُلَى جَمَحَتْ
هذا هوَ الصُّنْع راقتْها مَصانِعُهُ ... لمُرْتقَى أوْجِها أبْصارُها طَمَحَتْ
سُدِّدْتَ عَلى المُعْتَدِي أدْنَى مذاهِبِهِ ... وان أقْصَى بلادٍ عندهُ فُتِحَتْ

(128) المسعود ولد «السعيده وقد ورد ذكره في الصوء اللامع، ويفهم من كلام الشاعر أن المسعود نعْد نهاية والده الشيعة أصبح على رأس الجماعة الذين يعملون بأمر عرناطة. أما المصادر التاريخية فإنها لا تتحدث عنه ولا عن أخيه عامر.

فيـــا مُكَثِّـــرَ حُسَّادِي بأنْعُمِـــهِ ... ويـا مُغَرِّبَ آمـالِي التـي نَـزَحَتْ
أوْلَيْتَنِي من عَميمِ الجودِ ما بَهِجَتْ ... بِهِ النُّفوسُ وبالَتْ كلّما اقْتَرَحتْ
لِـذاكَ يـا مَـلِكَ الدنيـا وبَهْجتِهـا ... حَمائِمُ الفِكْرِ في رَوْضِ المنَى صَدَحتْ
وعبْدُ نعْماكَ يُبْدِي مـن مَدائِحِـهِ ... أزاهِرًا في رياضِ الطِّرْسِ قدْ نَفَحَتْ
أفْكارُهُ عنْ بُلوغِ القَصْدِ قدْ وَقَفَتْ ... في المَدْحِ إذْ سَرَحَتْ والوَصْفَ ما شَرَحَتْ
أنَّى أُوَفِّي وَقَدْ أصْبَحْتُ مُمْتَدِحًـا ... ذاتًا بآيِ كِتاب اللّهِ قدْ مُدِحَتْ
تُبْدِي المَدائِحُ من أوْصافِهـا دُرَرًا ... بِها إذا انتَظمتْ أجيادُها اتَّشَحَتْ
فَدُمْتَ ما أعْقَبَ الصُّبْحُ المنيرُ دُجًى ... في حِجْرِهِ الشَّهْبُ نحْوَ الغَربِ قدْ جَنَحَتْ

وَعَنْدَ عَوْدَتِهِ مِنْ هذِهِ السَّفْرة لِحَضْرَتِهِ العَلِيّة قلتُ في الخامِس عشَرَ لشَعْبان عام أرْبَعَة عَشَر وثماني مِائة وَالدّخول في الثالِثِ عشر قبْلَهُ.

صَرَفَ الوجْـدُ نحوَ قلبي عِنانَـهْ ... مُعْمِـلٌ فيـهِ سَيْفَـهُ وَسِنانَـهْ
والِهًـا قـدْ جَفـاهُ دَمْـعُ جُفـوني ... حيـنَ أبْـدى غرامَـهُ وأبانَـهْ
مـا لِقَلْبـي وَجيرةَ الحَـيِّ لمَّـا ... أتْلَفـوهُ وأصْبَحُـوا سُكَّانَـهْ
ولمُغـرًى بحبِّهـم حيـنَ أمْسَى ... سَاهِـرَ الجَفْـنِ بَعْدهُـمْ يَقظانَـهْ
وبرَبْـعِ الحِمَـى غَـداة اسْتَقلّـوا ... طَلَـل نَثَّ عِنـدهُ أشْجَانَـهْ
مَالَـهُ والوُقـوفَ طَـوْعَ هَـواهُ ... بـرُسومٍ قـد أنكَـرَتْ عِرْفانَـهْ
والتـي هـامَ في صِفـات حُلاهَـا ... قـدْ جَفـا النّوْمُ بعْدَهـا أجْفانَـهْ
ذَهَبَتْ كـلَّ مَـذْهَبٍ في هَواهـا ... بفُـؤادٍ لاَ يَرْتَجِـي سُلْوَانَـهْ
أينَ منْها بَدْرُ الدُّجَى إنْ تَجلَّتْ ... وهـوَ يخشَى في أفْقِـهِ نقْصانَـهْ
لحْظةُ الظَّبْي في شَذا الزَّهْرِ طِيبًا ... في سَنَا الشّمسِ في انعِطاف الْبَانَهْ
أيْـنَ يـا راكِبَ المَطِيَّـةِ تَبغِـي ... دُونَكَ الحَيَّ فاتَّبِـعْ رُكْبانَـهْ

أَيضِلُّ الـــرَّكْبُ اليَمانِـــيُّ قَصْدًا ... وسَنَا البَرْق قَدْ هَدَى أظْعانَـــهْ

وَريـاضٍ جـــالَ النسّيـــمُ لديْـــه ... فَتَـــى فيـــهِ لِلّقَـــا أغْصانَـــهْ

وأدارَتْ كـأسُ السّحـابِ مُدَامًـا ... رَدَّد الطيْـــرُ عِنْدَهـــا ألْحانَـــهْ

ما لِغُصْنِ النّوَى وقَدْ مالَ زَهْـوًا ... لَوْ أقـامَتْ ريـحُ الصَّبـا نَشْوانَـهْ

أتُرَى السحْبُ أمْ دموعِيَ جادتْ ... ريَّـــةٌ فانثَـــنَتْ بِهـــا رَيَّانَـــهْ[129]

لاَ ولَكِـن جـودُ الخَلِيفَـة لمّـا ... جادهَـــا أمْسَكَ الحَيـــا هَتّانَـــهْ

ثُـمَّ وَافَـى أُمَّ الْبِـلاَدِ مُعِيـداً ... بِنَـــدَاهُ لِعَهْدِهَـــا رَيْحَانَـــهْ[130]

ساجَـلَ الغَـيْثُ إذْ أتاهَـا نَـداهُ ... فثنـى حين لَـمْ يُطِقْـهُ عِنانَـهْ

وتوارتْ شمْسُ الضحَى إذ تَبَدَّتْ ... شمْسُ مَـرْآهُ فَـذّةً حُسَّانَـهْ

حَسَد البَـدْرُ والغمَـامُ سَنَـاهُ ... وَسَنَـى نـورَ وجهِـه وبَانَـهْ

قَدْ قضيْنا أوْطارَنا عِنْدَما قَـدْ ... حـلَّ مَوْلَـى مُلوكِهـا أوْطانَـهْ

واصَلَ الرَّبْعَ وهْـوَ أشْوَقُ شَيْـيءٍ ... لِلّقَـا بَعْـدَ أن أرَى هِجْرانَـهْ

كَـمْ عُيـونٍ تسوَّفَتْ لِلِقَـاهُ ... وقلـوبٍ مَشوقَـةٍ هَيْمانَـهْ

مَن يُضاهِي في الأرْضِ يوسُفَ مَوْلًى ... قَـدْ خَبَرْنـا تمْكينَـهُ وَمكانَـهْ

مَـن يُضاهِيـه يوسُفِـيٌّ خِـلالٍ ... بيْـنَ دُنْيـا أعْظِـمْ بهَـا وَدِيَانَـهْ

يوسُفُ الصِّدْق مُعْجِبٌ بيْنَ وصْفَيْ ... حجّتَيْـــهِ إنابَـــةٌ وإبَانَـــهْ

لِعُـلاهُ في الغَـيْبِ سِرٌّ عَجـيبٌ ... كُـلّ مَـلْكٍ يبْـدِي لـهُ إذْعانَـهْ

فالشقِيُّ الذي اعتَـدَى قبْـلَ هَـذا ... قَـرَّبَ الدّهْـرُ حَتفَـهُ وأحَانَـهْ[131]

ألمَوْلَـى الملـوكِ شَرْقـا وغرْبًـا ... يـوسُفٍ يظهِـرُ امْـرُؤٌ عِصْيانَـهْ

كَانَ حلفَ النجاةِ لَوْ قَدْ أتَـاهُ ... راجيًـا منْـهُ لطْفَـهُ وحَنانَـهْ

---

(129) ريّه : هي الاسم القديم لمالقة. ومعناها : المَلِكة.

(130) أم البلاد : يعني بها غرناطة.

(131) يعني في هذا البيت وما بعده من بعته فيما سبق بالرئيس البائس.

وَولـــيُّ الضَّلالِ والبغْـــي لمَّـــا أن غَـدا وَهْـوَ مُظْهِـرٌ طغْيانَـهْ[132]

ظاهَـرَ الكَافِريـن واعْتَـزّ حَتّـى أظهَـرَ الحقُّ والهُـدَى بُرْهانَـهْ

لكأبي بـهِ وقـدْ خـاب سَعْيًـا وَحَـلَتْ دَعْـوةُ الـرَّدَى نُهْتانَـهْ - 64

وسُيـوفُ الهُـدَى تُحَكِّـمُ فِيـهِ قدْ أحانتْهُ كيـفَ شاءتْ مَكانَـهْ

ولسانُ الزّمـانِ يـشِدُ لمَّـا أعْـدَمَ اللَّـهُ فِي الـورَى وِجْدانَـهْ

سُمْتَ أهْلَ العُرُورِ مِنهُـمْ نَكـالاً وخَبـالاً وذِلّـةً وَإهانَـهْ

لـمْ يَزالـوا لِلعـذْرِ والمكْـرِ أهْـلاً وهَواهُـمْ قـدْ أصْبحُـوا عُبْدانَـهْ

كان فيهِمْ [عُثْمَانُهُمْ وَهْـ]وَ منهُمْ فأباحُـوا حِمـاهُ بَـلْ سُكّانَـهْ[133]

والطّريفِـيُّ عبْـدُهُ عبْـدُ سَوْءٍ جَمَـعَ اللُّؤمَ والحَنَـى والخِيانَـهْ[134]

سارَ مـنْ قبـلُ للجَحيـمِ نَسيـرًا مُخبِـرًا أنّ بَعْـدَهُ إتْيانَـهْ

أخْـدَةٌ روّعَتْ وبالـدّمِ رَوّتْ حين وافَتْ حَنابَـهُ وجَبانَـهْ

أوَ لـمْ يَعْلَمـوا بـأنّ ابْـنَ نَصْرٍ يُوسُفًـا كَفُّـهُ كَـفَتْ عُدْوانَـهْ

حابَ قَصْدُ المُلوكِ إن لمْ تُؤَمِّلْ منْـهُ إحْسابَـهُ ولاَ إحْسَانَـهْ

ربّمـا حَـلَّتِ السُّعـودُ حُباهَـا لوْ تَلقَّـى [مِـنَ ٱلسَّعِيدِ] أُمَانَـهْ[135]

ولأصْفَـى لـهُ مشارِبَ نعْمَـا هُ وأوْلاهُ فضْلَـهُ وامْتِنانَـهْ

أخـذَ اللّـهُ مـهُ خَبًّـا لَئيمًـا تابعًـا في ضَلالِـهِ شَيْطانَـهْ

وَهْـوَ يُبْـدِي عَلى مُظاهَـرة الكفْـرِ مـعَ البَغْـيِ والخَنَـى حَرَبانَـهْ

يَتمادَى علَى الخِـلافِ ويَـدْرِي أنـهُ غيْـرُ مُفْلِحٍ مَـن خانَـهْ

تَـركَ المُـلكَ والمَمـالِكَ والمَـا لَ لَديْـهِ وكُـلَّ عِلْـقٍ صَانَـهْ

وكـأنْ بالسّعيـدِ وارِثَ مـا قـدْ أظْهَـرُوهُ أوْ أضمَـرُوا كِتْمانَـهْ

---

(132) يقصد بهذا البيت والأبيات بعده السلطان أبا سعيد عثمان.

(133) ما بين معقوفين بياض في الأصل، وقد أستأنست في إكماله مما في ديوان يوسف الثالث.

(134) راجع ما تقدم ذكره

(135) ما بين معقوفين بياض في الأصل.

وكأن بالسّعيدِ قد ساعَدَتْهُ ... نِيَّةٌ منكَ مَهَّدت بُلْدانَهْ
أسَّسَتْ مُلكَهُ عَلى البرِّ حَتَّى ... أصْعَدَتْهُ وشَيَّدتْ أرْكانَهْ
حَلَّ مسهُ السَّعيدُ دِرْوَةَ عزٍّ ... فهوَ عيْنٌ وقدْ غَدا إنسانَهْ
لكَ أضْحَى والمُلْكُ طَوْعُ يَدَيْهِ ... حيْثُ رَقّيتَهُ لِأعْلَى مَكانَهْ
يُورِدُ السَّيفَ في دِمَاءِ عِداهُ ... فُيرَوِّي في نَحْرِه ظَمْآنَهْ
إنمَا العَرْبُ في يَديْكَ مجالٌ ... مَلأتْ شيعَةُ الهُدَى مَيدانَهْ[136] - 65 -
فتهَنَّأْ يا ناصِرَ الدّينِ مُلكًا ... فاقَ منصورَهُ شأى مَرْوانَهْ
لوْ أتَى قيْصَرٌ لقَصَّرَ عنْهُ ... ولألقَى كِسْرَى لهُ تيجانَهْ
وَهَيئًا بمَقْدَمِ العِزِّ يا مَنْ ... ألْبَسَ العِزَّ مُصْفِيًا أرْدانَهْ
وَهيئًا بها سَوانِحَ تاتِي ... وهْيَ بيْنَ اسْتِمالَةٍ واسْتِكانَهْ
وحَكتْ صَفْحَةُ البِحارِ مُحَيَّا ... فيه تُلْفِي أحْفانُها أحْفانَهْ
والذي جاءَ بالبِشارَةِ مِنْهَا ... رَفَعَ اللَّهُ في السّوابِيِّ شَانَهْ[137]
تأخُذُ الرِّيحُ عَنْ خُلاهُ وتابَى ... أنْ تُبارِي هُبوبُها جَريانَهْ
لوْ بدلنا النّفوسَ كانَ قَليلا ... للِدي قدْ أتَى بهِ وأبانَهْ
وتَهنّأْ منْ قَبْلِ ذلكَ فتحًا ... قَرَّبَ الدّهْرُ وقتَه وأوانَهْ
لا تَسَلْ عَنْ سِواهُ إذْ سَوفَ تُلْفِي ... حبلَ الفَتحِ تابعًا شمانَهْ[138]
قَدْ عَلِمْتُمْ والشّعْرُ أصْدقُ فألاً ... ما دَعَا المُصْطَفى لهُ حَسَّانَهْ[139]
دونَ مَوْلايَ من نِظامِيَ خَوْدًا ... فَذَّةَ الحُسْنِ والحُلَى فَتّانَهْ
راقَ منها بالمَدْحِ فيكَ بيَانٌ ... أفْقُ الطّرْسِ مُطْلِعٌ شُهْبانَهْ
أنا عبْدٌ عدَتْهُ نُعْماكَ حَتَّى ... رفَعَتْ قدْرَهُ لديْكَ وشانَهْ

---

(136) العرب : المعرب
(137) الشوابي . نوع من المراكب البحرية، وكذلك الأحماد الأولى في البيت قبله.
(138) حبل الفتح هو حبل طارق وشمانه هي Jimena القريبة منه.
(139) يشير إلى قول النبي ﷺ لحسّان بن ثابت

نِعمَةٌ منكَ لِي بِأَنَّ نِظامِي ... زَهَرٌ تجتَلي النُّهَى بسْتانَهْ
أيُوَفَّى عَلَيْكَ حُسْنُ ثَناءٍ ... وَبِهِ اللهُ مُنزِلٌ فُرْقانَهْ
دُمْتَ والنّصْرُ عِند بابِكَ رَكْبٌ ... يَجْذُبُ السَّعْدُ نحْوَهُ أَرْسانَهْ

وقُلْتُ عِنْدَ وُصولِ البَشيرِ منَ السَّيِّدِ الأمِيرِ أبِي الحَسَنِ وَصَلَ اللهُ عزّه بدخولِهِ جَبَلَ الفَتْحِ عَصَمَهُ اللهُ في يَوْمِ السَّبتِ السَّادسَ عشَر لِجُمَدى الأولَى عام سَبْعَةَ عَشر وثماني مائة ودُخولِهِ يوَمَ الجمعَةِ قَبْلَهُ قصيدة نصها[140]

66 - تَجَلَّى صَباحُ الفَتحِ من جَبل الفَتحِ ... فَهنّئْتَها بُشْرى تَجِلُّ عَن الشَّرحِ
هو الصُّنعُ صُنعُ اللّهِ حيَّاكَ أفْقُهُ ... بوكّافِ غيْثٍ طالَما ضَنَّ بالنّضْحِ
كما راقَ نُورُ البَدْرِ بَعْدَ سِرارِهِ ... وعادَ لِحُسْنِ النّظْمِ مُنْتَثِرُ الوُشْحِ
وما عَاوَدتْهُ دَعْوةٌ يوسُفِيَّةٌ ... ولكِنّها روحٌ أُعيدَتْ إلى شَبْحِ
عَقيلَةُ حُسْنٍ طارَدَتْ بوصالِها ... لِتعْظُمَ بَعْدَ المَنعِ فائِدَةُ المَنْحِ
فَبُشْرَى بهذَا الصُّنْعِ يا مِلكَ الهُدَى ... وهُنّئْتَ هذا الفَتحَ يا جَبلَ الفَتحِ
فَلوْلاهُ كانتْ لِلْعِدَى فيكَ أسْرَةٌ ... تَروحُ إلى قَسٍّ وتغدو إلَى فِصْحِ[141]
تَجَلَّى مُعِزُّ الدَّوْلَةِ الأكْرَمُ الرِّضَى ... بمَرْقَبِكَ المَشهورِ من جانِبِ السَّفْحِ
لَكَ الدوْلَةُ العُلْيا عَلَيَّ معِزُّها ... بهذَّ الذي أعْلتْ يَدُ البغْيِ من صَرْحِ
فيا مَلكًا يسْتَقْبِلُ النَّصْرَ عَزْمُهُ ... وما الفَجْرُ إلاّ أن يدُلّ عَلى صُبْحِ
فأجْهَدَ نفْسًا في رِضاكَ زكِيَّةً ... تجاهِدُ مَن قدْ حادَ عنْ سَنَنِ النصْحِ

---

(140) أبو الحسن هو معر الدولة علي أخو يوسف الثالث، وفي هده القصيدة قوافٍ من العريب، وقد اكتفيا بشرح بعضها.

(141) الفصح عيد معروف من أعياد النصارى.

بكلّ كَمِّي حينَ يدْعَى إلى الوَغَى ... فَغَيْرُ جَزوعٍ في الحُرُوبِ ولاَ طِلْحِ[142]

وأتْبَعْتُهُ غرَّ الكَتائِبِ مُنْعِمًا ... فكَمْ حَلَّ من سَفْحٍ بما هَزّ من صَفْحِ

فمَا قَصرتْ فيه الحيادُ عن المَدَا ... ولاَ نُهْنِهَتْ أسْدُ الرجالِ عن الكَفْحِ

وقدْ نشأتْ للنَّقْعِ فيهِمْ غمائِمٌ ... وما أمْطَرَتْ إلاَّ سِهامًا إلى النضْحِ

إذا أظْمأ الرَّوْعُ الجوانِحَ خِلْتَها ... تُزادُ فتستَسْقِي، تَراعُ فتَسْتَصْحِي

وأرْسَلْتَ فوْقَ البَحْرِ أجفانَكَ التي ... بِها حَركاتُ الرَّفْعِ تُبْنَى عَلى الفَتْحِ

سَوابِحُ تُغْنِي حين تَجْنَحُ لِلعِدَى ... بأجْنِحَةِ النّصْرِ العَزيز عنِ السّبْحِ

كأنّ ظِباء القفْرِ ضَلّتْ فأتْلَعَتْ ... هوادِيَ بيْنَ الأيْكِ والبان والطّلْحِ

وقدْ كُسِيَتْ مِن دامِسِ القارِ صِبْغَةً ... كما التَفّتِ الرُّهْبانُ في خَلقِ المِسْحِ

وَتَشْدو طُيورُ اليُمْنِ فيها وإد عَدَتْ ... خُطوبًا عَلى الأعْداءِ رائِعَةَ الفَدْحِ

يُبَدِّدُ شَمْلَ المُعْتَدِينَ آجْتِماعُها ... فذاكَ إلى صَدْعٍ وتِلْكَ إلى صَدْحِ

إذا جَمَعَتْ طوْعَ السِّباقِ جِيادُها ... فمَا تَنْثَنِي منها الأعِنَّةُ بالكَبْحِ

وفي مجْمَعِ البَحْرَيْنِ قَوْمٌ تمَنَّعوا ... زَمانًا ونارُ البَغْي مشْبوبَةُ اللَّفْحِ - 67 -

فكَمْ مُعْتَدٍ منهُمْ وخافِرِ ذمَّةٍ ... عَلى قلبِهِ غَيْم من الجَهْلِ لاَ يُصْحِي

غَدا خابِطًا عشْواءَ في ظُلمِ الرّدَى ... فلا جَوُّهُ يُصْحِي ولا لَيْلُهُ يُضْحِي

سَقَتْهُ صروفُ الدَّهرِ صِرْفَ مُدامِها ... فيا قدَحًا جَلتْ حُلاهُ عَنِ القَدْحِ

لقدْ قصَّدَتْ رُمْحَ الضّلالِ عزائِمٌ ... مقاصِدُها أضْحَتْ سَبيلاً إلى النُّجْحِ

لئِنْ كَدحُوا خَفْرًا لِذمّة مُنْعِمٍ ... فيا خَيْبَةَ المَسْعَى ويا ذِلَّة الكَدحِ

وطافَ من الشّيْطانِ في القوْمِ طائِفٌ ... لما عَزَّ منْ خَطْبٍ وما مَسَّ منْ قَرْحِ

وما حُلَّ منْ عَقدٍ وعُجِّلَ منْ أذًى ... وبُدِّدَ من شمْلٍ ورُوِّعَ منْ سَرْحِ

فاطْلعْتَ فيهِمْ من جُنودِكَ أنجُمًا ... تجَلَّتْ وليْلُ الرّوْعِ منْسَدِلُ الجِنحِ[143]

---

(142) طلح : ضعيف.

(143) الجنح : الجناح.

لِمَا شُدَّ من أزْرٍ وشُيِّدَ مَن حِمًى ... وما راقَ مِن صُنْعٍ وما بانَ من نُجْحِ

وما عَمَّ من أمْنٍ وما لاَحَ من هُدًى ... وما اعْتَرَّ من نصْرٍ وما فاز من قِدْحِ

لقَدْ طَرَقَتْهُمْ في مَنازِلِ طارِقٍ ... كَتائِبُ لا تنجي ولكنّها تُنْجِي

فألْقَوْا يَدَ التسْليمِ طَوْعًا ولم يكُنْ ... لِيَنْقادَ نَاغِيهِمْ إلى السِّلْمِ والصُّلْحِ

وجادوا بمَا ضَنُّوا بهِ ولَطالَمَا ... تعَدَّوا بمَا اعْتادُوهُ مِن عادَةِ الشُّحِّ

وهَيْهاتَ عَن طَوعٍ يَجودُ بواكِفٍ ... من العَيْتِ لِلوُرَّادِ مِنْ صَنَّ بالنَّشْحِ[144]

لقَدْ كَشَفَتْ عن سَاقِها الحَربُ وانشَتْ ... كَما صَدَرتْ بِلْقِيسُ عنْ لُجَّةِ الصَّرْحِ[145]

وقَدْ وَضَعَتْ أوْزارَهَا بَعْدَ عَزْمَةٍ ... ثَنَتْ مِنهُمُ الأكْبادَ دامِيَةَ الجُرْحِ

فللّهِ منها حينَ تابُوا وأصْلَحُوا ... صِفاحٌ ثَنَتْها عنْهُم عادَةَ الصَّفْحِ

فما شُرِعَتْ سُمْرٌ تَرى الطَّعْنَ شِرْعَةً ... ولاَ أعْمِلَتْ بِيضٌ تُوَكِّلُ بالمَسْحِ

مَآثِرُ مَوْلًى جادَ حِلْمًا ورأفَةً ... بمَا لَمْ تجُدْ يوْمًا بِهِ راحَةُ السَّمْحِ

وأوْلاهُمُ النُّعْمَى عَلى طوُلِ فَتْرَةٍ ... همى ديمَةٍ سَحٌّ على ظمإٍ نَرْحِ

وكَفٌّ تكُفُّ المُعْتَدِينَ وبائِلٍ ... يجودُ على القصَّادِ بالوابِلِ السَّحِّ

تَرَدَّدُ بين السَّيْفِ والسَّيْبِ كَفُّهُ ... لِمَا شئتَ من مَنْعٍ وما شئْتَ من مَنحِ

فَجودٌ كَما جادَتْكَ واكِفَةُ الحَيا ... وهَدْيٌ كَما حَيَّتْكَ طالِعَةُ الصُبْحِ - 68 -

فَطَلْعَتُهُ تحْكي لَنا صورَةَ الضحَى ... وَعزْمَتُهُ تَتْلو لهُ سُورَةَ الفَتْحِ

فيا شُهُبَ الهَدْيِ استَبِينِي بأفْقِهِ ... ويا سُحُبَ الإنْعامِ مِن كفّه سُحّي

وكَم مِنْ جهادٍ مجْهِدٍ نفْسَهُ التي ... مَتاجِرُها في الله نامِيَةُ الرِّبْحِ

عَواليهِ في النَّقْعِ المُثارِ تخالُها ... كَواكِبَ تَبْدو لِلدُّجُنَّةِ في جنْحِ

وأسْيافُهُ تُبْدِي إذا احْتَدَمَ الوغَى ... من اللّمْعِ ما يَحْكِي البَوارِقَ في اللَّمْحِ

---

(144) النشح : الماء القليل.

(145) يشير إلى ما ورد في سورة النمل عن بلقيس : «قيل لها ادْخلي الصّرح، فلمّا رأتهُ حَسِبَتْه لُجَّةً وكَشَفَتْ عنْ ساقيها».

فلاَ تَرْقَ إلاّ ما جَلاَ الغِمْدُ مَتْنَهُ ولا نجْمَ إلاّ ما عَلاَ عامِلَ الرُّمْحِ
تَصولُ عَلى الأعْداءِ حيْثُ نَجيعُها مَوارِدُ يُذْكِي وِرْدُها لاَعِجَ البَرْحِ
أمَـوْلاَيَ خُدْهَـا لِلهَـاءِ حَديقَـةً مُهَدَّلَـةَ الأدْواحِ صَيِّبَـةَ النَّفْـحِ
تُريكَ من النّظْمِ البَدِيعِ قَلائِـدًا من الدُّرِّ تُزري بالقلائِدِ والفَتحِ[146]
عَلى أنّي قصَّرتُ في وَصْفِكَ الدِي هُوَ البَحْرُ لا يفْنى على كثْرةِ المَتْحِ
إدا اللهُ قد أتَى عليْكَ فمَا الدي يُوَفّيهِ عبْدٌ من عبيدِكَ بالمَدْحِ

وعِنْدَما احْتَلَّ رِكابُهُ العَلِيُّ اليوسُفِيُّ إثْرَ ذلِكَ بجَبَل الفَتْحِ.
قلتُ أصِفُ الحَالَ في السَّادِسِ والعشْرينَ لِجُمدى الأولى من العام.

نَفَّـرَتْ نَـوْمَكَ الظِّبـاءُ الأوانِسْ ونأتْ وَهْيَ في الضلُوعِ كَوانِسْ
وانْثَـنَتْ لِلـوداعِ ثـمَّ تَـولَّتْ فغَدَا القَـلْبُ بَيْـنَ راجٍ وَآيِسْ
أيْنَ رَبْعُ الحِمَى سَقَى فيهِ عَهْدًا قَدْ أَلِفْنـاهُ كُـلَ عهْـدٍ بـاحِسْ
معْهَـدُ الأنْسِ لِلصِّبـا والـتّصابي باعِثُ الوَجْدِ عِندَهُ الفِكْرُ هاجِسْ
إذْ تجَلَّتْ مِن الخُـدورِ بـدورٌ فانجَلَتْ فيهِ من دُجاها حَنـادِسْ
وانثَنى الطَّبْيُ فيهِ غيْر مَـرُوعٍ يَتْـرك الصَّبَـرَ سارِدًا وهْـوَ آنِسْ
مُجْتَلًـى رائِـق وطَـرْفٌ كَحيـلٌ وقَـوامٌ لَـدْنٌ وعِطْـفٌ مـائِسْ
أوُحـوةٌ أمِ البُـدورُ تجَـلَّتْ وقُـدودٌ أمِ الـغُصونُ مَـوائِسْ
وخُدودٌ يُحْنَى بِهَا الوَرْدُ لَـولاَ أنْ علَيْهـا من العُيونِ حَـوارِسْ - 69 -
وعُيـونٌ تُصيبُ كُـلَّ مُعَنًّـى فكِلاهَا مَا بَيْـنَ رامٍ ورامِسْ[147]
فعْلُها في القُلـوبِ إن لَحَظَتْهـا أيْـنَ منهُ فعـلُ الكَمِيِّ المَمَـارِسْ

(146) القلائد الثانية والفتح يشير بهما إلى كتاب قلائد العقيان للفتح ابن خاقان.
(147) في الأصل : فكلا. ويبدو أنّ الناسخ سمع ها، وحقها أن تكون : فكلّها، ولكن الورد لايقبلها، ولها وجه. ورامس من الرمس وهو الدفن أو الرمي.

قدْ هَدتْ لِلغرامِ وهْيَ حَيارَى ... وأتَتْ بالسُّهادِ وهْيَ نَواعِسْ
ولقدْ جَدَّدَتْ هَوايَ فَتاةٌ ... تَرَكَتْ أرْبُعَ السُّلوِّ دَوارِسْ
فالذي قاسَيي بقَيْسٍ وقدْ ها ... مَ بِلَيْلاهُ مُخْطِىءٌ في المَقايِسْ
آهَ يا راكِبَ المَطِيَّةِ يَبْغِي ... معربَ الشَّمْسِ قِفْ بها واسْتانِسْ
ولْتَسَلْ عن مازِلِ القَوْمِ حَلُّوا ... بيْنَ بَحْرٍ طامٍ ورَبْعٍ طامِسْ
أصْبَحوا والقِبابُ فيها صُدورٌ ... وَهُمُ كالظُّنونِ فيها هَواجِسْ
فإذا ما العَمامُ حادَ بمَاءٍ ... خِلتَ فيهَا الرِّمَالَ وَهْيَ مَقابِسْ
أُفُقٌ تَبْسِمُ البَوارِقُ فيه ... لِدُموعٍ من الغَمامِ بَواجِسْ
وكذا يوسُفٌ لَدَى الرَّوْعِ يُلْفَى ... بَاسِمَ الثَّغْرِ والوُجوهُ عَوابِسْ
جَبَلُ الفَتْحِ قدْ حَلَلْنا لَدَيْهِ ... طَلَلاً موحِشًا بها مُسْتانِسْ
يعْذُبُ الوِرْدُ فيهِ وهْوَ عَذابٌ ... مُرْسَلٌ للغَليلِ في القَلْبِ حابِسْ
بِمجانِي الفَتحِ التي قدْ أُتيحَتْ ... لِجوادِ المجالِ بَدْرِ المجالِسْ
مَلكُ العُدْوَتَيْنِ شَرْقًا وغَرْبًا ... مَن يُضاهِيهِ في العُلَى أوْ يُنافِسْ
يوسُفٌ ناصِرُ الخلائِفِ حَقًّا ... مَن يُجارِي خِلاَلَهُ أوْ يُجابِسْ
يُنجِزُ الوَعْدَ والزَّمانُ خَؤُونٌ ... ويُوَفّي الحُقوقَ والدَّهْرُ باخِسْ
إنْ طَغَى مُعْتَدٍ وصوَّحَ مَرْعًى ... أسَدٌ عابسٌ وغَيْثٌ بَاجِسْ
صابَ غَيْثًا وصَالَ لَيْثًا وحَيًّا ... صَبْحَ هَدْيٍ يجْلُو الخُطوبَ الروامِسْ
لِعَواليهِ في المَعالِي حَديثٌ ... صَحَّ إسْنادُهُ لأيْدِي الفَوارِسْ
يتَثَنَّى الخَطِّيُّ مِنها فَيجْلو ... ظُلَمَ الرَّوْعِ منْهُ جِذْوةُ قابِسْ
وكذا سَيْفُهُ نَحيلٌ ولكن ... تتجافَى عهُ الأسُودُ العَوابِسْ
رَقَّ حَتَّى كأنَّ منْهُ بصدْرِ الـ ... ـعِمْدِ لوْ لمْ يَشِمْهُ سِرٌّ هاجِسْ - 70 -
هو فجْرٌ يجْلو الدَّياجي مُنيرٌ ... ومُثيرٌ من العَجاجِ حَنادِسْ
فَيُريكَ الصَّباحَ واللَّيْلُ داجٍ ... ويُعيدُ الظَّلامَ واليَوْمُ شَامِسْ

كَم جُمـوعٍ لِلغادِريـنَ تَـلاشَتْ ... في مَجالِ الأُسودِ مِنْهُمْ هَجارسْ[148]

قـدْ أفاقُوا مـنْ غفْلَـةٍ كان فيها ... ناظِـرُ الدَّهْـرِ عنْهُـم مُتَنـاعِسْ

ما لهُمْ والكَرَى لَدى الأسْدِ الوَرْ ... دِ الـذي تتَّقِـي سُطـاهُ الكَـرادِسْ

دانَ بالغَـدْرِ منهُـمُ كـلُّ بَـاغٍ ... حيْثُ أمْسَى وَهْوَ الشَّقِيُّ البـائِسْ

حَـرَّ ذيْـلَ الغُـرورِ والتّيـهِ حَتَّـى ... خَلَعَ الدَّهْرُ عنـهُ تِـلكَ المَـلاَبِسْ

مَن غَدا المَكْرُ فيه طبْعًا يُنافِـي ... شِيَـمَ المَكْرُمـاتِ كيْـفَ يُنـافِسْ

حَالِكَ الرَّأيِ تحْتَ بيضٍ مَواضٍ ... يَنتنِـي وهْـوَ بيْـنَ دامٍ ودامِسْ

فَهُـدَى اللّهِ قـدْ تَحامَـى حِمـاهُ ... ومَـدا الحتْـفِ قَرَّبتْـهُ المَـداعِسْ

يوسُفٌ نَاصِرُ الهُـدَى كَـفَّ مِنْـهُ ... كَفَّ نـاهٍ عـنِ المَكـارِمِ نَـاهِسْ

يـا إمامًـا بِذِكْـرِهِ يَتَحَلَّـى ... ما عَـلاَ مـنَ مَنابِـرٍ ومَـدارِسْ

جَبَـلُ الفَتْـحِ قـدْ أتَـيتَ يُـوالي ... جُنْـدُكَ السَّيْرَ نحْـوَهُ ويُـوالِسْ[149]

وأحَـاطَتْ بِـهِ كَتـائِبُ تُنْمَـى ... لِعُلَـى اليُوسُفِـيِّ غُـلْبٌ أشَاوِسْ

نَـذَلَتْ في رِضَى عُـلاكَ نُفـوسًا ... قدْ أبَتْ أن تَذِلّ وهْـيَ نَفـائِسْ

وجَـلَتْ أوْجُـهُ الحُـروبِ عَلَيْـهِ ... أيْنَ مِنها حُروبُ جَلوَى وداحِسْ[150]

طالَمـا كان في نعيـمٍ مُقيـمٍ ... وعَلَيْـهِ مِـن ظِـلِّ أمْنِكَ حـارِسْ

تأْلَـفُ السُّهْـدَ كَـيْ تؤمّـنَ مِنْـهُ ... في رِضَى اللّهِ كُلّ جَفْنٍ نـاعِسْ

صارَ إرْثًـا مِـنَ العَنِـيِّ لِعَلْيَـا ... ئِكَ مـا شَادَهُ عَلِـيٌّ وفـارِسْ[151]

وقَضَى اللّـهُ أن تنكّـرَ حِينًـا ... طَوْعَ حادٍ في القَوْمِ للمَكْرِ حادِسْ

---

(148) هجارس جمع هجرس وهو القرد والثعلب.

(149) يوالس : يخادع. وياهس في قافية سابقة مثل ياهش وربا ومعنى.

(150) داحس فرس لقيس بن زهير قامت بسببها حرب دامت أربعين سنة بين عبس وذبيان أما حلوى فهي أم داحس.

(151) العني هو العني بالله محمد الخامس وهو الذي انتزع حبل طارق من يد بني مرين وعلي هو أبو الحسن المريني وفارس هو ولده أبو عنان.

كُلُّ هـذا لأن يُـرَى لكَ مِلْكًـا برقـاقٍ فَـوارِتٍ وفَـوارِسْ
وتُوقّـي الحُطـوبَ وَهْـيَ عَـوادٍ وتوَفّي الحُقوقَ وهْـيَ نَـواخِسْ
هَـدِهِ مِنْحَـةٌ أعَـزُّ وأسْنَـى كـلُّ مَـلْكٍ منها حِـلافكَ آيسْ - 71
كُـلُّ مَـنْ أمَّهـا ورامَ سِباقًـا في مداها لِقَصْدِه الدَّهرُ عـاكِسْ
طالَمـا رَوَّعَ الحوادِثَ قهْـرًا دو أناةٍ لِلامَـة الصَّبْـرِ لاَبِسْ
ولكَـمْ بِتَّ إذْ خَلَـلْتَ حِمـاهُ كافِيًـا مِـن مُنافِـقٍ وَمُنـافِسْ
بِمُعـاطٍ كاسَ الحُتـوفِ عِـدَاهُ مُرْعِمٍ بالفتُوحِ منهُـمْ مَعـاطِسْ
وخَميسٍ حَفُّوا بِهِ حيْثُ يُرْحَـى مَـوْرِدُ الأمْـنِ كَالعِشار الحَـوامِسْ
وتَلقّـوْكَ والعُيـود تُوالِـي نَظَـرَ الخَوْفِ والرَّجـا وتُخـالِسْ
دبهُـمْ يُـوحِشُ النفـوسَ ولكـنْ مـلكَ بالحِلْمِ والرِّضَى تَسْتـانِسْ
فتَحَلَّـى صَبـاحُ عَفْـوِكَ يَمْحـو من دُجَى الذَّنْبِ كُلَّ لَيْلٍ دامِسْ
وهَمَى مِـن نـدَاكَ صَوْبُ غمَـامٍ أيْنَ مِنْهُ نَدَى الغُيـوتِ الهَـواجِسْ
وأخـوكَ المُعِـزُّ أيْـنَ حُـلاهُ في العُلَى مِنْ حُلا المُعِزِّ بنِ بادِسْ(152)
جَـدَّ لِلفَتْـحِ في رِضـاكَ فكَـمْ حَـ ـدّدَ لِلنّصْرِ مِنْ عُهودٍ دَوارِسْ
فَهَنيئًـا لَكَ الحُلـولُ بأُفـقٍ في مَعاليـهِ مَالـهُ مِـن مجانِسْ
غرَسَ الجُودُ مِنْكَ دَوْحَةَ عِـزٍّ وستَحْمِي ما جُودُ كَفّكَ غـارِسْ

وَقلتُ فيمَا يَظْهَرُ مِنْها في الخامِسِ والعِشرينَ لِرَمضانَ عام سَبْعَة عَشر وثمَاني مِائة

هَنيئًا بِصُنْعٍ حَوَهُ النصْرُ قدْ خَطا تَرامَى لهُ سَبْعًا وما قَصَرَ الخُطَا

(152) المعز الأول هو أبو الحسن علي معز الدولة أحو يوسف الثالث والمعز بن باديس الصنهاجي ملك افريقية ولد سنة 398 وتوفي سنة 454 انظر ترجمته في وفيات الأعيان 5 : 233 ــ 235 وتبدو صيغة المقايسة مقلوبة إذ أن الشاعر يقصد تفضيل معز الدولة على المعز بن باديس.

وأقْبَلَ طَوْعَ الفَتحِ لاَ مُتوانِيَا عنِ الغَرَضِ الأقْصَى ولاَ مُتَنَشِّطَا
بضاعَتِكَ اعْتَرَّ المُلوكُ فَبادَرُوا سِراعًا إلَى مَا شِئْتَهُ ليْسَ بالبطَا
وأيُّ غَمامِ الأفْقِ ليْسَ يُمِدُّهُ نَدَى يَدِكَ العُلْيَا بِبَحْرٍ منَ العَطَا
بِذِكْرِكَ حادِي الرَّكْبِ في اليدِ قد شَدا فَحَلَّى بِهِ الأسْماعَ دُرًّا وقَرَّطَا
ومَن كابَسَ بصْرٍ مُنْعِمًا مُتَطَوِّلاً يجودُ ويُجْدِي رأْفَةً وتَبَسُّطَا - 72 -
إذا عَسَ الرَوْعُ اغْتَدَى مُتَسَنِّمًا وإنْ قُبضَتْ أيْدِي النَّدَى مُتَسَطِّطَا
رَوى جودُهُ عَنْ كفِّهِ صِلَةَ النَّدَى فَللهِ ما يَرْوِيهِ عَن وَاصِلٍ عَطَا[153]
وإنْ عَدلَتْ عن مَنْهَجِ الحَقِّ أسْرَةٌ غَدَا حُكْمُهُ بالسَّيْفِ والسَّيْبِ مُقْسِطَا
بِعَزْمَتِهِ حاطَ البلادَ فَما يُرَى بأعْطَفَ مِنهُ في المُلوكِ وأحْوَطَا
رؤوفٌ عَطوفٌ معِمٌّ متَفَضِّلٌ كَريمٌ حَليمٌ يعفِرُ العَمْدَ والحَطَا
هوَ العادِلُ الأرْضى هُوَ الحكمُ الذي إذا قَسَطَ الأملاكُ في الحُكْمِ أقْسَطَا[154]
يَضِلُّ مُساوِيهِ وإنَّ يَمِينَهُ لأهْدَى لِطُرْقِ المَكْرُماتِ من القَطَا[155]
وكَمْ قد سَرى يسْتَقْبِلُ النصْرَ عَزمُهُ سُرًى ليسَ يُلْفَى للعَدُوِّ بِها سُطَا[156]
يَنالُ المعالِي بالعَوالِي سِوَى الذي عَلا صَهْوَةَ الأحْطارِ لِلعِزِّ وَامتَطَا
ومَن حَطَبَ العَلْياءَ بالسُّمْرِ والظُّبَا ويمَّمَ أقْصاهَا أُيبغِي تَوَسُّطَا
فَلا صارِمٌ إلاَّ إلى النَّصْرِ مُنْتَضًى وَلاَ صاهِلٌ إلاَّ إلى العِزِّ مُمْتَطَا
عَرائِمُ لَوْ أعْمِلْنَ للبَدْرِ ما ارتَقَى وللبَحْرِ مااسْتَعْصَى وللدَّهْرِ ما سطَا
تهُبُّ إلَى دَاعِي الرَّشادِ حيَادُهُ بأسْرَعَ مِن لَمْعِ البُروقِ وأنْشَطَا
فَمِنْ أشْهَبٍ كَالصُّبْحِ إذْ تَبِعَ الدُّجَى وَغَادَرَ مِنْهُ الْفَوْدَ بالفَجْرِ أشْمَطَا[157]

(153) واصل وعطاء من اسماء رواة الحديث، وقد وزّى بهما الشاعر عن الوصل والعطاء.

(154) قسط حار وأقسط : عدل

(155) أهدى من القطا مثل معروف، وقد استعمله الشاعر في غير ما استعمله الذي يقول :
تميمٌ بطُرْقِ اللُّؤْمِ أهْدى من القطا ولَوْ سلَكتْ سُبْلَ الرَّشادِ لضَلَّت

(156) سطا جمع سطوة.

(157) أشمط : أبيض.

وأدْهَمَ يَحْكِي والصَبَاحُ حُجولُهُ ... دُجَى والثُرَيَّا حَلْيُهُ حِينَ يُمْتَطَا

بعُلْياهُ تاهَ الطِرْفُ وارْتاحَ عِندَما ... غدَا مُفْرِجًا خَطبًا من الرَوْعِ مُفْرِطَا

فلمْ يَرْضَ في نَهْرِ المجَرَّةِ مَوْردًا ... ولاَ بإزاءِ الانْجُمِ الزُّهْرِ مَرْبِطَا

ومَن كابْنِ أنصارِ الرسُولِ الذي هَدَى ... إلَى الرُّشْدِ مَنْ ضَلّ السَّبيلَ وَخَلَّطَا

ومَنْ جَعَلَ الرُّوحَ الأمِينَ مصاحِبًا ... إذا هُوَ نَاجَى والبُرَاقَ إن امْتَطَا

وَطابَتْ إلى يوْمِ القِيامَةِ طيْبَةً ... بهِ عِندَما آوَى إلَيْها وافْرَطَا

فأضْحَتْ حِلالاً طالَمَا اغْتُفِرَتْ بِهَا ... خَطايَا البَرَايَا إذْ لَها تُعْمِلُ الخُطَا

وأُفْقًا إلَى الذّكْرِ الحَكيمِ ومَطْلِعًا ... ومَرْمًى إلى الوَحْيِ الكريمِ وَمَهْبِطَا

فهمْ نصَرُوهُ حيـنَ آوَى إلَيْهـمُ ... وكَفُّوا الغَوِيَّ المسْرِفَ المتَخمِّطَا(158) - 73

فكُلٌّ يُرَى حيْثُ الذّوابِلُ تَنْثَنِي ... لِلقْيَا الأعادِي منشِطًا ومُنَشّطَا

وكُلٌّ يُرَى حيْثُ الصّوَاهِلُ تَرتَمِي ... لهَا في رِضاهُ مُفْرطًا لاَمُفَرِّطَا

وقَيْسُ بْن سَعْدٍ لمْ يَدَعْ مُتَخَلّفًا ... بكُفْرٍ عن الدّينِ الحَنيفِ مُخَلِّطَا

إذَا حادَ عن نهْجِ الهِدايَةِ مُلْحِدٌ ... تَمادَى علَى الحَقِّ المُبينِ وَاغْبَطَا

وإن مالَ في الرَّوْعِ المروعُ أقامَهُ ... وثَبّتَ من يبْغِي الفِرارَ وَثَبَّطَا

وقَدْ أنْجَبُوا من ناصر الدّينِ يُوسُفٍ ... إمَامًا يفوق السُّحْبَ في البَذْلِ والعَطَا

تَرَى نورَ مَرْآه وَجُودَ يمِينِهِ ... إذَا البَدْرُ حَيَّا أوْ إذَا الغيثُ أفْرَطَا

وإن قَبَضتْ يُمْناهُ سَيفًا قَضَتْ بأنْ ... يَمُدَّ ظِلالَ الأمْنِ فينا ويَبْسُطَا

وإن أرْسَلَتْ في حَوْمَةِ الحَرْبِ ذابِلاً ... تَتَبَّعَ من لَمْ يَبْغ عنهُ تَثَبُّطَا

يضيقُ مجالُ الفَوْزِ عنْ كُلّ مُعْتَدٍ ... إذا هُوَ لِلْخَطّيِّ قد فَسَحَ الخُطَا

فلِلّه أعْمالُ العَوامِلِ في الوَغَى ... لقَدْ أمِنَتْ من أن تُراعَ فَتَحْبَطَا

وقدْ صُفّتِ الأبْطالُ حيثُ سُطُورُها ... تُخَطُّ فَتَثْنِي الخَطَّ لِلهَامِ مَسْقِطَا

---

(158) المتحمّط : الثائر.

سُطورٌ عَلاَ حَدُّ الحَسَام حُروفَها لِيَسْكُلَهـا والسَّمْهَـرِيُّ لِيَنْقُطَـا[159]

ويَحْيَى الذِي قدْ فَرَّقَ اللَّهُ جَمْعَهُ فَفَرَّ إلَـى أقْصَى البِـلادِ وَفَرَّطَـا[160]

وكانَ لَمَـولاهُ حُقـوقٌ عَظيمَـةٌ عليْهِ وجَـلَّتْ أن تُضاعَ وتغْمَطَـا

ولكنَّ مـنْ تُرْضيـهِ أفْعـالُ غَـدْرِهِ إذا رامَ انْ يرْضِي اللّهُ أسْخَطَا[161]

فلاَ أمَـلٌ مِـن قَبْـلُ إلاّ مُخَـيِّبٌ وَلا عمَلٌ من بَعْـدُ إلاّ وأُحْبِطَـا

فقدْ غَادَرَتْهُ حالُـهُ واهِـيَ القُـوَى وفِي وَحَـلٍ مـنْ غـدرِهِ مُتَوَرِّطَـا

وأظهَر تَقْوَى اللهِ حِينًا وقدْ غَدَا لَئيمًا ذَميمًا فائِلَ الـرّأي امْعَطَـا[162]

وخَـادَعَ بالرُّجْعَـى إلَيْـهِ فَعِنْدَمَـا تَـروَّعَ فِي نـارِ الجَحيـمِ تَوَرّطَـا

ونَـادَى عَلى بُعْـدٍ أخـاهُ فجـاءَهُ وحَلَّ حِمَاهُ بَعْدَما كانَ أحْلَطَـا[163]

لقَدْ خَبَطَا عشْواءَ إذْ خَطَبَا التي بها كُلُّ شَرٍّ فِي الوُجـودِ تَأَبَّطَـا

يَرومـانِ بالغَـدْرِ اهْتِـداءً وإنَّـهُ لَيَقْضِي دُجـاهُ أن يَتيهَـا ويخْبِطَـا - 74 -

وأُذْكِي سِقْطُ الزَّنْدِ في الفتْنَة التي قَضتْ بعْدُ فيهَا أنْ يَدِلاّ وَيُسْقُطَا

وخَطَّتْ بِهُجْرِ القَوْلِ شُلَّتْ يَداهُمَا وما عَرَفَا خطًّا ولاَ تَرَكَا خَطَـا

فقالَ لسَانُ الخَطْبِ إذْ جارَ فيهِمَا ألا فاخْطُبَا إن شِئْتُمَا اليَوْمَ واخْططَا

أتَى بهِمَا المِقْدارُ قَسْرًا إلى الرَّدَى وقدْ أُنْشِطَ المَغْرورُ منْ حَيْثُ أنشِطَا

فَظَنّ بأنَّ الأرْضَ تحْمِي ذمَـارَهُ فأصْبَحَ فيهَـا نادِمًا حِينَ أهْبِطَـا

فبُشْرَى بهَا أسْرار غيْبٍ تحَجَّبَتْ بنَيْلِ المُنَى عنْهُنَّ قدْ رُفِعَ الغِطَا

ودُونَكَ يـا مَـولاَيَ مِنهَـا قَوافِيًـا تُؤَمِّلُ حَظًّا مِـن قَبُـولِكَ مُنشِطَـا

فَحَظِّـيَ لِلأَطْمَـاعِ أمْسَى مُقَرِّبـاً ولفْظِـيَ لِلأسْمـاعِ أمْسَى مُقَرِّطَـا

---

(159) السَّمْهري : الرّمْحُ الصلب. وفي الأصل، والسمهدي وهو تحريف.

(160) راجع ما كتبناه في المقدّمة حول يحيى هذا.

(161) الشطر الأخير مكسور، ولعله هكذا : إذا رامَ أنْ يَرى رِضَى الله أسْخَطا.

(162) أمْعَطُ : حيث.

(163) أحْلَطَ : تَرَدّدَ.

بقيتَ تُبيدُ الكُفْرَ ما وَضَحَ الضُّحَى ومَا قَطَعَ البَيْدَاءَ للمَوْرِدِ القَطَا

وَمِنَ العِيدِيَّاتِ

قُلْتُ أُهَنِّيءُ الخِلافَةَ اليوسُفِيَّةَ النَّاصِرِيَّةَ أدَامَ الله أيَّامَها بعيد الفِطْرِ منْ عامِ أحَدَ عَشر وثمَاني مِائة وَهِيَ أوّل عِيديَّةٍ هَنَأتُهُ بِها مِنْ غَيْرِ إنْشَادٍ[164]

أمِنْ بارِقٍ في الدُّحَى أوْمَضَا حَنَنْتَ إلى دكْرِ عَهْدٍ مَضَى
كأنَّ تألُّقَهُ مَوْهِنًا شِهابٌ إلى الرَّحْمِ قدْ قُيِّضَا[165]
كأنَّ الدُّحَى سَلَّ رَنْحِيُّهُ حُسَامًا عَلَى أُفْقِهِ وانتَضى
كأنَّ سَنَا الزهْرِ أرهَارَ رَوْضٍ مِنَ النَّوْرِ بالنُّورِ قدْ عُوِّضَا
كأنَّ طَوالِعَ شهْبابِها طَلائِعُ شُهْبٍ مَلأْنَ الفَضا[166]
كأن بها القَلْبَ قَلْبٌ مَتوقٌ تَقَلَّبَ في حَمَراتِ الغَضَى - 75
كأنَّ بها النَّسر قُصَّ الجناحُ لَهُ عِنْدَمَا رامَ أن ينْهَضَا
كأنَّ أخاهُ أخو لَوْعَةٍ فَلا هُوَ أعْفَى ولاَ غَمَّضَا[167]
كأنَّ السُّهَى حَبرٌ هاجِسٌ بصَدْرٍ أسَى السَّمْعُ أنْ يُرْفَضَا
كأنَّ الهِلالَ عَلى أدْهَمٍ مِنَ اللَّيْلِ سَرْجٌ وقَدْ فُضِّضَا
كأنَّ تُرَيَّاهُ راحَةُ حَوْدٍ تُعَوِّدُهُ خَمْسُهَا إذْ أضَا
كأنَّ الظَّلامَ غَدا راحِلاً أمَامَ الضُّحَى رَحْلُهُ قُوِّضَا

---

(164) وردت هذه العيدية أيضا في مطهر النور الناصر، وقد مهّد لها الشاعر هناك بقوله : «وقلْتُ أُهَنِّيءُ مقامه الكريم بعيد الفطر من عام أحدَ عشَر وثماني مائة» (من ص 206 إلى ص 212).

(165) موهنًا أي في حو نصف الليل

(166) الشهبان : النّحوم، والشهب جمع أشهب نعت للخيل.

(167) يقصد ما يعرف بالسّر الطائر وأخيه السر الواقع

كأنَّ سَنَى الصُّبْحِ وجْهُ ابنِ نَصْرٍ إمَامِ الهُدَى المَلِكِ المُرْتَضَى
إمَامٌ يَكُفُّ صرُوفَ الحطوبِ ويَقضِي الزّمان بما قد قَضَى
مَطاهِرُهُ في العُلَى تُجْتَلَى مَقاصِدهُ في التُّدَى تُرْتَضَى
فأعْلَى بهِ الدّينُ دِينَ الهُدَى وكَمْ حجَّةٍ لِلعِدَى أدْحَضَا
وإنَّ مُحَيَّاهُ مَهْمَا بَدَا أعَادَ ظَلامَ الدُّجَى أبْيَضَا
فَيوسُفٌ شَيَّدَ مَعْنَى العُلَى ويوسُفُ مبْنَى العِدَا قوَّضَا
أباصِرَ دين الهُدَى أشْبَهَتْ عَزائِمُ منْكَ الظُّبَا في المَضَا
فَقُمْتَ بمَا قَعَدَ الدّهْرُ عَنْهُ وداوَيْتَ بالجُودِ ما أمْرَضَا
تَجودُ إذا ضَنَّ صَوْبُ الحَيَا وتُقْبِلُ والدّهْرُ قدْ أعْرَضَا
وتُقبِلُ عنَّا دَياجِي الخُطُوبِ بِنور هُدًى مِنكَ قدْ أعْرَضا[168]
وضَلَّتْ عُداتُكَ لمَّا غَدَا بكَفِّكَ سَيْفُ الهُدَى مُنتضَى
فَتَرْجوكَ لِلسِّلْمِ أمْلاكُها وتَخْشاكَ في الرَّوْعِ أسْدُ الغَضَى
لكَ الصدْقُ فادْعُ وَلِيَّ الهُدَى إلَى ما ابْتَغَى وإلَى ما ارْتَضَى
وأعرِضْ عنِ الكفْرِ أوْ قُلْ لَهُ أصَرَّحَ سَعْيُكَ أمْ عَرَّضَا
صِفاحِيَ لِلصَّفْحِ إرْجاؤُها وَعَزمِيَ لِلبأسِ قدْ قُيِّضَا
وما لِحُلومِيَ أن تُسْتَخَفَّ وما لِقَبولِيَ أنْ يُعْرِضَا
هوَ الحَقُّ مَوْلاَيَ فاصْدَعْ بهِ مَرامًا تَسَنَّى وَحُكْمًا مَضَى - 76
وناصِرُهَا وابنُ أنصارِها مَقامُكَ مُسْتَنْفِرًا مُنْهِضَا
فَما فَوَّقَ السَّهْمَ إلاّ رَمَى ولاَ قَلَّدَ السَّيْفَ إلاّ نَضَى
لكَ انعَطفَتْ حَامِحاتُ الأمَاني كَما تعْطِفُ السّابِقَ الرّيضَا
وادْرَاعُ حَرْبِكَ عَن نقْعِها يَروقُ اجْتِلاَءُ الوُجوهِ الوِضَا

---

(168) أعرض في البيت قبله ضد أقبل، أما اعرض في هذا البيت فهي بمعنى ظهر.

وريـــحُ الصَّبـــا نُشْرًا بِنَهـــا تُثيـــرُ حَداوِلهـــا الفُـــيَّصَا
سَتُفْضِي إِلَى الهُـلْكِ أعْـداءُ مَـنْ إِلَـــى رتَـــبه أمْـــرَهُ فَـــوَّضَا[169]
نَـــا سَيْفُهـــمْ وَكَبـــا طِرفهُـــمْ ومَـــى لِلْمُقَيَّـــدِ أنْ يَنْـــهَضَا
فَهـا أفْـقُ أنجُمِهِـمْ لانْـقِصاصِ وَعايـــةُ آمادِهِـــمْ لِانْـــقِصَا
ومـــا قَـــدُّ ذابِلِهِـــمْ لِانْتِهـــاءِ ولا حـــدُّ مُرْهِفِهِـــمْ لِانْـــتِصا
لأعْجَرْتَ مـن هُـوَ آتٍ كمـا بعـدْلك أسيْت مـا قَـدْ مَضَى
وهُنِّـئْت عِيـدًا أتَـى بالمُنَـى دُيـودُ المَعالِـي بـهِ تُقْـتَصَى
ووَدّعَ شَهْـرُ الصِّيـامِ الـذي إلَـيْكَ المَـوَدَّة قَـدْ أمْـحَصا
ووَدَّ المُقـامَ بمَثْـوَى العُلَـى كمـا شاءَ إخْـلاصُهُ واقْـتَضَى[170]
ولكِنَّـــهُ عائِـــدٌ عيـــدُهُ بِمُقْتَبَـلِ الـنَّصْرِ لمَّـا انْـقَضَى
بَقـــيتَ لِأمْثالِـــهِ سالِمًـــا وحَفْنُ الرَّدَى عنْكَ قَدْ أعْـمَصَا
أمَـــوْلايَ لِـــي أدتٌ رَوْضَةٌ نَـــداكَ مَتَـــى حـــادَهُ رَوَّضَا
مَعـاذَ قِداحِـي بـهِ أن تَحيبَ وحـاشَى عهـودُكَ أن تُنْـقَضَا
ومَا العَهْدُ إلاّ الذي لا انْتِقَاصَ لِمَا أحْكَمَتْ منْهُ أيْدِي القَضَا
ولَـيْسَ جُنـاحٌ عَلى الدَّهْـرِ إذْ أنَـى لِحَاجِـيَ أنْ يُخْـفَضَا
فإنِّـــيَ مَمْلـــوكُكَ المُرْتَجِـــي نَـــداكَ المُؤمِّـــلُ مِـــنكَ الـــرِّضَا
أأخْضَعُ يومًـا وَمِنِّـي لَـدى سواكَ الوسائِـلُ لَـن تُعْـرضَا
فَـدُمْ للزّمـانِ الـذِي لا يُـرَى لِأيّـامِ مُلْـكِكَ فِيـهِ انْـقِضَا - 77

---

(169) أعداء من، كذا في الأصل، وفي مطهر النور الناصر : أعداء من، خط الشاعر، وكتب فوق من كلمة مَوْلَى، وكأنّهُ يقترح الثانية بدلا من الأولى

(170) في الأصل : ووَدّع، وهو سبق قلم من الناسخ، وفي مطهر النور الناصر : ووَدّ

وَقُلْتُ مُهَنِّئاً المَقامَ العَلِيَّ اليُوسُفِيَّ أسْماهُ الله بأضْحَى
عامِ أحَدَ عَشَر وَثمانِي مائة المُتقدّمِ الذِّكْرِ[171]

أثـارَ هَواهَـا نُزّعًـا تَشتَكِـي الوحَـا ... سَنا بارِق يهْدِي الرَّكائِبَ في الدُّجَا[172]

تألـقَ خَفّـاق الجَنـاحِ كَأنّمَـا ... غَدا مُزْجِيًا رَكْبَ السَّحائِبِ مُزْعِجا

أنارَ وقـدْ أخفَـى الظّـلامُ سَبيلَهـا ... فأسْرَعَ لِلتَّأْويبِ مَنْ باتَ مُدْلِجَا[173]

تَقولُ حُداةُ العِيسِ إذْ غَالَها السُّرى ... أَلَـمْ يـانِ لِلإصْبـاحِ أنْ يَتَبَلّجـا

ألاَ يـا خَليلِـيَّ انزِلاَهـا مَغاهِـدًا ... وَمُـرَّا عَلَيْهـا بالـرِّكابِ وعَرِّجَـا

لَعَهْدِي بهَا والحَيُّ في عَرَصاتِهـا ... يُحَيّا بمَـا يُهْـدِي حَنًى وتأرُّجَـا

وَصَوْبُ الْحَيَا حَلّ الْحُبَا فِي بِطاحِهَا ... فَلِلّـهِ مَـا أبْهَـى حُلاَهَـا وأبْهَجَـا

كأنَّ سَقيطَ الطَّلِّ مِنْ قُضْبِ دَوْحِها ... مُرَدِّدُ لَفْـظٍ مِـن لسَانٍ تَلَجْلَجَـا

مَعَاهِدُ لاَ تُخْفِي الصَّبَابَةَ إذْ غَدَا ... نَسيـمُ صَبَاهَـا لِلْغَـرامِ مهَيِّجَـا

وِللوَخْدِ طِرْفٌ ما كَفَفْنا جِماحَـهُ ... فجالَ بِمَيْدانِ التّصابِي وَهَمْلَجا[174]

ومائِلَةِ الأعْطـافِ لـمْ نَـدْرِ قَبْلَهـا ... بأنَّ شُموسَ الأُفْقِ يَحْلُلْنَ هَوْدَجا

هِيَ الشمْسُ يُسْتَجْلى سَناهَا وقدْ غَدا ... لَها البَدْرُ والجَوراءُ قُرْطًا وَدُمْلُجَا

فمَن لَمْ يُساهِدْ وجْهَهَا وقَوامَهـا ... فَما البَدْرُ مُلْتَاحًا ولاَ الغُصْنُ رَجْرَحَا

ومَن هامَ بالحَسْناءِ مِن غَيْرِ حَيِّهَا ... فما القَدُّ مُرْتاحًا ولاَ اللّحْظُ أدْعَجَا

ومَنْ أمَّ بَحْرَ الجودِ وَالعِلْمِ لاَ يُرَى ... عَلى غيْرِ مَولانا ابْن نصْرٍ معَرّجَا

هُوَ اليُوسُفِيُّ الناصِرُ المَلِكُ الذي ... عَرائِمُـهُ تُـخْشَى وَرُحْمـاهُ تُرْتَجَـى

---

(171) توجد هذه القصيدة أيضًا في مطهر النور الناصر من ص 212 إلى ص 216. وهذا نص تقديمها هناك . «وقلت أهنئه أيده الله في عيد الأضحى من عام أحد عشر وثماني مائة».

(172) نزّعًا أي إبلا عربية، والوحا : الحفا ؛ وقوله : سنا بارق هو فاعل أثار.

(173) التأويب : سير النهار كله، والإدلاج سير الليل كله.

(174) هملجَ . سار سَيْرًا حسنًا.

هُوَ اليُوسُفِيُّ العالِمُ العَلَمُ الذي ... عوامِلُهُ شُهْبٌ مِن النَّقْعِ في دُجَى
ألاَ عَدَّ عَنْ ذِكْرِ القَياصِرَةِ الأُلَى ... لَدَيْهِ ودَعْ كِسْرَى المُلوكِ مُتَوَّجَا
فَهذا إمَامٌ تابِعٌ حَدَّهُ الذي ... عَدا سَيِّدَ الأنْصار أوْسًا وخَزْرَجَا
وهذَا الذي مارالَ في الأرْضِ أمْنُهُ ... عَلى الخلقِ ظِلاًّ في الهواجِرِ سَجْسَجَا[175] - 78
وهذا الذي مازالَ في اللّهِ سالِكًا ... سَبيلاً إلى النَّصْرِ العَزيزِ وَمَنْهَجَا
شَمائلُهُ تحْكي الشمائِلَ رِقَّةً ... وأمْداحُهُ زَهْرَ الرِّياضِ تَأَرُّجَا
رَحَوْنا بِهِ نيْلَ المَكارِمِ والعُلَى ... فلمَّا رأيْنا وَجْهَهُ صَدَقَ الرَّجَا
فمِنْ عزْمَةٍ تكفي العِدَى وتكُفُّها ... ومِنْ جُودِ كَفٍّ لا تُخَيِّبُ مَن رَجَا
إذا ماحَ بَحْرُ الرَّوْعِ خاضَتْ عِمارَهُ ... صَوافِنُهُ تَحْكِي السَّفينَ المُلَجَّجَا
ومَهْمَا دَجَا لَيْلُ العَجاجِ أراكَ مِنْ ... مُحَيَّاهُ صُبْحًا لِلهُدَى مُتَبَلِّجَا
وقد أسْمَعَتْ عِزُّ الحيَادِ صَهيلَها ... وزَاقَتْ حَوالَيْها العَوالِي تَوشُّجَا
فتَحْسِبُ أن الحَرْبَ أبْدَتْ حديقَةً ... بِهَا القُضْبُ مُلْدًا والحَمائِمُ هُزَّحَا
أمَوْلاَيَ إنّ اللّهَ مازالَ مُلْهِمًا ... لأجْمَلِ صُنْعٍ جاءَ بالنَّصْرِ مُلْهِجَا
تعوجُ الأعَادِي عَن لقائِكَ كُلَّمَا ... تُقَوِّمُهُ رُمْحًا وتَعْلوهُ أعْوَجَا[176]
فأسْمَرُكَ الخَطِّيُّ يلتاحُ نَصْلُهُ ... شِهابَ هُدًى لَيْلَ العَجاجَة مُفْرِجَا
وكَفُّكَ للعَافينَ تندَى غمامَةً ... وسَيْفُكَ يُذْكِي جَاحِمًا مُتَأَجِّجَا
كَذلِكَ مِن شَأنِ الغَمامِ انسِكابُها ... إذا ما تُريكَ البارِقَ المُتَوَهِّجَا
كأنَّ مُثارَ النَّقْعِ لَيْلٌ وَفَجْرُهُ ... حُسامُكَ يَبْدو خاضِبًا مُتَضَرِّجَا
كأنَّ مياديَ الطِّراد صَحيفَةٌ ... يُرِيكَ بها الخَطِّيُّ خطًّا مُثَبَّجَا[177]
ولكنَّهُ معْنَى سُعودِكَ مُوضِحٌ ... وُضوحَ النّجومِ الزُّهْرِ وَاللّيْلُ قدْ سَجَا

---

(175) طلّ سحسح : لاحرٌّ ولا قرٌّ.
(176) أعوج فرس مشهور تنسب إليه الخيل الأعوجية.
(177) التثبيح : تعمية الخط، وخطٌّ مثبّح : غير بيّن.

لَكَ العَزْمُ إنْ أمْضَيْتَ أحْكامَهُ فَفي ... نُحُورِ عُداةِ الدّينِ قدْ أصْبَحَتْ شَجَا
لَكَ العِلْمُ يَهْدِي كُلَّ مَنْ ضَلَّ رُشدَهُ ... وعَاجَ عنِ النّهْجِ القَويمِ وَعَرَّحا
وقدْ عادَ عيدٌ كان منْ قبْلُ مُطْلِعًا ... مُحَيَّاكَ وَضّاحَ الأسِرَّةِ أبْلَحَا
فَللِهِ يَوْمٌ قَدْ أرانَا حَقيقَةً ... منَ الطَّلْعَةِ الغَرّاءِ صُبْحًا تَبلَّجَا
مَدَدتَ لِتَقْبيلِ الخَلائِقِ راحَةً ... يفُوقُ بَذاهَا الزّاخِرَ المُتَمَوِّجَا
وهَلْ بَعْدَ أنْ قَبّلْتُ كَفَّكَ آمِلاً ... أكونُ إلَى شَيْءٍ مِنَ الدَّهْرِ مُحْوَجا
رَدَدتَ سِهامَ الدَّهْرِ حَتَّى تَقصَّدَتْ ... وقَدْ كان بَابُ القَصْدِ دونِي مُرْتَجا - 79 -
فدُونَكَ يا مَوْلَى الوَرَى مِن مَدائِحِي ... ثَناءً كأزْهارِ الرِّياضِ مُؤَرَّحَا
أتَيْتُ بِهَا كالزَّهْرِ وَالزَّهْرِ في الرُّبَى ... فَراقَتْ ورَقَّتْ نَهْحَةً وتَأرُّحَا
حَياءً مِن التّقْصيرِ بالطِّرْسِ حُجِّبَتْ ... عَلَى أنّها حَسْناءُ تُبْدِي التَبَرُّحَا
فَهُنِّئْتَهُ عِيدًا كَريمًا وَمَوسِمًا ... جَميلَ المُحَيَّا رائِقَ الحُسْنِ مُبْهِجَا
وَبُلِّغْتَ ما تَرْجوهُ بَدْءًا وَعَودَةً ... ولاَزِلْتَ في الأمْلاكِ أكْرَمَ مُرْتَجَى

وَقُلْتُ أهنِّئُهُ أيَّدَهُ الله ونَصَرَهُ بِعيدِ الفِطْرِ عامَ اثْنَيْ عَشَرَ وثماني مِائة وقدْ وَصَلَ السَيِّدُ الأميرُ أبُو الحَسَن شَقيقُ مَوْلانا أيَّدَهُ الله بالجَيْشِ منْ غَزْوَةِ شُقورَه(178)

مَوْلايَ بُشْرَى بالزّمانِ المُقْبِلِ ... وبِما جَلاَ مِن وَجْهِهِ المُتَهَلِّلِ
زَمَنٌ لِبُشْرَاهُ وَرائِقٌ بِشرِهِ ... يُرْتاحُ كُلُّ مُكَيِّرٍ وَمُهَلِّلِ
رَمَنٌ جَلا وَجْهَ الفُتوحِ كأنّهُ ... شَمْسُ الظّهيرَةِ قدْ بَدَت لِلْمُجْتَلِي
وافَى مِن الفَتحِ المُبينِ بكُلّ مَا ... بَهَرَ العُقولَ ولمْ يَدَعْ مِن مَعْقِلِ
تَرْتاحُ أعْلامُ الجِهَادِ خَوافِقًا ... تَهْفُو بِهَا رِيحُ الصّبَا والشَّمْأَلِ

(178) شقورة Segura كانت تقع في الحدود الشمالية لمملكة غرناطة.

هَذا الجِهادُ وإنّ مِثْلَكَ يَقْتَدِي ... فيهِ بآثارِ النَّبِيِّ المُرْسَلِ
هذا الهُدَى قدْ لاحَ نُورُ صَباحِهِ ... يَهْدِي سَبيلَ الرُّشْدِ كُلَّ مُضَلَّلِ
هدِي الفُتوحُ تَجِلُّ عنْ إحْفائِهَا ... فالحالُ ناطِقَةٌ بشَرْحِ المُجْمَلِ
وَافَتْكَ خافِضَةً لديْكَ جناحَها ... وعِمادُ مُلْكِكَ يَسْتَقِلّ ويَعْتَلِي
فانْهَضْ لِمَا قَدْ شِئتَ غيْرَ مُدافَعٍ ... تفْتَحْ بسَعْدِكَ كُلّ بابٍ مقْفَلِ
حلَّ العُداةُ بمَأْمَنٍ أجْهدتهُمْ ... فيهِ بِيُمْنِ جِهادِكَ المُتَقَبَّلِ
لِلّهِ منْكَ مناقِبٌ بصِفاتِها ... طَاولْتَ أمْلاكَ الزَّمانِ الأوَّلِ
لِلّهِ مِنْكَ مكَارِمٌ ومَآثِرٌ ... مَن لِلرّشيدِ بها وَلِلمُتَوكِّلِ[179]
وجْهٌ إذا لاَحَتْ أشِعَّةُ نُورِهِ ... يُجْلَى الدُّجَى بصباحِهَا المُتهلِّلِ - 80
كَفٌّ تَعُمُّ القَاصِدينَ هِباتُهَا ... فتكُفُّ غائِلَةَ الزَّمانِ المُمْحِلِ
تُنْضِي حُسامَكَ في الوَغَى فَتخالُهُ ... نهْرًا بدَوْحٍ لِلْقَنَا مُتَهَدِّلِ
وتَهُزُّ ذابِلَكَ المُقَوَّمَ وهْوَ في ... لَيْلِ العَجاجَةِ كالشِّهابِ المُشْعَلِ
فلأنتَ منْصُورٌ وسَيْفُكَ قاهِرٌ ... وحِماكَ مامُونٌ وَقَدْرُكَ مُعْتَلِي[180]
سِيَمٌ لأنْصارِ النَّبيِّ حَديثُها ... يَرْويهِ مِنْكُمْ آخِرٌ عنْ أوَّلِ
ولأهْلِ أندلُسٍ بِكَ النَّصْرُ الذي ... وَرِدُوا بِهِ لِلفَتْحِ أعْذَبَ مَنْهَلِ
مِن مِثْلِ مَوْلانَا الخليفَةِ يُوسُفٍ ... مَلِكٌ صِفات كَمالِهِ لَمْ تجْهَلِ
مَلِكٌ يُقَسِّمُ حَرْبَهُ أوْ سِلْمَهُ ... بَيْنَ الكَتائِبِ والكِتابِ المُنْزَلِ
ما جالَ في آفاقِها مُتَطَلِّعًا ... إلاّ وَحَلَّ كُلَّ خَطْبٍ مُعْضِلِ
يا ناصِرَ الدّينِ الّذِي بوُجودِهِ ... نادَى الهُدَى بُشْرَى لِكُلِّ مُؤَمِّلِ
أرْسَلْتَ في الآفاقِ ديمَةَ رحْمَةٍ ... نَعِمَ الوجُودُ بِجَوْدِها المُسْتَرْسِلِ
ورَفَعْتَ قَدْرَ أخيكَ تاليكَ الرِّضَى ... قُطْبِ الرَّحَى الأهْدَى أبي حَسَنٍ عَلِي[181]

(179) الرشيد والمتوكل من خلفاء بني العباس
(180) يُوَرّي بأسماء الخلفاء المذكورين.
(181) سقطت كلمة «الرحى» من الأصل.

اتَّبَعْتَهُ مِنْ جُنْدِ نَصْرِكَ ما بِهِ ... أَوْهَنتَ كَيْدَ الكَافِرِ المُتَحَيِّلِ
فَرَعَتْ ثَنايَا المُعْتَدِينَ كُماتُهُ ... بِعَزائِمٍ تَمضِي مَضاءَ المُنصُلِ
وبكَ اهْتَدى في الحَرْبِ لمَّا أن بدَا ... والدِّينُ قَدْ آوَى لأَمْنَعِ مَوْئِلِ
وبكَ اقْتَدَى في الرَّوْعِ لمَّا حَلَّ مِن ... صَدْرِ الكَتِيبَةِ في الرَّعِيلِ الأَوَّلِ
لَمَّا الْتَقَى الجَمْعان في أَرْضِ العِدَى ... ورَمَيْتَ جَمْعَهُمُ بِبأْسٍ مُعْجِلِ
نادَى بأَبْطالِ الجِهادِ أَلاَ اقدُمُوا ... وأَجالَ فيهِمْ نَظرَةَ المُتأَمِّلِ
فتسارَعُوا إلى دَاعِي الهُدَى ... والرُّومُ عن سُبُلِ النَّجاةِ بِمَعْزِلِ
ضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَرْضُهُمْ فَتوقَّفُوا ... والمَاءُ يَحْمَعُ نفسَهُ في الجَدْوَلِ
وتَجَمَّعَتْ فِرَقُ العِدا ثُمَّ انثَنَتْ ... ما بَيْنَ مُنْهَزِمٍ وبَيْنَ مُجَدَّلِ
شالَتْ نَعامَتُهُمْ سَرِيعًا بَعْدَما ... وقَفوا وُقوفَ الخاضِعِ المُتَذَلِّلِ(182)
وتَسَلَّلُوا طَوْعَ الفرَارِ وَجَمْعُهُمْ ... قَدْ رِيعَ بَيْنَ مُذَلَّلٍ وَمُضَلَّلِ - 81 -
وأَتَى وقدْ نالَ الذي قَدْ شاءَهُ ... مِن مَقْصَدٍ أَسْنَى وَصُنْعٍ أَجْمَلِ
فاهْنأْ بمَقْدَمِهِ الرِّضَى وَحُلولِهِ ... مِن دارِكَ العُلْيَا بأَشْرَفِ مَنزِلِ
واهْنأْ بأَسْعَدِ مَوْسِمٍ وانْعَمْ بِهِ ... فَوُرُودُهُ يَقْضِي بنَيْلِ المَأْمَلِ
وإِلَيْكَها يا خَيْرَ مَن وَثِقتْ يَدي ... مِنْهُ بأَكْرَمِ واهِبٍ مُتَفَضِّلِ
وبِمِلْكِ رِقِّي أَيُّها المَلِكُ الرِّضَى ... لَكَ لا بمَا أُبْدِي لَدَيْكَ تَوَسُّلِي
لازِلتَ مَنْصورَ اللِّواءِ مُؤَيَّدَا ... تَكْفِي العِدَى في الحالِ والمسْتَقْبَلِ

وقُلْتُ أُهَنِّئُهُ أَيَّدهُ الله ونَصَرَهُ وأَعْلَى مُلْكَهُ وأَظْهَره بأَضْحَى عَامِ اثْنَيْ عَشَرَ وثَمَانِي مِائة

هوَ الهَدْيُ يُرْوَى إِذْ تَجَلَّى فَحَيَّاكَا ... عِ البَدْرِ عَنْ شَمْسِ الضُّحَى عَن مُحَيَّاكَا

(182) شالت نعامتهم : كناية عن هزيمتهم.

وهذا حديثُ الخودِ قدْ صحَّ مسنَدًا عنِ البحرِ عنْ سُحْبِ الحيا عنْ عطاياكا[183] ـ 82

وَقُلْتُ مَهَنِّئًا بِعِيدِ الفِطْرِ عَامَ ثَلاثَةَ عَشَرَ وثمَانِي مِائَة وَقَدْ احْتَل رِكابُهُ العَلِيُّ بمَالَقَةَ ووَجَّه السُّلْطانَ السَّعيدَ مِنْها إلى بِلادِ المغرِبِ في السَّابِعَ عَشَر لرَمضان قَبْلَهُ بمَا نَصُّهُ

هَنيئًا فقَدْ وافَتْ إلَيْكَ البشائِرُ وعَزَّتْ لأبصارِ النَّبِيِّ عَشائِرُ
عَلَتْ بكَ للدِّينِ الحَنيفِ وأهْلِهِ مَراقِبُ في أفْقِ العُلَى ومَظاهِرُ
لكَ الطَّلْعَةُ الغَرَّاءُ والشِّيمةُ التي بهَا المُلْكُ زاهٍ رائِقُ الوَصْفِ زاهِرُ
مُحوذُكَ عنْ صَوْبِ الغَمامَةِ واكِفٌ ووَجْهُكَ عَن نور الهِدايةِ سَافِرُ
تَرومُ مُلوكُ الأرْضِ شَأوَكَ في العُلَى وكُلٌّ عَنِ القصْدِ المُؤَمَّلِ قاصِرُ
لَئِنْ عَظُمَتْ أقْدارُها في العُلَى فَما تُوازِيكَ في العَلْياءِ لَكِن توازِرُ
ولمَّا رأيْتَ الغرْبَ قدْ فُلَّ عَرْبُهُ وأقْفَرَ مِن رَبْعِ الخِلافَةِ عامِرُ[184]
وقامَ ولِيُّ الكافِرِينَ بعِبْئِها فكَمْ مُسْلِمٍ قد ذَلَّ واعْتَزَّ كافِرُ[185]
تَدارَكتَها بابْنِ الخَلائِفِ مُنْعِمًا وسَيْبُكَ مَبْذولٌ وسَيْفُكَ قاهِرُ[186]
ومَاهِيَ إلاَّ غادَةٌ طالَما دَعَتْ إمَامًا لهُ حِلمٌ عَن البَغْيِ زاجِرُ
تَناهُ وفاءُ العَهْدِ عَنْها فلَمْ يَزَلْ يَرُدُّ يَدًا عَنْ ثَوْبِها وهْوَ قادِرُ[187]
إلَى أنْ سَكَتْ ما نالَها وتَظَلَّمَتْ لَدَيْكَ وَقَدْ دارَتْ عَلَيْها الدوائِرُ

---

(183) بعد هذا بياض في الأصل مقداره صفحتان، وفي الطرة كتب الناسخ ما يلي «كذا وجدت البياض في الأصل المنتسخ منه»

(184) العرب المغرب

(185) يعني السلطان أبا سعيد عثمان.

(186) يعني بابن الخلائف السعيد.

(187) الشطر الثاني للمتنبي ضمّنه الشاعر

فأوْلَيْتَ مِن نُعْماكَ ما قدْ تَسَحَّبَتْ عَلَى ظَمإٍ فيه السَّحابُ المَواطِرُ
وجهَّزْتَ لِلنَّصْرِ العَزيزِ كتائِبًا تُسارِعُ نحْوَ المُلْتَقَى وَ تُبادِرُ - 84 -
يطولُ سُجودُ المُعْتَدينَ لهَا وَلا مَحارِبَ إلاَّ ما أرَتْهَا الخَوافِرُ
وَلِلهِ كَمْ رامٍ لَدَيْهَا نِصالُهُ كَواكِبُ أُفْقٍ والقَتَامُ دَياجِرُ
سِهامُ قِسِيٍّ كالأهِلَّةِ تَرْتَمِي لِرَجْمِ العِدَى مِنْها نحومٌ زَواهِرُ
وأرْسَلْتَ في البَحْرِ الأساطيلَ نُزَّعًا تُراوِحُ أقْطارَ العِدَى وتُباكِرُ
يُراوِعُ بَعْضٌ بَعْضَها مُتَلاعِبًا كَما لَعِبَتْ وَسْطَ الفَلاةِ حآدِرُ
وقدْ جَلَّلُوهَا بالسَّوادِ كأنَّمَا مَحادِفُهَا هُدْبٌ وَهُنَّ نَواظِرُ
ويَطْفو حَبَابُ المَاءِ في جَنَباتِها كَما فتحَتْ وَسْطَ الرِّياضِ الأزاهِرُ
فَللهِ منهَا مُنْشآتٌ إذا رَسَتْ لهَا فَلكٌ بالسَّعْدِ واليُمْنِ دائِرُ
وانْ هِيَ سارَتْ فهْيَ وقْفٌ عَلى الهُدى تَدافِعُ عَنْ أحْزابِهِ وَتُصادِرُ
طِوالٌ عَلَى المَبْنَى الرَّفيعِ قَصرتَهَا فَكانتْ كَعيدٍ قدْ حَوتَها المَقاصِرُ
إلى أنْ دَعا داعِي العرائِمِ بَعْدَما تَعيَّنَ مَشْروعٌ وبانَتْ مَعادِرُ
حَلوْتَ لِأهْلِ الأرْضِ مِنْها عَجائِبًا لهَا مَثَلٌ في العَرْبِ والشَّرْقِ سَائِرُ
وقدْ حمَلَتْ مِن كلِّ أرْوَعَ باسِلٍ نَمَتْهُ إلى العَلْيَاءِ صِيدٌ أكابِرُ
دَرِيٍّ بِغاراتِ الحُروبِ مُثاقِفٌ عَلِيمٌ بأسْرارِ الحِلافَةِ مَاهِرُ
يَقومُ بأعْباءِ السُّرى وهْوَ قاعِدٌ يُقيمُ صَغَا الهَيْجاءِ وهْوَ مُسافِرُ
يُغادِي العِدَى في مُلْتَقَى الحَرْبِ بالتي إذا دَهِمَتْ ما مِنْهُمُ مَن تُعادِرُ
ألَمْ يَعْلَموا أنَّ الخليفَةَ يُوسُفًا مَناقِبُهُ شُهْبَ السَّماءِ تُكاثِرُ
ألَمْ يَعْلَموا أنَّ ابْنَ نصْرٍ حُسامُهُ عن الرَّوْعِ لاَ وانٍ ولاَ مُتقاصِرُ
إذا حارَبَ ارْتاعَتْ لِدابِلِه العِدَى وإنْ سالَمَ ارْتاحَتْ إلَيْهِ المَنابِرُ
لِناصِرِ دينِ اللّهِ عَزَّ جَنابُهُ تُخَلِّدُ آثارٌ وتُتْلَى مَآثِرُ
عَلى الفَوْزِ بالحسْنَى مُعينٌ ومُنْجِدٌ وَللدِّينِ والدّنْيا وَلِيٌّ وَناصِرُ

إلا إنّ مُلْكَ الغَرْبِ لم يُلْفَ بَعْدَها ... بِشاكٍ ولكِـن لِلصَّنيعَـةِ شاكِـرُ
بِعِزّكَ قد أضْحَى السَّعيدُ مملَّكًـا ... لهُ النَّصْرُ خِدْنٌ والنَّجاحُ مُـوازِرُ - 85
وكانتْ نفوسُ الخَلْقِ تَرْتاحُ نحْوَهُ ... ولِلشَّوْقِ ناهٍ في القلوبِ وآمِـرُ
وبادَتْ مَرينٌ في أقاصِي بِلادِهَـا ... ألاَ سارِعُوا نحْوَ المَعالِي وبادِرُوا
ألاَ إنّهـا أسْرارُ عَـيْبٍ تحجَّـبَتْ ... تُقَصِّرُ عَـنْ إدْرَاكِهِـنَّ الضَّمائِـرُ
أبى اللهُ ألاّ أن يَكُفَّ العِدَى وَهَلْ ... يُغادَرُ في المُلْكِ المُهَنَّا غـادِرُ
وما العَـذْرُ الاّ خُطَّةٌ ذَلّ رَبُّهَـا ... كَفَى بأميرِ المُلْكِ أنْ عَزَّ طاهِرُ(188*)
وإنَّ وَلِيَّ الغَـدْرِ في كَـلِّ حالَـةٍ ... عَنِ الرُّشْدِ ساهٍ أو مِنَ الرَّوْعِ ساهِرُ
هُوَ الدهْرُ أبْدَى ذُلَّهُ بَعْـدَ عِـزِّهِ ... وأظْهَـرَ ما أخْفَتْـهُ مِنْـهُ السَّرائِـرُ
وأوْرَدَ آراءَ النَّجـاحِ بِزَعْمِـهِ ... مَوارِدَهـا لـوْ أمْكَنَتْـهُ الـمَصادِرُ
وَهَلْ تَنفَعُ الأبصار إن لَمْ يَسْ لَهَا ... مِنَ الرشْدِ ما تُهْدِي إلَيْها البصَائِرُ
وهَل دانَ بالتَّوْحيدِ مَن كان دائِمًا ... يُوالِـي مُوالِـي شِرْكِـهِ ويُظاهِـرُ
مُهَنِّئَتَـهُ صُنْعًـا جميـلاً خَطيـرُهُ ... يَرُدُّ الدي والَى العِدَى وهْوَ صاغِرُ
وهُنِّئْتَ يا مَوْلَى الخَلائِفِ مَوْسِمًا ... أتَى مِنْـهُ بالبُشْرَى لبابِكَ رائِـرُ
تَرحَّلَ شَهْرُ الصَّوْمِ أكرَمَ ظاعِـنٍ ... بِمَا قُمْتَهُ مِنْ حقِّه لكَ شاكِـرُ
وأقْبَل عيـدُ الفِطْـرِ أشْرَفَ قـادِمٍ ... يُوالِـي حَثِيثًـا سَيْـرَهُ ويُبـادِرُ
لِمالَقَـةٍ جَـدَّدْتَ عَهْـدًا حَميـدُهُ ... مَدَى الدَّهْرِ لاَ يَبْلَى ولاَ هُوَ داثِرُ
حَلَلْتَ بِمَغْناهَـا وَسَعْـدُكَ واضِحٌ ... وحِزْبُكَ مَنْصُورٌ وجُنْدُكَ ظافِـرُ
وأوْحَشْتَ مِن دارِ الخلافَةِ مَنْـزِلاً ... حَـديثُ عُـلاهُ شائِـعٌ مُتَواتِـرُ
سَتَرْجِعُ والصُّنْعُ الجَميلُ مُحالِـفٌ ... وَمُلْـكُكَ لِلأمْـلاكِ نـاهٍ وَآمِـرُ
وتَبْقَى عَلى مَرّ الجَديدَيْـنِ ناصِرًا ... وَسَعْدُكَ فيهِمْ مالَهُ الدَّهْرَ آخِـرُ(189)
أمَـولايَ خذْهـا كالحَديقَـةِ كُلَّمـا ... يهُبُّ نسيمٌ مِـن ثَنـائِكَ عَاطِـرُ

(188*) يقصد طاهر بن الحسين الذي قتل الأمين ومهّد الخلافة للمامون.
(189) وسعدك، كتب فوقه وحدّك، أي أنّهما روايتان.

وأُهْدِي لِبَحْرِ الجُودِ منها قلائِدًا وَمِنْ عَجَبٍ للبحْرِ تُهْدَى الجَواهِرُ
إذا اللّهُ قد أثنَى عَلَيْكَ فما الذي يقولُ بَلِيغٌ أوْ يُنَظِّمُ شَاعِرُ

- 86 -

وقُلْتُ أُهَنِّيءُ مَقامَهُ الكَريمَ أسماهُ الله بعِيدِ
الأضْحَى مِنْ عَامِ ثَلاثَةَ عَشر وَثمانِي مِائَة، بالمحَلةِ مَنَ ظاهِرِ
جبَل الفَتحِ عَصَمهُ الله عنْدَ مُحاصَرَتِهِ والأخْذِ بِمُخَنقِهِ برًّا
وبَحْرًا والتَّضْيِيق عَلى المَحَلةِ الغَربيَّةِ النَّازِلَةِ بإزائِه مَعَ
الرَّئيسِ البَائِسِ المُحكَّم فيه سَيْفُهُ اليُوسُفِيُّ بَعْدَ ذَلِكَ وقدْ فَرَّ
إليْه بَعْضُ الغادِرينَ المَارقينَ مُرُوقَ السَّهْمِ عَن الدّينِ(190)

لكَ الهَدْيُ تجْلُوهُ الْعَزائِمُ مشْرِقًا فتَعْنو لهُ الأملاكُ غَرْبًا وَمَشْرِقَا
تلوحُ ومِن مَرْعاكَ شَمْسُ هِدايَةٍ أنَارَ بأُفْقِ المَعْلُواتِ وأشْرَقَا
جَلَوْتَ مِنَ الآياتِ مَا كانَ مُبْهَمًا وفتّحْتَ لِلحاجاتِ ما كانَ مُغْلَقَا
فجودٌ كَما أخْبرْتَ عَن واكِفِ الحَيَا وعَزْمٌ كَما حُدِّثْتَ عنْ أسَدِ اللّقَا
ومَن مِثْلُ مَولانا الخليفَةِ يُوسُفٍ عُلًى وحُلًى يا مَا أبَرَّ وأشْفَقَا
إمامٌ حَبَاهُ اللهُ بالمُلْكِ بَعْدَما تَحَيَّرَهُ مِن دَوْحَةِ النّصْرِ وانْتَقَى
له الحَزْمُ وَالإقْدامُ والسَّيْفُ العُلَى وبَذْلُ النّدَى والحِلْمُ والعِلْمُ والتُّقَى
لَهُ عَزْمَةٌ تُدْنِي القَصِيَّ وَهِمَّةٌ تَناهَتْ إلى أعْلَى الكَواكِبِ مُرْتَقَى
فَيَجلُو خُطوبَ الدَّهْرِ نَيِّرُ عَزْمِهِ كَما صَدَعَ الظَّلْماءَ بَرْقٌ تألَّقَا
مُحَيَّاهُ يحْكِي البَدْرَ لَيْلَةَ تَمِّهِ ويُمْناهُ تحْكِي العارِضَ المتَدَفِّقَا
فإن مَطَلَ الإصْباحُ حَيًّا جَبينُهُ وإنْ اخْلَفَتْ سُحْبُ الحَيَا جودُهُ سَقَى
حَيَاةٌ من اسْتَجْدَى وهُلْكُ مَنِ اعْتَدَى وأمْنُ مَنِ اسْتَعْدَى وَفوْزُ مَنِ اتَّقَى
غَدا فألْقَى قَبْلَ اللّقَا صُبْحَ عزْمِهِ وأقْدَمَ قَبْلَ الجَيْشِ للرعْبِ فَيْلَقَا

(190) المحلة العربية : يعني بها الجيش المعزي.

وإنْ وَعَدَ الوَعْدَ الجَميلَ رَأَيْتَهُ عَلَيْنَا وفيَا صَادِقًا مُتَصَدِّقَا
أمَوْلَى الوَرَى لِلهِ سَيْفُكَ كُلَّمَا يُفَرِّقُ مِنْ جَمْعِ العِدَى ما بِهِ التَقَى
يهيمُ بحُب الهَامِ والحِلْمُ عادِلٌ وبالعَذْلِ لاَ يَزْدادُ إلاّ تَعَشُّقَا
وأحْلَلتَ جُنْدَ اللّهِ مَنْزِلَ طَارِقٍ فَطَأْطَأَ منهُ الكُفْرُ راسًا وأطْرَقَا - 87
وقَدْ كَفَرَتْ نُعْماكَ فِيهِ عِصابَةٌ فأرْعَدَ شَيْطانُ الضَّلالِ وأبْرَقَا
ومازِلتَ مَوْلًى مُنْعِمًا مُتَفَضِّلاً عَطوفًا رَحيمًا بالخَلائِقِ مُشْفِقَا
ومَازِلتَ في الأمْلاكِ أعْظَمَ قادِرٍ يُرَى مُعْتِبًا أهْلَ الجِناياتِ مُعْتِقَا
فَيا مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ أهْوِنْ بمَنْ أتَى يَرومُ لِتَسْمِلِ الدّينِ فيكَ تَفَرُّقَا
توارَى وقدْ حَفَّتْ بِهِ شِيعَةُ الهُدَى وأضْحَى بِهِ حُنْدُ العَزائِمِ مُحْدِقَا
وَضَلَّ طَرِيقَ الرُّشْدِ لاَ دَرّ دَرُّهُ فلَمْ يُلْفَ إلاَّ سَاهِرَ الجفْنِ مُطْرِقَا
فَمِن فَرَقٍ عَنْ حَرْبِهِ كَفَّ إذْ رأى يَدَ اللّهِ تَعْلو مِنهُ بالسَّيْفِ مَفْرِقَا
عَجِبْنا لِمَن ناواكَ يَبْغِي تَعَزُّزًا ولَمْ يُلْفَ مِن قَيْدِ المَذَلَّةِ مُطْلَقَا
أيامُلُ يوْمًا في البِلادِ تَقَلُّبًا وقدْ رُدَّ عَنْهَا عَانِيَ القلْبِ مُوثَقَا
وَهَلْ يَعْقِدُ الرَّايَاتِ لِلنَّصْرِ غادِرٌ وَقَدْ حَلَّ عَهْدًا لِلْوَفاءِ ومَوْثِقَا
كأن بِلِسانِ الدَّهْرِ يُنْشِدُ مُفْصِحًا تَبَدَّدَ جَمْعُ المُعْتَدِي وتفَرَّقَا
ألاَ مَتِّعُوا الأحداقَ في الفِئَةِ التي أحاطَ بها رَيْبُ المَنونِ وأحْدَقَا
أتى أوْلِياءُ المُلْكِ مِن كُلِّ جانِبٍ يَؤُمُّونَ غَيْثًا مِن نوالِكَ مُغْدِقَا
وَحَدُّوا كمَا حَدَّ الكَمِيّ لَدَى الوَغَى وقَدْ هَزّ مَصْقولَ الغِرارَيْنِ أزْرَقَا
مَرِينٌ وتُجيّنٌ وكُلُّ مُجاهِدٍ مِن العُرْبِ إنْ يلْقَ العِدَى تُلْفِهَا لَقَا[191]
وكُل شَرِيفِ المُنتَمَى دَعَواتُهُ مِنَ اللّهِ تُدْنِي حِينَ تَبْعُدُ مُرْتَقَى
ولِلهِ قَوّادٌ لَدَيْكَ تحالُهُمْ لَدَى الرَّوْعِ أسْبَى لِلْعُداةِ وأسْبَقَا
وإنْ خَذَلَتْ نُعْماكَ في القَوْمِ أُسْرَةٌ فمَا أحْقَرَ المَسْعَى وأحْفَى وأخْفَقَا

(191) تجين : سو تجين قبيل معروف. وَلقَى أي ملقاة ومطروحة على الأرض.

لَكَ العِزُّ لا تحْفِلْ كَما شاءَتِ العُلَى ... بِمَنْ دَحَضَتْ رِحْلاهُ في دَرَكِ الشَّقَا
ولاَ مِثْلَ من أرْسَلْتَ والنَّصْرُ حِدْنُهُ ... وَرقَّيْتَــهُ أوْحَ الحِلافَــةِ فارْتَقَــى
وأحْلَلْتَهُ مِنْ مَنْزِلِ العِزِّ والعُلَــى ... حَبابًا مَريعًا مُعْجِبَ الحسْنِ رَيِّقَــا
نَضَيْتَ عَلى الأعْداءِ مِنْهُ مُشَهَّــرًا ... وأرْسَلْتَ مِن يُمْنَيْهِ سَهْمَيْنِ فُوَّقا(191ه)
فَلاَ أنْجَحَ الرَّحْمانُ مسْعَى مُعايِدٍ ... إذا أحفَقَتْ أعلامُ نَصْرِكَ أخْفَقَــا - 88 -
ولا فَلَّ سَيْفًا قدْ سَلَلْتَ مُشَهَّــرًا ... ولاَ ردَّ سَهْمًا قدْ رَمَيْتَ مُفَوَّفَا
تَلافَيْتَ مُلْكَ الغَربِ إذْ فُلَّ غَرْبُهُ ... وحَدَّدتَّهُ مِن بَعْدِمَا كانَ أخْلَقَــا
وحَرَّدتَها مِلْءَ العُيــودِ سَوانحًــا ... تُباهِي بها زُهْرَ الكَواكِبِ سُتَّقَــا
وأرْسَلْتَها طَوْعَ الفُتوحِ سوابحًــا ... كَرَكْبِ السُّرى يُبْدِي جِيادًا وأيْقَا
يَفِرُّ لَدَيْها المَاءُ في حالِ حَرْيــهِ ... وقَــدْ مَــعَ المِقْــدارُ أن يَتفَرَّقَــا
وتَحْدُبُ أيْدِي القَوْمِ مِنْها مَجاذِفًا ... كَما جَذَبَتْ رِيحُ الصَّبَا غُصُنَ النَّقَا
وكَم من سِراعٍ ظَلَّلَ الأُسْدَ فانثَنَى ... سَحابًا وغابًا كُلما انحطَّ وارْتَقَــى
تَرَى الحَفْنَ مِنها يَنْثَني بَعْدَ سَيْرِهِ ... كَما التَفتَ الحادِي هَوًى وتَشَوُّقَا
فَتَحْسِبُهُ في مَهْمَــهٍ ظَــيَ مَكْــسِرٍ ... تَوَلَّــى نُفــورًا ثــمَّ أصْغَــى مُحَدِّقَــا
وهَذا كِتابُ الفَتْحِ وافَاكَ للــذِي ... لَدَيْكَ مِن الصُّنْعِ الجَميلِ مُصَدِّقَا
أتَاكَ مَن البُشْرَى بأصْدَقَ حُجَّــةً ... وأعْــجَبَ إخبَــارًا وأعْــذَبَ مَطِقَــا
تَحَمَّلَ مِنْها الرَّكْبُ أكْرَمَ شِيمَــةٍ ... فــأشْأَمَ بالذِّكْــرِ الجَميــلِ وأعْرَقَــا
وقد أقْبَلَ الأضحَى فَوَفَّيْتَ حَقَّــهُ ... وإن كانَ رَبْعُ المُلْكِ أبْعَدَ مُلْتَقَى
سَتَرْجِعُ مامُونًا وقدْ جِئْتَ نــاصِرًا ... تُواخِــذُ مــنْصورًا وتَعْفــو مُوَفَّقَــا
ودُونَكَ يَــا مَوْلاَيَ دُرًّا مُــفَصَّلاً ... قدِ احْتَلَّ مِنْ جَدْوَاكَ بَحْرًا تَدَفَّقَا
أغوصُ عَلَيْــهِ للمَدائِحِ فِــيكَ لاَ ... لِيُنظَــمَ في مَتْــنَى العُقودِ ويُسْتَقَــا
أُحِبُّ مِنَ الأمْداحِ ما فيكَ نَظْمُهُ ... وما البِرُّ إلاَّ أنْ أرَى مِنْهُ مُنْفِقَا
سَقَيتَ رُبَى فِكْري وأذْكَيْتَ نَارَهُ ... فَزِنْدِي قدْ أوْرَى ورَوضِيَ أوْرَقَــا

(191ه) يتحدّث في هذه الأبيات عن «السّعيد وولديه عامر والمسعود».

وهَبْتَ وقدْ رَفَّعْتَ عبْدَكَ مُنْعِمًا فَرُحْماكَ فينا منْفِقًا أوْ مُنَفِّقا
إذا أنتَ بالإصْغاءِ قابَلْت مِدْحَتِي فمِثْلُكَ مَن رقّى وَمِثْلِي مَن رَقا
وهَيْهاتَ لِلأيّامِ أخْضَعُ بَعْدَما تَفَيَّأْتُهُ دَوْحًا مِن العِزّ مُونِقا
بَقيتَ لدينِ اللهِ تُعْلِي حَنابَهُ وَهُنِّئْتَها بُشْرَى ودامَ لكَ البَقا

89 - وأنْشَدتُهُ أيَّدهُ الله

بالقبَّةِ مِنَ المشْوَر السَّعيد في عيد الفِطْرِ عَام أربَعَةَ
عَشَرَ وَثَماني مِائة وهي أوّل عِيديَّةٍ أنْشَدْتُهَا
بِلَفْظِي بَيْنَ يَديْهِ بَعْدَ وِلاَيَتي كِتابَةَ سِرِّهِ
شَكَر الله انعَامَه، وأدامَ أيَّامَه

مُحَيّاكَ يَهْدِي فَجْرُهُ المُتَوَضِّحُ فَمَرْآهُ لِلأبْصارِ مَرْقًى ومَطْمَحُ
وكَفُّكَ تَسْتَجْدِي العُفاةُ سَحابَها فَتُخْجِلُ صَوْبَ الغادِياتِ وتَفْضَحُ
إذا ما غَمامٌ سارَ أوْ عَلَمٌ رَسَا فَمِنْكَ النّدَى والحِلْمُ أرْجَى وأرْجَحُ
وإنْ صابَ عَيْثٌ أوْ تَطَلَّعَ نَيِّرٌ فَقَدْرُكَ أسْمَى أوْ عَطاياكَ أسْمَحُ
خلائِقُ مَا رَوْضُ المَكارِمِ عِنْدَها هَشيمٌ وَلا مَرْعَى الأمَاني مُصَوِّحُ
عَوالِيكَ في الهَيْجاءِ تَهْوِي كأنَّها كَواكِبُ في لَيْلٍ من النَّقْعِ جُنَّحُ
أشِعَّتُها في مُلْتَقَى الحَرْبِ أنجُمٌ بلَيْلٍ عَجاجٍ عَن مُحَيَّاكَ يُصْبِحُ
إذا ما انجَلَى القَّعُ المُثارُ حَسِبْتَها أزاهِرَ في خُضْرِ الرُّبَى تَتَفَتَّحُ
تَهُبُّ رِياحُ النَّصْرِ والحَرْبُ تَلْتَظِي فَتَنفَحُ هَاذِي حَيثُ هاتيكَ تَلْفَحُ
تَمُرُّ بَرَبْعِ الشِّرْكِ غيْرَ لَواقِحٍ فَتَسْفِي ثَراهُ والعَوامِلُ تَسْفَحُ
كأنّي بمَغناهُ وكُلُّ مُوَحِّدٍ يُهَلِّلُ في أرْجائِهِ وَيُسَبِّحُ
وهامُ العِدَى تَعْلُو النَّجيعَ كأنَّها حَبابٌ بِمَتْنِ اللُّجِ يَطفُو وَيَطفَحُ
عَنِ النّاصِرِ المَوْلَى الخَليفَةِ يُوسُفِ تُرَوَّى احَاديثُ العُلَى وتُصَحَّحُ

شَمائِلُهُ كالرَّوْضِ هَبَّتْ شَمالُهُ فأزْهارُهُ غِبَّ الغَمائِمِ تَنْفَحُ
إذا جادَ أُفْقٌ فهْوَ أنْدَى سَجِيَّةً وان لاَحَ صُبْحٌ فهْوَ أحْلَى وأوْضَحُ
وتَجْمَعُ بيْنَ السّيْفِ وَالسَّيْبِ كفُّهُ فتَمْنَعُ عنْ أقصَى البِلادِ وتمْنَحُ
يُباجيهِ عِنْدَ المَنْعِ بالمَنْحِ جُودُهُ فيَسمَعُ ما تُلْقِي عُلاهُ وَيَسْمَحُ
تَرَى الخَطّ والخَطِّيَّ طَوْعَ يَمينِهِ أزاهِرَ دَوْحٍ قُضْبُهُ تتَرَنَّحُ - 90 -
أَلاَ أنهُ مَولَى الحَلائِفِ يوسُفٌ إمَامُ الهُدَى الفَذُّ الأغَرُّ المُمَدَّحُ
إمَامٌ يفوقُ الدَّهْرَ صَرْفًا عَلَى العِدَى ويَعْفو عَن الذنْبِ العَظيمِ وَيَصْفَحُ
أقَرَّ لَهُ بالفَضلِ كُلُّ معانِدٍ فَقَرَّتْ عُيونُ المُومِنينَ وأفْلَحُوا
نَظَرتَ لِمُلْكِ العَرْبِ يا مَلِكَ الهُدَى بمَا الرَّأيُ أنْجَى فيهِ والقَصْدُ أنجَحُ
وأضْمَرْتَ طَوْعَ الحِلْمِ كامِنَ عَزْمَةٍ إلَى أنْ تَحَلَّى فجْرُها المُتَوَضِّحُ
فخابَ سَقِيٌّ قدْ ثَنَيْتَ عَنانَهُ غَداةَ انثَنَى في غَيِّهِ وهْوَ يجْمَحُ
رَمَيْتَ بِورِ الهَدْيِ لَيْلَ ضَلالِهِ فَلاَ فجْرُهُ منْ بَعْدِها يَتَوضَّحُ
تلاَفَيْتَ دينَ اللّهِ وهْوَ عَلى شَفاً يُعَرِّضُ بالإثْلافِ ثُمَّ يُصَرِّحُ
وأمَّلْتَ تَمْهيدَ البِلادِ وإنَّها لَيُدْكَى زِنادُ الخَوْفِ فيهَا ويُقْدَحُ
وإنَّ الذي بالمُلكِ عَزَّ لَصاغِرٌ أيَطمَعُ فيهِ أوْ لِمَرْقاهُ يَطْمَحُ
يَرومُ سَبيلاً لِلنّجاةِ مُمَنَّعًا أيُنْجِدُهُ القَصْدُ الذي لَيْسَ يُنْجِحُ
نَبا في يديْهِ الصَّارِمُ الصَّلْتُ وانثَنى عنِ القَصْدِ فيهِ الذَّابِلُ المُتَرَنِّحُ
ومَن أسْلَمَ الايمَانَ للشِّرْكَ عامِدًا أيُفْلِتُ منْ قَيْدِ الهَوانِ وَيُفْلِحُ
وحَلَّ عُرَى الاسْلامِ في عَقْدِ سَلْمِهِ غَداةَ انثَنَى طَوْعًا لَها وهْوَ يجْنَحُ
إلى أنْ غَدا قدْ أطْفَأَ اللّهُ نارَهُ وكانتْ لِنَصْرِ المشرِكينَ تُلَوِّحُ
صَنائِعُ جَلَّتْ أنْ يُحيطَ بِوَصْفِها بَليغٌ ولاَ في رَوْضِها الفِكْرُ يسْرَحُ
وقدْ كانَ فيهَا الحزمُ ضُيِّعَ بُرْهَةً وَصُدِّقَ فيها المَاكِرُ المُتَنَصِّحُ
فَدارَكْتَ مَن أوْلَيْتَهُ النَصْرَ مُنْعِمًا بعَزْمٍ يَفوقُ الرَّاسِياتِ ويَرْجَحُ

وأُسْدِ رِحالٍ مـنْ جُنـودِكَ كُلّمـا ... أُزيحُوا عَنِ الهَيْجاءِ لمْ يتَزَحْزَحُوا

كَتَائِبُ تُلْقِي عنْدَ بابِكَ كُتْبُهـا ... مِنَ النَّصْرِ والتَأييدِ ما لَيْسَ يُشْرَحُ

كأنّ مذاكيهَا لَدى الحَرْبِ تَرتَمي ... ظِماءٌ على كُتْبـانِ رامَـةَ تَسْنَـحُ

تَخِفُّ إلَى الأعداءِ وَهْيَ تـوابِتٌ ... وتَخْتالُ زهْوًا في مَداهَا وتَمْـرَحُ - 91

إذا اسْتَشْرَفَتْ فَهْيَ الظّباءُ وادٍ بَدَتْ ... لَها غرَرٌ فَهْيَ الكَواكِبُ تُلْمَـحُ

عَلى انّ هَذي حيْثُ تسْبِقُ لِلْعِدَى ... وتَبْدُو بليْلِ النّقْعِ أسْنَى وأسْنَـحُ

وحَضْرتُكَ العَلْيـاءُ عَـزَّ جَنابُهـا ... حَديثُ عُلاهَا مُسْنَدٌ ومُصَحَّـحُ

أقَامَتْ زَمانًا لَيْسَ تُطْلِعُ مِن سَنَا ... مُحَيَّـاكَ بَـدْرًا نـورُهُ يتَـوَضَّحُ

إلى أنْ حَلَلْتَ الآنَ هَالَةَ أُفْقِهـا ... كَما راقَ مِن شَمْسِ الصّباحِ تَوضُّحُ

لقَدْ أبصر القُصّادُ مَرْآكَ عِنْدَهـا ... فَلِلْعَيْـنِ والآمـالِ مَرْمًـى ومَلْمَـحُ

فَبُشْرَى لَهُمْ أنْ أبصَروا بشْرَكَ الذي ... يُتَرْجِمُ عَن نَيْلِ الأماني وَيُـفْصِحُ

وبُشْرَى بِهِ عيدًا يَعودُ بكُلّ مَـا ... إلى نَيْلِهِ الآمـالُ تَسْمُـو وتَطْمَـحُ

أتـاكَ وقـدْ شَفَّ الغَـرامُ هِلالَـهُ ... وأنحَلَهُ الشّوْقُ الحَثيثُ المُبَـرِّحُ

ووَدَّعَ شَهْرُ الصَّوْمِ أكْرَمَ ظاعِنٍ ... يُـرَوِّي أحـاديثَ العُلَـى وَيُصحّـحُ

نأى وَهْوَ يثْنِي بالدي أنتَ أهْلُهُ ... وعَنْدَ حَميلِ الذكْرِ يُمْسِي وَيُصْبِحُ

يُرَجِّيكَ لِلدّنْيَا وَ للدّيـنَ عِصْمَـةً ... لَدَيْها غَدا حُكْمَ المُقـامِ يُرَجِّـحُ

ومَن ألفَ الإيمانَ والعِلـمَ والتُّقَـى ... ونَيْلَ المَعالِي والنّدَى كَيفَ يَبْرَحُ

فَهُنِّئتَـهُ يوْمًـا أغـرَّ وموْسِمًـا ... غَدَتْ فيـهِ أبوابُ القَبـولِ تُفَتَّـحُ

ودُونَكَها مِنْ بحْـرِ فكـري لآلِئًـا ... بمَنْظومِهَـا جيـدُ العُلَـى يَتَـوشّحُ[192]

تَروقُ النُّهَى وصْفًا كأنَّ حَديقَـةً ... بِها لِلصّبَا مَسْرًى وَلِلعَيْـنِ مَسْرَحُ

إذا اللّهُ قدْ أثْنَـى عَلـيْكَ كِتابُـهُ ... بماذا عَسَى يُثْنِي البَليـغُ وَيَمْـدَحُ

فـأيُّ بَيـانٍ عـن مَعاليكَ مُنْبِـيءٌ ... وأيُّ لِسَانٍ عَن صِفـاتِكَ مُـفْصِحُ

(192) في الأصل : ودونها، وهو سهو من الناسخ.

عَلَى أنّ مِن نعْماكَ صُبْحَ هِدايَةٍ ... يُبينُ لَيَ النّهْجَ القَويمَ وَيُوضِحُ
تُطَوِّقُنِي طَوْقَ الحمامَةِ منعِمًا ... فأُصْبِحُ في رَوضِ المَدائِحِ أصْدَحُ
فَللنّثْرِ مِنها في المعاني مَدائِحٌ ... وبالدُّرِّ مِنْها للغَوانِي تَوَشُّحُ
دَعا لكَ بالتَّأْيِيدِ كُلّ مُوَحِّدٍ ... لِذلِكَ أبْوابُ السَّماءِ تَفَتَّحُ
وتَدْعو لَكَ الرُّكْبان حَيث يَضُمُّهَا ... مَقامٌ ورُكْنٌ يسْتَلامُ وأبْطَحُ - 92 -
فَحُلِّدتَ ما سَارَ الحَجيجُ إلَى مِنًى ... ومَا هَلَّلُوا بالذِّكْرِ فيهِ وَسَبَّحوا

وأنْشَدْتُ في عِيد الأضْحَى مِنْ عَامِ أرْبَعَة عَشَرَ المذْكورِ بالمحَلّةِ منْ ظاهِر جَبَلِ الفَتْحِ عَصَمَهُ الله في السَّفْرَة الثانِيَة إلَيْهِ في مجْتَمَعٍ هائِل، يَقصُر عنْ وَصْفِهِ قوْلُ القائِل

هُدًى تَتجَلَّى مِنْ سَناهُ المَشارِقُ ... كَما لاَحَ صُبْحٌ أوْ تَطَلَّعَ شارِقُ
وَعَزْمٌ كأنّ الرَوْعَ سُلَّتْ سُيُوفُهُ ... ونابَتْ عَنِ الأعْمادِ فيهِ المَفارِقُ
وَجود كأنَّ البَحْرُ لَدَّ مذاقُهُ ... أوِ السُّحْبُ يَهْمِي جَوْدُهَا المتَدافِقُ
وَذِكْرٌ كأنَّ الرَّوْضَ هَبَّ بِعَرْفِهِ ... نسِيمُ الصَبا فارْتاحَ لِلطّيبِ نَاشِقُ
وَغُرٌّ جيادٍ في مَدَى النَّصْرِ تَرْتَمِي ... إلى مِثلِها يُعْزَى الوَجيهُ ولاَحِقُ
وَبيضُ ظُبًى مَهْمَا أثارَ جِلادُهَا ... سَحابَ قَتامٍ فَهْيَ فِيهِ بَوارِقُ
وسُمرُ قَناً لوْلاَ الأسِنَّةُ لاخْتَفَتْ ... بِلَيْلٍ عَجاجٍ هُنَّ فيهِ شَوارِقُ
فَيا راكِبَ الوجْناءِ يَبْتَدِرُ السُّرَى ... بِهَا وَهْوَ لِلحَيّ الحِلالِ مُفارِقُ
ولَمْ يَثْنِهِ من بارق الأُفْقِ نَيِّرٌ ... كَعَذْبِ الثّنايا ما العُذَيْبُ وبَارِقُ
ولاَ راقَهُ خَيْفٌ بِهِ الوَجْدُ كامِنٌ ... ولاَ شاقَهُ طَيْف عَلَى البُعْدِ طارِقُ
وَلكِنّهُ يَبْغِي المَحامِدَ والعُلَى ... فَيُهْدَى لَها حادٍ وتُحْدَى أيابِقُ
لِيَحْيَا ذَمَا القَلْبِ المقلَّبِ كُلَّما ... تُحَيِّيهِ مِن رَوْضِ الأماني نَواشِقُ
عَلَيْكَ بمَوْلانا الخَليفَةِ يُوسُفٍ ... فَهاتِيكَ أوْصافٌ لَهُ وخَلائِقُ

إمَـامٌ لـهُ عِلْـمٌ وَحِلْـمٌ ونائِـلٌ ... بِهِ خَابَ لاَحٍ كلَّما فازَ لاَحِقُ
مَآثِـرهُ والـوَصْف يَعْجِـزُ نَظْمُـهُ ... لَئَالٍ بِهَا عِقْدُ العُلَـى مُتَنَـاسِقُ
مَكارِمُـهُ والأُفْـقُ يُـمْسِكُ غَيْثَـهُ ... تَسيلُ عَلى العافِينَ مِنْها مَدافِـقُ - 93
عَزائِمُـهُ والخَيْـلُ تَبْتَـدِرُ الوَغَـى ... تُـقَصِّرُ عنهُـنَّ الجِيـادُ السَّوابِـقُ
كَتائِبُهُ مَنْ ذا إذا هِـي حـارَبَتْ ... يُساوِي وأَمْـلاكَ السَّمـاءِ تُساوِقُ
وَآراؤُهُ والـرَّوْعُ يَـذْهَبُ بالنُّهَـى ... تُصيبُ العِدَى مِنْها سِهامٌ رَواشِقُ
حَمَى وَهَمَى غيثا فَبالبَأسِ والنَّدَى ... حَقـائِبُ تُثْنِـي دائِمًـا وحَقائِـقُ
وأَرْسَلَها طَـوْعَ الفُتـوحِ سَوابِقًـا ... إذا ما انْبَرَتْ هوج الرياحِ تُسابِقُ
وَقَيَّـدَتِ الأَجْفَـانَ أَجْفَانُـهُ سَنـاً ... فَلاَ قَلْبَ إلاَّ وهْوَ في الحسْنِ عاشِقُ
قَـدِ انْتَظَـمَ الأَبطـالُ في جَنَباتِهـا ... صُفوفًا كمَا قد نظم العِقْدَ ناسِقُ
فَلِلّهِ مِنهَا في مَدَى الحَرْبِ تُجْتَلَى ... سَوابِحُ أَوْ في البَرِّ منْها سَوابِـقُ
لقدْ أنـجَبَ الأَنْصارُ مِنـهُ خَليفَـةً ... فَوافَى أخيرًا وهْوَ في المَجْدِ سابِقُ
إلَى اللّهِ هادٍ وهْوَ في اللّهِ ناصِرٌ ... مِـن اللـهِ مَـنصورٌ وباللّـهِ وَاثِـقُ
إذا نـامَ للبيضِ الرِّقـاقِ مُضاجِـعٌ ... وانْ قـامَ لِلسُّمْـرِ الطِّـوالِ مُعانِـقُ
هُوَ الدَّهْرُ يا مَوْلَى المُلوكِ مُبادِرٌ ... لِما تَرْتَضِي مِنكَ المَعالِي مُسابِقُ
مَقـامُكَ مَحمـودٌ وَسَعيُكَ ناجِـحٌ ... وَرِفْـدُكَ مَبْـدولٌ وَوَعْـدُكَ صَادِقُ
وَرَأْيُكَ لِلصُّنْـعِ الجَميـلِ مُوافِـقٌ ... وَعَـزْمُكَ لِلـنَّصْرِ العَزيـزِ مُرافِـقُ
ومُلْـكُكَ للدّيـنِ الحَنيـفِ وأَهْلِـهِ ... يُصادِرُ عَـن أَوْطانِهِـمْ وَيُصادِقُ
تُجَرِّدُ سَيْفَ اللهِ كَفُّكَ في الوَغَى ... كَمـا لاَحَ أثناءَ الغَمامَـةِ بَـارِقُ
ولِلنَّقْعِ سُحْبٌ فَوقَ رَوْضٍ منَ القَنَا ... وحُمرُ الظُّبا في جانِبَيْهِ شَقائِـقُ
وهَذا وَلـيُّ الكُفْـرِ أخفَـقَ سَعْيُـهُ ... وخابَ وأَعْلامُ الجِهـادِ خَوافِـقُ[193]

---

(193) يقصد أبا سعيد عثمان وعقده السلم مع فرناندو الأول ملك أرغون. راجع المقدمة.

وأحْكَمَ عَقْدَ السِّلْمِ يرْضِي بهَا العِدَى ... فَحُـلّتْ عُهـودٌ عِندَهَـا ومَواثِـقُ
لَئِيـمٌ غَـدا بـالسُّوءِ يَـبْسُطُ كَفَّـهُ ... لِيَقْبِضَ بَسْطَ الرِّزْقِ وَاللَّـهُ رازِقُ
صِلاتُ النّدَى لاَ تُرْتَجَى مِنْهُ إذْ لهُ ... عَوائِدُ عَن قصْدِ النَّجاحِ عَوائِـقُ
ولَمَّا تَدَلَّى في مَهـاوِي غـرُورِهِ ... وضَلَّلَهُ داجٍ مِـن الغَـدْرِ غـاسِقُ
خطَبْتَ بِـلادَ العُدْوَتَيْـنِ فأهْطَـعَتْ ... وَمِن قَبْلُ ما صَدَّتْ خُطوبٌ طَوارِقُ - 94 -
وعادَ السَّعيدُ اليوْمَ وهْـوَ مُمَـلَّكٌ ... فَأُمِّـنَ مَذْعـورٌ وأُفْـرِجَ ضَائِـقُ
يَحُـلُّ مِـنَ البَـيْضاءِ دَارَ إقامَـةٍ ... وليْسَ عَنِ القَصْدِ المؤمَّلِ عائِـقُ(194)
وتَعْلُو المَعالِي مَعْلَمَ النّصْرِ عِنْدَهَا ... وتُجْلِي مجانِي الفتْحِ فيهَا المجانِـقُ
فتَسْتَنْـزِلُ الأرْواحَ وهْـيَ صَواعِـدٌ ... وترْفَعُ طُورَ العِـزّ وهْـيَ صَواعِـقُ
وما سَجَـدَ الـخَبُّ اللّئِيـمُ وإنمَـا ... تَجَلَّى لهُ نُورُ الهُدَى فهْوَ صاعِقُ
وَلِلّـهِ مِنْهَـا وِجْهَـةٌ نَاصِرِيَّـةٌ ... مَـداهِبُ فيها لِلْعُلَـى وَطَرَائِـقُ
إلَى حَبَلِ الْفَتْحِ انْتَـدَرْتَ بعَزْمَـةٍ ... يَخِـيبُ مُنـاوٍ عِنْدهَـا ومُنافِـقُ
طرَقتَ حِمَى أقصَى البِلادِ تَمَنُّعًا ... بِمَا لَمْ يَحُزْ في الفَتْحِ مُوسَى وطارِقُ
وسَيْفُكَ صَلْتٌ حَيْثُ بَأسُكَ كامِنٌ ... وقَلبُكَ ثَبْتٌ حيْثُ بَنْـدُكَ خافِـقُ
تَفوقُ بُروجَ الأُفْقِ أبْراجُهُ فَمـا ... كَواكِبُـهُ إلاَّ خَـوافٍ خَوافِـقُ
ولَـمْ لا تُباهِـي أُفْقَـهُ ونجومَـهُ ... قَلائِـدُ في لَبّاتِهَـا وَمَناطِـقُ
ولكِـن بِهِ قَـوْمٌ أباحُـوا ذِمـارَهُ ... بِبغْـيٍ فَنـاعٍ في ذُراهُ وناعِـقُ
لَقَدْ كَفَرُوا نعْماكَ لاَ درَّ دَرُّهُـمْ ... فَجَلَّتْ بِهِمْ طَوْعَ البَـوارِ البَوائِـقُ
ولَـوْ قَـدْ أجابُـوا دَعْـوَةً يوسُفِيَّـةً ... لَمُدَّ مِـن السِّتْـرِ الجَميـلِ سُرادِقُ
إذا ما دَجَى لَيْلُ الخَطايَا فَيوسُفٌ ... لِصُبْحِ الرِّضَى والعَفْوِ والحِلْمِ فالِقُ
يَقـولُ لِسانُ الفَتْـحِ في عَرَصاتِـهِ ... ألاَ سارِعُوا لِلعِزّ طَوْعًـا وَسابِقُـوا
وقَدْ نالَ منهُمْ قصْدَهُ جُندُكَ الذِي ... لَهُ قائِدٌ مِـن عِزِّ نَصْرِكَ سائِـقُ

(194) البيضاء هي فاس الجديد.

وَيَسْتَوْقِفُ الأبصارَ رَمْيُ قِسِيِّهِ فرَاقَ النُّهَى رامٍ لَدَيْهِ ورَامِقُ
تَمَنَّعَ واسْتَعْصَى كَما كَتَم الهَوى على الرَّغْمِ صَبٌّ لِلمَحاسِنِ شائِقُ
ومَا هُوَ إلاّ في يَدَيْكَ زِمامُهُ كَما آبَ مِنْ بعْدِ القطيعَةِ آبِقُ
عَقيلَةُ حُسْنٍ طَارَدَتْ بِوِصالِهَا لِكَيْما تُوافِي بالرِّضَى وتُوافِقُ
فَلِلْمَنْحِ بَعْدَ المَنْعِ أعْذَبُ مَوْقِعٍ أيَحْظَى بمَعْنَى القُرْبِ مَن لاَ يُفارِقُ
وقدْ حاءَكَ الأضحَى فَوَفَّيْتَ حَقَّهُ بِما هوَ بالدنْيَا وبالدّينِ لاَئِقُ - 95
لِذلِكَ تُثْنِي بالذي أنْتَ أهْلُهُ مَغارِبُ مِن آفاقِهَا ومَشارِقُ
فهُنِّئْتَهُ يوْمًا أغرَّ ومَوْسِمًا كَريمًا لهُ الصُّنْعُ الحَميلُ مُرافِقُ
أمَوْلاَي ما وَفَّى وإنْ كُنتُ مُبْدِعًا مِنَ الوَصْفِ قصْدِي ما بِهِ أنا ناطِقُ
وَلَوْ كان مِن جِنْحِ الظلاَمِ أمِدَّةٌ لَدَيَّ ومِن نُورِ الصَّباحِ مَهارِقُ
فَدونكَها مِن خِدْر فكرِيَ غادَةٌ تُقَصِّرُ عنْهَا في الخُدورِ العَواتِقُ
فَلَوْلاكَ مَاذاعَتْ نَواسِمُ فِكرَتِي ورَقَّتْ فَراقَتْ لِلنِّظامِ حَدائِقُ
ولاَ كانَ مِنْ نَظْمِي إذا رُمْتُ مِدْحَةً يُحَيِّيكَ رَوْضٌ رائِعُ الحُسْنِ رائِقُ
فَحُلِّدَت ما سارَ الحجيجُ إلَى مِنًى ومَا لاَحَ في جنحِ الدُّجُنَّةِ بَارِقُ

ولمَّا أطَلَّ عِيد الفطْرِ مِنْ عَامِ خمسَةَ عَشَرَ وَثمانِي مائَة
أنشَدتُ مَولاَنا أيَّدَهُ الله برِياضِ السَّيِّد[195] من خارِجِ مالَقَة حرَسَها
الله وقدْ تَدارَكَ الله الوُجودَ بِرَحْمَتِهِ واسْتَرْسَلتِ الأمْطارُ بعْدَ
حُلولِ رِكابِهِ العَلِيّ بهَا إثرَ قَحْطٍ أصابَهَا وجَهْدٍ عَظيمٍ رَابَها
وألْمَمْتُ بِذِكْرِ هَزيمَةٍ انجَرّتْ عَلَى السُّلْطانِ السَّعيدِ بِظاهِرِ فاس

هذِي سُعودُكَ قدْ حَيَّتْ طَوالِعُهَا وَاسْتَشْرفَتْ مِن ثَنايَاهَا طَلائِعُهَا
آثارُ مُلْكِكَ لا تَبْلَى نَضارَتُهَا أنْوارُ أُفْقِكَ لاَ تَخْبو سَواطِعُهَا

(195) رياض السيد : قصر مالقة أسسه أحد «السادة» الموحّدين.

آياتُ حَمْدِكَ تُسْتَحْلَى مواقِعُهَا ... إيَاتُ هَدْيكَ تُسْتَجْلَى نَواصِعُهَا
ما يَمَّمَتْ بابَكَ القُصَّادُ آمِلَةً ... إلاّ تَدانَى مِنَ الأمالِ شَاسِعُهَا
أبْوابُ عزٍّ بِهَا الأحْبارُ وَارِدَةٌ ... فالسَّيْفُ شارِحُهَا والسَّيبُ شارِعُهَا
بيوسُفٍ مَلكِ الأمْلاكِ ناصِرِهَا ... بَانَتْ شَعائِرُهَا قامَتْ شرائِعُهَا
أمَا له الهِمَّةُ العُلْيَا فَمَا وَضَحَتْ ... مَراقِبُ العِزِّ الاّ وهْوَ فارِعُهَا - 96 -

أما لهُ الكَرمُ المَحْضُ الذي أحذَتْ ... عَنْهُ الغَمائِمُ إذْ جادتْ هَوامِعُهَا
أمَا لَهُ السَّيِّمُ الغُرُّ التي جُلِيَتْ ... كَواكِبًا لمْ تَزَلْ تَهْدِي طَوالِعُهَا
أمَا لهُ العَزَماتُ المَاضِياتُ كَما ... هُزّ الحُسامُ وخاضَ الحربَ دارِعُهَا
أمَا لَهُ المَكْرُماتُ السَّائِرَاتُ تَنًى ... كالشَّمْسِ يُجْلَى عَلى الآفاقِ شائِعُهَا
فالشُّهْبُ مِن نُورِ مَرْآهُ أشِعَّتُهَا ... والسُّحْبُ مِن حودِ كَفَيْهِ يَنابِعُهَا
والغربُ يا طالَمَا وَدَّتْ خِلافَتُهُ ... لَديْهِ لَوْ أنَّهَا رُدّتْ ودَائِعُهَا
هذا مُاوِيهِ قَدْ وَلَّتْ كَتائِبُهُ ... والرُّعْبُ يَقْدُمُها والسَّيْفُ تابِعُهَا
كأنَّنِي بلسَانِ الدهْرِ يُنْشِدُهَا ... أنّي بأسْبابِ عِزٍّ وهْوَ قاطِعُهَا
تَبًّالطائفةٍ طافَ الهَوانُ بِهَا ... تُخادِعُ اللهَ سِرًّا وهْوَ خادِعُهَا
منَ الفِرارِ إلى دارِ البَوارِ مَضَتْ ... فَما مَصارِفُهَا إلاَّ مَصارِعُهَا
وِللعَوَامِلِ في هَامِ العِدَى عَمَلٌ ... فالسَّيْفُ خافِضُهَا والرُّمْحُ رافِعُهَا
كأنَّ بيضَ الظُّبَا والنَّقْعُ مُسْدِلٌ ... بَوارِقٌ قَدْ جَلاَ الظَّلْماءَ صَادِعُهَا
وربَّمَا جالَتِ الأبطالُ حيْثُ غَدَا ... لَيْلُ العَجاجَةِ تَجلُوهُ مَدارِعُهَا
كانَتْ خِلافَتُهُ رَوْضًا فَها هِيَ قَدْ ... أضحَى هَشيمًا بنارِ الحَرْبِ يانِعُهَا
أيَخْطُبُ السِّلْمَ والبَيْضاءُ مانِحَةٌ ... حُلولَ أرْجائِهَا لا كانَ مانِعُهَا
كَتائِبُ النَّصْرِ إذ حَلَّتْ بسَاحَتِهَا ... كَرْهًا تُوَدِّعُهَا طَوْعًا تُوادِعُهَا
وكَيفَ تُدْفَعُ عنْ فاسٍ أُسودُ وَغًى ... ومَا مرابِضُهَا إلاَّ مَرابِعُهَا
إنْ أجْفَلَتْ فِئَةُ التوْحيدِ ها هِيَ قَدْ ... عَادَت تنازِلُ فيها مَنْ يُنازِعُهَا

وقائِعٌ مـحَّصَ اللهُ العِبـادَ بِهـا ... حَتَّـى تَبيَّـنَ عَاصِيهَـا وَطائِعُهَـا
إن كان ضُيِّعَ حَزْمٌ عِندَمَا افْتَرقَتْ ... فـإنَّ جـودَكَ حامِيهَـا وجامِعُهَـا
هـذَا نـداكَ بـهِ نيـلتْ مَطالِبُهَـا ... هذَا هُداكَ بِهِ راقتْ مَطالِعُهَـا[196]
وإنَّ مُلْكَكَ وافِيهَا وقَدْ عَـرَضَتْ ... لَها الحَوادِثُ حَتَّى خيفَ واقِعُهَـا - 97
فاسْتَشْعَرْتَ بِجَميلِ الصُّنْعِ حينَ عَلَتْ ... بالنَّصْرِ منْكَ عَلَى الشِّعْرى مَصانِعُهَا
فَقَرَّ عيْنًـا كما شاءَ الوَلـيُّ بهَـا ... وفـازَ بالعِـزِّ رائيهَـا وسامِعُهَـا
إذْ شيَّدَ الصُّنْعُ لِلنَّصْرِ العَزيزِ بِهَا ... مَصانِعًـا يَبْهَـرُ الأَلْبـابَ رائِعُهَـا
مَن كابْنِ نَصْرٍ حُلاً مأْثورَةً وعُلاً ... مُضيعُهَـا قـاصِرٌ عَنْهَـا وطائِعُهَـا
هَـذا وإنّ تِلِمْسانًـا بـهِ انـتَصَرَتْ ... مُلوكُهـا ومَعالِيـهِ تُراجِعُهَـا[197]
فَحَثَّ سائِحُهَا سَيـرًا لِسابِحِهَـا ... وَبَثَّ نجْـواهُ داعِيهَـا وَضارِعُهـا
هوَ الجِهادُ فإن باعُـوا نُفوسَهُـمُ ... مِـن رَبِّهِـمْ فـازَ بالدَّارَيْـنِ بائِعُهـا
وحَـلَّ مالَقَـةً والنّـاسُ قـدْ يَـئِسُوا ... مِن رحْمَةٍ عَنهُمُ ماضاقَ واسِعُهَـا
أضْحَتْ لَديْهَا نُفوسُ الخَلْقِ خائِفَةً ... لا يَهْتَدِي لِسَبيلِ الأَمْنِ جازِعُهَـا
قدْ أَوْبَقَتْهُمْ خَطايَاهُمْ وليسَ سِوَى ... جهَـادِهِ فِي سَبيـلِ اللهِ شافِعُهَـا
صَنائِعُ اللّـهِ لمَّـا حَـل ساحَتَهـا ... فَضْلاً بهَا قدْ حَباهُ اللّهُ صانِعُهَا
فـأشْرَقَتْ أَوْجُـهُ البُشْرَى بَناشِئَـة ... مِن الغَمامِ قـدِ انْهَـلَّتْ مَدامِعُهَـا
حَيًّا الحيَـا وجُفـونُ الزَّهْـرِ نائِمَـةٌ ... والآن لا يالفُ الإِغْفـاءَ هاجِعُهَـا
لَلّـهِ نـاضِرَةٌ مِنهَـا وناظِـرَةٌ ... تَنبَّهَـتْ بعْدَمَا أغْـفَتْ هَواجِعُهَـا
هَـذي بَواسِمُهَـا رَقّتْ نَواسِمُهـا ... هِـذِي مَنازِلُهَـا رَقّتْ منازِعُهَـا
خَيْـلُ النـواسِمِ لا تَثْنِي أعِنَّتَهَـا ... عَنِ الرَّوابِي التِي راقَتْ رَوائِعُهَـا
ومالَتِ القُضْبُ زَهْوًا كُلَّمَا نَزَعَتْ ... لَهـا فنازِلُهَـا يَثْنِيـهِ نَازِعُهـا

---

(196) يشير الشاعر إلى الأموال التي كان ممدوحه يبذرها في إثارة الفتنة.

(197) هذا يشير إلى تواطؤ الممدوح مع بني عبد الواد على بني مرين.

وربَّما قَدْ تُقيمُ الرّيحُ مائِلَهَا كَما يُقيمُ صَغا الأبطالِ وَازِعُهَا
هذَا وهُنِّئْتَ عِيدَ الفطْرِ إذْ وَرَدَتْ فيهِ البَشائِرُ تُسْتَحْلَى مَواقِعُهَا
طَلَعْتَ فيهِ وَمِن مَرْآكَ شَمْس ضُحًى تُجْلَى فَيَجْلُو دُجَى الظَّلْماءِ سَاطِعُهَا
فاهْنأْ بِهِ ولنَا الهَنَاءُ بأنْ مُدّتْ لنَا يَدُكَ العُلْيَا نُبايِعُهَا
ماذا تُسَطِّرُ أقْلامُ البَليغِ إذَا أبْدَى وأبْدَعَ باريهَا وبارِعُهَا - 98 -
شُهْبُ المَعانِي وأطْراسِي مَراقِبُهَا ظِباءُ ألفاظِهَا فِكْرِي مَراتِعُهَا
بنَصْرِ مُلْكِكَ أعْلَى اللّهُ مظْهَرَهُ لِلهِ سَاجِدُهَا يَدْعُو وراكِعُهَا
دامَتْ خِلافَتُكَ العُلْيا التي خَضَعَتْ لَهَا الخَلائِقُ والدُّنْيَا تُطاوِعُهَا

وأنْشَدتُ في هَنائِهِ أيَّدَهُ الله ونَصَرَهُ بعيدِ الأضْحَى مِن عام
خَمْسَةَ عَشَرَ وَثَماني مِائة إثْرَ الهَرَجِ الواقِعِ بالحَضْرَةِ مِن أهْلِ
رَبَضِ البَيَّازينَ وسِواهُمْ مِمّن تبِعَهُمْ وألْمَمْتُ فيهَا بذكرِ الصُّلْحِ الذي
رغبَ السُّلْطانُ أبو سَعيدٍ مِنْ مَوْلانا نَصَرَهُ الله في عَقْدِهِ بَينَهُ
وبَيْنَ السُّلْطان السَّعيدِ عَلى قِسْمَةِ البِلادِ الغربيّةِ بَيْنَهمَا.
وأجابَهُ أعْلَى الله مَقامَهُ إلى ذلك[198]

لِمَنْ أوْجُهٌ غُرٌّ تَروقُ سِماتُهَا فَتُشْرِقُ مِن نُور الهُدَى قَسَماتُهَا
تَلوحُ بأُفْقِ المُلْكِ حيْثُ خِلالَهَا كَواكِبُ هَدْيٍ تُجْتَلَى نيّراتُهَا
فآياتُهَا أجْلَى وأوْضَحُ كُلَّمَا حَلَتْ داجِيَ الخَطْبِ المُلِمّ إياتُهَا[199]
فَلِلهِ مِنْ أبْناءِ نَصْرٍ خلائِفٌ إذا جَنَتِ الأيَّامُ هُمْ حَسَناتُهَا
إلَى دَوْحَةِ النَّصْرِ العَزيزِ انتِسابُهُمْ وهُمْ سِرُّهَا إنْ عُدِّدُوا وَسَراتُهَا

(198) راجع ما كتباه في الموضوع في المقدمة، وليوسف قصيدة في الصلح المذكور (ديوانه : 39 — 40).
(199) إياتُها : ضوءها.

لَهُمْ كَيفَ شاءَتْهُ المَكارِمُ والعُلَى ... عَزائِمُ بانتْ في العِدَى فَتكاتُهَا

فما لِلعِدَى تَبغِي حِمَى مِلَّةِ الهُدَى ... وأبْناءُ أنْصارِ الرَّسولِ حُماتُهَا

فَهُمْ إن دَعَا دَاعِي النِّزالِ كُماتُهَا ... وهُمْ إنْ دَجا لَيْلُ الضَلالِ هُداتُهَا

غُيُوثٌ ولكِنْ كُلَّمَا شَهِدوا الوَغَى ... لُيُوثٌ ومُلْتَفُّ الْقَنَا أجَماتُها

قُلوبٌ إلى دَاعِي الرَّشادِ مُجيبَةٌ ... إذا ما العِدَى أَلْوَتْ بهَا عَفَلاتُهَا

فأيْنَ مَضاءُ السَّمْهَرِيةِ والظُّبَا ... إذا أُبْرِمَتْ في المُلْتَقَى عَزماتُهَا - 99

إذا ما دَجَى النَّقْعُ المُثارُ بأُفْقِهِ ... أَارَتْ فجَلَّتْ جِنْحَهُ مُرْهَفاتُهَا

وقَد أنجَبُوا مَوْلَى المُلُوكِ الذي غدتْ ... تُؤمِّل جَدْوَى راحَتَيْهِ عُفاتُهَا

فَما وجَّهَتْ إلاّ إلَيْهِ وُجوهَهَا ... ولاَ خَلصَتْ إلاّ لَهُ دَعَواتُهَا

إذا نُصِبَتْ شَرْقًا وغَرْبًا مَنابِرٌ ... فتَحْطُبُ باسْمِ اليُوسُفِيِّ دُعاتُهَا

لهُ كلَّما تُتْلَى صَحائِفُ مَجْدِهِ ... مآثِرُ قَدْ راقَتْ بهَا ورَقاتُهَا

وَمِنْ عَجَبٍ أنَّ العَزائِمَ مِنْهُ لاَ ... تَحامَى حِمَى أعدائِهِ فَتكاتُهَا

وإنْ فئةٌ لِلدّينِ تُنْمَى وأذْنَبَتْ ... لدَيْهِ غَدَتْ مغْفورَةً هَفَواتُهَا

وهل هيَ إلاَّ هِمَّةٌ خزْرَجِيَّةٌ ... تلوحُ عَلَى شهْبِ السَّماءِ سِماتُهَا

وهل هيَ إلاَّ عَزْمَةٌ غالِبِيَّةٌ ... إذَا خَفَّتِ الأعْلامُ راعَ ثَباتُهَا

وهل هيَ إلاَّ قُدْرَة نَاصِرِيَّةٌ ... ثَنَى البَطشَ مِنْهَا حِلْمُها وأناتُهَا

وهل هيَ إلاَّ شيمَةٌ يُوسُفِيَّةٌ ... قَضَى صَفْحُهَا أنْ أغْمِدتْ صَفحاتُهَا

فَيَمْحُو الخَطايَا حِلْمُه وهْوَ قادِرٌ ... إذا العَفْوُ مِنْهُ أمَّلتْهُ جُناتُهَا

ويَلْقَى عَدُوّ الدِّين طَوْعَ جِهادِهِ ... بِصَفْحَةِ عَزْمٍ لا تُفَلُّ شَباتُهَا

وأسْدِ رِحالٍ مِن ذَوي الحَزْمِ لَمْ تَزَلْ ... لِحَرْبِ العِدَى مَأخُوذَةً أُهْباتُهَا

فَيورِدُهَا للأمْنِ أعْذَبَ مَشْرَعٍ ... تَذودُ العِدَى عَن وِرْدِهِ مُشْرَعاتُهَا

تُقيمُ صَغَا الهَيْجاءِ راحَةُ يُوسُفٍ ... وقدْ قُوِّمَتْ في الدَّارِعِينَ قَناتُهَا

فَللهِ ما أوْهَى قُوَى الصَّبْرِ كلَّمَا ... أَلَمَّتْ بأوْهامِ العِدَى خَطَراتُهَا

وقَدْ منَحُوا الأكتافَ إذْ صافَحَتْهُمُ سُيوفٌ تَروقُ المُجْتَلِي صَفَحاتُهَـا
وتُخفـقُ مَسْعَى الكافِريـنَ بُنـودُهُ إذا خَفَـقَتْ في أفْقِهَـا عذَباتُهَـا
وراقَ النّهَى ما رَاعَ مِن قَطْفِ هَامِهَا وقَـدْ أيْنَـعَتْ لِلمجْتَنِـي ثَمَراتُهَـا
دَعُوا فِئَةَ الإشرَاكِ لا دَرَّ دَرُّهَـا كَأنّي بِهَـا لا تَنْقَضِي حَسَرَاتُهَـا
كأنّـي بخَيْـلِ اللّـهِ تَبتَـدِرُ الوغَـى وقدْ حَمَلَتْ أُسْدَ الثّرَى صَهَواتُهَا -100-
سَوابـقُ تَرتَـدّ الرّيـاحُ وتَتّقِـي بِحَيْثُ تُجارِي هُوجَهَا مُرْسَلاتُهَـا
تَروعُ الأعَادِي في مَدَى السّبْقِ نُزَّعًا تَـروقُ النُّهَـى ألوَانُهـا وشِيَاتُهَـا
إذا هِـيَ بالأبْطـالِ جالَتْ رأيْتَهَـا تُقَـرِّبُ آجـالَ العِـدَى مُقْرَباتُهَـا
فَيا ناصِرَ العَلْياءِ والمَـلِكَ الـذي بِـهِ مِلّـةُ الإسْلامِ كُـفَّتْ عُداتُهَـا
تَرومُ مُلوكُ الأرْضِ شَأْوَكَ في العُلَى وقدْ قَصُرَتْ عَـن نَيْلِهِ خُطُوَاتُهَـا
ولمّا تَوالَتْ فتْنَةُ الغَربِ واعْتَـدَتْ عَلى أهْلِهِ في كُلّ حَـيٍّ طُغاتُهَـا
وما اتّفَقَتْ إلاّ عَلى صُحْبَةِ الرَّدَى كمَـا اخْتَلَـفَتْ آراؤُهَـا وَلُغاتُهَـا
دَعَتْكَ لِعَقْدِ السِّلْمِ بيْنَ مُلوكِهـا أكارِمُ حـيٍّ في يـدَيْكَ حَياتُهَـا
فـأصْدَرَتْ لِلأمْـلاكِ مِـنكَ أوامِـرًا إذا نُطِقَتْ في الحَفْلِ طالَ صُماتُهَا
تَطـاوَلُ أعْنـاقٌ وتَسْمُـو نَواظِـرٌ إلَيْهَـا وَتُوليهَـا امْتِثـالا ولاتُهَـا
دَعَا بِهِمُ داعِي الأمانِ فأصْبَحُـوا ودُنْياهُـمُ لاَ تُتَّقَـى حادِثاتُهَـا
وإنّ حجيـجَ اللّـهِ حَلُّـوا بِمَكّـةٍ ولاَحَتْ لديْهِـمْ دونَنَـا عَرَصاتُهَـا
ومـا احْتَمَلُـوا إلاّ قُلُوبًـا تَقَلّـبَتْ فَما تَنقَضِي طَوْعَ النَّوَى زَفَراتُهَـا
إذا رَامَتِ الحجّاجُ رَمْيَ جِمارِهَـا فنـارُ الأسَى مَشْبوبَـةٌ جمَراتُهَـا
فللّـهِ في مغْنَـى الْهِدَايَـةِ أُسْرَةٌ يُعَرِّفُهَـا مَعْنَـى الـرِّضَى عَرَفاتُهَـا
تَطوفُ بِبَيْتِ اللهِ سَبْعًا وتَنثَنِـي وقَـدْ مُحِـيَتْ أثْنـاءَهُ سَيِّئاتُهَـا
ويُهْدَى عَلَى قُرْبِ المَزارِ سَلامُهَا بحَيْثُ النّبِيُّ المجْتَبَـى وَصَلاتُهَـا
فَأهْلاً بِهَذا اليَوْمِ في المَوْقِفِ الذِي إذا قصَّرتْ طـالَتْ بـهِ وقفاتُهَـا

كَثيرٌ بمَذْخور الثوَابِ اهْتمامُهَا ... قَليلٌ إلَى ما خَلّفتْهُ الْتِفاتُهَا
وباتَتْ وقَدْ فازَتْ بأنْعَمِ لَيْلَةٍ ... قَضَى فَضْلُهَا أن لا تُذَمَّ غَداتُهَا
فَهُنِّئْتَهَا طَوْعَ السُّعودِ مَواسِمًا ... قَدِ اتّضَحَتْ آياتُهَا وإياتُهَا
تُحَيِّي كَما شاءتْ عُلاكَ وُفودُهَا ... فتَحْيَا بجَدْوى راحَتَيْكَ عُفاتُهَا
تُقَبِّلُ مِن مَوْلَى الخَلائِفِ يُوسُفٍ ... يَمينًا تَعُمُّ القاصِدِينَ هِباتُهَا -101
تُرينا مَن الصُّنْعِ الجَميلِ عوائدًا ... قَدِ اتّصلتْ بالآمِلِينَ صِلاتُهَا
وَبشْرَى بهِ عيدًا غَدَتْ مِلّةُ الهُدَى ... كَما عُوّدَتْ تَعْلُو بِهِ كَلِماتُهَا
أمَولاَيَ هَلْ يُعْطِي الخلافَةَ حَقّهَا ... مَن المَدْحِ فِكْرٌ أعْجَزَتْهُ صِفاتُهَا
مَعانٍ وألْفاظٌ بمَدْحِكَ تُجْتَلَى ... زواهِرُهَا أوْ تُجْتَنَى زَهراتُهَا
سَنَا الزُّهْرِ ما قَدْ راقَ أمْ ورَقاتُهَا ... شَذَا الزَّهْرِ ما قَدْ رقَّ أمْ نفحَاتُهَا
وَبالجُموعِ في ذَرَى القُبَّةِ التِي ... بأوْجُهِهِمْ رَاقَتْ لَدَيْكَ جِهاتُهَا
يَميلونَ عُجْبًا بالثناءِ كأنّمَا ... تَدورُ بأكْواسِ المُدامِ سُقَاتُهَا
هَلِ اسْتَقْبَلوا أمْداحَهَا أمْ تَحَمَّلتْ ... شَذا الزّهْرِ أثْناءَ القَبُولِ رُواتُها
وهَل هذه الأفكارُ إلاَّ ظَعائِنٌ ... هَوتْهَا مِنَ الأمْداحِ فِيكَ حُداتُهَا
فَللَّهِ مِنهَا والمَحاسِنُ تُجْتَلَى ... حدائِقُ مَدْحٍ تُجْتَنَى طَيّباتُهَا
بَقِيتَ لِأمْلاكِ البَسيطَةِ آيَةً ... بِشَمْسِ ضحَاهَا تَهْتَدِي نيّراتُهَا

وَقُلْتُ أُهَنِّئُ مَقامَهُ الكريمَ العَلِيَّ اليُوسُفِيَّ أسْماهُ اللَّهُ
بعيدِ الفَطْرِ مِن عامِ سِتَّةَ عَشَرَ وثمانِمائَة ولمْ أُنْشِدْهَا بَسَبَب
ثُبوتِ الشهْرِ أثناءَ اليَوْمِ لِتَجَهُّمِ المرقَبِ وتكاثُفِ السَّحابِ فيهِ فاقْتَصرَ
عَلى الصَّلاةِ آخر الوَقْتِ والخُطْبَةِ مِن غَيْرِ تَطْويلٍ واحْتُصِرَتِ البَيْعَةُ
وَما سِوَى ذلِكَ مِمَّا جرَتْ بِهِ العادَةُ لِعَدَمِ الاسْتِعْدادِ والتَّأهُّبِ

هَدي الكَواكِبُ قابَلَتْكَ سُعودُهَا ... ولَدَيْكَ في أوْجِ الكَمالِ صُعودُهَا

هذي المَآثِرُ حَيْثُ قامَ خَطيبُهَا ... يَرْتَدُّ عَنْهُ زِيادُهَا وَيَزِيدُهَا[200]

هَذي محامِدُكَ التي عنْ مثلِها ... يَثْنِي العِنانَ أمينُهَا ورَشيدُهَا[201] -102-

هذي المَآثِلُ ما يَطولُ نُزُوحُهَا ... إلاَّ وَيدْنو كَيْفَ شِئتَ بَعيدُهَا

هَذِي المواهِبُ كُلّمَا سُئِلَ النَّدَى ... ياتِي بمُنهَلّ الغمائِمِ جودُهَا

هدي المكارِمُ كُلّمَا بَجِلَ الحَيَا ... أَحْيَا الوُجودَ لَدَى عُلاكَ وُجودُهَا

هَذِي الخَلائِفُ يَمّمَتْكَ عَلى النّوَى ... أَرْسالُها ورَجَتْ نَداكَ وُفودُها

مَا راعَ خَطْبٌ أوْ تفاقَمَ مُعْضِلٌ ... إلاّ وأنتَ عِمادُهَا وعَميدُهَا

ما بَدَّلَتْ كلِماتِهَا إذْ قُوبِلَتْ ... بعَواطِفٍ مِن وصْفِهَا تَوْكيدُها

ما أزْهَرَتْ لِلْمَكْرُماتِ حدائِقٌ ... إلاَّ غَدَتْ يُمْنَى يَديكَ تَرودُهَا

ما أخْلَفَ الأرْضَ الغَمَامُ وأمْحَلَتْ ... إلاَّ وَجَدْوَى راحَتَيْكَ تَجودُهَا

قُصِرتْ عَلَيْكَ الْمَكْرُماتُ وَمِنْكَ قَدْ ... راقَ الخلائِفَ فوْقَهَا مَمْدُودُهَا

تَبْغِي الْأَعَادِي في جَنابِكَ مَوْرِدًا ... فتَكُفُّهَا عَنْ وِرْدِهَا وتَذُودُهَا

كَمْ أخْفَقَتْ مَسْعَى عِداكَ خَوافِقٌ ... في الحَرْبِ قدْ نُتِيرَتْ عَلَيْكَ بُنُودُها

لِلّهِ دَوْلَتُكَ التِي لِجَلالِهَا ... خَضَعَتْ صَناديدُ المُلوكِ وَصيدُهَا

في حَرْبِهَا مَاضٍ لَدَيْكَ حُسامُهَا ... في سَلْمِهَا مُسْتَقْبَلٌ تَأْييدُهَا

هَذي خِلافَةُ ناصِرِ الدِّينِ الذِي ... يَغْزو وأمْلاكُ السَّماءِ جُنودُهَا

ولسَوْفَ يُبْذَلُ في جِهادِ عُداتِهَا ... طَوْعَ المَكارِمِ والعُلَى مجْهودُهَا

ولسَوْفَ يُلْفَى كُل باغٍ مُسْرِفٍ ... يَصْلَى بِنارِ الحَربِ وهْوَ وَقُودُهَا

لَكأنْ بِهِ والحَرْبُ تُوقِدُ لِلْعِدَى ... نارًا بِمُنْهَلٍّ النَّجيعِ خمُودُهَا

لَكأنْ بِهِ يَغْزُو كتائِبَهُمْ وَقَدْ ... جَالَتْ جِيادُ النّصْرِ كيفَ يُرِيدُهَا

---

(200) زياد بن مُعاوية (ابن أبيه) ويزيد لعلّه يزيد بن المهلّب، ولهُ خطب أو يزيد بن الوليد أو يزيد ابن هبيرة وكان خطيبًا.

(201) الرشيد والأمين ولده.

لَكَأنْ بِهِ والرُّومُ عَندَ لِقائِهِ ... لَمْ يُغْنِ عنْهَا عَدُّهَا وَعَديدُهَا
يَرْتَاعُ خِيفَةَ بَأسِهِ مُرْتاحُهَا ... وَيَخِفُّ في طَلَبِ النّجَاةِ وَئيدُهَا
وكَتَائِبُ الإسْلامِ في أعْقابِهِمْ ... يَمْحُو معَالِمَ شِرْكِهِمْ تَوْحيدُهَا
واليُوسُفيُّ المُلْكَ لَوْلاَ أمْنُهُ ... في الأرْضِ ما ألفَ الجُفونَ هُجُودُهَا
مَلِكٌ تَرى الأمْلاكَ وَهْوَ يَطولُهَا ... سَبْقًا لِغاياتِ العُلَى ويسُودُهَا
ما سَامَ في الأقْطارِ قائِمَ سَيْفِهِ ... إلاّ وَقَامَ بعَدْلِهِ تَمْهِيدُهَا -103
فارتَدَّ بَاغيهَا وذُلِّلَ خَطْبُهَا ... وانْقادَ مِن بعْدِ الإباءِ شَرُودُهَا
بِمَكارِمٍ لِلْمَعْلُواتِ يُميلُهَا ... ومَعالِمٍ لِلْمَكْرُماتِ يُشيدُهَا
وسَوابِقٍ يَحْلُلْنَ مُشْتَجَرَ القَنَا ... غِيلاً فَتَزْأرُ بالكُماةِ أُسُودُهَا
وَصَوارِمٍ ما جُرِّدَتْ في المُلْتَقَى ... إلاّ وَهَامُ الدَّارِعينَ غُمودُهَا
عَجبًا لهَا بِيضًا ومَا إن رَاعَهَا ... خجل ويَدو في الوَغَى تَوْريدُهَا
وَدوابِلٍ خفت كأسْرابِ القَطَا ... هِيمًا تحومُ وَفي النّجيعِ وُرودُهَا
لَوْلاَ اشْتِغالُ سِنانِهَا حَيْثُ النَّدَى ... مس كَفِّهِ يَهْمِي لأوْرَقَ عُودُهَا
تُرْوَى المَعالِي عنْ عَواليهِ التي ... ما راعَ زُرْق عُيونِهَا تَسْهِيدُهَا
فَتقودُ حَتْفَ المعْتدِي لَحَظاتُهَا ... وتُقَدُّ في حَلَقِ الدُّرُوعِ قُدُودُهَا
عَجَبًا لهَا طَوْعَ العَزائِمِ شُرَّعًا ... لَمْ يَثْنِهَا عَن قصدِهَا تَقْصِيدُهَا
سِيَمٌ لأنْصارِ الرّسالَةِ تَنْتَمِي ... إنْ عُدّدتْ لاَ ينقَضِي تَعْديدُهَا
للهِ آثارٌ لهُمْ وَمآثِرٌ ... يَبْلَى الزمانُ ولاَ يَزولُ جَديدُهَا
فِيهِمْ أُبِيدَتْ في اليَمامَةِ أمَّةٌ ... غَصَّتْ بِهِمْ طوْعَ الضّلالَةِ بِيدُهَا(202)
ولَيَوْمِ بَدْرٍ بادَرُوا فاسْتأصلوا ... فِئَةً تَمادَى كُفْرُهَا وَجُحُودُهَا(203)
لجِدالِهَا حُجَجٌ تُثيرُ جِلاَدَهَا ... حَيْثُ الحُسامُ مُبينُهَا وَمُبيدُهَا

---

(202) اليمامة هي موطن بني حنيفة قوم مسيلمة الكذاب

(203) يشير إلى دور الأنصار في غزوة بدر

حَتَّى قَضَوْا طوْعَ الجِهادِ وَخَلَّفوا ... خُلَفـاءَ أُنْجِـزَ بالعُلَـى مَوْعُودُهَـا

كانُوا ظِـلالاً والهَواجِـرُ تَلْتَظِـي ... قَـدْ فـاءَ فَـوْقَ العالَمِيـنَ مَديدُهَـا

بِهِـمُ الخِلافَـةُ نُظِّـمَتْ أسْلاَكُهَـا ... لَمَّـا وهَـى بيَـدِ الضَّلالِ فَرِيدُهَـا

وَأتَى عَدُوُّ الدِّينِ يَرْجُو أن يُرَى ... عَن حَمْلِ ما قَدْ قَلَّدَتْهُ يَؤُودُهَـا

أعْلَـوْا مَظاهِـرَ قُبَّـةِ الإسْلامِ إذْ ... قـامَتْ بِهِـمْ أطْنابُهَـا وعَمُودُهَـا

فئةٌ تَمائِمُهَا السُّيُـوفُ ومـا دَرَتْ ... لِلحَـرْبِ مَعْنًـى والسُّرُوجُ مُهُودُهَـا

ولِحَمْلِ أعْبـاءِ الوَفـاءِ قـدِ انْبَـرَى ... مِن قَبْلِ أنْ كُتِبَتْ عَلَيْهِ وَلِيدُهَا

تُتْلَـى وتُجْلَـى آيُهَـا وإياتُهَـا ... يُرْجَى ويُخْشَى وعْدُهَا ووَعِيدُهَا[204] -104-

فلَهَا عَلى حُكْمِ المكارِمِ وَالعُلَـى ... هِمَمٌ قَضَتْ أنَّ المُلـوكَ عَبيدُهَـا

فَمَعالِـمُ الإسْلامِ بَعْـدَ عفائِهَـا ... فِي أرْضِ أنْـدَلُسٍ بِهِـمْ تَوْطيدُهَـا

يـا نـاصِرَ الدِّيـنِ الـذِي أمْداحُـهُ ... وَيَهْدِي وَيُهْدَى قَصْدُهَا وقَصيدُهَـا

وَقَـفَتْ بِبـابِكَ مِـن مَريـنٍ أُسْرَةٌ ... طَوْعَ الوَفاءِ فما تُضاعُ عُهُودُهَا

وافَـتْكَ لا تَثْنِـي اعِنَّـةَ سَيْرِهَـا ... وَرجاؤُهَـا إذْ يَمَّمَـتْكَ يَقودُهَـا

فأنَلْتَ ما ساءَتْ مِن النِّعَمِ الَّتي ... يُرْجَى وانْ عَظُمَتْ لديْكَ مَزيدُهَا

واهْنَـأْ بعِيـدٍ عائِـدٍ لكَ بالمنَـى ... ولْتَهْنَـإِ الدّنْيـا لَـدَيْكَ مَزيدُهَـا

قد سَارَ شَهْرُ الصَّوْمِ أكْرَمَ ظاعِنٍ ... يُلْقِي أحَـاديثَ العُلَـى وَيُعيدُهَـا

تَتَناقَـلُ الرُّكْبـانُ منْهَـا كُلَّمَـا ... قَدْ لَـدَّ فِي أسْماعِهَـا تَرْديدُهَـا

هَيْهاتَ يَنْسَى مِن حِماكَ مَعاهِدًا ... ولهَا عُهـودٌ مـا يُـذَمُّ حَميدُهَـا

وأتاكَ عيـدُ الفِطْـرِ أشْرَفَ قـادِمٍ ... راقَ المَكـارِمَ عِنـدَهُ تَجْديدُهَـا

قد شَفَّـهُ شَوْقٌ لِحَضْرَتِكَ الَّتِـي ... بعَوائِـدِ الصُّـنْعِ الجَميـلِ يَعودُهَـا

فَطَلَعْتَ فِي أُفُـقِ الخِلافَـةِ آيَـةً ... راقَتْ تَهائِمُهَـا بِـهِ ونُجودُهَـا

ولَدَيْكَ مِن أمَرَاءِ مُلْكِكَ أوْجُـهٌ ... غُـرٌّ تَـرُوقُ النَّيِّـراتِ سُعودُهَـا

---

(204) فيه لفّ ونشر مرتب، وإياة الشمس : ضوءها وشعاعها.

ومَدَدت لِلتَّقْبيلِ كَفًّا لَمْ تَزَلْ تَنْهَلُّ فَوْقَ الآمِلينَ عُهودُهَا
أولَيْتَ أحْرارَ القَبائِلِ أنْعُمًا وبَدَأْتَهَا ونَدَى يَدَيْكَ مُعيدُهَا
فأتَتْ إلَى تَجْديدِ بَيْعَتِكَ الَّتي هَاذِي مَلائِكَةُ السَّماءِ شُهودُهَا
جَعَلَتْ يَمينَكَ لِلْمَكارِمِ قِبْلَةً فَلِذاكَ طالَ رُكوعُهَا وَسُجودُهَا
وإلَيْكَهَا مِنْ بَحْرِ فكْرِيَ لُؤْلُؤًا لَوْلاَ خِلالُكَ لَمْ يَرُقْ تَنْضيدُهَا
حَسْناءُ فالزُّهْرُ الكَواكِبُ تَنْتَني عنْهَا وتَقْصُرُ في المَقاصِرِ غِيدُهَا
أوَ لَيْسَ أفْكاري حَدائِقَ تُجْتَلَى لاَ يَشْتَكِي مَحْلاً لَدَيْكَ مَجودُهَا[205]
لَوْلاَكَ ما راقَتْ مَعانِيهَا وَلاَ راقَتْ عَلَى جِيدِ الزَّمانِ عُقودُهَا
لَكَ دَوْلَةُ العِزِّ التي قَدْ عَزَّ مَن أضْحَى مُوالِيهَا وخابَ حَسُودُهَا -105
يَدْعو لَهَا بالنَّصْرِ كُلّ مُوَحِّدٍ دامَتْ لَهَا الدُّنْيَا ودامَ خُلودُهَا
فعَلَى الخلائِقِ أنْ تُطيلَ دُعَاءَهَا وعَلَى الذي تَدْعُو لَهُ تخْليدُهَا

وأنشَدتُ في عيدِ الأضْحَى مِنْ عام ستَّة عَشَرَ
وثَماني مِئة بالمشوَر السَّعيدِ مِنْ حَمرَائِهِ العَلِيّةِ وَقَدْ
ورَدَ عَلى بابِهِ الكَريمِ جُمْلَةٌ وافِرةٌ من أكابِرِ بَني مَرين
وسِواهُمْ منَ القبائِلِ بعْدَ الحادِثَةِ عَلى السُّلطانِ السَّعيدِ
لائذين بعِزِّ جَنابِه، مُتَمَسِّكينَ بأوْثَقِ أسْبابِه، فَأوْلاَهُمْ
أيَّدَهُ اللهُ مَواهِبَ أنْعُمِهِ وَآواهُمْ، وَوَفَّرَ نُزْلَهُمْ عِنْدَ
وِفادَتِهِمْ وَكَرَّمَ مَثْواهُمْ، فاطْمَأنَّتْ بِهِمُ الدّار، وقَرَّ بحَضْرَتِهِ القَرار[206]

كَواكِبُ عِزٍّ في ذَرَاكِ حُلولُهَا تَلُوحُ ولَكِن لَيْسَ يُخْشَى أُفُولُهَا

---

(205) مَجودها : منْ جيد بمعنى عطش.

(206) تشير هذه المقدّمة إلى فشل الممدوح في قلب النظام بالمغرب وإلى نهاية «السعيد» ولجوء من كان معه إلى غرناطة، أمّا نهاية السعيد وتاريخها فتوحد فيها روايات مختلفة فالسخاوي في الضوء اللامع =

وأنْوارُ هَدْيٍ تُجْتَلَى حَيْثُ لِلْعِدَى عُيونٌ تَعامَى عنْ سَناهَا كَلِيلُهَا
وآيات نَصْرٍ لَيْسَ تَحْفَى إيَاتُهَا وقَدْ وَضَحَتْ لِلْمُهْتَدِينَ سَبِيلُهَا
وآثارُ مُلْكٍ ما دَجَى لَيْلُ مُعْضِلٍ مِنَ الرَّوْعِ إلاَّ والحُسامُ دَلِيلُهَا
مَآثِرُ مَن بالوَحْيِ قدْ عَزَّ قَوْمُهُ بِطَيْبَةَ إذْ آوَى إلَيْهَا رَسُولُهَا
إمَامٌ لهُ القِدْحُ المُعَلَّى إذا ارْتَمَتْ قِداحٌ وأعْلامُ المُلوكِ تُجيلُهَا
شَفَى مُعْضِلَ الأيّامِ وَهْيَ عَلى شَفًا بِجَدْواهُ إذْ أعيَا الأُساةَ عَلِيلُهَا
لهُ كيفَ شاءَتْهُ المَكارِمُ والعُلَى مَآثِرُ في الأمْلاكِ عَزَّ مَثِيلُهَا
حَكَى يُوسُفٌ في الحسْنِ والمُلكِ يُوسُفًا فَغَرْناطَةٌ مِصْرٌ وَجَدْواهُ نِيلُهَا
فأوْرَثَهُ المُلْكَ المُؤَثَّلَ وَالعُلَى وأنجَبَهُ صِدّيقُهَا وَخَلِيلُهَا
فُروعٌ زَكَتْ في دَوْحَةِ النصْرِ بَعْدَما نَمتْهَا لِأنصَارِ الرَّسولِ أصُولُهَا -106-
غُيوثٌ إذا مَا السُّحْبُ أحْلَفَ جَوْدُهَا لُيُوثٌ وَمُلْتَفُّ الذَّوابِلِ غِيلُهَا
لقَدْ أنجَبُوا مَوْلًى تَؤُمُّ جَنابَهُ أكارِمُ يَحْظَى بالعُلَى مُسْتَنِيلُهَا
تُرَدِّدُ أثْناءَ التَرحُّلِ ذِكْرَهُ حُداةُ المَطايَا إذ تَهُبُّ قَبولُهَا
فَما حَمَلَتْ رِيحُ الصَّبَا مِن ثَنَائِهِ نَوافِحَ إلاَّ واسْتَقَلَّتْ حُمُولُهَا

= (8 : 62) يذكر أن «السعيد» «تقطّر به فرسه في بعض الحروب بحدق وهو سكران فأُدرِك به فَحُزّ رأسُه في محرّم سنة 816 وجيء به إلى أبي سعيد» وهذا التاريخ يوافق المذكور هنا، وجاء في إنباء العمر لابن حجر : «وفيها (أي في سنة 814) كان السّعيد محمد بن أبي فارس عبد العزيز بن أبي سالم ابراهيم المريني يحاصر فاس وبها أبو سعيد بن أحمد بن أبي سالم، فهزمَه أهل فاس بعد شهرين، وذلك في صفر منها، ووقع الافساد في الرروع، وقوي القوي على الضعيف، واشتد العلاء، وكان الأردب عندهم بربع دينار، فارتفع بعد ذلك بأضعاف مضاعفة، ثم رجع السعيد إلى حصار فاس ــ وقد انتهت الأعمال والنواحي ــ في ربيع الآخر، وحصرها نحوًا من عشرين يومًا، ثم هزموه، فتوجّه إلى سلا، ثم جمع عسكرًا، ورجع في شعبان، وحصر البلاد، وبنى مقابلَها مدينة سماها المنصورة، وانقصت السنة وهو على ذلك، ثم ملك البلد، ثم قام عليه ابن أبي حمّو موسى، وفرّ السعيد إلى تونس فهلك ببلد «العُنّاب» إنباء العمر 7 : 28 ــ 29 أما الحسن الورّاق فيقول إن السعيد حاصر «مدينة فاس، بمساعدة بعض الحليين من الأعراب، ودام الحصار سبعة أعوام، حرّب أثناءها قرى ومدنًا وقصورًا في جميع أنحاء المملكة، ثم تغشى الطاعون في جيشه، فهلك هو وفريق من جنده، وذلك عام 816 للهجرة» وصف افريقيا ج 1 ص 210.

ومَا جُرِّدَتْ أسْيافُهُ يَوْمَ غارةٍ ... وَتُغْمَدُ إلاّ في الكُماةِ نُصولُهَا

سَيَغْزُو أعادِيهِ بِشُهْبِ كَتائِبٍ ... تُطاوِلُهَا شهْبُ الدُّجَى فَتطولُهَا

تَحُلُّ دِيارَ الكُفْرِ مِنهَا سَوابِقٌ ... تَحِلُّ عَنِ التَّشْبِيهِ حِينَ تَجُولُهَا

تَخوضُ إلَى الأعْداءِ بَحْرًا مِن الْقَنَا ... سِراعًا وهَوْلُ الرَّوْعِ لَيْسَ يَهولُهَا

فَترتاحُ خَيْلُ اللَّهِ لِلمُلْتَقَى الـدِي ... يُجيبُ بِهِ دَاعِي الهُدَى ويُجيلُهَا

كأنْ بالجِيادِ الغُرِّ ما أصْمَتَ العِدَى ... ولاَ حَاوَبَ التَّكْبيرَ إلاّ صَهِيلُهَا

كأنْ بالظُّبا مَا أنْطَقَ الْهامَ في الوغَى ... ولاَ أخْرَسَ النَّاقوسَ إلاّ صَليلُهَا

كأنْ بِالْقَنَا الخَطِّي ما قَصَرَ العِدَى ... ولاَ قَصَّرَ الأعْمارَ إلاّ طَوِيلُهَا

كأنْ بالبُنُودِ الحُمْرِ تَفْتَرِعُ الرُّبَى ... كَمَا قَدْ جَلا حُمْرَ السَّحابِ أصيلُهَا

كأنْ بِبِلادِ الشِّرْكِ يحْتل أرْضَهَا ... فَيَعْتَزُّ بالفَتْحِ المُبِينِ ذَلولُهَا

بِكُلِّ كَمِّي في العَجاجَةِ سَيْفُهُ ... يُجَلِّي دَياجِي أفْقِهِ وَيُحِيلُهَا

خَفيفٍ عَلَى مَتْنِ الجَوادِ وَعَزْمُهُ ... لَهُ وَطْأةٌ يَكْفِي العَدُوَّ ثَقيلُهَا

وَذِي قِصَرٍ تُمْسِي العَوامِلُ دُونَهُ ... ويَقْصُرُ عَن مَرْماهُ في الحَرْبِ طُولُهَا

وَعَوْجاءَ مَهْمَا صُوِّبَتْ فَسِهامُهَا ... ظَعائِنُ سَفْرٍ لَيْسَ يُرْجَى قُفُولُهَا

إذا ما ظُبَا الأعْرابِ يَوْمَ حَلِيمَةٍ ... تَصولُ فَأسْيَافُ الجِهَادِ تَطُولُهَا[207]

فهاذِي التي لا عَيْبَ إلاَّ مَضاؤُهَا ... وتِلكَ التي لاَعَيْبَ إلاَّ فُلُولُهَا

لَقَدْ كَلِفَتْ بالدَّارِعِينَ فَأصْبَحَتْ ... يَروعُ جَواهَا أوْ يَرُوقُ نُحولُهَا

وهَامَتْ بِحُبِّ الْهامِ فَهْيَ بُثَيْنَةٌ ... وَلَيْلَى تَفَانَى قَيْسُهَا وَجَميلُهَا[208]

لَئن صَدِئَتْ بالأمْنِ أفْئِدَةُ العِدَى ... فَهاذِي التِي يَجْلُو صَداهَا صَقِيلُهَا

تَرومُ عُداةُ الدِّينِ شَأْوًا مُمَنَّعًا ... وَقَدْ عَزَّ مَرْماهَا وأخْفَقَ سُولُهَا

سَتُلْفِي الْقَنَا الخَطِّيَّ في كَفِّ يوسُفٍ ... تُقيمُ صَغَا الهَيجاءِ حِينَ يُميلُهَا

(207) يوم حليمة هو الذي قيل فيه : ما يومُ حليمة بسير.

(208) اللف والنشر معكوس.

تَرى كُتُبَ الأعْداءِ يُسْفَى لَدَى الوَغَى ... بِريحٍ مِن النّصْرِ العَزيزِ مَهيلُهَا
يُبِينُ مَصوناتِ العَقائِلِ في ذَرَى ... مَعاقِلَ أضْحَتْ لا يَبِينُ مُحيلُهَا
وَيُرْسِلُ لِلنصْرِ العَزيزِ كَتائِبًا ... خِلالَ دِيارِ الكُفْرِ جاسَتْ خُيولُهَا
عَمائِمُهَا الأزْهارُ تحْتَدِمُ الوَغَى ... عَلَيْهَا ولكِن لاَ يُخافُ ذُبولُهَا
وقَدْ حَكتِ البِيضُ الرّقاقُ جَداوِلاً ... بِدَوْحٍ مِنَ السُّمْرِ العَوالي مَسيلُهَا
وجاءَتْ مَرينٌ مِن أقاصِي بلاَدِهَا ... فكانَ لَدَى مَوْلَى المُلوكِ حُلولُها
تحُل مَطايَاهَا بهَا من جنَابِهِ ... مَسازِلَ عِزٍّ لَيْسَ يشْقَى نَزيلُهَا
فَيا موضحًا معْنَى المَكارِمِ والعُلَى ... وقِدْمًا لَوَى دَيْن الزمانِ مَطُولُها
نَدَى يَدِك العُلْيا رَجَتْ حينَ أقْبَلَتْ ... فَحيًّا وأحْيَا بِشْرُهَا وقَبُولُهَا
فَجَلى دُجاهَا مِن مُحَيَّاكَ بِشْرُهُ ... وَحَيَّا حِماهَا مِن حَداكَ هَمولُهَا
وإنَّ العُلَى والأمْنَ وَالحِلْمَ والهُدَى ... وَبذْلَ النَّدى والفضْلَ مِمَّا تُنيلُها
تَعِزُّ وقدْ هانَتْ لدَيْهَا خُطوبُهَا ... وتَعْلُو وقدْ حُطَّتْ لدَيْكَ حُمُولُهَا
فَكمْ وارِدٍ منهُمْ عَلى بَابِكَ الذي ... مُعَرَّسُهَا في رَبْعِهِ ومَقيلُهَا
فَتهْدِيهِ آمالٌ إلَيْكَ مآلُها ... وتُهْديهِ أظْعَانٌ إلَيْكَ رَحيلُهَا
ولِلهِ منهُمْ بَعْدَ حادِثَةِ النّوَى ... أماثِل قد أضْحَى لَدَيْكَ مُثُولُهَا
لَئِن هَاجَهَا بُعْدُ المَزارِ تَشَوُّقًا ... كَما قدْ شَجَى وُرْقَ الحَمَامِ هَديلُهَا
فَمَا لِحِمَى مَوْلَى الحَلائِفِ يوسُفٍ ... عَديلٌ ولاَ عَنْهُ يُرامُ عُدُولُهَا
فَيا نَاصِرَ الدّين الذي وَرِثَ العُلَى ... عنِ الصَّحْبِ مِنْهُ سِبْطُهَا وَسَلِيلُهَا
حِلافتكَ العُلْيَا اسْتَقَلَّ عِمادُهَا ... فَذل مُناوِيهَا وَعَزَّ قَبيلُهَا
تُجاريكَ أمْلاكُ الزَّمانِ فَيَنْثَنِي ... حَليفَ قُصُورٍ نَصُّهَا وَذَمِيلُهَا -108-
ومَنْ لِلدَّياجِي انْ تُنيرَ وأنْ يُرَى ... يُقاوِمُ أنوار الضُّحَى مُسْتَحيلُهَا
لَقَدْ جَهِلُوا ما حُزْتَ مِنَ شيمِ العُلَى ... فَهانُوا وأشْقَى العَالَمينَ جَهُولُهَا
وهُنِّئْتَهَا طَوْعَ السُّعودِ مَواسِمًا ... هُوَ الصُّنْعُ بالنَّصْرِ العَزيزِ كَفيلُهَا

وتَسْتَقْبِلُ الدنْيَا أوامِرَكَ التِي ... نُطيعُكَ في إصْدارِهَا وَتُطيلُهَا
وبُشْراكَ بالأضْحَى ومُتّعْتَ بَعْدَهُ ... بألْفٍ لكَ الصُّنْعُ الجميلُ مُدِيلُهَا
طَلَعْتَ بأُفْقِ المُلْكِ صُبْحَ هِدايَةٍ ... يُزيحُ الدَّيَاحي نُورهُ ويُزيلُهَا
مَدَدتَ إلى التقْبيلِ كَفًّا كَريمَةً ... تُقيمُ صَغَا قُصَّادِهَا وَتُقيلُهَا
وأرْسَلْتَ مِن جَدْواكَ صوْبَ غَمامَةٍ ... يُرَوِّي عَلى حُكْمِ النَّدَى سَلْسَبيلُهَا
ووافَتْكَ أعلامُ الجِهَادِ فَراقَهَا ... حَدائِقُ رِفْقٍ لَيْسَ يُخْشَى مُحولُهَا
لقَدْ يَمَّمَتْ مَثْوَى العُلَى فأفادَها ... صَنائِعَ يُرْضِي الآمِلِينَ جَميلُهَا
وحَلّتْ بمَغْنَى العِزِّ أزْكَى خَميلةٍ ... مِن الجُودِ لاَ يُخْشَى لَدَيْهَا خُمولُهَا
لَدَى مَلِكٍ تَغْدُو ظِلالُ أمانِهِ ... وقَدْ فاءَ فَوْقَ العالِمينَ ظَليلُهَا
حَبَا بالعَطايَا فاسْتَقَلَّ كَثيرَهَا ... لَهَا وعَلَى الآمالِ زادَ قَليلُهَا
فَما مِنهُمُ إلاَّ لِنعْماكَ شاكِرٌ ... مُطيبُ أحاديثِ الثَّناءِ مُطيلُهَا
وما مِنهُمْ إلاّ وَلِيُّ مَجادَةٍ ... يُطاوِلُ شهبَانَ السَّماءِ أثيلُهَا
وخُذْهَا لحُسْنِ الوَصْفِ تُبْدِي شَمائِلاً ... تَروقُ فَتسْتَهْوِي العُقولَ شمُولُهَا
تُريكَ مَعانيهَا جيادَ بَلاغَةٍ ... نداكَ بمَيْدانِ البيانِ مُجيلُهَا
تُقِرُّ لِيَ الآدابُ أنِّي زَعيمُهَا ... وتَعْجزُ عن إدْراكِ شَأْوِي فحُولُهَا
وتَقْصُرُ عَن مَرْمَى حُلاهَا عقائِلٌ ... جَلَتْهَا عَلى صَفْحِ الزّمانِ عُقولُها
ولِمْ لاَ ومِن آثارِكَ الغُرّ أنجُمٌ ... ثَوابتُ لاَ يُخْشَى عليْهَا أُفُولُهَا
وَجَدْواكَ لِلأفكارِ مَعْنَى وُجودِهَا ... فَيَهْدِي إلى جَزْلِ النّظامِ جَزيلُهَا
وَوَصْفُكَ آتِيهَا بكُلِّ غَريبَةٍ ... وَجودُكَ إن ضَلتْ سَبيلاً دَليلُها
فَلاَزِلْتَ لِلأمْلاكِ وِجْهَةَ قَصْدِهَا ... تُبَلّغُهَا أقْصَى المُنَى وتُنيلُهَا -09

وأنشدتُ في عِيد الفِطْر مِنْ عام سَبْعَةَ عَشَرَ وثمانِي مائة مُهَنِّئًا
مَقَامَهُ الكَرِيمَ أيّدَهُ الله وَالرّكابُ العَلِيُّ قريبُ عَهْدٍ بِالإيَّاب
مِنْ فَتحِ جَبَلِ الفَتحِ أمَّنَهُ الله وكُنْتُ لَمْ أنشِد الدَّالِيَّةَ قبْلَ هَذا
فَنَظَمتُ هَذِهِ عَلى أسْلوبِهَا واتَّبَعْتُ في كَثيرٍ مِنَ المَعانِي طَرِيقَتَهَا

هَذي الخِلافَةُ قد مَلَكْتَ قِيادَهَا ... واجَلْتَ في طَلَقِ السُّعُودِ جِيادَهَا
هَـذي مَلائِكَـةُ السَّمـاءِ تَنَـزّلَتْ ... بالنّصْرِ تُنْجِدُ في الوَغَى أجْنادَهـا
هَذي البَشائِرُ قدْ رَفَعْتَ لواءَهَـا ... وأقمْتَ بالصُّنْعِ الجَميلِ عِمادَهَـا
هَـذِي العَزائِـمُ كُلّمَـا أعْمَلْتَهَـا ... أبْعَـدْتَ في شأْوِ العُلَـى آمادَهـا
هَذي الكَـواكِبُ تَسْتَقِـلُّ سُعُودُهَـا ... لكَ حَيْثُ تُطْلِعُ لِلعِدَى أضْدادَهـا
هذِي الكَتائِبُ كلّمَا احْتَدَمَ الوَغَى ... أُرسَلْتَ مِنْ غابِ الْقَنَا آسَادَهَـا
هَذِي الجُنودُ أطَلْتَ في سُحُبِ النَّدَى ... إنْهالَهـا وإلى العِـدَى إنهادَهـا
هَذِي العِدَى أمَّتْ نَواكَ عَلى النَّوَى ... لمَّـا نَـوَيْتَ جَلاءَهَـا وجِلادَهـا
هَذي الخَلائِفُ مِنكَ تَبْغِي نَصْرَهَا ... في المُـعْضِلاتِ وتَرتَجي إنجَادَهَـا
هَذي الوُفودُ تَؤُمُّ حَضْرَتَكَ التـي ... قدْ اوْرَدَتْ عَذْبَ المُنَى رُوّادَهَـا
هَـذِي أحاديثُ المَكـارِمِ وَالعُلَـى ... صحّـحْتَ إذْ أرْسَلْتَهَـا إسْنادَهَـا
أتَتِ الرّفاقُ عَلَـى النّـوَى فأنَلْتَهَـا ... إرْفاقَهَـا وأفَدْتَهَـا إرْفادَهَـا
وَفَدَتْ تُؤَمِّلُ مِـنكَ أكْـرَمَ مُنْعِـمٍ ... فأنـالَ أشْتـاتَ المُنَـى وأفادَهـا
لَمْ تَثْنِ عَـنْ أوْصافِـهِ قـوْلاً وَلاَ ... مَلَّتْ عَلى طولِ المَدَى تَرْدادَهـا
كـمْ رَوْضَةٍ لِلرِّفْـدِ أيْنَـعَ زَهْرُهَـا ... قـدْ أظْفَـرَتْ بالمُرْتَجَـى مُرْتادَهَـا
كـمْ سُنّةٍ للجُـودِ قـد جَدَّدتَهـا ... لَـوْلاكَ لَـمْ تَـرْجُ العُفـاة مَعادَهَـا
كَمْ رَحْمةٍ نَشأتْ لدَيْكَ سَحابُهَا ... أرْسَلْتَ طَوْعَ المَكْرُمَـاتِ عِهادَهـا -110-
كَمْ حكْمَةٍ بَهَـرَ العُقـولَ خَفِيُّهَـا ... أوْرَيْتَ بالحُكْـمِ الجَلِـيِّ رِنادَهَـا
كَـمْ حجّـةٍ لِلـنَّصْرِ قـامَ دَلِيلُهَـا ... لمَّـا أقَـمْتَ مِـن الْقَنَـا مُنْآدَهَـا

كَمْ آيةٍ لِلفَتحِ عَزَّ مَثيلُهَا أطْلَعْتَ في أُفُقِ العُلَى وَقَّادَهَا
كَمْ عادَةٍ لِلعِزِّ قَدْ عُوّدتَهَا بالسَّيْفِ تُعْجِزُ مَن يَرُومُ عِنادَهَا
كَمْ عزمَةٍ يُنْجِي الأميرَ أمانُهَا لَوْ لَمْ يَفُتْ وَيَرى الرَّشِيدُ رَشادَهَا
كَمْ صَوْلَةٍ لِلمُعْتَدِينَ صِيالُهَا أفْنَى جُموعَ حُماتِهَا وأبادَهَا
كَمْ فِتْنَةٍ أخْمَدتَهَا من بَعْدِ أنْ قَدْ كان أوْقَدَهَا الضَّلالُ وَقادَهَا
هَذا الهُمَامُ العَادِلُ الأرْضى الذي قادَ الجُيوشَ إلَى العِدَى فاقتَادَهَا
مَدَّتْ بَأمْلاكِ السَّماءِ جُنودُهُ ظِلَّ الأمَانِ فواصَلَتْ إمْدادَهَا
لكَأنْ بأنْصارِ الهُدَى قَدْ زَلزَلَتْ أرْضَ العُداةِ وَضَعْضَعَتْ أطْوادَهَا
لَكأنّ بأحزابِ الضّلالِ مَرُوعَةٌ بكَتائِبٍ أخَذَتْ لهَا اسْتِعْدادَهَا
لكأنْ بهَا لَمْ تاتِ طَوْعَ مُرادِهَا إلاَّ مَنَعْتَ مُرادَهَا ومَرادَهَا
لكأنْ بسَيْفِكَ قَدْ كَفَى أعْدادَهَا إذْ كفَّهَا عَمَّا نَوَتْهُ وآدَهَا
لكأنْ بِهِ قَدْ قَلَّلَ اسْتِقلالَهَا طَوْعَ الجِهادِ وبَدَّدَ اسْتِبْدادَهَا
لَكأنْ بارْضِ العُدْوَتَيْنِ تُحِلُّهَا جُرْدًا تَعُمُّ هِضابَها وَوِهادَهَا
صالَتْ بإحْدَى الحسْنَيَيْنِ فَواصَلَتْ تأْوِيَهَا في اللّهِ أوْ إسْآدَهَا
حيْثُ الخُيُولُ تُريكَ مِنْ خُيَلائِهَا مَا يُورِدُ الحَرْبَ العَوانَ وِرَادَهَا
مَا جَنّدَتْ صِيدُ المُلوكِ جُنودَهَا إلاَّ وقَدْ جَعَلَتْ بِكَ اسْتِنْجادَهَا
مَا أيْنَعَتْ لِلْمَكْرُماتِ حَدائِقٌ لَوْلاَ سَحابٌ مِن نَوالِكَ جادَهَا
والمَشْرفيَّةُ لَيْسَ يُنْجِدُ حَمْلَهَا ان لَمْ تُطِلْ شَرَفًا لدَيْكَ نِجادَهَا
بِيضٌ تَكادُ تَذوبُ طَيَّ غُمودِهَا حِقْدًا عَلى مَنْ خانَهَا أوْ كادَهَا
يَكْسُو النَّجيعُ مُتُونَهَا إذ جُرِّدَتْ فكأنَّهَا ما فارَقَتْ أغْمادَهَا -111-
تَحْكِي جَداوِلَ حيْثُ أوْقَدَتِ العِدَى لِلحَرْبِ نارًا واصَلَتْ إخْمادَهَا
وَذوابِلٍ صَدَرتْ نَواهِلَ بَعْدَمَا قَدْ كانَ حَلأَهَا الضّلالُ وذَادَهَا
سُمْرٌ تُريكَ مِن الأسِنَّةِ انْجُمًا والحَرْبُ تُخْفِي في العَجاجِ صِعَادَهَا

لِلّهِ أنـدَلُسٌ فكَـم مـن عَزْمَـةٍ لَكَ مَهَّـدتْ أقْطارَهَـا وَبلادَهَـا[209]
ولَطالَمَـا أجْهَـدتَ نـفْسًا آثَـرتْ فِي اللّهِ طَوْعَ المَعْلُواتِ جِهادَهَـا
وَخطبْتَ فَتْحَ العُدْوَتَيْنِ فَلَمْ تَـدَعْ خَطْبًا يَذودُ عَـنِ العُيـونِ رُقادَهَـا
وَطرَقْتَ مَنْـزِلَ طـارِقٍ بِكَتـائِبٍ أحْلَـلْتَ فِي أنجَـادِهِ أنجَادَهَـا
وَعَـدَتْ بِـهِ الأيّـامُ بَعْـدَ مِطالِهَـا فَـوَفَتْ لَـدَيْكَ وأنْجَـزَتْ مِيعادَهَـا
رِيعَتْ جُموعُ حُماتِهِ فاسْتَـنْصَرتْ بِكَ واسْتجـارَ جَميعُهَـا مِمَّادَهَـا
لَمَّـا دَعَـا دَاعِـي الرَّشادِ تَهَيَّـأتْ طَوْعًـا لِمَـا قَـدْ شاءَهَـا وأرادَهـا
عَادَتْ لِملكِكَ واسْتقـامَتْ بَعْدَمَـا كانَتْ عَدَتْ إذْ خالَفَتْ مُعْتادَهَـا
أنجَـزْتَ بالرِّفْـدِ المُؤَمَّـلِ وَعْدَهَـا لَمَّا صَفَحَتْ ولَـمْ تُجِـزْ إيعَادَهَـا
فاتَتْ وقَـدْ جَعَلَتْ يَميـنَكَ قِبْلَـةً إذْ قابَلَ الصَّفْحُ الجَميـلُ عِنادَهَـا
وَمُعِزُّ دَوْلَـتِكَ الكَريمَـةِ لَـمْ يَـزَلْ يُـرْدِي بـآسادِ العَريـنِ نِقادَهَـا[209م]
يُـرْضِي خِلافـتَكَ التِـي عَلْياؤُهَـا كَبَتَتْ بسَيْـفِ عَلِيِّهَـا حُسَّادَهَـا
فَـأذَلّ عاصِيَهَـا بِعِـزِّكَ بَعْدَمَـا أضْحَـى رِضاكَ مُؤَمِّنًـا مُنْقادَهَـا
واحْتَلّ مِنْهُ المَعْقِلَ الأسِبَ الـذِي نَـالَتْ بِرِجْعَتِـهِ النُّفـوسُ مُرادَهَـا
جَبَـلٌ سَمـا فـإذا بَـدَتْ أبْراجُـهُ خِـلْتَ البُـرُوجَ بِأُفْقِـهِ أنْدَادَهَـا
هَـذا وَيـا للّـهِ حَضْرَتُكَ الّتِـي تُلْقِي لَدَيْكَ بِهَا المُلوكُ قِيادَهَـا
سَامَتْ كَمَا شاءَتْ لَهَا رُتَبُ العُلَى شُهُبَ السَّماءِ فَطـاوَلَتْ أبْعادَهَـا
فَلْيَهْـنِ كُـلَّ مُتَمِّـمٍ أرْجاءَهَـا يَرْجوكَ إنْ أَلِفَ العُلَـى واعْتَادَهَـا
واهْنَـأْ بِعيـدٍ بالـمَسَرّةِ عائِـدٍ قَدْ رارَها طَوْعَ السُّعُودِ وعادَهَـا -112-
ولْيَهْنِـإِ الأعْيـادَ مِـنْكَ مَآثِـرٌ أضْحَتْ كَما تَبْغِي العُلَى أعْيادَهَا
اطْلَعْتَ بَدْرًا مِـن مُحَيَّـاكَ الـذِي مِنْهُ رَجَتْ شمسُ الضحَى اسْتِمْدادَهَا

---

(209) لك، كتب فوقها : قد، وكأنّها رواية.

(209م) النِّقاد : صعار العسم.

ومَـدَدْتَ لِلتَّقبِيـلِ كفًّـا طَالَمَـا بَـدَأَ المَكـارِمَ جُـودُهُ وأعادَهَـا
والعَبْـدُ يُلْقِـي فِي عُـلاكَ مَدائِحًـا حَلَّـى البَيـانُ بـدُرِّه أَجْيادَهَـا
ما أَحْضَرَتْ مِنهَا البَلاغَـةُ نَقْدَهَـا إلاَّ ثَنَتْ عَـن قصْدِهَـا نُقَّادَهَـا
لَوْلاَ نَوالُكَ أَيُّهَا المَـلِكُ الـرِّضَى وَحُلاَ خِلاَلِكَ لَمْ يُجِـدْ إنْشادَهَا
لَكِـنَّ رَاحَـتَكَ الكَـرِيمَةَ بالنَّـدَى جادَتْ غَمائِـمُ جُودِهَا فَأَجادَهَـا
ولَدَيْكَ مِنْ حِـزَبِ الهَدَايَـةِ أُسْرَةٌ تُبْـدِي لِمُلْـكِكَ حُبَّهَـا وَوِدادَهَـا
حَلَّتْ لدَى مَوْلَى المُلوكِ مَعَالِمًـا قدْ وَثَّرَتْ أَيْدِي العَلاءِ مِهادَهـا[210]
مَـازِلْتَ تَحْرُسُهَـا بعَيْـنِ كَـلاَءَةٍ نـامَ الأَنـامُ وقـدْ أَطَلْتَ سُهادَهَا
فَحَمَيْتَ مِن قَصْدِ العِدَى أَرْجاءَهَا وأَنَلْتَ أَشتَـاتَ المُنَـى قُصَّادَهَـا
فَلأَهْلِهَا بكَ صَوْلَـةٌ مَـا قابَـلَتْ أَعْداءَهـا إلاَّ كَـفَتْ أَعدَادَهـا
كُـلٌّ يَقـولُ مُؤَمِّنًـا وَمُؤَمِّـلاَ دَامَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَدُمْتَ عِمادَهَـا

وأُنْشِدتُ في أَضْحَى عامِ سَبْعَةَ عَشَر وثَمانِمائة بالحَضْرَةِ العَلِيَّة

هَنِيئًا بِهِ يا ناصِرَ الدِّين مَوْسِمًـا يُغادِرُ أَهْـلَ الشِّركِ نَهْبًا مُقَسَّمَـا
وَبُشْراكَ طَوْعَ النَّصْرِ والعِز والعُلَى بِمَا أَبْرَمَ الصُّنْعُ الجَمِيلُ وأَحْكَمَا
حُبِيتَ بِهِ نَصرًا عَزِيـزًا مُؤَبَّـدًا وفُزْتَ بـه صُنْعًـا جَمِيـلا مُتَمَّمَـا
وفتْحًـا مُبِينًـا واعْتِـلاَءً مُخَلَّـدًا لِذِكْرِكَ في صَفْحِ الزَّمان مُرَسِّمَا
سَلَكْتَ سَبِيلاً لِلمحَامِـدِ لاَحِبًـا وأَوْضَحْتَ مَعْنًى لِلمكـارِمِ مُبْهَمَـا
وَبُوِّءْتَ مِن أُفْقِ الخِلافَـةِ مَظْهَـرًا يُطاوِلُ لَمَّا أَنْ سَمَا شُهُبَ السَّما
فَقَدْ جَعَلَتْهُ الأَنْجُمُ الزُّهْرُ مَطْلِعًـا إلَى مُرْتَقَى السَّبْعِ الطِّباقِ وَسُلَّمَـا -113

(210) وثّرت : جعلته وثيرًا.

ومازِلْتَ تَرْجوكَ الخَلائِـفُ مانِحًـا نَـدَى يَـدِكَ العُلْيَـا عُـلاً وَتَكَرُّمَـا
لِمَا جُزْتَهُ مِن رُتْبَةِ النَّجْمِ مُعْلِيًا بمَا حُزْتَهُ مِن شِيمَةِ الحِلْمِ مُعْلِمَا
بِكَ اسْتَنْصَرَ الأمْلاكُ بَدْءًا وَعَودَةً فأنجَدَ كُـلٌّ في رِضاكَ وأتْهَمَـا
بأكْرَمَ مَن أهْدَى وأعْلَمَ منْ هَدَى وأرْحَمَ مَن آوَى وأحْزَمَ مَنْ حَمَى
دَعَتْ مِنْكَ مَوْلًى مفْضِلاً مُتَطَوِّلاً فَوالَـيْتَ إنْعَامًـا وأوْلَـيْتَ أنْعُمَـا
ومَا أحْجَمَتْ إلاّ تَوَقتْكَ مانِعًـا وَلا أقْـدَمَتْ إلاَّ تَلَقّـتْكَ مُنْعِمَـا
ولاَ اسْتَنْشَقَتْ رُوحَ الحَياةِ وقدْ جَرتْ لـدَيْكَ رِيـاحُ النَّصْرِ إلاَّ تَنَسُّمَـا
فكَمْ همَّةٍ نصْرِيَّـةٍ راعَتِ العِـدَى وكَمْ ذِمَّةٍ مرْعِيَّـةٍ حـاطَتِ الذِّمَـا
سَتَتْرُكُ أرْضَ الشِّرْكِ وهْيَ بَلاقِـعٌ وتُلْقِي عَلَيْهَا النَّقْعَ في الجَوّ مِيسَمَا
بحَيْثُ تُرَاعُ الوَحْشُ أن تَصِلَ السُّرَى بِبَيْدائِهَـا والطَّيْـرُ أن تَتَرنَّمَـا
لَقَدْ خَـطَبَ الخَطِّيُّ فَتْـحَ بِـلادِهِ وخَاطَبَـهُ الهِنـدِيُّ عَـكَ فَأفْهَمَـا
فَلِلـهِ مِنْهَـا إذْ تَحُـلُّ حِلاَلَـهُ صَنَائِعُ جَـلَّتْ قَبْـلُ أنْ تُتَوَهَّمَـا
بكُلِّ كَمِيٍّ إنْ سَرَى أسَرَ العِدَى وان حَلَّ مغنًى خِلْتَ ما فيهِ مَغْنَمَا(211)
وإن زارَ أرْضَ الشِّرْكِ عَفَّى طُلولُهَا وحَكَّـمَ فِيهِـمْ سَيْفَـهُ فَتَحَكَّمَـا
وإنْ خَفَّ جَيشُ النصْرِ أوْ عادَ قافِلاً فَيَكْـلأُ في أعْقابِـهِ مَـن تَقَدَّمَـا
ويُقْـدِمُ لاَ يَثْنِـي أعِنَّـةَ عَزْمِـهِ بحَيْثُ يَهابُ اللَّيْثُ أنْ يَتَقَدَّمَـا
ويُحْجِمُ عَن أن يَثْنِي وَهْوَ مُفْرَدٌ بِحَيْثُ يَعافُ الجَمْعُ أنْ يَتَلَوَّمَـا
فَلَمْ يَرْعَ في الأرْجاءِ إلاَّ تَأخُّـرًا ولَمْ يَرْضَ في الهَيْجاءِ إلاّ تَقَدُّمَـا
ولَوْلاَ ابْنُ نَصْرٍ ناصِرُ الدّينِ يُوسُفٌ لَمَا أعْـلَتِ الأمْـلاَكُ لِلعِـزِّ مَعْلَمَـا
ولاَ رَاعَ أحْزابَ الضَّلالِ جِهادُهَا وقَدْ راقَ ثِغْرُ الثَّغْرِ عَنْهُ تَبَسُّمَـا
ولاَ ارْتاحَتِ الخَيْلُ العِتاقُ إلى المَدَى فَسامَتْ مَداكِيهَـا البُـروقَ تَلَوُّمَـا
ولاَثَنَتِ السُّمْرُ العَوالِي لَدَى الوغَى ذَوابِـل في الأيْـدِي تَـرُوقُ تَنَعُّمَـا

(211) حلّتَ، كتب فوقها في الأصل : كانَ، وهذا يحصل للشاعر أحيانًا فيقترح كلمة في موضع أخرى

أسِنَّتُهَا فِي مُلْتَقَى الحَرْبِ أنْجُمٌ ... تَجَلَّتْ فَجَلَّت مِن دُجَى النَّقْعِ مُظْلِمَا -114

هَوَيْنَ لِيَجْعَلْنَ النَّجيعَ مَوَارِدًا ... كأنَّ طُيورًا فِي ذَرَى الجَوِّ حُوَّمَا

تَرَى حُمْرَهَا فَجْرًا يَرُوقُ وَزُرْقَهَا ... تُحَيِّكَ فِي لَيْلِ العَجَاجَةِ أنجُمَا

وَمِن عَجَبٍ أنَّ السُّيوفَ جَداوِلٌ ... تشُبُّ أُوارَ الحَرْبِ لا تَنْقَعُ الظَّمَا

إذا هِيَ سالَتْ فِي مَدَى النَّقْعِ خِلْتَهَا ... تَشُقُّ مِنَ الخَطِّيِّ دَوْحًا مُنَعَّمَا

وَعَوْجاءَ لِلأغْراضِ يَسْبِقُ سَهْمُهَا ... وَيَكْلَفُ مِنْهَا بالقَصِيِّ إذا رَمَى

فَيُبْدِي لدَى النَّزْعِ الحَنينَ كَأنَّهُ ... يُحاوِلُ إعْرابًا وإنْ كانَ أعْجَمَا

ولِلهِ مَوْلًى أُعْمِلَتْ عَزَماتُهُ ... لِتَحْرُسَ أيْقاظًا وتُوقِظَ نُوَّمَا

فأرْسَلَهَا سُمْرًا وأعْمَلَهَا ظُبًا ... وفوَّقَهَا فِي مُلْتَقَى الحَرْبِ أسْهُمَا

ومَا لَقِيَ الأعْداءَ إلاَّ مُجَدِّلاً ... ولاَ اقتَحَمَ الهَيْجاءَ إلاَّ مُصَمِّمَا

وَلا احْتَمَلَ الهِنْدِيَّ إلاَّ مُجَرَّدًا ... ولاَ اعْتَقَلَ الخَطِّيَّ إلاَّ مُقَوَّمَا

وَلاَ يُنْهِدُ الأجْسادَ إلاَّ مُمَلَّكًا ... ولاَ يُنْجِدُ الأمْلاكَ إلاَّ مُحَكَّمَا

ولاَ يَسْتَجِدُّ العَزْمَ إلاَّ مُؤَيَّدًا ... ولاَ يَسْتَجيدُ الطِّرْفَ إلا مطَهَّمَا

يَهُبُّ هُبوبَ الرِّيحِ حَتَّى كَأنَّهُ ... تَجَسَّدَ مِن هَبَّاتِهَا وتَجَسَّمَا

إذا رامَ أمْلاكُ الزَّمانِ إلى العُلَى ... نُهُوضًا وَسَبْقًا لِلنَّدَى وتَقَدُّمَا

فناصِرُ دِينِ اللّهِ أشْرَفُ مُنتَدًى ... وأكْرَمُ فِي صَحْبِ الرِّسالَةِ مُنْتَمَى

يُحَيِّيكَ بالبَدْرِ المُنِيرِ إذا انتَهَى ... كَمالاً ويُنْمَى لِلصِّحابِ إذا انْتَمَى

وأيْنَ مُحَيَّاهُ مِنَ الفَجْرِ إنْ بَدَا ... وجَدْواهُ مِن صَوْبِ الغَمامِ إذا هَمَى

جَوَادٌ مَتَى ضَنَّ الْمُلُوكُ فَرِفْدُهُ ... جَوَادٌ لَهُ خَصْلُ السِّبَاقِ إذَا ارْتَمَى

رَأى جُودَهُ لِلقَاصِدِينَ مُؤَمَّلاً ... فَأصْبَحَ مُغْرًى بِالْمَكَارِمِ مُغْرَمَا

فَيُرْوَى حَدِيثُ الجُودِ عَنْهُ مُسَلْسَلاً ... وَسَلْسَالُهُ تُرْوَى بِهِ الأنْفُسُ الظِّمَا

لَهُ شِيَمٌ أعْلَتْ مَعَالِمَ لِلهُدَى ... بِهَا قَدْ أتَانا مُحْكَمُ الذِّكْرِ مُعْلِمَا

لَهُ ذِمَمٌ مَن رَامَ بالغَدْرِ خَفْرَهَا ... أبَتْ أنْ يُرَى إلاَّ خَذُولاً مُذَمَّمَا -115

يَغُضُّ جُفُوناً أَوْ يَعُضُّ أَنَامِلاً ... عَلَى حَالَتَيْهِ هَيبَةً وتَنَدُّمَا
فَمَا يَتَوَقَّى الْخَطْبَ إلاَّ تَخَيُّلاً ... وَلاَ يَتَلَقَّى الْحَرْبَ إلاَّ تَوَهُّمَا
ويُوسُفُ يُعْلِي لِلخِلاَفَةِ مَعْلَماً ... ويُلْبِسُهَا ثَوْباً مِنَ الْعِزِّ مُعْلَمَا
إِذَا رَاحَتِ الأَبْطَالُ وَهْيَ عَوَابِسٌ ... مِنَ الرَّوعِ لاَ يَزْدَادُ إلاَّ تَبَسُّمَا
يُقِيمُ صَغَا الدِّينِ الْحَنِيفِ حُسَامُهُ ... إِذَا مَا أَمَالَ السَّمْهَرِيَّ الْمُقَوَّمَا
خَلاَئِقُ لَوْ أُظْهِرْنَ لِلنَّجْمِ مَا ارْتَقَى ... وَلِلَّيْثِ مَا اسْتَشْرَى وَلِلْغَيْثِ مَا هَمَى
عَزَائِمُ لَوْ أُعْمِلْنَ لِلدَّهْرِ مَا اعْتَدَى ... وللبَدْرِ مَا اسْتَعْلَى وَلِلبَحْرِ مَا طَمَا
مَلاَمِحُ لَوْ ٱطْلِعْنَ لِلصُّبْحِ مَا بَدَا ... وَلليْلِ مَا أَهْدَاكَ بَدْراً مُتَمَّمَا
وبُشْرَى بِهِ عِيدًا لِنَصْرِكَ عائِذًا ... وَهُنِّئْتَهُ يَوْمًا أَغَرَّ وَمَوْسِمَا
أَفَضْتَ مِنَ النَّعْمَاءِ فيهِ غَمائِمًا ... تَجودُ الذِي وافَى عُلاكَ وَيمَّمَا
فكَمْ رَحْمَةٍ نَعْتَادُ مِنْهَا تَوسُّعًا ... وَكَمْ آيَةٍ نَزْدادُ فِيهَا تَوَسُّمَا
بَسطتَ إِلَى التَّقبِيلِ رَاحَتَك التي ... تُؤَمِّنُ مُرْتاعًا وَتوجِدُ مُعْدِمَا
لقَدْ أَصْبَحَتْ طَوْعَ النَّدَى مُتَوَجِّهًا ... لِمَن قَدْ رَجَى نَيْلَ المُنَى وَمُيَمَّمَا
وعَبْدُكَ يُلفِي فِي حُلاَهَا مَدائِحًا ... يَفُضُّ بِهَا مِسْكَ الثَّناءِ مُخَتَّمَا
بِمَا هُوَ لِلأَفْهَامِ أَقْرَبُ مُرْتَقًى ... وأَبْعَدُ فِي شَأْوِ البَلاَغَةِ مُرْتَمَى
ومَا القَصْدُ إلاَّ أن يُقَبِّلَهَا وَقَد ... صَرَفْتَ لَهُ وَجْهَ القَبولِ تَكَرُّمَا
لِيُبْدِي لَدَيْكَ المَدْحَ رَوْضًا مُفَوَّفاً ... ووَشْيًا يَرُوقُ النَّاظِرِينَ مُنَمْنَمَا
وَزَهْرًا نَضِيرًا فِي رِياضِ بَلاَغَةٍ ... وَدُرًّا بِأَجْيادِ الطُّروسِ مُنَظَّمَا
فَيا سَامِعًا مِن وَصْفِهِ كُلَّ مُعْجِبٍ ... يَرُوقُ ذَوِي الأَلْبابِ فَذًّا وتَوْأَمَا
إذا أنتَ لَمْ يُقْنِعْكَ فِي الشِّعْرِ وَصْفُهُ ... فَخُذْ مِنْهُ مَا تَتْلُوهُ فِي الذِّكْرِ مُحْكَمَا
وَرُجْعَى إِلَى ذِكْرِ الحِجاز وَمَن بِهِ ... تَلا مُحْكَمَ الآياتِ حَيْثُ تَلَوَّمَا
ومَن طابَ ذِكْرًا حينَ حَلَّ بطَيْبَةٍ ... وَسارَ إلى بَطْحاءِ مَكَّةَ مُحْرِمَا
وأَضْحَى كَما تَبْغِي العُلَى مُتَوَسِّلاً ... بِزَوْرَتِهِ فِي رَبْعِهَا مُتَوَسِّمَا - 116

وإنّ حَجيجَ اللّهِ عَادَ إلَى مِنًـى ... وَطافَ بِبَيْتِ اللّـهِ سَبْعًا وأحْرَمَا
وما كانَ لِلْقَصْدِ الحَميدِ مُخَيِّبًـا ... فَطُوبَى لِمَن أضحَى لَدَيْهِ مُخَيِّمَـا
فَمِن زَفَراتٍ رَجْعُهَا يُذْهِبُ الأسَى ... ومِنْ جَمَراتٍ رَمْيُهَا يَنقَعُ الظَّمَـا
ومِن زَوَرَةٍ فازُوا بِهَا اليَوْمَ دُونَنَا ... لَدَى عَرَفاتٍ إذْ عَلَوْا مِنْهُ مَعْلَمَا
ولَمَّا سَرَى الرَّكْبُ الحِجازِيُّ لَمْ نَزَلْ ... نُرَدِّدُ لَوْ تُجْدِي عَسَى ولَعَلَّمَـا
لَقَدْ عَمَرُوا طَوْعَ الهُدَى أرْبُعَ التُّقَى ... فَمَا صَوَّحَ المَرْعَى ولاَ أقْفَرَ الحِمَا
سَرَوْا وَظَلاَمُ اللَّيلِ يُضْمِرُ مِنْهُـمُ ... إلَى مَطْلَعِ الإصْباحِ سِرًّا مُكَتَّمَـا
وَضاقَتْ صُدُورُ البِيد عَنهُمْ كأنَّهُمْ ... ظُنونٌ أبَى إيضاحُهَا أنْ تُرَجَّمَـا
وزَمُّوا مَطايَا العَزْمِ تَبْتَدِرُ السُّرَى ... وتَسْتَقْبِلُ البَيْتَ العَتِيـقَ وَزَمْزَمَـا
إذا سَمِعُوا ذِكْرَ النَّبِيِّ مُحَمَّـدٍ ... يَميلُـونَ سَبْقًـا نحْـوَهُ وتَقَدُّمَـا
فَيا لَيْتَ شِعْرِي مَن لِسَمْعِي بِسَمْعِهِ ... وقَدْ هَيْنَمَ الحَادِي بِهِ وتَرَنَّمَـا
هَنيئًـا لِمَـن آوَى لِعِـز حَنابِـهِ ... وَبُشْرَى لمَن صَلَّى عَلَيْهِ وَسَلَّمَـا
ومَنْ خَلَفُوا لِلْقَلبِ أضْحَى مُسَلِّيًا ... بِهِـمْ ولأحْكَـامِ الـقَضاءِ مُسَلِّمَـا
قَضَوْا حَجَّهُمْ لَمَّا أقَمْنَا نُقيمُ مِنْ ... جِهادِ العِدَى فَرْضًا عَلَيْنَا مُحَتَّمَـا
لَدَى مَلِكٍ إنْ ساجَلَ البَدْرَ وَالحَيَا ... تَجِدْ هَدْيَهُ أجْلَى وَيُمْنَـاهُ أكْرَمَـا
تُؤَمِّلُ أمْلاكُ الزَّمانِ عَلَى النَّـوَى ... مَـواهِبَ نُعْمـاهُ فَـلازالَ مُنعِمَـا

إلى هَذهِ القَصيدةِ انتَهَى تَقْييدُ العِيديَّات
المُهَنَّإِ بِهَا مَوْلانَا أيَّدَهُ الله وَنَصرَهُ عَلى نَسَقٍ وهَي أقْرَبُ
مَنظُوم صَدَر عَنِّي لَتاريخ كَتْبِ هَذا ونُقَيِّدُ بَعْدُمَا يَقَعُ
لِليَدِ مِن مُبْيَضاتِ الشِّعْرِ الصَّادِرِ عَنِّي إنْ شاءَ الله 117-

وَمِمَّا وَجَّههُ إلَيَّ أيَدهُ الله في بَعْضِ أيَّامِ الصَّنِيعِ
أبْياتًا في العَروضِ الدُّوبِيتِي وَأمَرني بنَظْم فيهِ عَلَى
حُروفِ المعْجَمِ فَلمْ أرْفَعْ قَلمًا عَنْهُ حَتى أتْمَمْتُه
مِنْ قَبيْل الظُّهْرِ إلَى صَلاةِ العَصْرِ والمُوَجَّهُ مِن قِبَلِ
مَوْلانَا أيَدهُ الله مَا يَخْتَصُّ مِنْهُ بحَرفَي الفاءِ والقافِ
حَسَبَمَا ياتِي بَعْدُ(212)

قَلبِـي كَلِـفٌ بظَبْيَـةٍ حَسْـاءِ ... يأتِـي وصْفُهَـا بالـرَّوْضَةِ الغَنَّـاءِ
كَمْ قد أطْلَعَتْ مِن غُـرَّةٍ غَـرَّاءِ ... يَلْتَـاحُ جَمالُهَـا لِعَيْـنِ الرَّائِـي
يا مَـن لجُفـونِ دَمْعِهَـا يَـنسَكِبُ ... ومَـن لِضُلـوعٍ جَمْرُهـا يَلْتَـهِبُ
عُذَّالِي إذْ بُحْتُ بِوَجْـدِي عَتَبُـوا ... والشَّمْسُ عَنِ العُيونِ لاَ تَحْتَجِبُ
جِسْمِي خافٍ والقَلْبُ وَجْدًا خافِتْ ... لِعَهْـدِ وِصالٍ قَـدْ تَـقضَّى فَـآئِتْ
يَا لَيْتَ أُرَى في الحُسْنِ يَوْمًا نَاهِتْ ... مَمَّنْ حُسْنُهَا يُعْجِزُ وَصْفَ النَّاعِتْ
ما كُنْتُ أُطيقُ عَنْ حِماهَا لُبْثَـا ... حَتَّـى أُلْقِـي الرِّكابَ فِيـهِ حَثَّـا
لَـوْلاَ أنْ جَـادَلِي النَّـوالُ غَيْثًـا ... مِمَّـنْ تُلْفِيـهِ في التَّلاقِـي لَيْثَـا
مِن غيثِ النَّدَى جُودًا وَغوثِ الرَّاجي ... وَمُسْعِـفِ قَصْدِ الآمِـلِ المُحْتَـاجِ
وَمُجْلِي الدُّجَى بنُـورِهِ الوَهَّـاجِ ... ومَوْلَـى مُلوكِهَـا أبِي الحَجَّـاجِ
مَـرآهُ يَلُـوحُ لِلعُيُـونِ صُبْحَـا ... ثَنـاهُ كأزْهـارِ الرِّيـاضِ نفحَـا
حَمائِـمُ فِكْـرِي رَدَّدتـهُ صَدْحَـا ... غَرانِـي الطُّـروسِ قَلَّدَتْـهُ وُشْحَـا
أنصَارَ الدِّيـنِ لِعُـلاَهُ سِنْـخُ ... عِقْبانُ وَغًى يـوْمَ التَّلاقِي فُتْـخُ
ويُمْنـاهُ إذْ لِلقاصِديـنَ يَسْخُـو ... شَرِيعَـةُ جُـودٍ لَـمْ يَرُعْهَـا الـنَّسْخُ

(212) الدويت : نوع من النظم مولّد، والكلمة فارسية معناها : البيتان.

هَذا لَكِنْ جَفَا فُؤادِي البُعْدُ فَلَيْسَ بِهِ إلاَّ جوًى أوْ وَجْدُ
أيُنْجِزُ يوْمًا لِلتلاقِي وَعْدُ وَيُعْمَرُ غَوْرٌ لِلرِّضَا أو نَجْدُ
رَمَى قَلْبِي لِلبَيْنِ سَهْمٌ مُنْفذُ فالوَجْدُ عَلى جَميعِهِ مُسْتَحْوذُ -118
فَلَيْسَ لَهُ غَيْرُ الوِصالِ مُنْقِذُ ولا سِوَى مَوْلَى الوَرَى تَعَوُّذُ
قدْ فاقَ الوَرَى في منظَرٍ أوْ مَخْبَرِ مَوْلَى هَدْيُهُ يَرُوقُ عَيْنَ المُبْصِرِ
يَلوحُ سَناهُ كالصَّباحِ المُسْفِرِ فَتَخفَى نجومُ الأفْقِ حوْلَ المَظْهَرِ
أنسَى مَن مَضَى وكُلَّ آتٍ أعْجَزا وَعْدًا وَوعيدًا مُخْلِفًا أوْ مُنْجِزَا
ما زَالَ لأوْصافِ الكَمالِ مُحْرِزًا وَمِنْ رِفْدِهِ لِكُلِّ مُحْسِنٍ جَزَا
مَوْلًى كالدَّهْرِ بالأعَادِي قدْ سَطَا أضْحَى مُنْعِمًا بالعَدْلِ فينَا مُقسِطًا
يُفيضُ عَلَى قصَّادِهِ سُحْبَ العَطَا فَتُلْفيهِمْ وِرْدًا كأسْرابِ القَطَا
مهْمَا نَظَرتْ عيْنُكَ لي باللَّحْظِ أوْ فاتحْتَني بالكَتْبِ أوْ باللَّفْظِ
فكَم حُظْوَةٍ تُفيدُهَا أوْ لحْظِ لِلفَوْز منَ الدّنيَا بأوفَى حَظّ
أيا يُوسُفًا في الحسْنِ أوْ في المُلْكِ نظامِي كَدُرٍّ رائِقٍ في السِّلْكِ
أُريلُ بِهِ صَرْفَ الْخُطوبِ الْحُلْكِ إذْ قلتَ أبو الحسَيْنِ عَبْدِي مِلْكي
أنَا المَمْلوكُ يا إمَامَ العَدْلِ وَيا خَزْرَجِيَّ المُنْتَمَى والأصْلِ
ويَا جامِعًا مَا للنّدى منْ شمْلِ إذا لَمْ تكُنْ لِي في الزمانِ مَن لِي
دَمْعِي وفُؤادِي هائِمٌ أوْ هَامِ يَهْفو وَجْدًا كَخافِقِ الأعْلامِ
جَفْنِي وغَرامِي دائِمٌ أوْ دَامِ كمِثْلِ حُسامِ ناصِرِ الإسْلامِ
وَجْدِي ما أنْ يانُحْذُهُ الإمْكانُ هَلاَّ يُحْصِي شُهْبَ الدُّجَى حُسْبانُ
وَالحُبُّ أبانُوا عِندَمَا قدْ بَانُوا فآلَيْتُ تَعودُ بالرِّضَى الأزْمانُ
بالقلْبِ مِنَ الغَرامِ مَالاَ يُحْصَى فكَمْ أمَدٍ بَلَغْتُ منهُ الأقصَى
أُبْديهِ جَوًى يَكِلُّ عَنْهُ الإحْصَا مَعْنًى كَيْفَ شَاءهُ الهَوَى أوْ نَصًّا

ظَبْيٌ لاَ رِضًى إلاَّ بِمَا يَقْضِيهِ ... وَلا قَصْدَ إلاّ الذي يُرْضيهِ
لِلصَّبْرِ حُسامٌ كلَّمَا أُنضِيهِ ... يَفُلُّ الهَوَى مَا عَزْمُهُ يُمْضِيهِ
يا لَيْتَ زَمانًا قدْ مَضَى يَرْتَجِعُ ... والأُنْسُ لهُ شَمْلٌ بِهِ مُجْتَمِعُ
طَمِعْتُ وَهَلْ فِي الحُبِّ يُجْدِي الطمعُ ... أوْ يُغْنِي الأسَى منْ بعَدِهِ أوْ ينفَعُ -119-
هذَا قَلْبِي صَبا إلَيْهِ وَصَعَا ... لَقَدْ بَلَغَ الغَرامُ منّي مَبْلَغَا

هَذا طَمَعِي لوْ نالَ مِنْهُ ما انْتغَى ... فالدَّمْعُ طَمَا وَجَمْرُ وَجْدِي قدْ طَغا
هَذا قَلْبِي وَخصْرُهُ مُخْتَطَفُ ... هَذَا شَوْقِي وَصُدْغُهُ مُنْعَطِفُ
شَمْلِي هَمِّي مُفْتَرقٌ مُؤْتَلِفٌ ... مِن مُعْتَدِلٍ وَحُكْمُهُ مُخْتَلِفُ
عَينِي تُرْحِو خَيالَكُمْ يُطْرِقُهَا ... مُذْ بِزَوالٍ سَهَرٍ يُقْلِقُهَا
مازالَ حَشيثُ شَوْقِكُمْ يُحْرِقُهَا ... حَتَّى طَفِقَتْ دُمُوعُهَا تُغْرِقُهَا
جادَتْ فَحَكتْ صَوْبَ الحَيا المُنْبَجِسِ ... من كَفِّ إمَامِ الغَرْبِ والأنْدَلُسِ
يُبْدِي نُورَ الصَّباحِ لِلْمُقْتَبِسِ ... يَبْدُو أسَدَ السَّرْجِ وبَدْرَ المَجْلِسِ
يجلُو هَدْيُهُ جِنْحَ الدُّجَى إذْ يَعْتَسَى ... تُرْجَى كَفُّهُ سَلْمًا وحَرْبًا تُخْشَى
قَدْ أعْيَا جَريرًا وَصْفُهُ وَالأعْشَى ... فَكَيفَ يَفِي نَظْمٌ بِهِ أوْ إنْشا
خُذْهُ أدَبًا كالرَّوْضِ فِي رَيَّاهُ ... أحْيَاهُ بِغَيْثِ الجُودِ إذْ حَيَّاهُ
نَظْمًا شَرَّفَ العَبْدَ بِهِ مَوْلاهُ ... بالصُّنْعِ الجَميلِ قدْ حَباهُ اللّهُ
لهُ الرَّكْبُ يُحْدَى والفَيافِي تُطْوَى ... عَنْ يُمْناهُ أخبَارُ العَطايَا تُرْوَى
مِن جَدْوَى يدَيْهِ كُلُّ ظامٍ يَرْوَى ... يُلْقِي حَمدَهُ فِي السِّرِّ أوْ فِي النَّجْوَى
مَوْلًى بالجَميلِ يَستَفِعُ الإجْمالاَ ... ويُوضِحُ منْ كافِي النَّدَى الإكْمالاَ
بِهِ عَبْدُهُ قد بَلَغَ الآمالاَ ... فالجاهَ يُفِيدُ لَحْظُهُ وَالمالاَ
مَوْلاَيَ الذِي يُهْدِي الوُجودَ الهَدْيَا ... وَمَنْ وَصْفُهُ كُلَّ الوَرَى قدْ أعْيَا
لَمَّا نِلتَ رُتْبَةَ الكَمالِ العُلْيَا ... نالَ العَبْدُ ما أمَّلَهُ فِي الدُّنيَا

وَقُلتُ مُخَمِّسًا أبياتًا منْ قَصيدَة للشيخِ الوَزير أبي عبْد اللّه
ابْنِ الخَطيبِ رَحِمَهُ الله في غَرَضٍ يَظْهَرُ مِنْهَا وَحَقُّهَا أن تكونَ
مَعَ العِتابِيَّاتِ وبتاريخ اليَوْمَ الخامِس لرَجَب الفَرْدِ المبارك مِن عامِ
أحَدَ عشرَ وثماني مائة بِمَا نصُّه[213] 120-

لَئِن رَحَلوا عَنّي صَباحًا وَودَّعُـوا فنارُ الجَوَى طَيَّ الجَوانِحِ أوْدَعوا
فَقلتُ ومَالِي في التَّصَبُّرِ مَطْمَـعُ نَوَوْا سَفَرًا عَنّي الغَداة وأزْمَعُـوا
فَيا لَيْتَ شِعْرِي بَعْدَهُمْ كيفَ أصْنَعُ

لِذِكْرِهِمُ عُدْ والحَديثَ بِهِمْ أعِدْ فَلوْمُ وُشاتِي في الصّبَابَةِ لَمْ يُفِدْ
فَيا عاذِلِي مَنْ جَدَّ في العَتْبِ لَمْ يُجِدْ ويَا لائِمِي أكْثَرْتَ في اللَّوْمِ فاتَّئِدْ
فَهاذِي رُقًى في عِلَّتِي لَيْسَ تَنْفَعُ

مِن الشَّوْقِ أُهْدِيهَا إلَيْهِمْ رَسائِلاَ وأُبْدِي لَدَيهِمْ منْ غَرامِي وَسائلاَ
ودَمْعِي لَمْ يَبْرَحْ عَلَى الخَدِّ سائِلاَ لِغَيْرِ جُفُونِي كُنْ إذَا كُنْتَ قَائِلاَ
سَحابَةُ صَيْفٍ عَنْ قَريبٍ تَـقَشَّعُ

سَرَوْا بِـركابٍ لِلظَّـلاَلِ مُريحَـةٍ وكَمْ من نُصوصٍ في هَواهُمْ صَريحَةٍ
وألْسُنِ دَمْعٍ مِن جُفُونِي فَصيحَةٍ ومَالِيَ لاَ أبْكِي بِعَيْـنٍ قَريحَـةٍ
عَلى فُرْقَةِ الأحْبابِ تَهْمِي وَتَهْمَعُ

أيَا عاذِلِي كُنْ في المَحاسِنِ عَاذِرِي فَقَلبِـيَ مِنْهَـا بَيْـنَ نـاهٍ وآمِـرِ
فَها أنا صابٍ في الهَوَى غَيْرُ صَابِرِ فُـؤادِيَ أعْيـا صَدْعُـهُ كُـلَّ جَابِـرِ
وَهَـلْ جُبِـرَتْ يَاقُوتَـةٌ تَـتَصَدَّعُ

(213) يوجد هذا التخميس أيضًا في مظهر النور الباصر من ص 192 إلى ص 198.

ذَكَرْتُ رُبُوعًا بالحِمَى وَمَعاهِدَا وأَتْلَفْتُ قَلْبًا بالصَّبابَةِ جاهِدَا
فأصْبَحَ عَن نَهْجِ التَّصَبُّرِ حَائِدَا لَضَيَّعْتُ قَلْبِي ثُمَّ أصْبَحْتُ ناشِدَا
وَقَد قِيلَ أوْلَى بالخَسَارِ المُضَيِّعُ

لَعَلَّ هُيامِي لِلأحِبَّةِ شَافِعِي فَما كنتُ لَمَّا فيهِ خانَتْ مَطامِعِي
لِأكْتُمَ وَجْدًا أظْهَرَتْهُ مَدامِعِي أبوحُ بِمَا أُخْفِي ولَيْسَ بِنافِعِي
ولكنَّها شَكْوَى إلَى اللّهِ تُرْفَعُ

لَقَدْ أتْلَفَتْ قَلبِي المَشُوقَ يَدُ النَوَى فأصْبَحَ يُذْكَى في جَوانِحِهِ الجَوَى
هَواكَ عَلَى مَرِّ الزَّمانِ بِهِ تَوَى أمالِكَ رِقّي كَمْ أرانِي في الهَوَى -121-
أذِلُّ كَمَا شاءَ الغَرامُ وَأُخْضَعُ

لِقَلْبِيَ في أيْدِي الغرامِ تَقَلبُ يُذادُ عَنِ العُتْبَى وانْ كانَ يُعْتَبُ
فهَا أنا ذَا أرْجو رِضَاكَ وأطْلُبُ وهَبْ أنَّنِي أذْنَبْتُ والعَبْدُ مُذْنِبُ
فَلِي حَسَناتٌ في ذُنوبِيَ تَشْفَعُ

عَلى البُعْدِ كَمْ أهْدَيْتُهَا لَكَ مِدْحَةً عَساكَ تُسَنِّي بالتَّقَرُّبِ مِنْحَةً
وإنّي مَتَى أذْكَى بعَادُكَ لَفْحَةً ودَادِي كَمِثلِ العَنْبَرِ الوَرْدِ نَفْحَةً
إذا أحْرَقَتْهُ جَفْوَةٌ يَتَضَرَّعُ

بقُرْبِكَ ظِلُّ العِز فَوْقِيَ وَارِفُ وَبُعْدُكَ فِيهِ دَمْعُ عَيْنِيَ واكِفُ
فَهَا أنا راجٍ في هَواكَ وَخائِفُ وَرأْيُكَ بَيْنَ الحِلمِ والحُكْمِ واقِفُ
عَلَى أنَّ بَابَ الحِلمِ عِندَكَ أوْسعُ

أبيتُ عَلَى حُكْمِ الصَّبابَةِ مُغْرَمًا وأقْطَعُ دَهْرِي في عَسَى ولَعَلَّمَا
مَشُوقًا مُعَنًّى مسْتَهامًا متَيَّمَا أُعاتِبُ حَظّي أمْ أكُفُّ فإنَّمَا
هُوَ اللّهُ يُعْطِي مَا يَشاءُ وَيمْنَعُ

مُنِعتُ المُنَى حَتَّى الخَيالَ لِحالِمِ ونَيْلُ المعالِي بيْنَ تِلكَ المَعالِمِ
فإن لَمْ يكُنْ صَرْفُ الزَّمانِ مُسالِمِي أسَلِّمُ أمْرِي في الوُجودِ لِعالِمِ
أحاطَ بأمْرِي مِنْهُ مَرْءًى وَمَسْمَعُ

إذا لمْ يَكُنْ في حُكْمِهِ الدَّهْرُ مُنصِفِي ولمْ أُلْفِهِ فيمَا رَجَوْتُ بِمُسْعِفِ
ولمْ يُدْنِ أيّامَ الرّضَى والتّعطُّفِ سَأَرْفَعُ أمْرِي لِلخَلِيفَةِ يُوسُفِ
فَيحْكُمُ بالحَقِّ المُبِينِ وَيَصْدَعُ
هُو الظِّل ظِلُّ اللّهِ تَضْفو سُتُورُهُ وَيغنِي عَنِ الصُّبْحِ المُبين ظهورُهُ
سَحابُ نَدًى بالجُودِ مَاجَتْ بحُورُهُ شِهابُ نَدًى يَجْلُو الدُّجُنَّةَ نُورُهُ
ولجَّةُ جُودٍ مَوْجُهَا يَتَدفَّعُ
هوَ البَدْرُ في أُفْقِ الجِلافَةِ مُعْتَلِ هُوَ الرَّوْضُ كَم مِن مُجْتَنٍ إثْرَ مُجْتَلِ -122
فَللّهِ مِن بحْرٍ وبَدْرٍ مُكَمَّلِ ولِلهِ مِن غيْثٍ ولَيْثٍ ومَعْقِلِ
لمَنْ يَجْتَدِي أوْ يَعْتَدِي أوْ يُرَوَّعُ
صَفا فَوْقَ أمْلاكِ البَسيطَةِ ظِلُّهُ وأُفْقُ النُّجومِ النَّيِّراتِ مَحَلُّهُ
فها هُوَ غيثٌ قد تَتابَعَ وبْلُهُ ودِيوانُ مَجْدٍ قد تَواتَرَ نقْلُهُ
حَديثُ المَعالِي عنْهُ يُرْوَى ويُسْمَعُ
هُوَ المُلْكُ بالمَوْلَى ابْن نَصْرٍ شُفوفُهُ هُوَ الدَّوْحُ يَدْنُو لِلعُفاةِ قُطوفُهُ
هُوَ الدَّهْرُ تَقضِي في العُداة صُرُوفُهُ إذا انتُضِيتْ آراؤُهُ وسُيُوفُهُ
لِحَرْبٍ فَقُلْ أي الحسَامَيْنِ أقْطَعُ
إمَامٌ تَعُمُّ القاصِدِينَ هِباتُهُ بِهِ الخَطُّ والخَطِّيُّ راقَتْ صِفاتُهُ
فَقَدْ أبْدَعَتْ يُمْناهُ أوْ كَلِماتُهُ وان وَقَفَتْ في حادِثٍ عَزَماتُهُ
فَقَدْ أمِنَ الاسْلامُ مَا يُتَوَقَّعُ
أ ناصِرَ دِينِ اللّهِ دُمْتَ مُؤَيَّدَا لِعَهدِ الصِّحابِ الأكْرَمِينَ مُجَدَّدَا
فَمَن ذا يُضاهِي مِنْكَ ذاتًا ومَحْتِدَا سَبَقْتَ كَما اسْتَوْلَى الجَوادُ عَلَى المَدَى
فَلاَ سَابِقٌ في شَأْوِ مَجْدِكَ يَطْمَعُ
رَمَيْتُ بِسَهْمٍ لِلْبَلاغَةِ مُنْفِذِ فَرَوْضُ نِظامِي مِن سَحابِكَ قَدْ غُذِي
أنا بِكَ من رَيْبِ الزمانِ تَعَوُّذِي وأنْتَ حُسامُ الدّينِ ناصِرُهُ الذِي
تَدودُ العِدَى عن جانِبَيْهِ وتَمْنَعُ

أرَى الدَّهْرَ يا مَوْلاَيَ عَنِّي مُعْرِضَا وَسَيْفُ نِظامِي في يَميني مُنْتَضَا
ولفظِيَ تَشْرِيفِي بمَدْحِكَ قدْ قَضَا وَمِثْلُكَ يُرْجَى لِلقَبُولِ وَلِلرِّضَا
وعَبْدُكَ أيضًا لِلصَّنِيعَةِ مَوْضِعُ

وكَتبتُ لمَولانَا أيَّدهُ اللَّهُ ونصَرهُ وأعْلَى ملكَهُ وأظْهَرهُ، أبْياتًا
مَعَ قصِيدةٍ وَلَها حِكايةٌ تفهَمُ مِن معْناهَا -123-

إنَّمَا الشِّعْرُ رغبَةٌ وسُؤالُ ورَجاءٌ تَدْنُو بهِ الآمالُ
فإذا كنتَ مُسْعِفًا كُلَّ قَصْدٍ ومُيلاً في الدَّهْرِ ما لاَ يُنالُ
فلِمَ النَّظْمُ يا إمامَ البَرايا أصْمَتَ النُّطْقَ مِنْ يَدَيْكَ النَّوالُ
فكلاَمُ العبيدِ حَمْدٌ وَشكرٌ ودُعاءٌ لِرِبِّهِمْ وابْتِهالُ
أنْ يُديمَ الإلاَهُ مِنكَ إمَامًا راقَ مِنهُ الجَمالُ وَالإجْمالُ
دُمْتَ لِلدِّينِ ناصِرًا مِنْ عِداهُ تَرْتجيكَ القُصَّادُ والأُمَّالُ

ووَجَّهَ لِي أيَّدَهُ الله وشكَرَ نعْمتَهُ رُوميَّةً سُرِّيَّة
وَرِكابُهُ العَلِيُّ بمَالَقَة في اليَوْمِ العَاشِر لِرَمضانَ العظيم
عَام خمسَةَ عشر وثمَاني مِائة وكتَبَ إليَّ قبْلَ وُصُولِهَا
بِسَاعَةٍ ما نصُّه وَمِن نظْمِهِ

يا طالِبًا غُرَّ الجيَادِ السُّبَّقِ شَمِّرْ لَها عن ساقِ جدّكَ والحَقِ
فإلَيْكَهَا نَجْلاءَ رائِقَةَ الحُلَى وَالحُسْنُ بيْنَ مُدَمْلَجٍ ومُمَنْطَقِ
مَهِّدْ لَهَا أكْنَافَ بِرّكَ إنَّني آثَرْتُكُمْ مِنْهَا بِرَوْضٍ مُونِقِ
والوَعْدُ مِنَّا عاجِلاً فَتأهَّبَنْ بعْدَ العِشاءَ تَحُلُّ دارَكَ فالْتَقِ[214]

(214) لم ترد في ديوان ملك غرناطة.

ونوَّعَ القِطعَةَ بِمَقْلُوب هَذه عَلَى سَبيلِ المُداعَبَةِ والتَّأنيسِ وكَتَبَ بِخطّ يَدهِ الكَريمَةِ

يا طالِبًا فِعْلَ الجِعالِ المُونِقِ ... شَمِّرْ لَهُ عَن راسِ فَعْلِكَ وَارْتَقِ
وإلَيْكَهَا لفَّاءَ رَبَّةَ قَعْنَبٍ ... معْتادَةً طَعْنَ الكُلَى بِالمَفْرِقِ
فأقِمْ لهَا حَيثُ الذّوابِلُ تَنثَنِي ... عَجْراءَ لاَ تخْشَى احْتِدَامَ المَأْزِقِ
والوَعْدُ مِنَّا عاجِلٌ فَتأهَّبَنْ ... وذَرِ السَّراوِلَ خَلْفَ بابِكَ وَالْتَقِ[215] -124

وَطَلَبَ جَوابَهَا فارْتَجلتُ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ وَلاَ تَوقُّفٍ

مَوْلَى المُلوكِ بمَغرِبٍ وَبمَشْرِقِ ... عَن شُكْرِ ما أولاَهُ أعْجَزَ مَنْطِقي
أهْدَى إلى المَلوكِ مِن مَنظُومِهِ ... دُرًّا ولكِن مِثْلُهُ لَمْ يُنْسَقِ
وَافَى ليُعْلِمَنِي بأفْضَل مِنحَةٍ ... جادَتْ بهَا كَفُّ الكَريمِ المُشْفِقِ
وأتَى يُبَشِّرُنِي برَائِقَةِ الحُلَى ... فَطَفِقْتُ بَيْنَ تَشَوُّفٍ وتَشَوُّقِ
مَيَّادَة الأعْطافِ سَاحِرُ لَحْظِهَا ... يَرْمِي بسهْمٍ لِلقُلوبِ مُفَوَّقِ
لِمْ لاَ يَفوقُ الشُّهْبَ نَيِّرُ وَجْهِهَا ... وَسَناهُ عَن بَدرِ الكَمالِ المشْرِقِ
لمْ لاَ يَرُوقُ الآنَ رَوْضُ مَحاسِنٍ ... مِنهَا بِجُودِ نَدَى يَمينِكَ قَدْ سُقِي
جاءَتْ بهَا البُشْرَى فأيُّ صَبابَةٍ ... تَخْفَى وأيُّ جَوانِحٍ لَمْ تَخْفِقِ
قَدْ كِدتُ أذْهَبُ لَوْعَةً لوْ لمْ تَجُدْ ... بالوَعْدِ أنَّا عَن قَريبٍ نَلْتَقِي
أنا في العَشِيَّة بَيْنَ قَلبٍ مُولَعٍ ... فيهَا وَجَفْنٍ لِلطَّرِيقِ مُحَدِّقِ
والعَبْدُ يَمْسِي بيْنَ فعْلِ مُرْسَلٍ ... فيهَا وَقلبٍ بالصَبابَةِ مُوثَقِ
فاعْجَبْ لهُ يَرْتاحُ تحْتَ ضُلوعِهِ ... أوْ فوْقَهَا بِمقَيَّدٍ وَبمُطْلَقِ
فَتَخالهُ مِثْلَ الجَوادِ لَدَى الوَغَى ... حينًا وَحينًا يَرْتَمِي أوْ يَرْتَقِي

(215) لم ترد في ديوانه كذلك.

مَوْلاَيَ أَبْدَى مِن بديعِ جَمالِهَا وَصْفًا ثَنَى قَلبِي رَهِينَ تَعَشُّقِ
لاَ شَيْءَ أشرفُ في الوُجودِ من التِي يَتَخَيَّر المَوْلَى الهُمامُ ويَنْتَقِي
وُفِّقْتَ لِلتكْرِ الجَميلِ وقد أتَتْ مِن عِندِ مَوْلًى نَاصِرٍ لِمُوَفَّقِ
لاَزالَ مَوْلاَنَا يجودُ لعَبْدِهِ مِن قصْدِهِ الأَرْضَى بما هُوَ مُنتَقِ[216]

وقلتُ فيما يظْهَر منهَا وَقَصَدتُ المداعَبَةَ وَالانبسَاط
في الثاني عشر لمحرم عَام ثلاثة عشر وثمانمائة

يا إمامًا أَبْدَى الهِدايَةَ شَمْسا تَتدانَى نُورًا وتبْعُدُ لَمْسَا -125-
مِلْكُ نعْماكَ يَرتجِي مِنكَ جُودًا ظَلَّ يُدْنِي مِن الْمآمِلِ شُمْسَا
يَا جَوادَ المُلوكِ إنّ جَوادِي لَيْسَ قلبِي لبُعْدِه يَتأَسَّى
وَلِتعْوِيضِهِ بأَحْسَنَ مِنْهُ أصْبَحَ العَبْدُ يَرْتَجِيكَ وَأَمْسَى
وَجوادٌ مَن حضرَةِ المُلْكِ يُهْدَى حَيْثُمَا حَلَّ حُلةُ الجَاهِ تُكْسَى
مَقْصَدي أنْ يعَرّسَ اليوْمَ عِندِي رائِقَ الوَصْفِ لَسْتُ أطْلُبُ عرْسَا
مِثْل قاضِي القضَاة إذْ جَدَّ حَتّى فَازَ بالمَرْكوبَيْنِ مَعْنًى وَحِسًّا
صَحَّ قَصْدِي لَدَيْكَ مَولاَيَ حَقًّا لَمْ يَدَعْ فِيهِ جُودُ كَفّكَ لَبْسَا
لاَ تُخيّبْ مِن الجَدَى رَوْضَ فكْرٍ طَالَمَا قَد زَكَا بنُعْماكَ غَرسَا
أنتَ أعْلَى قَدْرًا وأعْلَمُ لكِن ذَكَّرَ العَبْدُ مِنْكَ مَنْ لَيْسَ يَنْسَى

واتَّصَلَ بِي وأنا صُحْبَةَ الرّكابِ العَلِيِّ بِظاهر جَبَل الفَتْحِ
فِي السَّفْرَةِ الثَّانِيَّة خَبَرُ ولاَدَةِ يُوسُف وَلَدِي أسْعَدَه الله
وَولاَدَتُهُ في الثّاني والعَشرينَ لِذِي قعْدَة عام خمسَةَ عَشَر وَثمانِمائة

(216) للشطر الأخير رواية أخرى كتبت في الطرّة وهي : بمَواهبٍ مِنْ حوده المتدفّق.

فقلْتُ أُعلِمُ مَوْلانا أيَّدهُ الله بذَلِكَ فَسمَّاهُ باسْمِهِ الشَّريف
ووَهَبَ ما يقْصُر عنْهُ لِسان الإعْلامِ والتَّعْريف، وذلك[217]

-126- وكذلكَ كَتَبتُ لمقامِهِ الكَريمِ بالحَضْرةِ مُعْلمًا بوِلادَةِ ولدي
أبي الطَّاهر هَداهُ الله وذلِكَ في يَوْمِ الأحَدِ قبيْلَ صَلاةِ الظهْرِ الثاني
لِصفر منْ عامِ سَبْعَةَ عَشر وثمانِي مِائة وبمُوافَقةِ مايُهُ الأعْجَمِي فَسَماهُ
أيَّدهُ الله ووَهَبَهُ مِثْلَ أخيهِ شكَر الله نِعْمتَه، وأبْقَى عِنايَتَهُ وحُرْمَتَه

أمَوْلاَيَ انّ العَبْدَ قدْ زادَ عنـدَهُ خَديـمٌ لما شاءَتْ عُـلاكَ أعَـدَّهُ
أتى وافِدًا مِن عَالَمِ الكَوْنِ راجِيًا نداكَ الذي تسْتَمْطِرُ السُّحْبُ عهْدَهُ
مُتيِرًا إلَى تَقْبيلِ كَفَّكَ ضارِعًـا لِمُلْكِكَ في أنْ يُنْجِزَ النَّصْرُ وَعْدَهُ
يُتيرُ سُرورًا في النفوسِ بِكَوْنِـهِ يُوَثِّرُ مِنْكَ الجَاهُ والعِزُّ مَهْـدَهُ
بِتَسْمِيَةٍ يبْقَى مَدَى الدهْرِ ذِكْرُهَا يُشَرِّفُ مَوْلاَنَـا بـذلِكَ عَبْـدَهُ

وَفي يَوْمِ سَابِعِه وجَّهتُ الوَلَدَ عَلَى العَادة إلى بيْن يَدَيْهِ وَكَتَبتُ مَعَهُ

مَمْلـوكُ نعْمـتِكَ التِـي رَقَّتْ أبـاهُ وَجَـدَّهُ
وافَـى جنـابَكَ آمِـلاً وَعُـلاكَ تُنْجِـزُ وَعْـدَهُ
ورَحَـا مَقـامَكَ آمِـلاً في اسْمٍ يشرفُ عبْـدَهُ

وَبَيَّضْتُ لِمَن طَلَبَ ذَلِكَ

يَا ناصِرَ الإسلاَمِ يا مَلِكَ الهُدَى لاَزِلْتَ مَـنْصورَ اللِـواءِ مُؤَيَّـدَا
فُقْتَ المُلـوكَ الأكْرَميـنَ مَآثِـرًا فَبلغتَ في شَأْوِ العُلَى أقصَى المَدَى

(217) بعد هذا بياض في الأصل، وكتب الناسخ في الطرة ما يلي :
«كذا وجدت البياض».

فـلأنتَ أسْماهُـمْ وأسْناهُـمْ إذا طَالُوا وأنْجَزُ في المَكارِمِ مَوْعِدَا
وأجَلُّهُـمْ قَـدْرًا وأشْرَفُهُـمْ حُـلاً وأعَمُّهُـمْ رِفْـدًا وأنْدَاهُـمْ يَـدَا
إنّ السَّحابَ وان تتابَعَ جَوْدُهَـا لَـمْ تَتّخِـذ إلاّ نَـوالَكَ مَـوْرِدَا
أوَ لَيْسَ حودُكَ فوقَ عَبْدِكَ إذْ هَمَىٰ أضْحَى لأثْوابِ القَبُولِ مُجَـدّدَا -127-
أوْلَيتِـي مَـا لاَ أقـومُ بشُكْـرِهِ منْ أنْعُم جَلَّتْ فَأرْغَمَتِ العِـدَى
وثَنَيْتَ بِـي وَجْـهَ القَبـولِ تَكَرُّمًـا فَطَفِـقتُ أهْـديكَ التّـاءَ مُـرَدّدَا
ورَأيْتُ عبْـدَكَ «مُخْلِصًا» فَحَسِبْتُـهُ فَالاً لِأوصافِ الخُلوصِ مُؤَكِّدَا[217]
شَرَّفتَنِـي وَرفَـعْتَ دِكْـرِي مُنْعِمًـا لاَزِلْتَ يا شَرَفَ المُلوكِ مُحلّـدَا

وفي مِثْـــلِ ذلِـــكَ

مَوْلاَيَ يَـا أعْلَـى الـورَى منزِلَـهْ عَبْـدُكَ يَرْجُـو نعْمـةً مـنكَ لَـهْ
مِثْـلَ رَفيقَيْـهِ وَقَـدْ بُلّغَـا مـا أسْعَـفَ القَصْدَ وَمـا كَمَّلَـهْ
كِلاهُمَـا فـارَ بمَـا ساءَهُ ولَـمْ يَنَـلْ عبْـدُكَ مَـا أمَّلَـهْ
وإنَّ مَـوْلاَيَ الامَـامَ الـرّضَا يحْكُـمُ في دِلِكَ بالمَعْدِلَـهْ
وَرِفْـدُ مـوْلاَيَ يَعُـمُّ الـوَرَى سَحـائِبُ الجُـودِ بـهِ مُرْسَلَـهْ
فَـلا تُخَـيّبْ راجِيًـا لَـمْ يَـزَلْ في كُـلّ حـال وَارِدًا مَنْهَلَـهْ
وقَـدْ تَـوَسَّلْت بهَـادِي الـوَرَى وَمُحْكَـمِ الذّكْـرِ ومَـن أنْزَلَـهْ
لاَزِلْتَ تُبْدِي نَصْرَ دينِ الهُـدَى في الحالِ والأزْمِنَـةِ المُقْبِلَـهْ[218]

---

(217) هذا العبد «مخلص» لعلّه من أسرة «سَيعش» وقد ورد في وثائق عرناطية اسم أبي الوداد مخلص بن أبي القاسم بن رضوان سيعش، ويبدو أن هذا الأخير حفيد الأول، وعلى كل حال فقد كان رضوان بيغش هو القائم بأمر دولة محمّد الصغير ولد يوسف الثالث. راجع كتاب محمد التاسع.

(218) بعد هذا البيت بياض في الأصل مقداره نحو 5 أبيات، وفي الطرة : كذا في الأصل.

أبياتٌ لِمَوْلانا أيَّدَهُ الله ونصرَهُ أثْبَتُّهَا هُنَا عَلى وجْهِ التَّشْريفِ بِمَا يَصْدُر عنْ ذاتِهِ الكَريمَةَ

128- قِفَا نَفَسًا عَلى نَفْسٍ شَجيَّهْ يُعيدُ حَياتَهَا رَجْعُ التَّحيَّهْ[219]

عَلى إثْرِ الرَّكائِبِ يَوْمَ بانُوا يحينُ الحَيْنُ أوْ تَدْنُو المَنِيَّهْ

فَوا أسَفًا لِنفْسٍ مِنْهُ ضَاعَتْ يَقِلُّ فِدًى لهَا كُلُّ البَريَّهْ

صَريعٌ بيْنَ أخفافِ المَطايَا بعيدُ الرُّشْدِ لاَ يَخشَى تَقِيَّهْ

يُرَدَّدُ زَفرَةً كَالجَمْرِ وَقْدًا ويُرْسِلُ عَبْرَةً تَحْكِي رَكِيَّهْ

فَداعِي اليَأسِ لِلدَّعْوَى قَريبٌ وآمالُ الرَّجاءِ غَدَتْ قَصِيَّهْ

ويا طِرْفَ الصُّدُودِ ألا كُبُوٌّ ويا سَيْفَ الفِراقِ ألاَ بَقِيَّهْ

ويا مَغْنَى السُّرورِ وَكُلِّ أُنْسٍ عُهودُكَ عِنْدَنَا أبدًا وَفِيَّهْ

رَمانِي الدَّهْرُ عَنْ كَثَب فأصْمَى فُؤادًا مالَه بِسِواكَ نِيَّهْ

فُؤادًا غَرَّهُ مِنْكَ التَّمَنِّي ونَفْسًا فيكَ إنْ عُذِلَتْ أبِيَّهْ

وكَمْ وَعْدٍ نَقَضْتَ وكَمْ وَعيدٍ تَقاضَتْهُ الجُفونُ البَابِليَّهْ

وأظْهِرُ رَغْبَةً وَتَزيد صَدًّا فيا لَلّهِ مِنْ هَذِي القَضيَّهْ

كأنِّي لَمْ أكُنْ وَالدَّهْرُ سَاطٍ مَهيبَ الأمْرِ مَحْمودَ السَّجيَّهْ

أُقَابِلُ عُسْرَهُ أبدًا بِيُسْرِي وآسُو جُرْحَهُ باليَزنِيَّهْ

وكانَتْ فلْتَةً فالتْ برَأْيِي غَداةَ النَّفْسُ بالعَلْيا حَرِيَّهْ

فَراعَيْتُ الأذِمَّةَ حِينَ ضاعَتْ وآثَرْتُ الوَفَاءَ عَلى الدَّنِيَّهْ

مُصابًا لَمْ أُعِرْهُ الدَّهْرَ سَمْعًا ولَمْ أقْرَعْ لَهُ أسَفًا تَنِيَّهْ

إلَى أنْ عادَنِي مِنْ غيْرِ وَعْدٍ خَيالٌ قَدْ سَرَى لِلْعامِرِيَّهْ

---

(219) وردت القصيدة وتخميسها في ديوان ملك غرناطة : 162 — 165.

تَخْمِيسُهَا

بعَيْشِكُمَا دَعَا ذِكْرَ العَشِيَّهْ وحُثَّا فِي رُبوعِهِمُ المَطِيَّهْ
وإن لَمْ تَنزلاَ تِلْكَ التَّنِيَّهْ قِفَا نَفسًا عَلى نَفْسٍ شَجِيَّهْ
يُعِيدُ حَياتَها ذِكْرُ التَّحِيَّهْ -129-

أَبُعْدًا والفُؤادُ لهُمْ مَكَانُ أَرَاهُمْ نَصْبَ عَيْنِي حَيْثُ كَانُوا
فَمُذْ بانُوا الصَّبَابَةَ قَدْ أَبانُوا عَلى اثَرِ الرَّكائِبِ يَوْمَ بَانُوا
يَحِينُ الحَيْنُ أَوْ تَدْنُو المَنِيَّهْ

أَحاديثُ الصَّبَابَةِ عَنهُ شاعَتْ وبَعْدَ الكَتْمِ في الآفاقِ ذاعَتْ
وآمِنُ قلبِهِ بالخَفْقِ رَاعَتْ فَوااَسَفًا لِنَفْسٍ مِنْهُ ضَاعَتْ
يَقِل لهَا فِدًى لهَا كُل البَرِيَّهْ

مَشوقٌ دَمْعُهُ يُبْدِي الخَفايَا ثَناهُ لِلْهَوَى حُسْنُ الثَّنايَا
فها هُوَ لَمْ يَدَعْ مِنْهُ بَقايَا صَرِيعٌ بيْنَ أَخْفافِ المَطَايَا
بَعِيدُ الرُّشْدِ لاَ يَخْشَى تَقِيَّهْ

يهِيمُ بحُسْنِهِمْ كَلفًا وَوُدًّا فَيَنْثُرُ جَفْنُهُ لِلدَّمْعِ عَقْدَا
مُحِبٌّ لاَ يَزالُ يَهِيمُ وَجْدَا يُرَدِّدُ زَفْرَةً كالجَمْرِ وَقْدَا
وَيُرْسِلُ عَبْرَةً تَحْكِي رَكِيَّهْ

لِقَلْبِي عِنْدَمَا رَحَلُوا وَجِيبُ أُنادِيهِمْ ومَا مِنْهُمْ مُجِيبُ
أَرَى دَهْرِي لهُ شانٌ عَجِيبُ فَدَاعِي اليَأسِ لِلدَّعْوَى قَرِيبُ
وَآمالُ الرّجاءِ غَدَتْ قَصِيَّهْ

فَمَا لِلقَلْبِ بَعْدَهُمُ سُلُوُّ ولَيْسَ مِنَ الغَرامِ لهُ خُلُوُّ
فَيا بُعْدَ المَزارِ ألاَ دُنُوُّ وَيا طِرْفَ الصُّدودِ ألاَ كُبُوُّ
وَيَا سَيْفَ الفِراقِ ألاَ بَقِيَّهْ

ألاَ يا مَكْنِسًا لِظِباءِ إنْسٍ حَويتَ مِن المَحاسِنِ كُلَّ جِنْسٍ

ويا أُفْقًا لبَهْجَةِ كُلِّ شَمْسٍ ويا مَعْنَى السُّرورِ وَكُلِّ أُنْس
عُهودُكَ عِندَنا أبدًا وَفِيَّهْ

لَقَدْ أبْدَيْتُهَا حِكَمًا وَحُكْمًا وَصْفِكَ دائِمًا نَثْرًا ونظْمًا
أطَلْتُ وَلَمْ أقصِّرْ فيهِ لَمَّا رَمانِي الدَّهْرُ عَن كَثَبٍ فأصْمَا 130-
فؤادًا مَا لَهُ بِسواكَ نِيَّهْ

أيَبْعَدُ شخْصُهَا والفِكْرُ يُدْنِي وَتَرأُ ساحَتِي وَالْوَحْدُ يُضْنِي
وكُنْتُ أظُنُّ أنَّ الصَّبْرَ يُغْنِي فُؤادًا غَرَّهُ مِنْكَ التَّمَنِّي
وَنفْسًا فِيكَ إنْ عُذِلتْ أبِيَّهْ

فكَمْ لِلدَّمْعِ مِن دُرٍّ نَضِيدِ عَلَى ما مَرَّ مِنْ عَهْدٍ حَمِيدِ
وَكَمْ بهَواكَ من قلبٍ عَمِيدِ وَكَمْ وَعْدٍ نَقَضْتَ وكِمْ وَعِيدِ
تَقاضَتْهُ العُيُونُ البَابِلِيَّهْ

فيا بَدرَ الدُّجَى حُسْنًا وجَدًّا وَيا غُصْنَ النقَى لينًا وَقَدًّا
أأقْرُبُ لوْعَةً فَتُرِيدُ بُعْدَا وأُظْهِرُ رَعَةً وَتَزِيدُ صَدًّا
فَيا للهِ مِنْ هَذي القَضِيَّةِ

بَنُو الأمْلاكِ ما بَلَغُوا مَاطِي لَهُمْ فَخْرٌ إذا لَثِمُوا بِساطِي
فمالَكَ كاسَ وَصْلِكَ لاَ تُعاطِي كَأنِّي لَمْ أكُنْ والدَّهْرُ سَاطِ
مَهيبَ الأمْرِ مَحْمودَ السَّجِيَّهْ

إذا أبْدَى العَبُوسَ أراهُ بِشْرِي صَبَاحًا لِلرَّكائِبِ حِينَ تَسْري
وإنِّي مُذْ أطاعَ الدَّهْرُ أمْرِي أُقابِلُ عُسْرَهُ أبدًا بِيُسْرِي
وآسُو جُرْحَهُ باليَزَنِيَّهْ

لَئِنْ كان الزَّمانُ أطالَ نأيِي فَها هُوَ مُظْهِرٌ نَصْرِي وَهَدْيِي
مُطيعًا مُنْفِذًا أمْرِي ونَهْيِي وكانَتْ فَلْتَةً فَالَتْ بِرأيِي
غَداة النَّفْسُ بالعَلْيا حَرِيَّهْ

هـيَ الأيَّـامُ أمْـرِي قـدْ أطـاعَتْ قدِ انقَادَتْ إلَى مُلْكِي وَطـاعَتْ
مَعَالِمَـهُ أقَـمْتُ وقَـدْ تَـداعَتْ فَراعَـيْتُ الأذِمَّـةَ حَـيْثُ ضَاعتْ
وَآثَـرْتُ الوَفـاءَ عَلَـى الدَّنِيَّـهْ

-131- لَقَـدْ بِلتُ العُلَى وتُـرًا وَشَفْعَـا وكانَ الخَـفْضُ لِلأقْـدارِ رَفْعَـا
أزاحَ وقـدْ قَضَى لِلشَّمْـلِ جَمْعَـا مُصابًا لم أعِـرْهُ الدَّهْـرَ سَمْعَـا
ولَـمْ أقْـرَعْ لَـهُ أسَفًـا ثَنِيَّـهْ

فَكَـمْ قَـدْ بتُّ رَهيـنَ وَجْـدٍ أُطِيـلُ الفِكْـرَ ذا قَلَـقٍ وَسُهْـدِ
أُراقِبُ خافِقًـا مِـن ظِـلِّ بَنْـدٍ إلَى أنْ عَادَنِي مِـن غَيْـرِ وَعْـدِ
خَيـالٌ قَـدْ سَرَى لِلعَامِرِيَّـهْ

وَوصَلني منهُ أيَّد الله مَقامَهُ أبْياتٌ ثَلاثَةٌ في الثانِي والعِشْرينَ لجُمَدَى الأولَى عَام اثْنَي عَشَر وثمانِمائة نَصُّهَـا

وتَزْعُـمُ أنَّـي لاَ أبالِـي بِهَجْرِهَـا وأنَّ الهَوَى منّي خِداعٌ لهَا يَجْرِي
فَلِمْ ذا يَصوبُ الدَّمْعُ والطَّرفُ شاخِصٌ وأطْوِي الحَشَا لَهْفًا عَلَى لَهَبِ الجَمْرِ
مَنَعْتُ إذًا وَفْرِي وَخُـنْتُ أذِمَّتِـي وسَالَمْتُ أعْدائِي وَلَمْ أكُ دا أمْرِ[220]

تَخْميسُ هَذِهِ الأبْياتِ المشَرَّفـةْ وَحَديقَةِ الزَّهْرِ المُفَوَّفَـةْ

إذا الأُفْقُ لَمْ يَسْمَحْ بِرائِقِ بَدْرِهَا أُعَلِّـلُ قلبـي الـمُسْتهامَ بِذِكْرِهَـا
وَمِن عَـجَبٍ أنّـي مُطيعٌ لأمْرِهَـا وتَزْعُـمُ أنّـي لاَ أُبالِـي بهَجْرِهَـا
وأنَّ الهَوَى مِنّي خِداعٌ لهَا يَجْرِي

(220) لا توجد في ديوان ملك غرناطة.

وادِي عَلَى مَرّ الجَدِيدَيْنِ خالِصُ لِـذلِكَ أعْنـاقُ الـوُشاةِ نَـواكِصُ
وإنْ قيـلَ إنَّ الـوُدَّ مِنّـي نـاقِصُ فِلِمْ ذا يَصوبُ الدّمْعُ والطَّرفُ شاخِصُ
واطْوِي الحَشَا لَهْفًا عَلى لَهبِ الجَمْرِ
سأمضِي وأُبْدِي فيهِ حُكْمِي وحِكْمَتِي وَأُظْهِرُ في الأُمَّالِ آثارَ نِعْمَتِـي -132
وإن لَمْ أُنِلْ عَبْدِي مُناهُ بِخِدْمَتِي مَنَعْتُ إذًا وَفْرِي وَخُنْتُ أذِمَّتِـي
وَسالَمْتُ أعْدائِي ولَمْ أكُ ذا أمْرِ

وَمِنَ التَّذْيِيلِ عَلَى الأبياتِ الرَّائِقَةْ
وَعِقْدِ الدرَرِ المُتَناسِقَـــةْ

وَظَبْيَةِ إنْسٍ لَيْسَ يُرْجَى وِصالُهَـا مَدَى الدَّهْرِ إلاَّ بالتَّوَهُّمِ والفكْـرِ
كَلِفْتُ بِهَا كالزُّهْرِ وَالزَّهْرِ في الرُّبَى لِمَا راقَ مِنْ بِشْرٍ ومَا رَقَّ مِنْ نَشْرِ
عَجِبْتُ لَهَـا والـوُدُّ مِنْهَـا سَجِيَّـةٌ وَعَنْ خَبَرِي يُغْنِيكَ في حُبِّهَا خُبْرِي
تَقولُ بأنّي قدْ سَلَوْتُ عَنِ الهَوَى ولاَ عُذْرَ في تَرْكِ اتّبَاعِ الهَوى العُذْرِي
وتُخْبِرُ أنّي ناظِمٌ وصْفَ غَيْرِهَـا وَمَا شَعَرَتْ إنْ قلتُ في غَيْرِهَا شِعْرِي
وتَزْعـمُ أنّـي لاَ أبالِـي بِهَجْرِهَـا وأنَّ الهَوَى مِنّي خِداعٌ لهَا يَجْرِي
فِلِمْ ذا يَصوبُ الدَّمْعُ والطرفُ شاخِصٌ وأطْوِي الحَشَا لَهْفًا عَلى لَهَبِ الجَمْرِ
مَنَعْتُ إذًا وفْرِي وَخُنْتُ أذمتِـي وسالَمْتُ أعْدائِي ولَمْ أكُ ذَا أمْرِ
ألَسْتُ المَسمَّى باسْمِ صِدّيقِ ربِّهِ وَناصِرَ دين اللّهِ في الحادِثِ النُّكْرِ
ألسْتُ الذِي تَعْنُو المُلوكُ لعِـزِّهِ وتَرْهَبُـهُ في حَالَـيِ النَّهْيِ والأمْـرِ
ألَسْتُ الذي تخشَى الكُماةُ نِزالَـهُ وترْهَبُ مِنْهُ البَطشَ بالبيضِ والسُّمْرِ
ألَسْتُ الذي تَرْحـو العُفـاةُ نَوالَـهُ وقد جادَهَا مِنْـهُ بِمُنْهَمِـلِ القَطـرِ
فِلِمْ لاَ أوَفِّي العَهْدَ والفَضْلُ شِيمَتِي وانَّ وفائِـي لاَ يُـرَوَّعُ بالعَـــدْرِ
وَعِزَّةُ مُلْكِي طَوعُهَـا كُـلُّ مـالِك وأيْنَ عُلاَ الشهْبانِ مِن رِفْعَةِ البَدْرِ

فَلا حُكْمَ إلاَّ كُنْتُ فيهِ مُحَكَّمًا ولاَ أَمْرَ إلاَّ وهْوَ يَصْدُرُ عَنْ أَمْرِي -133-

(221)

زَمانُ الرِّضَى أَنْسَى القَطيعَةَ والجَفا وأَصْبَحَ لِلقصْدِ المؤَمَّلِ مُسْعِفَا
وقَدْ راقَ شَمْسُ الأُنْسِ فيهِ تَأَلُّفَا فَمالَكَ والقَلْبُ المَشوقُ قدِ اشْتَفَى
تَذَّكَرْتَ طَوْعَ الوَجْدِ لِلْبَيْنِ مَوْقِفا
نَعَمْ أنفسُ العشَّاق تَدْعُو لِرَبِّهَا وتَسْأَلُ أنفاسَ الصَّبَا مِن مَهَبِّهَا
وقدْ رَوَّعَ الهِجْرانُ آمِنَ سِرْبِهَا وما كُنْتُ لوْلاَ مَن كَلِفْتُ بِحُبِّهَا
لأَذْكُرُ رَبْعًا لِلتَّصَابِي وَمأْلَفَا
أَهِيمُ وانْ شَطَّ المَزارُ تَعَشُّقَا وأَسْأَلُ عَهْدًا لِلوَفاءِ وَمَوْثِقَا
وَأُصْغِي إلى ذِكْرِ التَّواصُلِ وَاللِّقَا وبالفِكْرِ لاَ أَزْدادُ إلاَّ تَشوُّقَا
ولِلذِّكرِ لاَ أَرْتاحُ إلاَّ تَشَوُّفَا
تأَمَّلْتُ رَبْعًا للحَبيبِ وَمَعْلَمَا فَبُحْتُ وَهَل كانَ الغَرامُ لِيُكْتَمَا
وَهَلْ يالَفُ الصَّبْرُ الفُؤادَ المُتَيَّمَا وَساجِمُ دَمْعِي مِن جُفونِي قَدْ هَمَا
وَبارِقُ قَلبِي فِي ضُلوعِي قدْ هَفَا
ومِمَّا أهاجَتْ عِندِيَ الشَوْقَ والجوى طُلولٌ تُناجِيني عَلَى البُعْدِ والنَوَى
فَأَهْذِي بِذِكْرِ الحَيِّ مِنْ جانِبِ اللِّوَى لِأَنْ جَدَّدَتْ عَهْدَ الصَّبَابَةِ والهَوَى
لَدَى مَرْبَعٍ لِلصَّبْرِ وَالأُنْسِ قدْ عَفَا
وَبِي ظَبْيُ إنْسٍ تَيَّمَ القَلْبَ لَوْعَةً إذا رُمْتُهُ يحْكِي الكَواكِبَ مَنْعَةً
وَيحْسِبُ تَشبيهِي بِذلِكَ بِدْعَةً فَيُزْري بِنورِ البَدْرِ حُسْنًا وَرِفْعَةً
ويُحجِلُ عُصْنَ البَانِ لِينًا وَمَعْطِفَا

(221) بياض في الأصل لم يتّه عليه الناسخ، ومقداره سطران، ولابدّ أنه يتعلق بتقديم للتذييل بعده وهو تذييل للشاعر على قطعة لمخدومه يوسف الثالث فيما يبدو.

أقــولُ إذا أبْصَرْتُــهُ مُتَمَايِــلاً مُنَعَّمَ قَدٍّ يَتْرُكُ الجِسْمَ ناحِلاَ
مُحَيَّاكَ مَن أبْدَى بِهِ البَدْرَ كاملاَ ومَن هَزَّ لِلعُذّالِ قَدَّكَ ذابِلاَ
وَجرَّدَ لِلعُشَّاقِ جَفْنَكَ مُرْهَفَا

ألاَ بِابِي وَجْهٌ يَروقُ كَمالُهُ تطلَّعَ في أُفْقِ الضُّلُوعِ هِلاَلُهُ
وإنَّ مَشُوقًا قَد سَباهُ حَمالُهُ لَقَدْ رَقَّ وجْدًا قَلْبُهُ فتحالُهُ 134-
فَتًى رامَ انْ يُخْفِي الصَّبابَةَ فاخْتَفَى

ألاَ إنَّ في يُمْنايَ لِلبأْسِ والرَّجا محالاً بِهِ القُصادُ لاَ تَسْتَكِي الوَجَى
وَإنَّ الذِي في حُبِّهِ أتْرُكُ الحِجَى حَكَى الزَّهْرَ والرُّهْرَ المُنيرَةَ في الدُّجَى
وَعُصْنَ النَّقَى لِينًا وَخَدًّا وَمَرْشَفَا

أصرِّفُ في الهَيْجاءِ سيْفًا ولَهْذَمَا وأُنْذِلُ ما تَهْوَى النُفوسُ تَكَرُّمَا
فمالِي أنادِي الظبْيَ واللَّحْظُ قدْ رَمَى أيا ساحِرَ الأحفانِ قلْ لِي مُنْعِمَا
أيَشفَى فُؤادٌ مِنْ هَواكَ عَلَى شَفَا

أهيمُ غَرامًا شَاءَهُ المُلْكُ أوْ أبَى وأتْبَعُ فيهِ مِن خُضوعِي مَذْهَبَا
فَيا عَجَبًا لِلْقَلْبِ مِنّي أنْ صَبَا وَهادِي مُلوكُ الأرْضِ شرْقًا ومَغْرِبَا
تُطَاوِعُ مِنّي ناصِرَ الدّينِ يُوسُفَا

كَتَمتُ ولَكِن مَا عَلَى الشمْسِ كاتِمُ وداءُ الجَوَى طَيَّ الجَوانِحِ دائِمُ
وإنّي وفي مِلْكِي المُلوكُ الأكارِمُ إدا لاَمَنِي في حُبِّهِ اليَوْمَ لاَئِمُ
أقولُ لهُ مَهْلاً فقَدْ بَرِحَ الخَفَا

(222)

---

(222) بياض أيضًا في الأصل مقداره سطران، ولا بدّ أنّ الكلام فيه كان تقديما للأبيات المذكورة بعده، ويبدو من نَفَسها ولَفْظِها، ومن السّياق كذلك أنها ليوسف الثالث، ولكنّها لم ترد في ديوانه ؛ وهي والقطعتان بعدها في استهداء العسل من الشريف أبي العباس، والغالب أنّهُ أبو العباس ولد أبي القاسم الشريف الستي المعروف. وكان من حاشية يوسف الثالث وخُدّام دولته.

أيا شَريفَ المُنْتَمَى وَالِّدِي أضْحَى إلَى الغَايَاتِ سَبَّاقَا
أيْنَ الذِي كُنَّا عَهِدْنَاهُ قَدْ أشْهَتَهُ وُدًّا وأخْلاقَا
يَا أبَيْضَ الوِدّ وَحُلْوَ الجَنَى وأكْرَمَ الخُدَّامِ أعْرَاقَا
ومِثْلُكُمْ ياتِي بِمَا شاءَهُ مَقامُنَا أخْذًا وإطْلاقَا
ولَنْ تَنَالَ البِرَّ حَتَّى تَرَى لَدَيْكَ مِمَّا شِئتَ إنفاقَا[223] -135-

(224)

أيا شَرِيفًا قَدْ بَأتْ دارُهُ وخُبْرُهُ طَابَ وأخْبارُهُ
أفِضْ على حُدَّامِنَا ما جَرَتْ في حَنَّةِ الفَرْدَوْسِ أنْهارُهُ[225]

(226)

لَكَ في المَكارِمِ يا أبا العَبَّاسِ آثارُ بِرٍّ لَمْ تَدَعْ مِن باسِ
وأبَرُّ طَعْمًا ما حَلاَ ذَوْقًا وَمَا أضْحَى شِفاءً دائمًا للنَّاسِ[227]
وَلَدَيْكُمُ مِنْهُ كَثِيرٌ فَانْعَتُوا بالرَّائِقِ الأَلْوانِ والأَجْناسِ
ولْتَتْرُكُوا مَقْلوبَهُ لغَرِيرَةٍ أَلِفَتْكُمُ مِنْ بَعْدِ طولِ شِماسِ[228]

(223) اقتباس من الآية الكريمة : «لن تنالوا البرّ حتّى تنفقوا ممّا تحبّون»
(224) بياض في الأصل مقداره سطران، وكان ــ كما تقدر ــ في التقديم للبيتين بعده.
(225) إشارة إلى قوله تعالى . وأنهارٌ من عسَلٍ مُصَفًّى.
(226) بياض في الأصل، مقداره سطران، وهو فراغٌ تُرِكَ لما تقتضيه الأبيات بعده من تقديم.
(227) يعني العسل، جاء في سورة النحل : «يخرج من بطونها شرابٌ مختلفٌ ألوانه فيه شفاءٌ للناس».
(228) مقلوب عسل هو لسع، والمقصود هنا معنى القرص، والعريرة المشارُ إليها لعلّها الجارية الرّومية التي أهداها السلطان يوسف الثالث إلى قاضي قصاة دولته الشريف أبي العباس، وهذا ما يُستفاد من شعر ابن فركون المتقدّم.

يُعْـزَى أُبوهَـا لِلـذِي أَشْبَهْتَـهُ وَصْفًـا بِـلاَ شَكٍّ ولاَ إلْبَـاسِ[229]
فَأَلِـفْتَ أَنْـواعَ الحَـلاوَةِ دائِمًـا فِي الحَالَتَيْـنِ الأَكْـلِ والإِعْـرَاسِ
هَذا وَمُوجِبُهُ إِلَيْكُـم مَـا ارْتَضَتْ عُلْيَـاكَ مِـنْ بِـرٍّ وَمِـنْ إِينَـاسِ

ووَجَّهَ إِلَيَّ أَيَّدَهُ اللهُ وَنَصَرَهُ أَبْيَاتًا خَمْسَةً
دونَ قَافِيَةٍ وَ أَمَرَنِي بِتَرْكِيبِ قَافِيَةٍ عَلَيْهَا
فَأَمْكَنَ فِيهَا مَا يُكْتَبُ بَعْدُ[230]

وممّا يُهيجُ الشَّوْقَ مِنِّي والبُكَا وَميضٌ بأعْلَى الرَّقْمَتَيْنِ مُذَهَّبُ /يُـرَدِّدُ /يَلُـوحُ
تعرّضَ مِن دُونِ المُصَلّى وَدونَهُ مجالٌ لِأَيْدِي المُرْسَلاتِ ومَلْعَبُ /ومَعْهَدُ /فَسيـحُ
بِلَيْلٍ كأنّ الشُّهْبَ فيه فَوارِسٌ يُسَلُّ عليهَا لِلبُروقِ مُـدَرَّبُ /مُقَلَّـدُ /صميـحُ
فَما بَيْنَ ثاوٍ قَدْ تَكَدَّرَ واخْتَفَى وآخَرُ خَفَّاقُ الفُؤادِ مُلَـهَّبُ /مُسَهَّـدُ /حَريـحُ
فإنْ يَكُ لَيْلُ الهَجْرِ لَيْسَ بِمُنْقَضٍ فَلِلْوَصْلِ وَجْهٌ بالصَّباحِ مُحَجَّبُ /مُـوَرَّدُ /صَبيـحُ

تَـمَـامُـهَـــــا

يُرِيَكَ التَّباشِيرَ التـي قَـد تألَّـقَتْ فَراقَ مِـن الوَجْـهِ الأَغَـرِّ وضوحُ [36-
فَيَحْسِبُهَـا مَـنْ يهْتَـدِي بِسنائِهَـا عَزائِمَ تَغْـدو في العِـدَى وَتَـرُوحُ
وإنَّ افَنت الـرّومِ ينقـادُ خاضِعًـا كَما انقادَ مِنْ بَعْدِ الإباءِ جَموحُ
سَيَرْضَى بِحُكْمِ السيْفِ مِنْهُ مسَوِّفٌ وَيسْمَـحُ بالمَـالِ العَـريضِ شَحيـحُ
وذَلِكَ سَهْـلٌ في مَشيئَـةِ قَـادِرٍ يُنيـلُ مَرامًـا مُرْتَجًـى وَيُبيـحُ

(229) أي أن والد الجارية المذكورة من بني الأصفر، ويُستفاد منه أن لون الشريف كان أصفر.
(230) وردت الأبيات التالية للتقديم وكذلك تمامُها في ديوان ملك عرناطة وقال في مقدّمتها : «ويحتمل أن تنظم على عدة قوافٍ تخيَّرنا منها هذه». ديوان ملك عرناطة : 21 ــ 22 وتوجد القصيدة أيضا مسوبة ليوسف الثالث في مطهر النور الباصر من ص 3 إلى ص 5.

أمَا نحنُ واللّهُ العَظيمُ بقصْدنَا نُهَجِّرُ في نَصْرِ الهُدَى وَنُرِيحُ
بأفْئِدَةٍ لاَ يَسْتَقِرُّ قَرارُهَا وهَل بمُثِيرِ النَّقْعِ تهْدأُ رِيحُ
أنا اليُوسُفِيُّ النّاجِحُ القَصْدِ كُلَّمَا تُذُوكِرَ قَصْدٌ لِلمُلُوكِ نَجيحُ
أنا اليُوسُفِيُّ النَّاصِرُ اللَّقَبِ الذِي أُبِيدُ ذَرارِيَّ العِدَى وَأُبِيحُ
يُصَرِّحُ مَلْكُ الرُّومِ جَهْرًا بصُلْحِهِ وَبُرْهانُ مَقْصودِي لديْهِ صَرِيحُ
وهَل لِي إلَى غَيْرِ الحُروبِ تَطَلُّعٌ وَهَلْ لِي إلَى غَيْرِ الجِهادِ طُموحُ
وإنّ مَقامِي لاَ مَقامَ يَرُوقُهُ فلَيْسَ فُتُورٌ أن تَقِلَّ فتوحُ -137-

(231)

---

(231) بياض في الأصل مقداره نحو 12 سطرًا ولا بدّ أنه مخصص لتركيب القوافي المذكورة، وكان حق الناسخ أن يثبت القوافي الأولى على النحو الآتي :

ومِمّا يهيج الشوق منّي والبكا ومِيض بأعلى الرقمتين مدهب
تَعَرَّض..... .....وملعب
بِلَيْلٍ..... .....مدرّتُ
فمَا..... .....ملهّب
فإنْ..... .....محبّب

والقوافي الثانية على النحو الثاني :

ومِمّا يهيج الشوق منّي والبكا ومِيض بأعلى الرقمتين يَلُوحُ
تَعَرَّضَ..... .....فَسِيحُ
بِلَيْلٍ..... .....صَفِيحُ
فمَا..... .....حَرِيحُ
فإنْ..... .....صَبِيحُ

وَمِنَ النَّسيبِ وَمَا يَتَّصِلُ بِه
وَالغَزَل المتبَعِ قَويمُ مَذْهَبه
قُلْتُ بالمَنْزِلِ مِنْ نُبْلُه خارِجَ الحَضْرةِ
فِي الثَّانِي لِجُمَدَى الثَّانيَة مِن عَامِ خَمْسَة
عَشَر وَثمانِي مِائة فِي وَصْفِ عَشِيَّة[232]

شمسُ العَشِيَّـــةِ آذَتْ بغُروبِهَـــا ... كَالكَأسِ راقَ بهَا سَنَا مَشْرُوبِهَا

مُصْفَـرّة تُبْـدِي النُّحـولَ عَلِيلَـةً ... فكَأنَّهَـا تَشكُـو فِـراقَ حَبِيبِهَـا

فكَأنمَـا هِـيَ فِي العَشِيّ مُسافِـرٌ ... أَلقَتْ عَلَى مَرْآهُ بعْضَ شُحوبِهَـا

وكأنَّهَـا عَـذْراءُ رِيـعَت فانتَـنَتْ ... وتَسَتَّرتْ فِي الحَيّ خَوْفَ رقيبِهَا

أَلْقَتْ عَلَى هَذِي البِطاحِ شُعاعَهَا ... فَطِرارُ خُصْرَتِهِـنَّ مِـن تَدْهِيبِهَـا

قابِـلْ مُحَيَّاهَـا بِسـورِ مُدامَـةٍ ... حَمرَاءَ تُبْدِي السِّارَ مِن تشبِيهَـا

مَا اعْتَلَّتِ الأَجْسامُ إلاَّ قَبْـلَ أنْ ... مَصَحَتْ عَلى الأَرْواحِ كَفُّ طَبِيبِهَا

إنْ غابَتِ الشمْسُ المُنِيرَةُ أَطْلَعَتْ ... بَدْرًا يَنوبُ سَناهُ عَن مَحْجوبِهَـا

خُدْهَا مُعَتَّقَةً على الرَّوْضِ الـذِي ... تُهـدِي أَزَاهِـرُهُ نَـوَاسِمَ طِيبِهَـا

مِنْ كَفِّ مَيَّادِ المَعَاطِفِ سَاحِـرٍ ... هُـوَ لِلنَّواظِـرِ منتَهَـى مَطْلوبِهَـا

يَشْفِي نُفوسَ العاشقينَ مِن الهَوَى ... فَيُزِيـلُ مَـا تَلْقَـاهُ مِـنْ تَعْذِيبِهَـا

وَالعودُ يُسْمِعُ صَوْتُـهُ فِي كَفِّـهِ ... مَا شاءَتِ العُشَّاقُ مِن مَرْغُوبِهَـا

بـاحَتْ بِمَكْنُـونِ الهَـوَى أَوْتـارُهُ ... فَتَفَتْ فُـؤادَ غَرِيمِهَـا بِغَرِيبِهَـا

بأنامِلٍ لَـمْ تَرْقَ مِنبَـرَ عُودِهَـا ... إلاَّ أَبـاحَ التُّرْبَ وعْـظُ خَطِيبِهَـا

---

(232) نُبْلُه : Nublo قرية من قرى عرباطة وكانت معدودة في عهد ابن الخطيب من قرى «مستحلص السلطان» وبها «الدار المعروفة بنبله» ولعل هذه الدار السلطانية هي التي سميت هنا بالمنزل، وسيذكر الشاعر «قصر نُبْله» الذي كان يخرج إليه محدومه يوسف الثالث للراحة والاستجمام، وفي الوثائق العرباطية التي نشرها الاستاذ سيكو دي لوثينا تردّد ذكر «منزل نبله خارج الحضرة» انظر الاحاطة 1 : 125 ووثائق عرباطية : 71، 87، 88، 89.

وكأنَّ يُمْناهُ تَخُطُّ لِكُلِّ مَنْ ... تَرَكَ الخَلاعَةَ آن وَقْتُ وُجوبِهَا
فاعْجَبْ لآياتِ السُّرورِ وَجُدّ فِي ... تَرْتيلِهَا وانْظُرْ إلَى تَرْتيبِهَا -138-
نَطَقَتْ فَأَهْلاً بِالذِي أَبْدَتْهُ مِن ... مَكْتُومِهَا المَشْروحِ أوْ مَكْتُوبِهَا
لاَ تَسهَا فِي واجِبٍ أنْ يقْتَدَى ... بأبِي نُواسٍ فِي مَحَلِّ خَصِيبِهَا(233)
لاَ تَصْحُ عَنْهَا إنّ رَبَّكَ قَد قَضَى ... كَرَمًا وإنْعامًا بِمحْوِ ذُنوبِهَا

وَفي أوَّل شَوالٍ عَام تسْعَةٍ وَثماني مائَة
وَقَد سُئِلتُ ذلِك فَقلتُ ارْتجالاً لُزومِيَّةً

دعِ المِصْباحَ وانظُر يَا نَدِيمِي ... لِشمسِ الكاسِ فِي اللَّيْلِ البَهيمِ
وَلاَ تَسْ الصَّبُوحَ إذَا تَحَلَّى ... لكَ الإصْباحُ عَن وَجْهٍ وَسِيمِ
وَخَيَّلْكَ الأراهِرُ مِن رُباهَا ... بمَا تُهْديهِ فِي طَيِّ النَّسيمِ
فَتُلْفِي كُلَّمَا حَيَّا صَباحًا ... صَحيحَ الوَجْدِ يُرْوَى عَنْ سَقيمِ
تَنَعَّمْ كَيْفَ شِئْتَ بِهَا وَقُلْ لِي ... هَلِ الجَنَّاتُ جَنَّاتُ النَّعِيمِ
وَعابِيةٍ تُريكَ السِّحْرَ حَقًّا ... حَلالاً لَيْسَ بالسِّحْرِ الذَّمِيمِ
فَكَمْ فِي الرَّوْضِ مِن زَهْرٍ نَثِيرٍ ... وكَمْ فِي اللَّفْظِ مِن دُرٍّ نَظيمِ
خَلِيلِيَ دَعْ تَذَكُّرَ مَا تَقصّى ... وما قَدْ مَرَّ مِنْ عَهْدٍ كَرِيمِ
وَلاَ تُرْسِلْ عُهُودَ الدَّمْعِ مَهْمَا ... تَذَكَّرْتَ المَعاهِدَ بِالغَمِيمِ
وَلاَ تُطِلِ التَّفَكُّرَ وَاجْتَنِبْهُ ... وَهاتِ الكأْسَ مِن كَفِّ النَّدِيمِ
وَعَلِّلْ قَلْبَكَ المُصْنَى وشَفِّعْ ... جَدِيدَ هَواكَ بالخَمْرِ القَدِيمِ
فَكَمْ فِيهَا لِذلِكَ مِن مُدِيرٍ ... لهَا ولِشُرْبِهَا كَم مِن مُدِيمِ
وَلاَ تَيْأسْ مِنَ العَفْوِ المُرَجَّى ... فَرَبُّكَ غافِرُ الذَّنْبِ العَظِيمِ

(233) الخصيب والي مصر، وهو الذي مدحه أبو نواس بقوله .
أنت الخصيبُ وهذه مصرُ ... فتدفّقا فكلاكُما بَحْرُ

ولَكِـنّ اعْتَمِـدْ في كُـلّ أمْـرٍ عَلى ما جاءَ في الذّكْرِ الحَكِيمِ

139- ومِنَ المُرتَجلاتِ المقْتَرحاتِ عَرُوضًا وَقافِيَةً
في ذي قِعْدَة عام أرْبَعةٍ وثماني مائة

أصَوْبُ الحَيا جَادَ أمْ دَمْعُ عَيْنِي فَحَيَّـا المَعاهِـدَ بالرَّقْمَتَيْـنِ
غَرامًا بِمَنْ سارَ وصفُ حُلاَهَـا مَسيرَ الكَـواكِبِ في الخافِقَيْـنِ
وَذَكّرَنِـي عَهْدَهَـا بالحِمَـى سَنَـا بـارِقٍ لاَحَ بالأبْرَقَيْـنِ
وأنْ أطْلَـعَتْ وَجْهَهَـا مُشْرِقًـا طُلوعَ الصَّباحِ مِـن المَشْرِقَيْـنِ
نَعِمْتُ بِهَا تَحْتَ خَفْقِ الظِّلاَلِ نَعِيـمَ المُهَنّـإِ بالْجَنَّتَيْـنِ
وَمَا خَمْرَةُ الكَـأسِ مَـا بَيْنَنَـا بأعْـذَبَ مِـن خَمْـرةِ المَرْشَفَيْـنِ
وَكنَّا كمَا شاءَ حُكْمُ الهَـوَى خَلِيلَيْـنِ في القُـرْبِ كَالفَرْقَدَيْـنِ
وأمَّـا وقَـدْ بَعُـدَ المُلْتَقَـى فَيا بُعْدَ مَا بيْـنَ صَبْـرِي وَبَيْنِـي
إلَـى أيّ جَـنبٍ أرِيـحُ الفُـؤادَ ونَـارُ الصَّبَابَـةِ في الجَانِبَيْـنِ
ولَـمْ أنسَهَـا يَـوْمَ سارُوا بهَـا نَشِيـدَةَ قَـلبٍ وإنسَانَ عَيْـنِ
وبُعْـدُ الدّيـارِ وشَمْسُ النَّهـارِ يُذيبـانِ قلبِـيَ بِالجَمْرَتَيْـنِ
أشارَتْ بِرَاحَتِهَـا إذْ أراحُـوا فَمَـا أشْوَقَ القَـلْبَ للرَّاحَتَيْـنِ
ألاَ عـاذِرٌ لِـيَ في مَطْلَبِـي إلَى كَمْ أرَى العَدْلَ يَلْوِي بِدَيْنِ
صِفـاتُ الكَمـالِ وَسِرُّ الجَمـالِ أتَـى مِنهُمَـا الدّهْـرُ بالمُعْجِبَيْـنِ
تُـريكَ الـقَساوَةَ في قَلْبِهَـا وتُبْـدِي لكَ اللِّيـنَ في المَعْطِفَيْـنِ
فَفِـي القَـدِّ ثانِيَـةٌ لِلْـقَضِيبِ وَفي الوَجْـهِ ثَالِثَـةُ النّيّرَيْـنِ
إذا شِئْتَ زَهْرًا فَفِي الثَّغْرِ مِنْهَـا وَإن شِئْتَ وَرْدًا فَفـي الوَجْنَتَيْـنِ
يَـرُومُ جَناهَـا حَليـفُ الهَـوَى فَتَحْرُسُهَـا أسْهُـمُ المُقْلَتَيْـنِ
تُصيبُ القُلـوبَ إذَا مـا رَمَتْ بِهَـا عَـن قِسِيِّ مِـنَ الحاجِبَيْـنِ

وَفي مِثْـــلِ ذلِكَ

وقدْ سُئِلْتُ نظْمَ مُقاوَلَةٍ وَفي التَّاريخِ(*)

مَا لقَلبِي يَصْبُو وَدَمْعِي يَصوبُ ... عِنْدَمَا بانَ مَنزِلٌ وَحَبِيبُ

تَركَ الوَجْدُ فِي فُؤادِي بَقايَا ... عنْدَ ذكْرَاكَ في الدُّموعِ تَذُوبُ

لَيْتَ شعْرِي مَتَى يَعُودُ زَمانٌ ... قَدْ تَقَضَّى بوَصْلِنَا وَيَؤُوبُ

أيْنَ لَيْلٌ نعِمْتُ فيهِ بِلَيْلَى ... وعَلَيْنَا مِن النجُومِ رَقِيبُ

وَسْطَ رَوْضٍ حَكَى الشَّمائِلَ مِنْهَا ... إنْ هَفَتْ شَمْأَلٌ وَهَبَّتْ جَنُوبُ

فَهْيَ تحْكيهِ إذْ يَرُوقُ جَمالاً ... زَهْرُهُ أوْ يَميلُ مِنهُ قَضيبُ

إذْ لَهَا بَهجَةٌ وَحُسْنٌ عَجيبٌ ... وَجَمالٌ بادٍ وعَرْفٌ وَطِيبُ

مَنْطِقٌ لَيِّنٌ وَعَيْنٌ كَحِيلٌ ... وَقَوامٌ لَدْنٌ وثغْرٌ شَنِيبُ

وَعَذولٍ جَفَا وَللقَلبِ وَجْدٌ ... جَمْرُهُ في جَوَانِحِي مَشْبُوبُ

قَالَ لِي أيَّ مَطْلَبٍ تَبْتَغِيهِ ... قلْتُ مَالِي مِنْ بَعْدِهَا مَطْلوبُ

قال دَعْهَا وَسَلِّ قَلبَكَ عَنْهَا ... قلْتُ هَلاَّ لِلْعَاشِقِين قُلوبُ

قَالَ نقِّلْهُ سَاعَةً عَنْ هَواهَا ... قلْتُ مَا فِيهِ للْوُجودِ نَصِيبُ

قال قَدْ عَذَّبَتْكَ هَجْرًا وَصَدًّا ... قلْتُ فيهَا يُسْتَعْذَبُ التعْذِيبُ

قال لِي قد تَمَنَّعَ العَطْفُ مِنْهَا ... قلتُ مَهْلاً فالعِطْفُ مِنهَا رَطِيبُ

قال هَلْ يُقْنِعُ المشُوقَ خَيالٌ ... قلْتُ لوْلاَ أنَّ الخَيالَ كَذُوبُ

قال ماذا جَفَا فؤادَكَ مِنهَا ... قلتُ سَهْمُ اللَّحَاظِ وَهْوَ مُصيبُ

قال هَلْ طابَ بَعْدَهَا لَكَ عَيْشٌ ... قلتُ دونَ الوِصالِ كيفَ يَطيبُ

قَال هَل حالَ مِنْكَ بالبُعْدِ حَالٌ ... قلتُ حَالِي مَدَامِعٌ وَنحِيبُ

قال هَل تَنقَعُ الدُّمُوعُ غَلِيلاً ... قلتُ طَيِّ الضُّلُوعِ مِنْهَا لَهِيبُ

(*) المقاولة هي ضرب من الشعر الذي يستعمل فيه الحوار ومن اقدم أمثلته ما نجده في شعر وصاح اليمن وعمر بن أبي ربيعة.

قالَ ما رَقَّ مِنْكَ بَعْدَ نَوَاهَا ... قُلتُ جِسْمٌ وأَدْمُعٌ وَنَسِيبُ
أَصْبَحَ القَلبُ عاشِقًا في حُلاَهَا ... فَلَهُ طَيَّ أَضْلُعِي تَقْلِيبُ
كُلَّمَا رَوَّعَتْهُ شَمْسُ ضُحاهَا ... بِغُروبٍ لِلدَّمْعِ مِنِّي غُرُوبُ

141-

وَارْتَجَلتُ بأمْرِ مَولاَنَا الناصِرِ لدين الله أعْلَى الله مَقامَهُ والبَيْتُ الأوَّل من نظْمه في السَّادسِ عشر لجمدى الأولى عام 816

أمَا تُبْصِرُ الظَّلْماءَ قَدْ فَغَرتْ فَمَا ... وصَارَتْ نجُومُ الأفْقِ تَخبَطُ في عَمَى
تَمِيلُ إلَى نَهْرِ النَّهارِ وتَنْثَنِي ... كأنَّ طُيورًا تَقْصِدُ الوِرْدَ حُوَّمَا
إذا أسْرَقَتْ في جِسْحِهِ حِلتَ وَارِدًا ... مِن الزَّنْجِ يُبْدِي ثَغْرَهُ مُتَبَسِّمَا
وَقَدْ سَدَلَ اللَّيْلُ البَهِيمُ سُتُورَهُ ... عَلَيْنَا فكُنَّا فيهِ سِرًّا مكَتَّمَا
كأنَّ الدُّجَى يُلْقَى لَدَيْهِ مِنَ الضُّحَى ... حَديثٌ إذا أوْضَحْتَهُ عَادَ مُبْهَمَا
عَجِبْتُ لهُ يُخْفِي حِمَى الأُنْسِ عامِدًا ... ونَيِّرَةُ الصَّهْبَاءِ تُعْلِيهِ مَعْلَمَا
وهَذِي كُؤوسُ الرَّاحِ يَبْدُو شُعَاعُهَا ... وَلَوْلاَهُ لَمْ نُهْد السَّبِيلَ إلَى الحِمَى
حَبابٌ يُريكَ الزَّهْرَ فَوْقَ غُصُونِهِ ... أو الدُّرَّ في مَثْنَى العُقودِ مُنَظَّمَا
أنَرْعَى عَلَى البُعْدِ النُجومَ وَبَيْنَنَا ... كؤوسٌ تُحَيِّينَا عَلَى القُرْبِ أنجُمَا
أنَسْتَقْبِلُ البَدْرَ المُنيرَ وَفارِسٌ ... إذا مَا تَبَدَّى خِلْتَ بَدرًا مُتَمَّمَا(234)
جَميلٌ قَدِ انقَادَ الحَمالُ لأمْرِهِ ... وَحَكَّمَهُ في نَفْسِهِ فَتَحَكَّمَا
حَكَى السِّحْرَ لَحْظًا وَالغَزالَ تَمَنُّعًا ... كَما أشْبَهَ الغُصْنَ النَّضيرَ تَنَعُّمَا
يُديرُ مِنَ الأكْواسِ حمْرًا وَثَغْرُهُ ... يُديرُ كؤُوسَ الحُبِّ مَهْمَا تَبَسَّمَا
إذَا ما تَثَنَّى أوْ تَغَنَّى بِعُودِهِ ... أعاذَ الْخَلِيَّ القَلْبِ صَبًّا مُتَيَّمَا
فَيَا غُصْنًا في رَوْضِهِ متَمايِلاً ... ويا طائِرًا في دَوْحِهِ مترَنِّمَا

(234) مخدوم الشاعر وممدوحه يوسف الثالث أشعارٌ في فارسٍ هذا، والمفهوم أنه كان من غلمان القصر. راجع ديوان يوسف الثالث · 108، 135، 154، 156، 157.

تَلاعَبَ رَهْوًا بالعُقول وكيفَ لاَ ومَا السّحْرُ إلاَّ ما بِهِ قدْ تَكَلَّمَا

وَكَتَبْتُ مِنَ المحَلَّةِ بِظاهِرِ جَبَل الفَتحِ في الحادِي والعشرين لصفر من عام خمسة عشر وثماني مائة في السفرة الثانية

-142-

هَل بَعْدَ طول تغرُّبي وفِراقِي أرْجُو اللِّقاءَ ولاَتَ حينَ تَلاَقِ
لَمَّا رَحَلْتُ عَنِ المَنازِلِ لمْ يزَلْ سُكْنَى الغَرامِ بقلبِيَ الخَفَّاقِ
يا حادِيَ الأظْعَانِ مالَكَ والسرَى اللّهَ في الرَّمَقِ الذِي هُوَ باقِ
هِيَ دارُ أحْبابِي وَمَوْضِعُ صَبْوَتِي ومحَلُّ جيرانِي ورَبْعُ رِفاقِي
جارَ الزَّمانُ بِبُعْدِهِمْ ولَعَلَّهُ يَوْمًا يَحودُ بِعادةِ الإشْفاقِ
مَا لِي وللِشمْسِ المنِيرَةِ كُلَّمَا تُبْدِي وَتُبْدِعُ بهْجَةَ الإشْراقِ
مَا راقَ عَيْنَيَ دُونَهُمْ حُسْنٌ وَلاَ دَمْعِي عَلى حُكْمِ الصَّبابَةِ رَاقِ
نَحلُوا بِرَدّ جَوابِ مَا راقَ النُّهَى مِمَّا وشَتْ يمْنايَ في الأوْراقِ
مَا بَالُهُمْ مَنَعُوا نَجائِبَ كُتْبِهِمْ أن تَسْتَقِلَّ بأرْبُعِ العُشَّاقِ
ما بالهُمْ مِن بَعْدِ حادِثَةَ النّوَى لَمْ يحْفَظُوا عَهْدِي وَلاَ مِيثاقِي
يَا سائِلِي عَن شَرْحِ حالِي لَيْتَنِي لوْ كُنْتُ أُلْقِي بَعْضَ مَا أنا لاَقِ
مَادَا أقولُ وَطُولُ كتْبِيَ لاَ يَفِي بحَديثِ مَا عِنْدِي مِن الأشواقِ
وَكَتَمتُ ما أهْلُ الهَوَى نَطَقُوا بِهِ إلاّ قَليلاً ضاقَ عَنْهُ نِطاقِي

وَفي مِثْلِ ذَلِكَ

أحْبابَنَا هَلْ لَنَا بَعْدَ النَّوَى طَمَعُ في القُرْبِ أوْ هَلْ زَمانُ الأُنْسِ يَرْتَجِعُ
إذا تَذَكَّرتُ ما بَيْنِي وَبَيْنَكُمُ يَكادُ قَلبِيَ مِن ذِكْراهُ يَنْصَدِعُ
وَلَّتْ صباحًا رِكابُ القَوْمِ مُسْرِعَةً وَالدَّمْعُ ينزِلُ وَالأنْفاسُ تَرْتَفِعُ

مَا أمَّلُوا لِلحِمَى رُجْعَى فَلَيْتَهُمُ ... لَوْ أنَّهُمْ لجمِيلِ الصبْرِ قدْ رَجَعُوا
مَا لِي ولِلصَّبْرِ أسْتَجْدِي عَوارِفَهُ ... لَكِنَّهُ سَنَنٌ في الحُبّ مُتَّبَعُ -143
كُنَّا كَما شاءَتِ الآمالُ في دَعَةٍ ... وَالوَصْلُ متَّصِلٌ والشَّمْلُ مُجْتَمِعُ
فَفَرَّقَ الدَّهْرُ ظُلْمًا بَيْنَنَا وَغَدَا ... مَا كانَ طَوْعَ يَدَيْنَا وَهْوَ مُمتَنِعُ
مَا كانَ ظَنّي أنّ القُرْبَ يُعْقِبُهُ ... بُعْدٌ ولاَ انَّ طولَ الوَصْلِ يَنقَطِعُ
ما كُنْتُ أحْسِبُ أنّ الوَجْدَ يُذْهِلُنِي ... كَمْ عاشِقٍ غَرَهُ مِن قبْلِي الطّمَعُ
يا مَنْ تمَلَّكَنِي حُبًّا أُيَجْمِلُ بِي ... صَبْرٌ وعَيْنِي عَلى مَرْآكَ لاَ تَقَعُ
تَضيقُ في عَينَيَ الدُّنْيَا إذا أنا لاَ ... أراكَ فيهَا ورَحْبُ الأرْضِ مُتَّسِعُ
مَن لِي بطَيْفِ خَيالٍ مِنْكَ يَطْرُقُنِي ... إنّي بأيْسَرِ حَظٍّ مِنْهُ أقْتَنِعُ
رامُوا سُلُوّي عَن رَبْعٍ حَلَلْتَ بِهِ ... هَيْهَاتَ ما دونهُ في العَيْشِ مُنتَفَعُ
مَن باتَ يَلْقَى الذِي ألقَاهُ منْ ألَمٍ ... فَلَيْسَ يَعْلَمُ ما يَاتِي ومَا يَدَعُ

وَمنَ المامُور به في السَّفْرَة الأولَى ونحْنُ بِظاهِرِ
جبل الفتح في محرم عَامَ أرْبَعَة عشر وثماني مائَة

فَيا عَذُولَ صَباباتِي ألاَ زَمَنٌ ... يكْفِي زَمانَةَ قلْبِي أوْ يُداوِيهَا
قَدْ يُجْتَلَى حُسْنُهَا لَوْلاَ تَقَنُّعُهَا ... وَيجْتَنَى زَهْرُهَا لَوْلاَ تَجَنِّيهَا
أنا الذي حِينَ تُقْصِينِي أُقَرِّبُهَا ... وَإن أساءَتْ بِإحْسانٍ أُجَازِيهَا
إنْ كان يُمْنَعُ طَرْفِي أن يُشاهِدَهَا ... فَلَيْسَ يُمْنَعُ قَلبِي مِن تَمَنّيهَا
أُلْقَى هَواجِرَ لاَ تَلْقَى ظَهِيرَتَهَا ... أرْعَى نجُومَ لَيالٍ لاَ تُراعِيهَا
تَتيهُ مائِلَةً عَنِّي وَقائِلَةً ... أنتَ الذِي قدْ أَلِفْتَ الهَجْرَ وَالتِّيهَا
فقُلْتُ عَلَّ خَيالاً مِنك يَطْرُقُنِي ... قالَتْ أتَطْلُعُ شَمسٌ في دَيَاجِيهَا
عَنَّيْتِ قَلْبِي بأشْجانٍ أكابِدُهَا ... فَهَلْ يَصِيرُ طَلِيقًا مَن يُعانِيهَا
وَكَيْفَ يَصْحُو الفَتَى مِن سُكْرِ خمْرَتِهَا ... وقَدْ سَقَتْهُ غَوانيهَا أوَانِيهَا

وَمِنْ ذلِكَ وَهِيَ وَمَا ثبتَ مِنْ أمثالِهَا مِن العَاطِلِ والمحَالِ لِصِغر السِّنّ عِند نَظْمهَا وَفي رَمَضانَ مِن عَامِ ثمَانيةٍ وَتِسْعِينَ وَسَبْعمِائَة. -144-

وَما كنتُ أهْوَى ربْعَ سَلْمَى وَإنّمَا ... أحِبُّ الحِمَى مِن أجْلِ مَن سَكَن الحِمَى
ومَا كُنْتُ أدْرِي أنّ سَهْمَ لحَاظِهَا ... يُصيبُ فُؤادَ المُسْتَهَامِ إذَا رَمَى
وقدْ كانَ قَلبِي يَحْذَرُ الحبَّ جُهْدَهُ ... وَ مَا كان ذاكَ الحِذْرُ إلاَّ لِيَسْلَمَا
إلَى أنْ بَدَا لِلقَلبِ لمَّا بَدَا لَهُ ... مُحيًّا يفُوقُ الشَّمْسَ فِي أُفُقِ السَّمَا
وَللهِ دُرٌّ راقَ مِنْ ثَغْرِهَا الـذِي ... سَقانِي كُؤُوسَ الحُبِّ حِينَ تَبَسَّمَا
فَمَهْمَا رَنَتْ تَحْكِي غَزَالاً مُمَتَّعًا ... وَمَهْمَا انثَنَتْ تَحْكِي قَضِيبًا مُنَعَّمَا
ويا لِغَرامٍ قد ثَوَى بجَوانحِي ... فَأنْجَدَ ما بَيْنَ الضُّلُوعِ وَأتْهَمَا
غَزَتْ قَلْبِيَ المُضْنَى المَشوقَ جُنُودُهُ ... فأصْبَحَ فِي أيْدِي الصَّبَابَةِ مَغْنَمَا
فَيا لَيْتَ سَلمَى تَبعَثُ الطَّيْفَ فِي الكَرَى ... لِتُرْوِي قُلوبًا بالصَّبَابَةِ حُوَّمَا
ويَا لَيتَهَا تُهْدِي سَلامًا مَعَ الصَّبَا ... لِيَنقَعَ قلْبًا جَمرُهُ قدْ تَضَرَّمَا
تَهُبُّ عَلَى جسْمِي صَبَاهَا عَلِيلَةً ... فَيَبْرأُ مَا قَدْ كانَ مِنهُ تَألَّمَا
وَمَهْمَا هَمَى دَمْعِي وَصَوْبُ غَمامَةٍ ... فَواللَّهِ مَا أدْرِي مَنِ الغَيثُ مِنْهُمَا
فَما بجُفُونِي غَيْرُ صَيِّبِ أدْمُعٍ ... ومَا بفُؤادِي غَيْرُ خَبْلٍ تَحَكَّمَا
وأظْهَرَ دَمْعِي ما بِقَلْبِي مِن الهَوَى ... وقدْ كان سِرًّا فِي ضُلوعِي مُكَتَّمَا
فإن لُمتُهُ أن باحَ بالحُبِّ لِلوَرَى ... فَيُنشِدُ هَلْ كانَ الغَرامُ لِيُكتَمَا
وَيا أيّهَا القَلبُ المَشوقُ إلى مَتَى ... تَبيتُ كَمَا شاءَ الغَرامُ مُتَيَّمَا
لَئِن مُنِعَ الوَصْلُ الذي فِيهِ راحَتِي ... فَمَا يُمْنَعُ المشتاقُ أن يَتَوَهَّمَا
سأطْمَعُ فِي وَصْلٍ وإنْ طالَ هجْرُهَا ... وأقْطَعُ دَهْرِي فِي عَسَى ولعَلَّمَا
وقدْ زَعَمَ الْواشُونَ أنّي تارِكٌ ... هَواهَا ومَرْآهَا وأصْبِرُ عَنْهُمَا
فَظَنّتْ بأنّي قدْ سَلوْتُ عَنِ الهَوَى ... وأنّي إذًا لاَ أسْهَرُ اللَّيْلَ مُغْرَمَا -145-

وهَيْهاتَ يمْحُو الدَّهْرَ أوْ ينسَخُ العِدَى لَهَا فِي حَصَاةِ القلْبِ ما قَد تَرَسَّمَا

وَمِن ذلِكَ حَسَبَما كُلِّفْتُهُ فِي أوَّل صَفَر مِن عَام تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ وَسَبْعُمِائَة

عُهُودُ غَرامِي لاَ تَزالُ حَدِيدَةً وأرْبُعُ جِسْمِي عَافِيَاتٌ دَوارِسُ
فَمَن قاسَنِي فيمَا أُقَاسُ مِنَ الهَوَى بِقَيْسٍ وَلَيْلَى أحطَأَتْهُ المَقَايِسُ
إذَا جَنَّ لَيْلِي فالسُّهَادُ مُلازِمٌ لجَفْنِيَ والشوْقُ الحَثِيثُ مُوانِسُ
كَلِفْتُ بظَبْيِ رائِعِ الحسْنِ لَمْ يَزَلْ يُرَوِّعُ قلبِي بالنَّوَى وَهْوَ آنِسُ
إذَا هُوَ أبْدَى لِلعُيُونِ جَمالَهُ أراكَ مُحيَّا الشمْسِ واللَّيْلُ دامِسُ
وَمَهْمَا بَدتْ يَوْمًا ذَوائِبُ شَعْرِهِ أرَتْكَ ظَلامَ اللَّيْلِ واليَوْمُ شامِسُ
وَطَلْعَتُهُ بَدْرٌ يَروقُ كَمالُهُ وَقامَتُهُ غُصْنٌ من البانِ مَائِسُ
فَبَدْرٌ ولَكِن في فُؤادِيَ طالِعٌ وَظَبْيٌ ولَكن في ضُلوعِيَ كانِسُ
فَيُخْجِلُ شَمْسَ الأُفْقِ وَهْيَ مِنيرَةٌ وَيُزْرِي بأسْدِ الغَابِ وَهْيَ عَوابِسُ
أأطْمَعُ يَوْمًا في جَنَى وَرْدِ خدِّهِ ومِن فَوقِهِ حُورُ العُيُونِ حَوارِسُ
أأطْمَعُ ان أسْلُو عَنِ الحُبِّ سَاعَةً وَبَيْنَ ضلُوعِي مِن هَواهُ وَساوِسُ
فإن رُمْتُ يَوْمًا عَن هَواهُ تَصَبُّرًا تُحَادِعُنِي ألْحاظُهُ وَتُخَالِسُ
مُحَمَّدُ يا مَنْ هامَ قَلْبِي بِحُبِّهِ ومَن في فؤادِي مِنْ هَواهُ مَقابِسُ(234م)
لَئِنْ غِبْتَ عَن عيْنِي وَطَيْفُكَ زائِرٌ فَلاَ الوَصْلُ مَمْنوعٌ ولاَ القَلْبُ آيِسُ
ومَهْمَا هَمَى صَوْبُ الغمَامِ تَشانَهَتْ دُمُوعُ جُفوني والغيوثُ البَواجِسُ
فَجِسْمِيَ ذو سُقْمٍ وَجِسْمُكَ نَاعِمٌ وَجَفْنِيَ ذُو سُهْدٍ وَجَفْنُكَ ناعِسُ
فإن سَهِرَتْ عَيْنايَ نادَيْتُ في الدُّجَى الاَ بأبِي تِلْكَ العيُون النَّواعِسُ

(234م) في ديوان يوسف الثالث : 34 ــ 35 قصيدتان في التغزّل بمحمّد هذا، ويبدو أن يوسف هو الذي كلّف الشاعر بهذه القصيدة.

وَفي مِثْـلِ ذلِك

أتُرَى الخِلُّ إذْ نَـأى أوْصَابِـي ... كَيفَ شاءَ الهَوَى إلَى أوْصابِي[235]
طالَمَا بِتُّ أشتَكِي نَارَ شَوْقِـي ... وَهْيَ شَكْوَى جَوًى بغَيْرِ جَوابِ
وتذَكَّـرْتُ عَهْـدَ أُنسٍ تَـقَضَّى ... لَمْ يَكن فيهِ زَنـدُ أُنسِيَ كَـابِ
ثم نَـادَيْتُ في الظَّـلامِ ودَمْعِـي ... بيْـنَ جَفْنَـيَّ دائِـمُ التَّسْكَـابِ
هَلْ مُبـاحٌ بعْـدَ الصُّدودِ وِصالِـي ... أوْ مُتـاحٌ بعْـدَ البِعـادِ اقترابِـي
لِـيَ قَـلبٌ صادٍ إذَا رامَ وِرْدًا ... ذِيدَ عَـن مَوْرِدِ التغُورِ العِـدابِ
لِي دَمْعٌ يُعْنِي عَن الغَيْثِ مَهْمَا ... أخْلَـفَ الغَـيْثُ مَعْهَـدَ الأحْبـابِ
وأنَـا الآن في نَعيـمٍ مُقيـمٍ ... بَعْدَ نُصْبٍ قد مَسَّنِي وَ عَـذابِ
هُوَ شمْسِي وَطالَمَـا قَـدْ تـوارَتْ ... عَن جفوبِي يوْمَ النَوَى بالحِجابِ
غَرَّنِـي مِـن وصَالِـهِ بخيَـالٍ ... كَغُـرورِ الصَّادِي بِلمْـعِ سَرابِ
جَنَّـةٌ في عِـذارِهِ لِـيَ فيهَـا ... إنْ أبيحَتْ طُوبَى وَحُسْنُ مـآبِ
فـإذا مـا العَـذُول رَامَ سُلُـوِّي ... كانَ سَمْعِي عَـنِ النصيحَةِ نـابِ
يا هِلاَلَ الجَمالِ يا ابْـنَ هِـلالٍ ... يا هِلالاً يُـزْرِي بأُسْدِ الغَـابِ[236]
عُذِّبَ القلْبُ إذْ نَـأيْتَ وأضْحَـى ... ذَا نَعيـمٍ إذْ أبْتَ خَيْـرَ إيَـابِ
كَمْ سَقَتْنِي كُؤوسُ لحْظِكَ حَتَّى ... مِلْتُ وَجْدًا مَيْلَ الغُصونِ الرَّطابِ
دُمْتَ مَا لاَحَتِ الكَواكِبُ أوْ ما ... ضَحِكَ الرَّوْضُ مِنْ بكَاءِ السَّحابِ

---

(235) فيه حناس بين قوله أوصى لي، وأوصابي جمع وصب وهو التعب.

(236) للمدوح الشاعر يوسف الثالث قصيدة مطلعها :

يـا هِـلال الحمـالِ يابـنَ هِـلالِ ... لكَ روحـي كَمـا تشاءُ ومـالي

وقد مهّد لها بقوله : «واقتصت الدّعابةُ الّتي لا حَقيقةَ لَها أنْ نطَمْنا في بعْضِ الأوقات» وقد ورد في وثائق غرناطة ذكر «القائد الأحل الأعزّ الأسمى المرفّع عالب ابن هلال» من أعيان غرناطة في هذا العصر، والغالب أنه هو المتغزّل به في شبابه. راجع ديوان يوسف الثالث 97 ــ 98 ووثائق غرناطية : 28 ــ 29.

وَفِي مِثْلِ ذِلِكَ وَقَدْ سُئِلْتُهُ فِي التّاريخِ

ما لِي إذا هَبَّ عَليلُ الرِّياحْ ... يَرْوِي أحاديث غَرامِي صِحاحْ
وَمَا لِدَمْعِي إذْ كَتَمتُ الهَوَى ... بَاحَ بأسْرارِ غَرامِي صُرَاحْ
وأرَّقَ الأجْفانَ يَوْمَ النَّوَى ... سَنَا وَمِيضٍ بالحِمَى قَدْ ألاَحْ -147
وصرَّحَ الدمْعُ بسِرّ الهَوَى ... فكلَّمَا أُخْفيهِ زادَ اتّضاحْ
فَدَمْعُ جفْنِي لَمْ يَزَلْ صَيِّبًا ... وزَنْدُ شَوْقِي ليْسَ يُلْفَى شَحاحْ
أأسْتَطيعُ الآنَ كتْمَ الهَوَى ... وقَدْ غَدا سِرُّ غَرامِي مُباحْ
هِمْتُ بظَبْي لَمْ يَزَلْ جَفْنُهُ ... ذَا مَرَضٍ يُمْرِضُ مِنَّا الصِّحَاحْ
مِن قَدِّهِ ولحْظِهِ لَمْ يَزَلْ ... يَفْتُكُ بالسُّمْرِ وَبيضِ الصِّفاحْ
فلحْظُهُ يُزْرِي بِبيضِ الظُّبَا ... وَقَدُّهُ يُزْرِي بِسُمْرِ الرِّماحْ
يَبْسِمُ عَن ثَغْرٍ شنِيبٍ كَمَا ... تَبسِمُ في الرَّوْضِ ثُغورُ الأقَاحْ
وقَدْ غَدَا لِلعاشِقِ عرْفُهُ ... يَحْكِي شَذا الزَّهْرِ إذَا الزَّهْرُ فاحْ
خَلَعْتُ في الحُبِّ عِذارِي فَهَلْ ... عَلَيَّ في خَلْعِ عِذارِي جُناحْ
لاَ يُعْذَلُ المُشْتاقُ في حُبِّهِ ... فالصَّبُّ لاَ يُصْغِي إلَى قَوْلِ لاحْ(237)
يا قاتَلَ اللَّهُ عَدُولاً جَفَا ... لمَّا غَدَا في العَذْلِ ظُلْمًا ورَاحْ(238)
كَيْفَ أطِيقُ الصَّبْرَ عَنْ حُبِّهِ ... ورَبْعُ صَبْرِي قَدْ غَدا مُسْتَبَاحْ
لَيْسَ عَلَى الصَّبِّ جُناحٌ إذَا ... يَخفِضُ في الحبِّ إلَيْهِ الجَنَاحْ
حَكَّمتُهُ يقضِي بمَا يَرْتَضِي ... فَحُكْمُهُ انْ جارَ عِنْدِي صَلاَحْ
ظَبْيٌ إذا مَا عادَنِي ذِكْرُهُ ... أميلُ كالغُصْنِ إلَيْهِ ارْتِياحْ
يفْعَلُ في أهْلِ الهَوَى لَحْظُهُ ... فِعْلَ الحُسامِ الصَّلْتِ يوْمَ الكِفاحْ
يَحْكِي قضِيبَ البانِ مَهْمَا انثَنَى ... ويُخْجِلُ البَدْرَ إذا البَدْرُ لاَحْ

(237) يشير إلى قول الشاعر : لا تعدل المشتاق في أشواقه.
(238) ياقاتل : رسمت في الأصل بدون قاف.

فالوَصْلُ لِي مِنهُ بُلُوغُ المُنَى ... والهَجْرُ لِي مِنْهُ حِمامٌ مُتاحْ
سَأَرْتَجِي بعْدَ النّوَى قُرْبَهُ ... فَقَدْ يَلِينُ الصَّعْبُ بعْدَ الجِماحْ
جَلَوْتُ أَبْياتِي فِي وَصْفِهِ ... كَما جَلَتْ زَهْرَ الرِّياضِ البِطاحْ
لعَلَّهُ يُطْفِىءُ نارَ الجَوَى ... بِرِيقِهِ العَذْبِ البَرودِ القَراحْ
فالقَلْبُ يَصبُو نحْوَهُ كُلَّمَا ... هَبَّتْ نُسَيْماتُ الصَّبا بِالصَّباحْ

وَمِنَ المُقْتَرَحاتِ في ذلِكَ العَهْدِ في مُحرَّم عَام تسعَة وتِسْعِينَ وسَبْعِمائة -148-

خَليلَيَّ هَلْ أَبْصَرْتُمَا عاشِقًا مِثلِي ... يَحِنُّ كَمَا حَنَّ الغَريبُ إِلَى الأَهْلِ
خَلِيلَيَّ كُفّا عن مَلامَةِ هائِمٍ ... مَسامِعُهُ لَمْ تصْغِ يوْمًا إلى العَذْلِ
أَلَمْ تَعْلَمَا أَنّي تمَلّكَنِي الهَوَى ... فواللّهِ ما أَمْسَى بغيْرِ الهَوَى شُغْلِي
كَلِفْتُ بِظَبْيِ سَاحِرِ الجَفْنِ لَمْ يَزَلْ ... يَصُولُ عَلَى أَكْبادِنَا مِنهُ بالنَّبْلِ (*)
ومَا السِّحْرُ عَن هارُوتَ يُرْوَى حَقيقَةً ... ولَكِنَّهُ يُرْوَى عنِ الأَعْيُنِ النَّجْلِ
فَكَمْ ذا تَلومانِي علَى كَلَفِي بِهِ ... كأن لَمْ يذُقْ طَعْمَ الهَوَى عاشِقٌ قَبْلِي
سَقَى عَهْدَ مَنْ أَهْواهُ عَهْدُ مَدامِعٍ ... فَكَثرتُهَا تُغْنِيهِ عَنْ صَيِّبِ الوَبْلِ
وإنّ جفونِي كُلَّمَا بَخِلَ الحَيا ... تُحَيِّي بوَكّافٍ من الدَّمْعِ منْهَلِّ
أُنادِي عَلَى حُكْمِ الصَّبابَةِ في الدُّجَا ... ترفَّقْ عَسَى بَعْدَ القطيعَةِ مِن وَصْلِ (*)
ألاَ عَطْفَةٌ بعْدَ التَّباعُدِ والنَّوَى ... إلا عدَة بالوَصْلِ يوْمًا بِلاَ مَطْلِ (*)
اذا لَمْ تَكُنْ لِي أنتَ عَوْنًا عَلى الذي ... أُقاسِيهِ مِن حُبّي ووَجْدِي فَقُلْ مَنْ لِي

وفي مِثلِ ذلِكَ وَهي ممّا يجبُ إلغاؤُهُ لحداثةِ السّن عِنْدَ نَظْمِهَا في صفر سنة 799

هَلاَّ غَدا وَصْلُهُ مُباحَا ... كمَا غَدا هَجْرُهُ مُتاحَا

(*) بالسل، وصل، مطل : قوافٍ ناقصة في الأصل، وأمامها علامة الاستشكال هكذا.

أَبْـدِي دُجَـى هَجْـرِهِ فَهَـلاً ... يُطْلِـعُ مِـن وَصْلِـهِ صَبَاحَـا
هَـامَ فُـؤادِي بظَبْـيِ إنْسٍ ... ألْحاظُـهُ تُشْبِـهُ الصِّفاحَـا
ظَبْـيٌ لَـهُ أعْيُـنٌ مَـراضٌ ... لَكنَّهَـا تُمْـرِضُ الصِّحاحَـا
قَـدْ سَلَّ مِـن لَحْظِـهِ سُيوفًـا ... وهَـزَّ مِـنْ قَـدِّهِ رِماحَـا
كَـمْ رَصَدَتْـهُ العُيـونُ مِنَّـا ... وكَـمْ أطـالَتْ لَـهُ الْتِماحَـا
يمْنَحُنَـا ظُلْمَـهُ وَيَعْـدُو ... يَمْنَعُنَـا ظَلْمَـهُ القَراحَـا
مَـن لِـي بِـهِ كُلَّمَـا تَبَـدَّى ... طَـارَ فُـؤادِي لَـهُ ارْتِياحَـا
لَقَـدْ أَلِفْتُ الهَـوَى فَعَنَّـي ... تُـرْوَى أحادِيثُـهُ صِحَاحَـا
وَخُضتُ بَحْـرَ الهَـوَى ولَكِـنْ ... مَـن رَامَ خَـوْضَ البحَـارِ طاحَـا
وَهِـمْتُ فِي حُسْنِـهِ فَلِـمْ لاَ ... أخْـفِضُ فِي حُبِّـهِ الجَناحَـا
وَان تَذَكَّـرتُ مِـلْتُ وَجْـدًا ... كأَنَّنِـي قَـد شَرِبْتُ رَاحَـا
وَكُـلُّ وَاشٍ يَـرُومُ صَبْـرِي ... جَنَّـبتُ أقْوالَـهُ اطِّرَاحَـا
مَـن لِـي بصَبْـرٍ وَفِي هَـواهُ ... غَـدَا حِمَـى الصَّبْـرِ مُسْتَبَاحَـا
كَتَـمْتُ حُبِّـي ودَمْـعُ عَيْنِـي ... لَـمْ يَسْتَطِـعْ كَتْمَـهُ فَبَاحَـا
فَلَـيْتَ قَلْبِـي يَـالُ يَوْمًـا ... بوَصْلِـهِ فِي الهَـوَى مستراحَـا

149-

وَمِنَ المُقْتَرحَاتِ قَريبًا مِنْ تاريخِ مَا تقدَّمَ

فؤادِي عَلى حُكْمِ الغَرامِ خَفوقُ ... إذا هَمَّ انْ يَسْلُوَ فلَيْسَ يُطِيقُ
وَمهْمَا هَمَى دَمْعِي لِيَنقَعَ غلّتِي ... تأَجَّجَ ما بَيْنَ الضُّلُوعِ حَرِيقُ
خَلِيلَيَّ هَلْ أسْلُو عَن الحُبّ ساعَةً ... وقَدْ صَدَّ خِلٌّ لِلفُؤادِ صَدِيقُ
سَقانِي كُؤوسَ الحُبّ حَتَّى أمالَنِي ... وشارِبُ كاسِ الحبِّ كَيْفَ يُفِيقُ
قَسا قَلْبُهُ لَكِن عَلى كُلّ عاشِقٍ ... فَواعَجَبًا والخَصْرُ مِنْهُ رَقِيقُ
وقَلْبِي عَلَيْهِ كَيفَ شاءَ جَمالُهُ ... وان قَلّبَتْهُ الحَادِثاتُ شَفِيقُ

فَيا لَيْتَهُ يوْمًا يجودُ بوَصْلِهِ ... فإنّي في بحْرِ الغرامِ غَريقُ
وَلاَ عَجَبٌ فَالرّوْضُ بعْدَ دُبولِهِ ... إذا جادَهُ الغَيْثُ الهَتُونُ يَرُوقُ
أنادِي إذا جَنَّ الظَّلامُ بهِ أمَا ... لِشَمْسِ الرّضَى بعْدَ الغُروبِ شرُوقُ
وإن لمْ تَجُدْ بالوَصْلِ صَبْرِي داهِبٌ ... وَصَدْرِي عَنْ حَمْلِ الغرَامِ يَضيقُ
تَرَفّق فَما لِي غيْرَ دَمْعِي مُنجِدٌ ... وَسُهْدِي أنيسٌ والظلامُ رَفيقُ
أُسَامِرُ نجْمَ الأُفْقِ والأُفْقُ رَوْضَةٌ ... تَفَتَّحَ فيهَا نَرْجِسٌ وَشقِيقُ
مُنَى القَلْبِ هَلاَّ لِلقَطيعَةِ آجِرٌ ... ولِلقُربِ مِنْ بَعْدِ البِعَادِ طَرِيقُ -150-
ولَكِن إذا لمْ تَدْرِ مَا بِي ولَمْ تَذُقْ ... غَرامِي ومَا ألقَى فَسَوْفَ تَذُوقُ
وأُنشِدُ لاَ أثِي العِبَادَ تَشَفِّيًا ... كِلاَنَا عَلى حُكْمِ الغَرامِ مَشُوقُ

ومِنَ المُقْتَرحاتِ مِنَ المَقامِ الكَرِيمِ أسْماهُ الله في أنْواعٍ شتَّى، حَسَبَمَا يَتَهَيَّأُ في الارْتجالِ ويَتَأتَّى أمَرنِي مولاَنا أيَّدهُ اللَّهُ بنَظْمِ أبْياتٍ تُرْسَمُ في حَاشِيَةِ قِناعٍ بتاريخ 17 صَفَر عَام 811 فَقُلْتُ

يا مُعْجِزًا بصِفاتِي ... لِلهِ مِنِّي قِنَاعُ
كَهالَةِ حَوْلَ بَدْرٍ ... يَروقُ مِنْهُ شُعَاعُ
شَمْلُ المحاسِنِ طُرًّا ... لهُ لَدَيَّ اجْتِمَاعُ
ومَا حَمَالِي بِبِدْعٍ ... إذْ راقَ مِنهُ ابْتِدَاعُ
بناصِرِ الدّينِ أضْحَى ... فِيهِ حَدِيثِي يُذَاعُ
لاَ رالَ لِلقَدْرِ مِنْهُ ... فَوْقَ النجُومِ ارْتِفَاعُ

وَقُلْتُ

أحْسِنْ بِهِ مِن قِنَاعٍ ... راقَ العُيُونَ جَمَالاَ

حَـوَى مِـنَ الوَجْـهِ بَـدْرًا فَـاقَ البُـدُورَ كَمَـالاَ
أَبْـدَى عَلَـى كُـلِّ نَـوْعٍ تَهْـوَى القُلُـوبُ اشْتِمَـالاَ
فَصَيَّرتُـهُ اخْتِيَـالاً خَيْـلُ الجَمَـالِ مَجَـالاَ 151-
مِـن خَـالِصِ التِّبْـرِ جَـلَّتْ صِفاتُـهُ أَنْ تُنَـالاَ
شَمْسُ الأَصِيـلِ حَكَتْـهُ لَوْنًـا وَحُسْنًـا وَحَـالاَ
مِـن نَـاصِرِ الدِّيـنِ يَحْكِـي مَنَاقِبًـا وَخِـلاَلاَ
فَالجُـودُ قَـدْ مَـدَّ مَنْـهُ عَلَـى الوُجُـودِ ظِـلاَلاَ

وَقُلْتُ وَهْوَ غَرُوضٌ منْ أَغَارِيضِ التَّوْشِيحِ

أَنَـا قِنَـاعٌ لِـي بِحُسْنِـيَ السَّبْـقُ
فَالكُتْبُ عَنْ وَصْفِي يَعْجِزُ والنُّطْقُ
رامَ اشْتِباهًا بِي فِي شُهْبِهِ الأُفْقُ
فَفَاقَهُ ثَوْبِي إنْ حُقَّقَ الحَقُّ
غَمامَةٌ أَبْدُو طِرازِيَ البَرْقُ
وَالوَجْهُ لِي شَمْسٌ أَطْلَعَهَا الشَّرْقُ

ثمّ اسْتَدعَانِي أَعْلَى الله مَقامَهُ إِلَى بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَمَرَنِي بِنظمِ أَبياتٍ فِي القِنَاعِ المسَمَّى وَبِتاريخ السَّادِسِ عَشَرَمِن رَجَبٍ مِن عَامِ اثنَيْ عَشَرَ وَثمَانِي مِائة وان تكون عشرةَ أَبْيَاتٍ مُخْتَتَمَةً بعجُز البيت المشهورِ : وَساقَ الثريَّا فِي مُلاءَتِهِ الفَجْر (239)، فَقُلْتُ

هَلِ الأُفْقُ تَبْدُو فِي مَطالِعِهِ الزُّهْرُ أَمِ الرَّوْضُ فِي أَدْواحِهِ فُتِّحَ الزَّهْرُ
أَمِ الوَصْفُ مِنّي حَيثُ لاَحَتْ مَحاسِنِي تُنظَّمُ عِقدًا مِثلَمَا يُنَظَمُ الدُّرُّ

(239) لم أهتد الآن إلى صدر هذا البيت وصاحبه.

فَلاَ حُسْنَ إلاَّ مَا لِوَصْفِيَ يَنتَمِي ... وَلاَ وَصْفَ إلاَّ مَا بِحُسْنِي لَهُ ذِكْرُ
ومَا السِّحْرُ عنْ هَارُوتَ يُروَى حَقِيقَةً ... فَحُسْنِي الذِي يُعْزَى لِبابلِهِ السِّحْرُ
إذَا أنتَ قَد شاهَدتنِي واخْتَبرتَنِـي ... وَحَقَّقتَ وَصْفِي صَدَّقَ الخَبَرَ الخُبْرُ -152-
لأنّ الجَمـالَ اليُوسُفـيّ حَقيقـةً ... بغَرْناطَةٍ دَعْ ما حَوَتْ قَبلَهُ مِصْرُ
وَمُبْدِعُ شَكلِي ناصِرُ الدِّينِ يُوسُفٌ ... فَدَامَ لَهُ التَّأيِيدُ وَالعِزُّ والنَّصْرُ
قِناعٌ كأنَّ الأفْقَ أبْدَى سَحَابَـهُ ... جَهَامًـا فَحَلاَّهَـا بِبَارِقِـهِ التِّبْـرُ
يَـرُوقُ شُعَـاعٌ مِنـهُ فَـوْقَ بيَـاضِهِ ... فَمِن سُحْبِهِ ثَوْبٌ وَمِن تِبْرِهِ زُهْرُ
كَمَا لاَحَ نورُ الشَّمْسِ في رَوْنَقِ الضُّحَى ... وسَاقَ الثرَيَّا في مُلاءَتِـهِ الفَجْـرُ

وقُلْـتُ كَذلِكَ

لِلـهِ منّـي ثَـوْبٌ عَجِـيبٌ ... أبْـدَى الجَمَـالَ وأبْدَعَـهْ
حَلَـلْتُ فَـوْقَ الـرُّؤُوسِ أُفْقًـا ... قَـدْ أخَـذَ البَـدْرُ مَطْلِعَـهْ
أحُـفُّ بالوَحْـهِ مِنـهُ حَتَّـى ... تَحْسِبُنِـي هَالَـةً مَعَـهْ
إن كـنتُ أُفْقًـا فَالتِّبْـرُ مِنّـي ... كَـمْ بـارِقٍ فِيـهِ أطْلَعَـهْ
فَالزُّهْـرَ أشبهْتُهَـا اجْتِـلاَءً ... وَالزَّهْـرَ أحْكِـي تَضَرُّعَـهْ
يُـوسُفٌ النَّـاصِرُ المَرَجَّـى ... شَرَّفَ قَـدْرِي وَرَفَعَـهْ
أبْـدِي جَمَـالاً لَـدَى إمَـامٍ ... وَالَـى الجَميـلَ وَأتْبَعَـهْ
فَـدامَ وَالدِّيـنُ ذُو انتِظـارٍ ... بِـهِ وَلازَالَ في دَعَـهْ

وفي مثـلِ ذلِكَ قَوْلِـي

هَـيَ الأشْيَـاءُ مُبْدِعُهَـا ... أبُـو الحَجَّـاجِ مَوْلاَنَـا
تَزيـدُ حُلَـى مَكَارِمِـهِ ... لِـحُسْنِ الـوَصْفِ إحْسانَـا

صَنائِـــعُ رَبَّتْـــا فيهَـــا جَميـــلَ الصُّنْـــعِ أَوْلاَنَـــا
كِتـــابُ الـــحُسْنِ رَاق وَقَـــدْ حُعِـــلتُ عَلَيْـــهِ عُنْوَانَـــا
وَصِرْتُ لِجِسْمِـــهِ رُوحًـــا وَفِي عَيْنَيْـــهِ إِنسَانَـــا -153
يَـــروقُ التِّبْـــرُ فِي أُفُقِـــي وأَطْلِـــعُ مِنْـــهُ شُهْبَانَـــا

وفـي مِثـلِ ذلـك

لِلـــه منّـــيَ ثَـــوْبٌ تَـــرومُ فيـــهِ رُقومِـــي
كأنّمَـــا أَنَـــا أُفْـــقٌ مُكَلَّـــلٌ بالنُّجُـــومِ
وَقُضْبُ التِّبْـــرِ تَحْكِـــي فِيـــهِ بَقايَـــا الرُّجُـــومِ
مَـــنْ هـــامَ فِي حُسْنِ وَصْفِـــي وَحْـــدًا فَعَيْـــرُ مَلُـــومِ
مَـــوْلاَيَ مُبْـــدِعُ شَكْلِـــي ومُثْـــبِتٌ لِرُسُومِـــي
فَمُلكُـــهُ دامَ مَرْقًـــى إِلَـــى العُلَـــى وَالعُلُـــومِ

وفي مِثْلِ ذلِكَ أيْضًا

أنـــا زَهْـــرٌ إِذْ تُشْرِفُ أَنَـــا رَوْضٌ مُفَـــوَّفُ
كُـــلُ عيْـــنٍ لِبَهْجَتِـــي بِحُلَـــى الـــحُسْنِ تَكْلَـــفُ
وَصِفاتِـــي كُـــلَّ الـــوَرَى أَعْجَـــزَتْ حِيـــنَ تُـــوصَفُ
لَجمَالِـــي تَشَوَّقُـــوا وَلِحُسْنِـــي تَشَوَّفُـــوا
مُبْدِعِـــي مِـــن مُلُوكِهَـــا نَـــاصِرُ الدِّيـــنِ يُـــوسُفُ
مَـــلِكٌ دامَ حَمْـــدُهُ كُـــلَّ مَـــلْكٍ يُشَرِّفُ

وفي مثل ذلِك أيْضًا

أنـــا ثـــوبٌ أُجْـــتَلى كَجَهَـــامِ السُّحُبِ

أُفُقِـــــي سَمـــــاؤُهُ كُلِّـــــلَتْ بـــــالشُّهُبِ
وَمِـــــن التِّبْـــــرِ سَنَـــــا بَرْقِـــــهِ المُلْتَـــــهِبِ
وَرُقُومِـــــي زَهَـــــرٌ إثْـــــرَ غَـــــيْثٍ صَيِّبِ -154-
إنما حَاشِيَتِـــــي فَـــــوْقَ قُضْبِ الـــــذَّهَبِ
نَـــــوْرُ رَوْضٍ قَـــــدْ بَـــــدَا بأعَالِـــــي الـــــقُضُبِ
يُـــــوسُفٌ أبْـــــدَعَ لِـــــي كُـــــلَّ وَصْفٍ مُعْـــــجِبِ
نـــــاصِرُ الدِّيـــــنِ الـــــذِي لَـــــمْ يَـــــدعْ مِـــــنْ مَطْـــــلَبِ

وَلمَّا شَرعَ أيَّدَهُ الله في إعْلاءِ المبْنَى المَاثِل الآن عَلَى بابِ الدار الكبيرَةِ أمَرني بِنَظمِ أبْياتٍ تُكْتَبُ دائِرةً بالطَّبقة الثَّانيةِ فقُلْتُ حَسَبَمَا اقْتَرحَهُ مَعْنًى وَقافيةً وَعَرُوضًا وَعَدَدَ أبْياتٍ بتاريخ الثَّاني لِشَعْبانِ عَام خمسَة وثمَانِمائة(240)

بناصِرِ الدِّين مَولَى الخلْقِ لِي شَرَفُ فَلَيْسَ عَنِّـي لِـلأبْصارِ مُـنْصَرَفُ
للهِ مِنِّـي مَبْنًـى حُسْنُ بَهْجَتِـهِ لِكُلِّ قَـلبٍ إذَا حَيَّـا بِـهِ شَغَـفُ
وَمَصْنَـعٌ معْـجِبٌ بالصُّنْـعِ مُـتَّصِلٌ بالعِـزِّ مُنْفَـرِدٌ بالـحُسْنِ مُـتَّصِفُ
كأنَّ مِنْ جَنَّةِ الفِـرْدَوْسِ مَـنشَأهُ فهَـذِهِ غُـرَفٌ مِـن فَوقِهَـا غُـرَفُ
كَالرَّوْضِ لَوْ لمْ يَكُنْ تَذْوَى أزَاهِرُهُ والبَدْرِ لَوْ لَمْ يَلُحْ فِي وَجْهِهِ كَلَفُ

---

(240) في هذا وما بعده مادّة جديدة حول مباني الحمراء بغرناطة، ويمكن الاستعانة في تحديد موقع هذا المبنى بمثل هذا البيت :

قابلتُ نَحْرا مـن الصّهـريج لُحْتُـه كأنّهـا مـنْ نَـدَى كَفّيـه تَغْتَـرِفُ

وبمثل هذين البيتين :

لَـدَى ارتفاعَي مَعْنًـى الـحُسْنِ مُتّسِـقٌ لَكِـنْ بِسَاحَتِـيَ الأنْظَـارُ تَخْتَلِـفُ
أسْتَقْبِـلُ الرَّوْضَ إنْ هَـبَّتْ نَواسِمُـهُ والقُصْـبُ حَوْلِـيَ بالأزْهَـارِ تَنْعَطِـفُ
وأسْتَقِـلُّ وفِي أُفُقِـي نُحُـومُ هُـدًى فَهَـذِه تُخْتَلَـى أوْ تِـلْكَ تُقْتَطَـفُ

ولعلّ هذ كلّه ينطبق على ما يعرف بهو قمارش المعروف بركه الشاهق وفيه البركة المسماة هذا بالصهريج وفيه فماء الريحان، وفيه القمة التي زَخارِفها على شكل النحوم.

لَدَى ارْتِفاعِيَ مَعْنَى الحسْنِ متّفِقٌ ... لِكِن بسَاحَتيَ الأنظـارُ تَخْتَلِـفُ
أسْتَقْبِلُ الرَّوْضَ إنْ هبّت نواسِمُهُ ... والقُضْبُ حَوْلِي بالأزْهارِ تَنْعَطِـفُ
وأسْتَقِلُّ وَفي أفْقِـي نُجُـومُ هُـدًى ... فهـذِهِ تُجْتَلَـى أوْ تِـلْكَ تُقْتَطَـفُ
تَحارُ في وصْفِيَ الأوْهـامُ ذاهِبَـةً ... لاَ تَسْتَقِل وَلاَ الأبْصارُ تَـنْصَرِفُ
يا مُبْصِرًا مِن جَمالِي ما يَرُوقُ حُلًى ... أقْصِرْ فَحُسْنُ صَفاتِي فَوْقَ مَا تَصِفُ
حَلَلْتُ مِنْ بابِ دَارِ المُلْكِ مَنزِلَةً ... مِن دُونِهَا الشُّهْبُ في عَلْيائِهَا تَقِفُ
مَوْلاَيَ جَدَّدَ آثـارِي وأكمَـلَ مَـا ... قَدْ كانَ أغْفَلَهُ مِن قَبْلِهِ السَّلَـفُ
هَـذا وَنـاصِرُ ديـنِ اللـهِ أبْدَعَنِـي ... كَما عَلِمْتَ وذاكَ العزُّ والشَّرَفُ
مَوْلَى الوُجودِ عَميدُ المُلْكِ يُوسُفُهُ ... ومَـن تلاَفـاهُ لمَّـا راعَـهُ التَّلَـفُ
طِيقانِيَ الغرُّ مهْمَا حَـلَّ مَظهَرُهَـا ... لاَ قَصْرَ إلاَّ وَبالتَّقصِيرِ يَعْتَـرِفُ
كأنَّـهُ البَـدرُ مِـن مَغْنـايَ هَالَتُـهُ ... ولَفْظُهُ الدُّرُّ مَوْضوعِي لَـهُ صَدَفُ
قابلْتُ بَحْرًا منَ الصَّهْريجِ لجَّتُـهُ ... كأنَّهَـا مِـن نـدَى كفَّيْـهِ تَغْتَـرِفُ
لازالَ في غَبْطَـةٍ مَوْصُولَـةٍ أبَـدًا ... مُخَلَّدًا فيهِ حتَّى تـنشَرَ الصُّحُـفُ

وأمَرَنِي كَذالِكَ أعْلَى اللهُ مَقامَهُ بِمَنْظُومٍ يُكْتَبُ بِطيقانِ الطَّبَقَةِ العلْيَا مِنْ هَذا المَبْنَى في الخامِسِ عَشَرَ لِشَعبان عَامَ خمسَةَ عَشَرَ المذْكُور فَحَذوْتُ حَذْوَ الأمْرِ الكَرِيمِ في ذلكَ غَرضًا وَعَروضًا وَقافِيَة وَعَددَ أبْياتٍ في الطاقَةِ الكبْرَى مِنْهُ

أحْرَزْتُ كُلَّ وَصْفٍ رائـقٍ حَسَنٍ ... ما لَمْ يُنَلْ مِثْلُه في سالِفِ الزَّمَنِ
انْ حَلَّ مِن مَظهَرِي مَوْلاَيَ أفْقَ عُلاً ... فأيْنَ صَنْعاءُ أوْ سَيْفُ بنُ ذِي يَزَنِ
هذَا هُوَ المصْنَعُ الأعْلى فَحُلَّ بِـهِ ... طَوْعَ السُّعُودِ ودَعْ غُمْدانَ لِلْيَمَنِ
أوْ حَلَّ في مَظْهَرِي عِنْدَ العَشِيِّ فمَا ... لِلشمْسِ دُونِيَ انْ تَهْدِي إلى سَنَنِ

وإنْ تَحَدَّثَ عَن وَصْفٍ كَرُمْتُ بِهِ ... رَأَيْتَهُ مالِكًا يَرْوي عَنِ الحَسَنِ[241]

أصْبَحْتُ لِلزُّهْرِ وَالأَزْهارِ مُجْتَمَعًا ... كَما غَدَتْ كَفُّهُ لِلجُودِ والمِنَنِ

هُوَ الإمامُ الذي إحْسانُهُ أَبَدًا ... وَحُسْنُهُ سَنَنٌ. هَادٍ إلَى السُّنَنِ

فإنَّ شُهْبَ الهُدَى لَوْلاهُ مَا وَضَحَتْ ... وإنَّ سُبْلَ النَّدَى لَوْلاه لَمْ تَبِنِ -156-

لَوْ كانَ فيمَا مَضَى وَضَّاحُ طَلْعَتِهِ ... ما كانَ يُنْسَبُ وَضَّاحٌ إلَى يَمَنِ[242]

هَذَا هُوَ الناصِرُ المَوْلَى الهُمامُ فَدَعْ ... ذِكْرَى أَمِينٍ وَمامُونٍ وَمُؤْتَمَنِ[243]

لاَزالَ والنَّصْرُ من عُلْياهُ مُلْتَمَسٌ ... مُبَلِّغَ الوَطَرِ المَرجُوّ في الوَطَنِ

وَفِي الطَّاقَةِ المُشْرِفَةِ عَلَى الحَمراءِ المُقَابِلَةِ لِلكُبْرَى

هَيَ العُلَى دُونَيَ مِنْهَاجُهَا ... والزَّهْرُ مِنْ ذِكْرِيَ آرَاجُهَا

ورَحْمَةُ اللهِ أَنَا كُلَّمَا ... مَدَّ يَدَ الآمِلِ مُحْتَاجُهَا (٥)

وكَعْبَةُ الجُودِ أنا اليَومَ إذْ ... تَقْصِدُ مَوْلَى الخَلقِ أفْوَاجُهَا

وَحَضْرَةُ المَلكِ وَحَمْرَاؤُهُ ... حَكَتْ بُرُوجَ الأُفْقِ أبْرَاجُهَا

لَئِنْ عَلتْ في أفْقِهَا مَصْنَعِي ... إكْلِيلُهَا الرَّائِقُ أوْ تَاجُهَا

أو قَد سَمَتْ شهْبُ سَمائِي التِي ... مِن فَوْقِ بابِ القَصْرِ مِعْرَاجُهَا

فكُلُّ مَنْ ضَلَّ سَبِيلَ الهُدَى ... يَهدِيهِ نحْوَ القَصْدِ وَهَّاجُهَا

وَكُل مَن أمَّلَ سُحْبَ النَّدَى ... مِن كَفِّهِ يُرْوِيهِ ثَجَّاجُهَا

---

(241) يورّى بمالك بن أنس والحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب من رجال الموطأ.

(242) وضّاح اليمن : هو عبد الله بن اسماعيل أحد شعراء الدولة الأموية واشتهر بالتشبيب، ولُقّب بالوضاح لجماله.

(243) الأمين والمامون والمؤتمن ألقاب خلفاء عبّاسيين معروفين.

(٥) مَدَّ يَدَ : في الأصل : مؤيّد، وهو تحريف.

وَفِي الطَّاقَةِ الثالِثةِ التِي لِيَمينِ الكُبْرَى

لِلّــهِ مِنّــي مَصْنَــعٌ يُجْتَلــى ... كأنَّــهُ الشمْسُ بِأفْــقِ العُــلاَ
طِيقانِــيَ الغُــرُّ إذا فُتِــحَتْ ... نــالَ بِهَــا المُـبْصِرُ مَـا أمَّــلاَ
أبْدَعَـي مَوْلَـى الـورَى يـوسُفٌ ... فَعَـزَّ مِقــدَارِي بــهِ واعْتَــلاَ
مُحَــدَّدًا لِلسَّلَــفِ المُــرْتَضَى ... مِـن قَبْلِهِ مَـا كانَ قَـدْ أغْفَـلاَ
فَمَصْنَعِـي وَالـرَّوضُ مِــن تحتِــهِ ... لِلّهِ مَـا أعْلَـى ومَـا أجْمَــلاَ
لاَ عَجَبٌ أن راقَ زَهْرُ الرُّبَـى ... فَجُـودُه الغَـيث مَتَــى أمْحَــلاَ
لـذاكَ قُضْبُ الـدَّوْحِ مِـن تحتِــهِ ... لِسَحْـدَةِ الشّكْــرِ تُــرَى مُيَّــلاَ
وإن سَرَى فيــهِ نَسيــمُ الصَّبَــا ... مِنْ حَمْـدِهِ أهْـدَى الـدِي حُمّـلاَ

وَفِي الطاقة الكبرى الرابعة التِي تشرف على الصّهريج 57-

يُـوسُفِ نَــاصِرِ دِيــنِ الهُــدَى ... أحْرَرْتُ فِي العَلياءِ أقصَى المَـدَى
لَــمْ أعْــلُ دُونَ الأفْــقِ لَكِنَّنِــي ... أبْغِــي إلَــى أبجُمِــهِ مَصْعَــدَا
أُقابِــلُ الصَّهْريــجَ لَكِنَّــهُ ... مِـن كَفِّـهِ قَـدِ اسْتَمَـدَّ الجَـدَا
وَحَوْلِــيَ النَّهْــرُ وَلِكنَّــهُ ... لَـوْلاَ نـداهُ لَـمْ يَـطِبْ مَـوْرِدَا
وَدُونِــيَ الــرَّوْضُ ولَكنَّــهُ ... لَـوْلاَ شَذاهُ لَـمْ يَجِـدْ مُنْجِـدَا
أُلْقَـى سَنَـا الأنجُـمِ مِـن وَجْهِـهِ ... بِطلعَـةِ الصُّبْـحِ إذَا مَـا بَـدَا
وَسائِـلَ النَّهْـرِ إذَا مَـا جَـرَى ... مِـنْ جودِ كَفَّيْـهِ بِبَحْـرِ النَّـدَى
لارالَ فِي نَصْرٍ وَفِي عِــــزَّةٍ ... مُبَلِّـغَ الـقَصْدِ بِرَغْـمِ العِـدَى

وَفِي الطاقَةِ الصّغْرَى الخامِسَةِ

أنا أسْمَى فِي الحُسْنِ قَدْرًا وأعْلاَ ... حَيْثُ أصْبَحْتُ لابْنِ نَصْرٍ مَحَلاَّ

إنمَـا جَنّـةُ العَريـفِ عَـرُوسٌ وأنَـا تاجُهَـا الرَّفيـعُ المُحَـلاَّ[244]
يُـوسُفٌ مُبْدِعِـي فَرائِـقُ وَصْفِـي بِحُلَـى العِـزّ والكَمـالِ تَحَلَّـى
وَجْهُـهُ إنْ بَـدَا بأُفْقِـيَ صُبْـحٌ لاَ يُضاهَـى سَنـاهُ إذْ يَتَجَلَّـى
دامَ في غِبْطَـةٍ وَطُـول سُرُورٍ يَقْدُم النّصْرُ جُنْدَهُ حَيْثُ حَـلاَّ

وفي الطّاقَةِ الصّغْرَى أيْضًا السّادسَة

أنَـا لِلْحُسْنِ مَـرْقَبٌ مَشهـورُ لاَحَ فِيـهِ المُؤَيَّـدُ المَنْصُورُ
هُوَ بَـدْرٌ لَـدَى المَحاسِنِ مِنّـي وَلَدَى الحَرْبِ فهْو لَـيْثٌ هَصُورُ
وقصَى لِي إبْداعُـهُ انَّ وَصْفِـي قَصّرتْ عَن مَدَى حُلاَهُ القُصُورُ
أجِهَاتِـي وَدُرُّ مَدْحِـيَ فيهَـا أمْ نحُورٌ قَـدْ حُلّـيتْ وَخُصُورُ
حَيْثُ باهَتْ عُرَّ النجُومِ خِلاَلِي وعَلَيْهَـا حُسْن الحُلَـى مَـقْصُورُ

وَفي الطَّاقة السَّابعَة ــ وَمَوضِعُ الثَّامِنَةِ وَهُوَ المَدْخلُ للمَصْنَعِ

نظَمَ مَولاَنَا أيَّدَهُ الله أبيَاتًا كُتبَتْ فِيهِ وَثَبّتَتْ فِي غَيْرِ هَذا ــ -158-

فُقْتُ حُسْنًا وَبهجَـةً وَجَمالاً وعُلُـوًّا ان طـاوَلَ الشُّهْبَ طَـالاَ
تُبْصِرُ العَيْـنُ مِن جَنابِـيَ رَوْضًا تَخِذَتْـهُ خَيْـلُ الجَمَـالِ مَجَـالاَ
فَتَأمَّـلْ مِنّـي مَكانًـا مَكِينًـا وَحِـلاَلاً راقتْ حُـلاً وخِـلاَلاَ
وَبمَوْلَـى المُلـوكِ غَرْبًـا وَشَرْقًـا أبْهَـرُ التُّهْمَ رِفْعَـةً وَمَنـالاَ
أخَـذتْ حِذْرَهَـا لَـدَيَّ احْتِفـاءً بِجَنَابِـي لَمَّـا عَلَـوْتُ احْتِفـالاَ

---

(244) حنة العريف أو حنان العريف ما تزال قائمة، وقد حُرّفت في اللسان الاسباني إلى Généralife.

وَلمَّا شَرَعَ أيَّدَهُ الله فِي تَجْدِيدِ القُبَّتَيْنِ الرَّائِقَتَيِ
الشكْلِ خلْفَ هَذِهِ الدَّارِ الكُبْرَى وَإحْياءِ رَسْمِهِمَا أمَرَنِي
بِنَظْمِ أبْيات كُتِبَتْ دَائِرةً فِي إحْداهُمَا وبتَاريخ الثَّامِنِ وَالعِشْرِينَ
لِرَبيعِ الأوَّلِ عَام خَمْسَةَ عَشَرَ وَثمَانِي مِائَة فَقُلْتُ

لِلـــهِ مِنِّـــيَ مَصْنَـــعٌ يُبْـــدِي الجَمـــالَ وَيُبْـــدِعُ
مَوْلَـــى الخلاَئِـــفِ يُـــوسُفٌ بَـــدْرٌ وأُفْقِـــيَ مَطْلِـــعُ
رَوْضُ المَحـــاسِنِ جَانِبِـــي أزْهـــارُهُ تـــتَضَوَّعُ
وَالزُّهْـــرُ إن ناجَيْتُهَـــا أُلْقِـــي الحَـــديثَ فَتَسْمَـــعُ
أنـــا قُبَّـــةٌ للصَّنْـــعِ إذْ أنـــا لِلصَّنِيعَـــةِ مَـــوْضِعُ
قالَـــتْ مِثْلِـــيَ فاتَـــنَتْ فِي نيْـــلِ وَصْفِـــيَ تَطْمَـــعُ
وتَـــرى البُحَيْـــرَةَ بَيْنَنَـــا مِـــرْآةَ هِنـــدٍ تلْمَـــعُ(245)
وبجودِ راحَـــةِ يُـــوسُفٍ هـــيَ لِلظَّمَـــاءِ الـــمَشْرَعُ
وَالـــخَصَّةُ العُلْيـــا بهَـــا كَـــأسٌ بكَـــفٍّ يُرْفَـــعُ(246)
والماءُ فِي جَنَباتِهَـــا مُتَدَفِّـــقٌ مُتَدَفِّـــعُ -159-
فكأنَّهَـــا القَـــلْبُ الـــذِي سَمْـــلَ المَكـــارِمِ يَجْمَـــعُ
يَـــا نَـــاصِرَ الديـــنِ الـــذِي تحْنُـــو عليْـــهِ الأضْلُـــعُ
أطْلَـــعْتَ شَمْسِيَ بَعْدَمَـــا غَـــرُبَتْ كـــأنَّكَ يُـــوشَعُ
حَـــدَّدتَ رَسْمِـــيَ إذْ عَفَـــا فأمِـــنتُ مَـــا يُتَوَقَّـــعُ
لِيَعُـــودَ بعْـــدَ ذَهابِـــهِ عَهْـــدُ الشَّبَـــابِ وَيَرْجِـــعُ
لاَزِلْتَ تَفْتَـــحُ للْـــوَرَى بَـــابَ القَبُـــولِ وَتَشْرَعُ

---

(245) مرآة هند : هي ما يعرف في لساننا الدّارج بمراية الهدّ.

(246) الخَصّة : ضُبطت في الأصل بفتح الخاء، وهكذا ضبطت أيضا في رحلة ابن بطوطة، وهي النافورة وترسم الخصه بالسين أيضا وكأنها سمّيت هكذا لشبهها في الشكل بواحدة الخس المعروف.

وأمَرَني أعْلا الله مَقامَهُ بأبْياتٍ تكْتَبُ
في سَمَايَةٍ اتخذَهَا لِإسْتِخْراج القِبْلَة فَقُلْتُ[247]

بحُـلاَ يُـوسُفٍ وَغُـرّ صِفاتِـي يُهْتَـدَى لـلِصلّات أوْ لـلِصَّلاَةِ
فَلِهَاذِي سَيْرُ النَّدَى في النَّـوادِي وَلِهَـاذِي سِرّ الهُـدَى في الفـلاَةِ

وقلْـــتُ

أنَـا والمَوْلَـى ابْـنُ نَصْرٍ يـوسُفٌ قِبْلَـةُ الجُـودِ وَقِبْلَـةُ السُّجُـودْ
فَكلاَنَـا لِلهُـدَى لَكِنَّـهُ يَـهَبُ النَّائِـل دونِـي لِلوجُـودْ

وقلْـــتُ

يَـا عجبًـا لِيُـوسُفٍ يَهْتَـدِي بالنجْمِ منّي وَهْوَ شَمْسُ الضُّحَى
أبَدَى كِلاَنَا الهَـدْيَ لَكِـنْ قَضَى أنْ أمْنَـعَ الجُـودَ وأنْ يَمْنَحَـا

وقلْـــتُ

طَلَعْتُ نَجْمًـا في سَمـاءِ اليَـدِ يُهْـدَى بِـيَ الرَّائِـحُ والمُغْتَـدِي
حَتَّى ابْنُ نَصْرٍ وهْوَ قُطْبُ الهُدَى بالنَّجْـمِ منّي لـمْ يَـزل يَهْتَـدِي

وقلْـــتُ

وَمَـا أنـا أهْـدِي إمَـامَ الهُـدَى ولَكِـنْ أشِيـرُ لِمَعْنَـى الصَّوابْ -160-

(247) لم أقف على كلمة سماية فيما رجعت إليه من مراجع ويبدو أنّها مخترع يشبه الوصلة أو أنّها نوع من الأسطرلاب.

فهَـا أنـا ذا صِلَـةٌ لـلصَّلاَةِ وَلِي عائِدٌ مِنْ جَزيلِ الثَّـوابْ

وقلْـــتُ

يَـا عَجَبًـا لِمَـنْ غَـدَا يَهْـدِي أئِمَّـةَ الهُـدَى
هَـذا ابْـنُ نَصْرٍ يُـوسُفٌ بِقِبْلَتِـي قَـدِ اقْتَـدَى

وقلْـــتُ

كَفُّ مَـوْلاَي سَحـابُ المعْتَفـي فأنـا نَحْـمُ هُـدًى لِلمُقْتَفـي
لاَ يُرَى النَّجْمُ لَدَى سُحْبِ الحَيَا غَيْرَ فِي كَفّ ابْن نَصْرٍ يُـوسُفِ

وأمَرَني أيَّدهُ الله بِنظْمِ قِطْعاتٍ تكتَبُ في قَوْسٍ
اتخِذَت لمَقامِهِ الكَريمِ أسْماهُ الله فَقلتُ بتَاريخِ 3 ذِي قعدة عام 814

أشْبَـهْتُ قَـوْسَ السَّمـاءِ حُسْنـا وأنجُـمُ الأفْـقِ أسْهُمِـي
وَحُـزْتُ أقْصَى العُلَـى بأنّـي لِنـاصِرِ الدّيـنِ أنْتَمِـي

وقلْـــتُ

حَكَيْتُ سَنَا الأفْقِ فِي بَهْجَتِـي وَصُغْتُ كَوَاكِبَـهُ لِـي بِصَالاَ
وَمِن عَجَبٍ أنَّ وَجْهَ ابْـنِ نَصْرٍ صَبـاحٌ وَيُطْلِـعُ مِنِّـي هِـلاَلاَ

وقلْـــتُ

رَأْيُ الخَلِيفَـةِ يُـوسُفٍ يَاتِـي وَنَافِـذُ أسْهُمِـي

مِـــن فِكـــرِهِ أوْ كَفّـــهِ لِـــيُصِيبَ شَاكِلَـــةَ الرَّمِـــي

وقلْـــتُ

تُصيبُ سِهَامِـي نحُـور العِـدَى وَتُدْنِـي سَرِيعًـا نَعِيـدَ المَـدَى
وَلِـمْ لاَ تُصيبُ وَقَـدْ فَوَّقَتْهَـا يَـدُ اليُوسُفِـيّ إمَـامِ الهُـدَى

وقلْـــتُ

-161-

لَئِن أصْبَحَتْ كفُّ مَـوْلاَيَ أفقًـا فإنِّـيَ أطْلِـعْتُ فيـهِ هِـلاَلاَ
وتَنْـقَضُّ فيـهِ سِهَامِـي نجُومًـا لِرجْمِ العِدَى حَيثُ حَلُّوا حِلاَلاَ

وابْتَدَعَ أيَّدهُ الله أقْداحًا حُمْرًا تَتَحلَّلُ بَعْضًا مِنهَا زُرْقَةٌ
وَبعْضَهَا بَياضٌ وكُل ذلِكَ مِن نَوْعِ المَذْهَبِ المَالِقِي فَقلتُ
في ذلِكَ بِتاريخِ التاسِعِ لرجَبِ الفَرْدِ من عامِ أرْبَعَةَ عَشَرَ وَثمَانِي مائةَ

يُـوسُفُ الأمْـلاك قَـدْ أبْدَعَنِـي حُمْـــرَةً مُعْجِبَـــةً في رَرَقِ
فَتخـــالُ كُلَّمَـــا أبْصَرْتَنِـــي شَفَـقَ الفَجْـرِ بَـدَا في الأفُـقِ

وفي مثل ذلك

زُرْقَـةٌ لَونِـي قَـدْ بَـدَتْ تُشْبِـهُ مَـاءً في نَهَـرْ
حَـفّتْ بـه الـوَرْدُ وَقَـدْ طَفَـا بأعْـلاهُ الزَّهَـرْ

وفي ذلِـكَ

يُـــوسُفٌ أبْدَعَنِـــي بالَّـــذِي أوْدَعَنِـــي

فَكأنَّـــــــي قَمَـــــــرٌ فِكْـــــــرُهُ أطْلَعَنِـــــــي

وفي ذلِـك

أبْدَعَنِـــي النَّـــاصِرُ ابْـــنُ نَصْرٍ فَجِـــئتُ وَفْـــقَ اقتِرَاحِـــهِ
فَحُمْرَتِـــي فِي البَيَـــاضِ وَردٌ أوْ زَهَـــرٌ فِـــي بِطَاحِـــهِ

وفي ذلِـك

أبْـــدَعَ حُسْنِـــي يُـــوسُفٌ لَمَّـــا تَجَلَّـــى وَظَهَـــرْ
فحُمْرَتِـــــي فِي ذَهَبِـــــي وَرْدٌ بِـــهِ حَـــفَّ الزَّهَـــرْ

وفي ذلِـك

جُـــودُ ابْـــنِ نَصْرٍ يُـــوسُفٍ لِكُـــلِّ وَعْـــدٍ مُنجِـــزِ -162
إذْ جـــاءَ يَحْيَـــى عَبْـــدُهُ بمُعْـــجِبٍ بَـــلْ مُعْجِـــزِ

وفي ذلِـك

بِبَدائِـــع الـــحُسْنِ التِـــي يَحْيَـــا فُـــؤادُ الْهَائِـــمِ
حَيَّـــا الخَلِيفَـــةَ عَبْـــدُهُ يَحيَـــى بْـــنُ عَبْـــدِ الدَّائِـــمِ

وبتاريخ الثّاني لِرمَضان عَام سِتَّةَ عَشَر وَثمَانِي مائَة
أمَرَ أيَّدهُ الله بِنظْمِ مَقطُوعَاتٍ تكْتَبُ في طِيقانٍ
مَحْكِيَّةٍ بالجَصّ غَيْرَ مُفتَحَةٍ فَقلتُ (*)

الــوَرْدُ مِــن شَأنِــي ولَكِنَّنِــي أمْسَكْتُ عَـن ذاكَ لِحَــقٍّ وَجَبْ
إذا هَـمَتْ راحَـةُ مَوْلَـى الــوَرَى وَلِلــوِرْدِ أقْصَرتُ بِــحُسْنِ الأدَبْ

ثَانِيَــة

مالِـي وَلِلــوَرْدِ وبَحْــرُ النَّــدَى لِكَـفٍّ مَـوْلاَيَ انتَمَـى وانــتسَبْ
والغَـيْثُ مَـا أخْلَـفَ إلاّ هَمَــا فــوقَ البَرَايَــا جُــودُهُ وانسَكَبْ

ثَالِثَــة

أنَا مَوْرِدٌ ما سُدَّ بَابِي دُونَ مَنْ قَـدْ شاءهُ بُخْــلاً عَلَــى وُرَّادِهِ
لكِنْ تُرِكْتُ لأنّ راحَـةَ يُـوسُفٍ غَيْثٌ يَعُمُّ الخَلْقَ صَوْبَ عِهَـادِهِ

رَابِعَــة

لَوْلاَ الحَياءُ مِن ابْنِ نَصْرٍ لَمْ أجِزْ مَنْـعَ النّـوال الغَمْـرِ عــنِ قُصّادِهِ
فَكأنّنِي فَـمُ صَامِتٍ عـن نطْقِــهِ أوْ جَفْـنُ عَيْـنِ هائِـمٌ بِرُقــادِهِ

خَامِسَــة

ان غُلّقَتْ طِيقَــانُ قُبّتِــي التــي تُبْدِي سَنَا وَجْهِ الصَّبَاحِ المشْرِقِ -163-

(*) يسمى هذا الصرب من الطيقان بالعربية : المشكاة. ومن وظائف الطاقات المفتوحة أن توضع فيها أواني الماء وأما في هذه المحكية فلا. انظر تحليلا ممتعا للطاقات في : أشعار عربية على حدران ونافورات الحمراء للأستاذ الكبير اميليو عرسية عومز ص 50 وما بعدها.

فالزَّهْـرُ أنْدَعُـهُ الـدِي بِكِمامِـــهِ والـمِسْكُ أعْبَقُـهُ الـذِي لم يُفْتَـقِ

سَادِسَـةْ

عَجَبًـا أيُبْدِعُنِي الخَليفَـةُ يـوسُفٌ مَوْلَـى المُلُـوكِ بِمغْـرِبٍ وَبِـمَشْرِقِ
وَأرِيهِ رَاحَةَ مابِعٍ أوْ جَفْنَ مَـنْ هُوَ بائِمٌ وَفَـمَ الـذِي لـمْ يَنْطِـقِ

وَلمَّا حَصَلَ جَبل الفَتْحِ في الإيَالَة النّاصِريَّة رحَلَ مَوْلاَنا أيَّدَهُ الله إلَيْهِ وأنا صُحْبَةَ رِكابِهِ العَلِي ومَعي بَعْضٌ مِن الكُتَّابِ فَلَمَّا كُنَّا نسيرُ في المَرْحَلةِ بَيْنَ سُهَيْل وَمَرْبَلَّةٍ لَيْلَةَ الجمعَةِ الرّابعِ وَالعِشرِينَ لجُمَدَى الأولى عَام سبعَة عَشَرَ وثمَانِي مِائة وقد ألقَتِ النجُومُ عَلَى البَحْرِ أشعَّةَ أنْوارِهَا وأبْقَتْ قِطَعُ السُّحْبِ حَوالَيْهَا تَخْيِيلاً مِن آثارِهَا وَسَأَلُوا مِنِّي وَصْفَ ذَلِكَ فَارْتَجَلْتُ مُقَطَّعَاتٍ حَفِظَهَا عَنِّي الفَقيهُ الكاتِبُ أبُو عَلِي عُمَر بْنُ عُمَرَ وَمنْهُ قَيّدتُها هُنا بَعْدَ ذلِكَ وَكُلُّهَا مِن غيْر رُؤْيَةٍ وَلا رَوِيَّةٍ[248] الأولى منْ ذلك.

خَلِيلَـيَّ هَـذِي نجُـومُ الدُّحَـى جَـوارٍ جَـوَارٍ بَعُـدْنَ مَنَـالاَ
وقَـدْ أشْبَـهَ البَحْـرُ مِـرْآةَ هِنْـدٍ تُـرِيكَ عَلَى البُعْـدِ مِنْهَـا مِثَـالاَ

الثَّانِيَـة

أأبَا عَلِيٍّ صِفْ لَنَا الشُّهُبَ الّتِي مَـازِلْتَ تَرْصُدُهَـا بِكُـلِّ طَرِيـقِ
إنْ قُلْتَ هُنَّ خَواتِمٌ قُلْنَا نَعَـمْ لَكِـن بِأعْلاَهَـا فُصُوصُ عَقِيـقِ

(248) مربلة الواردة في هذه المقدمة ماتزال معروفة بهذا الاسم : MARBILLA وسهيل هي التي ينسب إليها الامام السّهيلي دفين مراكش واسمها اليوم Fuengirola.
ومن المفيد أن الطريق الذي ذكره الشاعر بين غرناطة وحصن طارق هو الطريق الذي سلكه ابن بطوطة في رحلته. أما الفقيه الكاتب أبو علي بن عمر فلم أجد له ذكرًا فيما وقفت عليه.

الثالثـة

وَقالُوا صِفْ لَنَا شهُبُ الدَّياجِـي لَـدَى أُفُقٍ أطَـلْتُ لـهُ وُقُوفِـي
فَقـلْتُ هِيَ العُيـودُ فَقِيـلَ لكِـس عُيُودُ الزَّنْجِ مِن خِلَلِ السُّجُوفِ[249]

الرابعَـة

-164-

وَشُهْبٍ أشْبَـهَتْ حَلَقـاتِ دِرْعٍ عَلَـى جَبَاتِهَـا أثَـرُ النَّجِيـعِ
وَقَـدْ أَلْقَتْ بِمتْنِ البِحْـرِ لَيْـلاً رَوَاهِرُهَـا أزَاهِـرَ فِي رَبِيـعِ

الخامِسَـة

مَـا بَـالُ شُهْبِ الظَّـلاَمِ حَاكِيَـةٌ شُهْبَ جِيـادٍ ثَـبَتْ أعِنَّتَهَـا
فَهْـيَ وإنْ أحْمِـيَتْ فَوَارِسُهَـا تَشْرَعُ فِي نَقْعِهَـا أسِنَّتَهَـا

السَّادِسَـة

أيُّهَا النَّاظِمُ صِفْ شهْبَ الدُّجَـى إنمَـا أسْبَابُهَـا مِـن سَبَـبِكْ
فَحُلاَهَـا فِي سَـاءٍ وَسَنًـى وَعُلًـى أو شُهْـرَةٍ مِـن أدَبِكْ

السَّابِعَـة

كَـأنَّ الزُّهْـرَ فِي أُفُـقِ الدَّياجِـي أزَاهِـرُ لُحْـنَ فِي خُضْرِ البِطَـاحِ
تَأمَّـلْ إنَّهَـا أسْرَارُ غَـيْبٍ تَضَمَّـنَ كَتْمَهَـا صَدْرُ الصَّبَـاحِ

---

(249) خَلَل : كتب فوقها في الأصل : حلف.

الثامِنَـة

لِلّـهِ أَسْفَارُنَـا مَـازِلْتُ أَحْسِبُهَـا حِينًا فَحِينًا وَحُسْنُ الصَّبْرِ مِن عُدَدِي
وَالشُّهْبُ فِي أُفْقِهَا طِرْسٌ تَخطُّ بِهِ صُفْرُ اليَرَاعَةِ أَصْفَارًا مِنَ العَـدَدِ

التَّاسِعَـة

مَجَـرَّةُ الأُفْـقِ نَهْـرٌ وَالشُّهْبُ فِيهَـا حَبَـابُ
وَمَـا تَجَـزَّأَ مِنْهَـا هَـوَادِجٌ وَقِبَـابُ

العَاشِرَة

سِرْنَا إِلَى الغَرْبِ حَيْثُ الشُّهْبُ مَائِلَةٌ كَمِثْلِ مَن يَرْتَجِي اللُّقيَا وَيَنتَظِرُ
وَبَيْنَنَا نِسْبَةٌ فِي السَّيْرِ وَاضِحَـةٌ كَادَتْ تَجمّعُنَا لَوْ سَاعَدَ القَـدَرُ

وَسُئِلْتُ قَدِيمًا النَّظْمَ فِي شَمعَةٍ فَقُلْتُ مُرْتَجِلاً

ألاَ بِأَبِـي شَمْعَـةٌ قَـدْ حَـكَتْ سَنَـا الشمْسِ لاَحَتْ بِأَفْكِهَـا -165
كَخَـوْدٍ تَنَاثَـرَ مِـنْ عِقْدِهَـا لآلِـيءُ فِي جِنْـحِ أَحْلاَكِهَـا
وَقَـدْ رَفَـعَتْ فَضْلَ أَذْيَالِهَـا لِتَلْقُـظَ جَوْهَـرَ أَسْلاَكِهَـا

وَقلـــتُ

ألاَ بِأَبِـي شَمعَـةٌ تُزْهِـرُ لَهَـا نُقَـطٌ فِي الثَّـرَى تَقْطُـرُ
بِسُوسَنَةٍ قَدْ حَـكَتْ سُوسُنًـا(250) غَـدَا فَوْقَهَـا لِلنَّـدَى جَوْهَـرُ

(250) في الأصل : بسوسنة، وكتبت فوقها الطرّة الآتية : «هي التي تعمل من الكاغد».

وَقلـــــتُ

ولِلهِ منّـي شَمْعَـةٌ لاَحَ نُورُهَـا فأخْجَلَ في جِنْحِ الدُّجَى الأنْجُمَ الزُّهْرَا
حَكَيت قَضيبًا قَدْ تَساقَطَ زَهْـرُهُ وَلاَ عَجَبٌ أن تسقِطَ القُضُبُ الزَّهْرَا

وَحَضَرْتُ الوَليمَةَ المسَمَّاةَ بالثَّالثِ لِبَعْضِ الأوِدَّاءِ في يَوْمِ ثَلْج أرْسَلهُ الأُفُقُ وَسُئِلْتُ وَصْفَ ذَلِكَ ارْتِجَالاً فَقُلْتُ وَهْيَ مِنَ النَّظْمِ القَدِيمِ[251]

وَمَجلِس أنسٍ راق خُبْرًا ومَخْبَرًا كَرَوْضِ الرُّبَى جادَتْهُ سُحْبُ الغمائِمِ
بِهِ كُلِّ محْمودِ الخِلال ممجَّدٍ يُبَخِّلُ في بَذل النّدَى كفّ حَاتِمِ
فأظْهَرَ منهُمْ كُلَّ بَدْرٍ مُتَمِّمٍ وأضْحَى إلَى شَمْسِ الضحَى أيَّ كَاتِمِ
مَتَى أرْسَلتْ سُحْبُ الغَمَائِمِ دَمْعَهَا لَدَيْهِمْ أراهُمْ بَرْقُهُ ثَغْرَ بَاسِمِ
تَسَاقَطَ فيهِ الثَّلْجُ لِلأرْضِ مِثْلَمَا تَناثَرَ عِقدُ الدُّرِ مِن كَفِّ نَاظِمِ
تَخَالُ ثِمَارَ الأرْضِ فِيهِ فَوَارِسًا بِخُضْرِ ثِيابٍ تحْتَ بِيضِ عَمَائِمِ
فَتَحسِبُ أنَّ الأفْقَ دَوْحٌ تَلاَعَبَتْ بِأزْهَارِهِ في الجَوّ أيْدِي النَّواسِمِ
وَشادٍ لَهُ في الحُسْنِ أرْفَعُ رُتْبَةٍ تَرَى دُونَهَا أُفْقَ السُّهَا والنّعَائِمِ[252]
فَغَنَّى وَقَدْ أغْنَى عَنِ السحْرِ صَوْتُهُ وَمَال بِهِمْ مَيْلَ الغُصونِ النّواعِمِ
أتَوْهُ بِمَا أرْضاهُ بَدْأ وَعَوْدَةً فأبْصَرَ مِنهُمْ كَيْفَ بَذْلُ المَكارِمِ -166-
وكانَ عَلى قَدْرِ المَحاسِنِ طَالِبًا فأَلْقَى عَلَيْهِ الجَوُّ بِيضَ الدَّرَاهِمِ

---

(251) الثالث : ثالث يوم العروس.

(252) السّها : كوكب من بنات نعش الصّغرى، والنّعائم من منازل القمر.

وَعُودٍ لَهُ مَهْمَا تَرَنَّمَ سَاجِعًا فَتَلْقَى الخَلِيَّ القَلْبِ حَالَةُ هَائِمِ
يُمِيلُ قلوبَ العَاشِقِينَ صَبَابَةً فَمِن بَيْنِ مُبْدٍ لِلغَرامِ وَكَاتِمِ
وَمِن قَبْلِ أن عَنَّى عَلَيْهِ مُهَفْهَفٌ عَلَيْهِ شَدَتْ فِي الرَّوْضِ وُرْقُ الحَمائِمِ

وَمِمَّا يَجْرِي مَجْرَى مَا تَقَدَّمَ مِن المُقْتَرَحاتِ قَوْلِي لِتُكْتَبَ فِي حائِطِيٍّ حَرِيرٍ وهْيَ مِن مُرْتَجَلاَتِ النَّظْمِ القَدِيمِ وَالأبيَاتُ كَثِيرَةٌ وَجَدتُ مِنْهَا ما ثَبَتَ بَعْدُ وَأكْثَر المنظُومَاتِ مِنْ هَذا وَمَا تَقَدَّمَ من أمْثالِهِ دُونَ مُبْيِضَةٍ[253]

حَلَلْتُ كَمَا أبْغِي بأسْعَدِ مَنْزِلٍ فمَا أنا عَن شُهْبِ السَّماءِ بمَعْزِلِ
تفتَحتِ الأَلْوادُ منّي أزَاهِرًا تُلاعِبُهَا أيْدِي جَنوبٍ وَشَمْأَلِ
فَلُحْتُ كَمِثْلِ الزَّهْرِ والزَّهْرُ في الرُّبَى فَمِنْ مُجْتَنٍ يأتي عَلَى إثْرِ مُجْتَلِ
تَكَامَلْتُ إحْسانًا وحُسْنًا فَمُبْصِرِي بِرَغْمِ الأعَادِي في سُرُورٍ مُكَمَّلِ
فَيا مُبْصِرًا منّي المَحَاسِنَ وَالحُلَى أعِدْ فِي جَمَالِي نَظْرَةَ المتأمِّلِ
فَيَا طَالَمَا أزْرَتْ صِفاتُ بَدَائِعِي بِنُورِ الضُّحَى في أفْقِهِ المُتَهَلِّلِ
إذا احْتفَلَ النّادِي وَرَاقَتْ صُدورهُ فَلِي رُتْبَةُ التَّصْدِيرِ في كُلِّ مَحْفِلِ
[إذَا] سُدِلَتْ حَوْلِي السُّتُورُ بِمَنْزِلٍ نَظَرْتُ لَهَا وَالشُّهْبُ دُونِي مِنْ عَلِ

(253) الحائطي أو الحيطي كما يقال اليوم، وهو في اصطلاح الأندلسيين والمعاربة عبارة عن الاستار التي تكون على الحيطان الداخلية للقنّة أو العرفة.

وَمِنَ الإِخْوَانِيَّـــاتِ
وَمَا يتَّصِلُ بِهَا مِنَ المَنْظُومَاتِ

-167-

والذِي خوطِبْتُ بِهِ مِن النظمِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا
لاَ أُحْصِيهِ كَثْرَةً ولكِن لا أُثْبِتُ هُنَا نظْمًا لِسوَايَ
إلاَّ مَا صَدَرَ مِنّي جَوابٌ عَلَيْهِ
فَمِن ذلِكَ مَا كَتَب إلَيَّ لأوّل انتحَالِي هَذِه الطَّرِيقَةِ الفَقِيهُ
الاسْتاذُ أبُو بَكْرِ بْنُ الأيْسَرِ أبْقاهُ الله عَلَى جِهَة الاختبار لأجْلِ صِغرِ
السّنّ وقدْ سَافَرَ مَولاَيَ الوَالِد وَصَلَ الله عِزَّتَهُ لِمَوضِعِ قَضائِهِ مِنْ بَرجَةَ
في ذَلِكَ العَهْدِ وَبتَاريخِ أوَّل رَبيعٍ الأوَّلِ عَام تِسْعَةٍ وَتَسْعِين وسبْعِمائَة
بِمَا نَصُّهُ

أبـو الحسين سَلِيـلُ السَّادَةِ البُلَغَـا ... بَدَّ السَّوابِقَ في الشَّأْوِ الذِي بَلَغَا
السّحْـرُ ذَلِكَ أمْ شِعْـرٌ نَلَـغْتَ بِـهِ ... فَفُقْتَ مَن قَدْ عَتَا في السّحْرِ أمْ نَبَغَا[254]
أعْجِبْ بِهِ يَافِعًا في السّنّ مُكْتَهِلاً ... في شِعْرِهِ صِبْغَةَ الله التي صَبَغَـا
أجِبْ بشَيْءٍ مِـن المَنْظُـومِ تَبْعَثُـهُ ... في اليَوْمِ جَزْل كمَا أنَّ الفَنيقَ رَغَا[255]
البَدْءُ والوَزْنُ مِنـهُ والـرَّوِيُّ كَـذَا ... فكُل مُصْغٍ لهُ نحْوَ الجَوابِ صَغَا
الشَّمْسُ أنتَ ومَن حَارَاكَ نَجْمُ دُجًى ... يَحْفَى إذا نُورُهَا مِن أفْقِهِ بَزَغَـا

فَصابَحْتُهُ بِرسَالَةٍ ثَبَتَتْ في غَيْرِ هذَا التَّقْيِيدِ
إذِ القَصْدُ الاتْيانُ بالنَّظْمِ دُونَ النَّثْرِ إلاَّ مَا
لاَ بُدَّ منْ إتْبَاتِهِ وَصَدَّرْتهَا بِمَا نَصُّهُ

أهْـلاً بِقِطْعَةِ شِعْـرٍ راقَ مَنظَرهَـا ... فكُلُّ قَلْبٍ إلَيْهَا قَدْ صَبَا وَصَغَـا

(254) أي فقت المُسَمَّيْنِ بالأعشى والنابغة.
(255) الفنيق : الفحل المكرم من الابل.

عَقِيلَةٍ ذَهَبَتْ بالعَقْلِ حِينَ غَـدَتْ يُزْرِي سَنَاهَا بنُور الشَّمْسِ إنْ بَزَغَا
أتَى بِهَـا أوْحَـدٌ أضْحَتْ فَضائِلُـهُ تَكِـلُّ عَـن مُنتَهَاهَـا أَلْسُنُ البُلَغَـا
فَـلاَ بَنَانِـيَ يَابَـى حَصْرَهَـا أبَـدًا وَلاَ لِسَانِـي إذَا أثنَـى عَلَيْـهِ لَغَـا
لَوْ أنّ سَحْبَانَ قد جَارَى بَلاَغَتَهُ أمْ رامَ مِنْهَا بُلوغَ البَعْضِ ما بَلَغَا 168-
لاَزالَ مَادَامَتِ الأيّامُ صُبْحَ هُـدًى يَنالُ مَا يَبتَغِي فيمَـنْ عَلَيْـهِ بَغَـا

وَخَتَمْتُ الرّسَالَةَ بأبْيَاتٍ نَصُّهَا

الاَ حَيِّهَا فِي حَيِّهَا أوْحُهَـا غُـرًّا فَإنّي لاَ أنْسَى اغْتِرَارِي بِهَا غِرًّا
وَقُلْ لِيَ هَلْ تُوسى زمَانَةُ عَاشِقٍ بِعَـودَةِ أيّـامِ الزمَـانِ الـذي مَـرّا
تَقَضّى كَمِثلِ الطّيْفِ ان زَارَ فِي الدُّجَى يُرَى عِندَمَا لاَحَ الصَّبَاحُ قدِ ازْوَرّا
وَهلْ مَا زَجَتْ أنفَاسُ أحْبَابِنَا الصَّبَا وَإلاَّ فَلِمْ رَقَّتْ وَلِمْ عبَقَتْ نَشْرَا
أيَا مَنْ لَصَبٍّ قَدْ غَدَا دُرُّ دَمْعِهِ عَلى خَدِّهِ نَظْمًا وَفِي نَحْرِهِ نَثْـرَا
فَمُذْ خَالَهُمْ دُرًّا وَصارَتْ قِبَابُهُـمْ لَهُمْ صَدَفًا أجْرَى مَدامِعَهُ بَحْـرَا
ومَمَّا أجـدَّ الوَجْـدَ حُسْنُ عَقِيلـةٍ تَفُـوقُ جَمَـالاً كُـلَّ غَانيـةٍ عَـذْرَا
فَيَـا حُسْنَهَـا مِـن روْضَةٍ أدَبيَّـةٍ غَدَا عَرْفُهَا شِحْرًا وَمَنْظَرُهَا سِحْرَا
لَقَـدْ راقَنِـي إجْمَالُهـا وجَمالهَـا فأصْبَحْتُ مَشْغُوفًا بغُرتِهَـا الغَـرّا
فَأبْدَى مُحَيَّاهَا لِيَ البِشْرَ والرّضَى وَوافَتْ عَلى حُكْمِ السَّعَادَةِ بالبُشْرَى
وقَدْ راقَ لوْن الحِبْرِ فَوقَ بَياضِهَا كَمَا رَاقَ لَوْنُ الخَالِ فِي وَجْنَةِ العَذْرَا
حَبَانِي بهَا ذُو الفَضْلِ والمَجْدِ والتُّقَى فَطاوَلتُ بالشُّهْبَانِ مِن أُفْقِهَا البَدْرَا
لَئِنْ كَانَ فَينَا شخْصُهُ يَطأ الثَّرى فَفَوْقَ الثُّرَيَّا مَجْدُهُ قَدْ عَلاَ قَدْرَا
يَـرُوعُ أعَادِيـهِ بـعُصْنٍ يَرَاعِـهِ فَتَحْسِبُهَا فِي كَفِّهِ صَعْدَةً سَمْـرَا
سَقَاهَا مُدَامَ الحِبْرِ حَتَّى اسْتَمَالَهَا فهَلْ سَجَدَتْ شُكْرًا كَمَا رَجَحَتْ سُكْرَا
لَكَ الفِقَرُ الغُرُّ التِي قَدْ حَبَيْتَنِـي بِهَا فأنَا لاَ أشْتَكِي بَعْدَها فَقْـرَا

وقُدْت قَوافِي الشّعْرِ طَوْعًا وحُكتَهَا فأبْدَيْتَهَا زَهْـرًا وأطْلَعْتَهَـا زُهْـرَا
أتَتْ والنُّهَى تَصْبُو إليهَا فإنَّهَـا تُطِيعُكَ مَهْمَا تُنفذُ النَّهْيَ وَالأمْرَا
وَدُونَكَهَا مِنْ صَوْنِ عَقْلِي عَقِيلَـةً مِنَ النَّظمِ فَلْتَبْذُلْ لَهَا السَّمْحَ والبِشْرَا -169-

وَأطْلَعَ عَلَيْهَا جملةً مَنَ الطَّلَبَة حينَ وَصَلتْهُ فكَتَبَ إلَيَّ أحَدُهُمْ وَيتْلُوهَا شَيْءٌ مَن نثْرِهِ تَرَكْتُ إثْبَاتَهُ مَعَ النَّثْرِ الذِي رَاجَعْتُهُ بِهِ إثْرَ النَّظْمِ

نِظامُكَ سَيِّدِي فِي الحُسْنِ فَـرْدٌ وَلاَ عَـجَبٌ فـأت إذًا فَريـدُ
هُوَ السِّحْرُ الحَلاَلُ وإنَّ قَوْلِـي مِـن الأخْبَـارِ يَـعْضُدُهُ شَهِيـدُ
هُوَ البَحْرَ الزُّلاَلُ فمَـن يَـرِدْهُ يَرِدْ بحْرًا بِـهِ نُظِـمَتْ عُقُـودُ
بِحَظّكُـمُ وَلفْظِكـمُ اعْتِبَـارٌ فكَمْ سَمْعٍ وَكَـمْ بَصَرٍ تَقُـودُ
طَلاَئِعُهَـا بسَبْـقِكَ مُوذِنَـاتٌ فَيَـا لِلَّـهِ مَطْلِـعُكَ السَّعِيـدُ
وَكَـمْ أمَـلٍ سَتَبْلُغُـهُ قَرِيبًـا وَيحْدُمُكُـمْ عَلى الرَّغْمِ الـحَسُودُ

فَأجَبْتُهُ مُرْتَجِلاً

زَمَـانُ وِصالِـهِ هَـلاَّ يَعُـودُ وكَيْـفَ وَطَيْفُـهُ مَـا إنْ يَعُـودُ
هو الظَبْيُ الـذي أمْسَتْ جُفُونِـي تُسَهِّدُهَـا لَوَاحَظُـهُ الرُّقُـودُ
أَلاَ بأبِـي عُهُـودٌ قَـدْ تَـقَضَّتْ فَهَـلْ دَهْـرٌ بعَوْدَتِهَـا يَجُـودُ
سَقَى عَهْدَ الأحِبَّةِ عَهْدُ دَمْعٍ إذا مَـا الغَـيثُ أخْلَفَـهُ يَجُـودُ
فَفِـي تِـلْكَ المَعَاهِـدِ سَانِحَـاتٌ ظِبَـاءٌ تُـرْهِبُ الآسَادَ غِيـدُ
ومِن تِلكَ البُدورِ بِهَا وُجُـوهٌ وَمِن تِلكَ الغُصُونُ بِهَا قُـدُودٌ
وَرُبَّ عَقِيلَـةٍ مَلَـكَتْ فُـؤادِي لَهَـا فِي حُسْنِهَـا شَأْوٌ بَعِيـدُ
لَقَـدْ عَـذُبَتْ مَوَارِدُهَـا وَسَاغَتْ فأضحَـى لِلظِّمَـاءِ بِهَـا وُرُودُ

لَقَدْ نَقعَتْ غَلِيلَ الشَّوْقِ لَمَّا غَدا بَينَ الضُّلُوعِ لَهُ وُقُودُ
عَلَى حُكْمِ الوِدَادِ بِهَا حَبَانِي صَدِيقٌ فِي فَضائِلِهِ وَحِيدُ
أَقَرَّ لَهُ العِدَى بِالفَضْلِ طُرًّا وَهَلْ لِلشَّمْسِ إن لاَحَتْ جُحُودُ
لَقَدْ زَانَ النِّظَامَ وَلَمْ يَزِنْهُ وَرُبَّتَمَا يَزِينُ السِّلْكَ جِيدُ
فَدَامَ مَدَى اللَّيَالِي فِي سُعُودٍ عَلَى رَغمِ الحَوَاسِدِ لاَ تَبِيدُ

وَأطلَعْتُ الشَّرِيفَ المعَظَّمَ أبَا العَبَّاسِ الحسَنِي وَصَل اللهُ رِفْعَتَهُ عَلى قَصائِدَ مِن نظْمِي فكتَبَ لِي مَا نَصُّهُ[256]

تَبَارَكَ اللَّهُ مِن نَجْلٍ قَدِ اجْتَمَعَتْ مَحَاسِنُ الأَبِ فِيهِ وَهْوَ يَزْدَادُ
فَلاَ بَرِحْتُ أَرَى مِنكَ الذِي عَلِمتْ عَنْ جَدِّه المُنتَقَى مِصْرٌ وَبَغْدَادُ[257]

المُرَاجَعَةُ عَلى ذَلِكَ لُزُومِيَّة فِي آخِرِ رَجَب الفَرْدِ مِنْ عَامِ تسْعَةٍ وَتِسْعِينَ وَسَبْعِمائة

سَمْعًا فإنْ عُدِّدَتْ أَوْصاف مَجْدِكُمُ لاَ يأْخُذُ الشُّهْبَ إحْصاءٌ وَتَعدَادُ
مِنَّا الصَّلاَةُ عليْكُمْ وَالسَّلامُ إذَا مَا كَان لِلذِّكْرِ فِي الأَفْواهِ تَرْدَادُ
وَالحَقُّ مرْتَقى السَّبْعِ الطِّباقِ لكُمْ لاَ زُخْرُفٌ شَادَهُ عَادٌ وَشَدَّادُ

(256) الشريف أبو العباس الحسني هو ولد أبي القاسم الشريف السبتي وترجمته وأخباره في الكتيبة الكامنة وبيل الابتهاج ونفح الطيب وحلّة الرصى، ووقع النقل عنه في المعيار للونشريسي، وفي مظهر النور الباصر جملة من شعره الذي قاله في المناسبات، وقد ولي خطّتي الكتابة والقضاء من عهد الغني بالله فمن بعده.

(257) يشير الشريف إلى شهرة جدّ والد الشاعر قاضي الجماعة أحمد ابن مركوس.

تُزْهَى بجَدَّيْكُمْ السِّبْطَيْن في مَـلإٍ ... مِـن الرّسالـةِ آبـاءٌ وَأجْـدَادُ[258]
وتَجْتَلِي النُّورَ نُورَ اللهِ أوْجُهُكُـمْ ... وَيحرمُ الفَـوْزَ كُفَّـارٌ وَأضْدَادُ
إنَّ الرَّضِيَّ لكُـمْ وَالمُرْتَضَى نَسَبٌ ... يَرْدَانُ مَظْهَـرُهُ نُـورًا وَيَـزْدَادُ[258.]
فَمَن يجَاري مَداكُمْ والسَّبَاقُ بكُمْ ... لَـهُ مِـنَ العَالَـمِ العُلْـوِيّ إمْـدَادُ
مَالِي يَدانِ بشُكْرِي مِن نَدَى يَدِكُمْ ... رُحْمَى لهَا السُّحْبُ أكْفاءٌ وأنْدَادُ
لاَزَالَ إجْمَالكُـمْ لِـي عُـدَّةً أبَـدًا ... تُثْـرَى بغَيْـرِ ثَنَـاءٍ منْـهُ أعْـدَادُ -171-

وَكَتَبْتُ إلَيْهِ أبْقَاهُ اللهُ وقَدْ وُلِدَ لهُ مَوْلُودٌ في التَّاسِعِ لِرَجَبٍ مِنْ عَامِ تِسْعَةٍ وثَماني مائَة

سَمعًا فقَدْ نَطَقَ الـلّسَانُ المُفْصِحُ ... بِبَشَائِـرٍ عَايَاتُهَـا لاَ تُشرَحُ
فَالكَوْنُ من طَرَبٍ بهَا مُتَهَلِّلٌ ... وَمَلاَمِـحُ الدنْيَـا بهَـا تُتَلَقَّـحُ
وَالأفْـقُ أبْـدَاهُ الظَّـلاَمُ حَديقَـةً ... فَالزُّهْـرُ أزْهَـارٌ بـهِ تَتَفتَّـحُ
وَالرَّوْضُ يَرْفُلُ في عَلاَئِلِ سُنْدُسٍ ... غُصْنُ النَّقَـا مَـا بَيْنَهَـا يتَرَنَّـحُ
يا مَن لهُ البَيْتُ العَتيقُ وَزَمْـزَمٌ ... وَمِنًـى ومَكَّـةُ دَارُهُ وَالأبْطَـحُ
أهِيَ المَآثِرُ حَيْثُ قَامَ خَطيبهَـا ... أمْ طِيبُ هَبَّاتِ الخَمائِل يَنْفَـحُ
وَهِيَ المَفاخِرُ في النَّدَى أوْ فِي الهُدَى ... مُتَفَجِّـرٌ لكَ فَجْرُهَـا المتَـوَضِّحُ
لَـوْ مَثَّلُوهَـا لِلوُفـودِ لآلِئًـا ... لَتَخَتَّمُـوا بنَظِيمِهَـا وَتَوَشَّحُـوا
حَيْثُ البُـدُورُ تَـوَدُّ في آفَاقِهَـا ... لَـوْ أنَّهَـا بسَنَائِهَـا تَسْتَصْبِـحُ
يَا وَافِدًا من عَالم الأكْوانِ هَـلْ ... رَوْضُ الوُجُودِ وَقَدْ أتَيتَ مُصَوَّحُ

---

(258) ترهى، وردت في الأصل ناقصة هكذا : هَى، والجدّان السبطان هما الحسن والحسين رضي الله عنهما، وقد ذكر الرّاعي العرناطي أن أمّ السيد أبي المعالي كانت حُسَينية فكان شريفًا من الجهتين كما نصّ على أن أبا العباس هو شقيق لأبي المعالي ؛ وإذن فأمّهما معًا حسينية.

(258.) يشير إلى الشريف الرّضي وأخيه الشريف المُرْتَضَى.

يَا صُبْحَ هَدْيِ سَاجِيًا ذَيْلَ العُلَى ... تَشْدُو الرِّفَاقُ بذكْرِهِ وَتُسَبِّحُ

يا ابْنَ الذِي تَسْرِي الرِّكَابُ وَجَاهُهُ ... ظِلٌّ ظَلِيلٌ وَالهَواجِرُ تَلْفَحُ

يَا سَبْطَ مَنْ حَازَ النُّبوءَةَ والهُدَى ... وَبِنُورِه غَصَّ الفَضَاءُ الأَفْيَحُ

هَلْ فِي مَكَانَتِهِ التِي قَدْ نَالَهَا ... جِبْرِيلُ يَطْمَعُ أَوْ إِلَيْهَا يَطْمَحُ

إِنْ كُنْتَ مَبْغُومَ الجَوابِ فإِنَّنِي ... أَبَدًا أَنَادِي مُثْنِيًا وَأُصَرِّحُ

لِلهِ مِنْكَ مَنَاقِبٌ أَحْرَزْتَهَا ... كالشُّهْبِ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ تُلَوِّحُ

أَوَ لَيْسَ وَالِدُكَ الَّذِي آثَارُهُ ... أَحْلَى مِن الصُّبْحِ المُنِيرِ وأَوْضَحُ

هَيْهَاتَ لِلشَّمْسِ المُنِيرَةِ هَدْيُهُ ... والشَّمْسُ تَحجُبُهَا السَّحَابُ وَتُوضِحُ

أَوْ هَلْ تُجَارِي كَفَّهُ سُحُبُ الحَيَا ... وَالطَّبْعُ أَكْرَمُ والسَّجِيَّةُ أَسْمَحُ

وَأبو المَعالِي عمُّكَ العَلَمُ الَّذِي ... لِمحَلِّهِ مَا لِلكَواكِبِ مَطْمَحُ(259) -72-

لَوْلاَ مَآثِرُهُ الكَرِيمَةُ لَمْ تَكُنْ ... خَيْلُ اليَرَاعَةِ فِي مَدَاهَا تَجْمَحُ

هَدا وَجَدُّك أَوْحَدُ الدَّهْرِ الذي ... عَن حُودِهِ تُرْوى السَّحابُ الدُّلحُ(259 م)

عَلَمٌ بِحَمْلِ العِلْمِ رَادَ تَوَاضُعًا ... ووَقَارُهُ أَعْلاَمَ رَضْوَى يَرْجَحُ

فَالحِلْمُ مِنْهُ سجيَّةٌ مَعْهُودَةٌ ... والعِلْمُ مِنْهُ دِيمَةٌ تُسْتَمْنَحُ

فَاهْنَأْ بِهِ ولَكَ البَقَاءُ مُخَلَّدًا ... وَالسَّعْدُ يخْفِقُ وَالمَقَاصِدُ تَنْجَحُ

فَلِحُبِّكُمْ يَا آل بَيْتِ محمد ... بَيْنَ الحَوَانِحِ كُلّ قَلْبٍ يَجْنَحُ

أَوَ مَا بِذاكَ اللَّهُ جَلَّ جَلاَلُهُ ... يَعْفُو عَنِ الذَّنْبِ العَظِيمِ وَيَصْفَحُ

وَإِلَيْكَهَا غَرَّاءَ رَاقَ جَمَالُهَا ... فالعَيْنُ مِنهَا فِي رِيَاضٍ تَسْرَحُ

أَلْفَاظُهَا وُرْقٌ لَدَى أَوْرَاقِهَا ... بالحَقِّ تَصْدَعُ أَوْ بِحَمْدِكَ تَصْدَحُ

لاَزِلْتَ يا مَعْنَى الفَضائِلِ آمِنًا ... وَاللَّهِ يُعْطِي مَا تَشاءُ وَيَمْنَحُ

---

(259) أبو المعالي هو أخو أبي العباس أحمد، وسيذكر أيضًا بعد قليل.

(259م) الدلّح جمع دالح، وهو السحاب الكثير الماء، وحدّ المولود هو الشريف أبو القاسم السبتي المشهور.

وَكَتَبَ إِلَيَّ أَخُوهُ قَاضِي الجَمَاعَةِ الشَّرِيفُ المعظَّمُ
أبو المعالي أَبْقَى الله حُظْوَتَهُ وقَدْ تَقَدَّمَ في ذلِكَ العَهْد
لِلكِتابَةِ السُّلْطَانيّة دُونِيَ مَن آثَرَهُ صَاحِبُ الخطَّةِ في الوَقتِ بِهَا
مَا نصُّهُ في مُحَرّم عَام خمسةٍ وثماني مِائة[260]

أَبَا الحُسَيْنِ الَّذِي أَضْحَتْ مَحَبَّتُهُ ... لَدَيَّ خَالِدَةً في جَنَّةِ الخُلُدِ
اسْمَحْ بِقَافِيَةٍ رَقَّتْ سَلاَفَتُهَا ... تَسْرِي مِنَ الرُّوحِ مسْرَى الرُّوحِ في الجَسَدِ
أَلَيْسَ قَلْبِيَ ظَمْآنٌ لِمَشْرَعِهَا ... فإنَّهُ شَبِمٌ يَنْدَى عَلَى كَبِدِ
واصْبِرْ فعمَّا قَرِيبٍ أنتَ وَارِدُ مَا ... تَهْوَى مِنَ العزّ غَمْرًا غَيْرَ مَا ثَمَدِ
وَلاَ يَهِضْكَ بتَاخِيرٍ تَقَدُّمُهُمْ ... إنَّ الفَذَالِكَ تَاتِي آخِرَ العَدَدِ
وَكَمْ جَوادٍ جيَادُ الخَيْلِ تسْبِقُهُ ... أولَى الرِّهَانِ قَدِ اسْتَوْلَى عَلَى الأَمَدِ
وَاللَّهِ يَهْدِيَكَ هَدْيَ الصَّالِحينَ لِمَا ... فيهِ فَلاَحُكَ مِن تَقْوَى ومِن رَشَدِ -173-

(260) هو الشريف الحسني أبو المعالي محمد ولد الشريف الستي، ذكر في ترجمة أخيه الواردة في نيل الابتهاج : 76 نقلا عن الكوكب الوقاد للحضرمي، ونقل المقري في النفح عن كتاب الفتح المبير للرّاعي حكايةً تتعلّق بهذا الشريف، وهي «أنّهُ كان قد ترك كثير الوظائف والرياسات، وتجرّد للعبادة، ولبس المرقّعة، وسلك طريق القوم، وكان من رجال الدين والعلم والتعظيم في قلوب أهل الدنيا والآخرة على جانب عظيم، يشار إليه بالأصابع» قال الراعي : «وكان اخوه شيخي وأستاذي أبو العباس أحمد قاضيًا.. فكان أخوه أبو المعالي لا يأكل في بيت شقيقه شيئا لأجل ذلك ولعيشه من جِدَم السلطان، وكان إذا احتاج إلى الطعام وهو في بيت أخيه أعطاني درهمًا من عنده أشتري له به ما يأكل، وأقام على هذه الحالة سنين كثيرة» ثم انه مَرَّ ذات يوم بباب أَحَدِ أصحاب الأشغال المخزنية وكان مطلوبا للمصادرة ومختفيا فنادى الشريف من شقة الباب مستنجدًا بركته فقال له اذكر الذكر الفلاني، ومن ذلك اليوم فقد الشريف نوره الباطني فشكى إلى فقراء زاوية المحروق بمرناطة وحكى لهم ما وقع منه فأجابه أحدهم بأنه لقّن ذكرًا لم يكن له إذن في تلقينه فلا يعود إليه نوره أبدًا، «فكان كما قال، فانقطع وولي بعده قضاء الجماعة وعزل عن سخط وحذم الملوك وأكل طعامَهم وحالته أوّلاً وآخرًا مَعروفة بمرناطة» (نفح الطيب 5 : 198 ــ 199) ومهما يكن أمر هذه الحكاية فإنها تكشف عن أطوار حياة أبي المعالي وطبيعة ذلك المجتمع المضطرب وأثر أهل الزوايا فيه.

الجَـــوابُ على ذلِكَ

أَهَلَّ بالرَّوْضِ سِرْبُ الطَّائِرِ الغَـرِدِ ... بمَا انتَضَى نَهْرُهُ مِن سَيْفِهِ الفَرَدِ
فَهَـزَّ مثنَـــى جَنَاحَيْـــهِ وَحَثَّهُمَـــا ... حَثَّ المُسَابِقِ لِلأَقْصَى مِن الأَمَـدِ
عَهْدِي بـهِ وَارِدًا أَكْـوَاسَ غَادِيَـةٍ ... تُقَسِّمُ الرَّاحِ بَيْنَ الرُّوحِ والجَسَدِ
وَلَحْظُهُ يرْتَعِي المَرْعَى المَحُودَ بهَا ... وَجِيـدُهُ يَزْدَهِـي بالحَلْـي وَالعَيَـــدِ
حَيَّلْتُـهُ حِيـنَ أَبْـدَى لِـي بَدَائِهَـــهُ ... أَنِّـي زُهِيتُ بعِقْـدٍ مِـهُ مســتَضِدِ
أَوْ أَنَّ عَارِفَةً وَافَى الشَّرِيفُ بهَـا ... فأَحْـبَسَتْ أَمَلِـي بالعَـدِّ والعُـــدَدِ
مَالِـي وَلِلـرَّوْضِ أَسْتَهْـدِي أَزَاهِـرَهُ ... وَالزُّهْرُ فِي أُفُقِ العَلْيَاءِ طَوْعُ يَدِي
حَسْبِي هَدِيَّةُ سِبْطِ المصْطَفَى شَرَفًا ... تَهْدِي وَتَنقُلُ مِن زَيغٍ إِلَى رَشَدِ
ألا أَجِيدُ قَرِيضِي وَهْوَ لِي عَضُدٌ ... لاَ يُنْهِضُ الرُّمْحَ إِلاَّ شِدَّةُ العَضُدِ
أَلاَ أَرُدُّ خَصِيمَ القَوْمِ إِذْ حَسَدوا ... وَقَدْ مَضَى عِدْلُهُ بالبغْيِ وَالحَسَدِ
وَسَلَّ فِي حَرْبِ مَن عَادَى مَواضِيَهُ ... وهَـزَّ كُـلَّ قَوِيـمِ القَـدِّ مُطَّـرِدِ
بصَالِحٍ من دُعـاءٍ يَرْتَقِـي صُعُـدًا ... عَليهِ فِي طَلَبِ العَلْيَاءِ مُعْتَـدِي
أَقُولُ يَـا نَـاشِدَ الدُّنْيَـا وَزُخْرُفِهَـا ... لَقَدْ كَفَـتْكِ يَـدَاهُ جُهْـدَ مُجْتَهِـدِ
أَبُـو المَعَالِـي مَعَالِيـهِ مُقَـدَّسَةٌ ... فِي جَنَّةِ الخُلْدِ مِنْهُ فِكْرَةُ الخَلَـدِ
قَصْدًا فَمَعْلَمُـــهُ لِلـــهِ عَالِمُـــهُ ... بكُـلِّ مَـا لَـمْ يَنَلْـهُ نَقْـدُ مُنْتَقِـدِ
يَدْعُو بنَا مَعْشَرَ الأَبناءِ إِنَّ لكُـمْ ... لوَالِـدًا مُشْفِقًـا لِلأَهْـلِ وَالوَلَـــدِ
وَحَـيْثُ يُهْدِيكُـمُ أَبْيَاتَـهُ مِدَحـا ... فالشُّكْرُ ما بَيْنَ مَشْفُوعٍ وَمُتَّحِدِ
فَيَا عَمِيدَ بَنِي البَيْتِ الكَرِيمِ لَقَدْ ... أَصْمَتَّ بالفَخْرِ رَغْمًا أَلْسُنَ اللَّدَدِ[261]
وجئْتَ بالشِّعْرِ فالشِّعْرَى بسَاحَتِـهِ ... فِي جَمْعِ مُحْتَشِدٍ يَعْنُو لِمُنْفَـرِدِ
مُمتَـدَّةٌ فِي العُلَـى أَطْنَابُـهُ فَأَنَـا ... أَدْعُو لِرَافِعِ عُلْيَاهَا عَلَـى عَمَـدِ

---

(261) عميد البيت أو الأسرة أو الأخوة يكون عادة هو الأكبر سنا، ولكنّ صاحب الكوكب الوقاد يقول أن أبا العباس أحمد هو أكبر الأخوين. نيل الابتهاج : 76

وأسْأَلُ اللهَ في طُولِ النَقاءِ لَـهُ سُؤالَ عَبْـدٍ على مَـولاهُ مُعْتَمِـدِ -174-

ثُمَّ زادَ أبْقاهُ الله أبْيَاتًا عَلى أبْياته المُتَقَدِمة وأعادَهَا إلَيّ قاصِدًا التَّأنيسَ

أبا الحُسَيْن الذِي أضْحَتْ مَوَدَّتُـهُ لَـدَيَّ خالِـدَةٌ في حَنَّـةِ الخُلَـدِ
باكِـرْ بِقافِيَـةٍ رهْـراء صَافِيَـةٍ تسْرِي مِنَ الرُوحِ مَسْرَى الرُوحِ في الجَسَدِ
أقولُ ان كَرَعَتْ نَفْسِي بمَشْرِعِهَا لِلهِ مِن شَبِمٍ يَنْدَى عَلى كَبِـدِ
تَغدو بِهِ المُزْنَـةُ الوَطْفَـاءُ مُعْدِقَـةً كَأنّما الرّسْلُ مِنْهَـا تيبَ بالبَـرَدِ
أرْوَى السُّراةَ أخُو الحَيّ الحِلاَل بِهِ دأْبًا فَمَـا بَالُـهُ مِمَّـا اقتنَـوْهُ صَدِ
ألاَ أُنادِي بـادِي القَـوْمِ وَاحَربَـا يَا لَلرّحَالِ أمَا بالرَّبْعِ مِن أحَـدِ
اللّه في حُرْمَةٍ دانَتْ قَرَيْشُ بهَـا وَمَـا حُوَارُهُـم فِيكُـمْ مُضْطَهَـدِ[262]
مُدُّوا يَدًا بحْوَهُمْ بالبَحْرِ طَافِحَـةً لاَ يَنتَهِي مَدُّهَا بالجَزْرِ عَنْ مَـدَدِ
أنَا الحُسَيْن رُوَيْدًا سَوْفَ تَنْهَلُ مِن وِرْدِ الأمَانِي غمْرًا غَيْرَمَـا ثَمَـدِ[263]
وَتبلُغُ العايَةَ القُصْوَى عَلَـى مَهَـلِ إلَـى دُرَى رُتَـبِ العَلْيـاءِ فَاتَّئِـدِ
فَـلاَ يَـهِضْكَ بتَـاخِير تَقَدُّمُهُـمْ إنَّ الفَذَالِكَ تَاتِـي آخِـرَ العَـدَدِ[264]
وكَمْ جَوادٍ جِيَـادُ السَّبْـقِ تَقْدُمُـهُ أولَى الرّهَانِ قَدِ استَولَى على الأمدِ[265]
هَـذا عَلَـى أنَهَـا الأقْـدَارُ رُبَّمَـا تَاتِيكَ عَنْ كَثَبٍ طَوْرًا وعن بُعُدِ
فَحَسْبُكَ اللّهُ فَيمَا أنتَ نَاشِدُهُـمْ فَاسْتَوْثِقَـنَّ بحَبْـلِ الوَاحِـدِ الأحَـدِ

---

(262) يشير الشريف إلى انتساب ابن مركون إلى قريش.

(263) الغمر : الكثير، والثمد : القليل.

(264) الفذالك جمع فذلكة، وهي قول الحاسب في آخر الحساب : فذلك كذا وكذا.

(265) أمد السباق : غايته، واستولى على الأمد : علب على منتهاه وهذا من قول النابغة : سَبَقَ الْجَوادِ إذا استَولَى عَلى الأمَدِ.

وَحْصَّ بالدُّرّ مَدْحَ المُصْطَفَى وَكَفَى ... بِهِ عَتَادًا لِما تَرْجُوهُ مِنْ صَفَدِ(266)

وَكُنْ بِهِ فِي المَالِ الصَّعْبِ مُعْتَضِدًا ... فَجاهُهُ المَوْئِلُ الأَحْمَى لِمعْتَصِدِ

واجْعَلْ شَفاعَتَهُ دُنْيَا وَآخِرَةً ... عِمَادَ مُسْتَمْسِكٍ فِي كُلِّ مُعْتَمَدِ

فإنّهَا عمْدَةُ اللَّهِ التِي فِزِعَتْ ... يَوْمَ المَعادِ إلَيْهَا جُمْلَةُ العُمَدِ

مَنْ يسْتَنِرْ بِمَنَارٍ مِن شَرِيعَتِهِ ... فِي مُدْلَهِمِّ دُجَى لَيْلِ الضَّلاَلِ هُدِي

وَفَازَ بالأَمْنِ فِي دَارِ السَّلاَمِ غَدًا ... مَن أَمَّ مَنْهَجَهُ الأَهْدَى ولَمْ يَحِدِ -175-

فَصِلْ صَلاَتَكَ تَرْدَادًا عليْهِ تَنَلْ ... رُحْمَى الإِلاَهِ وَمَهْمَا تَسْتَزِدْ تُزَدِ

وَاللَّهُ يَهْدِيكَ هَدْيَ الصَّالِحِينَ لمَا ... فِيهِ فَلاحُكَ مِنْ تَقْوَى وَمِن رَشَدِ

وَكَتَبَ إِلَيَّ أَبْقَاهُ اللهُ إِثْرَما وَلِي مَولاَنَا النَّاصِرُ لِدِينِ اللهِ الخِلاَفَةَ وَاظْهَرَ عَلَى عَبْدِهِ أَثَرَ القبول وَفَاتَحَ بِتَبْلِيغِ الأَمَلِ وَالسُّول

أنا الحسيْن الذي أُخْفِي مَحَبَّتَهُ ... فِي طَيِّ قَلْبِيَ أحْيانًا وَأُبْدِيهَا

تُهْدِي إِلَيْكَ مَعَ الأَرْوَاحِ إِذْ نَسَمَتْ ... مِسْكَ السَّلامِ فَماذَا أنتَ تُهْدِيهَا

ان قُلْتَ دُرًّا وَياقُوتًا فَمَعْدِنُهُ ... كَمَا عَلِمتَ مَحُوزٌ تحْتَ أَيْدِيهَا

فاحْتَلْ لنفْسِكَ فيمَا تُتْحِفَنَّ بِهِ ... كَلاًّ أوِ اسْتَرْشِدِ الأَعْلاَمَ تَهْدِيهَا(267)

الشَّمْسُ بالرُّبْوَةِ الحمْراءِ مُشْرِقَةٌ ... كَمْ نِعْمَةٍ لِلْهُدَى لاَرَيْبَ تُسْدِيهَا(268)

---

(266) صَفَد : عطاء.

(267) استرشد، قد تكون : استرفد، كما يستفاد من قول أبي الحسين الآتي في حواشه : مشيرةٌ بالْتِماسِ الرِّفد من علمٍ. واسترفد : طلب الرفد والعطاء.

(268) الربوة الحمراء : يقصد بها قصر الحمراء، والشمس المشرقة عليها : الملك

فَراجَعْتــــه بقَصيدةٍ لزُومِيَّةٍ
مِثْل أبْيَاتِي المُتَقَدِّمَةِ

هِـيَ الدّيَـارُ فَمَـا تَبْـدو بَوَادِيهَـــا ... إلاَّ اهْتَـدَى كُـلُّ هَيْمَـانٍ بِوَادِيهَـا

مَعَاهِدٌ قُدِّسَتْ أرْضًا فَقَدْ ضَمِنَتْ ... رِفْـدًا لِقَاصِدِهَـا وِردًا لصَادِيهَـــا

كَمْ قدْ دَعَتنَا إلَى السُّقْيَا مَوَارِدُهَا ... وإنْ عَدَتْنَـا عَـنِ اللُّقْيَـا عَوَادِيهَـــا

أهْدَتْ بِطَيِّ صَبَاهَا مِـس صَبَابَتِنَـا ... أمَانةً لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تُؤَدّيهَـا

كَمْ قُلّبَتْ مِن قُلُوبٍ فِي أبَاطِحِهَا ... وكَـمْ تَشَكَّتْ نَواهَـا فِي نَوادِيهَـا

فالوَجْدُ جَدَّ بهَا لَوْ كَان يُنْجِدُهَا ... وَالصَّبْرُ لاَذَتْ بِهِ لَوْ كانَ يُجْدِيهَا -176-

هَذَا وَإنَّا إلَى عَدْرَاءَ قَدْ وَفَدَتْ ... تَرْتَـاحُ شَوْقًـا وَبـالأرْواحِ نَفْدِيهَـــا

عَقيلَةٍ قَـدْ تَحَلَّى حُسْنُهَـا فَجَـلاَ ... مِرآةَ فِكْرِي فَلَيْسَ الدَّهْرُ يُصْدِيهَا

تَحْتَـالُ مَوْشِيَّـةَ الأبْـرَادِ رُتَّمَـــا ... وَشَى بهَـا وَشْيُهَـا لَـوْلاَ تَهَادِيهَـا

نَادَيْتُهَـــا حُـــودِي وَمُبْتَـــذَلٌ ... فِينَا نَداهَا كَمَا قَـدْ عَـزَّ نادِيهَـا

إنّ المَنَادى هوَ المَمْطُولُ واعجَبًـا ... مَابـال هَاتِـيكَ مَمْطـولٌ مُنَادِيهَـا

للهِ هَادٍ إلى قَصْدِ السَّبِيلِ هَـدَى ... أفْكَارَ فكْـرِي بمَـا مِنهَـا يُهَادِيهَـا

أرْواحُنَا جَعَـلَتْ ذُخْـرًا مَحَبَّتَهَـا ... تُرِيحُهَـا يَـوْمَ يبْديهَـا تَنادِيهَـــا

شَرِيفَةُ المتَمَى فِي الآخريـنَ أتَتْ ... وأحْـرَزَتْ منتهى العَلْيَـا مَباديهَـا

صَدَّتْ طَوِيلاً ولكِن عِنْدَمَا رَضِيَتْ ... أضحَى إلى مُرْتَضَى اللُّقْيَا تَصَدِّيهَا

سِبْـطُ النبـيّ حَانِي مِـس عَقائِلِـهِ ... بِبِنْتِ فِكْرٍ يَرُوقُ السمْعَ شادِيهَـا

مُشيرَةٌ بالْتَمَاسِ الرّفْدِ مِـنْ عَلَـمٍ ... مَا ضَلَّتِ الخَلْقُ قَصْدًا وَهْوَ هَادِيهَا

قَدْ لاَحَ بالرُّبْوَةِ الحمراء شَمسَ هُدًى ... فَلَيْسَ يَخْفَى عَنِ الأبصَارِ بَادِيهَـا

فَمَا قَبضْنَا اللُّهَـى لـوْلاَ مَكارِمُهَـا ... ولاَ بَسَطْنَـا يَـدًا لـوْلاَ أيَادِيهَـا

هذِه الخِلاَفَةُ قَـد أعْلَـى مَعالِمَهَـا ... فأيْـنَ مَهْدِيُّهَـا منـهُ وهَادِيهَـــا

هذِي اللَاغَـةُ انْ وافَتْ كَتائبُهَـا ... يكُـفُّ قُسُّ إيَـادٍ بَـطْشَ أيْدِيهَـا

هدِي السَّماحَةُ إنْ جَفَتْ مَوارِدُهَا ... من كَفِّ حاتِمِهَا تَندَى غَوادِيهَا
هدِي المَعارِفُ انْ ضَلّتْ كَواكِبُهَا ... أشِعَّةُ الصُّبْحِ تَهْديهَا وَتُهْدِيهَا
هدِي العُفاةُ إذا تَغْدُو مُؤَمِّلَةً ... هذِي العُداةُ إذا يَبْدُو تَعَدّيهَا
يَجُودُهَا سَيْبُهُ طَوْعًا وَيُرفِدُهَا ... يُرُدُّهَا سَيْفُهُ قَهْرًا وَيُرْدِيهَا
سَنَا تَهَلُّلِهِ بَادٍ لِسائِلِهِ ... إنَّ البُروقَ غَوادِيهَا تُعَادِيهَا
فكُلُّ بَارِقَةٍ لِلْجُودِ يُبْدِعُهَا ... وكُلّ شارِقَةٍ لِلبَشْرِ يُبْدِيهَا
هَل نِعْمَةٌ أوْ يَدٌ تَاتِي وقَدْ سَلَفَتْ ... إلاَّ ونَاصِرُ دينِ اللهِ مُسْدِيهَا
المُنْعِمُ المَلِكُ الأعْلَى الذِي وكَفَتْ ... كَفَّاهُ جُودًا وَقَدْ كُفَّتْ أعَادِيهَا
ثَنَى لِبَذْلِ النَّدَى في الخَلْقِ راحَتَهُ ... فَظَلّ رائِحُهَا يُثْنِي وَغَادِيهَا[268]
لاَزالَ مَوْلاَيَ يُبْدِي مِن مَكارِمِهِ ... ما يُبْهِجُ الدِّينَ والدنيَا تَمادِيهَا
حَمائِمُ الفكْرِ في رَوْضِ النِّظامِ غَدَتْ ... صَوادِحًا بالنَّدَى تَرْوِي صَوادِيهَا

وكتَبَ إلَيَّ أيَّام إقامَتِنَا جَميعًا بمَالَقَةَ صُحْبَةَ الرّكابِ العَلِيّ أسمَاهُ اللَّهُ في شأنِ الزّيارَةِ وَتجْدِيدِ المَوَدَّةِ وَبتاريخ اليَوْمِ الثَّانِي عَشَر لِشَعْبان من عَامِ ثلاثة عَشَر وثمانمائة[269]

حَيَّا حِمَى الرَّوْضِ البَلِيلْ ... نَفْسٌ أبَلَّ بِهِ العَلِيلْ
فَتَشَوَّقت بِكلَيْهِمَا ... نَفْسُ الخَلِيلِ إلَى الخَلِيلْ
يا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ إلى ... لُقْيَا الأحِبَّةِ مِن سَبِيلْ
وَطَنٌ وحَيٌّ جَامِعٌ ... وَنَوًى تَشَعَّبَ بِالقَلِيلْ
مَا هَكَذا عَهْدُ الأُلَى ... عَهْدِي بِهِمْ في كُلِّ جِيلْ

---

(268) انظر قوله هذا مع أنّ أبا تمّام يقول :
تعَوّدَ بَسْطَ الكَفِّ حَتّى لَوْ أنَّهُ ... ثَنَاهَا لِقَبْضٍ لَمْ تُطِعْهُ أنَامِلُهْ

(269) راجع ما تقدم في موضوع مقام السلطان بمرباطة في التاريخ المذكور.

مَـــاذا عَـــدَا عَمَّـــا نَـــدَا مِـــن رَوْرَة تَشْفِـــي الغَلِيـــلْ
تَعْتَـــادُ خَيْـــمَ أُولِـــي الحِمَـــى فِي بُكْـــرَةٍ أَوْ فِي أصيـــلْ
فَقِـفِ المَطِـيَّ عَلَـى الحِمَـــى تُحْـــي بِهَـــا الـــرَّسْمَ المُحِيـــلْ

فَراجَعْتُهُ عَلَى ذَلك مِن غيْر رَويَّةٍ وهْيَ لزُومِيَّهْ

حَـدّثْ عـــن الطَّلَـــلِ المُحِيـــلْ مِـــن بَعْـــدِ حَادِثَـــةِ الرَّحِيـــلْ
حـــيْتُ الـــرَّكائِبُ نُـــزَّعٌ لِلـــوِرْدِ وَالظِّـــلّ الظَّلِيـــلْ
وَالجُـــودُ أنقَـــهُ لِلعَلِيـــلِ بـــهِ وأنْقَـــعُ لِلْخَلِيـــلْ(269م)
كَـــم مِـــن نُفـــوسٍ عِنـــدَهُ تَرْتـــاحُ لِلنَّـــفَسِ البَلِيـــلْ -178-
هَـــذا وَ لِلوَطَـــنِ الـــذِي فِيـــهِ المُعَـــرَّسُ وَالمَقِيـــلْ
سَرَفٌ سَمَـــا فَـــوْقَ السُّهَـــا بالنَّـــاصِرِ الكَافِـــي الكَفيـــلْ
وَبيـــوسُفٍ غَرْناطَـــةٌ مِصْرٌ وَمِـــن جَـــدْواهُ نِيـــلْ
وَالوَحْـــدُ نَحْـــوَ بطاحِهَـــا كُـــلَّ القُلُـــوبِ غَـــدا مُمِيـــلْ
لَـــوْلاَ الجَـــوَى طَـــيَّ الحَـــوَا نِحِ مَـــا غَـــدَا دَمْـــعٌ يَسِيـــلْ
لَـــوْلاَ التعَلُّـــلُ بِاللِّقَـــا ءِ لَمَـــا اشْتَفَـــى القَـــلْبُ العَلِيـــلْ
لَـــوْلاَ فَتَـــاةٌ أعجَـــزَتْ لَفْـــظَ المُطِـــيبِ أوِ المُطِيـــلْ
لَـــمْ أدْرِ مـــا مَعْنَـــى السُّلُـــوِّ إذَا عَـــنِ الـــرَّسْمِ المُحِيـــلْ
تُهْـــدِي وتَهْـــدِي إذْ أتَتْ غَـــرَّاءَ وَاضِحَـــةَ الدَّلِيـــلْ
لِلَّـــهِ مَـــا حـــاءَتْ بـــهِ مـــن مَنْطِـــقِ العَـــرَبِ الأصِيـــلْ
لِلَّـــهِ مَـــا حَازَتْـــهُ فِي الـــعلْيـاءِ مِـــن شَرَفِ القَبِيـــلْ
تَجْلُـــو كَتـــائِب كُتْبِهَـــا بمَـــدَى البَلاَغَـــةِ أوْ تُجيـــلْ

(269م) كذا في الأصل، ولعلّها : الحَوُّ.

وَلَهَـــا الهَـــوادِي اسْتَشْرَفَتْ فَهَـدَتْ إلَـى قَصْدِ السَّبِيـلْ
فهِـيَ العَقيلَـةُ تَنتَمِـي لِعُـلاَ عَلِـيٍّ أوْ عَقِيـلْ[270]
ولأوْحَـدِ الدَّهْـرِ التريـفِ المَاجِدِ العَلَمِ الجَليـلْ
لِلـهِ مِنْـهُ مُحْـرِزٌ وَصْفَـيْ مُنِـيبٍ أوْ مُنِيـلْ
أُهْـدِي لَـهُ جَـزْلَ النّظَـا مِ وَقَـدْ حَبانِـيَ بالجَزِيـلْ
أَلْفاظُـهُ كَـم مِـن كَتـيبٍ للعُصَاةِ بهَا مَهِيـلْ
ولَكَـمْ يَـرُدُّ بعَدلِـهِ لِلْبَغْـي مِـنْ جَـيْشٍ فَلِيـلْ
وَمِـنَ القُلـوبِ بِوَعظِـهِ يُدْنِـي الـقَصيَّ وَيَسْتَمِيـلْ
ويَراعُـهُ كَالصَّعْـدَةِ السَّمـراءِ والسَّيْـفِ الصَّقِيـلْ
يَـا آبِـنَ الـذِي بِخِلالِـهِ قَـدْ بشّرَتْ صُحُـفُ الخَليـلْ[271] -179-
قُـلْ مُنْعِمًـا مَـا شِئْتَـهُ فَـلأنْتَ لِـي نِعْـمَ المُقِيـلْ
عُـذْرًا بمِثْـلِكَ يَهْتَـدِي مَـن حَـادَ عَـن أهْـدَى سَبِيـلْ
قَصْدِي المُثُـولُ لَـدَيْكَ يَـا مَـنْ حـلَّ فِينَـا عَـن مَثِيـلْ
مَـا بَيْـنَ سارِقَـةِ الصَّبَـا حِ وبيْـنَ حَانِحَـةِ الأصِيـلْ
فِي حُبّ آلِ مُحمـدٍ لِـيَ حالَـةٌ لاَ تَسْتَحِيـلْ
فمِـنَ الزِّيـارَةِ بَعْدَهَـا هَيْهَـاتَ أطْلُبُ مِـن بَدِيـلْ
أُزْجِـي المَطِـيَّ لِحَيّكُـمْ بِالوَخْـدِ مِنْهَـا وَالذَّمِيـلْ
يـا مَـنْ يُقِيـمُ صَغَـا الـفَضَا ئِـلِ وَالفَـواضِلِ أنْ تَمِيـلْ
لَـوْلاَ القَوَافِـي لَـمْ أكُـنْ فِي الـوَصْفِ أقْنَـعُ بِالْقَلِيـلْ
فَلْتُبْـدِ مَـا عَوَّدْتَنِـي مِـنْ عَـادَةِ الصَّفْـحِ الجَمِيـلْ

---

(270) فيه حماس، وعلي هو ابن أبي طالب وعقيل أخوه.

(271) يشير إلى الآية الكريمة : «إنّ هذا لفي الصُّحُفِ الأولَى صُحُفِ إبْراهِيمَ».

وَعِندَمَا ارْتَسَمتُ فِي كِتَابِ المَقَامِ العَلِي فِي اليَوْمِ الرَّابِعِ وَالعِشْرِينِ لِصِفر مِن عَام ثمانيَةٍ وثمَانِي مِائَة كَتَبَ إِلَيَّ مُهَنِّئًا بذلكَ الفَقيهُ القاضي أَبُو عَبْدِ الله الأُلْيُري[272]

هَنِيئًا يَا سَلِيلَ أُولِي النَّجابَهْ ... بِمَا قُلِّدتَ مِن سَامِي الكِتابَهْ
وَيَهْنِيهَا فَقَدْ ظَفِرَتْ بِكُفْءٍ ... حَوَى مِن كُلِّ مَعْلُوَةٍ لُبَابَهْ
أَرَاكَ اللَّهُ فِيهَا مَا تَمَنَّى ... مِنَ النِّعَمِ الجِسَامِ المُسْتَطَابَهْ
وَزَادُكَ بَعْدَهَا جَاهًا عَظِيمًا ... تَنَالُ بِهِ الخِطَابَةَ وَالحِجَابَهْ

فَأَجَبْتُهُ بِقَصِيدَةٍ نَصُّهَا

بِمَا أُثْنِي عَلَى تِلكَ المَثَابَهْ ... فَأَرْضَى بِالإِنَالَةِ وَالإِنَابَهْ -180-
وَنَظْمُكَ مَا وَفَيْتُ لَهُ بِحَقٍّ ... سِوَى رُوحِي مُقَابِلَةً ثَوَابَهْ
أَتَى بِعَقِيلَةٍ رَاقَتْ جَمَالاً ... فَقَدْ هَامَ الفُؤَادُ بِهَا صَبَابَهْ
كَلِفْتُ بِهَا فَرَكْبُ الوَحْدِ لَمَّا ... رَأَى كَلَفِي أَنَاخَ بِهِ رِكَابَهْ
فَهَا حُبِّي وَهَذا فَرْطُ شَوْقِي ... وَلاَ شَوْقَ اليَزِيدِ إِلَى حَبَابَهْ[272م]

---

(272) يبدو أن هذا «الفقيه أبا عبد الله الأُلْيري» هو المترجم به في نيل الابتهاج هكذا : «محمد بن علي بن عبد الملك الأُلْيري الرباطي، شُهِرَ بابن مليح، قاضي رباطة، وقع النقل عنه في شرح التحفة لابن عاصم» وكان حيًّا عام اثنين وثلاثين [وثمانمائة]» وهو الوارد ذكره في المعيار كما يلي . «كان القاضي أبو عبد الله الأليري أيام استخلافه قضاء الجماعة بحضرة رباطة يُغْلِطُ على من فهم منه اللَّدَدَ من اليهود» ولعلّه هو نفسه الذي خاطبه الشاعر السطي بعَدِدٍ من قصائده. راجع كتابنا : السطي آخر شعراء الأندلس : 110 — 114 وفي برنامج المنتوري نقرأ هذه الترجمة : «ومنهم الشيخ المفتي المقرىء الحاج الأصلح أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف بن مالك بن أحمد الرعيني الأُلْيري. مولده في ليلة الخميس لسبع مضين من شهر ربيع الأول عام تسعة وعشرين وسبعمائة وتوفي في ليلة الثلاثاء لأربع عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول عام اثنين وثمانين وسبعمائة» وهذا متقدم في التاريخ، ولعلّهُ هو صاحب شرح البردة المخطوط، وثمّة أُلْيري آخر معاصر لشاعرنا هو أبو عثمان سعد الأليري المترجم في برنامج المحاري والوارد ذكره مرارًا في ديوان يوسف الثالث. راجع أيضًا ما كتبناه في المقدمة.

(272م) اليزيد : في الأصل المخطوط : المريد، وهو تحريفٌ لهُ نظائر في نسختنا الوحيدة، والإشارة هنا إلى هيام الخليفة يزيد بن عبد الملك بالجارية المغنية حبابة حتى مات كمدًا بعد موتها. راجع الأغاني

فَيا لِلَّهِ مِنْهَا بستُ فِكْرٍ تُبَلِّغُ كُلَّ ذِي أَمَلٍ طِلاَبَهْ
وَيا للَّهِ مَنْ أَنْدَى حُلاَهَا تُشِيرُ إِلى هَنائِيَ بالكِتَابَهْ -181

(273)

قَرَّتْ بِكَ الدُّنْيَا وَعَيْنُ العُلَى وَكُلُّ عَيْنٍ عَائِنٍ عَانِيَهْ

182- فَارْتَجَلتُ جَوابَهَا مَعَ مُوَصِّلِهَا
وَلَزَمْتُ فِي الرّوي حَرفًا غَيْرَ الذِي التَزَمَهْ

مَرَّتْ برَبْعِي لِلنَّدَى عَادِيَهْ رَائِحَةً بأُفْقِهِ عَادِيَهْ
فأَشْبَهَتْ رَهْرَ الرُّبَى نَفْحَةً وأَخْجَلَتْ زُهْرَ العُلَى بَادِيَهْ
حسْناءُ أَنْدَاهَا وَلِيُّ الهُدَى فأَصْبَحَتْ لِنَهجِهِ هَادِيَهْ
حَمائِمُ الفِكْرِ لَدَى رَوْضِهَا بمَدْحِهِ أَوْ حَمْدِهِ شادِيَهْ
صادِحَةٌ بِهِ وإِنْ لَمْ تَرِلْ لِلوِرْدِ فِي مَشْرَعِهَا صَادِيَهْ
يَقْفُو بنُو الآدَابِ آثارَهَا مَا الرَّكْبُ إِلاَّ تابِعٌ حَادِيَهْ
هذَا هُوَ النَّظْمُ الذِي قَصَّرُوا عنهُ وَلَمَّا يَقطعوا وَادِيَهْ
حَسُودُهَا التقْصيرُ نَادَى بِهِ وَلَوْ غَدَا يَدْعُو لَهَا نَادِيَهْ
أَوْدَتْ بِهِ وأَظْهَرَتْ وُدَّنَا عَادِلَةً فِي حُكْمِهَا عَادِيَهْ
أَتَى بها السَّيِّخُ المُفيدُ الذِي نُفُوسُنَا لنَفْسِهِ فَادِيَهْ(274)

(273) بياض في الأصل، وفي الطرة ما نصه : «بياض هنا قدر ورقة وحدتها مفقودة في الأصل المنتسخ منه» ويبدو أن هذه الورقة المفقودة تشتمل على القطعة أو القصيدة التي لم يبق إلا البيت الأخير منها.

(274) ليس في القطعة ما يستفاد منه معرفة هذا الشيخ المفيد الذي هنّأ الشاعر بمنصبه فأحاله بهذه القصيدة.

ضَمَّنَهَا مَعنَى هَائِي بِمَا ... بِهِ أَقَامَ الدَّهْرُ مُنْآدِيَهْ
وما بِهِ النَّاصِرُ مَوْلاَيَ قَدْ ... أَبْدَى عَلى الأَيَّامِ إِنْجَادِيَهْ

وكتَبَ إِلَيَّ الفَقيه أَبُو القَاسِمِ بْنُ حاتِم المَالَقِي ويُعْرَفُ أيضًا بابْنِ البَنَّاءِ وَهُوَ شَاعِرٌ مُفْلِقٌ وَقَدْ تَولَّى قَضاءَ جَبل الفَتْحِ الوِلاَيَةَ التي ظَهَرَ فِيهَا منْ سوءِ رأيِه، مَا قَضَى لِمبْنَى عِزِّهِ بِسُقُوطِهِ ووَهْيِهِ

وَهُوَ الآنَ بَعْدَ خُطوبٍ فادِحَةٍ مُقيمٌ بَسبتة[275]

أدارُهُمْ هَذِهِ المِسْكِيُّ رَيَّاهَا ... حَيَّاهُمُ اللَّهُ مِن قَوْمٍ وَحَيَّاهَا
لَمْ تَدْرِ طِيَّةَ نَفْسٍ هَاجَهَا قَلَقٌ ... حَتَّى إذا سَكَنَتْ فيهَا عَرَفْنَاهَا
وَهْيَ القُلوبُ إدا حَلَّ الغَرامُ بِهَا ... تَحْفَى وتَظْهَرُ أطْوارًا سَجايَاهَا -183-
يَا صَاحِبَيَّ وَمَا سِرِّي لِغَيْرِكُمَا ... والْحُرُّ إنْ أُودِعَ الأَسْرَارَ أَخْفَاهَا
إِن تَبْرَحَا أَوْ تُقيمَا لَسْتُ مُنتَقِلاً ... إِيَّايَ كانَ السُّرى يَعْنِي وَإِيَّاهَا
أَلْقَتْ عَصاهَا بِبُسْتَانِ الجَمَالِ يَدي ... فَما عَصاها مِن الآمَالِ أَقْصَاهَا
لاَ تَلْحَيَانِي فَما فِي سَلْوَتِي طَمَعٌ ... وَلاَ فُؤادِي مَعَاذَ اللّه يَرْضَاهَا
مَتَى رأى غَيْرَهَا مُسْتَحْسَنًا نَظَري ... حَتَّى تَظُنَّا بِأَنَّ الغَيْرَ أنسَاهَا
أَوْفَاهَ لِي بِعُهُودِ الغَادِرِينَ فَمٌ ... أَنَّى وَلِي مِنْ عُهودِ الحُبِّ أَوْفَاهَا
وإِنَّ منْ أنَا مَعْرُوفٌ الغَرامِ بِهَا ... لَمطْمِعٌ حُسْنُهَا فِي نَيْلِ حُسْنَاهَا
لَمْ أنْسَ لَيْلَتَنَا بالجِزْعِ إِذْ غَفَلَتْ ... مِن الوُشَاةِ عيُونٌ كُنتُ أخشَاهَا
أَرَدتُ أُوقِدُ مِصْبَاحًا فَبَادَرَنِي ... حَطُّ اللِّثَامِ فَأَعْنَانِي مُحَيَّاهَا
ورُمْتُ أُهْدِي لَهَا صِنْفَيْنِ مِن دُرَرِي ... فأخجَلَتْنِي ثَنَايَاهَا ونَجْواهَا
وكنتُ أَعْدَدتُ أَلْفاظَ العِتَابِ لَهَا ... فَأَذْهَلَتْنِي فَلَمْ أَظْفَرْ بِإِحْيَاهَا

---

(275) راجع ما كتبناه في المقدمة عن هذه الشخصية الأدبية.

رُحْمَى لِمُنْتَحِلِي الآدابِ مِنْ دَهَشٍ ... يُعيدُ أعْتَى حُمَاةِ القَوْمِ أعْيَاهَا

قالَتْ أظُنُّكَ مَسْحُورًا فقلتُ لَهَا ... أفعَالُ مَنْ كُحِلَتْ بالسِّحْرِ عَيْنَاهَا

قالتْ وأعْوَزَكَ الرَّاقِي فقلتُ لهَا ... شَكْوَى يُعالِجُهَا مَن قَدْ تَجنَّاهَا

قالتْ وَهلْ تَعْرِفُ الجانِي فَقلتُ لَهَا ... رامٍ إذَا قَصَدَ الأكْبَادَ أصْمَاهَا

قالتْ أتَيْتَ بِألْغَازٍ فَقلْتُ لَهَا ... لَعَلَّ أُخْتَ المَهَا فَكَّتْ مُعَمَّاهَا

فاسْتُضحِكَتْ ثُمَّ قَالَتْ خَلِّ عَنْكَ وَقُلْ ... عن صُورَةٍ نَسْتَلِذُّ العَيْنُ مرْآهَا

فَقلتُ في الشَّمْسِ مَا نبغِي مَتى طلَعَتْ ... قالتْ فإنْ هِيَ غابَتْ غَابَ مَعْنَاهَا

فقُلتُ والبَدْرُ أيْضًا فهْوَ يحْلُفُهَا ... قالَتْ وَلوْ دامَ بَدْرًا رُبَّمَا ضاهَاهَا

فَقلتُ وَالرَّوْضُ ما تَخفَى نَضارَتُهُ ... قالَتْ علَى أنَّهَا تَشْرِينُ يَنْعَاهَا

فقُلْتُ والظَّبْيُ لاَ تُنْسَى مَحاسِنُهُ ... قالتْ حَكَيتَ ولَكِن مَن حَكَى تَاهَا

فقُلْتُ إيَّاكِ أعنِي لاَ سِوَاكِ بِمَا ... [قَدْ قُلْتُ] قالتْ لَقَدْ أُنسِيتَ أسْمَاهَا :

أبَا الحسَيْن بنَ فُرْكُونٍ، فَقُلْتُ لَهَا ... جَوْفُ الفَرَا جَعَلَتْهُ الصَّيْدُ مَأْواهَا[275م] -184

فَتًى أجازَ لَهُ التَّقْديمَ وَالِدُهُ ... إنَّ الأسُودَ تَرَى الأشْبَالَ أشْبَاهَا

شارَكْتُ بالعَيْنِ غيْرِي في مَحاسِنِهِ ... واخْتَصَّ قَلْبِي بأرْقَاهَا وأبْقَاهَا

تَبْلَى اللَّيالِي ومَا قَدْ حاكَ مِنْ حُلَلٍ ... مَا حاكَ في الصَّدْرِ أنَّ الدَّهْرَ أبلاهَا

أبْكَارُ أفْكَارِهِ في حَلْيِ راحَتِهِ ... عرائسٌ وَكَراسِي الطِّرْسِ مَجْلاَهَا

المِسْكُ في طَيِّ كافُورٍ بَطَائِقُهُ ... فَيُسْتَدَلُّ عَلَيْهَا قَبْلَ مَرْآهَا

سَفائِنٌ في بُحُورِ العِلْمِ جَارِيَةٌ ... باسْمِ المُهَيْمِنِ مُجْرَاهَا ومُرْساهَا

«تِلْكَ المَكارِمُ لا قَعْبَانِ مِن لَبَنٍ» ... بهَا يُباهِي عُقُودَ الدُّرِّ مَنْ بَاهَى[276]

لَوْ كانَ إكْلِيلُهَا إحْدَى المَنازِلِ لَمْ ... يكنْ عَلَى البُعْدِ مِن مَرْقَى ثُرَيَّاهَا[276م]

(275م) إشارة إلى المثل : كل الصيد في جوف الفرا.

(276) الشطر الأول مضمّن، وتمامه :

تِلْكَ المَكارِمُ لا قَعْبَانِ مِنْ لَبَنٍ ... شِيبَا بماءٍ فَعَادا بَعْدُ أبْوالا

(276م) الإكليل مرلة من منازل القمر وكذلك الثريا.

وَقائِلٍ قالَ لِي كَيفَ اهْتَدَيْتَ لَهَا ... أظُنُّ مُنْجِبَهَا إيَّاكَ أهْدَاهَا

فَقُلْتُ مَا الشرْطُ أنْ يَحْظَى بمُتَّصِفٍ ... مَنْ عَرَّفَتْهُ صِفاتُ الحُسْنِ أحْظاهَا

وَرُبَّ عَبْدٍ يُرَجِّي أنْ يُكاتِبَهُ ... مَوْلاَهُ نَالَ مِن الآمَالِ أرْجَاهَا

أبَا الحُسَيْنِ وَقَدْ نَادَيْتُ مِنْ كَثَبٍ ... لأنَّ ذَاتَكَ رَبْعُ القَلْبِ مَثْواهَا

أبَا الحُسَيْن ومَالِي فِي المَدِيحِ يَدٌ ... لأنَّ عُلْيَاكَ أعْيَتْنِي قُصَارَاهَا

مَا كفُّ عَامِلةٍ فِي الطِّرسِ عَامِلَةً ... مَا تَرْتَضِيهِ قُرَيْشٌ حَلْيَ مَوْلاَهَا

وإنَّمَا هِيَ بالذِّكْرَى مُفَاتَحَةٌ ... مَوَدَّةٌ لَكَ أولاَهَا وَأُخْرَاهَا

وخِطْبَةٌ بِنتَ فِكْرٍ لَوْ طَلَبْتَ لَهَا ... كُفْؤًا لأعْيَاكَ مَوْجودًا وأعْيَاهَا

فَلَنْ تُجِيبَ إلَى وَصْلٍ مُنَادِيَهَا ... مِنْ حَيْثُ تَهْوَاهُ بَل مِن حَيثُ يَهْواهَا

يَفْنَى الزَّمانُ وَلِي نَفْسٌ مُحَلَّأةٌ ... عَنِ المَوارِدِ أصْفَاهَا وأحْلاَهَا

نَضْحًا إذا لَمْ يَكُنْ غَمْرٌ وَلاَ ثَمَدٌ ... تَحْيَى الزرُوعُ إذَا مَا الطَّلُّ عَذَّاهَا

أبَا الحُسَيْن أبُوكَ النَّدْب جَرَّأنِي ... عَلَى العُلَى نَأيادٍ منهُ أوْلاَهَا[277]

لَوْلاَهُ لَمْ أدْرِ مَا مِقْدارُ قَافِيَةٍ ... لَمْ تُحْقِرِ الدُّرَّ واليَاقُوتَ لَوْلاَهَا

لَكِنْ هَدَتْنِي هَدَاياهُ إلَى نَظَرٍ ... مُمَيِّزٍ بَيْنَ دُنْيَاهَا وَقُصْوَاهَا

وَمَا بِقَاعُ المَهَا إلاَّ رِقَاعُكُمُ ... لَوْ قَدْ تَقَضَّتْ لُبَانَاتِي بِلُبْنَاهَا -185-

أمسَيْتُ قَيسًا وَطَاوَلْتُ الدُّجى سَهَرًا ... فَهَلْ يُرَى مُصْبِحًا لَيْلِي بِلَيْلاَهَا

قَد تكُونُ أبْقَى الله سَيدي لِبَعْضِ الحَوادِث أسْبَابْ • والمَنازِلُ مِن مُقْتَضَيَاتِهَا الأبْوابْ • واني لَمْ أزَلْ مِن يوْم فَصلْتُ عَن الحَضْرَهْ • مطَالعًا بالخَيَالِ مِن ذلِكَ الجَلاَلِ الحَسَنِ الخِلاَلِ روْضًا ذَا نَضْرَهْ • والعَيْنُ تشْتَاقُ للحَقيقَهْ • وقاضِي الكَلَفِ بذلك الخَلَفِ الطاهِرِ السَّلَفِ قد سجَّلَ ثُبُوث الوَثيقَهْ • وَالقَلبُ رهْنُ الوِدادْ • وبعْدُ الشُّقَّةِ لَمْ

(277) والد شاعرنا أبي الحسين هو أحمد بن فركون الشاعر الكاتب القاضي المعروف، ويفهم من كلام هذا الأديب أنه تخرج في الأدب بوالد أبي الحسين.

يُبْقِ حِيلةً إلاَّ حيلَةَ القَلمِ والمِدَادْ • لِكنّي كلمَا أردت الطوافَ مَنَعَتْنِي هيبَة الحَرَمْ • فإن أعرضْتُ تعرَّضَ لي منشِدُ« بأبِهِ اقتَدَى عَدِيٌّ في الكَرَمْ» • وانْ جَيَّشَ اليَاسُ قابَلتُهُ مِن كَتائِب مَكْتُوبَاتِ أبيكَ بالخمِيسِ الهَازِمْ • وأقمْتُ علَى بُطْلانِ حُجّةِ القُنُوطِ البُرْهَانَ اللاَّزِمْ • وَانْ أطلَّ الطّمَع من ثَنِيّة الهَلَعِ قال الرَّأيُ الحازِمْ • أوَ كنتَ مِثْلَ حَازِمْ • فَلَوْ رَأيتَنِي وأنا بَيْنَ صَفَّيْ هَاذَيْنِ الوَصْفَيْن المتضادَيْن واقِف • وَكأنّي لدَى سَمُرَاتِ الحَيِّ ناقِفْ • لبَادَرْتَ لِنُصْرَتِي بدَارَ المنجِدِ المثاقِفْ • ورُبَّمَا نَابَ الأثَرُ عَنِ العيان في المعْرفَةْ • ومِن ثَمَّ جازَ البَيْعُ عَلَى الصِّفَةْ • وقَدْ تبيَّنَ فيمَا سَبَقْ • سَبَب الطمَعِ في شِرَائِيَ التَّمْرِ بالنَّبَقْ • فإن رأى سَيِّدِي ان يشْرعَ لِحَاسِدِي مِن تَنفُّقِ كَلامِهِ نَصْلاً • وَيصل على البِعَادِ حَبْلَ الوَارِدِ وَصْلا • ويتَّبعَ في المُراجَعَةِ سَلَفًا كَرِيمًا وأصْلاً • وياخُذَ بضَبْعِ هَذا الوَارِدِ البَاقِلِي فَيَرْفَعَهُ إلَى ثُرَيَّا القَبُولِ مِنَ الثَّرى • ويَقْرِيَهُ بمَا تيسَّرَ مَن الْجَوابِ «فَما الخِصْبُ للأضيَافِ انْ يَكْثَرَ القِرَى» • [فَعَلَ]إن شَاء الله. والسلاَمُ على الأصْلِ والفرع • سلاَمَ الوُجُوب والطبْعِ • مِن فلاَنٍ.

عُـنْـوَانُـــهَا

إلَـــى عِمَـــادِ الأدَبِ الأوْفَـــرِ أبِـي الحسيْن بْـنِ أبِـي جَعْفَـرِ
بِبَـيْتِ كتَّـاب الرَّئِـيسِ الـــذِي مَحَلُّهُ [أسْمَى مِـ] نَ الجَعْفَـرِي
بـحِضْرَةِ ابْـنِ الأحْمَـر المقـتَصِي بِعِـــزِّهِ ذُلَّ بنِـــي الأصْفَـــرِ -186
لاَزالَ وَالأمْـــــداحُ تنْتابُـــــهُ مُنْتَشِقًـا مـــن مسْكِهَـا الأذْفَـرِ
ومُسْتمِـــدًّا عِلْمَـــهُ مِـــن أبٍ لـمْ يُغْمَطِ الفَضل ولـمْ يُكْفَـرِ

فأجْبْتُهُ بِقصيدةٍ يتْلُوها شَيءٌ مِنَ النَّثرِ
لمْ يَقَعْ لِليَدِ الآنَ وَفي آخر شعبَان أحَد عشر وثمَانمِائهْ

جَادَ الغَمَـامُ رُبَـى نَجْـدٍ وحيَّاهَـا فَالـرَّكْبُ لاَ يَهْتَـدِي إلاَّ بِرَيَّاهَـا

مَا ضَلَّ حَادِيهِمُ إلاَّ هَدَتْهُ لَهَا ... نَواسِمٌ عَطَّرَ الأَرْجَاءَ مَسْرَاهَا

هَبَّتْ صبَاهَا بلقْيَاهَا مُبَشِّرَةً ... فكُلُّ قَلْبٍ صَبَا وَجْدًا لِذِكْرَاهَا

ذِكْرَى لَهَا انْعَطَفُوا فوْقَ الرِّحَالِ فَمَا ... مَالَتْ بأَعْطافِهِمْ إلاَّ مُحَيَّاهَا

لِلهِ أَفْئِدَة فِي القُرْبِ رَاحَتُهَا ... لِلوَجْدِ طَاعَتُهَا بالبُعْدِ شَكْواهَا

وَرُبَّ سَاجِرَةِ الأَلْحَاظِ فَاتِنَةٍ ... ما كُنتُ أَعْرِفُ مَعْنَى الحُبّ لَوْلاَهَا

لمَّا انْثَنَتْ وَثَنَتْ عَنَّا مَحَاسِنَهَا ... ما كَانَ أَعْدَلَهَا قَدًّا وَأَعْدَاهَا

مَنْ هامَ فيهَا بعَيْنِ الفِكْرِ أَبْصَرَهَا ... وَفِي الكَرَى زَارَهَا والوَهْم ناجَاهَا

هَدِي مَعاهِدُ مَنْ هَامَ الفؤادُ بِهَا ... لِلهِ فيهَا عُهُودٌ قَدْ أَلِفْنَاهَا

انَّا لنُلْقِي حَدِيثًا مِنَ صَبَابَتِنَا ... فيَا نَسِيمَ الصَّبَا بلِّغْهُ إيَّاهَا

وَلاَ تُجِبْ بكَلاَمٍ فالنَّواسِمُ مَا ... هَبَّتْ عَلى رَبْعِهَا إلاَّ عَرَفْنَاهَا

مَا راقَ إلاَّ بِمَرْءاهَا [الصَّبَاحُ] وَلاَ ... رَقَّتْ نَواسِمُهُ إلاَّ بَرَياهَا

لِلزَّهْرِ بَهْجَتُهَا للزَّهْرِ نفْحَتُهَا ... لِلبَدْرِ طَلْعَتُهَا لِلسِّحْرِ مَرْآهَا

لِلدُّرِّ أَلْفَاظُهَا للبَرْقِ مَبْسِمُهَا ... لِلْغُصْنِ مَعْطِفُهَا لِلظَّبْيِ عَيْنَاهَا

لمْ يُرْقبِ البَدْرُ إلاَّ مِن مَطالِعِهَا ... لَمْ يُعْرَفِ الفَجْرُ إلاَّ مِن مُحَيَّاهَا

فَلَيْتَهَا حِينَ تُبْدِي صُبْحَ غُرَّتِهَا ... تَهْدِي فَتَاهَا فَفِي لَيْلِ الهَوَى تَاهَا

وعاذِلٍ رَاعَنِي أنْ بتُّ ذا قَلَقٍ ... أُسائِلُ الشُّهْبَ عَن لَيْلَى وَأَرْعاهَا -187-

فقال مالَكَ والشُّهْبَانُ تَرْقُبُهَا ... فقلتُ فِيهِنَّ مِنهَا خِلتُ أَسْبَاهَا

فقالَ قدْ أتلفَتْ مَنكَ الفؤادَ أَسًى ... فَقلتُ ان أَتْلَفَتْهُ فهْو مَثْوَاهَا

فقالَ مَالَكَ وَالأَطْلاَلَ تَنْشُدُهَا ... فقُلْتُ هِمتُ بِمغْنَاهَا لِمَعْنَاهَا

فَقالَ قَدْ هِمْتَ مِنْ بعْد السُّلُوّ بِهَا ... فقلت لَمْ تُثْنِنِي إلاَّ ثَنَايَاهَا

فقالَ هَلْ لَكَ فِي أَحْلَى سَنًى وَحُلاً ... فقلتُ دَعْ غَايَةً أَبْعَدتَ مَرْمَاهَا

فقالَ لِي غَادَةٌ تُنْسِيكَ بَهْجَتَهَا ... فَقلتُ مَهْلاً فإنّي لَسْتُ أنسَاهَا

فَقالَ غادِيَةٌ للْفِكْرِ قَدْ نَشَأَتْ ... فَقُلْتُ مَا أَحْوجَ الظَّامِي لِسُقْيَاهَا

فَقالَ اهْدَاكَهَا مَن عَزَّ مُشْبِهُهُ ... فقلْتُ لِلَّهِ هَادٍ مِنْهُ أَهْدَاهَا

فَقالَ مِنْ بَحْرِهِ أَلْقَى بهَا دُرَرًا ... فقلْتُ أَبْدَعَهَا نَظْمًا وَأَبْدَاهَا

فقال عهْدِي بالآدابِ قدْ تَلِفَتْ ... قُلْتُ ابْنُ حاتِمٍ الأَرْضَى تَلافَاهَا

فقالَ قدْ كانَتِ الآدابُ عاطِلَةً ... فقلْتُ هَذا الذِي بالسِّحْرِ حَلاَّهَا

كذاكَ جِنْحُ الدُّجَى كَمْ فيهِ مِن سُدَفٍ ... ومَا أَتَى ابْنُ جَلاَ إلاَّ وَجَلاَّهَا(٥)

هَذِي قَوافٍ عَلَى اسِّ النّسِيبِ إِلَى ... خِطاب عُلْياك قدْ شَيَّدْتُ مَبْنَاهَا

أَقُول يَاراكِبَ الوَجْناءِ أَيْنَ بِهَا ... تَخُبُّ تبغِي مِن آلامَالِ أقصَاهَا

إِنْ كُنتَ تَهْوَى مِنَ الآدابِ أَرْفَعَهَا ... قَدْرًا وأَحْفَلَهَا حالاً وأَحْفاهَا

يَمّمْ عَلى ظَمإٍ مَثْوَى ابْن حاتِمِهَا ... تَفُزْ بأَعْذَبِهَا وِرْدًا وَأَحْلاَهَا

مَن يعْشُ لِلزُّهْرِ مِنْهَا حِينَ يُطْلِعُهَا ... يجِدْ زُهَيْرَ قَوافيهَا وأَعْشَاهَا

واسْئَلْ عُلاَهَا تُنِلْ كَفَّيْكَ نائِلَهَا ... إِنَّ المكَارِمَ بَعْضٌ مَن سَجَايَاهَا

هَذِي القَوافِلُ تَاتِيهَا لِتَظْفَرَ مِنْ ... تِلْكَ القَوافِي بأَحْلاَهَا وأَجْلاَهَا

ركَابُهُمْ صَدَرتْ عَنْهَا وقدْ وَرَدَتْ ... مَوارِدًا مِنْ عَطَايَاهَا مَطايَاهَا

تُبْدِي الحَمَالَ وَتُولِينَا الجَميلَ فَمَا ... أَحقَّهَا بالعُلَى حَقًّا وأَوْلاَهَا

خُذْهَا أَنا قاسِمٍ حَسْناءَ لَيْسَ لَهَا ... كُفْؤٌ سِوَى مَن أَرَتْ كَفَّاهُ حُسْنَاهَا

تُبْدِي الجَوَابَ وقدْ كِدنَا نَذوبُ جَوًى ... لَوْلاَ مَوارِدُ آدابٍ وَرَدْنَاهَا 188-

ولْتَصْفَحَن كَرمًا فالعُذْرُ أَوْضَحُ مِنْ ... نَارِ القرَى يهْتدِي السَّارِي لِمَغْنَاهَا

إِنَّ المَحَامِدَ أَلْفاظٌ ومَا وَرَدتْ ... عَلى المَسامِعِ إلاَّ كُنْتَ مَعْنَاهَا

وإِنَّ أَمْداحَ مَولاَنَا وَخِدْمَتَهُ ... قد تشْغل الفِكْرَ إلاَّ إن تَعاطَاهَا

وكيفَ لاَ يتعاطَى كُلَّ آوِنَةٍ ... مَا يُكْسِبُ المُنْجِدَيْنِ المَالَ والجَاهَا

فَناصِرُ الدِّينِ تسْتَجْلَى مَناقِبُه ... وَلَيْسَ يُفْرَعُ في العَلْياءِ مَرْقاهَا

أَحْلَى مُلُوكِ الوَرَى هَدْيًا وأَكْثَرُهَا ... نَدًى وأَرْفَعُهَا قَدْرًا وأَعْلاَهَا

لِذاكَ قَصَّرتُ عَن ردّ الجوابِ عَلَى ... شِعْرٍ سَنَاهُ سَنَى الشِّعْرَى بِهِ باهَى

(٥) السُّدَف : الظُّلَم، واسُ حَلا : الصّاح.

للحُسْنِ منهُ ولِلإحْسَانِ كَمْ مِنَحِ ... مُسْتَحْسَنٍ قَصْدُهَا الأَرْضَى وَمَنْحَاهَا
لأزالَ نَاظِمُهُ حَتَّى يُبَلِّغَ مِن ... مَرَاتِبِ العِزِّ أسمَاهَا وأسْنَاهَا
ودامَ يَهدِي بمَا يُهْدِي الأَنَامَ فَفِي ... طُولِ البَقَاءِ لَهُ نَسْتَوْهِبُ اللَّهَ

وكَتَب إلَيَّ الفَقيهُ القاضِي أبُو الفَضْل
ابْنُ جَماعَةَ حفِظَهُ اللَّهُ أبْياتًا فيمَا يَظهَرُ مِنْهَا[278]

أبْعَدًا ومَا أزْمَعْتُ سَيْرًا ولاَ شَحْطَا ... ونَأْيًا ولَمْ يَنْأ المَزارُ ولاَ شَطَّا
وَصَوْبَ بَيانٍ وانثِيالَ بَلاَغَةٍ ... ورَوْضُ ودَادِي يَشْتَكِي المَحْلَ والقَحطَا
وَكَمْ رمْتُ بَثَّ الوُدِّ ثُمَّتَ عَاقَنِي ... قُصُورِي فَما أعْمَلْتُ في بَثِّهِ خَطَّا
ولمَّا تَنَاهَى الوُد بِي واسْتَفَزَّنِي ... وَأوْرَى رِنَادُ الشَّوْقِ في مُهْجَتِي سقْطَا[278م]
خَطَبْتُ بِهَذِي منكَ بِكْرًا فَرِيدَةً ... جَعَلْتُ لهَا حِفْظِي وتَكْرِمَتِي شَرْطَا
فَيَا حُسْنَهَا لَوْ آثرتْ بوِصالِهَا ... ونِلْتُ نَفِيسَ الدُّر مِن لَفْظِهَا لَقْطَا
فأنت الذي فُقتَ الأنَامَ بَراعَةً ... وأضْحَى إيَاسٌ عنْ ذَكائِكَ مُنْحَطًّا
فَنَظْمٌ تَوَدُّ الزُّهْرُ نَاصِعَ دُرِّهِ ... عَلَى نَحْرِهَا سِمْطًا وفي أُذْنِهَا قُرْطَا
ونَثْرٌ يَوَدُّ الزَّهْرُ رَوْنَقَ حُسْنِهِ ... إذَا لقِيت مِن وابِلٍ هَاطِلٍ قِسْطَا -189-
وخَطٌّ يُباهِي الرَّوْضَ غِبَّ حَيَائِهِ ... فإنْ خَطَّ فَالوَشْيَ اليَمَانِيَّ قدْ حَطَّا[279]

---

(278) ورد ذكر الفقيه القاضي أبي الفضل ابن جماعة في نيل الابتهاج وأزهار الرياض خلال ترجمة الفقيه الشران، وفي المصدرين المذكورين نقرأ الحكاية الآتية : «ذُكِرَ أنّه لَمَّا صُرِفَ الفقيه أبو الفضل ابن جماعة عن رياسة الكتابة بغرناطة إلى قضاء الجماعة بها، وولي مكانه صاحب الترجمة أبو عبد الله الشرّان، لقي بعض رؤساء الدولة ابن جماعة يومًا، فقال له : إن السر الذي عهدناه في الحضرة عاب عنها بعيبتك، فقال له : وكيف لا وقد تركتم الفضل المجموع وأحدثتم الشر المكرّر» نيل الابتهاج : 312 وأزهار الرياض : 134.

(278م) الود : كُتِب فوقها : الحب، وكأنّها اقتراح حتى لا تتكرّر كلمة الود.

(279) يشير إلى جمال خط أبي الحسين ابن فركون، ونتأكّد من هذا الوصف بمشاهدة مخطوط مطهر النور الناصر الذي كتبه كلّه بخطّه.

فأنتَ فَريدُ العصْرِ غيْرَ مُنَـازَعٍ ومُنْكِرُ ذَا عيْنَ الحقِيقَةِ قدْ غَطَّا

فكتبتُ عَلى ظَهْرِ بطاقتِهِ مُرتجلا في التاسِعَ عشرَ لِجُمدى الآخرة عام تسعَةٍ وثمَاني مائة

فتاةٌ بِرَبْعِي رَحْلُهَا سَحَرًا حُطَّا وللَّيْلِ فَوْدٌ بالصَّباحِ قدِ اشْمَطَّا
فَلَوْ جِئْتُهَا بالبَدْرِ تاجًا مُكَلَّلاً بِدُرِّ الدَّرَارِي أَوْ بِجَوْزائِهِ قُرْطَا
وأَهْدَيْتُهَا وُشْحًا منَ البَرْقِ مُذْهَبًا ونَظَّمْتُ مِن زُهْرِ النُّجومِ لَهَا سِمْطَا
لَمَا كنتُ قَدْ وفَّيتُ بَعْضَ حُقُوقِهَا ولاَ كانَ عَدْلاً مَا وَهَبْتُ وَلاَ قِسْطَا
وإنَّ أَبَاهَا في ذَوِي النَّظمِ أَوْحَدٌ فَلَوْ نُظِمُوا عِقْدًا لَكانَ لهُ وُسْطَى
ولَوْ أنصَفَ الدَّهْرُ الأَبِيُّ قِيادُهُ وَعَوَّضَتِ الأَيَّامُ مِن قَبضِهَا بَسْطَا
ورَامَتْ بالاسْتِحْقاقِ إعْلاءَ قَدْرِهِ لمَا كانَ عن أَعْلَى المراتِبِ مُنْحَطَّا
أَمَا هذِهِ أَبْكَارُ أفكَارِهِ التي تَجَلَّتْ فَلَمْ تَرْضَ النجُومَ لَهَا رَهْطَا
تَرامَتْ بدُرِّ اللَّفْظِ أَبْحُرُ فِكْرِهِ وحَلَّتْ لَدَيْهِ الطِّرْسَ تحسِبُهُ شَطَّا
فَدونَكَ زُهْرَ الأُفْقِ فَاسْتَجْلِ نُورَهَا وَدونَكَ زَهْرَ الرَّوْضِ فلتجنِهِ لَقْطَا
أَبَا الفَضْلِ لا تَسْتَبْطِ حَظًّا من العُلَى سَتَبْلُغُ مَا أَمَّلتَ مِنهُ وإن أَبْطَا
فَفي حُكْمِكَ الآدابُ مُلِّكْتَ رِقَّهَا وهَلْ مانِعٌ من ذاكَ واللّهُ قدْ أَعْطَى
ودونَكَهَا مِن خالص الوُدّ قَلبُهُ لميثَاقِهِ قدْ أَحْكَمَ العَقْدَ والرَّبْطَا

وكتبْتُ إليْهِ أَسْتَدْعِي مِنْهُ جَوابًا اخْتِبارًا لِقريحَتِهِ بتَاريخ السَّادِسِ والعِشْرينَ لجُمَدى الآخِرَة عام 809

190- جُفونٌ بهَا ما إنْ يُلِمُّ رُقادُهَا لَهَا أَمَلٌ في الطَّيْفِ لوْلاَ سُهَادُهَا

مَدامِعُهَا تُذْكِي جَوَى القلبِ كُلَّمَا تُعاهِدُهُ الذِّكْرى تَجُودُ عِهَادُهَا
وإنَّ التي قدْ هِمْتُ فيهَا صَبابةً جَديدٌ إذا يَبْلَى الزّمانُ وِدادُهَا
هِيَ الشَّمْسُ في أفْقِ الفُؤادِ طُلُوعُهَا هِيَ الظَّبْيُ مَا بَيْنَ الضُّلوعِ مرادُها
لقَدْ جُمِعَتْ فيهَا المحَاسِنُ كُلُّهَا فَصَحَّ بأشْتَاتِ الجمَالِ انفِرَادُهَا
لقدْ رقَّ جسْمِي مِن هَواهَا فَلَيْتَهَا يَرِقُّ لِحال المسْتَهَامِ فُؤادُهَا
رسائِلُ وجْدِي صَفْحَةُ الخَدِّ طِرْسُهَا ودَمْعِي كَما شَاءَ الغَرامُ مِدادُهَا
متَى بَعُدَتْ عنّي أثيرٌ مَحَلُّهَا لَدَيَّ وَفي قلْبِي وَثيرٌ مِهَادُهَا
فَيا أيُّهَا القَلبُ المقلَّبُ في الجَوَى بمَثْواكَ سُكنَاهَا فكيفَ بعَادُهَا
ويَا مَعْشَرَ العذَّالِ كُفُّوا فإنَّهَا نُفوسٌ تَساوَى غَيُّهَا وَرَشَادُهَا
دَعُوهَا تَهِمْ وجْدًا بِسَلْمَى فإنّهَا إذا خُيِّرتْ في الدَّهْرِ فهْيَ مُرادُها
تَميلُ بهَا الذّكْرَى إلَى زَمَنٍ مَضَى عَلَى اللهِ في الرُّجْعَى إليْهِ اعتِمَادُهَا
نَعَمْ دَوْلَةُ العُشَاقِ هاذِي وإنّنِي كمَا قدْ عَلِمْتُمُ رُكْنُهَا وَعِمَادُهَا
ألاَ بأبِي تِلكَ العُهُودُ التِي انقضَتْ أيُرْجَى وَقَدْ مرَّتْ إلَيْنَا مَعادُهَا
ولَكنَّهَا الأيّامُ تبْخَلُ بالمُنَى عَزِيزٌ عليْهَا أن يُنَالَ قِيادُهَا
فكَمْ لَيْلَةٍ بتْنَا بوَحْيِهِ نَديمِنَا وَشَمْسٍ حُميَّا الكاسِ يُجْلَى سَوادُهَا
ونحنُ عَلَى رَغْمِ الحَسُودِ نُدِيرُهَا مُسَعْشعةً في الكَاسِ يَبْدو اتِّقَادُهَا
وجالتْ جِيادٌ لِلكُؤوسِ سَوابِقٌ أقِيمَ بمَيْدَانِ السُّرورِ طِرادُهَا
فَفي أفُقِ الحَالاَتِ لاَحَتْ بدُورُهَا وفي طَلَقِ اللّذَّاتِ جالَتْ جِيادُهَا
فَيا ليتَهَا يَوْمًا تَجودُ بعَوْدَةٍ وَيُمْكِنُ مِن بَعدِ النّفَارِ انقِيَادُهَا
وَلوْلاَ ابنَةُ الفِكْرِ التي وَرَدَتْ ضُحَى عَلَيَّ وفي رَوْضِ البيَانِ ارْتِيادُهَا
لمَا رامَتِ السُّلْوَانَ نَفْسٌ مُتَيَّمٍ فَغَيْرُ التَّسَلِّي دِينُهَا واعْتِقادُهَا
ومنْ شأنِهَا بذْلُ المَوَدةِ دائِمًا ومَا الوُدُّ إلاَّ ذُخْرُهَا وعَتادُهَا -191-
أبَا الفَضْلِ بَادِرْ بالجَوابِ ضحَى غَدٍ فإنَّ بكَ الآدابَ وَارٍ زِنَادُهَا

وَوَجّهْ بهَا مِن حِدْر فِكْرِكَ غَادَةً تَـرُوقُ جَمَـالاً لاَيَـرامُ عِنَادُهَـا
فإنّ المعَانِي كُلَّمَا رُمْتَ نَظْمَهَـا لَيَسْبِقُ فِي شَاوِ المَعَالِي جوَادُهَـا
أرَاهِـرُ نَثْـرٍ أيْـنَ مِنهَـا زُهَيْرُهَـا جَواهِرُ نظمٍ أيْنَ مِنها زِيادُهَـا(279م)
فَمـا هـذِهِ إلاَّ سِهَـامُ بَلاَغَـةٍ إذا سُدِّدَت للرَّمْيِ بَـانَ سَدادُهَـا
ومَـا هـذِهِ إلاَّ غُصُونُ يَراعَـةٍ إذا ثُقِّفَتْ بالكَتْبِ خِيفَتْ صِعَادُهَا
ومَـا هَـذِهِ إلاَّ سُيُـوفُ بَراعَـةٍ بعَاتِقِ مَن يُهْدِي جَوابِي نِجادُهَـا

وَكَتَبَ إلَيَّ بعْدَ ذلِكَ مَعَ نَثْر في مَعْنًى أجَبْتُه عَلَيْهِ

يـا أوْحَـدًا فـاقَ الأنَـامَ ذَكَـاءَ وَعـلاَ السُّهَـا مِقـدَارُهُ وذُكَـاءَ
أحْيَـيْتَ لِـلآدابِ أيَّ مَعَاهِـدٍ فَغَدَتْ بكُمْ ما ان تَخَافُ عَفاءَ
أطْلَعْتَ مِن شُهُبِ النّظامِ زوَاهِرًا أضْحَتْ لَها وَرَقُ الطُّرُوسِ سَماءَ
للـهِ مِنْكَ بِطاقَـةٌ بـلْ رَوْضَةٌ غَيْنـاءُ تُـنْسِي الـرّوْضَةَ العَنَّـاءَ
كالـدُّر لَفْظًـا والمُدامَـةِ فَعْلَـةً والشّمْسِ تُشْرِقُ بهجَـةً وَضِيَـاءَ
حَرَّرْتُ حِينَ فَهِمْتُ فَحْوَى نَظْمِهَا ذَيْلِي بِهَـا مِـن حُسْنِهَا خُيَـلاَءَ
لِلـهِ مِـنْكَ جَلاَلَـةٌ قُرَشِيَّـةٌ أرْبَتْ عَلَى شُهُبِ السَّماءِ عَـلاءَ
نَسَبٌ شَرِيفٌ قَـد تَصَحَّـحَ مَتْنُـهُ فالفَجْـرُ مَـنشُورٌ عَلَيْـهِ لِـواءَ
أنَـا الحُسَيْـنِ انْعَـمْ بمَـا أُوتِيتَـهُ مِـن أنعُـم بَهَـرَت سَنًـا وسَنَـاء
وبَقِيت تصْعَدُ والزّمانُ مسَاعِـدٌ حتَّـى تسامي الطَّـرْفَ والجَـوْزَاءَ(٥)

فأجَبْتُهُ وفِي الثالِث لرجَب عَامِ تسعَة وثماني مائة

أهْـلاً بهَـا بكْـرًا أتَتْ عَـذْراءَ تَجْلُـو عَلَيْنَـا غُـرَّةً غَـرَّاءَ -192-

(٥) الطَّرْف : كوكبان بِقُدّامِ الجبهة، سُمّيا بذلك لأنّهما عينا الأسد، يزلهما القمر. (القاموس).
(279م) زياد هنا هو النابغة الذبياني.

أَلْفاظُهَا تُنسِي الجِيادَ تَسابُقًا لمَدَى الإجادَةِ والسُّيُوفَ مَضاءَ
أَبصَرْتُهَا سَحَرًا وكانتْ قَدْ أَتَتْ رَبْعِي كَمَا شَاءَ الوِدادُ مَساءَ
مَا كنتُ أَدْرِي أنَّ لَيْلاً مُطْلِعٌ من قَبْلِ انْ وَرَدَتْ عَلَيَّ ذُكَاءَ
لَكِنَّنِي ما نِلتُ مَنحَ وَصالِهَا حَتَّى بدَا نُورُ الضُّحَى وأضاءَ
وَافَتْ لِبَسْطِ العُذْرِ في النظمِ الذِي فَاقَتْ حُلاَهُ الغَادَةَ الحَسْنَاءَ
مَهْلاً أَبَا الفَضْلِ الدي في فَضلِهِ وَودَادِهِ تَرَكَ الأَنَامَ وَرَاءَ
مَا شِيمَتِي ذمُّ الصَّدِيقِ وإنَّمَا أَهْدِيهِ شُكْرًا دائِمًا وَثنَاءَ
وإذَا جفَاني مَن وَثِقتُ بِوُدِّهِ كان الجزاءُ السَّمْحَ والإغْضَاءَ
ما إنْ يُعَامِلَنِي بسُوءِ قَطِيعَةٍ إلاَّ بَذَلْتُ مَوَدَّةً ووَفَاءَ
هَذا فَكَيْفَ بمَن أنالَ ودَادَهُ مَحْضًا ومَدَّ خُلُوصَهُ أَفْيَاءَ
كَذَّبْتُ نَفْسِي إنْ أنا قَدْ سُمْتُهُ بَعْدَ الإطَالَةِ في الثَّناءِ هِجَاءَ
عَجَبًا يُقالُ أساءَ في مَنظُومِهِ خِلٌّ أَنَالَ خَلِيلَهُ مَا شَاءَ
مَن جاءَ يَنْسُبُ لِي كَلامَ إسَاءَةٍ فهُوَ الذِي قَدْ قالَهُ وَأَسَاءَ
نَظْمِي الذِي طَلَبَ الجوابَ ضحًى عَلى جِهَةِ التَّأَنُّسِ لاَ التَّعَنُّتِ جَاءَ
هَذا وَشِعْرُكَ مَا عَلِمْتُ حَدِيقَةٌ تُبْدِي مَحَاسِنُهَا سَنًا وَسَنَاءَ
تُنْسِي شَمائِلُهُ الشَّمَائِلَ كُلَّمَا وافَتْ تَعودُ الرَّوْضَةَ الغَنَّاءَ
هَيْهَاتَ لاَ تَخْفى مَعَانيهِ التي رَقَتْ وراقَتْ بَهْجَةً وَضِيَاءَ
لاَ تَحْفِلَنَّ بِمَن أَتَى مُتَعَرِّضًا لِلْقَولِ لاَ يَثْنِي العِنَانَ حَيَاءَ
فَلِذِكْرِ خَصْلِكَ لاَ أزالُ مُرَدِّدًا وبشُكْرِ فَضلِكَ أَعْمُرُ الأَنْدَاءَ
شَيَّدتُ مَبْنَى الوُدِّ في قَلْبِي فَلَنْ يَخْشَى عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ عَفَاءَ

وكَتَبْتُ لِلْفقيهِ أبي عَبْد اللّه بْن الأكْحَل وَقَدْ
وجَّهَ إلَيَّ بشَيءٍ منَ التِّينِ الدُّنَّقَالِ عَلَى سَبيلِ المُداعَبَة 193-
وكانَ في ذلِكَ العَهْدِ مَعَ كتَاب المَقامِ وفِي الثَّالِث
لِصَفَر عام تسْعَة وثمانِي مائة(280)

وصَلَتْنِـــــي تُحْفَـــــةٌ تُجْتَلَـــى فَـــوْقَ الطَّبَـــقْ
مِـــن بَنَـــاتِ الزِّنْـــجِ قَـــدْ نَظَّـــمَت عَلَـــى نَسَقْ
أجْـــلِسَتْ فِيـــهِ عَلَـــى فُـــرُشٍ مِـــنَ الْـــوَرَقْ
ظُلِّـــلتْ وُجوهُهَـــا بَرَيَاحِيـــنِ الحَبَـــقْ
أُلْـــبِسَتْ أجْسَامُهَـــا حُلَـــلاً مِـــن الـــغَسَقْ
بِرُقُـــومٍ قَـــدْ بَـــدَتْ فِي دُجَاهَـــا كَالشَّفَـــقْ
ذَاتَ لوْنَيْـــن كَمَـــا يُجْتَلَـــى حُسْنُ الحَـــدَقْ
بِمَحَـــاسِنٍ أتَتْ فِرَقًـــا بَعْـــدَ فَـــرَقْ
كُلَّمَـــا قَـــدْ رُمِـــقَتْ حسْنُهَـــا أحْيَـــا الرَّمَـــقْ
مِـــن صَدِيـــقٍ مَـــن يَقُـــلْ فِيـــهِ ذُو الـــفَضْلِ صَدَقْ
عَاجِـــزٌ عَـــن شُكْـــرِهِ كُـــلُّ ذِي لَفْـــظٍ نَطَـــقْ
لِنَـــدًى أوْ لِعُلًـــى أوْ لِجَمْـــعٍ مَـــا افْتَـــرَقْ
عَـــوِّدُوا مُهْدِيَهَـــا بالتِـــي تَتْلُـــو الفَلَـــقْ

(280) أبو عبد الله ابن الأكحل من بيت كان أهله يتولّون الخطط. انظر الاحاطة 3 : 204. أما الدنقال فهو كما يبدو من وصفه تينٌ أسود مخطّط، وقد ورد ذكره أيضا في الروض المتون لابن غازي.

فأجابَ بأبْياتٍ حَقُّهَا الإلْغاءُ

كَتَب إلَيَّ عنْدَ الوُقوفِ عَلَيْهَا الفَقيهُ الكاتِبُ أبُو القاسِم

ابْن أحمد بنْ أبي القَاسِمِ بْن قُطْبَةَ رحمَهُ الله

ما نَـصُّـهُ(281)

قَسَمًـــا يـــا سَيِّـــدِي بالدُّجَـــى ومَـــا وَسَقْ -194-

وبمَـــنْ سَوَّى الـــوَرَى كَيـــفَ شَاءَ مِـــنْ عَلـــقْ

وَبآيـــاتٍ أرَى فِي جميـــعِ مَـــا خَلَـــقْ

مَـــا سِواكَ شَاعِـــرٌ كُلَّمَـــا جَـــارَى سَبَـــقْ

جامِـــعٌ مِـــنَ العُلَـــى كُـــلَّ مَعْنًـــى افْتَـــرقْ

لاَ وَلاَ كَقِطْعَـــةٍ رَاقَ مَعْنَاهَـــا وَرقْ

وَفَـــدَتْ مِـــن عِنْدِكُـــمْ مِثْـــلَ عِلْـــقٍ اتَّسَقْ

تَصِفُ التِّيـــنَ وَقَـــدْ وَصَلَـــتْكَ فِي طَبَـــقْ

قَـــدْ حَـــكَتْ أَلْوَانُهَـــا قِطَعًـــا مِـــنَ الـــغَسَقْ

بِخُطـــوطٍ فَوْقَهَـــا كَبيـــاضٍ وَشَفَـــقْ

مِـــن خَلِيـــلٍ قَلْبُـــهُ لكَ بالـــوُدِّ صَدَقْ

مُغْـــرَمٍ بالجُـــودِ فِـــي مُغْتَـــدًى ومُغْتَبَـــقْ

انْ يكُـــنْ أهْـــدَاكَ مَـــا رانَـــهُ نـــورُ الحَبَـــقْ

فَلَقَـــدْ أهْدَيْتَـــهُ دُرَرًا عَلَـــى نَسَقْ

وَحُرُوفًـــا ابْهَـــجَتْ طَـــرْفَ كُـــلِّ مَـــن رَمَـــقْ

(281) أسماء قطبة متعدّدون، ترجم ابن الخطيب وغيره لبعضهم وكلهم كانوا من البارعين في الأدب، وقد نبغ أحدهم في الشعر وهو صغير، فدعاه ابن الخطيب : الصبي الشاعر، وألْحق بديوان الكتّاب من أجل ذلك.

الكتيبة الكامنة : 296 والاحاطة 2 : 250 والدرر الكامنة4 : 167 وثمر فرائد الحسان 318 وريحانة الكتاب. وراجع تراجم أعلام هذه الأسرة في المصادر المذكورة.

وفُـــــونَ الحسْنِ قَـــــدْ جُمِـــعتْ عَلَـــى فِـــرَقْ
يَالَهَـــا مِـــن قَطعَـــةٍ سَحَـــرَت والسِّحْـــرُ حَـــقْ
دُمْتُمَـــا فِـــي عِـــزَّةٍ كُلَّمَـــا بَـــرْقٌ خَفَـــقْ
وَالدَّياجِـــــي عَسْعَسَتْ وَبَـــدَا ضَوْءُ الفَلَـــقْ
وانثَنَـــى غُصْنُ النَّقَـــا بَيْـــنَ حُلَّـــةِ الـــوَرَقْ

فَراجَعْتُهُ لِلْحِينِ بِمَا نَصُّهُ وَبتَارِيخِ العَاشِرِ لِرَبِيعِ الآخِر عَام ثَمَانِيةٍ وَثَمَانِمَائة

195- طَيْفُهَـــا حِيـــنَ طَـــرَقْ عَاقَنِـــي عنـــهُ الأَرَقْ
بتُّ مِـــن شَوْقِـــي لَهَـــا بَيْـــنَ سُهْـــدٍ وَقَلَـــقْ
وغـــرَامٍ وَضَنًـــى ولهيبٍ وَحُـــرَقْ
وَحَديقَـــةٍ بِهَـــا مُتِّـــعَتْ مِنَّـــا الحَـــدَقْ
بـــنتُ فِكْـــرٍ جُلِـــيَتْ مِثلمَـــا يُجْلَـــى الفَـــرَقْ
سَكَّـــنتُ قلبًـــا لَهَـــا طَـــارَ وَجْـــدًا وخَفَـــقْ
نَقَـــعَتْ مَـــا كانَ فِـــي لأَعِـــجِ الشَّوْقِ احْتَـــرَقْ
أَجْمَـــعَ الحسْنُ عَلَـــى أَنْ حَوتْـــهُ وَاتَّفَـــقْ
فَضَحَتْ نَـــوْرَ الرُّبَـــى أَخْجَـــلَتْ نُـــورَ الشَّفَـــقْ
فاحْمِـــرَارُهُ حَيَّـــا واصْفِـــرارُهُ حَنَـــقْ
دُرُّهَـــا نُضِّدَ مِـــنْ طِرْسِهَـــا فَـــوْقَ السَّرَقْ
لَفْظُهَـــا وُرْقٌ شَدَتْ بَيْـــنَ هَاتِـــيكَ الـــوَرَقْ
بكَ يـــا ابْـــنَ قُطْبَـــةٍ لُؤْلُـــؤُ الـــفَضْلِ اتَّسَقْ
أَيُّ فَـــرْعٍ مِـــنكَ فِي دَوْحَـــةِ المَجْـــدِ بَسَقْ
فَـــلِسَانِي لَـــمْ يَـــزَلْ شَاكِـــرًا مَتَـــى نَطَـــقْ

بَحْـــرُ نَظْـــمٍ لِـــعَصًى مِـــن يَـــرَاعِكَ انفَلَـــقْ
جِبْرُهَـــا يَـــرُوعُ مَـــا فِي السِّبَـــاقِ مِـــن زَرَقْ
وَرَئِيسُنَـــا بِـــهِ سُوقُ نَظْمِنَـــا نَفَـــقْ
جَـــدْوَلُ النِّظَـــامِ مِـــنْ بَحْـــرِ عِلمِـــهِ دَفَـــقْ
هَدْيُـــهُ أَجْلَـــى إِذَا لاَحَ مِـــن نُـــور الفَلَـــقْ
وَسَحَـــابُ رِفْـــدِهِ لِلعُفَـــاةِ قَـــدْ بَـــرَقْ
دُمْتَ بَـــدرًا يُهْتَـــدَى بِسَنَـــاهُ فِي الـــعَسَقْ

وقلْتُ مُخاطِبًا مَن حَضَرتُ لَيْلَةً في إعْراسِهِ وَطَلَبَ منّي الحاضِرونَ وَصْفَهَا

-196-

يَا وَحِيدَ النَدَى وقُـطْبَ المَعَالِـي زَاحَـمَ الشُّهْبَ مُرتَقَـاكَ العَالِـي
لُـحْتَ كالشمْسِ بَهْجَـةً وَعَـلاَءً فاقِـترابُ السَّنَـى وبُعْـدُ المَنَـالِ
والذِي حُزْتَ يقْصُرُ الوَصْفُ عَنْهُ مِن جَميلِ الخِلاَ وَغُرِّ الخِـلاَلِ
سَيِّـمٌ تَـقْصُر الأَمَاجِـدُ عَنْهَـا بِحُلاَهَـا جِيـدُ المَكَـارِمِ حَـالِ
وَأوانُ الإمـــلاَكِ أَسْعَـــدُ آتٍ بِوُجـــوهِ القَبُـــولِ وَالإِقبَـــالِ
قَـدْ نَعِمْنَـا فِيـهِ بَلَيْلَـةِ أُنْسٍ عَرَّفتنـــا عَـــوَارِفَ الإِفْضَالِ
لَسْتُ أَنْسَى الإِحْسَانَ والحسْنَ مِنْهَا شَفَعَتْ لِـي الجَمَـالَ بالإِجْمَـالِ
وأفـادَتْ سَمْعِـي وكَفِّـي غِنَـاءَ وغِنًـى رَاقَنِـي ونَعّـمَ بَـالِ
صَوْتَ شَادٍ عَلى تَرَنُّـمِ عُـودٍ يَـهَبُ السُّولَ مِنـهُ قَبْـلَ السُّؤَالِ
عُـودُهُ ناطِـقٌ بِغَيْـرِ لِسَانٍ بِخَفِّـي الضَّمِيـرِ دونَ مَقَـالِ
نَغَمـاتٌ عَـنِ المَرينـيِّ تُـرْوَى وهْـيَ بالمَوْصِلِـيِّ ذاتُ اتّصالِ[282]

(282) المريني نسبة إلى بني مرين، ويبدو أنه كان من أعلام الموسيقى في الأندلس والمغرب، والموصلي هو إسحاق المعروف.

ولَكَـمْ رَاقِصٍ يَـرُوقُ انعَطافًـا كَـقَضِيبٍ في دَوحِـهِ مَيَّـالِ
طَرَبًـا مَـالَ عطْفُـهُ وتَثَنَّـى كالرُّبَى في يَدِ الصَّبَا والشَّمَـالِ
وأَثَـارَتْ لِلشَّمْـعِ فيهَـا نُحـومٌ تُجْتَلَى عِندَ نَقْصِهَا في اكْتِمَـالِ
كُلُّ قَـلْبٍ مِنَّا بهَا في اشْتِغَـالٍ كُلُّ جِسْمٍ مِهَا رَهِينُ اشتِعَـالِ
وكَـأَنَّ الـدي تسَاقَـطَ مِهَـا زَهَرُ الرَوْضِ بَيْنَ فَيْءِ الظِّـلاَلِ
لاَ تُوَفِّـي بَـعْضَ الـدِي رُمْتُ مِن وَصْـفِ حُلاَهَا رَوِيَّتِي وَارْتِجَالِي
فاقبَـلِ العُـذْرَ انَنِـي مُسْتَقِـلٌّ هِبَـةَ النَّـفْسِ عِنْدَهَـا والْمَـالِ
سَيمَةُ الفَضلِ لمْ تَزَلْ مِكَ تُرْحَى ولَـدَيْكَ القَبُـولُ رَحْبُ المَجَـالِ
قـدْ أَنَلْتَ الجميعَ كُـلَّ جَميـلٍ بِـلتَ مَـا تَبتَغِـي مِـنَ الآمَـالِ

197- وكانتْ بَيْنِي وبَيْنَ الفَقيهِ أبي زكرِيَا يَحيَى بْن السرّاج

مِن أَهْلِ رُنْدَةَ مُكَاتَبَاتٌ أَيَّامُ القِراءَةِ إِلَى أن زَلَّتْ بِهِ قَدَمُه، وَخانَتْهُ هِمَمُه، ونَزَعَ أَيَّامَ فتنَةِ الرَّئيسِ البائِسِ الواصِلِ إلى جبَلِ الفتْح إِلَيْهِ، ثمّ اسْتَقَرّ أخيرًا بفَاسٍ وَبهَا وافَتْهُ مَنِيَّتُهُ، أَعَاذَنَا اللهُ مِنْ سُوءِ العَاقِبَةِ، فمِن ذلِكَ مَا خَاطَبْتُهُ بِهِ في آخر ذِي الحجَّةِ من عَامِ ثَمانِيةٍ، وهِيَ وكَثِير مِمَّا تقدَّم وَما يَاتِي إِنْ شاءَ اللهُ مِنَ العَاطِلِ، والتَّوارِيخُ دَالَّةٌ عَلَى السّن في أَوْقاتِ نَظْمِهَا فالعُذرُ ظَاهِرٌ في الانحِطَاطِ عنِ الجَزالَةِ(283)

أَلاَ حَدّثَانِـي بِاللّقَـا يَـا خَلِيلَيَّـا وَلاَ تُوسِعَا وَعْدِي مِطَالاً .وَلاَ لَيَّا
أَلَمْ تَعْلَمَا أَنّي عَلَى القُرْبِ والنَّوَى أُحافِظُ داكَ العَهْدَ رَعْيًا لهُ رَعْيَا
وأَنّي لاَ أَسْلُو وَإِنْ بَعُدَ المَـدَى وإِنْ أَكثَرَ الوَاشُونَ لاَ أَقْبَلُ الوَشْيَا
لَئِـنْ أَرْشَدَ اللَّوَّامُ قَلبِي لِسَلـوَةٍ فَهَيْهَـاتَ إِنَّ الرشْدَ أَحْسِبُـهُ غَيَّـا
وأَنَّـى لِقَلبِـي بالتَّقَـلّبِ عَنْهُـمُ كَمَا زَعَمَ العُذّالُ وَهْيًا لهُمْ وَهْيَا

(283) راجع ما كتبناه في المقدمة حول يحيى السراج هذا.

هُمُ نَصْبُ عَيْنِي كُلَّمَا بَخِلَ الحيَا تُحَيِيهِمُ بالغَيْثِ أدْمُعُ عَيْنَيَّا
وَللهِ منهُمْ نَسْمَةٌ حَاجِرِيَّةٌ لَهَا ارَجٌ مِن نحْوِهِمْ عَاطِرُ الرَّيَّا
ولمْ أنْسَ لمَّا اسْتَشْرَفَتْ ظَبَيَاتُهَا وَقَدْ عُدتُ بِسْيًا فِي المَعَاهِدِ مَنسِيًّا
وَكَم مِن فُتُونٍ فِي فُتُورِ حُفُونِهَا ومِن أسْهُمٍ مَهْمَا رَمَتْ تُحسِنُ الرَّمْيَا
وَتُبْدِعُ إذْ تُبْدِي حَمَالَ صِفَاتِهَا فَتَسْبِي قُلُوبَ العَاشِقِينَ بها سَبْيَا
بِغُرٍّ ثَنَايَا قَدْ ثَنَتْنِي لِحُبِّهَا فأعْطَيْتُ قَلبِي دُونَ شَرْطٍ وَلا ثُنْيَا
حَمِدتُ لِدَهْرِي مَوْقِفًا حالت الصَّبَا بأرْحَائِهِ سَقْيًا لأيَّامِهَا سَقْيَا
جَرَتْ نُشُرًا ما بَيْنَا وتسَحَّبَتْ بُرودَ بطَاحٍ تُبْدِعُ السَّتْرَ والطَّيَّا
ولكِنْ أنَا الظَّمْآنُ حينَ تَقَلَّصَتْ ظِلالٌ رَشَفْنَا وِرْدَهَا شَفَةً لَمْيَا -198-
حمَى الصَّبْرُ منّي جانِبًا مُتَمَنِّعًا غَزَتْهُ الظُّبَا لمَّا رأى ذلكَ الظَّبْيَا
أبَادَ دُمُوعِي يَوْمَ أبْدَى صَبَابَتِي فَبحْتُ بِسِرٍّ لم يزَل مَيِّتَ الأحْيَا
وَرُمْتُ اكتِتامَ الحُب بعْدَ بِعَادِهَا ومن يُرمِ الغَايَاتِ لاَشَكَّ أدْ[يَعْيَا]
وأحْيَيْتُ لَيْلِي حينَ حَيَّا نَسيمُهَا وَعَزَّ مَرامُ النَّوْمِ في ذلِكَ [ ]
فَمن لِعَلِيلٍ لَمْ يَزل مُتَعَلِّلاً بِعَرْف سَسِيمٍ مِن حِمَاهَا إذا [ ]
وقفتُ بمَغنَاهَا وَفَيْضُ مَدامِعِي كمِثلِ الحَيَا اسْقِي بهَا دِلِكَ الحيَّا
وَحَلَّيتُهُ نَظْمًا منَ الشِّعْرِ رَائقًا وَمِن أدْمُعِي نَثْرًا فأحْسِنْ بِهِ حَلْيَا
فَمَنْ لِي وجَمْرُ الشَّوْق بَيْن جَوانِحِي ومَاءُ المَآقِي قَدْ طَما بَيْنَ جفْنَيَّا
إذَا حَنَّ لَيْلِي جُنَّ قَلْبِي وأنثَنِي أقَلِّبُ قَلبًا خافِقًا بَيْنَ جَنْبَيَّا
لأنّ لِيَ القلْبَ المُقَلَّبَ بالأسَى سَيَحيَا بمَا يُهْدِيهِ مِن فِكرِهِ يَحْيَى
حَبِيبٌ حَبَانِي بالرسَائِلِ دَوْحَةً تَفَيَّأتُ ظلَّ الأُنسِ في رَوْضِهَا فَيَّا
فأنَسَ حتَّى لمْ يَدَعْ لِيَ وَحْشَةً وأوْرَدَ حَتَّى لمْ يدَعْ كَبِدًا ظَمْيَا
وممَّا أجدَّ الوَجْدَ حُسْنُ عَقيلَةٍ كَعَذْراءَ جاءتْ وهْيَ تَمْشِي عَلى استِحْيَا
فمِن نُورِ مرْآهَا سَنَا «سُرَّ مَن رأى» ومِن وشيِهَا صَنْعَاءُ إن أحْسَنَتْ وَشْيَا

فأحْيَا فُؤادِي حُسْنُ مُخْجِلَةِ الضُّحَى ... فَقَلبِي قدِ اسْتَحْيَا وَصُبْحِي قد اسْتَحْيَى
حَلوْتُ بهَا وَجْهَ العَقيلَة وصْفُهَـا ... يُقَصِّرُ عن إدْرَاكِهِ كُلُّ مَنْ أعْيَـا
فأيْنَ نُجُومُ الأُفْقِ من ذِلكَ السَّنَا ... إذا احْتَلَتِ الأبصَارُ رُتْبَتَهَا العُلْيَـا
فَيالَيْتَ هذَا القَلْبَ تُوسَى كُلُومُهُ ... بزَوْرَةِ خِلٍّ أحرَزَ المجْدَ أوْ سيَّا
وَحُبُّ أبيهِ المَاجِد العَلَمِ الرِّضَى ... يَدينُ بِهِ مَنْ يقصِدُ الدِّينَ والدّنْيَا
فمَـن سَاءَهُ لِلعِلْـمِ أَلْفَـى إمَامَـهُ ... يُجَلّى لهُ في كُلِّ مُشْكِلَةٍ هدْيَـا
وَمَـنْ حَـلَّ مَثْـواهُ يجْـدهُ مَثَابَـةً ... بهَا يَرِدُ العَافُونَ مُسْتَعْذَبَ السُّقْيَـا
وأمَّا إذَا أَلْقَـى مِـنَ الذِّكْـرِ آيَـةً ... فَدُونَكَ مَا تَبغِيهِ من غَايَةٍ قُصْيَـا
فَلِلَّهِ دُرُّ اللَّفْـظِ إن نَصَّ خُطْبَـةً ... وَلِلَّهِ بَحْرُ الحِفْظِ ان فَسَّرَ الوَحْيَا -199
تَـراهُ مَـعَ الأحيَـانِ شَمْسَ هِدايَـةٍ ... وشَمْسُ الضّحى لِلمُجْتَلِي أبْدَعُ الأشيَا
ألاَ يا أخِي مَن لِي بسكْرِ هَدِيَّةٍ ... نَعَتْتَ بهَا لاَزِلْتَ بالتُّكْرِ مَجْزِيَّا
وحَقِّكَ ما ألبَسْتُ لِلفخْرِ قَبْلَهَـا ... كَمَلْبِسِهَـا الضَّافِي شِعَـارًا وَلاَزِيَّـا
سَجِيَّةُ مَن يُسمَى لأكْرَمِ مَـعْشَرٍ ... وَشيمَةُ مَن يُلْفَى رَضِيًّا ومَرْضِيَّـا
لكَ اليَدُ خَطَّتْ في المَهَارِقِ حِكمةً ... وحُكْمًا فَمامُورًا غَـدَوتُ وَمنْهَيَّـا
أقُـومُ لدَيْهَـا مُطْنِبًـا في ثَنَائِهَـا ... مَدَى الدّهْرِ لاَ أُلْفَى عَن الشكْرِ مَثْنِيًّا
وأجْعَـلُ مَثْـوَى رُنْـدَةٍ مُتَوَحَّهَـا ... إذا شِئْتُ أمْرًا(283*) من مَرامِيَ مَقضِيًّا
وأخـطُبُ لـلآدابِ غُـرَّ عقَائِـلٍ ... تَفُـوقُ حُلاَهَـا بُحْتُرِيًّـا وَطَائِيَّـا
فَتَرْتَاحُ مِنّي الرُّوحُ حَتَّـى كأنَّنِـي ... أطيـرُ لمَغْنَاهَـا بمِـلءِ جَنَاحَيَّـا
حَنينًا لِمَنْ أهْدَى الأمَانِيَّ كُلّهَـا ... فَمَا بَقِيَتْ أُمْنِيَّةٌ لِي سِوَى اللُّقْيَا

(283*) أمرًا : كُتِبَ فوقها : حَتْمًا، أي أنها رواية، وتخيير، ودلك أنّه يقال : أمر مقضي وحتم مقصي، والاثنان في القرآن الكريم.

وَهَنَّأتُ بَعْضَ الأوِدَّاءِ بِبِنْتٍ وُلِدَتْ لَهُ

هَنيئًا بهَا طَوْعَ السَّعادَةِ وافِدَهْ ... تُريكَ مِنَ الصُّنْعِ الجَميلِ عَوائِدَهْ
أمَا حَقُّهَا واللهُ يكْلأُ مَحْدَهَا ... بأن تُصْبِحَ الآمالُ طُرًّا مُسَاعِدَهْ
وأن تَغْتَدِي الشَّمْسُ التِي عَمَّ نُورُهَا ... تُقِرُّ بأوْصَافٍ لَهَا غَيْرِ واحِدَهْ
فَمِن رفْعَةٍ فَوْقَ الثرَيَّا مَكانُهَا ... ومِنْ حَسَبٍ سَادَ الكَمالُ مُعَاهِدَهْ
ومِن والِدٍ للهِ مَنْشأُ فَضْلِهِ ... إذا جَدَّهُ الأرْضَى حَمِدْنَا ووَالِدَهْ[284]
عَلَى نَسَقٍ أحْسِن بهِمْ وَبعِقْدِهِمْ ... إذَا مَا نَظَمْنَا بالثَّنَاءِ فَرائِدَهْ
فأهْلاً بهَا مَن عالمِ الكَوْنِ فَدةٌ ... مُمَجَّدَةٌ قَدْ طَاوَلتْ كُلَّ ماجِدَهْ
وبُشْرَى بهَا تُشْرَى لأُمٍّ وَوَالِدٍ ... حِلالُهُمَا في الدَّهْرِ بالفَضْلِ شَاهِدَهْ
وإنِّي لطَلاَّعُ الثَّنَايَا بشُكْرِهِمْ ... لِيَ السَّبْقُ في آمَادِهِ المُتَنَاعِدَهْ
ولَكِن بمَا أثْنِي وأُفْصِحُ فيهِمُ ... ولَوْ أنَّنِي حَاوَلْتُ قُسَّ بْنَ سَاعِدَهْ -200-
وعِندِي وُدٌّ لَيْسَ يَبْلَى جَدِيدُهُ ... وَحَيْثُ عَدَتْ أسْبَابُهُ مُتَعاصِدَهْ
ووَاللهِ ما وفَّيتُ حَقَّ أُخُوَّةٍ ... مَحَبتُهَا في ذاتِهِ مُتَزايِدَهْ
فحازَاكَ عَنِّي يَا أخِي خَيْرَ [ما] جَزَى ... إلاَهٌ غَدَتْ أَلْطافُهُ مُتَعاصِدَهْ

---

(284) لم يفصح الشاعر عن اسم صديقه هذا

(285) وابْدَأْ عَلى جِهَةِ التَبَرُّكِ بِقَصيدَةٍ كُنتُ نَظَمْتُهَا
في الجَنابِ النَّبَوِيِّ الكَريمِ نَفَعَ الله بالقَصْدِ وَقَدْ أَطَلَّ
مَوْسِمُ عام ثمَانيَةَ عَشَرَ وثمانمِائهْ
وسمَّيْتُـــهَا
الحَديقَةُ النَاضِرَهْ
والحَدَقَةُ النَّاظِرَهْ، وهْيَ

تهادَتْ قُبَيْلَ الصُّبْحِ والركْبُ نُوَّمُ ... ونَحْـمُ الدُّجَى بالأُفْقِ لاَ يَتَلَـوَّمُ
فَمَا الشُّهْبُ في نَهْرِ النَّهَارِ وقَدْ حَرتْ ... لِمَوْرِدِهَا إلاّ الْقَطَا وهْيَ حُـوَّمُ
تَفَتَّحَ زَهْرُ الزُّهْرِ في رَوْضِ أُفْقِهَا ... فَمُدّ لِيَجْنِيهَا مِنَ الفَحْرِ مِـعْصَمُ
كأنَّ الدُّجَى والفَحْرُ تحتَ ذُيولِه ... مُحَجَّلُ أطْرافِ القَوائِـمِ أدْهَـمُ
ولمَّا تَهاوَتْ شُهْبُهُ أوْضَحَ السُّرى ... سَنَا الفَجْرِ حَيثُ الرَّكْبُ سِرٌّ مُكَتَّمُ
يَلُـوحُ وَيخْفَـى تـارَةً فَكأنَّـهُ ... وقَدْ حَلّ صَدْرَ البِيدِ ظَنٌّ مُرَجَّمُ
لَئِنْ غَارَ نَجْمُ الأُفْقِ أوْ غَابَ نُورُهُ ... فَقَدْ طَلَعَتْ لِلأَوْجُهِ الغُرِّ أنْجُـمُ
فَيا صَاحِبَيْ نجْوَايَ هلَ لِي مُنْجِدٌ ... وَسُلْطَانُ وَجْدِي في الفُؤادِ مُحَكَّمُ
رَعَى اللَّهُ قلبًا قلَّبَتْـهُ يـدُ النَّـوَى ... لـهُ بيْـنَ هَاتـيكَ القِبَـابِ تَلَـوُّمُ
يَطيـرُ خُفوقًـا نحْوَهَـا فَيُمِيلُـهُ ... هَوًى في خيَامِ الظَّاعِنِيـنَ مُخَيِّـمُ
أيَخْفَى جَوًى قدْ ضُمِّنَتْهُ جَوانِحي ... وَدَمْعُ جُفُوني عَن ضَميري مُتَرْجِمُ
كأنَّ الحِمَى لمَّا اسْتَهَلَّتْ مدامِعي ... كَمَيٌّ علَى أعْطَافِهِ يَقطُرُ الـدَّمُ -201-
فأُرْسِلُ منهُ كُلَّمَا أخْلَفَ الحَيَـا ... سَحابًا يَفُوقُ الغَيْثَ والغَيْثُ مُسْجَمُ
وآثارُ وَقْعِ الدَّمْعِ في عَرَصاتِهَـا ... يُـوَشِّي رُبَـى أطْلالِهَـا وَيُنَمْنِـمُ
وكَمْ صَادِرٍ قادَتْـهُ نَغْمَـةُ صَادِحٍ ... فَمَـا عـادَ إلاّ والخَلِـيُّ مُتَيَّـمُ

(285) لا أرى معنى لقوله : وأبدأ، وحقها أن تكون : وأختم، فهذه القصيدة السوية تأتي في ختام التهاني والمدائح.

حَلِيلَيَّ إنِّي كُلَّمَا هِمْتُمَا بِهِ ... لأَعْجَبُ أنْ يُشْجِي الفَصيحَيْن أعْجَمُ
وَرَكْبٍ مُفَدًّى بالنُّفُوسِ أمَالَهُمْ ... حَثِيثُ سُرَاهُمْ لاَ الرَّحِيقُ المُفَدَّمُ(286)
تَحمَّلَ مِن أهْلِ العَزائِمِ أُسْرَةً ... فمُنْهِدُ جَيْشٍ لِلِغْوَارِ وَمُقْدِمُ
يَجُرُّ القَنَا مِن خلفِهِ فَيُرَى لَهَا ... عَلَى الرَّمْلِ خَطٌّ بالحَوافِرِ مُعْجَمُ
تَلوحُ ويُخْفِيهَا مُثَارُ عَجَاجِهَا ... كَما انسَابَ في خُضْرِ الأَباطحِ أرْقَمُ
فهَلْ مُنْجِدٌ بالصَّبْرِ وَالرَّكْبُ مُنْجِدٌ ... كَما شاءَهُ العَزْمُ الحَثِيثُ ومُتْهِمُ
إذَا اسْتَقْبَلَ الحَادي المَطايَا مُرَجِّعًا ... فمَا الرَّوْضُ أوْ مَا الطَّائِرُ المُتَرَنِّمُ
يُرَدِّدُ ذِكْراهُمْ سُرورًا كَأنَّهُ ... بذلِكَ يَنْعَى مَن أقامَ وَيَنْعَمُ
أرى الدَّهْرَ بَيْنَ الأَخْذِ والتَّرْكِ للسُّرَى ... يُصَرِّحُ لِي مِن بَعْدِهِمْ ويُجَمْجِمُ
ويَلقَى هَوَى نَفْسِي جُنُودَ عَزائِمي ... فَيَهْزأُ بِي طَوْعَ المُقامِ وَيَهْزِمُ
وإنَّ الذي أَلْغَى السُّرَى وهْوَ قادِرٌ ... لمُغْرًى بمَا لاَ يَنْفَعُ المَرْءَ مُغْرَمُ
تُقيِّدُهُ أوْزارُهُ ولَوِ اهْتَدَى ... لَسَارَ كَما يَسْرِي الجَوادُ المطَهَّمُ
وتمْنَعُهُ أعْمالُهُ ولو اتَّقَى ... مَضَى مِثْلَمَا يَمْضِي الحُسامُ المُصَمِّمُ
أحُجَّاجَ بَيْتِ اللَّهِ فُزْتُمْ بِزَوْرَةٍ ... حباكُمْ بهَا طَوْعَ السَّعادَةِ مَوسِمُ
وقدْ وُجِّهَتْ فِيهِ إلَى اللَّهِ أوْجُهٌ ... يَلُوحُ عَلَيْهَا لِلْكَرامَةِ مِيسَمُ
رَحَلْتُمْ ومَنْ خَلَّفْتُمُوهُ لِعَيِّهِ ... مُهَوِّنُ ريْبِ الحَادِثاتِ مُهَوِّمُ
فَيا لَيْتَنِي مَا كُنْتُ مِمَّنْ تَخَلَّفُوا ... وعاقُوا عَنِ القَصْدِ الحميدِ وأحْجَمُوا
أقامُوا وَقَدْ سِرتُمْ فَمَا الرَّأيُ بَعْدَكُمْ ... رَشِيدٌ وَلاَ العَزْمُ المؤَمَّلُ مُبْرَمُ
لَقَدْ عَرَّفَتْكُمْ فَضلَهَا عَرَفاتُهُ ... وضَمَّكُمُ البَيْتُ العَتِيقُ وَزَمْزَمُ
وألْفَيْتُمُ شَتَّى الأَمَانِيِّ في مِنًى ... وعِنْدَ وُحُودِ المَاءِ يلغَى التَّيَمُّمُ -202-
فَبُشْرَى لِمَنْ قَدْ حَلَّ فِيهِ مُؤَمِّلاً ... مَوَاهِبَ رُحْمَاهُ وهَيْهَاتَ يُحْرَمُ
وَشَنَّ جُيُوبَ الصَّبْرِ شَوْقًا إلى الذي ... لهُ انشَقَّ بَدْرُ الأُفْقِ وَهْوَ مُتَمَّمُ

(286) يعني بالرَّكْب ركب الحاج الأندلسي، والرّحيق المفدّم : الْخمر المصفّاة.

وَزَارَ فِنَاءُ لِلفَنَاءِ بَطَيْبَةٍ ... فكَانَ لهُ فيهَا عَلَى اللَّهِ مَقْدَمُ
ومَنْ ساقَهُ حَادِي الرَّكائِبِ كُلَّمَا ... تَقَدَّمَهَا يَحْدُو بهَا ويُهَيْنِمُ
بِدارًا لِمثْوَى خيْرِ مَنْ وَطِىء الثَّرى ... فَرَكْبُ السُّرى قَصْدَ الحِجَازِ مُيَمِّمُ
فَلَوْلاَ حُلول بَيْنَ قَبْرٍ ومِنْبَرٍ ... لمَا رابَ تاخِيرٌ ورَاقَ تَقَدُّمُ
فَللهِ مَا أهْدَاكَ مِن أُحُدٍ وَقَدْ ... تَرَفَّعَ مِنهُ لِلْهِدَايَةِ مَعْلَمُ
مَشَاهِدُ قَدْ شَاهَدْتَ منهَا مَعاهَدًا ... يُجَدِّدُ ذِكْرًا عهْدُهَا المُتَقَدِّمُ
تَراءتْ فمَا نورُ التَّباشِيرِ خامِدٌ ... وَلاَ أوْجُهُ البُشْرَى بهَا تتَجَهَّمُ
فمَا حلَّهَا إلاَّ بهِ مُتَوَسِّلٌ ... إلَى اللَّهِ في أرْجائِهَا مُتَوَسِّمُ
وصَرَّحَ بالشكْوَى فَنُودِيَ سامِعٌ ... إجابَتُهُ حَتْمٌ وأُمِّلَ مُنْعِمُ
فَرافِعُ طَرْفٍ دُونَهَا مُتَصَرِّعٌ ... وباسِطُ كَفٍّ عِنْدَهَا مُتَظَلِّمُ
جُوَارُكَ يَا خَيْرَ البَرِيَّةِ مأْمَنٌ ... ومُعْتَصَمٌ مِنْ فَادِحِ الخَطْبِ يَعْصِمُ
تَرَى قَدْ هَدَى لِلرُّشْدِ كُلَّ مُضَلَّلٍ ... وأثْرَى بِهِ طَوْعَ السَّعَادَةِ مُعْدِمُ
مَحَطٌّ لأوْزَارِ العُفَاةِ ومَرْحَلٌ ... وَقَصْدٌ لِطُلاَّبِ الرِّضَى وَمُيَمَّمُ
ألاَ يا رَسولَ اللَّه دَعْوَةَ نَارِحٍ ... لهُ في النَّوى والقُرْبِ فكْرٌ مُقَسَّمُ
يَرَاكَ بمَكْنُونِ الضَّمِيرِ فَقَلْبُهُ ... عَلَيْكَ وما حَلَّ المَنَازِلَ يَقْدُمُ
أنا المُذْنِبُ الجَانِي وأنتَ شَفِيعُهُ ... ومِثْلُكَ مَن يُرْجَى ومِثْلِي يُرْجَمُ
بمَاذَا عَسى أثْنِي عَلى المُصْطَفَى الذِي ... أتَى فيهِ نَصُّ الذِّكْرِ والذِّكْرُ مُحْكَمُ
وفائِدةِ الأكْوَانِ يقضي ابتِداؤُهَا ... بأنَّ بِهِ الوَحْيَ المَنَزَّلَ يُخْتَمُ
وأهْدَى مِنَ الآياتِ كُلَّ عجيبَةٍ ... هَدَتْ لسَبيل الرَّشْدِ والرُّشدُ مُبْهَمُ
تُنِيرُ فَيعْلُو الخَافِقِينَ مَنارُهَا ... ويجْلو سَنَاهَا الخَطْبَ والخَطْبُ مُظلِمُ
فَمَن ذَا يَعُدُّ الشُّهْبَ وَالعَدُّ مُعْجِزٌ ... ومَن ذا يروم البَحْرَ والبَحْرُ مُفْعَمُ -203
كَرِيمٌ قَضَى حُبِّي لَهُ بعْدَمَا جَنَتْ ... يَدِي أنَّني في جَنَّةِ الخُلْدِ مُكْرَمُ
فمَالِيَ إذا لاَقَيْتُ رَبِّي وَسيلَةٌ ... سِوَى أنَّنِي أرْجُو وأنِّيَ مُسْلِمُ
ومَا ضاقَ عَفْوُ اللَّهِ عن مُذْنِبٍ وإنْ ... تعَاظَمَ مِنْهُ الذَّنْبُ فالعَفْوُ أعْظَمُ

أيا رَب إنَّ العَبْدَ بالْبَابِ وَاقِفٌ ... يَخَافُ وَيَرْجُو فَهْوَ يَدْنُو ويُحْجِمُ
يُمكِّرُ في الرُّجعَى إلى اللّهِ نادِمًا ... فَيَوْمَ التَّنَادِي لا يُفِيدُ التَّنَدُّمُ
ومُجْرِي جِيادٍ للبَطَالَةِ هَلِ لَهُ ... مُجِيرٌ غَدًا مِن نارِهِ وهْوَ مُجْرِمُ
ألاَ عَطْفَةٌ نحْوَ المَتَابِ لَعَلَّهَا ... تُؤَكِّدُ أسْبَابَ النَّجاةِ وتُبْرِمُ
فأُصْبَحَ مِنْ قَوْمٍ أنابوا لِرَبِّهِمْ ... فأُجْرَوا دَمًا في دَمْعِهِمْ حينَ أجْرَمُوا
وأُكْتَبَ مِن قَوْمٍ إلَى اللّهِ أسْلَمُوا ... وُجوهَهُمُ طَوْعًا وفي الأمْرِ سَلَّمُوا
لَعَلِّيَ أحْظَى بالجِنَانِ كَرامَةً ... وقَدْ رَدَّدَتْ هَل مِن مَزيدٍ جَهَنَّمُ
فيَا أيُّهَا المغْرُورُ إنّكَ قادِمٌ ... عَلى عمَلٍ قَدَّمْتَهُ أوْ تُقَدِّمُ
أيَا عَجَبًا لِلمَرْءِ يَفْرَحُ بالدِي ... أَلَمَّ مِنَ الدُّنْيَا وَلاَ يَتَأَلَّمُ
إذا أنتَ لَمْ تُوثِرْ هواكَ تجَلُّدًا ... فَصَبْرُكَ أقْوَى والطَّرِيقَةُ أقْوَمُ
أتَرْكَنُ لِلدنْيَا وأنتَ بِفِعْلِهَا ... خَبيرٌ لِبيسَ المَرْءُ مَن لَيْسَ يَحْزَمُ
أتَغْتَرُّ أن أهْدَتْكَ زَهْرَةَ حُسْنِهَا ... مَتَى لَذَّ يَوْمًا شَهْدُهَا وهْوَ عَلْقَمُ
تُفِيدُكَ عِلمًا بالتِّجارِبِ كُلَّمَا ... تَحُطُّ وتُعْلِي وهْيَ بالحَالِ تُعْلِمُ
تُوَلّيكَ إن وَالَيْتَهَا خُطَّةَ الأسَى ... فَحتَّى مَتَى تَصْغِي وَلاَ تتَعَلَّمُ
إذا نَفَذَ المقدورُ أصْمِتَ كاهِنٌ ... وَرُدَّ بِهِ عمَّا ادَّعَاهُ مُنَجِّمُ
أمِنْ بَعْدِ ما لاَحَ المَشِيبُ بِلِمَّتِي ... صَباحًا هَدانِي لَيْلُهُ وهْوَ مُظْلِمُ
تَجَهَّمَ وَجْهُ الأُنْسِ وَهْوَ بِمفْرَقِي ... أزاهِرُ في خُضْرِ الرُّبَى تَتَبسَّمُ
لِعِمّتِهِ في الفَوْدِ فَضْلُ ذُؤابَةٍ ... علَى لِمَّةٍ كادَتْ بِهَا تَتَلثَّمُ
هُوَ الوَارِدُ المَرْغُوبُ عَنْهُ فكُلّمَا ... ألَمَّ بفَوْدٍ وفْدُهُ يَتَأَلَّمُ -204-
جوادٌ ولَمْ يُسْأَلْ وَفِيٌّ ولَمْ يَعِدْ ... مُرَدِّدُ وَعْظٍ وهْوَ لا يَتَكَلَّمُ
ومِن بَعْدِ مَا مَرَّتْ ثَلاثُون حجَّةً ... وَسبْعٌ يُرامُ الأُنْسُ أوْ يُتَوَهَّمُ(287)

(287) اعتمدنا على هذا البيت وتاريخ القصيدة في تحديد التّاريخ الذي ولد فيه الشّاعر ؛ راجع المقدّمة ؛ ومرمى الأشد هي الأربعون سنة.

وقارَبْتُ مِن مَرْمَى الأشَدّ رَمِيَّةً ... تُقَرْطِسُهَا مِنْ حادِثِ الدَّهْرِ أسْهُمُ

وصَوَّحَ مَرْعًى لِلشَّبِيبَةِ مُخْصِبٌ ... وأيُّ شَبابٍ مُونِقٍ لَيْسَ يَهْرَمُ

أُغَلِّلُ بالبُهْتانِ قلبًا مقلبًا ... وَأُلزِمُ مِنهُ النفْسَ ما لَيْسَ يَلْزَمُ(287-)

وأُصْغِي لأقوامٍ يُقيمُونَ ألْسُنًا ... تُحَادِلُ في صِدْقِ المَقالِ وتَخصِمُ

بَنِي زَمَنٍ سَامُوا أناهُمْ زَمانَةً ... فمَالَكَ في أفْعَالِهِمْ كَيفَ تَحْكُمُ

لقد أعرَبُوا اسْمَ المَكْرُمَاتِ وبَدَّلُوا ... فلاَ فاعِلٌ يُجْرَى وَلاَ فِعْلَ يُحْرَمُ

وأُغْتَرُّ بالدُّنْيَا وان كُنتُ بِلْتُهَا ... وأصْبَحْتُ في أثْوابِهَا أتَنَعَّمُ

وَحُدْتُ وَلاَ مَنٌّ بَمَا مَلَكَتْ يَدِي ... وَرَبِّي يَدْرِي ما بِهِ أنَا مُعْلِمُ

عَلَى حُبِّهِ والحُبُّ في العَفْوِ مُطْمِعٌ ... كمَا قال إنِّي للثَّلاثَةِ مُطْعِمُ(-)

فَلَوْ عِلِمَ العُذَّالُ كُنْهَ مَحَبَّتِي ... لأقصَرَ عَن عَذْلِي وُشَاةٌ ولُوَّمُ

ولكِن إذا لَمْ أحْظَ يومًا بَزَوْرَةٍ ... يَطِيبُ بِهَا في طَيْبَةٍ لِي مُخَيَّمُ

فَمَا شُهُبُ العلياءِ حَوْلِي مُنِيرَةٌ ... تُروقُ ولاَ نَحْرُ المَكَارِمِ مُفْعَمُ

ولاَ البُرْدُ مَوْشِيُّ الحَواشِي مُنَمْنَمٌ ... وَلاَ الثوْبُ مسْدولُ المَعاطِفِ مُعْلَمُ

ولاَ السَّيْفُ مَصْقُولُ الغِرارِ ولاَ الهُدَى ... رَحِيبٌ لِيُرْتاحَ الجَوادُ المُسَوَّمُ

ولاَ الدِّرْعُ فَضْفَاضٌ ولاَ الرمْحُ ذابِلٌ ... قَدِ اطَّرَدَتْ مِنهُ الكعُوبُ مُقَوَّمُ

ولاَ الرَّوْضُ ممْطُورُ الجَوَانِبِ مَائِدٌ ... مُمَتَّعُ أرْجاءِ الحِلاَلِ مُنَعَّمُ

ولاَ الظَّبْيُ مصْقُولُ التَّرائِبِ إذْ ثَنَى ... إلى قصْدِهِ الجِيدَ انثَنَى وهْوَ ضَيْغَمُ

فَمَا رابَ مِنْهُ جِيدهُ وهْوَ مُثْلَعٌ ... ولاَ راقَ مِنْهُ اللَّحْظُ وهْوَ مُسَوَّمُ

لعَلِّي بهَا أحْظَى فأَلْحَقَ بالأُلَى ... ويُحْسَبُ قَصدِي حينَ أُحْسَبُ مِنْهُمُ

وأنَّى يَحِيبُ القَصْدُ والأكْرَم الذي ... يجودُ بمَا شاءَ العُفَاةُ وَيُنْعِمُ

(287-) هذا هو متعلَّق قوله : أمِنْ نَعْدِ.. وَمِنْ نَعْدِ..

( ) إشارة إلى الآية : ويُطْعِمونَ الطَّعامَ على حُبِّهِ مِسْكِينًا ويَتِيمًا وأسِيرًا.

وكَيفَ وحُبِّي للنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ(٥) لهُ في حَصَاةِ القلْبِ حَطٌّ مرَسَّمُ -205-
ألا يا رسُولَ اللهِ في النفْسِ حاجَةٌ وجاهُكَ قدْ يُرْجَى لِمَا هُوَ أعْظَمُ
رَجَوْتُ وأرْجأْتُ الأمورَ تَيَقُّنًا بأنَّ قَضَاءَ اللهِ أمْرٌ مُحَتَّمُ
فَيا سَائِلاً عمَّا أكنَّتْ جوانِحِي ومَا في ضَميري لمْ يَفُهْ لِي بهِ فَمُ
سَأحْظَى بمَا أمَّلْتُهُ إنَّ مَدْحَهُ بمَا نَيْلُهُ يُعْلِي المَراتِبَ يُعْلَمُ
إذَا لمْ تُحِطْ بالسِّرِّ عِلْمًا فَعَدِّعَنْ مَلاَمِي فإنَّ اللهَ أعْلَى وَأعْلَمُ
ودَعْنِي فأمْرُ اللَّهِ حَلَّ حَلالُهُ لَهُ مِن وراءِ العيْبِ سِرٌّ مُكَتَّمُ
أتَسْتَحقِرُ الدُّنيَا وتَسْتَعْطِمُ الدِي تُؤَمِّلُهُ مِنْهَا ورَبُّكَ أكْرَمُ
وَكِلْنِي لِمدْحِ المصْطَفَى المُرسَل الدي بهِ اللَّهُ يَعْفُو عن ذُنُوبِي وَيَرْحَمُ
يُحَلِّدُ فِكْرِي فيهِ كُلَّ عَجيبَةٍ تُحَطُّ عَلَى صَفْحِ الزمَانِ وتُرْسَمُ
ويَنْزَعُ عَن قَوْسِ الإجادَةِ سَهْمَهُ عَساهُ بِحَظٍّ في الشَّفاعَةِ يُسْهَمُ
لَعَلَّ ذُنُوبًا في فُؤادِيَ خَلَّفَتْ كُلُومًا يُدَاوِيهَا الكَلاَمُ المُنَظَّمُ
وكَمْ قَسِمَاتٍ لِلهَدايَةِ تُجْتَلَى وكَمْ نفَحاتٍ للرِّضَى تُتَنَسَّمُ
عليْكَ سَلامُ اللهِ ما يَمَّمَ الوَرَى حِمَاكَ ومَا صَلَّوْا عَلَيْكَ وسَلَّمُوا

---

(٥) حرت عادة ناسخ هدا الديوان أن يكتب التصلية فوق الاسم السوي الشريف، و لم تطاوعني يدي على حدفها هنا، وهدا يحرّني إلى الحكاية التّالية : دكر ابن بشكوال أن الفقيه الأندلسي أبا عبد الله بن فرج كان يشد قول حسان رضي الله عنه :
هَجَوْتُ مُحَمَّدًا وأجَبْتُ عَنْهُ.
هكدا :
هَجَوتُ مُحَمّدا ﷺ وأجبتُ عنهُ.
فكان يقال له : ليس يتّزن هكدا، فكان يقول : أنا لا أترك الصلاة على النبي ﷺ. قال ابن بشكوال : لقد يعجبني ما كان يفعله، نفعه الله بنيته في دلك.
تكملة ابن الأبار : 500.

وَمِمَّا حَقُّهُ أنْ يُلْحَقَ بِمَا تَقَدَّمَ من قصائِدِ
التَّهانِي اليوسُفِيَّةِ المتقدّمَةِ قَبْلَ هَذا
قَصيدَةٌ نَظَمْتُهَا في هَناءِ المَوْلَى المُنْعِمِ السُّلْطَانِ
أبي الحجاج النّاصرِ لدينِ اللّهِ رَحْمَةُ اللهِ عليْهِ ورضوانُهُ
وقَدْ احْتَل رِكَابُهُ بِقَصْرِ نُبْلُه خارِج حَضرَتِهِ
آيبًا مِن وِجْهَتِه الأولَى إلَى المنكّب وَشَلوْبانِيَة
بتَاريخ اليَومِ الثّامِنِ عشَر لِربيعِ الأوَّل عام ثمانيَة
عَشَر وثمانِي مائة(288) 206-

لِمَن الرَّكائِبُ نَحْوَ رامَةَ تَرْتَمِي ... مِنْ بَعْدِ طُولِ تأمُّلٍ وتَلَوُّمِ
عُوجًا كأمْثالِ القِسِيِّ ضَوامِرًا ... مهْمَا ارْتَمَيْنَ يُصِبْنَ سَاكِلَةَ الرَّمِي
يَحْمِلْنَ مِن أهْلِ الصَّبابَةِ أسْرَةً ... كلِفَتْ بِرَبْعٍ لِلغَرامِ ومَعْلَمِ
مِن كُلِّ يَقْظَانِ الفُؤادِ حَدِيثُهُ ... يَزَعُ المَنامَ عَنِ العُيُونِ النُّوَّمِ
مِن كُلِّ مُنفَرِدٍ بمَجْموعِ الهَوَى ... مُغْرًى بأشْتَاتِ المَحَاسِنِ مُغْرَمِ
مُتَوَسِّدٍ فَوْقَ الرَّواحِلِ بالحِمَى ... مُتَوَسِّلٍ في رَبْعِهِ مُتَوَسِّمِ
مُتأمِّلٍ لِبِعَادِهِ مُتَألِّمٍ ... ومُسَلِّمٍ لِغَرامِهِ مُسْتَسْلِمِ
هُنَّ الحَنايَا لاَ الحَطايَا إذْ رَمَتْ ... مِنْهَا إلَى الغَرَضِ القَصِيِّ بأسْهُمِ
ومَعاهِدِ الأُنْسِ التِي وَقَفَتْ بهَا ... لِلصَّبْرِ حَلَّتْ كُلَّ عَقْدٍ مُبْرَمِ
مَا بَالُهَا إن أُرْشِدَتْ لِسُلُوِّهَا ... لاَ تَنْتَهِي ولأهْلِ عُذْرَةَ تَنْتَمِي
تُزْجِي عُهُودَ الدَّمْعِ مِن أجْفانِهَا ... وجْدًا بِذِكْرَى عَهْدِهَا المتَقَدِّمِ

(288) راجعْ ما تقدّم في شأن قصر نُبْله، أما وجهة يوسف الثالث إلى المكّب فقد كانت في أول شهر ربيع الأول من عام 818 هـ وقد نظم الملك الشاعر قصيدة في هذه الوجهة (ديوانه 112 ــ 114) وعاد من هذه الرحلة في التاريخ الذي ذكره الشاعر هنا، وقد كان هذا الملك يتردّد مثل أسلافه على المكب للراحة والاستحمام في قصر القلعة أو لتحهير دعاة الفتنة إلى المغرب راجع ما كتبناه في المقدمة، وكذلك عملنا : المُنكّب في العهد الاسلامي

لَمْ تُنْكِرِ الحَيَّ الحِلالَ وإنَّمَا ... بِهُيَامِهَا عَرَفَتْهُ بَعْدَ تَوَهُّمِ

وعَقيلَةُ الحَيَّيْنِ تُوقِفُ رَكْبَهَا ... فالقَوْمُ بَيْنَ تَأَمُّلٍ وَتَأَلُّمِ

مَالُوا عَلَى الأَقْتَابِ حِينَ تأمَّلُوا ... فالرَّكْبُ بَيْنَ تَوسُّدٍ وتَوَسُّمِ

أَتْبَعْتُهَا نَظَرِي غَدَاةَ تَمَنَّعَتْ ... فالطَّرْفُ بَيْنَ تَمَنُّعٍ وَتَنَعُّمِ

يُذْكِي بِمُحْمَرّ الدُّمُوعِ صَبَابَتِي ... فالقَلْبُ بَيْنَ تَضَرُّجٍ وَتَضَرُّمِ

كَمْ وقْفَةٍ حَتَمتْ عَلَيْهِ بالهَوَى ... فالوَجْدُ بَيْنَ تَحتّمٍ وتَحكُّمِ

وَالشَّمْسُ تَبْدو في السَّحَابِ وتَخْتَفِي ... فالأُفْقُ بيْنَ تَغَيُّبٍ وَتَغَيُّمِ

وَالطَّيْرُ تَشْدُو والحَدائِقُ تَنْثَنِي ... فالدَّوْحُ بَيْنَ تَرَنُّحٍ وتَرَنُّمِ

وَالغَيْثُ يسْحَبُ ذَيْلَهُ فوْقَ الرُّبَى ... فالسُّحْبُ بَيْنَ تَجمُّعٍ وتَجَهُّمِ

والزَّهْرُ قَدْ شَقَّ النَّسيمُ جُيُوبَهْ ... فالرَّوْضُ بَيْنَ تَبسُّمٍ وتَنَسُّمِ

كَثَنَاءِ يُوسُفَ الذي شَرَعَ النَّدَى ... فالجُودُ بَيْنَ مُؤَمَّلٍ ومَيَمَّمِ

مَلِكٌ إذَا ثُلَيَتْ مآثِرُ مُلكِهِ ... فالدُّرُّ بَيْنَ مُنَضَّدٍ ومُنَظَّمِ -207-

يُسْتَفتَحُ النَّادِي بِذِكْرِ خِلالِهِ ... فالوَصْفُ [بَيْنَ] مُقَدَّسٍ وَمُقَدَّمِ

كَمْ حِكْمَةٍ نادَتْ سيُوفَ جِهَادِهِ ... هَذِي العِدَى قَدْ أَجْهَدَتْ فَتحَكَّمِي

كَمْ همَّةٍ نحْو الكواكِبِ تَرْتَقِي ... يَوْمَ الطِّعانِ وللْمَواكِبِ تَرْتَمِي

بمَرُوعِ غَرْبٍ للسَّوابِقِ يَنْتَهِي ... ومُثِيرِ حَرْبٍ للبَوَارِقِ يَنْتَمِي

من سائِقٍ يَهْدِي العُدَاةَ إلَى الرَّدَى ... أَوْ سابِقٍ فَذَّ الشَّيَاتِ مطَهَّمِ

فإذا استَنَارَت لِلسُّيُوفِ بَوارِقٌ ... في الرَّوْعِ أَجْلَتْ كلَّ خَطْبٍ مُظْلِمِ

وإذا تَجَلَّتْ للأسِنَّةِ أنجُمٌ ... في النَّقْعِ أَبْدَتْ كُلَّ مَعْنًى مُبْهَمِ

والحَرْبُ ان عُقِدَتْ لَهَا رَايَاتُهُ ... للْكُفْرِ حَلَّتْ كُلَّ عَهْدٍ مُبْرَمِ

يَقضِي بأَمْرٍ في المُلُوكِ مُحَكَّمٍ ... يَمْضِي بِعَزْمٍ كالحُسامِ مُصَمَّمِ

ما ظُلِّلَتْ لُجَجُ السَّوابِغِ في الوَغَى ... إلاَّ بأَدْواحِ القَنَا المُتَحَطِّمِ

ما جُرِّدَتْ بِيضُ الظُّبَا في المُلْتَقَى ... إلاَّ لأن كُسِيَتْ بمُحْمَرّ الدَّمِ

يا مُنجِدَ الأمْلاكِ بالعَزْمِ الـذي ... أنْـدَى السَّبيـلَ لِمُنْجِـدٍ ولمُتْهِـمِ
هذِي العِدَى تَرْحُو نَدَى يَدِكَ التي ... هِيَ مَوْرِدُ الظامي وَكَنْزُ المُعْدِمِ
لـمْ يَحْنَحُـوا لِلسِّلْـمِ إلاَّ بعْدَمَـا ... أَلْقَتْ لكَ الدُّنْيَا يَـدَ المُسْتَسْلِـمِ
كَـمْ أمَّةٍ أمَّـتْكَ بَعْـدَ خِلافِهَـا ... لِتَسَالَ عَفْـوَكَ تُحْفَـةٌ في المَقْـدَمِ
فأنَلتَهَا مِن حِلْمِكَ النِّعْمَى التـي ... ظَفِرتْ بهِنَّ يدُ المُسِيءِ المُجْرِمِ
أمَّتْهَـا فالقَـوْمُ بيْـنَ مُهَـوِّنٍ ... لِلخَطْبِ فِـي دَعَـةٍ وبيْـنَ مُهَـوِّمِ
أوْلَيْتَهَـا مِـن جُـودِكَ النِّعَـمَ التِـي ... حَلَّتْ فَلاَ عَدِمَتْ وُحودَ المُنْعِـمِ
هـذا وَيـا للـهِ وجْهَـتُكَ التِـي ... أعـلتْ لديـنِ اللَّـهِ أشْرَفَ مَعْلَـمِ
أعْمَلتَهَـا طَـوْعَ السُّعُـودِ رَكائِبًـا ... تَسْرِي وتَنتَقِـلُ انتِقَـالَ الأنْجُـمِ
وحَلَلْتَ فَوْقَ البَحْرِ أمْنَعَ مَعْقِـلٍ ... حَيْثُ الكَواكِبُ تَرْتَقِي أوْ تَرْتَمِي
قَدْ قابَلَ الكَفَّ الحَصِيصَ كأنَّـهُ ... أبَدًا يُتيـرُ لَهَـا بِكَـفٍّ مُسَلِّـمِ (289)
وأقَـمْتَ بالقَصْرِ الـذِي نُجُـودِهِ ... يُلْفِي الأمَـانُ لمجِـدٍ أوْ مُتْهِـمِ (290)
فَتَـرى النَّبِيَّـةَ دونَ مَطْهَـرِ أُفْقِـهِ ... تَلْقَـى رِيـاحَ الحَـوِّ فاغِرَةَ الفَـمِ
ثُمَّ انتقَلْتَ لِضفَّـةِ الـوادِي الـذِي ... مِنْهُ تُمِـدُّ البَحْـرَ راحَـةُ مُنْعِـمِ (291)
طَارَدتَ فيهَـا كُـلَّ أطْـلَسَ شَارِدٍ ... مَتَهَـيِّبٍ نحْـوَ المَنِيَّـةِ مُقْـدِمِ

(289) الكفّ الحصيص : اسم نحم معيّن، وقد سبق شرحه، والشاعر يصف هنا ذلك «القصر المفتّح الطيقان، المحكم الاتقان» كما يقول ابن الخطيب، ويقول في تشبيه : «كأنّه مُرْدٌ واقف، أوْ عَمودٌ في يد مثاقف، قد أحد من الدّهر الأمان، وتشتّه بصَرْح هامان، وأُرْهِفت حوافُهُ بالصّخْر المنحوت، وكادَ أنْ يصلَ بيْنَ الحوتِ والحوت» أي بين الحوت الذي هو السمك والحوت الذي هو برج في السماء، وقد كان القصر المذكور على شاطىء صخري عال داخل في البحر. راجع كتابنا في المنكّب.

(290) أوْلِمُتْهِمِ : كتب إلى جانبها في الأصل : وَلِمُتْهِمِ، وكأنّ الشاعر يقترحها قافيةً أخْرَى.

(291) يفهم من هذا البيت أنّ قصر تُنْله كان يقع على ضفّة وادي شليل أو جدول من جداوله، ولعلّه من أجل ذلك يدعى الموقع في الرسوم الغرناطية مهل تُنْله ويبدو أنّهُ هو القصر السلطاني الذي كان يجنح إليه العمي بالله للنزهة، وفيه يقول ابن زمرك :

يَـا قَصْرَ شِبْـلِ وَزِنْـكَ آهِـلٌ ... والرَّوْضُ مِنْكَ عَلَى الجَمالِ قَدِ اقْتَصَرْ
لِلّـهِ نَحْـرُكَ والصَّبَـا قَـدْ سَرَّدَتْ ... مِنْـهُ دُرُوعًـا تَـحْتَ أعْـلامِ الشَّحَـرْ

وقَدِ انثَنَيْتَ لِحَضْرةِ المُلْكِ التِـي ... مَـا وَصفُ عُـرّ خلالِهَـا بِمُكَتَّـمِ
وَافَيْتَهَـا فاهْنَـأْ بأسْعَـدِ وِجْهَـةٍ ... وقَدِمْتَهَـا فَاهْنَـأْ بأسْعَـدِ مَقْـدَمِ
مَوْلاَيَ لاَ تُحْصَى جِلاَلُكَ فِي العُلَى ... إلاَّ بآيـاتِ الكِتـابِ المُحْكَـمِ
فإلَيْكَهَـا طَـوْعَ البَلاعـةِ آتَـرَتْ ... حُكْـمَ البِـدَارِ إلَيْكَ دونَ تَلَـوُّمِ
حَاءتْكَ مِنْ حُـرّ الكَـلامِ بِلُؤْلُـؤ ... مـا بَيْـنَ فَـذٍّ للنّظـامِ وَتَـوْءَمِ
فَبَقِيتَ مَا سَارَ الحجِيجُ إلى مِنًى ... واحْتَلَّ بالبَـيْتِ العَتِيـقِ وَزَمْـزِمِ

ولَمَّا ظَهَرتِ الغمرَة البُرْطُقَاليّةُ بِبَحْرِ الزُّقاقِ وأقامَتْ أيَّامًا بمرْسَى الجَزِيرَةِ ثمَّ كانَ بَعْدَ ذلِكَ اسْتِيلاَؤُهَا عَلى سَبْتَة أعادَهَا الله عاقَهُ رَحمَهُ الله عنِ الخُروجِ بِنَفْسِهِ لِقَصْدِ مُدافَعَتِهَا مَرَضٌ شَديدٌ فُتِحَتْ مِن جسْمِهِ مواضِعُ بالحَديدِ بَعْدَ أيَّامٍ كَثيرَة فَقلتُ في وسَطِ جُمدى الثَّانية من عام ثمانية عشرَ وثمَانِمائة وَظُهورُ الأجْفانِ وعَدَدُها مائتانِ وأرْبعةٌ في السَّادِسِ والعِشرين لجُمَدى الأُولَى مِنْهُ[292]

بُشْرَى بمَقْدَمِهَـا الاسْلاَمُ يَبْتَهِـجُ ... بِهَـا سَبِيلُ العُلَـى والعِـزّ يُنْتَهَـجُ
مَواهِبٌ في الوَرَى حَلتْ مَواقِعُهَا ... فَقَلَّ أنْ تُبْـدَلَ الأرْواحُ والمُهَـجُ

---

(292) هذا نصٌّ جديد في موضوع استيلاء البرتغاليين على سبتة، والعمرة أو العمارة تطلق على المجموعة الكبيرة من الأحمال الحربية، أما الجزيرة فهي الجزيرة الخضراء ؛ وثمّة نصّ آخر ورد عند ابن حجر العسقلاني في إنباء الغمر 7 . 151 قال . «وفيها (أي في سنة 816) أخذ الفرنج سبتة، وكان السبب في ذلك أن أحمد بن أبي سالم المريني برز عنها لابن الأحمر صاحب غرناطة، فانتقل ما كان فيها من العُدد والأسلحة والذخائر إلى غرناطة، ثم اتفقت الفتنة المتقدم ذكرها في سنة 814 بين السعيد وقريبه أبي سعيد إلى أن قتل السعيد، وأعقب ذلك العلاء والوباءُ بمدينة فاس والغرب كلّه، فولّى السعيد على سبتة (في الأصل فاس وهو سبق قلم) رجلا سامهُمْ سوء العذاب، ثم أرسل أبو سعيد إليها رجلاً من أقاربه يقال له صالح بن صالح، فتناهى في الظلم، وفشا فيهم الموت، وبلغ ذلك الفرنج، فعَمّروا عليهم عدّة مراكب، فحصّ صالح أهل الجبال وأرهقهم على البلد فرجع الفرنج إلى جزيرة بن سنتة وحلّ الفتح تسمى طرف القنديل فأقاموا بها، فطال الأمر على أهل الجبال، وظنّوا أن الفرنج رجعوا إلى بلادهم، وقلت على أهل الجبال الارواد فتفرقوا، فلمّا ذلك الفرنج فنازلوا أهل سبتة، فقاتلوهم فغالبوهم بالكثرة، وملكوا منهم المياه، فحرج المسلمون بأهلهم =

لَطْفٌ منَ اللَّهِ قَدْ عمَّ الوُجُودَ فَمَا جَاءَتْ بأمثالِهِ الأعْصَارُ والحِجَجُ
فَضْلٌ مِنَ اللهِ قدْ حَيَّتْ فَوَاضِلُهُ فَقَصَّرتْ في مَدَى أوْصافِهِ الحُجَجُ 209-
لذلِكَ الدِّينُ وَالدُّنْيَا قَدِ ابتَهَجَا كِلاَهُمَا راقَ مِنْهُ المَنْظَرُ البَهِجُ
واستَشْرَفَتْ أوْجُهُ البشْرى تُرُوقُ سَنًى بالبشْرِ والفَرَحِ الآتِي بِهِ الفَرَجُ
بِحَيْثُ أفْقُ المَعالِي رَائقٌ بَهِجٌ بِحَيْثُ رَوْضُ المَعَانِي عاطِرٌ أرِجُ
والدَّوْحُ مُنْعَطِفٌ وَالزَّهْرُ مُبْتَسِمٌ والغُصْنُ مُعْتَدِلٌ والنَّهْرُ مُنْعَرِجُ
الشُّهْبُ تَحْكِي يَواقِيتًا مُنظَّمَةً حُمْرًا تَضَمَّنَهَا مِن لَيْلِهَا سَبَجُ
وللقُلُوبِ هُدُوٌّ بالأمَانِ كَمَا بالشُّكْرِ ألسِنَةُ القُصَّادِ تَخْتَلِجُ
ما ذاكَ إلاَّ لِبُشْرَى صِحَّةٍ وَرَدَتْ بالنَّجْحِ لِلدِّينِ والدنْيَا بهَا لَهَجُ
بُعْدًا لهُ ألَمًا أمْسَى يُلِمُّ بمَنْ بِهِ السَّبِيلِ لِنَصْرِ الدِّينِ مُنْتَهَجُ
أهْلاً بمَنْ أعْمِلَتْ في فَتْحِهِ يَدُهُ للهِ مِن فُرَجٍ وافَى بِهِ فَرَجُ
مَولاَيَ كُلُّ لِسانٍ شَاكِرٌ نِعَمًا جلَّتْ وكُلُّ فُؤادٍ بالمُنَى لَهِجُ
ما كانَ عبْدُكَ يَسْتَدْعِي تَصَبُّرَهُ إلاَّ وعَن قَلبِهِ للصَّبْرِ مُنْعَرَجُ
ما كانَ عبْدكَ يستَدْنِي مَآمِلَهُ إلاَّ تَرامَتْ بِهِ طَوْعَ الأسَى لُجَجُ
حَتَّى غَدا البُرْءُ يَجْلُو الحَادِثاتِ كَمَا يَحْلُو ظَلاَمَ الدُّجَى مِن صُبْحِهِ البَلَجُ
وَإنْ ألَمَّ بمَوْلاَنَا الرِّضَى ألَمٌ كَمْ أزمَةٍ عِنْدَمَا تشْتَدُّ تَنفَرِجُ(293)
هذِي المَنَاهِلُ لاَ عَلٌّ وَلاَ ثَمَدٌ هَذِي المَنَاهِجُ لاَ أمْتٌ ولاَ عِوَجُ
هَذِي الحَوَادِثُ لاَ عَيْنٌ وَلاَ أثَرٌ هَذِي الأحَادِيثُ لاَ ذَنْبٌ ولاَ حَرَجُ
فاليُسْرُ مقتَبِلٌ والعُسْرُ مُنْتَقِلٌ والسِّتْرُ مُنْسَدِلٌ والدَّهْرُ مُبْتَهِجُ

= وأموالهم وما قدروا عليه، فدخل الفرنج البلد في سابع شعبان من هذه السنة، ونقلوا ما كان بها حتى الكتب العلمية، وكان بها منها شيء كثير إلى الغاية، ونقلوا ما وجدوا بها من الرخام والآلات والأمتعة حتى الأنوال وتركوها قاعًا خربًا، ومع ذلك فهي بأيديهم فلا قوة إلا بالله» راجع أيضًا ما كتبناه في الموضوع في مقدمة الديوان.

(293) أحد من مطلع المفرجة : اشتدي أزمة تنفرجي

فالخَلْقُ تَحْمَدُ من أولَى الجَميلِ وقدْ ... سُرُّوا بنَاصِرِ دينِ اللهِ وابْتَهَجُوا
هَذا وإنّ وَلِيَّ الكُفْرِ أرْسَلَهَا ... سُفْنًا لِنَارِ الوَغَى في مَائِهَا وَهَجُ
هذَا العَدُوُّ الذِي وافَتْ مَرَاكِبُهُ ... لِلحَرْبِ يَرْفَعُهَا مِن بَحْرِهَا تَبَجُ
أقَامَ في صَدْرِ مَرْسًى لاَ حَرَاكَ لَهُ ... كأنَّهُ الصَّدْرُ مِنْهُ ضيِّقٌ حَرِجُ(294)
أتَى بقَوْمٍ قَدِ اسْتَهْوَاهُمُ أمَلٌ ... يعْتَادُهُمْ هَوَسٌ يَقْتَادُهُمْ هَوَجُ
كأنَّهُمْ كُلَّمَا هَمُّوا بمَنْزِلَةٍ ... لِوَقْعِ سَيْفِ الهُدَى في هامِهِمْ هَوَجُ
واليوسُفِيُّ الحُلَى أهْلاً بِهِ مَلِكًا ... أشِعَّةُ الصُّبْحِ عَن مَرءاهُ تَنْبَلِجُ
هَذَا الجِهَادُ فَلَوْلاَ ما ألَمَّ بِهِ ... من التألمِ ما انحَطُّوا ولاَ عرَجُوا
فكُلُّ طَرْفٍ إلَى مَرْمَاهُ مُنْصَرِفٌ ... وكُلُّ طِرْف إلى لُقْياهُ مُنزَعِجُ
كأنْ بمَوْلاَيَ قَدْ خَفَّتْ كَتائِبُهُ ... إلَى العِدَى وَصَبَاحُ العَزْمِ مُنْبَلِجُ
كأن بأسْيافِهِ بِيضًا مَضَارِبُهَا ... حُمْرُ الحُلَى بِرقابِ الصُّفْرِ تَمتَزِجُ
كأنْ بأعْلامِهِ تَعْلُو مَعَالِمَهَا ... يَسُدُّ دُونَ الأعَادِي أيَةً نَهَجُوا
وللِقُلوبِ سُكُونٌ مِن مَهَابَتِهِ ... وللِحُرُوبِ عَلَى أعْدائِهِ رَهَجُ
وهُزَّجُ الخَيْلِ قَد غَنَتْ صَواهِلُهَا ... بِحَيْثُ لاَ رَمَل يُغنِي وَلاَ هَزَجُ
وَفي العَوامِلِ زُرْقٌ مِنْ أسِنَّتِهَا ... لَمْ تَدْرِ أعْيُنُهَا مَا الغُنجُ وَالدَّعَجُ
مَواقِفٌ لَجَّتِ الحَرْبُ العَوَانُ بِهَا ... وحَاكِمُ السَّيْفِ مَرْفوعٌ بِهِ اللَّجَجُ
مَوارِدٌ لاَ تَعَافُ الخَيْلُ مَشْرَعَهَا ... ومَاؤهَا بِدَمِ الأعْداءِ مُمْتَزِجُ
وَالفَتْحُ أبْهَجَتِ الدنيَا حَدائِقُهُ ... فَمِن نَواسِمِهَا يُسْتَنشق الأَرَجُ
يا شَمْسَ هَدْيٍ بأفْقِ المعْلُواتِ بَدَتْ ... عَنْهَا غَمائِمُ نَقْعِ الحرب تَنفَرِجُ
يَا حُجَّةً قَامَتِ الدنْيَا بِصِحَّتِهَا ... في طيِّهَا حُجَجُ الأمْلاَكِ تَنْدَرِجُ
أخْفَيْتَ ذِكْرَ المُلُوكِ الأكْرَمِينَ وقدْ ... تَخْفَى إذَا وَضحَتْ مِنْ شَمْسِهَا السُّرُجُ
ولَمْ تَزَلْ مُظْهِرًا في كُلِّ آوِنَةٍ ... مِنَ المَكارِمِ مَا يُنْسِي الأُلَى دَرَجُوا

(294) المرسى المذكورة هي الحريرة الحضراء.

-210-

فَدُمْتَ يَا مَلِكَ الاسْلاَمِ صُبْحَ هُدًى مَعْنَى وُجُودٍ وأَمْلاَكُ الوَرَى هَمَجُ

ولمَّا اسْتَقَل رَضِيَ الله عَنْهُ مِن مَرَضِهِ
وتمَكَّنَتْ راحَتُهُ قُلْتُ في هَنائِهِ بذِلِكَ
في العاشِرِ لِرجب عامَ ثمانيةَ عشَرَ وثمَانِ مِائَة

211- أراحَتْ فُـؤادًا لديْهـا مَتُوقَـا عَـداةَ قَصَتْ مِنْ هواهَا حُقُوقَـا
وَحَيَّتْكَ زُهْـرًا بأُفْـقِ الحُـدُورِ وَرَهْـرًا نَصيـرًا ورَوْضًا أَنيقَـا
حُلاً يَرْجِعُ الطَّرْفُ عنْهَا كَليـلاً إذا لَـمْ يَجِدْ لاخْتِلاَسٍ طَرِيقَـا
فمَا هِـي أَبْقَتْ لفكْـرٍ مَحَـالاً وَلاَ تَـرَكَتْ لحَيَـالٍ طُرُوقَـا
ولَـمْ تَـدَعِ السّرَبَ إلاَّ مَرُوعًـا ولَـمْ تَتْـرُكِ القَـلْبَ إلاَّ مَشُوقَـا
بِهِـمُ فُـؤادِي بتَذْكَارِهَـا وَيمْنَعُـهُ وجْـدُهُ أن يُفيقَـا
وَقَـدْ فُـوِّقَتْ لِـلأَسَى نَحْـوَهُ سِهَامٌ فَلَمْ يُلْـفَ مِنهَـا مُفيقَـا
أَعَيْنِـيَ اهْـدَيْتِ قَلْبِـي الجَـوَى مَعًا حُرْتُمَـا في غَرامِـي فَذوقَـا
فَهَـذَا عَليـلٌ يُسيـلُ الدُّمـوعَ وهـدي المَدامِعُ تُذْكِي الْحَرِيقَـا
فَلِمْ ذَا نَهَتْ غَيْتَهَـا أنْ يَصُوبَ ومَا مَـنَعَتْ رَبْعَهَـاً أنْ يَشُوقَـا
أَبَتْ لِـيَ إلاَّ غَرامًـا وَوَجْـدًا وجسْمًـا نَحيـلاً وقَلْبًـا خَفُوقَـا
وَعَيْنًـا تَحَـامَتْ بحَـارِ الدُّمـوعِ وإسَانُهَـا ظَـلّ فيـهِ غَريقَـا
فـأَيُّ جَـوادٍ بِمُحْمَرِّهَـا غَـدا في مَدَاهَـا حَـوادًا سَبوقَـا
يُسائِـلُ عَمَّـن تَـوَى بالعَقيـقِ وإسَانُهَـا طَـلّ فيـهِ غَريقَـا(294*)
وأَيُّ قُلُـوبٍ هَـوَتْ إذْ هَـوَتْ فَخَفَّتْ حَينًـا وطَـارَتْ خُفُوقَـا
أحـافَتْ عِـداهُ وقَـدْ أَمَّـنَتْ جِمَـاهُ وقَـدْ رَتَقَتْهَـا فُتُوقَـا

(294*) هكذا ورد هذا الشطر مكررا، ولا شك أنه حصل سهو للناسخ فكتبه في محل شطر آخر.

إمَـامٌ إذَا مـا تَجلّـى سَنَـاهُ ... يُرَى كُلُّ مَلْكٍ لَدَيْهِ صَعِيقَـا

لَـهُ فِي الحَلاَئِقِ آثَـارُ عَـدْلٍ ... تَسوءُ العَـدُوّ وَتُـرْضِي الصَّدِيقَـا

لَـهُ فِي المَآثِـرِ شأْوٌ بَعِيـدٌ ... فَمَـن ذَا يُؤَمِّـلُ مِنهُـمْ لَحُوقَـا

لَـهُ فِي المَحَامِـدِ آيَـاتُ صِدْقٍ ... جَلَتْ بَاطِلاً ظَلّ عَنْهُ زَهُوقَـا

لَهُ فِي المَكَـارِمِ أَحْبَـارُ جُـودٍ ... فَيُوسِعْنَ عَـدْلاً وَيُفرِجْـنَ ضِيقَـا

كَرِيـمُ الفِعَـالِ صَحَابِيُّـهُ ... يُـرَضّي عَلِيًّـا بِـهِ أَوْ عَتِيقَـا[295]

وَيُمْنَـى لأَنصَارِ دِيـنِ الهُـدَى ... فَيَـا نَسَبًـا فِي المَعَالِـي عَرِيقَـا -212-

فُرُوعٌ زَكَتْ مِن أُصُولٍ كِرَامٍ ... فَطَـابَتْ مَحـلاً وَطَـالَتْ بُسُوقَـا

وَفَاقَ المُلُوكَ الأُلَى فِي العُلَـى ... وَلَـيْسَ بِـدْعٍ لَهُـمْ أَن يَفُوقَـا

وَكَيْـفَ وَمَـارَالَ لِلْمَعْلُـوَاتِ ... وَبَـذْلِ المَكَـارِمِ صِنْـوًا شَقِيقَـا

وَقَـامَ بِأَعْبَـاءِ حِمْـلِ الوَفَـاءِ ... وَمَا كَـانَ مَـلْكٌ سِوَاهُ مُطِيقَـا

وَقَـدْ جَـرَّدَ اللَّـهُ مِـن عِزْمِـهِ ... لأَن يَنْصُرَ الدِّينَ سَيْفًا ذَلُوقَـا[295م]

فَمَـا كَـتَبَ النَّصْرَ إلاَّ حَدِينًـا ... وَلاَ جَعَـلَ العِـزَّ إلاَّ رَفِيقَـا

فأَصْبَـحَ لِلدِّيـنِ كَهْفًـا مَنِيعًـا ... وَرُكْنًـا سَدِيـدًا ومِبْنًـى وَثِيقَـا

يَسُلُّ سُيُوفًـا وَيَرْمِـي نُصُولاً ... فَتَهْـدِي نُجُومًـا وَتُبْـدِي بُرُوقَـا

وَعَنَّـى بِـدَوْحِ القَنَـا صَاهِـلٌ ... تُـرِيكَ حُـلاهُ الجَـوادَ العَتِيقَـا

يَخَـالُ دِمَـاءَ العِـدَى قَهْـوَةً ... يُحِيـدُ صَبُوحًـا بِهَـا أَوْ غَبُوقَـا

أَعَـدَّ لِـذَلِكَ رَأْيًـا مُصِيبًـا ... وَحَزْمًـا مَنِيعًـا وَعَزْمًـا سَبُوقَـا

فَأَرْهَفَ مِن سَيْفِهِ النَّصْرُ غَرْبًـا ... وَسَدَّدَ مِن سَهْمِـهِ العِـزُّ فُوقَـا

فَيَـا يُوسُفِـيَّ الحُلَـى والصِّفَـاتِ ... فَعَـالاً كَرِيمًـا وَقَـوْلاً صَدُوقَـا

يَحُـورُ التَّألُّـمُ فِيمَـنْ غَـدَا ... حَلِيمًـا كَرِيمًـا رَحِيمًـا شَفِيقًـا

---

(295) علي هو ابن أبي طالب وعتيق هو أبو بكر الصّدّيق.

(295م) يقترح الشاعر في القافية : دلوقا ودليقا، وكلاهما صحيح

وكُنَّا نُراقِبُ بَدْرَ الدُّجَى ... ونَلْحَظُ للهَدْيِ مِنهُ بَريقَا

وُكنَّا نُشَاهِدُ شَمْسَ الضّحَى ... تَرُوقُ جَمَالاً وتُهْدِي شُرُوقَا

فَصَارَ تَعَلُّلُنَا بالأَمَانِي ... وطُولِ الدُّعَاءِ فَرِيقًا فَرِيقَا

فَلاَ تُرْسِلُ اللحْظَ إلاَّ تَوَارَى ... وَلاَ تُمْسِكُ الدَّمْعَ إلاَّ أُرِيقَا

فَيَا نَظْرَةً عَهِدَتْ نَضْرَةً ... فَلَمْ تُلْفِ في الرَوْضِ غُصْنًا وَرِيقَا

وَيَا أُفُقًا طَالَمَا قَدْ أَنَارَ ... فَلَيْسَ لِشَهْبَانِهِ أن تَرُوقَا

إلَى أن تَدَارَكَ باللُّطْفِ مَنْ ... يُقِيلُ العِثَارَ ويُنْجِي الغَرِيقَا

ومَنْ بِرَاحَةِ مَوْلَى الوَرَى ... فأضحَى مُفِيضًا نَدَاهُ مُفِيقَا

فَمِنْ أَلَمٍ بَعْدَمَا قَدْ أَلَمَّ ... بعلْيَاهُ حَلَّ مَكَانًا سَحِيقَا -213

وَمِنْ زَمَنٍ قَد أَتَى باسِطًا ... يدَ العُذْرِ مِنْهُ رِضًى لاَ عُقُوقَا

وقَدْ أَذْنَبَ الدَّهْرُ لكِنَّهُ ... أَبَى الحِلْمُ عَن ذَنْبِهِ أنْ يَضيقَا

ويَا راحَةً أقبَلَتْ بالسُّرور ... أَدَارَتْ عَلَى القَوْمِ مِنْهُ رَحيقَا

هَنيئًا لَنَا وَلدِينِ الهُدَى ... شِفَاءُ أَنَالَ الأَمَانِي حَقيقَا

وإنَّ عِدَاكَ لَتُبْدِي زَفيرًا ... وتُسْمِعُ مِمَّا لديْهَا شَهيقَا(296)

وَهُمْ أَثَرَ العَدْلِ عَفَّوْا فقَدْ ... نَدَا رَسْمُهُ كَيْفَ شَاءُوا مَحيقَا

فَحَاقَ بِهِمْ سَيِّءُ المَكْرِ لَمَّا ... غَدَوْا أَهْلَهُ وارْتَضَوْا أنْ يَحيقَا

وقَدْ فَرَّقَ السَّيْفُ مِنهُمْ جُمُوعًا ... وقَدْ جَمَعَ السَّيْبُ منهُمْ فُرُوقَا

أَمَوْلاَيَ خُذْهَا تعِيرُ النّجُومَ ... سَنًى والنَّواسِمَ تُذْكَى حَلُوقَا

فَتُبْدِي امْتِدَاحَكَ دُرًّا نَظِيمًا ... وتُهْدِي ثَنَاءَكَ مِسْكًا فَتيقَا

وإنَّ خِلاَلَكَ شُهْبٌ تَجَلَّتْ ... ورَاقَتْ بأُفْقِ المَعَالِي شُرُوقَا

فَوَصْفُ حُلاَهَا إذَا رُمْتُهُ ... يُقَيِّدُ مِنِّي لسَانًا طَلِيقَا

وكَمْ قَادَ لِي شَارِدَاتِ القَوافِي ... فَذَلَّلْتُ مِنْهُنَّ بُزْلاً وَنُوقَا

(296) لديها، يقترح الشّاعر في محلها أيضًا : دهاها.

وَقَيَّدَهَـــا بَعْدَمَـــا قَادَهَـــا فأَهْـلاً بـهِ سَائِقًـا أَوْ مَسُوقَـا
بَقِـيتَ تُجَـرِّدُ سَيْـفَ اعْتِـزامٍ يُـرَى لِدِمَـاءِ الأَعَـادِي مُرِيقَـا
ودُمْتَ تُنِيـلُ المُنَـى مَـن عَـدَا لَـدَيْكَ بِنَيْـلِ المَعَالِـي خَلِيقَـا

وفي المُوفّى ثَلاثِينَ لِرَجَبٍ عَام ثَمَانِيَةَ عَشَرَ وَثمَانِ
مائَة المذكُور وُلِد لهُ وَلَدُهُ عَبْدُ اللهِ الذي اسْتأثَرَ
الله بِهِ بَعْدَ ذلكَ بِيَسيرٍ زَمَنَ الوَبَاءِ فَقلتُ
في الهَنَاءِ بذلِكَ مُرْتَجِلاً مِن غيْرِ رَوِيَّةٍ[297]

هَنِيئًا هِيَ الآمَالُ حَيَّتْ بِنُجْحِهَـا بَشائِرُهَـا لاَحَتْ أشِعَّـةُ صُبْحِهَـا -214-
وإلاَّ فَمَا بَالُ المَجَرَّةِ قد غَـدَتْ تَفَتَّحُ زَهْرُ الزُّهْرِ فِي رَوْضِ جُنْحِهَا
ومَا لطُيُور اليُمْنِ قد سَنَحَتْ ضُحًى وَراقَ عَلَى الأَفْنَانِ تَرْدِيدُ صَدْحِهَا
ومَا لِلنَّسِيمِ اللَّدْنِ يُدْكَى كأَنَّـهُ يُخَيِّـمُ فِي بَـادِ الخِيامِ وَطَلْحِهَـا
ومَـا ذَاكَ إلاَّ أن تَطَلَّـعَ نَيِّـرٌ مَلاَمِحُـهُ تَبْـأَى البُـدورُ بِلَمْحِهَـا
أَنَارَتْ بِهِ الأَقْطَارُ لمّا غَدا بِهَـا لِتأْمِيـلِ أَهْلِيهَـا وتـأمين سَرْحِهَـا
فُورُ الهُدَى لَمْ يَحتَجِبْ عِنْدَمَا بَدَا ونَارُ القِرَى لَمْ تَخْبُ مِنْ بَعْدِ قَدْحِهَا
كأَنِّي بِهِ يُعْلِي مَعَالِـمَ للنَّـدَى تُصَرِّحُ جَـدْوَاهُ بإعْـلاءِ صَرْحِهَـا
كأَنِّي بِهِ والكَـفُّ مِنْـهُ عَمَامَـةٌ تَجُودُ لَدَى مَنْعِ الزّمانِ بمَنْحِهَـا
كأَنِّي بِهِ تَكْفِي الأَعَـادِيَ كَفُّـهُ وَقَدْ صَافَحَ الأَبْطَالَ مَرْهَفُ صَفْحِهَا
كأَنِّي بِهِ والـرومُ تَـرْهَبُ نَـطْشَهُ ونَارُ الوَغَى تَرْمِي بِمَشْبُوبِ لَفْحِهَا
وقَدْ حلّ مِنْهَا فِي رِضَاكَ مَعَاقِلاً كَفِيلٌ لَهَا الصّنْعُ الجَمِيلُ بِفَتْحِهَـا
تَـدُورُ بِهَـا غُـرُّ الجِيَـادِ كأَنَّمَـا غَدَتْ سِرْبَ أَرْءامٍ تَهَادَتْ لِسَرحِهَا

(297) لقد عظم وحد يوسف الثالث بعد وفاة ولده عبد الله المذكور فرثاه بعدد من الأشعار انظر ديوانه : 86، 105، 123، 124.

مَا زُهِيَتْ بالخَيْلِ راقَتْ صُفُوفُهَا ... ولكِنَّهَا حَسْنَاءُ باهَتْ بُوُسْحِهَا

وَكَمْ لَكَ مِن صَفْحٍ يُبِيحُ دِمَاءَهُمْ ... يُرَوِّي أديمَ الأَرْضِ مُنْهَلُّ سَفْحِهَا

كأَنَّ سُيُوفَ الهِنْدِ أنهَارُ دوْحَةٍ ... تُهَيَّأُ أَرْواحُ العُدَاةِ لِسَبْحِهَا

ومَا نَقَعَتْ نَارَ الحُروبِ وإنَّمَا ... جَدَاوِلُهَا سَبَّتْ لَواعِجَ بَرْحِهَا

إذَا ما الّجيعُ احْمَرَّ فَوْقَ فِرندِهَا ... حَكَى وَجْنَةَ العذْراءِ مِن تَحتْ رَشْحِهَا

فَمَا تَرْتَجِي إلاّ نَدَى كَفّ يُوسُفٍ ... إمَامِ المُلُوكِ الأَكْرَمِينَ وَسَمْحِهَا

فَللهِ مِنْهَا راحَةٌ ناصِرِيَّةٌ ... تعَوَّدَتِ الأَمْلاَكُ عَادَةَ صَفْحِهَا

أمَوْلاَيَ يا مَنْ [قَدْ] حَبَا اللّهُ كَفَّهُ ... بأَعْلَى أَسَايِدِ النَّدَى وأَصَحِّهَا

نَوَاسِمُ أفكَارِي تُذيعُ مَدَائِحًا ... تَعَطَّرَتِ الأَرْجاءُ مِن طِيبِ نَفْحِهَا

فَهَذي قَوافِي الشِّعْرِ أَعْذَبْتُ وِرْدَهَا ... ومَس رامَهَا ضَنَّتْ عَلَيْهِ بِنَضْحِهَا 215-

رأتْ بمَغَانِي المُلْكِ إذْ سَرَحَتْ بهَا ... مَغَانِيَ لاَ يأتِي البَلِيغُ بسَرْحِهَا

فَصَاغَتْ مِن الظّمِ البَليغِ قِلاَدَةً ... ومَوْلَى الوَرَى يُصْغِي اسْتِمَاعًا لِمَدْحِهَا

وقَدْ عَلِمَتْ مِنْهَا القَلاَئِدُ أَنَّهَا ... قَلاَئِدُ حَلَّى حُسْنُهَا حيدَ فَتْحِهَا(297م)

فَهُنِّئْتَهَا بُشْرَى تَعُودُ بكُلِّ مَا ... تُؤَمِّلُهُ الأَيَّامُ مِن فَوْزِ قِدْحِهَا

(297م) في هذا البيت تورية بكتاب «القلائد» ومؤلّفها «الفتح».

وفِي العَشْرِ الأُخر لِشَهْرِ شَعْبَانَ مِن العَامِ احْتَفَلَ
في عقِيقَةِ هَذا المَوْلودِ وإعْذَار أخوَيْهِ وعَقْدِ
البَيْعةِ لِوَلِيّ عَهْدِهِ وَمُتولّي الأمْرِ مِنْ بَعْدِهِ أيَّده
الله عَلَى الخاصّة والعَامَّة بمَا قدَمَ العَهْدُ بِمِثْلِهِ
واسْتَدْعَى لِذلِكَ أكَابِرَ أهْلِ البلاَدِ النَّصْرِيَّةِ
وآثرهُم برفِيعِ الثِّيَابِ وَفَاخِرِ الكُسَا ونظَمَ خُدّامُ
بابِهِ مِن الشعَراءِ في ذلِكَ قَصائِدَ فأنشَدَتْ بِقبَّةِ
الريَّاضِ قَصيدَةً أُعْجِبَ بهَا رَحْمةُ الله
ورَضْوانُهُ عَلَيْهِ

سَلِ البَانَ عَنْهَا أيْنَ بَانَتْ رِكَابُهَا ولِمْ رُفِعَتْ فَوْقَ المَطِيِّ قِبابُهَا[298]

وَلِمْ تَرَكَتْ مِنَّا قُلوبًا مَشُوقَةً يُقَلِّبُهَا طَوْعَ الغَرامِ التِهَابُهَا

يُهَيِّجُهَا الحَادِي فَتُبْهِجُهَا السُّرى إذَا مَا انْتَحاهَا شَجْوُهَا وانتِحَابُهَا

ويُذْكِرُهَا عَرْفُ الصَّبَا زَمَنَ الصِّبَا فهَلْ نَفَحَاتُ الطِّيبِ فُضَّتْ عِيَابُهَا

وإنّي وإنْ كُنت الأبِيَّ قِيادُهُ لَيَقْتادُ قَلْبِي وُدُّهَا وَحِبَابُهَا[298 ٠]

إذا انعَطَفَتْ مُرْتاحَةً أوْ تَمَنَّعَتْ فَإعْتَابُهَا يُرْجَى ويُخْشَى عِتابُهَا

خَلِيلَيَّ أيُّ الحَالَتَيْنِ مُرِيحَةٌ نَواهَا وَقَدْ عَزَّ اللِّقَا أوْ مَآبُهَا

إذَا لَمْ تَفُزْ مِنْهَا العُيُونُ بنَظرةٍ فَسِيَّانِ عِنْدِي بُعْدُهَا واقتِرابُهَا -216-

وَهلْ نافِعي بَعْدَ النّوَى قُربُ دَارِهَا إذَا كانَ مَسْدولاً عليْهَا حِجابُهَا

أُمَهِّدُ بالأطْمَاعِ حانِبَ قُرْبِهَا وهَلْ غَيْبَةٌ إلاّ ويُرْجَى إيَابُهَا

وقَدْ أتَّقِي في القُرْبِ حَادِثَةَ النّوَى وهَل جَيْئَةٌ إلاَّ ويُخْشَى ذهَابُهَا

ألاَ خَلِّياني والصَّبَابَةَ إنَّهَا كِرامُ نفوسٍ في الهَوَى لَذّ صَابُهَا

---

(298) كتب في الطرة : النّسيب.

(298٠) حِبابُهَا : حُبُّهَا.

ومُـرَّا بأطْـلالِ العُـذَيْبِ فإنَّهَـــا قُلوبٌ غَدا عَذْبَ الوُرُودِ عَذابُهَا
وَقُولاَ لِمَن تَحْمِي الكُمَاةُ خِيامَهَا ومَن صحَّ لِلعُرْبِ الكِرامِ انتِسابُهَا
ومَن قَوْمُهَا قد بَانَ في بَذْلِهَا النَّدَى وَنَيْـلُ المَعالِي طَبْعُهَـا واكتِسابُهَـــا
حَكتْ فتةٌ تُسْمَى لِخِدمَةِ يُـوسُفٍ تَرفَّـعَ نَاديهَـا وَعـزَّ حَنَابُهَـــا(298م)
بأنِّي عَلى تِلْكَ العُهُودِ التِي انقَضَتْ لَـدَيَّ تَسَاوَي بَدْءُهَـا واعْتِقابُهَـــا
وأنِّي عَلَى حفْظِ الوِدَادِ وان نَأتْ بِيَ الدَّارُ أوْ شَطَّتْ بِسَلْمَى رِكَابُهَا
أُنَادِي طُلولاً لاَ تُجيبُ وقَدْ أبَى جَوَى القَلْبِ إلاَّ أنْ يُرَدّ جَوَابُهَا
وتخطُبُ أفْكَارِي زِيَارَةَ مَـن أبَتْ خُطُوبُ اللَّيَالِي أنْ يُـرامَ خِطَابُهَـا
كـأنّ البِـلاَدَ النَّاصِرِيَّـةَ رامَهَـــا عـدُوٌّ فراعَتْـهُ امْتِنَاعًـا صِعَابُهَـــا(299)
ألاَ بـأبي تِـلْكَ المَعاهِـدُ إنَّهَـــا يُوَفَّـى بهَـا لِلآمِلِيـنَ طِلابُهَـــا
فَتَنْهَلُّ سُحْبٌ لاَ تُغِبُّ سِجَالُهَـا وتَطْلُعُ شُهْبٌ لاَ يَـروعُ غِيابُهَـــا
فأنْجُـمُ هَـدْيٍ مـا يَبِيـنُ بأُفْقِهَـــا وَحَصْبَـاءُ دُرٍّ مَـا يُقِـلُّ تُرابُهَـــا
وأيُّ عُهُـودٍ لاَ تَحـودُ عِهادُهَـــا وأيُّ حُظُـوظٍ لاَ تُنَـالُ رِغَابُهَـــا
خِلالٌ لَهَا مِن حضرَةِ الملك الرضَى خلاَل لهَا الأخْطَارُ هان ارْتكَابُهَا(300)
كأنَّ مُتُونَ العِيسَ آفـاقُ أبحُـمٍ تَجَلَّتْ وَفِي سُحْبِ الخُدورِ احْتجَابُهَا
إذَا ما هَدَى قَصْدَ النَواظِرِ نورُها تَنَاهَى مِنَ النَّقْعِ المُثَارِ ضَبَابُهَـا
مَتَى طَلَعَتْ رَاعَ القُلوبَ اطّلاَعُهَا وإن عِرُبَتْ رَابَ النُّفوسَ اغترابُهَا
فَسارَتْ وقَدْ راقَ الدُّجُنَّةَ جِنْحُهَا ومَدّتْ عَلى الأُفْقِ الجَنَاحَ عُقَابُهَـا
إلَى أن بَدَتْ حُمْرُ السّحابِ كَوَجْنَةٍ جَلَتْ خَجَلاً إذْ حُطّ عنْهَا نِقَابُهَا -217-
وشَابَتْ مِن اللّيْلِ البهيمِ مَفـارِقٌ يَروقُ مِنَ «الكَفّ الخَضيبِ» خِضَابُهَا

(298م) كتب في الطرة : تخلص أول.
(299) كتب في الطرة : تخلص ثان.
(300) كتب في الطرة : تخلص ثالث.

وإنَّ حُسامَ الفَجْرِ يُعمِلُ دونَهَا ... شَبَاهُ ويابَى أن يُعَادَ شَبابُهَا

وَقدْ طَلَعَتْ شمْسُ الصَّباحِ كأنَّهَا ... مُحَيَّا ابْن نَصرٍ والبُنُودُ سَحَابُهَا[301]

إمَامٌ لَهُ حِلمٌ وعِلمٌ ونَائِلٌ ... فَقُل لِعُفاةِ الجُودِ أيْنَ ذَهَابُهَا

إذَا صالَ لَمْ يُجْدِ اللّيُوثَ مَصالُهَا ... وإنْ صَابَ لَمْ يُغنِ الغيُوث مَصابُهَا[301م]

فَهلْ هِيَ إلاَّ رَحْمَةٌ عَمَّتِ الوَرَى ... بِحَيثُ بِحَارُ الجُودِ فَاضَ عُبَابُهَا

وهل هي إلا دَوْلَةٌ يُوسُفِيَّةٌ ... خِلافَتُهَا سِرُّ العُلَى ولُبَابُهَا

وهَلْ هِيَ إلاَّ آيَةٌ ناصِرِيَّةٌ ... تَطَلَّعَ في أفْقِ الجَلالِ شِهَابُهَا

وهَلْ هِيَ إلاَّ هِمَّةٌ خَزْرَجِيةٌ ... تُصافِحُ عُلْوَي النجُومِ هِضابُهَا

فَلِلَّهِ مِنْ أبْنَاءِ نَصْرٍ خَلائِقٌ ... إلَى الخَزْرَجِ الأرْضَيْنَ يُنْمَى نِصَابُهَا[302]

تُضِيءُ بأنْوارِ الرِّسالَةِ مِنْهُمُ ... وُجُوهٌ كِرامٍ أنجَبَتْهَا صِحَابُهَا

نُجومٌ ومِن نُور الوجوهِ شُعاعُهَا ... عُيوثٌ ومِن سُحْبِ الأكُفِّ انسِكابُهَا

بُدُورٌ بآفَاقِ السُّروحِ طُلوعُهَا ... أُسُودٌ ومُلْتَفُّ الذَّوابِلِ غابُهَا

سُيُوفُ حُمَاةِ الدِّين عَزَّتْ رِقاقُهَا ... بِهِمْ وطُغاةُ الدّينِ ذلَّتْ رقابُها

ومُفْسِرِدٍ بالعِزِّ أحْسَنَ جُودُه ... مَقاصِدَ إنْ عُدَّتْ يَعِزُّ حِسابُهَا[303]

بكَفٍّ يَرُوقُ المُعْتَفِينَ اسْتِلامُهَا ... ولَكِن يَرُوعُ المُعْتَدِينَ اسْتِلابُهَا

رَحِيبُ مَجَالِ العَفْوِ إلاَّ عَنِ العِدَى ... فأوْطَانُهُمْ ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ رِحَابُهَا

بِهِ انقَادَ عَاصِيهَا وَقُدَّتْ صِعَادُهَا ... وخَابَ مُوالِيهَا وَهَانَتْ صِعَابُهَا

فكَمْ رَايَةٍ بالنّصْرِ قَدْ صَحَّ عَقْدُهَا ... وَأعْقَبَ إنْ حَلّتْ عُراهُمْ عُقَابُهَا

وَسَبْتَةُ لمَّا حَلَّهَا المُشْرِكُ الذِي ... لَهُ مِن يَدِ التوْحيدِ حَلّ اغْتِصابُهَا[304]

---

(301) كتب في الطرة : تخلص رائع.

(301م) في الأصل : اللّيوث، وهو تحريف أو سهو من الناسخ، والغُيوث جمع غيث.

(302) كتب في الطرة : ذكر بني نصر أبناء الأبصار.

(303) كتب في الطرة : ذكر السلطان رحمه الله وبعض وصفه.

(304) كتب في الطرة : ذكر سبتة أعادها الله والتحريض على غزوها.

دَعَتْكَ لِنصْرِ الدّينِ مِنهَا قَبائِلٌ ... يَهونُ إذا تَرْجو عُلاكَ مُصَابُهَا

فَمَا رَاعَهَا إلاَّ إلَيْهَا انتِهاؤُهَا ... وَقَدْ راقَ أحْزاب الضَّلالِ انتِهابُهَا -218-

تُقيمُ حَوَالَيْهَا وتَدْعوكَ نَاصِرًا ... لِيُخْشَى ثَواهَا حَيْثُ يُرْجَى ثَوابُهَا

فَمَا لَذَّ لَوْلاَ ان رَحَتْكَ طَعَامُهَا ... وَلاَ ساغَ لَوْلاَ ان دَعتْكَ شَرَابُهَا

ومَهْمَا دَعَتْ يَوْمًا سِوَاكَ مُؤَمَّلاً ... تَوانَى وكَمْ غَرَّ الظِّمَاءَ سَرَابُهَا

فكَمْ مِن جُمُوعٍ دُونَهَا قد تَسَعَّبَتْ ... لتَحْيَا وقَدْ حَيَّا النُّفُوسَ انشِعابُهَا

لَقَدْ أقفَرتْ مِن سَاكِنِيهَا دِيارُهَا ... ولَمْ يابَ للكُفْرِ اعْتِمَارًا يَبابُهَا

كأنّي بِهَا قَدْ سَدّ عَزْمُكَ ثَلْمَهَا ... وفُتِحَ بالنَّصْرِ المُؤَزَّرِ بَابُهَا

كأنّي بهَا والكافِرُونَ عِصَابَةٌ ... تُشَقُّ عَصَاهَا أو يُحَلُّ عَصَابُهَا

كأنّي بِمَنْ آوَتْهُ مِن زُعَمائِهَا ... وقَدْ بَانَ مِنْهَا زَعْمُهَا وَكِذابُهَا

وقَدْ أفْرَدَتْ عَن حَمْعِهِ مَنْ أتَى بهَا ... إلَى رِحْلَةٍ مَا ان يُرَجَّى إيَابُهَا

فَما بَالُهُ يبْغِي لَدَى صَحْبِهِ العُلَى ... وقَدْ نُضِيَتْ عَن عَاتِقَيْهِ ثيابُهَا

ثُغُورٌ بَدَتْ مِثْلَ الثغُورِ بَواسِمًا ... وقَدْ أعْذَبَتْ وِرْدَ المَنايَا عِذابُهَا

فَلِلّهِ مِنهَا حَيْثُ تَرْشُفُهَا الظُّبَا ... ثُغُورًا وما غَيْرُ النّجيعِ رُضَابُهَا

ولِمْ لاَ تُذَادُ الآنَ يا مَلِكَ الهُدَى ... بَسَيْفِكَ عَن غَابِ الأُسُودِ ذِئابُهَا

فإن رامَ أهْل الكُفْرِ قصْدًا وأعْمَلُوا ... مَكَائِدَ كَفَّ البَغْيَ مِنهُمْ تَبابُهَا

سَتُنْقِذُهَا بالرَّغْمِ مِنْهُمْ وأهْلُهَا ... بِهِمْ نَشِبَتْ ظُفْرُ المَنَايَا ونابُهَا

وهَل مَلِكٌ يُرْجَى سِوَاكَ لنَصْرِهَا ... وهَلْ غَيْرُ ما تَرْضَى عُلاَكَ طِلاَبُهَا

فَجَنّدْ جُنُودَ النّصْرِ تَبتَدِرُ الوَغَى ... وقَدْ رَاعَ مِن نَارِ الحُروبِ الْتِهَابُهَا

إذَا زَأرَتْ في مَوْقِفِ الحرْب أُسْدُهَا ... فَلَمْ تَرْضَ إلاّ بالنّجيعِ غِضابُهَا

فَتُفْصِحُ بالنّصْرِ العَزِيزِ صِفاحُهَا ... وتُعْرِبُ عَن نَيْلِ الأمَانِي عِرابُهَا

بِحَيْثُ وُقودُ الحَرْبِ رَاعَ ضِرامُهَا ... بِحَيْثُ وُفودُ العُرْبِ راقَ ضِرابُهَا

بِحَيْثُ سُيُوفُ الهِنْدِ تحْكِي جَدَاولاً ... ولَمْ يَطْفُ إلاَّ بالنَّجيعِ حَبَابُهَا

بحَيثُ القَنَا الخَطِّيُّ في حَوْمَةِ النَّدَى تُجَدِّلُ عُبَّادَ الصَّليبِ صِلابُهَا

بحَيثُ العَوالي والعَجاجُ يَحُفُّهَا نُحُومٌ جَلَتْهَا في دُجَاهُ حِرابُهَا -219

أسِنَّتُهَا نَابَتْ عَنِ الشُّهْبِ كُلَّمَا دَجَا لَيْلُهَا وَهْيَ الحَمِيد مَنَابُهَا

سَتَسْقِي الأعَادِي لِلْمَنِيَّةِ أكْؤُسًا فَتَصْحُو نَشاواهَا وتَسْلُو طِرابُهَا

سَتوسعُ أيدِي المُسْلِمينَ مَغَانِمًا نِهَايَةُ ما تَبغِي المَعالِي نِهَابُهَا[305]

ولولاَ مُلِمٌّ لِلتَّأَلُّمِ لَمْ يَكُنْ لَدَى صَوْلَةِ البَازِي يَصيدُ غُرابُهَا[306]

ألاَ في سَبيلِ اللَّهِ ما لَقِيَتْهُ مِنْ تألُّمِهَا نَفْسٌ جزيلٌ ثَوابُهَا

فَباللَّهِ في الخَطْبِ المُلِمِّ اعْتِصامُهَا وفِي اللَّهِ طَوْعًا صَبْرُهَا واحْتِسَابُهَا

وَكَمْ سَهِرَتْ مِنَّا عُيونٌ دُمُوعُهَا يُقَلِّبُ حَبَّاتِ القُلوبِ مُذابُهَا

ونَرْفَعُ لِلَّهِ الأكُفَّ ضَرَاعَةً فَكَمْ دَعَواتٍ لاَيَرَدُّ مُجابُهَا

إلى أنْ أرَانَا اللُّطْفَ في ذَاتِكَ التِي فَدَتْهَا البَرايَا شِيبُهَا وَشَبابُهَا

لأذْنَبَتِ الأيَامُ فيمَا أتَتْ بِهِ وها هِيَ مَقْبُولٌ لَدَيْكَ مَتَابُهَا

ولِمْ لاَ وقَدْ جاءَتْ بأيْمَنِ صِحَّةٍ يَصِحُّ بِهَا عمَّا يَرِيبُ اجْتِنَابُهَا

وللهِ مِن بُشْرَى أتَتْكَ بِوافِدٍ تَجلَّى عَلى حُكْمِ السُّعُودِ شِهَابُهَا[307]

مَخائِلُهُ دَلَّتْ علَى مَا وراءَهَا وبَعدَ رَذاذِ السُّحبِ يُرْجَى انسِكابُهَا

فَلَوْ أحَذَتْ منهُ النجُومُ خِلاَلَهَا لمَا كانَ في نَهْرِ النَّهَارِ احْتِجابُهَا

وأبْصَرَ مَرْآهُ التَّبابِعَةُ الأُلَى لَمَا كان بالتِّيجانِ قَبْلُ اعْتِصابُهَا

وَعُذْرًا فإنِّي فيهِ وفَّيْتُ قَبْلَهَا مَعانِيَ راقَ السَّامِعِينَ اقتضابُهَا

وللهِ إعْذارٌ أتاكَ صَنيعُهُ بآيات صُنْعٍ لَيْسَ يَخْفَى عُجابُهَا

أقَمْتَ بِهِ للدِّينِ أكْرَمَ سُنَّةٍ تَرُوقُ بلبَّاتِ المَعالِي حِقابُهَا[308]

---

(305) نهابها جمع نهب.

(306) كتب في الطرة : ذكر التألم وتمكن الراحة بعده.

(307) كتب في الطرة : ذكر المولود المتقدم ذكره.

(308) الحقاب : ما يتعلق به الحلي.

وأضْفَيتَ للرِّفْدِ العِمِيمِ مَلابِسًا يَروقُ عَلى الأعْطَافِ مِنَّا انْسِحابُهَا

وأرْسلْتَ فيهِ الخَيْلَ قُودًا سَوابِقًا يُسَكِّنُ مُرْتاعَ القُلوبِ اضْطِرابُهَا

هِيَ المُرْسَلاتُ الغُرُّ لَوْلاَ انقِيادُهَا لَصحَّ إلَى الرِّيحِ العَقيمِ انتِسابُهَا

طَلائِعُ شُهْبٍ قَدْ حَكَيْنَ طَوَالِعًا مِنَ الشُّهْبِ في أُفْقِ العَجَاجِ ارْتقابُهَا

فَتُفْرِجُ عَنْهَا الحَرْبُ شُهْبًا مُنيرَةً إذا كانَ بالنَّقْعِ المُثارِ احْتِجابُهَا -220-

وصاعِدَةٍ في الجَوِّ ألْقَتْ ذُيُولَهَا فَراقَ بآفاقِ السَّحابِ انسِحابُهَا

تجِنُّ إلَيْهَا الذّابِلاَتُ فَتَرْتَمِي قُرُوعًا يُرينَا الأصْلُ كَيفَ اجْتِذابُهَا

إذَا ثَبَتَتْ رَاقَ العُيُونَ ثَباتُهَا أو انقَلَبَتْ رَابَ النُّفوسَ انقِلاَبُهَا

كأنّ طُيُورًا في ذَرَى الجَوِّ حَوَّمَتْ وثَابَتْ لأوْكَارٍ بِهِنَّ وِثَابُهَا

تُقيمُ إذا لاَقَى الأمَانَ ارْتِياعُهَا ورُبَّتَمَا عَنْهَا ثَناهَا ارْتيابُهَا

إذا أخْطَأَ الخَطِّيُّ يَهْدِيه خَطُّهَا ومَا كانَ يَانَى أنْ يُصيبَ صَوابُهَا

إذَا اعْتَمَدَتْ قَوْسُ السَّماءِ عَمُودَهَا لِرَمْيٍ فَسَهْمُ السَّعْدِ يُدْنِيهِ قَابُهَا

ولِلّهِ مِنْ نَجْلَيْكَ شِبْلاَنِ أقْدَمَا لأمْرٍ حَمَى عَن مِثلِهِ الأُسْدَ غَابُهَا(309)

رُوَيْدًا فَلَوْلاَ سُنَّةٌ نَبَوِيَّةٌ يُلَقَّى ثَوابَ الصَّابِرِينَ مُثَابُهَا

وَشيمَةُ فَضْلٍ راقَتِ القَوْمَ مِنهُمَا فَيَرْجُو عُلاَهَا مُعْذِرٌ ويَهابُهَا(309م)

لَسُلَّتْ مِنَ البِيضِ الرِّقاقِ صِفاحُهَا وهُزَّتْ مِنَ السُّمْرِ الطِّوالِ كِعابُهَا

عَلَى أنَّ نُورَ الشَّمْعِ يُذكيهِ قَطُّهَا ويَنشَأُ عن بَرْيِ اليراعِ اكْتِئابُهَا

وهَلْ فَهْوةٌ حتّى يُزاحَ فِدَامُهَا وهَلْ مِسْكَةٌ حَتَّى يُزالَ إهَابُهَا

ولَيسَ اقتِرابُ المَشْرَفيَّةِ نافِعًا لَدَى الحَرْبِ إلاَّ أنْ يَبِينَ قِرابُهَا

فلَمْ يُرْضِ لَوْلاَ الصَّقْلُ مِنْهَا فِرِنْدُهَا ولَمْ يمْضِ لَولاَ الشَّحْذُ مِنْهَا دُبابُهَا

فَهُنِّئْتَهَا بُشْرَى تَوضَّحَ بِشْرُهَا فَأهْدَى اجْتِلاَبَ النَّيراتِ اجْتِلاَبُهَا

---

(309) كتب في الطرة ذكر الأميرين عند الاعدار.

(309م) عُلاها : كتب فوقها : حلاها. أي أنهما قراءتان.

وبَيْعَةَ عِزٍّ أَحْكَمَ الصُّنْعُ عَقْدَهَا ... وجاءَ بمِيقَاتِ السُّعُودِ كِتَابُهَا(310)

ولاَيَةُ عَهْدٍ يَصْحَبُ الفَتْحُ قَصْدَهَا ... ويُفْسَحُ لِلنَّصْرِ العَزِيزِ جَنابُهَا

دَعَوْتَ لَهَا أَهْلَ البِلاَدِ فَأَهْطَعَتْ ... وُفُودٌ بِهَا سَبْقًا تَرامَتْ رِكَابُهَا

لِحَضْرَةِ مُلْكٍ أَعْذَبَتْ مَشْرَعَ النَّدَى ... وقَدْ شُرِعَتْ للوَارِدِينَ قِبابُهَا

أَتَتْهَا شُعُوبٌ مِنْهُمُ وَقبائِلٌ ... فَغَصَّتْ بِهِمْ أَعْلاَمُهَا وشِعابُهَا

تَخَيَّرْتَ لِلإِسْلاَمِ خَيْرَ مُؤَمَّلٍ ... لِبَيْعَتِهِ راقَ الوُفُودَ ابتِدابُهَا

فَلِلهِ مَا أَسْمَى خِلافَتَكَ التِي ... تَخَيُّرُهَا طَوْعَ العُلَى وانتِخابُهَا -221-

وإِنَّ مَرِينًا أَمَّلَتْكَ لِنَصْرِهَا ... وقَدْ جَدَّ مِنْ سُمْرِ الرِّماحِ لِعابُهَا(311)

حُلُولُ الجِلاَلِ النَّاصِرِيَّةِ قَصْدُهَا ... وَحَمْدُ الخِلالِ اليوسُفِيَّةِ دأْبُهَا

كأَنِّي بِهَا والصُّنْعُ مِنْكَ حَلِيفُهَا ... وقَدْ ذَهَبَتْ أَضْغَانُهَا وَضِبابُهَا(311م)

وقَدْ نَهِلَتْ فِي جودِ كَفٍّ تَسَحَّبَتْ ... بأُفْقِ المَعالِي فِي نَداهَا سَحابُهَا

ودونَ إِمَامِ الهَدْيِ رائقَةَ الحُلَى ... تَفُوقُ خِلاَلَ الغَانِياتِ كَعابُهَا(312)

تَهادَتْ قَوافِيهَا فأَصْبَحَ مُهْدِيًا ... كَتائِبَ للنظْمِ البَدِيعِ كِتابُهَا

إِذَا ارْتَابَ قَوْمٌ انَّهَا الزُّهْرُ فِي العُلَى ... أَوِ الزَّهْرُ فِي الأَدْواحِ يُدْكَى مَلاَبُهَا(313)

تَلُوحُ فَيَسْتَهْوِي النُّفوسَ ارْتِياحُهَا ... ويَذْهَبُ عَنْهَا شَكُّهَا وارْتِيابُهَا

فَهَذِي التِي تُعْطِي البَلاغَةَ حقَّهَا ... ويَدْفَعُ حَطْتَ النَّاقِدِينَ حِطابُهَا

مِنَ العُرْبِ تُسْتَحْلَى حُلاهَا وَيُحْتَلى ... لُغامُ مَطايَا لفظِهَا لاَ لُغابُهَا(314)

---

(310) كتب في الطرة : ذكر أخذ البيعة وولاية العهد.

(311) كتب في الطرة ذكر مرين وطلبها مه.

(311م) ضباب جمع ضب، وهو هنا العل والعيط، ومنه قول سابق البربري :

ولاَ تبكُ دا وخْهَبِي يُبْدِي بشاشَةْ ... وَفِي صدْرِهِ ضَبٌّ من العلِّ كامِنُ

(312) كتب في الطرة الخاتمة على عادة الشعراء.

(313) المَلاب ضرب من العِطْر.

(314) اللُّعاب : الإعياء. ولعام المطية هو الزَّبد الذي يكون على مَلاعمها

وليْسَتْ قَوافِي الشِّعْرِ إلاَّ رَكائِبٌ تَضِلُّ فيَهْدِيهَا مِن المَدْحِ هابُهَـا
بَقيتَ ومِن كَفَّيْكَ سُحْبُ مَواهِبٍ تجودُ فَيُجْـدِي الآمِليـنَ انسِيابُهَـا
فكَمْ دَعوَة مِنهُمْ لعُلْياكَ أُخْلِصَتْ ومَا كانَ يُلْفَى خائبًا مُسْتَجابُهَـا

وفِي آخر صَفَر مِن عَام تِسْعَةَ عَشَر وثمَان مائَةْ
ورَدَ الخَبَر عَلى الحَضرَةِ بِوَفاةِ طاغِيةِ رغُونِ
المُلَقَبِ بالإفَنْتِ عمِّ صَاحِب قَشْتالَةَ ووَصيِّه
وَهُوَ المُتغلِّبُ قبْلُ عَلى مَعْقِل انتقَيْرة والصَّحْرَةِ
وغيرِهِمَا مِن حُصُونِ الغَرْبِيَّةِ أعادَهَا اللَّهُ
فَقلتُ أهَنِّئُهُ رَحمَةُ الله عليْهِ بذَلِكَ(316)

هُوَ النَّصْرُ لاَ وابٍ ولاَ مُتَماكِثُ رَكائِبُـهُ طَـوْعَ السُّعـودِ حَثـائِثُ
هُوَ الفَتْحُ عَزّتْ أرْضُ أنْدلسٍ بِهِ وذَلَّ المُنـاوِي والْعَـدُوُّ المُنَـاكِثُ -222-
هُوَ العِزُّ لاَ يَفْنَى مُرَدَّدُ دكْـرِهِ مُخَلَّـدُهُ فِي صَفْحَـةِ الدَّهْـرِ لابِثُ
هُوَ الصُّنْعُ قدْ حَلَّتْ مَواقِعُه التِي بهَا اللَّهُ للدّنيـا وللدِّيـنِ غـائِثُ(317)
عَظائِمُ قَـدْ جَلَّتْ فَـدَلتْ لِعِزّهَـا طُعَـاةٌ بُغَـاةٌ للْعُهُـودِ نَـواكِثُ
أُصيبَ إفَـنْتُ الـرُّومِ فَارْتـاعَ قوْمـهُ وأضْحَتْ بِطاحُ الرُّشْدِ وهْيَ أواعِثُ(318)
تَجَـرَّعَ صابَ المَوْتِ لاَدَرَّ دَرُّهُ فأيْدِي المَنَايَا كَيْفَ شَاءَتْ عوابِثُ
أصابَتْهُ مِن صَرْفِ الزَّمَانِ مُصيبَـةٌ بهَا المَوْتُ عاثٍ فِي حِمَاهُ وعَائِثُ

(315) الحاب الصوت الذي تحدى به الابل.
(316) رعود : أرغون ARAGON والافت EL INI ANTE وأنتقيرة ANTEQUERA والصّحرة : صحرة عنّاد ZAHARA والعربية تطلق على ما يقع عرب عرباطة، ومقابلها : الشرقية
(317) عائث : يقال عاث الله البلاد يعيثها، وأعاث أيضًا.
(318) أواعث المواضع الكثيرة الوحل

سِهَامٌ مِن الأَيَّامِ فيهِ نَوافِذٌ [وَفِي] عُقَدِ السَّرْبِ المَرُوعِ نَوافِثُ
لَئِنْ أَمَّنَتْ مِنهُ الحَوادِثُ قَابِلاً عُهُودَ صُرُوفِ الدَّهْرِ فَهْيَ نَكائِثُ
وَهلْ مِثْلُهُ بَحْرَ العَظائِمِ عَابِرٌ لِيَسْجُو وَمِنْ سَيْفِ المَنِيَّةِ عابِثُ
وَهَى رُكْنُ عُبَّادِ الصَّلِيبِ بِمَوْتِهِ فَها هُوَ مِن بعْدِ العُلَى مُتَقاعِثُ(٥)
تَقَدَّمَ يَقْفُو فِي الحَحِيمِ سَبِيلَهُ لِمنْتَحِلِي الإِشْراكِ رَكْبٌ أشاعِثُ
فَقَدْ راقَتِ الدُّنْيَا جَمالاً وبَهْجَةً وقدْ أخصَبَتْ مِنْهَا بطاحٌ عَثاعِثُ(٥)
عَجائِبُ لاَ الأَيَّامُ أَحْدَثْنَ مِثْلَهَا ولاَ الدَّهْرُ عَنْهَا فِي القَدِيمِ يُحادِثُ
يَقول لِسانُ الدَّهْرِ والكُفْرُ صامِتٌ هَلُمُّوا فإنِّي عَنْ حُلاَهَا مُحَادِثُ
سُعُودُ إمَامٍ لَمْ تَزَلْ عَزَماتُهُ لَدَيْهِ عَلى النَّصْرِ العَزِيزِ بَوَاعِثُ
هُمامٌ إذا طالَتْ رِماحُ جُنُودِهِ زَكَتْ عَنْهُ أَخْبارٌ وَطابَتْ أَحَادِثُ
أَبِيٌّ إذا جَدَّتْ سُيُوفُ جِهَادِهِ فَهُنَّ بِهَامِ المُعْتَدِينَ عَوابِثُ
ولِيُّ نَدًى يَنْهَلُّ صَيِّبُ جُودِهِ فَينهلُّ ظَمْآنٌ ويَطْعَمُ عَارِثُ(319)
حَليف عُلاً تَبغِي النُّجومُ تَوَصُّلاً لهَا وَهْيَ دُونَ القَصْدِ مِنْهَا لَوابِثُ
بِهِ يَهْتَدِي سارٍ ويَنْجَحُ مَقْصَدٌ ويَقفُو سَبِيلَ الرُّشْدِ فيهِ مُبَاحِثُ
فإن بَاحَثَتْ فيهِ المَعَالِي خَلائِفًا مَضَتْ فَلَهُ بالفَضْلِ تَقْضِي المَباحِثُ
تَدُل عَلَى العَلْيَاءِ مِنْهُ مَحَائِلٌ عَلَيْهِنَّ مِصْدَاقُ الفِراسَةِ بَاحِثُ
لِمَا عَزَّ وَهَّابٌ وبالسَّيْفِ دَافِعٌ وَفِي الحَرْبِ مَنّاعٌ وللجَيْشِ بَاعِثُ 223-
فَوَفَّى حُقُوقَ المَكْرُمَاتِ وَطَالَمَا وَفَى بعُهُودِ المَجْدِ والدَّهْرُ نَاكِثُ
وَرَدَّ جُنُودَ الشِّرْكِ وهْيَ عَوابِثٌ وَأَرْدَى أُسودَ الغَابِ وَهْيَ دَلاَهِثُ(320)
فَلا العَزْمُ مَفْلُولٌ ولاَ الرأْيُ فَائِلٌ ولاَ الحَزْمُ مَخْذُولٌ ولاَ الخَطْبُ كَارِثُ(321)

---

(٥) متقاعِث : مُسْتَأْصَل، عَثاعث : مُخْدِبة.

(319) غارث : حائع.

(320) دلاهث : الحريئة المقدمة.

(321) كارث : الشاقّ على الانسان.

حُلًى قصّرتْ عَنْهَا القَياصِرَةُ الأُلَى ... بِمَعْنًى انفِرَادٍ لَيْسَ ثانٍ وثَالِثُ

أتَطْلُبُ أمْلاكَ الزَّمَانِ مَنالَهَا ... وَقدْ أذْعَنَتْ سَامٌ وَحامٌ وَيَافِثُ

فَيَا ناصِرَ الاسْلاَمِ والواهِبَ الذِي ... تَؤُمُّ ظِمَاءٌ جُودَهُ وغَوارِثُ

تَهَنَّأْ عَلَى حُكْمِ السُّعُود فإنَّهُ ... قَديمٌ مِن الصُّنْعِ الجَميلِ وَحادِثُ

حُبِيتَ بِهَا بشرَى فَحلّتْ عَلى النَّوَى ... لَدَيْكَ وأفواجُ السُّرور حَثَائِثُ

كأنْ بِبلاَدِ الشّرْكِ بالسَّيْفِ قَدْ عَفَتْ ... وبَانَتْ خَبايَا عَنْدَهَا وَخَبائِثُ

وقدْ عُمِرَت بالمُسْلِمِينَ مَشاعِرٌ ... ولُمَّتْ مِنَ الدّين الحَنيفِ مَشاعِثُ(322)

كأن بالذي ألقَى بِسَبْتَةَ رَحْلَهُ ... وقد فَرَّقَ المِقْدارُ ما هُوَ حارِثُ(323)

سَيُفْرِحُ عَنْهَا والأُنُوفُ رَوَاعِمٌ ... وقدْ كُفيتْ مِنهُ حُطُوبٌ كَوَارِثُ

ويَقْصِدُ أرْضًا لاَ تُقِلُّ رِكَابَهُ ... وكَيفَ وأسْبابُ النّجَاةِ رَثَائِثُ(324)

تُرَدُّ جُنُودٌ عِنْدَهَا وَكَتَائِبٌ ... ويُكْفَى خُطُوبٌ بَعْدَهَا وَحَوادِثُ

ورأْيٌ رَاهُ فَهْوَ مِنْهُ بِطِلْفِهِ ... عَلَى حَتْفِهِ كَيفَ اقتَضَى الغَدْر بَاحِثُ

فأفْعالُهُ فِي النَّحْمِ حِينَ يَرُومُهَا ... حدائِث عَهْدٍ وَالعُهُودُ نَكائِثُ

كَفَى اللَّهُ مَن فِيهَا [عَلَيْهِ] تَطاوَلتْ ... أرَاذِلُ مِن أحْزابِهِ وأحَابِثُ

إذا خَفِيَتْ فِي ظُلْمَةِ النّقْعِ هَامُهُمْ ... أشِعَّةُ بيضِ الهِندِ عَنْهَا بَواحِثُ

فَتُرديهِ أُسْدٌ مِن جُودِكَ طَالَمَا ... تَحَيَّزَ عَنْهَا وَهْوَ لاَهٍ ولاَهِثُ(325)

يُؤَمِّلُ فِعْلاً وَهْوَ للحَقّ رافِضٌ ... يُحاوِلُ قَوْلاً وهْوَ فِي النّطْقِ لاَفِثُ(٥)

ورِثْتَ مِن الصّحْبِ الكِرَامِ مَآثِرًا ... سَبَقْتَ لهَا حَيْثُ المُلوكُ لَوابِثُ

حُبِيتَ بِهَا قِدْمًا كمَا شاءَتِ العُلَى ... وآثارُ أهْلِ المَعْلُواتِ حَدائِثُ

---

(322) مشاعث : الأمور المتفرقة.

(323) حارث . حامع.

(324) رثائث حلقة.

(325) لاهث : من اللهث بمعنى العطش.

(٥) لافث وألفث : أحمق.

لَئِنْ دَرَجَ الأَعْلَوْنَ أَبْنَاءُ قَيْلَةٍ ... بحَيْثُ رِياضُ المَكْرُمَاتِ أَثَائِثُ(326) -224

فَوارِثُهُم مَنْ أَنْهِدَتْ مِنْ جُنُودِهِ ... فَوارسُ والبِيضُ الرِّقاقُ فَوارِثُ(*)

إذا ما قَضَى الجُودُ المُؤَمِّلُ نَحْبَهُ ... وللعَهْدِ في التَّعْصيبِ والفَرَضِ ناكِثُ

ولاَ طَلَبٌ إلاَّ عَنِ المَنْحِ حاجِزٌ ... ولاَ سَبَبٌ إلاَّ لهُ المَنْعُ فارِثُ(*)

تُؤَمِّلُكَ القُصَّادُ بَدْءًا وعَوْدَةً ... فَلاَ وَارِدٌ إلاَّ لِرُحْماكَ وَارِثُ

لِتُرْوَى بحُكْمِ الجُودِ عَن واكِفِ الحَيَا ... عَنِ البَحْرِ عَن جَدْوَى يَدَيْكَ الأَحَادِثُ

وَهَبْتَ وقَدْ أَمَّنْتَ عائِلَةَ العِدَى ... فَلَمْ يُرْحَ مَامُول ولَمْ يُخْشَ حادِثُ

أَمَوْلاَيَ خُذْهَا لِلثَّنَاءِ حديقَةً ... كأَنَّ النَّسيمَ اللَّدْنَ بالمِسْكِ مَائِثُ(327)

وجَدَّتْ جيادُ الحَمْدِ مِنْكَ فَراقَها ... مَلاَعِبُ في أُفْقِ العُلَى ومَعابِثُ

فَسارَتْ مَسيرَ الشَّمْسِ أَخْبارُ وَصْفِهَا ... وفي ضِمْنِهَا المَجْدُ المؤَثَّلُ مَاكِثُ

وأَهْدَتْ مِنَ الأَفْكَارِ أَبْكارَهَا التي ... تَهادَتْ ولم يَفْتضَّهَا قَبْلُ طَامِثُ

وحسَّنَ فكْرِي نَظْمَ كُلِّ عَجيبَةٍ ... فَها هُوَ حَسَّانٌ وجُودُكَ حَارِثُ(*)

قَصَرتُ عليْهَا الفِكْرَ حَتَّى تَقَاصَرَتْ ... مَثَانٍ لَدَى إنشَادِهَا ومَثَالِثُ

ولَمْ لاَ يَرُوقُ السَّامِعِينَ حَديثُهَا ... ومَنظُومُهَا في عُقْدَةِ السِّحْرِ نَافِثُ

ولَمْ لاَ وَمن جَدْوَاكَ صَوْبُ غَمامَةٍ ... مِنَ البِشْرِ تُزْجيهَا بُرُوقٌ حَثَاحِثُ

وأَنتَ الذِي تُولِي المَكارِمِ والنَّدَى ... وتُقدمُ جيْشَ النصْرِ والشَّرَكُ رائِثُ(*)

فأَقْسَمَ عِزُّ النَّصْرِ أَنَّكَ وَارِثٌ ... بِلاَدَ العِدَى طُرًّا ومَا هُوَ حَانِثُ

(*) فوارث : قواطع، فارث : قاطع.

(326) أثائث : الملتفة المرتفعة. وأباء قيلة هم الأنصار من الأوس والخزرج.

(327) مائث : مختلط.

(*) الإشارة إلى حسّان بن ثابت والحارث الغسّاني.

(*) رائث : مبطىء متخاذل.

ولمَّا عادَ ركابُهُ العِلِّي من مَالَقَة المحْروسَة
واسْتَقَل بقَصْر نُبْلُه مُتَلَوّمًا به أيَّامًا لِلراحَةِ
وَالصَّيْدِ في يَوْمِ الخميسِ الخامِسَ عشَر لِشَعْبَان
عام تسْعَة عَشَر وثمَان مائة وقَدْ أمَرَ جُنْدَ حَضْرَتِهِ
بِتَلَقّي وِلّي عَهْدِهِ وإيصالِهِ إلى حَمْرائه
العَلِيَّةِ وعَرّجَ هُوَ إلى حَيْثُ ذكِرَ فقلتُ

-225-

لَعمرك ما يَثْنِي الرِّكَابَ تَـرَبُّصُ ... وَشَمْسُ سُراهَا مِن دُجَى البِيد تخلُصُ
سَرَتْ وبُدُورُ الأوْجُهِ الغُرّ فَوْقَهَـا ... لهَا مِن سِرار البُعْدِ لِلْقُرْبِ مَحْلَصُ
تَقُولُ وَقَدْ رابَ الشُّحُوبُ وُجُوهَهَا ... هَـلِ الـذَّهَبُ الابريـزُ إلاَّ المخلَّصُ
رَحَلْنَا بهَا طَوْعَ النَّوَى نَقْطَعُ الفَلاَ ... وشِرْعَتُهَـا طَـوْعَ المُقـامِ تُـرَخِّصُ
وجاءتْ لِمَعْنَى الجَمْعِ أحْرُفُ سَيْرِهَا ... ولَـيْسَ ذُنـوبٌ عِنْدَهَـا فَتُمَـحَّصُ
وَقَدْ ظَنّتِ البَيْـداءَ رَوْضًا مُفَوَّقًـا ... يُغنّي الصَّدَى من جانِبَيْهَا فَتَرقُصُ[328]
فَيا طالِبًا في الرَّكْبِ أيْسَرَ لَحْظَةٍ ... عُمومًا ومَعنَى القصْدِ فيهَا مُخَصَّصُ
أَلَمْ يَانِ لِلشّخْصِ الدي حفِيَ اسْمُهُ ... عِنِ الوَهْمِ أنْ يَرْعاكَ وَالركْب يشْخَصُ[329]
سَل القومَ عنْهُ والهَوَى حيْثُ أصْبَحَتْ ... جِيادُ أمانيـهِ تَـخُبُّ وَتَقْـلُصُ[330]
تَـؤُمُّ سُرَاهَـا والصَّبَابَـةُ خَلْفَهَـا ... فَـتسْري بجسْمٍ قَلْبُـهُ مُتَـرَبِّصُ
إن اسْتَيأسُوا مِن وُدّهِ طَوْعَ بُعْدِهِ ... فَقَدْ خلَصُوا مِنْهُ نَجِيًّا وأخْـلَصُوا[٥]
فللِهِ كَـمْ وَجْنـاءَ خَـفَّتْ بمُثْقَـلٍ ... عَلاَ مَتْنَهَا طَاوِي الحشَا مِنْهُ أحْمَصُ[331]
عَزيزٌ عليْهَا أنْ تَرَى أرْبَعَ الهَوَى ... وأطْلاَلُهَا للوَحْشِ والطّيْرِ مَفْحَصُ[332]

(328) رَقْص الابل : ضرب من سيرها كالحب.
(329) شحص الركب : سار إلى مكان بعيد.
(330) الخَبّ والقلوص : ضربان من السير.
(331) أحمص : دقيق البطن.
(332) مَفْحَص : موضع افراخ القط وغيره من الطير.
(٥) هذا من قوله تعالى في سورة يوسف : «فَلَمّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا».

وآثارُهَـا تُخْفِـي مَواقِـعَ أدْمُـعٍ تُهينُ مَصُونَ الدُّرِّ مِنْهَا وَتُرْخِصُ
كأنّ الذي مالتْ بِهِ سِنَةُ الكَـرَى لدَى أحرَيَاتِ اللّيْلِ في الرّحْلِ أوْقَصُ[333]
كأنَّ نُجومَ الأفْـقِ أرْهَـارُ دَوْحَـةٍ عَلَى قَطْفِهَا نَاتَتْ يدُ الفَجْرِ تَحْرِصُ
كـأنّ ظَـلاَمَ اللّيْـلِ فيـهِ عَدَائِـرٌ تُلاَثُ عَلى هامِ النُّجومِ وتُعْقَصُ
كأنّ الضُّحَى إذْ طالَ لَيْلَي مُعْـرَمٌ كَمثلِي يُرَجّى القُرْبَ والقُرْبُ مُعْوِصُ[334]
كأنّ السُّرَى للْمُلْتَقَى ظِلُّ داجِـرٍ إذا طَلَعَتْ شَمْسُ الضّحَى يَتَقلَّصُ
كـأنّ ثَوانيهَـا نسيبٌ وحَتُّهَـا لمَـدْحِ الامَامِ اليُوسُفِـيّ تَخَـلُّصُ
فإنَّ سَحَابَ الأفْقِ والغَيثُ مُسْبَلٌ لمجْموعُ جُودٍ من نَـداهُ مُلَـخَّصُ
تُؤمّلُـهُ الأمْـلاكُ مَثْنَـى وَمَوْحَـدًا وقدْ مَحَضُوا فَضْلَ الوِدادِ وأخْلَصُوا -226
فتُوسِعُهُـمْ طَـوْلاً خِلافَـتُكَ التـي لهَا الفَضْلُ أجْلى والمَودةُ أخْلَصُ
لقدْ لاَذَ مَن آوَى لخِدْمَةِ يوسُفٍ بجانِب عـزٍّ لـمْ يَرُعْـهُ تَنَـقُّصُ
وَهذِي بِلاَدُ الغَرْبِ مَادَتْ بأهْلِهَا فَبـاسِطُ أمْـرٍ عِندَهَـا ومُقَـلِّصُ[335]
أتَرْجُـو أمانًـا مِـنْ سِواكَ وإنَّـهُ لأبْعَدُ مِن نَيْلِ النُّجومِ وأعْـوَصُ
ومَـن أمَّـلَ العُقْبَـى لَـدَيْكَ فَضِدّهُ يُرَدُّ عَلى الأعقَـابِ مِنْـهُ ويُنْـكَصُ
وَظَـنّ الـذي نـاواكَ لاَ دَرَّ دَرّهُ بـأنَّ لِذِيـذَ العَـيْشِ لاَ يَتَنَـغَّصُ
فَـلاَ أُفْـقَ إلاَّ جَـوّهُ مُتَغَيِّـمٌ ولاَ دَوْحَ إلاّ ظِلُّـهُ مُتَقَـلِّصُ
لأقْدَمَ حَتَّـى مالَـهُ عـنْكَ مَهْـرَبٌ وأحْجَمَ حَتَّى مَالَهُ مِنْكَ مَخْـلَصُ
ومَنْـزِلِ عـزٍّ جئتَـبهُ فَجِلاَلُـهُ مَجالٌ لأفْراسِ الجِهـادِ ومَقْـنَصُ[336]
فَكَـمْ قَنَصٍ مَـدَّ الخُطَـا مُتَراميًـا إذا مَا رَمَى لَمْ يُخْطِهِ المُتَقَنّصُ[337]

---

(333) الأوقص : القصير العنق.

(334) مُعْوِص : صعب.

(335) مادت، يقترح الشاعر أيضًا : ماحت.

(336) مقنص أي موضع قنص وصيد، وهو ها يشير إلى قصر تُلُه.

(337) المتقنّص : الصائد.

وكمْ جارِحٍ يَسْتَقْبِلُ الطَّيْرَ جارِحًا ... إذا وَثَبَتْ في جَوِّهَا يَتَغَمَّصُ[338]

لهُ عَوْدَة بعْدَ النّزُوعِ فإنَّهُ ... أبِيٌّ وَفِيٌّ لِلمَوَدّةِ مُخْلِصُ

يَمُدّ جَنَاحَيْ عَزْمِهِ وهْوَ مُعْجَبٌ ... بِعِطْفَيهِ شَتْنُ الكَفِّ افْتَخُ أقبَصُ[339]

لِعَيْنَيْهِ في جَوِّ السَّماءِ تَقَلُّبٌ ... بِهِ لِظِلالِ الْأَمْنِ عَنْهَا تَفَلُّصُ

وَتَنْحَطّ أحْيَاناً إلى الْأَرْضِ يَرْتَجِي ... نَجاةً فَيَثْنِيهَا الجَوادُ المُقَلِّصُ[340]

وَذُو أرْبَعٍ لاَ تَخْتَفي عَنْهُ كُلَّمَا ... يُفَتِّشُ عَنْهَا في الرَّوَابِي ويَفْحَصُ

وَطِرْفٌ يَفوقُ الطَّرْفَ سَبْقًا إذَا ارتَمى ... تَرَى عَيْنَهُ قَبْلاَء في الرَّوْعِ تَشْخَصُ[341]

أغَرُّ بَعيدُ الحَطْوِ يُمْنًى لِلاحِقٍ ... لهُ في المَدَى جِدٌّ وجيدٌ مُنَصَّصُ[342]

يُجيلُ الامَامُ المُرْتَضى منْهُ سابَقًا ... لهُ مُطْرِبٌ مِن ذِكْرِ عُلْياهُ مُرْقِصُ

فمَن مِثْلُهُ والأنْجُمُ الزُّهْرُ دونَهُ ... إذا مَا عَلاَ أفْقَ العُلَى مِنهُ أخمَصُ[343]

وإنْ عُدّ آلَ المُلْكِ صيتًا وَرِفْعَةً ... وَحُودًا يَعُمُّ المجْتَدِي ويُخَصّصُ

فإنّ وَلِيّ العَهْدِ أرْفَعُ مَظْهَرًا ... فَلَيْسَ عَلَى نَيْلِ العُلَى مِنْهُ أحْرصُ

هِلالٌ بأُفْقِ المُلْكِ رَاقَ فَنُورُه ... يَزيدُ كَمالاً والأهِلةُ تَنْقُصُ -227-

أتَى فتَلَقَّتْهُ الوُفُودُ وَفَوْقَهَا ... ظِلال من الآلآءِ لاَ تتَقَلَّصُ

وَسُرُّوا فمَا صَفْوُ الحَياةِ مُكَدَّرٌ ... لَدَيهِمْ وَلاَ العَيْشُ الهَنِيُّ مُنَغَّصُ

فَهُنِّئْتَ أن وَافَيتَ حَضْرَتَكَ التي ... لدين الهُدَى فيهَا البِناءُ المَرَصَّصُ

وهُنِّئتِ الدنيَا قُدُومًا غَدَتْ لَهُ ... تُحَرِّكُ عِطْفَيْهَا سُرُورًا وتُرْعِصُ[343م]

وَدُونَ إمَامِ الهَدْيِ مِنْهَا قِلاَدَةٌ ... يَرُوقُكَ مِنْهَا الجَوْهَرُ المُتَخَلِّصُ

(338) يتعمّص : يثبُ.

(339) أقبص : كبير الهامة.

(340) المُقلّص : الطويل القوائم.

(341) تشخصُ : يرفع عينه إلى أعلى

(342) لاحق اسم فرس معروف، ومنصص مرفوع.

(343) أخمص : حصر القدم.

(343م) ترعص . تهتز.

أَتَتْكَ عَلى قُرْبِ المَدَى عَرَبِيَّةً لَبِيدٌ بَليدٌ عَنْ حُلاَهَا وأَحْوَصُ(٥)
فأَعْلَيْتَ مِنهَا الْقَدْرَ وَهْوَ مُخَفَّضٌ وأَغْلَيْتَ مِنهَا السَّوْمَ وهْوَ مُرَخَّصُ
فَلاَ زَالِتِ الدنْيَا تُخَلِّدُ ذِكْرَ مَا تُجيرُ بِه مِنْ خَطْبِهَا وتُخَلِّصُ

وكَبا بِهِ رَحمهُ الله فَرَسٌ ورِكَابُهُ العَلِيُّ مُقيمٌ
بوَلْجَرْ من سَفْحِ جَبَل شُلَيْر في يَوْمِ السَّبْت السَّادِسِ لِجُمَدى
الثَّانيَةِ عَام تسْعَة عَشر وثمَان مِائةْ فارْتَجَلْتُ
للِحينِ أُهَنِّئُهُ بالسَّلاَمَةْ(344)

هَنيئًا لِدِينِ الهُدَى الأَشْرَفِ سَلامَةَ نَاصِرِهِ يُوسُفِ
هَنيئًا وبُشْرَى لِغَرِّ الجِيادِ ولِلسَّمْهَرِي ولِلمَشْرَفِي
جَرَى القَدَرُ الحَتْمُ ثمَّ انثَنَى وقَالَ لَهُ الصُّنْعُ مَهْلاً قِفِ
تَرامَى الجَوادُ عَلَى غَفْلَةٍ ولَمْ تَثْنِهِ هِزَّةُ المَعْطِفِ
فَعَنْ أَعْطَفِ الخَلْقِ مَا بالَهُ تَرامَى سَريعًا ولَمْ يَعْطِفِ
ولِكن لَهُ العُذْرُ فيمَا أَتَى فلَمْ يَكْبُ وَهْنًا ولَمْ يُسْرِفِ
عَلاَ مَتْنَهُ مِنْكَ مَوْلًى هُمَامٌ رَءُوفٌ عَطوفٌ كَرِيمٌ وَفِي
لَهُ راحَةٌ بَاتَ يُرْوَى النَّدَى عنِ البَحْرِ عَن سُحْبِهَا الوُكَّفِ
لَهُ طَلْعَةٌ لَوْحَكاهَا الضُّحَى لمَا ظَلَ مِنهُ السَّنَا يَخْتَفِي 228-
وسَاجَلَهَا النَّجْمُ لَمْ يَحْتَجِبْ وأَمَّلَهَا البَدْرُ لَمْ يُخْسَفِ
فَرامَ لِيَشْكُرَهَا نِعْمَةً بغَيْرِ السُّجُودِ فَلَمْ يَكْتَفِ

---

(٥) لبيد والأحوص شاعران معروفان.

(344) يدّل هذا الكلام على أن الشاعر جمع هذا الديوان بعد وفاة ممدوحه، وولجر : اسم قرية تقع خارج غرناطة في سفح جبل شلير، واسمها اليوم GUEJAR أمّا جبل شلير فهو جبل الثلج المشرف على غرناطة المسمّى : Sierra Nevada.

فمدَّ إلَى سَجْدَةِ الشُّكْرِ كَفًّا ... وقَدْ راعَهُ هائِلُ المَوْقِفِ
ولكِنْ سَلِمْتَ فَراقَ الوُجودَ ... مَقامٌ عَنِ الجُودِ لَمْ يَصْدِفِ
فَلِلّهِ بُشْرَى أَتَتْ عِنْدَهَا ... فكانَ الزَّمَانُ بِهَا مُتْحَفِي[345]
لَقَد لهجَ العَبْدُ مِنْ أَجْلِهَا ... ولَوْ بَذَلَ الرُّوحَ لَمْ يُنْصِفِ
ولاَزالَ رَوْضُ المُنَى يُجْتَنَى ... بِظِلِّ عنَايَتِكَ الأَوْرِفِ
ومُتّعتَ بالصُّنْعِ إذْ لَمْ يَكُنْ ... لِمَوْعِدِ نَصْرِكَ بالمُخْلِفِ

وكتَبَ لِي رَضِيَ اللهُ عنْهُ وأنا بَيْنَ يَدَيْهِ بَيْتَ
شِعْرٍ عَلى سَبيلِ الانبِسَاطِ في الخَامِسِ والعِشرينَ لمحَرَّم عَامِ
عشرينَ وَثمانِ مائة وأمَرني بالتَّذْييل عَلَيْهِ وهُوَ
لاَ تُنكِرُوا الشَّعْرَ عَلَى خَدِّهِ ... فالوَرْدُ لاَ يَخْلو مِنَ الشَّوْكِ[346]
فَقُلْتُ مُذَيِلا ولَمْ أَلتَزِمْ الوَاوَ قَبْلَ حَرْفِ الرَّوي

وحُضْرَةُ الزَّمُرُّدِ المنتَقَى ... رائَتْ بَياضَ الدُّرِّ في السِّلْكِ
وطَلْعَةُ الفَحْرِ تَرَى نُورَهَا ... مُمْتَزِجًا بالظَّلَمِ الحُلْكِ
والسَّيْفُ لَولاَ أنْ عَلاَهُ الصَّدا ... حينًا لَمَا كَفَّ عَنِ الفَتْكِ
والدَّمُ ان راقَ فَمُحْمَرُّهُ ... تَنْشَأُ عنْهُ دُهْمَةُ المسْكِ
والذَّهَبُ الابريزُ لاَ يُحْتَلَى ... رَوْنَقُهُ إلاَّ مَعَ السَّبْكِ
فَلتُقصِرُوا لاَ تَطْلُبُوا سَلْوَتِي ... عنْهُ وَلاَ لِحُبِّهِ تَرْكِي

---

(345) يقترح الشاعر للقافية أيضًا : مسعفي.

(346) المفهوم أن البيت المذكور من نظم يوسف الثالث ولكنه لم يرد في ديوانه.

-229-

فاسْتحْسَنَ ذلِكَ وقَالَ أريدُ أنْ تُوطِّيَ عَلي
البَيْتِ المَذْكورِ وتلتزِمَ حَرْفَ الوَاوِ قَبْلَ حَرفِ
الرَّوِي وكأنَّ ذلِكَ مُتَّصِلٌ بِمَا تَقَدَّمَ فَقلتُ

وَمُعْلَمُ الثَّوْبِ يَروقُ النُّهَى ... طِرازهُ في جَوْدَةِ الحَوْكِ
يابَهْجَةَ الحُسْنِ التِي طَالَمَا ... دَعَوْكِ بالسِّحْرِ وحَلَّوْكِ
يا لِحْيَةً عَابُوا بهَا مَنْ بَدَتْ ... في خَدِّهِ وَقبْلُ حَيَّوْكِ
أحْيَيتِهِمْ بنَظرَةٍ عِنْدَمَا ... تَوقَّفُوا عِشقًا ونَادَوْكِ
هَدَيْتِهِمْ إلَى سَبيلٍ بهَا ... أفْئِدَةَ العُشَّاقِ أهْدَوْكِ
لاَ تُنْكِروا الشَّعْرَ عَلى خَدِّهِ ... فالوَرْدُ لاَ يخْلوا مِن الشَّوْكِ

وفي خلاَلِ ذلكَ نظَم أبْياتًا في القافِيَةِ
ولزَمَ الياءَ قَبْلَ حَرفِ الرَّوِيّ وَهِيَ

مَن ذا يُحيرُ الصَّتَّ ياراحَتِي ... باللّهِ مِن سِحْرٍ بعَيْنَيْكِ
مَالِي عَلَى الهِجْرادِ مِن قُدْرَةٍ ... مَا لَمْ تُراجِعِي بِلبّيْكِ
أحْيَيْتُ آمالِي بِتَذكَارِكُمْ ... والذكْرُ لاَ يُغْنِي عَنْ يْكِ(347)

فَقُلْتُ وأمَر رَحِمهُ اللّهُ بسِياقِ آخِر لفْظَةٍ في النّظم

يا طَلْعَةً رائقَةَ المجْتَلَى ... مَنْ أنْبتَ الشَّعْرَ بخَدَّيْكِ
أوْ جَعَلَ الغُصْنَ إذَا يَنْثَنِي ... يَفْضَحُهُ مَائِلُ عِطْفَيْكِ
رَضيتِ لِي هَجرًا وبُعْدًا وهَلْ ... مِنْ عَاشِقٍ يَرْضَى بِحالَيْكِ

(347) لا توجد هذه الأبيات في ديوان ملك غرناطة ؛ والكلمة الأخيرة في البيت الأخير حذف منها حرف الوصل.

كَثَّرتِ مِن صَدّي بِمِقْدَارِ مَـا عِنـدِي إذًا مِـن قِلّـةِ ...ـكِ[348] -230-

ثم انتقلتُ لَسَقِيفَةِ الكُتْب لإقامَةِ رَسْمِ الخِدْمَةِ وإنفاذِ ما صَدَرَ عَنهُ رَحِمَهُ الله مِن إمْضاءِ أوَامِرِهِ ونَواهيهِ فَوجَّهَ عِلجًا صغيرًا بالبَيْتِ وأمَر أنْ أنظِمَ تَذييلاً عَلَيْهِ ومَن حضَر مِن الكتَّابِ الذينَ معِي في الخِدمَةِ فَقالَ مَن تَحَلَّى بِنَظْمِ الشِّعْر مِنهُمْ ما رُبّمَا لَمْ يَجِىءْ وفْقَ اختِيارِهِ فَقلتُ

لاَ تُنْكِروا الشَّعْـرَ عَلَـى حَـدِّهِ فالـوَرْدُ لاَ يخلُـو مِـن الشَّوْكِ
يَافِتْيَـةَ الـعتَّاقِ لكِنهُـمْ بالأنْـفُسِ العِلْيَـةِ فَـدَّوْكِ
يـا نَظَراتِ اللَّحْظِ مَـا أنصَفـوا لَـوْ أنهُـمْ بالسِّحْـرِ حَلَّـوْكِ
أهْـدَوْا لِمَغْنَـاكِ تَحِيَّاتِهِـمْ ثُـمَّ اسْتَقَلُّـوا حِيـنَ حَيَّـوْكِ
قُلُوبَهُـمْ أهْـدَوْكِ إذ للْهَـوَى هَدَيْتِهِـمْ سَاعَـةَ أهْـدَوْكِ
سامُوكِ نَـقْصًا فِي كَمَـالِ الحُلَـى إذْ هُـمْ بِبَـدْرِ الأفْـقِ سَمَّـوْكِ
كَمْ عاهَدُوا أنَّكِ شَمْسُ الضُّحَى وَصَفْقَـةَ الأيْمَـانِ أعْطَـوْكِ
نَـرُوا إذَا مـا أقسَمُـوا انَّـهُ حَـقٌّ ومـا حَـقُّكِ وَفَّـوْكِ
تَمَايـلَتْ عِطْفَـاكِ زَهْـوًا فَمَـا أشُكُّ أنَّ الخَمـرَ عَاطَـوْكِ
فَيـا نفوسًا قَـدْ أهـاجَ الجَـوَى غَرامُهَـا بالـوَصْلِ أحيـوْكِ

وعُذْرًا في إثبَاتِ هَذا الهَذَر فَليسَ فيهِ ما يقَيّدُ لِمكَانِ استِعْجَالِ نَظمِهِ في ساعَةٍ واحدَةٍ دُونَ مُبْيَضة ولا نظَرٍ ولاَ تنقيح فَلاَ خفَاءَ بانحطَاطِهِ عِنِ الجزالِةِ عَلى ما يَقْتَضِيهِ نظم المقترحَات وإنمَا أُثْبِتُهُ تشوّقًا إلَيْهِ رَحِمهُ اللّهُ وتذكّرًا لِمَا أسْدَى مِن النّعْمَة ورفْعَ مِنَ الرُّتبَةِ وخصَّ بِه مِن المزيّة وأظْهَرَ من برّه وتَقْديمِهِ عَلى كلّ صِنفٍ تعلقَ بخدْمة بَابه.
نضَّر الله وجْهَهُ

(348) لم يكتب من الكلمة إلا آخرها، وهي واضحة.

أهْـلاً بِهَبَّـاتِ المَـواسِمِ كُلَّمَـا سَكَبَتْ عَلى محْلِ القُلوبِ غُيُوثَهَا
إنْ حَدَّثَتْ أخْبَارَ مَن سَكَنَ الحِمَى أَلْقَتْ لـدَيْكَ قَديمَهَـا وَحَديثَهَـا
فَكأنَمَـا أخْبَـارُ دَوْلَـةِ يـوسُفٍ نَسْتَقْبِـلُ اسْتينافَهَـا وَحُدُوثَهَـا

-233- ولمَّا تُوفِّيَ أخُوهُ الأميرُ أبو الحَسَن عَلِيٌّ الذي كان لَقَبَهُ مُعِزَّ الدَّولَةِ بالحَضْرَةِ ورِكابهُ العلِيُّ بوَلْجَر، وكان تِلكَ اللَّيْلَةِ رَاحِلاً إلى الخروبَة فعرَّجَ رَحِمَهُ الله إلَى الحمْراء لمُوارَاةِ شَقيقِهِ المَذْكور، وبعْدَذلِكَ خرَجْنَا في العِشاءِ الآخِرَةِ إلى قَرْيَةِ هَمَدَان ثمَّ إلَى الخَرُّوبَةِ مِن قُرَى مُلْتُماسَ بَعْدَ مَرْحَلَتيْن، فَقُلْتُ أعَزّيهِ ونظَمْتُهَا عَلَى ظَهْرِ الفَرس أثناءَ الطَّريقِ إلى مَرحَلَة وادِي النّيبَل مِنْ أحْواز الحمَّة، وحَقُّ هذِهِ والتي بعْدَهَا أن تُثْبَتَ في المَراثِي لِكِنْ أثبتُّهُمَا هُنَا كوْنُ هذهِ خاطبْتُهُ بهَا رَضيَ الله عنْهُ وقدَّسَ رُوحَهُ والثّانية نظمتُهَا عن أمْرِهِ(351)

عَزاءً فإنّ الخَطْبَ قَدْ جلَّ مَوْقِعَا وَصَبْرًا واد لمْ يُبْقِ للصَّبْرِ موصِعَا(352)
تـأسَّ أميـرَ المُسْلِمِيـنَ فإنَّـهُ وَرُودُ سَبيـلٍ لـمْ يَـزَلْ مُتَوقّعَـا

---

(351) سيذكر الشاعر فيما بعد تاريخ وفاة شقيق ملك عرباطة معر الدولة أبي الحسن علي، ولم يشر الشاعر إلى سبب وفاته، ويبدو أنه مات حتف أنفه، وقد كان لموته أبلغ الأثر في شقيقه الملك، ورثاه بعدد من المراثي (ديوانه : 106، 167، 170) وممّا قاله في أحدها :

كُـنْتَ دُنْيـايَ هـا أنـا حَـيْتُ قبـلَ أنـو دُلـف

يلمح إلى قول

إنما الدنيـا أبـو دلـف بين باديـه ومحْـتضرهْ
فـإذا مَـا وَلّـى أبـو دُلَـف ولت الدنيـا على أثـرهْ

وقد خلّف هذا الأمير ولدًا سيعتلي عرش عرباطة في ظروف عصيبة وهو السلطان أبو النّصْر سعد المستعين بالله حد آخر ملوك عرباطة.

وولخر الواردة في المقدمة تقدم ذكرها، أما الخروبة فهي Algarrobo من إقليم مالقة، وقرية همدان من قرى عرباطة واسمها اليوم Alhendın وملتماس (أو متماس) هي Bentomız ووادي النيبل Nıvar ورد ذكره أيضًا في كتاب التيان للأمير عبد الله الزيري.

(352) عزاءً فإن، يقترح الشاعر أيضا : عراء فهدا.

تَعَـزَّ إمَـامَ الأكْرَميـنَ فـإنَّ في بَقـائِكَ فينَـا للحَـوادِثِ مُرْدَعَـا
فإنَّ عَليًّا قَدْ قَضَى اليَوْمَ نَحْبَـهُ فلمْ تَلْقَ مِثْلَ اليَوْمِ أدْهَى وأفْظَعَا
وإنَّ عَليًّـا مَـنْ علِمْنَـا كَمالَـهُ فَلاَ تُنْكِرُوا أنَّا نهيمُ تَشَيُّعَـا(353)
فَيا نَجْمَ أفْقٍ قَدْ هَوَى بيَدِ النَّوَى ومـا كانَ إلاَّ للِهدايَـةِ أُطْلِعَـا
ويا غيثَ سُحْبٍ طَالَمَا جادَ بالنَّدَى فَرَوَّى جَنابًا قدْ ذَوَى حينَ أقْلَعَا
ويَا بَدْرَ تَمٍّ ضَمَّهُ التُّربُ مَغْرِبًـا وكأنْ لـهُ أفْـقُ المَكـارِمِ مَطْلِعَـا
وعَهْدِي بِبَدْرِ التَّمِّ يسْمُو إلَى العُلَى فمَا بالُهُ في التّربِ أصْبَحَ مُودَعَا
رَحَـلْتَ فَمَـا خَلَّفْتَ إلاّ مُرَوَّعًـا مَشُوقًا مُعَنًى مُغْرَمَ القَلْبِ موجَعَا
نـأيْتَ فمَـا ودَّعْتَ إلاَّ مُتَيَّمًـا رهيـنَ أسَاهُ مُسْتَهَامًـا مُفجَّعَـا -234-
فَيا حَسْرَةً جَـلَّتْ مَواقِعُ خَطْبِهَـا ويَا عثْرَةً ما إنْ يُقالُ لَهَا لَعـا
وانَّ مُحَيًّا لاَحَ في مَظْهَرِ العُلَـى تَـوارَى فأضْحَـى بالتُّـرَابِ مُقَنَّعَـا
وانَّ جَمَـالَ الوَجْـهِ غَيَّـرَهُ البِلَـى ويا طَالَمَا أبْدَى الجَميـلَ وأبْدَعـا
لَقَدْ وَضَعُوا في التُّربِ مَن كانَ كلمَا تُجاريهِ شَمْسُ الأُفْقِ أسْنَى وأرْفَعَا
لَقَدْ كانَ صَدْرَ المَعْلُواتِ وقلْبَهَـا لِـذلِكَ ضَمَّتْـهُ الصَّفائِـحُ أضْلُعَـا
عَلِمْنَـا بـأنّ الوَجْـدَ أوَّلُ وافِـدٍ غَداةَ نَوَى عنَّا الرَّحيلَ ووَدَّعَـا
سَألْنَـاهُ عَهْـدًا بالبَقـاءِ فَمَـا وَفى ورُمْنا جَوابًا للنّداءِ فمَا وَعَـى
وقَفْنَا عَلى الأطْلاَلِ وَهْـيَ بَلاَقِـعٌ نُسَاجِـلُ فيهنَّ الحَمـامَ المُرَجِّعَـا
ولاَ جِسْمَ إلا أنْ يَذوبَ صَبابَـةً ولاَ قَلْبَ إلاّ أنْ يَحِـنَّ ويَنْزَعَـا
أتْرَكَـنُ لِلسُّلْـوانِ بعْـد بعَـادِهِ ولَمْ يُبْقِ فيهِ موقِعُ الخَطْبِ مَطْمَعَا(354)
لَأفْنِي قُوَى الصَّبْرِ الجَميلِ فرَاقُـهُ ولكِنَّـهُ أبْقَـى سُهَـادًا وأدْمُعَـا
فَيا لَيْتَ شِعْرِي مَن أراهُ مُوَدّيًـا إلَيْـهِ سَلاَمِـي حيـنَ ولَّـى مُوَدّعَـا

---

(353) يورّي بالامام علي والشيعة.
(354) موقع، يقترح الشاعر أيضًا : فادح.

دَعاهُ الرَّدَى حَتّى أجابَ بِـدَاءَهُ وأسْرَى بِهِ رَيْبُ المَنُونِ فأسْرَعَـا
أجـابَ مُنَادِيـهِ غَـداةَ دَعابِـهِ وكَمْ نَطَقَ الدَّاعِي فَلبَّاهُ مُسْرِعَـا
تأهَّبَ للمَوْتِ الذِي جاءَ وافِـدًا ومَا هابَ انْ يَلْقَى العَوالِيَ شُرَّعَا
فكَمْ هَزّ فِي الحَرْبِ العَوانِ حُسامَهُ وأرْسَلَ يقْفو إثْرَهُ الرُّمْحَ مُشْرَعَـا
سَلُو عَنْهُ فِي الهَيْجَاء أرْضَ شُقُورة وقدْ أصبَحَتْ مِنهَا المَعاهِدُ بَلْقَعَا
وفِي جَبَلِ الفَتْحَينِ كَمْ جَدَّ عَزْمُهُ سِباقًا إلَى دَاعِي الهُدَى وتسَرُّعَـا
سيَلقَى لدى الرَّحْمَانِ فَضْلَ جهَادِهِ شَفيعًا كَما يُرْضِي النَّبيَّ مشَفَّعَـا
فَقَدْ كانَ فِي العَلْيَاءِ أرْفَعَ مَظْهَرًا وأكـرَمَ آثـارًا وأعْـذَبَ مَشْرَعَـا
إلَى أن أثارَ الدَّهْرُ كامِنَ حِقْـدِهِ فَعَمَّى حِلاَلاً مِن حِمـاهُ وأرْبُعَـا
فَعُذْنَا بِطولِ الذّكرِ لوْ كان مُحْدِيًا ولُذْنَا بحسْنِ الصَّبْرِ لَوْ كانَ مُقْنِعَا
لَقَدْ حسَدتْ زُهْرُ النجُومِ خِلالَهُ فأبْـدَتْ إلَـى عَلْيائِهِـنَّ تَطَلُّعَـا -235-
رَمَتْـهُ عَلَـى عَمْـدٍ سِهَـامُ عُيُونِهَـا فمَا أخْطأتْهُ حَيْثُ لمْ تُلْفِ مَدْفَعَا
فإنَّـا إلَـى اللَّـهِ العَظِيـمِ وإنَّـا لرَحْمَتِـهِ نَرْجُـو مَـآلاً ومَرْجِعَـا
لَأذْنَـبَتِ الأيَّـامُ فيمَـا أتَتْ بـهِ ولكِنَّهَا أبْقَتْ إلَى العُذْرِ مَوْضِعَـا
إذا هَيَ أنقَتْ ناصرَ الدّينِ يوسُفًا فَقَدْ شَيَّدَتْ للدِّينِ رُكْنًا مُمَنَّعَـا
فَلاَ أذْهَبَتْ صُنْعًا جَميلاً أفـادَهُ حُلُودًا ولاَ هَدَّتْ لِعُلْيَاهُ مَصْنَعَا
ولاَ صَدَعتْ للدّينِ شَملاً قَضَى بأنْ يَقـومَ بأمْـرِ اللَّـهِ عَنْـهُ ويَصْدَعَـا
ولاَرُوِّعَ السِّرْبُ الذِي هُـوَ آمِـنٌ ولاَنَدَدَ الشَّمْلُ الذِي قـد تَجَمَّعَـا
ودامَ بمَـنْ حَـطَّ الرِّكـابَ بِطَيْبَـةٍ ومَن طَافَ عِندَ الحجر والرُّكنِ أوْسَعَى
ولاَزالَ بالعَلْيَـاءِ وَالعِـزِّ مُفْـرِدًا وقدْ حَازَ أشْتَاتَ المَكَارِمِ أجْمَعَا
سَأَلْنَـا لَـهُ اللـهَ البَقَـاءَ مُخَلَّـدًا وحاشَى وَكلاَّ أن يُخَيِّبَ مَن دَعَا

وأمَرني رَحمَهُ الله بِنَظْمِ أبيَاتٍ لِتُكْتَبَ عَلَى تَاريخِ لحْد هذَا الأميرِ، ثمَّ ظهَرَ لهُ أن يُكْتَبَ غَيْرُهَا عَلَى لِسانِه، ولمْ تُكْتَبْ هذِهِ فَقلْتُ ووَفاتُهُ ليْلَةَ الأحَدِ الرّابِعَ عشَر لجُمدى الثَّانية مِن عامِ تسْعَة عشَر وثمَانِمائَة(355)

سَقَى الغَيْثُ يَومَ النّوَى تُرْبَـهُ ... فَقَـدْ كانَ يَـوْمَ النَّـدى تِرْبَـهُ
وكانَ حُسَامًـا لِحَـرْبِ العِـدَى ... ففَـلَّتْ أكُـفُّ الـرَّدَى غَرْبَـهُ
وكانَ غَمامًـا يُحَيّـي الوُجـودَ ... ويُحْيِـي فَقَـدْ مَنَـعَتْ سَكْبَـهُ
وكانَ سَمـاءً لِنـورِ الهُـدَى ... فَقَـدْ قَلَـبَتْ لِلثَّـرَى قُطْبَـهُ
وكانَ امانًـا لمَنْ أمَّـهُ ... فَمـا بالهَـا رَوَّعَتْ سِرْبَـهُ
وكانَ لِـقُصّادِهِ مَـوْرِدًا ... فـأمْسَى وقـد كَـدَّرَتْ شِرْبَـهُ
وكانَ لدولَـةِ مَولَـى المُلـوكِ ... مُعِـزًّا تَـوَدُّ العُلَـى قُرْبَـهُ -236-
وكانَ تَهَـابُ العِـدَى بَـطْشَهُ ... فَمَـا لِلَّيالِـي أتَتْ حَربَـهُ
رَسَا عَلَمًـا للْهُـدَى والنَّـدَى ... فأضحَـى وقـدْ زَلْـزَلَتْ شِعْبَـهُ
هَوَى نَجْمُهُ مِـن سَمَاءِ العُلَـى ... مُنيـرًا فكَـانَ الثَّـرَى غَرْبَـهُ
فَلـوْ أنصَفَ الأفْـقُ مِـنْ بَعْدِمَـا ... هَوَى لـمْ يَـبِتْ مُطْلِعًـا شهْبَـهُ
ولَـوْ أنصَفَ الغَـيْثُ حَيًّا حِمَـى ... فَتًى لـمْ يـزَل مُـرْسِلاً سُحْبَـهُ
فَيـا لِضريـحٍ ثـوَى عِنـدَهُ ... غَـداة أنـاخَ بـهِ رَكْبَـهُ
هُوَ القَبْرُ ضُمَّنَ مَن لـمْ يَزَلْ ... مِنَ الـقَصْرِ لاَ يَـرْتَضِي رحْبَـهُ
أبَعْـدَ عَلِـيٍّ تَـرَى الدَّهْـرَ قَـدْ ... رَهَا مُظْهِـرًا في الـوَرَى عُجْبَـهُ
وفَـى لِلَّيالِـي فَخَـانَتْ عُـلاَهُ ... وأعْتَبَهَـا فـارْتَضَتْ عَتْبَـهُ
فَسَلْ بالحِمَى عَنْ عَلـيٍّ وقَـدْ ... حَماهَـا لِمَـا اعْتَمَـدَتْ سَلْبَـهُ

(355) توجد القصيدة الأخرى المشار إليها في ديوان ملك غرناطة : 169 ويفهم من قول الشاعر : «ثم ظهر له أن يكتب غيرها على لسانه» أن تلك القصيدة ليست من نظم يوسف الثالث ولكنها قُدّمَتْ في ديوانه مما يلي : «وممّا أصدرناه ونظمناه ليرسم على لحد أحيا رحمه الله».

وجـاءَتْ بكُـل أبِـيِّ القيَـادِ فَذَلَّـلَ مـن عَزْمِـهِ صَعْبَـهُ
وأبْرَأهَـا إذْ شَكَتْ مُـعْضِلاً مِـن الخَـطْبِ والتَـمستْ طِبَّـهُ
هُـوَ المُـلْكُ قَـدْ نَـوَّمَتْ حَفْنَـهُ هُـوَ العِـزُّ قَـدْ قَلَّـبَتْ قَلْبَـهُ
فهَـاذِي الامَـارَةُ تُبْـدِي النَّحـيبَ عَلَيْـهِ غَـداةَ قَضَى نَحْبَـهُ
فَمِـن أعْيُـنٍ فَقَـدَتْ حُسْنَـهُ ومِـن أضْلُـعٍ ضُمِّـنَتْ حُبَّـهُ
أصِنْـوَ الامَـامِ الهُمـامِ الـذي إذا عَـنَّ أمْـرٌ كَفَـى خَطْبَـهُ
لَقَـدْ نَهَبَتْكَ يَـدُ المَـوْتِ مِـنْ حِمَـى مَـن تَهـابُ العِـدَى نَهْبَـهُ
فمَـا اعْتَمَـدَ الصَّبْـر مِـن بَعْدِهَـا سِوَى لِيُطِيـعَ بـهِ رَبَّـهُ
سَقاكَ مِن الغَيْثِ مَا قَدْ حَكَـى ثَنـاؤُكَ زَهْـرَ الرُّبَـى غِبَّـهُ
فكَمْ مَوْرِدٍ لَمْ تَزَلْ فِي الجِهَـادِ تَعـافُ عَلَـى ظَمَـإٍ شُرْبَـهُ
إلَـى أن تُبَلِّـغَ ديـنَ الهُـدَى لَـدَى المُلْتَقَـى فِي العِـدَى إرْبَـهُ
لَكَ اللـهُ كَـمْ ذا تَلَقَّيْتَهُـمْ فأيَّـدْتَ فِي حَرْبِهِـمْ حِزبَـهُ
سَلُوا جَبَـلَ الفَتْحِ عَـن فَتحِـهِ وقَـدْ أمَّـلَ المُعْتَـدِي غَصْبَـهُ -237-
سَلُوا فِي شُقُورَةَ أهْـلَ الجِهَـادِ وقَـدْ سَلَّ فِي بابِهَـا عَضْبَـهُ
قَضَى اللَّهُ ان نَالَ أقصَى العُلَـى وها هُـوَ ذا قَـدْ قَضَى نَحْبَـهُ
لِيُسْكِنَـهُ جَنَّـةً أُزْلِـفَتْ وأنـزَلَ فِي وَصْفِهَـا كُتْبَـهُ
فكَـمْ رَحَمَـاتٍ حَـمتْ لَحْـدَهُ وكَـمْ حسَنَـاتٍ مَـحَتْ ذَنْبَـهُ

وفيمَا حَقُّهُ أنْ يُلحقَ بمَا تَقَدَّمَ
قَبْلُ مِنَ العِيدِيَاتِ عَلى التَّوالِي
أنشَدتُهُ رضوَانُ اللهِ عَلَيْهِ فِي عِيدِ الفِطْرِ
مِن عَامِ ثمَانيَةَ عَشَرَ وثمَانِي مائة بِحَضْرتِهِ العَلِيَّة

حَـفَّتْ مَلائِكَـةُ السَّمـاءِ جُنُـودَا بِكَتـائِبٍ نَشَرَتْ عَلَـيْكَ بُنُـودَا

تُنْهِي إلَيْكَ بَشائِرَ الفَتْحِ التي ... تُلْقِي لَدَيْكَ لِوَاءَهَا المَعْقُودَا
وتَسُوقُ أحْزاب الضَّلالِ إلَى الرَّدَى ... سَبْقًا وقَدْ سُمْتَ القُلُوبَ وَئِيدَا
وتُثِيرُ سُحْبُ النَّقْعِ مِنْ وَقْعِ الظُّبَا ... فَوْقَ الدُّرُوعِ بَوَارِقًا وَرُعُودَا
وتُكاثِرُ الأعْدَاءَ مِنْكَ عَزائِمٌ ... فَتُعِيدُ جَمْعَهُمُ أقَلَّ عَدِيدَا
ورَكائِبُ الانجادِ والاتْهَامِ قَدْ ... مَلأَتْ لَدَيْكَ تَهائِمًا وَنُجُودَا
والحَرْبَ تَشْعَلُ نَارهَا حَيْث اغْتَدَتْ ... لاَ تَرْتَضِي إلاَّ عِداكَ وَقُودَا
والرَّوْعُ ان شَبَّتْ عُداتُكَ جَمرَهُ ... سَامَتْهُ أنهَارُ السُّيُوفِ خُمودَا
كَحَلَ العُيونَ بإثْمِدٍ مِنْ نَقْعِهِ ... فَكأنَّ عَادًا إذْ عَدَتْ وَثَمُودَا
أبِسَتْ بِعِزِّ النَّصْرِ غُرُّ كَتائِبٍ ... أضْحَى بِهَا جُنْدُ العَدُوِّ شَرُودَا
سَتُزِيرُهَا أرْضَ العُدَاةِ وللْقَنَا ... أجَمٌ وقَدْ زَأرَتْ لَدَيْكَ أُسُودَا -238-
حَيثُ الظُّبَا قَدْ هِمْنَ في هَامِ العِدَى ... حَتَّى تَرَكْنَ عَمِيدَهَا مَعْمُودَا
حَيْثُ الوِرَادُ الغُرُّ تَتَدِرُ الوَغَى ... هيمًا تُؤَمِّلُ في النَّجِيعِ وُرُودَا
حَيْثُ القِسيُّ مَحَارِبٌ أضْحَتْ لهَا ... هَامُ الأعَادِي رُكَّعًا وسُجُودَا
حَيْثُ العَزائِمُ في المَيادِينِ التي ... قَادَتْ إلَيْهِنَّ الجِيادَ القُودَا
حَيْثُ النَّدَى والحِلْمُ يُنْجزُ مَوْعِدًا ... لِلْمَكْرُمَاتِ وَلا يُجيزُ وَعِيدَا
حَيْثُ العُلَى واليُوسُفِيُّ يُنيلُهَا ... جُودًا فَلاَ عَدِمَتْ لَدَيْهِ وُجُودَا
مَلِكٌ مَوَاقِعُ سَيْفِهِ أوْ سَيْبِهِ ... تَكْفِي عَدُوًّا أوْ تَكُفُّ حَسُودَا
جَمَعَ الفواضل والمَحَامِدَ والعُلَى ... والبَأسَ والخُلُقَ الرَّضَى وَالجُودَا
وثَنَى صُدُورَ الذَّابِلاَتِ إلى العِدَى ... فأقَامَ مِنهَا مَا انثَنَى تَأوِيدَا
تَخْتَالُ مائِلَةَ المَعاطِفِ كلَّمَا ... عَطَفَ الكَمِيُّ قَوامَهَا الأمْلُودَا
لِلهِ مِنْهُ عَزائِمٌ وَمَكَارِمٌ ... غَادَرْنَ أحْرَارَ المُلُوكِ عَبِيدَا
تَرْجُو مَواهِبَهُ التِي قَدْ أصْبَحَتْ ... ظِلاً عَلَى أرْجائِهَا مَمْدودَا
وهَّابُ مَا فَوْقَ البَسيطَةِ لَمْ يَدَعْ ... لِلْمنعِ إلاَّ العَذْلَ والتَّفْنِيدَا

سَبَّاقُ غَايَاتِ المَكَارِمِ كُلَّمَا ... جَارَى المُلُوكَ الأَكْرَمِينَ الصِّيدَا

لَمْ يَرْمِ أَغْرَاضَ المَحَامِدِ وادِعًا ... إلاّ وبَذَّ الطَّالِبَ المَجْهُودَا

نظَمَتْ حُلاَهُ المَكْرُمَاتُ فَلَمْ تَزَلْ ... دُرًّا عَلَى لَبَّاتِهَا مَنْضُودَا

نصَّتْ مَنَاقِبَهُ العُلَى واسْتَشْرَفَتْ ... لِمَنَالِ أَدْنَاهَا ونَصَّتْ جِيدَا

هذِي مَآثِرُهُ تَفوقُ مَدَى العُلَى ... أبدًا صُعودًا أَوْ تُفِيدُ سُعُودَا

وقَبَائِلٍ تَرجُو عَزائِمَكَ التِي ... قَادَتْ ملائِكَةَ السَّمَاءِ جُنُودَا(356)

ما عارَضَتْ نَظَرًا حَمِيلاً يَقتَضِي ... حُكْمًا ولاَ رأيًا لَدَيْكَ سَدِيدَا

عَدَلُوا عَنِ النَّهْجِ القَوِيمِ وضُلِّلُوا ... لَوْلاَ هُداكَ وفَارَقُوا التَّسْدِيدَا

فَبِصُبْحِ هَدْيَكَ يَهْتَدِي فَلَقُ الضُّحَى ... والفَجْرُ قَدْ فَلَقَ الظَّلاَمَ عَمُودَا

ان قَلَّصَتْ عَنْهَا ظِلالُ مَوَاهِبٍ ... أَنشأْتَ مِنْهَا العَارِضَ المُمْدُودَا 39-

فاصْرِفْ لَهَا وجْهَ العَزِيمَةِ مُنْعِمًا ... وأَزِلْ ضَغَائِنَ بَيْنَهَا وَحُقُودَا

وأَقِمْ صَغَا الاسْلاَمِ فِي الوَطَنِ الذِي ... أَضْحَى يُطِيعُ مَقَامَكَ المَحْمُودَا

فِي السِّلْمِ أَوْ فِي الحَرْبِ مُلْكُكَ ناصِرٌ ... يُرْجَى مُفِيدًا أَوْ يُخَافُ مُبِيدَا

جَنَحَتْ لِسَلْمِكَ أُمَّةٌ أَرْسالُهَا ... أَمَّتْ جَنابًا بالعُفَاةِ مَرُودَا(357)

سَلَّمٌ أَنامَتْ مِن ظُبَاكَ نَواظِرًا ... أَجْهِدْنَ قَبْلُ ومَا عَرَفْنَ هُجُودَا

أَهْلاً بِهَا ما جُرِّدَتْ فِي المُلْتَقَى ... إلاَّ ارْتَضَتْ هَامَ الكُماةِ غُمُودَا

لَمْ يُثْنِهَا عَن قَصْدِهَا خَجَلٌ وقَدْ ... راقَتْ بِهِ وَجَناتُهَا تَوْرِيدَا

فأَرَحْتَهَا مِن جَهْدِهَا لِتُجِيرَهَا ... طَوْعَ الجِهَادِ وتَبْذُلَ المَجْهُودَا

فَلِذَاكَ قَدْ أَيْقَظْتَ كُلَ مُهَوِّمٍ ... لَمَّا أَنَمْتَ الصَّارِمَ المَغْمُودَا

ومَنَعْتَ أَندَلُسًا وقَدْ رامَ العِدَى ... انْ يُوسِعُوا جَمْعَ العِدَى تَبْدِيدَا(358)

(356) لعله يعني القائل المغربية الموالية لمحدومه.

(357) كُتِبَ في طرة المقطع الذي يبدأ من هذا البيت ما يلي : «ذكر انعقاد السلم مع ملكي قشتالة ورَغوده». ومرودا : مقصودا.

(358) كُتِبَ في طرة المقطع الذي يبدأ من هذا البيت ما يلي : «ذكر رجوع العمرة (أو العمارة) البرطقالية عن حمل الفتح والبلاد الأندلسية ودحولها ستة أعادها الله».

حاضُوا البحَارَ لهَا وعَزْمُكَ دُونَهَا فَثناهُـمُ وَحَمَـى الفَـلاَ والبِيـدَا
قَصُرتْ خُطاهُمْ عن مَنالِ قُصورِهَا والنَّصْرُ قَـدْ مَـدَّ الطِّوال المِيـدَا
أقفَرْتَ من أهْلِ الضَّلاَلَة أرْضَهَـا ومَـلأْتَ آفـاقَ السَّمـاءِ بُنُـودَا
وَجَلَوْتَ مِن آياتِ عَزْمِكَ أنْجُمًـا فارْتَـدَّ شَيْطـانُ الضلاَّلِ مَريـدَا
وثَنى عِنانَ القَصْدِ عَنْهَـا بَعْدَمَـا وافَى طَرِيقًـا حَـادَ عنهُ طَرِيـدَا
واحْتَلَّ بالوَطَنِ الـذي لـمْ يَتَّخِـذْ عُلْياكَ رُكْنًا في الخُطوبِ شَدِيـدَا
سُحْقًـا لِمَـن لـمْ يَنتصِرْ بِمُؤَيَّـدٍ لـمْ يَلْـوِ طَـوْعَ وفَائِـهِ مَوْعـودَا
مالِي أرَى التَّنْزِيلَ وهْـوَ ضَلاَلَـةٌ يَمْحُـو الهُـدَى ويُكاثِـرُ التَّوْحيـدَا
مـا لِلنِّقَـاد تَـرُدُّ آسَادَ الشَّرَى طَوْعًـا وتَقْتَنِصُ الظِّبـاءَ الغِيـدَا[359]
فكأنَّهَـا لـمْ تَـدْرِ أنَّكَ نـاصِرٌ بالسَّيْـفِ تُرْهِقُهَـا لـدَيْكَ صعُـودَا
هـذا عَـدُوُّ الدِّيـنِ حَـلَّ بسَبْتَـةٍ لِيَنـال شأْوًا في الضَّلاَلِ بَعيـدَا[360]
أَلْقَى لَدَيْهَا رَحْلَـهُ إذْ لـمْ يَكُـنْ عَن مَوْرِدِ الدِّينِ الحَنيـفِ مَـذُودَا
والآنَ لمَّـا ان دَعَـتْكَ لِنَصْرِهَـا جَعَـلَتْ مَقـامَكَ عُـدَّةً وَعَدِيـدَا -240-
فأخَفْتَ عُبَّادَ الصَّلِيبِ بهَـا وقَـدْ صَلُبَتْ عَلَى رَيْبِ الحَوادِثِ عُودَا
قصْدًا إلَيهَا أيُّهَـا المَلِكُ الـرِّضَى لِتَـرَى القَنَـا بصُدورِهَـا مَـقْصُودَا
ستُعيدُهَـا وتُنيـل كُـلَّ مُوَحِّـدٍ أمْنًـا وتُـوسِعُ قُطْرَهَـا تَمْهيـدَا
لَمْ تُنْهِضِ الرَّايَاتُ رأيَكَ مُنجِـدًا إلاَّ تَقَـدَّمَ هادِيًـا وَرَشيـدَا[361]
يَـا مُنْعِمًـا مـازالَ حُـودُ يَمينِـهِ لِحُلَـى المَكـارِمِ مُبْدِئًـا وَمُعيـدَا
ولَّيْتَ عَهْـدَ المُسْلِميـنَ مُحَمَّـدًا فَسَلَـكْتَ قَصْدًا لِلعَـلاَءِ حَميـدَا
وَدَعَـوْتَ قَاصِيَـةَ البِـلاَدِ فأهْطَـعَتْ تُلْقِي لَدَى البَابِ الكِريمِ وُفـودَا

---

(359) النِّقاد : صغار الغنم.

(360) كُتب في طرة المقطع الذي يبدأ من هذا البيت ما يلي :
«التحريض على جهاد من بسبتة».

(361) مجدًا، يقترح الشاعر أيضًا كلمة : ناصرًا، وفي البيت تورية بالهادي والرشيد العباسيين.

صَدَرتْ نواهِلَ بعْدَمَا قَدْ راقَها ... في مَنْهَلِ الرِّفْدِ العِميمِ وُرودَا
هذا وَعيدُ الفِطْرِ أسْعَدُ قَادِمٍ ... وافَاكَ مُتَخِذًا خِلالكَ عيدَا
وتَرَحَّلَ الشهْرَ الكريمُ مُؤَكِّدًا ... لَكَ مِن رضاهُ مواثِقًا وعُهُودَا
أرْضاهُ أنْ قامَتْ عُلاكَ بِحَقِّهِ ... تُبْدِي رُكُوعًا أوْ تُطيلُ سُجودَا
وأنَلْتَ هذا اليَوْمَ زائدَ مِنحَةٍ ... فَشَأَوْتَ مَرْوانًا وطُلْتَ يَزيدَا[361]
جَمَّعْتَ أشْرافَ الجنودِ فَحالفُوا ... حُودًا وجَدًّا لاَيَزالُ جَديدَا
أفْضَتْ إلَى البَابِ الكريمِ وُفودُهَا ... فأفَضْتَ بَحْرَ نَوالِكَ المَوْرُودَا
فَاهْنأ بهِ عيدًا أغرَّ مُحَجَّلاً ... طَوْعَ السُّعُودِ ومَوْسِمًا مَشهُودَا
وإلَيْكَهَا عَذْراءَ رائِقَةَ الحُلَى ... حَسْناء مائِلَةَ المَعَاطِفِ رُودَا
جَمَعَتْ معَانِيَ للبَلاَغَةِ كُلَّمَا ... نُظِمَتْ لأَدَ تَدَعَ الفَريدَ فَريدَا
فَجَلَوْتُهَا ولَطالَمَا قَدْ صُنتُهَا ... لِلوَصْفِ مِنْكَ قَلائِدًا وعُقُودَا
ولَكُمْ هَدَتْنِي مِنْكَ غُرُّ مَنَاقِبٍ ... إنْ رُمْتُ قَصْدًا أوْ نَظَمتُ قَصيدَا
أوْلَيتَنِي النُّعْمَى التِي أنَا شاكِرٌ ... والشُّكْرُ يَضْمِنُ مِن نَداكَ مَزيدَا
لاَزِلْتَ في المُلْكِ العَزيزِ مُهَنَّأً ... فَتْحًا ونَصْرًا دائِمًا وَخُلودَا

41- **وأنشَدتُهُ بالقَصْرِ المُسَمَّى بالمُحْدَثِ**
مِن مائَةَ في عيدِ الأضْحَى مِن عامِ ثمَانيةَ
عَشَرَ وثمَانٍ مائة وقدِ اسْتَدعَى فُقَهاءَهَا
وَجُندَهَا وأشيَاخَهَا لإقامَة مَا جَرتْ بهِ العَادَةُ
في حَضْرَتِهِ مِنَ البَيْعَةِ وَالإطْعَامِ واحْتَفَلَ في ذلِكَ[362]

بشرى بعيدٍ أتَى وَالنَّصْرُ يَقْدُمُهُ ... ورائِدُ العزِّ يَسْتَدعيهِ مَقْدَمُهُ

(361م) مروان ويريد من الأمويين، فشأوْتَ : سبقت، وطلْت : طاوع طاوَل.
(362) تقدم ذكر القصر المحدث.

عِيدٌ يَعود بمَا شاءتْ عُلاَكَ فَقَدْ ... سَمَا بِعِزّكَ لِلْعَلْيَاءِ مَوْسِمُهُ

فالنَصْرُ قَدْ بَهَرَ العَلْيَاءَ مَصْنَعُهُ ... والصُّنْعُ قَدْ أبْهَجَ الدُّنْيَا مُتَمَّمُهُ

هذا هُوَ الفَتْحُ قدْ راقَتْ مَطالِعُهُ ... واسْتَشْرَفَتْ مِن ثَنَايَا العَزْمِ أنْجُمُهُ

هذا هُوَ الصُّنْعُ قادَتْهُ العُلَى فَعَلاَ ... بِيُوسُفٍ مَلِكِ الأمْلاَكِ مَعْلَمُهُ

فانْهَضْ يُحَيِّيكَ أبْهَاهُ وأبْهَرُهُ ... سَنًى وأوْثَقُهُ عقْدًا وأحْكَمُهُ

فالدّينُ سَيْبُكَ مُجْدِيهِ ومُوجِدُهُ ... والكفْرُ سَيْفُكَ مُفْنِيهِ ومُعْدِمُهُ

حُكْمٌ يُجَدّدُهُ القَصْدُ الحَميدُ فَمَا ... يَبْلَى عَلى كَثْرَةِ التَّرْدَادِ مُحْكَمُهُ

وإنّ مَالَقَةَ الغَرَّاءَ حَلّ بهَا ... مَوْلَى الخلائِفِ والأمْلاَكُ تَخْدُمُهُ

لَهُ وإنْ عَظُمُوا قَدْرٌ تُعَظّمُهُ ... وَصْفٌ تُقَدّسُهُ ذِكْر تُقَدّمُهُ

تَرْجُو نَداهُ وتَخْشَى بأْسَهُ فإذا ... ما جَدّ في عَزْمِهِ يُرْجَى تَكَرُّمُهُ

فَيَقْبُضُ السَّيفَ حَيْثُ الرّزْق يَبْسُطُهُ ... كَبارِقِ السُّحْبِ يُزْجيهَا تَبَسُّمُهُ

كَم مَقصَدٍ حينَ ضَنَّ الدّهْرُ جَادَ بِهِ ... فَعَمَّتِ المُنْعِمَ الوَهَّابَ أنعمُهُ

فَكُلُّ مَلْكٍ وان جَلَّتْ مواهِبُهُ ... يُمْنَاهُ كَعْبَتُهُ رُحْماهُ زَمْزَمُهُ

مَا رُدّ عنْ أمَلٍ إلاّ ولاَذَ بِهِ ... فالمَنْحُ يوجِدُهُ والمَنْعُ يُعْدِمُهُ

يَكْسُوهُ ثَوْبَ اعتِلاَءٍ غَيْرَ مُتَهَجٍ ... حَتّى يَرُوقَ عَلَى عِطْفَيْهِ مُعْلَمُهُ

وَسَبْتَةٌ حَلّ حُنْدُ الكَافرين بهَا ... فأصْبَحتْ وأقاصِيهَا مُيَمَّمُهُ

يا هَلْ يُجَدّدُ عهْدٌ في مَعَاهِدِهَا ... مَضَى حَميدًا وهَلْ يَبْلَى مُذَمَّمُهُ[363] -242-

وهَلْ لِمَعْقِلِهَا إنْ لَمْ تُلِمَّ بِهِ ... رُجْعَى وَلِلشّرْكِ أحْزابٌ تُيَمِّمُهُ

نادَتْكَ يا مَلِكَ الدّنيَا لتُوضِحَ ما ... ظَلَّ العَدُوُّ قَبِيْلَ الفَتْحِ يُبْهِمُهُ

واسْتَنْشَقَتْ مِنْكَ ريحَ النصْرِ حينَ غَدَا ... مُسْتَقْبَلُ الفَتْحِ يُهْدِيهِ تَنَسُّمُهُ

هذِي أحادِيثُهُ وافَتْكَ مِن كَتَب ... لِمَظْهَرِ الدّينِ تُعْلِيهِ وتُعْلِمُهُ

حيثُ القَبائلُ تَدْعُو مِنكَ ناصِرَهَا ... وتَرتَجيكَ لِشمْلِ الدّينِ تَنظِمُهُ

---

(263) يحدّدُ : في الأصل، يُحَدُّ،وهو سهو من الناسخ.

لِلقُطْرِ تَفْتَحُهُ للأمْنِ تَمْنَحُهُ لِلعِزّ تُوفِدُهُ لِلنّصْرِ تُقدِمُهُ
لِلْمُلْكِ تُنْجِدهُ لِلرِّفْدِ تُوجِبُهُ لِلدّينِ تُوجِدُهُ لِلْكُفْرِ تُعْدِمُهُ
لِلأجْرِ تُحْرِزهُ للوَعْدِ تُنْجِزُهُ لِلْجَيْشِ تُنْهِدُهُ لِلرُّشْدِ تُلْهِمُهُ
كَمْ دَرَّهَا الكُفْرُ عَنْهَا حينَ تَقْصدُهَا كالطَّيْرِ تُمْنَعُ عَذْبَ الوِرْدِ حُومُهُ(364)
وما دَجَى ليلُ خَطْبٍ في مَعاهِدِهَا الاّ انجَلَى بصَباحِ العَزْمِ مُظْلِمُهُ
رأيْ تُصيبُ إذا الرَّاياتُ قَدْ نُشِرَتْ لَدَيْكَ شاكِلَةَ الأغْراضِ أسْهُمُهُ
قَدْ أقسَمَ النَّصْرُ أن يحْتَلَّ أرْبُعَهَا والنَّهْبُ لاَ يَسَعُ الأيْدِي مُقَسَّمُهُ
والبَحْرُ مِن رَهَجٍ يُبْدِي تَجَهُّمَهُ والمَوْجُ عن ثَبَجٍ يفْتَرُّ مَبْسِمُهُ
وبارِقُ السَّيْفِ مِنْ يُمْنَى يَدَيْكَ إذَا تَجهَّمَ الرَوْعُ يَجْلوهُ تَبَسُّمُهُ
كَمْ قائِمٍ بحَزيل النَصْرِ قائِمُهُ ومُعْرِبٍ عَن جميل الصُّنْعِ أعْجَمُهُ
يَخْطُو ليَخْطُبَ في حَفْلِ العِدَى عَجبًا ما راقَ أسْماعَهُمْ إلاَّ مُصَمِّمُهُ
هَيْهَاتَ يَشْمَخُ فيهَا بَعْدَمَا أنِفَتْ لِلْكُفْرِ أنفٌ وَسيْفُ النَّصْرِ يرْغِمُهُ
وهَلْ يَقودُ وَلِيَّ الكافِرِينَ سِوَى مُغْراهُ بالقَدِّ في الهَيْجاءِ مُغرَمُهُ(365)
ان ساقَ حِزْبَ العِدَى لِلحَرْبِ غادَرَهُ نَهْبًا وقدْ راقَ في مَغْنَاهُ مَغْنَمُهُ
وكَيفَ لاَ يَرْتَضِي حُكْمَ الهَوادِ وقَدْ هَوَى لهُ الأسْمَرُ الخَطِّيُّ يَخْصُمُهُ
دَارِكْ بِهِ رَمَقَ الاسْلامِ فَهو عَلى شَفًا وإنَّ بِهِ يُشْفَى تَألُّمُهُ
كَمْ عامِلٍ عَمِلتْ أيْدِي الكُماةِ بِهِ مَا الدّهْرُ في صُحُفِ العَلْياءِ يَرْسُمُهُ
قامَتْ عَلى سَاقِهَا الحَرْبُ العَوانُ فمَا ثَنَتْهُ لمَّا انثَنَى فيهَا مُقَوِّمُهُ -43!
ومُرْسِلٍ قَيَّدَ الأسْماعَ مِنْ طَرَبٍ كأنَّهُ طائِرٌ يُشْجِي تَرَنُّمُهُ
تحِلُّهُ القَوْسُ عِنْدَ الرَّمْيِ أبْهَرَهَا كأنَّ صَدْرًا بِهِ ظَنٌّ يُرَجِّمُهُ(365م)

(364) دَرَّهَا : كذا في الأصل، ولا معنى لها.

(365) بالقدّ : بالقطع.

(365م) ومرسل : نعت لمنعوت محذوف هو السهم، والأبهر في الأصل عرق مستطيل الصلب إذا انقطع لم يبق صاحبه.

وسابِقٍ في مَجالِ الرَّوْعِ مُتَّئِدٍ ... يَخْتالُ حَيْثُ العِدَى زَهْوًا مُطَهَّمُهُ

لِلبَرْقِ في سُرْعَةٍ لِلنّارِ في لَهَبٍ ... للرّيحِ في قُوَّةٍ يُعْزَى مُجَسَّمُهُ

إذا عَلاَ البَطَلُ المَرْهُوبُ صَهْوَتَهُ ... فَجَمعُهُمْ ظَلَّ يَثْنيهِ تَقَدُّمُهُ

أوْ جَرَّ مِن خَلْفِهِ الخَطّيَّ تَحْسِبُهُ ... صِلاًّ تَقَدَّمَهُ في القَفْرِ ضَيْغَمُهُ

نامَ العَدُوُّ ولَيْلُ الأَمْنِ يَكْنُفُهُ ... بهَا وقَدْ راقَهُ فيهَا تَلَوُّمُهُ

ولَوْ تَجَلَّى صَباحُ العَزْمِ مِنْكَ إذًا ... لاَسْتَيْقَظَتْ بَعْدَ هَذْءٍ منه نُوَّمُهُ

وَسَوْفَ يَكْبُو بِهِ طِرْفُ العزيمَة إذْ ... يُحْريهِ في طَلَقِ التَّقْصِيرِ مُجْرِمُهُ

إنَّ الفِرارَ وإن سُدّتْ مَذاهِبُهُ ... يُسْلِيهِ عَن وطَنٍ بالرَّغْمِ يُسْلِمُهُ

كأنْ بِهِ قَبْلَ أنْ يَحتَلَّ حِلَّتَهَا ... يَبْنِيهِ وَاهِي القُوَى عنْهَا تَوهُّمُهُ

كأنْ بمَعْقلهَا يُلْقِي مُمَتَّعُهُ ... يدًا ويَرْتاحُ بالبُشْرَى مُنَعَّمُهُ

ويُظْهِرُ الدَّهْرُ ما يُمْسَايَ تَكْتُبُهُ ... لِلفَتْحِ عَنْكَ وكانَ الدّهْرُ يَكتُمُهُ

تَبُثُّهَا في أقاصِي الخافِقَيْنِ بمَا ... تَخُطُّهُ يَدكَ العُلْيَا وتَرْسُمُهُ

فانْهَضْ وَعَزْمُكَ يَثْنِي قَصْدَ سَاكنهَا ... مُخَيِّبًا حَيْثُ مَغناهَا مُخَيِّمُهُ

لاَ يُضْمِرُ الدّهْرُ معْنَى الفَتْحِ عنْكَ وقدْ ... تَوضَّحَ الآنَ طَوْعَ النَّصْرِ مُبْهَمُهُ

وإنَّ عبْدَكَ يُبْدِي الدُّرَّ مِن كَلِمٍ ... في مَدْحِ عُلْياكَ أفْكارِي تُنظِّمُهُ

لَوْلاَ نَداكَ وما أوْلَيْتَ مِن نِعَمٍ ... ماراقَ مِنْهُ فُرَادَاهُ وتَوْأمُهُ

فَحُدْ حَديقَةَ طِرْسٍ والثّناءُ بهَا ... مِسْكٌ يُفَضُّ بأمْداحِي مُخَتَّمُهُ

واهْنَأ بِهِ مَوْسِمًا جَلَّتْ مَواهِبُهُ ... وراقَ في أُفُقِ العَلْياءِ مِيسَمُهُ

لازالَ مُلْكُكَ لِلأمْلاَكِ يُنْجِدُهَا ... في كُلّ ما أحْكَمَتْ عَهْدًا يُحَكِّمُهُ

ودامَ رأيُكَ لِلرَّاياتِ يَعْقِدُهَا ... والنّصْرُ لا يَنثَنِي عَنْهَا مُحَتَّمُهُ -244-

وأنشَدْتُهُ بِقُبّةِ مَشْوَرِهِ مِنْ حَضْرَتِهِ
العَلِيَّةِ عَلى العَادَةِ يَوْمَ عِيدِ الفِطْرِ
عَامَ تسْعَة عَشَرَ وثمَان مائَة وقَدْ
تحَرَّكَ السُّلْطانُ أبو عَلِي مِن مراكُش لمحَارَبَةِ
أخيهِ السُّلْطان أبي سَعيد صاحِب فاسٍ
وانتصَر كِلاَهُمَا بِهِ رَحِمَهُ الله ووَرَدَتْ
رُسُلُهَمَا عَلى حَضْرَتِهِ في ذلِك ما نَصُّهُ[366]

بُعلاَكَ صَدَّقَتِ المُلوكُ رَجاءَهَا ... وبعَدْلِ ملكِكَ مهَّدَتْ أرْجاءهَا
وبكَ ارْتَقَى الإسْلاَمُ أرفعَ مَظْهَر ... وبِكَ ارْتَضَتْ كلِماتُهُ إعْلاَءَهَا
ولكَ المُسَمَّى في الخِلاَفَةِ كُلّمَا ... أتَتِ المُلوكُ وعدّدتْ أسماءَهَا[367]
وإذا سَمَتْ هِمَمٌ لإدْراكِ العُلَى ... جَلَّتْ خِلاَلُكَ أن تَنالَ سَماءَهَا
تُشْفَى بكَ الأيَّامُ وهْيَ عَلَى شَفًا ... فَتُزيلُ مُعْضِلَهَا وَتُبْرِىءُ دَاءَهَا
وحَوادثٍ حَلَّتْ مَواقِعُ خَطْبِهَا ... نَصَباحِ عَزْمِكَ قَدْ جَلَوْتَ مَساءهَا
أوَ لَسْتَ يا مِلِكَ الهُدَى من أسْرَةٍ ... قَدْ أوْرَثَتْ شِيَمَ العُلَى أبْناءهَا
أخْبَارُهُمْ طابَتْ نَطَيْبَةَ كُلَّمَا ... حَلُّوا لإفْنَاءِ العُداةِ فِناءَهَا
وكَفاهُمُ أنَّ الخِلاَفَةَ بعْدَهُمْ ... لَوْلاَ عُلاَكَ لَفارَقَتْ أكْفاءَهَا
للهِ منكَ خِلاَفَةٌ نَصْرِيَّةٌ ... تَدْعُو الخَلاَئِقُ أن يُطيلَ بَقاءَهَا
أوَ ما خِلاَفَتُكَ الكَرِيمَةُ رَحْمَةٌ ... قَدْ مَدَّتِ الرُّحْمَى بهَا أفْياءهَا
أوَ ما خلاَفَتُكَ العَلِيَّةُ آيَةٌ ... تُهْدِي إلى شمْسِ الضُّحَى لأَلآءَهَا

---

(366) لا ذكر لأخي أبي سعيد المدعو هنا بالسلطان أبي علي فيما وقفنا عليه من مصادر ؛ والمعروف من أخوته أبو فارس عبد العزيز وأبو عامر عبد الله، وقد وليا الملك قبل أبي سعيد، وتوفيا قبل هذا التاريخ. راجع جذوة الاقتباس : 417، 450.

(367) يقول إن ممدوحه هو الخليفة اسمًا ومسمّى وغيره ليس لهم من الخلافة إلاّ الاسم.

فتُعيرُ طَالِعَةَ الضُّحَى أنوَارَهَا وتُفيدُ سَارِيَةَ الحَيا أنْوَاءَهَا
لكَ هِمَّةٌ طَوْعَ النَّدَى وعَنِ الردَى جَعَلَ الوِفاءُ جِباءَهَا وإباءَهَا -245-
ولكَ الصِّفاتُ الغُرُّ كَاثَرتِ الحَصَى عَدَدًا فَمَنْ دا بالِغٌ إحْصاءَهَا
ولكَ المآثِر دونَهَا الشَّمْسُ التي تَهْدِي وتُهْدِي لِلوَرَى أضْواءَهَا
ولكَ المَناقِبُ لوْ أعارَتْ هَدْيَهَا شُهُبُ الدُّجَى مَا فَارَقَتْ عَلْيَاءَهَا
ولكَ الكَتائِبُ ما جَمَعْتَ لِحَادِثٍ أعْدادَهَا إلاَّ كَفَتْ أعْداءَهَا
ولكَ العَزائِمُ كُلَّمَا أمْضَيْتَهَا في الحَرْبِ أمَّلَتِ السُّيوفُ مَضاءَهَا
ولكَ الفُتوحُ إذا طَوتْ أنْطالُهَا أرْضَ العِدَى نَشَرَتْ عَلَيْكَ لِواءَهَا
لَكَأنْ سَبْتَةَ والعِدَى قَدْ خَلَّفُوا مِنْهَا الدِّيَارَ وعَطَّلُوا افْنَاءَهَا
لكَأنْ بأرْبُعِ سَبَتَةٍ وجموعُهَا فَوْضَى وقد ملأ الفِرَارُ فَضاءَهَا
هَادِي العِدَى تَجْلُو الكَتائِبَ في مَدًى كَتَبَتْ يَدُ الأقدارِ فيهِ جَلاءَهَا
هاذِي رِياحُ الحَرْبِ هَبَّتْ عِنْدَهُ هُوجًا ولمْ تُرْسِل عَلَيْهِ رُخاءَهَا
وقَفَتْ وقدْ قَضَتِ السُّيوفُ بأنَّهَا للنَّهْبِ وانتَظَرَتْ لديْكَ قَضاءَهَا
نَصَتِ الرَّواحِلَ عندَمَا قَدْ أُنضِيَتْ فتَأتْ وقدْ ضِمنَتْ لَدَيْكَ فَناءَهَا
سَيُرَى مَقامُكَ في مَقامِ جِهَادِهِ والخَيْلُ قَدْ أبْدَتْ بِهِ خُيَلاءَهَا
حَيْثُ الأسِنَّةُ أنجُمٌ مُنْقَضَّةٌ في الحَرْبِ تَقْضِي أن تُريقَ دِماءَهَا
فَلَرُبَّ طَعْنَةِ ذِي قَناةٍ يَلتَقِي صَدْرُ الكُماةِ بِصَدْرِهِ نَجْلاءَهَا
وجِيادِ سَبْقٍ أثْلَعَتْ أجْيادَهَا وَظُبا فَوارِسِهَا تَروع ظِباءَهَا
وَطَليعَةٍ شَنَّتْ عَلَيْهِمْ غارَةً بَتَّ الرَّدَى بِفِنائِهِمْ شَعْواءَهَا
وَمُدَمِّرٍ أعْداءهُ قَدَّ الطُّلَى مِنهَا وقادَ إلى الرَّدَى أحْياءَهَا
ما لاَحَ بَرْقًا في سَماءِ عَجاجَةٍ الاَّ وَجَلَّى نُورُهُ ظَلْماءَهَا
ما راعَتِ البَطَلَ الكَمِيَّ مُلِمَّةٌ إلاَّ وأصْبَحَ مُفْرِجًا غَمَاءَهَا
فأَزِرْ عَلى حُكْمِ العَزائِمِ أرْضَهَا أسْدًا إذا زارَتْ أبَتْ إرْضاءَهَا

وجيَـادَ نَصْرٍ كُلَّمَـا أَرْسَلْتَهَـا تَـرِكَتْ مَيادِينَ السِّبَـاقِ وَرَاءَهَـا
قَدْ قَلَّبَتْ كَيفَ ارْتَضَتْهُ كُماتُهَـا قَلْبَ الفَلاَةِ وَضَعْضَعَتْ أَحْشاءَهَـا -246-
تُذْكِي العُيونَ عَلَى الأَعَادِي كُلَّمَا أَطْلَعْتَ فِي أُفُقِ الجِهَادِ ذُكَاءَهَـا
تَلْـوِي أَعِنَّتَهَـا وتُرْسِلُهَـا وَقَـدْ رَفَعَتْ مِن النَّقْعِ المُثَارِ لِوَاءَهَـا
وَصَوارِمًا تَجلُو العِدَى عَن حَيِّهَا إِذْ أَحْكَمَتْ أَيْدِي القُيُونِ جِلاَءَهَا
فكأَنَّهَـا أَنْهَـارُ دَوْحٍ أُرْسِلَتْ وَجَداوِلُ الأَغْمادِ تُمْسِكُ مَاءَهَـا
فتَرَى الأَعَادِي كُلَمَا قَدْ أَوْقَدُوا للحَرْبِ نَارًا يَمَّمَتْ إِطْفَاءَهَـا
ما بالُهَا تُرْدِي الكَمِيَّ ولَمْ يَزَلْ إِمْضاءُ عَزْمِكَ سابقًا إِنْضَاءَهَـا
صَدَرتْ نَواهِلَ مِنْ صُدورِ عِداكَ إِنْ أَوْرَدتَ مُنهَلَّ النَّجيعِ ظِماءَهَـا
وأَجِزْ إِلَيْهَـا المُنْشآتِ كأَنَّهَـا نُجُبٌ تُواصِلُ للنجاةِ نَجاءَهَـا
تَسْرِي كأَنَّ رَواحلاً قَدْ أَنضِيَتْ فَجَعَلْنَ أَصْواتَ الرِّياحِ حُداءَهَـا
يا طالَمَا حَمِدَتْ حُلاَكَ حِلاَلُهَـا قِدْمًا فَصَيَّرتَ الجَوازَ جَزاءَهَـا
هذا وفاسٌ ما يفُوزُ بمُلْكِهَـا إِلاَّ الَّذِي وَلَّيْتَهُ بَيْضاءَهَـا
هَذِي مَرِينٌ أَنتَ وَجْهَةُ قَصْدِهَا لَمَّـا رَمَتْ بِخِلاَفِهَا خُلَفاءَهَـا
هَـذِي مَرِينٌ يَمَّمَتْكَ لِنَصْرِهَـا لَمَّـا دَعَتْ خُلَفاؤُهَـا حُلَفاءَهَـا
وثَنَتْ عِنانَ القَوْلِ فيكَ فَواصَلَتْ لِعُلَى مَقَامِكَ حَمْدَهَا وثناءَهَـا
إِنَّ الذي وَفَّى مَقَامَكَ حقَّهُ مَحَضَتْ لهُ طَوْعَ الوِدادِ وفاءَهَـا
فَلِذاكَ نادَتْ مِنكَ ناصِرَهَا الرِّضَى لِتُجيبَ طَوْعَ المَكْرُمَاتِ نِداءَهَـا
ما حَقَّقَتْ مَرْجوَّها بكَ إِذْ دَعتْ إِلاَّ شَفَتْ بَرَجائِهَـا بُرَحَاءَهَـا
وقُلوبُهَا ما شَفَّهَا بَـرْحُ الأَسَى إِلا وكانَ نَدَى يَدَيْكَ شِفاءَهَـا
لِلَّـهِ كَـمْ والَيْتَهُـنَّ مَوَاهِبًـا جَعَلَتْ لَهَا صِيدُ المُلوكِ وَلاَءَهَـا
ولَكَـمْ أَيـادٍ طَـوَّقَتْ أَعْناقَهَـا قَضَتِ المَكَـارِمُ فيهِـمُ إِسْداءَهَـا
ولَكَـمْ ظِـلاَلٍ لِلأَمَـانِ تَقَـلَّصَتْ فَمَـددت فيهَـا مُنْعِمًـا أَفْياءَهَـا

فاهْنـأْ بِعـزّ خِلافَـةٍ أمْلاكُهَـا أضْحَتْ عَلَى حُكْمِ الوَفاءِ وِفاءَهَا -247-
وبِنَجْلِكَ المتَنَسِّكِ الأرْضَى الـذِي نـالَ العُلَـى وتَحَمَّـلَ اسْتِقْصاءَهَـا
بِوِلاَيَة العَهْدِ التِي قـدْ أُحْكِـمَتْ كيفَ ارْتَضاهَا اليُوسُفِيُّ وشَاءَهَـا
فِي حَضْرَةِ المُـلكِ التّي لجَنابِهَـا تُزْجِي الرّكابُ سِراعَهَا وبِطاءَهَـا
حَجِّ الُوفودِ وحُجّـةِ الأمْصارِ إذْ قَـدْ أوْجَـبَتْ إلْقاءَهَـا ولِقاءَهَـا
بمشَيّـــدٍ علْياءَهَـــا ومُشَدّدٍ أعْضادَهَـــا ومُسَدّدٍ آراءَهَـــا
إن رامَ قُطْرٌ أنْ يُضاهِيَهَا انتَنَـى كالشَّمْسِ لَوْ رامَ السُّهَى إخْفاءَهَا
دارُ السَّلامِ لَـو اسْتَقَـلَّتْ هَـذِهِ مازارَ مَنْصُورُ الأُلَـى زَوْراءَهَـا(368)
ومُعَـدُّ مِصْرٍ لَـوْ أعَـدَّكَ مُنْعِمًـا ما كَانَ يُخْلِفُ نِيلُهَا بَطْحاءَهَـا(369)
ولوِ اسْتَمَـدَّ الأفْـقُ حُـودَكَ آمِـلاً ما فَارَقَتْ سُحُبُ الغَمامِ سَخاءَهَا
هَـلْ يـوسُفٌ إلاَّ كَيُـوسُفَ عِـزّةً ومَحاسِنًا تُهْدِي النَّجومُ رُوَاءَهَـا(370)
تَهْدِي وتُهْدِي العِزَّ شِيمتُـهُ التـي أبْـدَتْ سَنَاهَـا لِلـوَرَى وسَنَاءَهَـا
مَا اسْتَقْبَلَتْ شَتَّى الوُفـودِ جَنابَـهُ إلاّ وَقابَـلَ بالقَبُـول هناءَهَـا
مـا يَمّـمتْ إلاَّ ظِـلاَلَ نَوالِـهِ فأفادَهَـا الـبُشْرَى غـدَاةَ أفاءَهَـا
لـمْ لاَ تُؤَمِّلُهَـا الوُفـودُ خِلافَـةً نَصْرِيّـةً جُعِـلَ الوُجـودُ فداءَهَـا
فَليَهْنِهَـا عيـدٌ يَعـودُ بِنَصْرِهَـا ويُعِيـدُ فِي دَرَكِ الـرَّدَى أعْداءَهَـا
وسُعـودُ أنجُمِهَـا تَمُـدُّ شُعاعَهَـا مِـن أفْقِهَـا وتُفِيدُنَـا أضْواءَهَـا
بُشْراكَ قَـدْ أحْـرَزْتَ فِي مَيْدانِهَـا سَبْقًـا مُعَلاَّهَـا وحُـزْتَ عَلاَءَهَـا
ولَكَ الهَناءُ بِمَقْدَمِ العِيدِ الـذِي ألْقَـى أزِمَّـةَ سَيْـرِهِ تِلْقاءَهَـا
وافَى وأيّامُ الصّيامِ قَـدِ انـقَضَتْ فأتَـى بِقُـرْبٍ يَقْـتَضِي إقصَاءَهَـا

(368) دار السلام والروراء : بغداد، والمنصور هو أبو جعفر الخليفة العباسي مؤسس بغداد.
(369) معد مصر : هو أبو تميم معد الملقب بالمعز العبيدي، وإليه تنسب القاهرة المُعِزّية.
(370) يوسف الأول هو ممدوح الشاعر، ويوسف الثاني هو نبي الله، وهو عزيز مصر كما ذكر في القرآن الكريم وإلى هذا يلمّح الشاعر.

وَدّتْ وقدْ كَلِفتْ بِوُدّكَ لوْ ثَنَتْ رَكْبَ السُّرى واسْتأنَفَتْ إبْقاءَهَا
مَوْلاَيَ لوْلاَ جُودُ كَفّكَ لمْ أُجِدْ إبْـدَاعَ أمْداحِـي ولاَ إبْداءَهَـا
فإلَيْكَ وصْفًا لمْ تَلُحْ شُهُبُ الدُّجَى إلاَّ وبَاهَـى حُسْنَهَـا وبَهَاءَهَـا
هَـدِي المَنـاقِبُ يسْتَميـلُ سَماعُهَـا قوْمًـا ادارَتْ فيهمُ صَهْباءَهَـا -248-
هَدِي المدائِحُ واللُّهَى قَدْ أنطَـقَتْ لِتَرُوقَ في رَوْضِ النُّهَى وَرْقاءَهَـا
هَدِي الفُحُولُ الغُلْبُ دُونَ مَرامِهَا إنْ سابَقوا لـمْ يَسْبِقُـوا عَذْرَاءَهَـا
يُلْقـى لَـدَيْكَ العَبـدُ مِنْهَـا فَـدَّةً والمَـدْحُ مِـنْكَ مُـحَسِّنٌ حَسْناءَهَـا
يَسْتَوْقِـفُ الشّعْـرَى دُوَيْـنَ مَرامِهَـا صِيتًـا ويَسْبِـقُ وادِعًـا شُعَراءَهَـا
لَـوْلاَ نَـوالُكَ مَـا أحـادَ لِسانُـهُ إنْشادَهَـا أوْ فِكْـرُهُ إنشاءَهَـا
فَلقدْ تَفوقُ السُّحْبَ كَفُّكَ عِندَمَا تُزْجِي حَيَاهَا أوْ تُفيدُ جِباءَهَـا(370م)
فإلَيْكَهَـا غـرَّاءَ رائِقَـةَ الحُلَـى حَيَّتْ وقدْ أبْدَتْ لـدَيْكَ حَياءَهَـا
فَحَصَتْ عنِ المعْنَى الشَّرودِ فأعْجَزَتْ كَيفَ اقْتَضَى إعْجابُهَـا فُصَحاءَهَـا
عَرَبِيَّـةً ارْسَلْتُ مِـن إعرابِهَـا خَيْـلاً تُقابِـلُ بالصَّهيـلِ رُغاءَهَـا
لاَزِلْتَ شَمْسًا والملـوكُ كَـواكِبٌ يُبْـدى ظُهـورُكَ لِلوُجـودِ خَفاءَهَـا
والخَلْقُ في دَعَةٍ وعِـزُّكَ صارِفٌ ما شاءَ صَرْفُ الدَّهْرِ ممَّا ساءَهَا
تَدْعُو لِنصْرِكَ مَن قَضَتْ أحْكامُهُ كَرَمًا وَفضْلاً أنْ يُجيبَ دُعاءَهَـا

وأنشَدتُهُ في عيدِ الأضْحَى مِن عامِ تِسعَة عَشَرَ وثماني مائة المذْكورِ، وَقد وَصَلَ العبَّاسُ بن غَمَراسَن ووَلَدُ اللُّبَابي مِن قِبَلِ السُّلْطان أبي سَعيدٍ مُسْتَنصِرًا بهِ عَلى أخيهِ أبي عَلي المتوفَّى أثناءَ إقامَتِهِمَا بالحَضْرةِ قَتيلاً بعْدَ هزيمةٍ انْجَرَّتْ عليْهِ بظاهِرِ فاسٍ، وقُبِضَ عليهِ بعْدَ ذلِكَ وَسيقَ لِمصْرعِهِ بَيْنَ يَدَيْ أخيهِ، وكانَ رَسُولهُ قد انصَرَفَ صُحْبَةَ قاضِي الجَماعَة وجازَ البحْرِ قَبْلَ ذلك بِيَسيرٍ، وهذهِ القَصيدة

(370م) عندمَا : يقترح الشاعر أيضًا : كُلّمَا

آخر ما أنشدتُ بيْنَ يَديْهِ بلفْظِي وَتضَمَّنَتْ وصْفَ المَيْزِ وعَرْضِ جُندِهِ قَبْلَ العيدِ ومَا تَظاهَرَ بهِ مِن السّلاحِ والخُيولِ والعُدَدِ التِي قَدَمَ العَهْدُ بِمثْلِهَا[371] -249-

تحَيّيكَ من شُهْبِ الجِيادِ طَلائِعُ ... كمَا وَضَحَتْ بالأُفْقِ شُهْبٌ طَوالِعُ

تَرُوقُ عِداهَا فِي المَدَى أوْ تَرُوعُهَا ... مَدارِكُ سَبْقٍ عِنْدَهَا ومَدارِعُ

يَطولُ إذا اشْتَدّ النّزالُ وُقوفُهَا ... فَمَا جُئِثَتْ الأعْداءِ إلاَّمَراتِعُ

تُريقُ دَمَ الأبطالِ أيْدِي كُماتِهَا ... فَتثنِي الهَوادِي والنّواصِي نَواصِعُ

ثَنَتْ عزْمَهَا نَحْوَ الجِهَادِ فَوارِسٌ ... بهَا لِثَنَاءِ المَعْلُواتِ فَوارِعُ

إذا ما ديَارُ الكُفْرِ جاسَتْ خِلالَهَا ... بِدَارًا فَمعْمورُ البِلادِ بَلاقِعُ

وتَحْكِي ظِبَاءَ القَفْرِ فهْيَ رَوائِدٌ ... إذا أثْلَعَتْ أجيادَهَا وَرَوائِعُ

وقَدْ جَلَّلَتْ أجْسَادَهَا مِن قَتَامِهَا ... جِلالٌ وَمِن نسْجِ الحَديدِ بَراقِعُ

كأنَّ سِماتِ الأوْجُهِ الغُرِّ فَوْقَهَا ... بُدُورٌ وآفاقُ السُّروجِ مَطالِعُ

تُظَلِّلُهَا الأدْرَاعُ سُحْبًا لِتخْتَفِي ... ونُورُ الضُّحَى تَحتَ الغَمائِمَ سَاطِعُ

دُرُوعٌ تَرُوقُ النَّاظِرِينَ كَأنَّهُمْ ... لدَيْهَا الظِّمَاءُ الهِيمُ وهْيَ مَشارِعُ

إذَا نازَعَتْ شَمْسُ الصَّباحِ شُعاعَهَا ... رمَتْهَا سِهَامٌ للغَمامِ نَوازِعُ

فَتِلْكَ عيُونُ السُّحْبِ قَدْ نَظَرَتْ لَهَا ... ومِن خَشيَةٍ سالَتْ لَهُنَّ مَدامِعُ(٥)

ومُذْ خَفَقَتْ أعْلامُ نَصْرِكَ أخْفَقَتْ ... مَساعٍ وخَابَتْ لِلعَدُوِّ مَطامِعُ

---

(371) العباس بن عمراس : لم نقف له على ذكر، والمفهوم أنه كان من رجال دولة أبي سعيد عثمان المريني، أمّا ولد اللّمايي فهو الحاجب أبو محمد عبد العزيز بن محمد اللّمايي، وهو الذي حاز ملكه وفعل فعلته التي كانت سببا في تعجيل نهاية بني مرين. انظر ترجمته وأخباره في الضوء اللامع 4 : 233 ــ 234 وجذوة الاقتباس 2 : 451 وإنباء الغمر 7 : 427 ووصف افريقيا : 318 وبيوتات فاس : 46 والاستقصا 4 : 94 وحُرّفت فيه كلمة اللمايي إلى المليلي، ومايرال درب اللّمايي موجودًا بفاس باسفل حومة المنية قرب رقاق الماء ؛ وقاصي الجماعة في التقديم يقصد به قاضي عرباطة، وكان ملوك بني نصر يوجهون صاحب هذه الخطة سفيرًا إلى المغرب وممّن سفر لهم القاضي السُّاهي والقاضي الشريف أبو القاسم السبتي ؛ ويبعي أن يكون قاضي الجماعة في التاريخ المذكور هو الشريف أبو المعالي ولد أبي القاسم المذكور.

(٥) في الأصل : لها المدامع.

فَحافٍ لَدَى حُمْرِ البُنودِ وخَائِفٌ وخاشٍ أذَى زُرْقِ النُّصولِ وخَاشِعُ
مَواقِفُ عَرْضٍ تُطْلِعُ السُّمرُ عِندَهَا نُجومًا لَهَا في الدَّارِعينَ مَواقِعُ
كذلِكَ بِيضُ الهِنْدِ وَهيَ جَداوِلٌ مَصارِفُهَا لِلمُعْتَدِينَ مَصارِعُ
وقَدْ حُلّيتْ عوجُ القِسِيّ فَنازِلٌ بِهَا يَبْتَغِي الحَرْبَ العَوانَ ونازِعُ
إذا حُنِيَتْ فَوْقَ الرُّبَى فَأهِلَّةٌ لهَا فَوْقَ أجْرامِ السَّحابِ مَطالِعُ(372)
يُجيبُ صَهيلَ الصَّافِناتِ حَنينُهَا فَتَرْتاحُ نَحْوَ المُلْتَقَى وتُسارِعُ
كأنَّ انسِكَابَ الغَيْثِ وَقْعُ سِهَامِهَا إذا ما تُوالِي رَمْيَهَا وتُتابِعُ
وقَدْ تَنتَمِي مِن غيْرِ حَربٍ كأنَّهَا لَدَى نازِعيهَا حينَ رُدّتْ وَدائِعُ
فمَا اسْتَرْسَلَتْ إلاّ غُيوثٌ سَواجِمٌ وَلاَ جُرِّدَتْ إلاَّ بُرُوقٌ لَوامِعُ -250-
ولا انعَطَفَت إلاّ غُصونٌ نَواعِمٌ ولاَ نَطَقَتْ إلاّ حَمامٌ سَواجِعُ
ولما عَرَضْتَ الجَيْشَ أعرَضَتِ العِدَى عَنِ الحَرْبِ وارْتاعَتْ لِمَا هُوَ واقِعُ
لَقَدْ جَنَحَتْ للسِّلْمِ طَوْعًا فَمالَهَا تُطاوِلُ وَالدُّنْيَا لَدَيْكَ تُطاوِعُ
وَقُبّتُكَ العَرّاءُ لِلهِ عِنْدَهَا مَنازِهُ حُسْنٍ تجتَلَى ومَنازِعُ
طَلَعْتَ بمَرْقاهَا فكُلُّ مُمَلَّكٍ لَدَيْهَا يُوالِي حَمْدَهُ ويُوادِعُ
فَلِلْجُنْدِ والجُرْدِ العِتاقِ أمامَهَا مَلاَعِبُ تَسْتَهْوِي النُّهَى ومَراجِعُ(372م)
لَدَى مَلِكٍ قَدْ أصْبَحَتْ عَزَماتُهُ تَقودُ المُلوكَ الصِّيَدَ وهْيَ خَواضِعُ
وَهَلْ شَرَفُ الأملاكِ إلاَّ إذا أتَتْ تُقَبِّلُ يُمْنَاهُ بهَا وتُبايِعُ
وتخْطُبُ مِنهُ نَصْرَهَا في الذِي بِهِ تُطالِبُه مِن أمْرِهَا وتُطالِعُ
لَقَدْ جُمِعَتْ أجْنادُهُ وهْوَ دونَهَا يُدافِعُ أحْزابَ العِدَى ويُمانِعُ
فَجَمْعٌ بأنْواعِ المَحاسِنِ مُفْرَدٌ وفَرْدٌ لأشْتاتِ المكَارِمِ جامِعُ
وأنَّى تُحاريهِ المُلوكُ وإنَّهُ لَيَسْبِقُ آمَادَ العُلَى وهْوَ وادِعُ

---

(372) أجرام : يقترح الشاعر أيضًا : مَرْكوم.
(372م) فَلِلْجُنْدِ : في الأصل : فَلِلْحُودِ، وهو تحريف.

قـدِ اتّضَحَتْ لِلمُهْتَدِيـنَ شَعائِـرٌ ... بِـهِ وَلدِيـنِ اللّـهِ قـامَتْ شَرائِـعُ
وأنّـى تُدانيـهِ وقائِـمٌ سَيْفِـهِ ... لهُ في العِدَى طَوْعَ الجِهَادِ الوَقائِعُ
مِنَ الخزْرَجِ الأرْضَيْنَ تَرْتاحُ مِنْهُمُ ... إلَى العِز أقْيالٌ وتَسْمُـو تَبابِـعُ
تَكُفُّ خُطوبَ الدَّهْرِ حيثُ أكفُّهَا ... هَـوامٍ بمُنْهَـلّ النّـوالِ هَوامِـعُ
فمَا جَدَّ إلاّ ما انتَضَتْ عَزَماتُهَا ... ولاَ جَـادَ إلاّ جَوْدُهَـا المُتَتابِـعُ
فَطـامٍ بمُلتَـفّ القَتـامِ وَطامِـحٌ ... وهـامٍ بوَكّـافِ الغَمـامِ وَهامِـعُ
لَقَدْ أوْرَثُوا المجْدَ المؤثَّلَ نـاصِرًا ... يَقومُ لِحِفْظِ الدّينِ والدّينُ هاجِعُ
خِلافَتُـه العُلْيَـا وكُـلُّ خَليفَـةٍ ... لِعُلْيَـاهُ مُنْحـازٌ لرُحْمـاهُ فـازِعُ
فَطـولِبَ وهّـابٌ وأُمّـلَ مُنعِـمٌ ... وَخُـوطِبَ مُرْتـاحٌ ونُـودِيَ سامِـعُ
وبُلّـغَ مامُـولٌ وأسْعِـفَ قـاصِدٌ ... وأمِّـنَ مُرْتـاعٌ وَرُدَّ مُنـازِعُ
بِعَزْمٍ لهُ مِنْ عِزَّةِ المُلْكِ سائِقٌ ... وحُكمٍ لهُ مِن سابِقِ الحِلْمِ وازِعُ -251-
وإنّ وَلِـيَّ الكُفْـرِ بالفِكْـرِ طالَمَـا ... يُنـازِلُ أحْـزابَ العِـدَى ويُنـازِعُ
وإنَّ رِمـاحَ اليُوسُفِـيّ بِحَرْبِـهِ ... دَوامٍ وأجْفـانُ العُـداةِ دَوامِـعُ
هُمامٌ يُزيرُ الحَـرْبَ أسْرًا زَئيرُهَـا ... دَليـلٌ عَلى الـنّصْرِ المؤَزَّرِ قاطِـعُ
عَلى الرَّوْعِ مِقْدامٌ وفي الوعدِ صادقٌ ... وللْمـالِ وهّـابٌ وبالحَـقِّ صادِعُ
فَجدٌّ لِصَدْرِ الديـنِ شَافٍ وشارحٌ ... وَجـودٌ لأبْـوابِ المكـارِمِ شارِعُ
وعَـزْمٌ كما هـزَّ المهنّـدَ ضاربٌ ... وَرأيٌ كَمَا قدْ فَوّقَ السَّهْمَ نازِعُ
فَيا مَـلِكَ الدُّنْيَـا بعَـدلِكَ شُيِّـدتْ ... مِنَ الدّينِ أعْلامٌ وقـامَتْ مصانِـعُ
مَقـامُكَ محْمـودٌ وعَـدْلُكَ شامـلٌ ... وَظِلّكَ مَمـدودٌ وجَهْـدُكَ ذائِـعُ
وحِـزْبُكَ مَـنْصورٌ وَعِـزُّكَ قاهِـرٌ ... وَجـودُكَ مَبْذولٌ وحِلْـمُكَ واسِعُ
وكفُّكَ بَحْـرٌ والخَلائِـفُ(٥) تَرْتَجِـي ... نَداهَـا فَطـامٍ بالنّـوالِ وطَامِـعُ
فَـلاَ مُعْتَـلٍ إلاّ لِعِـزّكَ خـاضِعٌ ... ولاَ معْتَـدٍ إلاّ لِحُكـمِكَ راجِـعُ

(٥) كذا في الأصل، ولعلّها : والخَلائقُ.

ولاَ مَـلَكٌ إلاّ بـنَصرِكَ مُـرْسَلٌ ... ولاَ مَـلِكٌ إلاّ لِمُلْـكِكَ تابِـعُ
دَعَتْكَ مُلوكُ الغَرْبِ والكُلّ مِنهُـمُ ... بأيْسَرِ حَـظٍّ مِنْ قَبـولِكَ قانِـعُ
وقامَتْ بأعْباءِ الحُروبِ ولمْ تَقُـمْ ... رُبَـى عَزْمِهَـا إلاّ ورأيُكَ فَـارِعُ(*)
وقدْ أشرِبَتْ مِنْكَ القُلوبُ مَهابَةً ... فَمـا مِنهُـمُ إلاّ مُطيـعٌ وَسَامِـعُ
لَقدْ عَزَّ مَن والَى مَقامَكَ مِنهُـمُ ... فَكَـفّ المُنـاوِي واتّقـاهُ المُنـازِعُ
فَلاَ السَّرْبُ مُرْتاعٌ ولاَ الخَطْبُ فاجِيءٌ ... وَلاَ المُلْكُ مَسْلوبٌ ولاَ الدَّهْرُ فاجِعُ
أيَـذْنِبُ دَهْـرٌ أوْ يُلِـمُّ بِحَـادِثٍ ... يَرُوعُ ومِنْ جَدْواكَ شافٍ وشَافِعُ
قَضَى اللّهُ أنَّ الأمْرَ كَيفَ تُريدُهُ ... ولَيْسَ لِمَا قَـدْ شاءَهُ اللـهُ دافِـعُ
فللـهِ يَـوْمٌ في المَـواسِمِ باهِـرٌ ... أنيـقُ المحَيَّا رائِـقُ الـحُسْنِ رائِـعُ
حَلَلْتَ بِهِ الايوانَ والحَفْلُ دونَـهُ ... تَفيضُ عَلَيْهِـم مِـن نَـداكَ يَنابِـعُ
ودارَتْ حَوالَيْكَ الجُنـودُ كأنهَـا ... كَواكِبُ سَعدٍ قَدْ جَلتْهَا المَطالِعُ
فَلِلـهِ منهَـا حَضْرَةٌ كل وافِـدٍ ... وقَدْ حَلَّهَا في جنَّةِ الخُلْدِ راتِـعُ -252-
وَهُنِّئْتَـهُ عيـدًا أقَـمتَ صَنيعَـه ... وقـدْ عظُـمَتْ لِلّـهِ فيـهِ صَنائِـعُ
وهاكَ التي رَقَّتْ وراقتْ مَحاسِنًا ... بَدائِـهُ مِـن تِلْقائِهَـا وَبدائِـعُ
لِتُلْقِي لَدَى مَوْلَى الخلاَئِفِ يُوسُفٍ ... مِنَ القَوْلِ ما تُصْغِي إلَيْهِ المَسامِعُ
ولَوْلاَكَ ما غَيْثُ الاجَـادَةِ هامِـلٌ ... لَـدَيّ ولاَ رَوْضُ البَلاَغَـةِ يانِـعُ
فَدامَتْ لَكَ الدنْيَا ومُلْكُكَ نـاصِرٌ ... وِمِـن دونِ عُلْيـاهُ مُطيـعٌ وطَائِـعُ
وللْـقَصْدِ إسْعـافٌ وللرِّفْـدِ طـالِبٌ ... وللِوَعْـدِ انجازٌ وللسَّعْـدِ طالِـعُ
إلَى أن تَنالَ المُلْكَ غَرْبًا ومَشْرِقًا ... فَيُـدْرِكُ مامُـولٌ ويَقْـرُبَ شاسِعُ
وإنّي لأرْجُـو اللّـهَ حَتّـى كأنّنِـي ... أرَى بِجَميلِ الظّنِّ ما اللهُ صانِعُ

(*) رُبَى عَزْمِهَا : لا معنى لها، ولعلّها تحريف : رَحَى حَرْبِهَا.

وكانَ رَضيَ اللّهُ عنهُ قد اشتَدَّ بهِ المرضُ الذي قَضَى عَلَيْهِ
وهُوَ قد شَرَعَ في حَرَكَةِ تَوْجيهِ السُّلْطانِ أبي يُوسف
يَعقُوبُ أيَّدَهُ اللّهُ وتوجَّهَ عَلى ما بهِ من الأَلِم إلَى المُنكَّب لِيُباشِرَ
بنَفْسِهِ إجازَتهُ مِنهَا فانفَذ اللهُ عز وَجَل حُكْمَهُ في وَفاتِهِ
بَعْدَ جَواز السُّلْطانِ بأرْبَعةِ أيّام فُجأةً وأصْبَحَ ميتًا يوْمَ
الأرْبعاءِ التّاسِعِ والعِشْرينَ لِرَمَضان عام تسْعَةَ عَشَر وثمانمائة
بَعْدَ أن كانَ أمَرَ بالتّأهُّبِ لإقامَة ما جَرَتْ بهِ العَادَةُ مِن
رَسْمِ العِيدِ بالطَعامِ وغَيْرِهِ فأعْدَدتُ هَذِهِ وحَالَ ما جَرَى بهِ
القَدَرُ دُونَ إنشَادِهَا(373)

نُشْرَى بوَعْدٍ لِنصْرِ الدينِ مرْقُوبِ أتَى بهِ مُلْكُ يَعْقوبَ بْن يَعْقوبِ(374)
وَلَّيْتَـهُ المُـلْكَ والأعْـداءُ رَاغِمَـةٌ ومُلْكُهَـا بَيْـنَ مَغْلوبٍ ومَسْلـوبِ
وهَبْتَـهُ العِـزَّ فارْتَـاعَتْ لِمقْدَمِـهِ فَمُلْكُـهُ بَيْـنَ مَوْهـوب ومَرْهـوبِ
أنَلتَـهُ مِـن نَـدَى كَفَّـيْكَ صَيِّبَـةً تَجُـودُهُ بَيْـنَ تَشْريـقٍ وتَغْـريبِ -253-
كَثَّرتَ سَائِلَـهُ إذْ حُـدتَ ماحِلَـهُ فَرَوْضُهُ بَيْـنَ مَطْلـولٍ وَمَطْلـوبِ
شَرَعْتَ بابَ النّدى لِلْقاصِدين فكَمْ مِن مْوردٍ بيْنَ مَشْرُوعٍ ومشْرُوبِ
مَكارِمٌ ردَّدَ الرُّكبانُ حيثُ سَرَوْا حَديثَهَـا بَيْـنَ إدْلاَجٍ وتَـأْويبِ

(373) جاءَ في الصوء اللامع 10 : 283 : «وأرسل ابنُ الأحمر يعقوبَ المريني إلى فاس فلم يتمّ له الأمر» وقد وردت هذه الحملة ضمن ترجمة من أسماه السخاوي يعقوب بن عبد الله الجاناتي الفاسي أحد الخارجين على أبي سعيد عثمان المريني، وتشتمل هذه الترجمة على قصيدة تاريخية ذُكر فيها أسماء عدد من أولاد بني مرين الذين أرسلهم الواحد تلو الآخر يوسف الثالث ومَنْ حلفه لإثارة الفتنة في المغرب ؛ أما تاريخ وفاة يوسف الثالث فقد ورد أيضًا مكتوبًا في رخامة قبره كما يلي : «قبضه الله سبحانه لِمَا أعدّ له من الكرامة، وحباهُ به من النّعيم في دار المَقامة، صبح يوم الثلاثاء التاسع والعشرين لرمضان المعظّم عام عشرين وثمانمائة» انظر كتاب ل. بروفنسال : Inscriptions Arabes d'Espagne. pp. 169 - 173

(374) يحتمل أن يكون يعقوب والده أو جدّه الأعلى أي يعقوب بن عبد الحق.

يتْلُونَ مِن حَمْدِهَا ذِكْرًا مُرَدَّدُهُ ... راقَ النُّهَى بيْنَ ترتيلٍ وتَرْتيبِ
كَمْ ألسُنٍ رَدَّدَتْ من قَبْلِ وجْهَتِهِ ... حَديثَهُ بَيْنَ تَرْغيبٍ وتَرْهيبِ
تُومِي وتُفْصِحُ بالأمْرِ الذي اعتَقَدَتْ ... والسِّرُّ ما بَيْنَ مَكْتومٍ ومَكْتُوبِ
فتَهْتَدِي منهُمْ الأفْكارُ نازِعَةً ... لِقَصْدِهَا بَيْنَ تحقيقٍ وتغْليبِ
حَتّى أزَلتَ ولِلأبْصارِ تَبْصِرَةٌ ... بِمخبَرِ الصِّدْقِ أخْبَارَ الأكاذيبِ
أرْسَلتَ سابقَ حَزمٍ غَيْرَ مُتَّئِدٍ ... هَزَزْتَ صارِمَ عَزْمٍ غَيْرَ مَقْرُوبِ
فَلاَ يَرُوعُ حُسامٌ غَيْرُ مُنصَلتٍ ... وَلاَ يَرُوقُ سِنانٌ غَيْرُ مَخْضُوبِ
هَذِي مَرينٌ وأشْياخُ القبائِلِ قَدْ ... شكَتْ بمَا نالَهَا مِن طولِ تَثْريبِ[375]
أهْدَتْ لبَابِكَ مِن أبْنائِهَا زُمَرًا ... قُلوبُهَا هدأتْ من بَعدِ تَقْلِيبِ
أفْعَالُ مَوْلًى غَدا كِسْرَى بمَن لهُمُ ... قَدِ انتَمَى بَيْنَ مَغلُولٍ ومَغْلُوبِ
مَن لمْ يَقِسْ بيَني نَصْرٍ مُلوكَ هُدًى ... ما نورُ شَمْسِ الحِجَى عَنْهُ بمَحْجُوبِ
كَمْ دافَعَ الخَطْبَ مِنهُمْ مِن وَلِيٍّ نَدًى ... طَلَقِ المحَيَّا إلَى العَلْيَاءِ مَخْطوبِ
إن اسْتَقَلَّتْ بِبَذْلِ الجُودِ راحَتُهُ ... لِلْقاصِدِينَ اسْتَقَلتْ كُلَّ مَوْهُوبِ
حَمَى الحَقيقَةَ مِنْهُ أرْوَعٌ بَطَلٌ ... راعَ العِدَى فَحِمَاهُ غَيْرُ مَقْروبِ
كَمْ معْتدٍ بَعْدَ نَصْرِ الأوْلياءِ غَدَا ... خِيامُهُ بيْنَ تَقْويضٍ وتَطْنِيبِ
كَمْ فَعْلَةٍ آثَرُوهَا قَبْلَ أن نَطَقُوا ... ومَوْعِدٍ أنْجَزُوهُ غَيْرَ مَضْرُوبِ[376]
لاَ كالذِي لمْ يَفُهْ يَوْمًا بمكْرُمَةٍ ... ولمْ يعِدْ قَطُّ إلاَّ وَعْدَ عُرْقُوبِ
ولاَ كَيعْقُوبَ إذْ طالَتْ خِلاَفَتُهُ ... بِمَا اسْتَحَقّتْهُ مِن فَرْضٍ وتَعْصيبِ[377]
أنهَجْتَهُ سُبُلَ آباءٍ لَهُ دَرَجُوا ... حَتّى اسْتَقَلّ بأمْرٍ غَيْرِ مغْصُوبِ
هَلْ فِي مُلوكِ الوَرَى أسْمَى وأشْرَفُ مِنْ ... مَلْكٍ لِمَا نالَ مِنْ نعْماكَ مَنْسُوبِ -254

(375) في الأصل : أشياخ القبائل، بدون الواو العاطفة.
(376) غير مضروب : يقترح الشاعر أيضًا : غير مكدوب.
(377) طالت : يقترح الشاعر أيضًا : صالت.

وهـــذِهِ نِسْبَـــةٌ أغْنتْـــهُ رِفْعَتُهَـــا ... عَن شُهْرَة اسْمٍ وإفْصاحٍ بتَلقيبِ
أرْكَبتَـهُ البَحْـرَ قَصْدًا أن تُبلغَـهُ ... مِن صَهْوة المُلْكِ أسْنَى كلّ مَرْكوبِ
والرّيحُ بالسُّفْنِ قَدْ جَدّتْ كَما لَعِبَتْ ... أيْدِي السُّرَى وسَطَ البَيْداءِ بالنِّيبِ
تَعْلُو وتَنحَطّ حيْثُ الهُوجُ تَمنَحُهَا ... قصْدَ الصَّوابِ لتَصْعيـدٍ وتَصْويبِ
كأنّهَـا الجُـرْدُ لاَ تَلـوِي أعِنَّتُهَـا ... إلاَّ إلَـى خبَبٍ في إثْرِ تَقْـريبِ
في السِّلْمِ تَختَالُ كالخَيْلِ العِرابِ وفِي ... حَرْب الأعَاجِمِ تاتِـي بالأعاجِـيبِ
كأنّ خافِقَةَ الأعـلامِ مـا رُفِـعَتْ ... إلاّ عَلى عَلَمٍ في البحْرِ مَنصُوبِ
وكَمْ جِيادٍ إذا جالتْ نَمَيْتَ إلَى ... جَمْرٍ أمامَ هُبوبِ الرّيحِ مَشْبُـوبِ
جَلَبْنَ كُـلّ كَمِـيٍّ لِلْجِهَـادِ وقـدْ ... أحْرَزْنَ حُسْنَ شِياتٍ غيْرَ مَجْلوب
هذا وقدْ جاءَ عيدُ الفِطْرِ يَشْكُرُ مَا ... أوْلَيْتَ وافِدَهُ مِن فضلِ مَوْهُـوبِ
وكانَ مِن قَبْلُ شَهْرُ الصَّومِ مُلتمسًا ... لَـدَيْكَ رتْبَـةً تَقْريـظٍ وتقـــريبِ
كَم صُمْتَ واليَوْمُ قَدْ شُبّتْ هَواجِرُهُ ... وقُمْتَ وَاللّيْـلُ مَسْدُولُ الجَلابِـيبِ
واللّهُ قَد ضاعَفَ الأجْرَ الجَزيلَ بِمَا ... ألَمَّ مِن ألَمٍ في اللَّوْحِ مَكْتُوبِ
خُذْهَا مُجَدّدَةً عَهْدَ الشَّبابِ وقَـدْ ... أغْنَى مَديحُكَ عَنْ وَصْفٍ وتَشْبِيبِ
فَمَدْحُ مَوْلاَيَ قَدْ رَاقَ النّظامُ بمَا ... إحْسانُهُ زَادَهُ مِـن حُسْنِ تَهْـذيبِ
كَذلِكَ الرَّوْضُ إن مَرَّ النّسيمُ بِهِ ... زَهَا بمَا نالَهُ من نفحَةِ الطّـيب
لاَزِلْتَ تسْتقبلُ العُمْرَ الجَديدَ ومَا ... يَمُـرُّ مِنـهُ عَطـاءٌ غَيـرُ مَـحْسُوبِ

وأسْرَيْنَا بِتابُوتِهِ تِلكَ اللّيْلَة فَوصَلنا الحَضْرَة ضُحَى يَوْمِ العِيدِ، ولمْ يَشْعُر أحَد مِن أهْلِ البَلدِ، لاشْتِغَالِهِم بصَلاةِ العيدِ، حَتّى اسْتَقَرّ الجَميعُ بالحمراء، وعِندَ ذلِكَ شرعْنَا في بيعَةِ ولّي العَهْدِ أيّدهُ اللّهُ ومُواراةِ المَوْلَى المُنْعِمِ رَحمَةُ اللّهِ ورِضوانُهُ

-255-

عَلَيْه، وفي أوّل يوْمٍ أجْلِسَ ولِيُّ عهْدِهِ بقبّة مَشوَرِهِ حيثُ جَرَتْ عادَة السَّلامِ قمتُ بَينَ يَدَيْهِ مُنشِدًا هذِهِ القَصيدَةَ في هَنائِهِ بالمُلْكِ وَرِثاءِ والِدِهِ قَدسَ الله رُوحَهُ وَبرّدَ ضَريحَهُ(378)

أخْطَبٌ هَوى بالنَّيّراتِ مِنَ العُـلاَ ... وبُشْرَى بِهَا وَحْـهُ الزَّمَـانِ تَهَلّـلاَ

قَضَى نَحْبَهُ مَوْلَى المُلوكِ وأعْمَلتْ ... رَكائِبُـهُ حَتَّـى المَعـادِ تَرَحُّـلاَ

وفازَ ابنُهُ الأرْضَى وحافِظُ عَهْـدِهِ ... بمَا حَازهُ من مُلْكِ آبائِهِ الأُلَـى

عَلَـى صِغَرِ السِّنّ استَقَـلَّ بُرتبَـةٍ ... تَحَمَّـلَ مِـن أعْبَائِهَـا مَـا تَحَمَّـلاَ

لَقَدْ كانَ صُبْحُ اليَومِ أغْبَرَ داجيًا ... فَعـادَ بمَـن أبْقَـى أغَـرَّ محَجَّـلاَ

فإن غَابَ نُورُ البَدْرِ أوْ مَنَعَ الحيَا ... نَداهُ فهَدا البحْرُ والفَجْـرُ يُجْتَلَـى

وإنْ غَرُبَ النّجْمُ الدي كانَ يُهْتَدَى ... بِهِ فَمُحَيَّا الصُّبْح قَد لاَحَ مُقْبِلاَ

وإنْ صَوَّحَ المَرْعَى وخَفّ قطينُـهُ ... فهَذَا هُوَ الروْضُ الذي راقَ مُجْتَلاَ

وإنْ كانَ وادِي النِّيلِ جَفَّ معينُهُ ... فهَذا هُوَ النّيلُ الذِي يُنبتُ الكَلاَ(379)

وإنْ كان لَيْلُ الخَطْبِ مِن بعْدِهِ دَجَا ... فَقَدْ طَلَعَتْ شمسُ الهِدايَة وانجَلَى

وإن كانَ فينَا الرُّزْءُ قدْ جَلّ مَوْقِعًا ... فهَذَا الذي جَلَّى دُجَاهُ بمَا جلاَ

وإن ضَلَّتِ الأيَـامُ قصْدَ سَبيلهَـا ... فخُذْ للْهُدَى مِنْهُ سبيلاً مُـوَصّلاَ

أحَقا ثَوى تحْتَ الثَّرى مَلِكُ الوَرَى ... وأوْرَدَهُ المِقْـدارُ للحَتْـفِ مَنْهَـلاَ

ومَن راقَ مِنهُ العِلمُ والحِلمُ والتُّقَى ... ومَن أسْبَغَ النُّعْمَى عَلَيْنَـا وأجْـزَلاَ

ومَن سَدَلَ السّتْرَ الجميلَ تَـفَضُّلاً ... ومَـدَّ علينَـا مِنْـهُ سِحفًـا مُظَلِّـلاَ

---

(378) هذا النص يحسم الخلاف الواقع بين المؤرّخين حول من خلف يوسف الثالث في الملك أما التكتّم على وفاته فقد كان ضروريا ليتم الاستعداد لبيعة ولده ولي عهده.

(379) يشير إلى وادي شيل الذي كان أدباء عرناطة يعدونه كألف ميل لأن الشين في أوله ترمز إلى الألف بحساب الجمل.

إذا لَجَأَ الدّينُ الحَنيفُ لـنَصْرِهِ رَأى رأيَهُ كَهْفًا مَنيعًا ومَوْئِـلاَ
إذا ضَعْضَعَ الأيّامَ واقِعُ حـادِثٍ رَسَا عَلَمًا فَوْقَ الكَواكِبِ قدْ عَلاَ
إذا عَزَّ خَطْبٌ أوْ تَفاقَمَ مُعْضِلٍ وَجَدْنَاهُ رُكْنًـا مُسْتَقِـلاّ ومَوْئِـلاَ
أيُوسُفُ هَلْ مِن عَطْفَةٍ تُرْتَجَى لأن يَنال بكَ الإسْلاَمُ ما كانَ أمَّلاَ(380) -256-
فإنْ لاَحَ نُورُ البَدْرِ واسْتَرسَلَ الحَيَا غَـدَا كَفُّـهُ أنْـدَى ومَـرْآهُ أجْمَـلاَ
سَيَبْلُغُ في حَرْبِ العِدَى كُلّ غَايَةٍ يُرَى القَدَرُ الجَارِي بِهِ مُتَكَفّـلاَ
كأنّي بِهِ قَدْ أرْسَلَ الخَيْلَ في الوَغَى فأوْرَدَهَـا بَحْـرَ النّجيـعِ وأنْهَـلاَ
كأنّي بِهِ مَاضِي العَزيمَةِ في العِدَى إذا خَـفَّتِ الحَيْـلُ انثِنـاءً تَمَهَّـلاَ
كأنّي بِهِ والبِيضُ تَحطُبُ فيهِـمُ بفَصْلِ خِطابٍ حَيْث طبقْنَ مَفْصِلاَ
كأنّي بِهِ والحَرْبُ تَرفَعُ دونَـهُ عَوامِلَ قَدْ أضحَى لهَا النَّصْرُ مُعْمِلاَ
تَرَى وَجْهَهُ طَلْقَ الأسِرَّةِ كُلّمَـا أفـادَ العَطَايَـا باسِمًـا مُتَهَلّـلاَ
يَخف إلَيْهِ الوَفْدُ في طَلَبِ النَّدَى فَيَرْجِعُ مَمْلوءَ الحَقـائِبِ مُثْقَـلاَ(380م)
وجادَ لأهْلِ العِلـمِ عَـزَّ جَنابُهُـمْ فَـلاَ عَمـلٌ إلاَّ غَـدا مُتَقَبَّـلاَ
وجَـدّد في آلِ النبـيّ مَراسِمًـا بهَا أحْـرَزَ المجْدَ الرَّفيـعَ المؤَثّـلاَ
وصابَـحَ أعْـلاَمَ الجِهَـادِ بِرفْـدِهِ فأصْبَحَ غيْثًا في البَسيطَةِ مُـرْسَلاَ
وهِدِي الرَّعايَا قَـدْ رَعاهَـا تَلطّفًـا فمَا أخْصَبَ المَرْعَى وما أبْدَعَ الكَلاَ
حَبـا بالعَطايَـا والـكُسَا أوْليَـاءهُ فأوْرَدَهُـمْ بَحْـرَ المَكـارِمِ سَلْسَلاَ
وحَلُّوا بهَا النَّادِي فَمَا زَهَرُ الرُّبَى بأبْدَع مِنهَـا في العيـونِ وأجْمَـلاَ
وأمْطَى مِن الغـرّ الجِيـادِ سَوابِقًـا محاسِنُهَـا تَسْتَوقِـفُ المُتأمّـلاَ
فـأرْسَلَ مُرْتاحًـا وأهْـدَى مُجَلِّيًـا وأمَّـنَ مرْتاعًـا وحَلَّـى مُعَطَّـلاَ(٥)

---

(380) بعد هذا البيت بياض في الأصل مقدار صفحة كاملة تركت بيضاء.

(380م) الحقائب : في الأصل الخفائف، وهو تحريف.

(٥) المُرتاح : هو الخامس في ترتيب خيل السباق، والمحلّي هو الأول.

فيَاهُـمْ لَدَيْـهِ شاكِريـنَ لِنعمَـةٍ أحَلَّتْهُـمُ دَوْحَ المُنَـى مُتَهَـدِّلاَ
وحَيَّوْا مِن المَوْلَى الامَامِ محمـدٍ كَريمًـا حَليمًـا مُنْعِمًـا مُتَـفَضِّلاَ
أمـولاَيَ مولاَنـا أبُـوكَ أنالنِـي مِن العزّ ما سامَ النّجُومَ تَنَـزُّلاَ
وأوْلَى مِن النّعْماءِ ما كانَ عاقِدًا عَلـيّ بـهِ عَقـدَ الـوَلاَءِ مُسَجَّـلاَ
وجَرَّرْتُ ذيْلَ العُجْبِ إذ كنتُ عِندَهُ أباهِـي بأمْداحِـي جَريـرًا وأخْطَـلاَ
ولوْ كانَ يُفْدَى بالنُّفوسِ وسابَقَتْ لِتَلْقَـى المَنايَـا دونَـهُ كـنتُ أوَّلاَ
وأنتَ ابنُهُ الأرضَى ووارِثُ مُلكِهِ سَقَيْتَ رِياضَ الفِكْرِ منّي فأخْضَلاَ -258-
وقدْ كانَ مَرْعَى النّظْمِ عِندِي مُصَوِّحًا فَرَوَّيْتَهُ من بَعْدِمَـا كانَ أمْحَـلاَ(381)
وأوْلَيتَنِي النّعْمَى التي جَلّ قَدْرُهَـا وألْبَسْتَنِـي الأثْـوابَ رائِقَـةَ الحُـلاَ
وَطَوَّقْتَنِي طَوْقَ الحَمامِ فكيفَ لاَ أجيدُ هَديـلاً فَـوْقَ دَوْحٍ تَهَـدَّلاَ
أوارِثَ أنْصارِ النّبـيّ وصَحْبِـهِ ومَن بِهِمُ الدّينُ الحَنيفُ تَجَمَّـلاَ
بمَاذا عَسَى أثْنِي عَلَى قَوْمِكَ الأُلَى وقـدْ ورَدَ القُـرْآنُ فيهم مـفَصَّلاَ
ولَكِنّنِـي أبْـدِي نِظامِـي قِـلادَةً تُريكَ مِـن الألْفـاظِ دُرًّا مُـفَصَّلاَ
فـلازِلتَ مَنصُورًا رَشيـدًا مُؤيّـدًا عَليًّـا رَضِيًّـا واثِقًـا مُتَوَكِّـلاَ
ونَحْنُ عَبيدُ النّاصِرِ المِلكِ الرّضَى أبيكَ الدِي وَالَى الجَميلَ وأفْضَلاَ
وأنتَ هُوَ السّتْرُ الذي فاء ظِلُّـهُ فَلاَ زالَ سِتْرُ اللهِ فَوقَكَ مُسْبَلاَ(382)

والشيءُ يُذْكر بالشّيء كان مَوْلاَيَ الوالِدُ أبْقاهُ الله
قَدْ سافَرَ بَعْدَ إنشَادِي هذه القَصيدة لمَوْضِعِ قَضائِهِ وبالقُرْبِ
من وفَاةِ مَوْلودٍ تُوفِّي لهُ فكتَبَ إلَيّ ما نصُّه :

أُرِيتُ في آخِر لَيْلَةِ السَّادِس والعِشرين مِن شَوَّال عَام عِشرين وثمَان مائة، كأن ولدي

(381) عندي : يقترح الشاعر أيضا : منّي، فَرَوَّيْتَهُ : في الأصل : فروّصته، وهو تحريف.
(382) ستر الله : يقترح الشاعر أيضًا : طل الله.

أنا العُلى المتوفَّى بالمرية، عَن غيْرِ إذْنٍ في سَفَر أمّه بهِ، قدْ أمْسَكَهُ شيْخٌ بديع الصّورَة، مُثّل لِي أنهُ جَدّي قاضي الجماعَةِ رحمةُ الله عَليْهِ فدعَانِي تَفَجُّعِي وتَذكّرِي وتحَزُّنِي أن نظمتُ في قافِيةٍ كانَ ولدِي أبو الحسَين، أعزهُ الله وأسْعَدَهُ، قَدْ أطْلَعَنِي عَلى بَدَائِعِهَا، ولمْ تُمَكّنِي الأيّامُ أنْ أستَوفيَهَا وأن أُرَدّدَ النّظَرَ إليهَا فقلت(283)

يمِينًا بمَنْ راقَتْ سَماواتُهُ العُلاَ ... لَقَدْ زهيَتْ أقمارُهَا بأبِي العُلاَ
فمَا اليَوْمُ إلا كاسِفُ الشّمْسِ بَعْدَهُ ... ولاَ اللّيْلُ إلاّ داجِي الجِنْحِ ألْيَلاَ
وأكْفِيَتِ القَوْراءُ مِن هالَةِ الدُّجَى ... عَلَيْهِ فلَمْ يمْكِنْهُ أنْ يتَهَلّلاَ
وذلِكَ في مَرْأى عُيون تَجُودُهُ ... بأجْوَدَ من صَوْبِ الغمَامِ وأنهَلاَ -259-
عَلَى الرغمِ منّي حيلَ بَيْنِي وبَيْنَهُ ... ولَمْ ألقَ إلاّ خِدْعَةً وتَحَيُّلاَ
جَفابِي أخِلاّئِي عَداةَ وداعِهِمْ ... فلَمْ أشْهَدِ التّوْديعَ إلاّ تَخَيُّلاَ
تُريحُ العَشايا جاهِدًا وأنا الذِي ... أكابِدُ مِن خَطْبِ الجَديدَيْنِ مُعْضِلاَ
فمَا الذاهِلُ الباكِي ذَهَابًا وجيئَةً ... بأذْهَبَ منّي في المَرامِي وأدْهَلاَ
وما مَرْبَعٌ مسْتَوْحِشٌ مِن أنيسِهِ ... بأوْحَشَ مِن صَدْرِي مَلاَذًا ومَوْئِلاَ
ولاَ ذَاكِرٌ مِن وَحْشِ وَجْرَةَ مُطْفِلاً ... بأذْكَرَ منّي طِفْلِيَ الرّائِقَ الحُلاَ
تبدّلَ مِن أوْجِ الثّرَيّا إلى الثّرَى ... فَلِلّهِ مَدْعَاهُ عُلاً وتَنَزُّلاَ
مَلائِكَةُ السبعِ الطّباقِ تَحُفُّهُ ... رَكائِبَ يَتْلُو آخِرُ القَوْمِ أوّلاَ
بَكَتْ أسفًا عيْنِي وأمسَيْتُ مُبْعَدًا ... بأقْرَبِ مَفْقودٍ من الأهْلِ مُثكَلاَ
فلَمْ تَكْلَفِ الآمالُ بَعْدَ أبِي العُلَى ... بشَيءٍ يَروقُ الناظِرَ المُتَأمّلاَ
وأقْصَفَتِ النّكْبَاءُ قَدّ قَوَامِهِ ... فأنّى لِغُصْنِ البَانِ أن يَتَمَيّلاَ
وألحَفَنِي التهْجيرُ غَيْمَ ظَهِيرَةٍ ... فمالِي ولِلأوْداحِ أنْ تتَهَدّلاَ
وحَقّتْ لِيَ الأنْباءُ صدْقًا وطالَمَا ... كَلِفْتُ بتَرْجِيمِ الظّنون تَعَلُّلاَ

(383) سبق للشاعر أن ذكر أن والده كان قاضيا في برحة أما رواح هذا القاضي من المرية فلأنّ أصل أسرة ابن فركون من هذه المدينة.

ومَا أنا في الشَّكْوَى بأوَّلِ مَن شَكا ... ولاَ أنا في البَلْوَى بـأوَّلِ مُبْتَلَـى
عَذيرِيَ مِنْ عَتْبِ الذِي قد صَدَقْتُهُ ... شُؤونَ مُصَابِي مُجْمَلاً ومَـفَصَّلاَ
يَـرُومُ التَّهَـدِّي ثم يُلقِـي عِنَانَـهُ ... ويَثْنِي انثِناءَ البَكْرِ قدْ ضَلَّ مُجْفِلاَ
وطالَ سُؤالِي بيْنَ غَيْبٍ ومَشْهَـدٍ ... وقدْ صَمَّ سَمْعًا أنْ يُنادَى ويُسْألاَ
وَقُطِّعَتِ الأسْبابُ فالوَصْلُ قَدْ أَنَى ... بَلاَغًـا إلَـى مـا أبتغِـي وتَـوَصُّلاَ
وغرْناطَـةٌ وضَّاحَـةُ الغُـرَرِ التـي ... تَباهَـى بهَـا أُفْـقُ المريَّـةِ مُجْـتَلى
تُمَهِّـدُ لِلزُّلْفَـى طِرافًـا مُمَـدَّدًا ... وتُلْقِي مِن الرَّحْمَى وفاءً مُظَلَّـلاَ
فماذا عدَا عمَّا بَدا في ابْنِيَ الذي ... رَأى في الفَلاَ زُهْرَ الكَواكِبِ أُفَّلاَ
وأرْحاءَ أرْجـامٍ وأسْنِمَـةٍ سَمَتْ ... عَلى مَـلأٍ لاَ يَسْتَطيـعُ التَّأمُّـلاَ
فدِ اسْتَوْحَشُوا إلاَّ مِن الرحْمَةِ التِي ... تُعَرِّفُهُـمْ طُـولَ المُقـامِ تَطَـوُّلاَ[384] -260-
فـدُمْتَ إذا تُمْلِي تُجَلِّي بسابِـقٍ ... تَسامَى فَسَمَّـوْهُ الأغَـرَّ المُحَجَّـلاَ
فَتُصْدِرُ عَـنْكَ الوفْـدَ هـادٍ دليلُـهُ ... وتُـورِدُ بَحْـرًا لاَ تُكَـدِّرُهُ الـدِّلاَ

وفيما حَقُّهُ انْ يَتَصِلَ بمَا تقدّمَ مِن الإخْوانيَّاتِ :

لمَّا وُلِدَ لِي الوَلَدُ أحْمد، حَفظَهُ الله، الذي لمْ يبْقَ بقَيدِ الحياةِ بهذا العهْدِ مِن إخْوانهِ غيْرُهُ، ولعَلهُ يبقَى بفَضلِ الله ومَوْلِدُهُ ليْلَةَ السَّبْتِ السَّابِعِ لرجَب عام عشرين وثمان مائة كَتبتُ لمَوْلانا أبي الحجَّاج رحمَهُ الله سَاعَتَئِذٍ[385]

أمَوْلاَيَ إنَّ العبْدَ قَدْ زادَ عِنـدَهُ ... خَديمٌ لمَوْلاَيَ الرِّضَى المُتَمَسِّكِ[385م]

(384) بعد هذا البيت بياض في الأصل مقداره صفحة تركت بيضاء، وقد كانت تشتمل على 23 بيتًا حسب سطور المخطوطة.

(385) سبق للشاعر أن أشار إلى ولده يوسف الذي سمّاه باسم مخدومه، راجع ص أما ولده أحمد المذكور فقد سمّاه باسم والده القاضي السالف الذكر.

(385م) المتمسك : كذا في الأصل، ولعلها : المُتَنَسِّك، وقد سبق له ان استَعْمَلَها في نعت الأمير محمّد ولي عهد يوسف الثالث. راجع ص

أتَتْ عبْدةُ المَولَى الهمَامِ بِهِ فَمِن كلاَ طَرَفَيْهِ صَحَّ حُكمُ التمَلُّكِ
بَقيتَ ومِن رُحْماكَ لِلخَلْقِ رَحْمَةٌ تَلوذُ بِحَجّ مِن نَداهَا ومَنْسَكِ

وأعْمَلَ ركَابَهُ ثانِي يَوْمٍ مِن وِلاَدَتِهِ إلَى قَصْرِ نُبْلِه، وأنا صُحْبَتَه عَلى العَادَةِ، ثم تَشاغَلَ يَوْمَ عَقيقَتِهِ عَن تسْمِيتِهِ بِحَادث، تَوْجيهِ الوزير أبي عبد الله القَبائِلِي إلى المغرب، فَتوهَمتُ أنَّ ذلكَ لِموجبٍ يَظْهَرُ مِن المَنْظومِ، فكَتَبتُ إلَيْهِ هَذِهِ الأبيَات فسماهُ ووَهَبهُ ما جَرتْ بِهِ عادَتُه لِمَن تَقَدَّمَهُ مِن إخْوَتِهِ(386)

أنا عبْدُ مَوْلاَيَ الخَليفَة يُوسُف خَبَرٌ بِهِ رَسْمِي يَصِحُّ ويَكْتَفِي
هذا هُوَ العِزّ الّذي أحْرَزْتُهُ وبِهِ رَقَيْتُ إلَى المَحَلّ الأشْرَفِ -262-
لَوْلاَ سَحَابٌ جاءَنِي مِنْ جُودِهِ ما كانَ رَيْبُ الحادِثَاتِ بِمُصِيفِ
لاَ أرْتَجِي إلاَّ نَدَاهُ فَرِفْدُهُ لَوْلاَهُ ما كانَ الزّمانُ بِمُسْعِفِ
مَوْلاَيَ إنّيْ عَبْدُ نِعْمَتِكَ التِي وكَفَتْ لَدَيْهِ فَكُلَّ مُعْضِلةٍ كُفِي
وَلَدي مَوْلودٌ يُرَجّى عادَةً عَوّدتَهَا لمُؤمِّلٍ مُسْتَعْطِفِ
وقَعْ لعَبْدِكَ باسْمِهِ فالقَصْدُ أنْ تتَجَدّد النُّعْمَى بِكَتْبِ الأحْرُفِ
لا أقتَضِي طَلَبًا سِوَى هذا الذي هُوَ عِزّتِي وعِنايتِي وتَشَرُّفِي
لاَأرْتَجِي عَرَضًا فكَمْ مِن نعْمَةٍ أوْلَيْتَهَا بتَلَطُّفٍ وتَعَطُّفِ
لا أبْتَغِي أرَبًا فكَم مِن مقصَدٍ أسْعَفْتَ مِن قَبلِ السُّؤالِ المُعْتَفِي
ومتَى بَقيتُ ونعْمَةُ المَوْلَى عَلَى مَمْلوكِهِ فبِواجِدٍ لاَ أكْتَفِي

(386) هذا الذي يدعوه الشاعر بالوزير أبي عبد الله القبائلي لعلّه ولد الحاجب أحمد القبائلي الذي كانت نهايته على يد مخدومه أبي سعيد عثمان المريني. انظر بخصوص الحاجب المذكور وولده وحفيده : إنباء العمر 4 : 258 ــ 259 والضوء اللامع : 2 : 47 وجذوة الاقتباس 1 : 125 ــ 126 وروضة السرور : 38، 40، 41 والاستقصا 4 : 86 ــ 88. ويبدو أن هذا القبائلي كان بسبب ما حصل لعائلته من ضائع يوسف الثالث المسخرين لخدمة سياسته المخرّبة. وراجع بالمناسبة خبر سفارة عبد الرحمن ولد الحاجب القبائلي إلى محمد المستعين بالله أخي يوسف الثالث في نثير فرائد الجمان ص 397.

لَكِـنْ بِثـانٍ بعْـدَهُ وبثـالِثٍ لهُمَا عَلى نسَقٍ بغيْـرِ تَوقّـفِ[387]
هـذا يَطـولُ فـأيُّ مـالٍ طائِـلٍ بِصِلاَتِ عبْـدِكَ أوْ عَوائِـدِهِ يَفِـي
عُـدْ باسْمِـهِ مُتألِّمًـا مِـن مَنْعِـهِ يُشْفَى بمَا مِنهُ مَنَـحْتَ وَيَكْتَفِـي
مـا عُـذْرُهُ إنْ عانَـهُ إحوَانُـهُ أو فَاخَرُوا بالعُرْفِ مَن لمْ يُعْرِفِ[388] -263-

أسَيِّـدِيَ الـذي فيـهِ أوَالِـي ثَنائِـي مـا غَـدا يُـرْوَى الثَّنـاءُ
هَنيئًـا والهَنـاءُ لنَـا جَميعًـا بمَوْلـودٍ يَحِـقُّ بـهِ الهَنـاءُ
بأيْمَـن طائِـر وافَـى إلَيْنَـا منَ المَلإِ الكـرامِ كَمـا نَشاءُ
كأنَّكَ بهِ يُوالَى الـفَضْلُ مِـهُ كَمـا والَيْتَـهُ ولَكَ البَقـاءُ
ويَرْقَـى مُرْتَقـاكَ فعَـنْ قَـريبٍ يكُـونُ لـهُ عَلى ذَاكَ اسْتِـواءُ
تَقَـرُّ بـهِ العُيـونُ ويَرْتَجيـهِ ذَوُو الأمَـال لاَ خـابَ الرَّجـاءُ
مَحايِـلُ سُؤْدِدٍ في المَهْـدِ لاَحَتْ تأمَّـلْ مـا عَلى هـذَا غِطـاءُ
لَقَـدْ كَـرُمَتْ أواصِرُهُ وطَـالَتْ وعُـدّ فَمَـا لَهَـا بَعْـدُ انتِهـاءُ
أبُـو الحسَيْـن وقُـلْ كَريمًـا عَلَيْـهِ المَحْـدُ وقْـفٌ والعَـلاَءُ
بَقيتَ لنَا كَما تَهْوَى المَعالِـي عَظيمَ القَدْرِ مَا طَلَعَتْ ذُكَـاءُ
دَعَـوْتُ لكَ الإلـهَ دُعـاءَ صِدقٍ وأرْجـو أن يُجابَ لـيَ الدُّعـاءُ

سَيِّدي أبقاكُم الله، سنَحَ لِلخاطِر ما تَرَوْنَ مِمَّا لاَ يُباع ولاَ يُبتَاع • وإنهُ حَاشَى -264-
ذِكْرَكُمْ فيهِ لَمِن سَقَطِ المَتاع • وطالَمَا عنْهُ مكَثْت • وعَهِدْتُ أن لاَ أعـودَ
فَنَكثْت • حُبًّا عَلِم الله لِمَا أحْبَبْتُمْ • ولداعي المَجْدِ فيهِ أجَبْتُم • وقدْ عَجّلتُ الكَتْبَ
لسَيِّدي تَخفيفًا عَلَيْهِ • ثمّ غلَبَنِي الشَّوْقُ فنهَضتُ نَحْو الجِنانِ إلَيْه•لتعْلَموا أنّي لمْ أضيّعْ

(387) لكن، في الأصل : لكاد، وهو سهو من الناسخ.
(388) بعد هذا البيت بياض في الأصل مقداره صفحة ونصف، ويبدو ممّا يلي أن ما كان فيهما يتعلق بتهيئات لهذا المولود.

واجبًا في حنابكمُ العالي • ولاشغلني شاغل عن قصْدِ تِلْكَ المَعَالِي • فعُرِّفْتُ أنّ الوَقْتَ معْمورٌ مما شَعَف الباطِنَ مِن تضْييع الخدّام • والتّفْريطِ في حالِ قُرةِ العَيْنِ عافاهُ الله ووَقاهُ من جميع الآلآم • ولاَ بُدّ ان شاء الله مِنْ ريارَتِكمْ هُنالك • والسّلوكِ إلَيْكُمْ عَلَى أوْضَحِ المسَالِكِ • والله عز وجل يصل إسْعادِكُمْ • ويَفْسَحُ في الخَيْرِ والعافِية آمادَكمْ • والسلام عليْكُمْ ورحْمَةُ الله وبَركاتُه • من مُكْبِر قدْرِكُمْ • ومُوالِي حَمْدِكُمْ وشُكْرِكُمْ • أحْمد الشريف لَطف الله به[389]

فَرا جَعْتُهُ بديهَةً عَلى مَنْظومِه

بِحُـبِّكَ لِـي اعْتِـلاقٌ واعْتِـلاَءُ هـذَامَ لِقَـدْرِكَ السَّامِـي العَـلاَءُ[390] -265-

[391]

وكَأنْ بِهِ يَرْقَى المَنابِرَ صاعِـداً فَتَـراهُ يَصْدَعُ كُـلَّ لَيْـلٍ يُظْلِـمُ
وكَأنْ بِهِ والحَرْبُ تَزْجُرُ خَيْلَهَـا لِعُدَاتِهَـا وَهْـوَ الهُمـامُ المُقْـدِمُ
وكـأنْ بِـهِ تَـعْشُو الوُفـودُ لِبَابِـهِ ونَوالُـهُ بَيْـنَ العُفَـاةِ مُـقَسَّمُ
يَا صَفْوَةَ الأبْرارِ يا شَرَفَ الوَرَى يَهْنِيكَ مِنْ نَحْلِ السَّعادَةِ مَقْـدَمُ
نَحْلٌ وقُلْ نَجْمٌ فَكَمْ مِنْ مـارِدٍ بِتِيهابِهِ إنْ طافَ نَحْوَكَ يُرْجَـمُ

(389) هذه تهنئة لأبي الحسين ابن مركون بمولوده أحمد المذكور، وصاحب التهنئة كما يبدو من رقعته هو الشريف أبو العبّاس أحمد ولد أبي القاسم المعروف بالشريف السبتي والعرباطي، وقد كان زميلا وصديقا حميمًا لأبي الحسين، وبطاقة الشريف تدل على الاهتمام البالغ لأبي الحسين بشأن مولوده إذ كان يخشى أن يموت كما مات أولاده الآخرون، ومن هنا كان توبيخه للحدة على اهماله واشغاله بسبب ذلك عن لقاء صاحبه.

(390) نَعُدّ هذا ورقةً بيضاء يبدو أنها تشتمل على مراجعة ابن مركون الّتي لم يبق إلاّ مطلعها، وربما كانت تشتمل كذلك على أول التهنئة الآتية.

(391) لم يصلنا أوّل هذه القصيدة ويبدو أنّها في تهنئة ابن مركون بمولوده المذكور.

هَيِّىءْ لَهُ خَيْلَ الوَغَى فَلِمِثْلِهِ ... الخَيْلُ تُسْرَجُ لِلْجِهادِ وتُلْجَمُ

سُرَّ بِهِ البِيضَ المَواضِيَ أنَّها ... تُمْضِي الوَقائِعَ فِي الغَداةِ وتَحْكُمُ

سُرَّ بِهِ صُفْرَ اليَراعِ بأنَّها ... تُغْنِي عَنِ الخَطِّيِّ فيمَا تَرْسُمُ

سُرَّ بِهِ الأطْرَاسَ أنَّ جَمالَها ... سَيفوقُ حُسْنَ الرَّوْضِ وَهْوَ مُنَمْنَمُ

أوَ لَيْسَ نَجْلاً لِلَّذِي أفْعالُهُ ... فِي المَجْدِ والقَصْدِ المُسَدَّدِ تُجْزَمُ

عَلَمُ الكَتائِبِ والكتابَةِ والنَّدَى ... صَدْرُ الزَّمانِ ونورُهُ المُتَوسَّمُ

فَذٌّ رَئِيسٌ مَاهِرٌ لِبَيانِهِ ... حُجَجُ البَلاَغَةِ والبَيانِ تُسَلِّمُ

عَلَمٌ بأنْواعِ المَعارِفِ عَارِفٌ ... حَبْرٌ لأسْرارِ الحَقائِقِ مُلْهَمُ

صَدْرٌ بَجَمْعِ المَعْلواتِ مُتَيَّمٌ ... صَبٌّ بأصْنافِ المَكارِمِ مُغْرَمُ

مُعْدٍ عَلَى المالِ العُفاةَ فما يُرَى ... بِفِنائِهِ وَفْقَ المَجادَةِ مُعْدِمُ

لَوْ كانَ لِلأزْهارِ نِعْمَةُ حُسْنِهِ ... مَازالَ زَهْرُ الرَّوْضِ وَهْوَ مُنَعَّمُ

أوْ كانَ لِلْبَدْرِ المُنيرِ بَهاؤُهُ ... مَازالَ بَدْرُ الأُفْقِ وَهْوَ مُتَمَّمُ

أوْ كانَ لِلدَّهْرِ المُمَتَّعِ عِزُّه ... لَمْ يُلْفَ شَاكٍ فِي الوَرَى مُتَظَلِّمُ

حَمَعَ العَلاَءَ مُهَوِّناً لِسُهادِهِ ... ما يَقْتَنِي ذُخْرَ العَلاَءِ مُهَوِّمُ

وأفَادَ حَتَّى لِلسِّلاحِ بَيانَهُ ... فالْبِيضُ تَنْثُرُ والذَّوابِلُ تُبْرِمُ

إنْ هَزَّ ذابِلَهُ وخَطَّ يَراعُهُ ... لَمْ يُدْرَ أيُّ بالمَقاتِلِ أعْلَمُ

مِنْ [دِرْوَةِ] الشَّرَفِ الأصيلِ المُنْتَمَى ... مِنْ خَيْرِ حَيٍّ فِي القَبائِلِ يُعْلَمُ

[البَيْتُ يَعْـ] ـرِفُ قَدْرَهُمْ وَسُتُورُهُ ... وكَدا رُبَى عَرَفاتِهِ عَرَفَتْهُمُ[392]

---

(392) ـهدا تنتهي النسخة الوحيدة الموجودة من هدا الديوان.

الفهارس

فهرس الأعلام(*)

- ابن بصر (يوسف) : 7، 9، 10، 23، 28، 39، 42، 53، 55، 65، 72، 85، 98، 114، 160، 161، 162، 163، 212، 218.
- ابن هلال : 147.
- أبو بكر الايسر : 168.
- أبو الحجاج : (يوسف الثالث) : 19، 153، 206، 262.
- أبو الحسن (شقيق يوسف الثالث) : 66، 80، 233.
- أبو الحسن (ولد السلطان يوسف الثالث) : 61.
- أبو الحسين (ابن فركون) : 168، 173، 175، 176، 184، 185، 185، 192.
- أبو زكرياء يحيى بن السراج : 197.
- أبو السرور مفرّج (القائد) : 27.
- أبو سعيد (السلطان عثمان المريني) : 99، 245، 249.
- أبو الطاهر (ولد الشاعر ابن فركون) : 127.
- أبو العباس (أحمد بن أبي سالم المريني) : 38.
- أبو العباس (الشريف الحسني) : 136، 171.
- أبو عبد الله الأكحل : 193.
- أبو عبد الله الأليري : 180.
- أبو عبد الله القبائلي : 262.
- أبو العُلى : 260.
- أبو علي (أخو السلطان أبي سعيد) : 245 249.
- أبو علي عمر بن عمر (من كتاب يوسف الثالث) : 164.
- أبو فارس عبد العزيز الحفصي : 37.
- أبو الفضل بن أبي حماعة : 189، 190، 192، 193.
- أبو القاسم بن أحمد بن أبي القاسم بن قطبة : 194.
- أبو القاسم بن حاتم المالقي : 183، 188.
- أبو المعالي (الشريف الحسني) : 172، 173.
- أبو نواس : 139.
- أبو ريد خالد (القائد) : 11، 22.
- أبو يوسف يعقوب (متسلطن مريني) 253.

(*) يشتمل هذا الفهرس على الأعلام الواردة في الديوان والاحالات المذكورة هنا هي على صفحات المخطوط المسجلة في طرر المطبوع.

• بنو مرين : 14، 52، 86، 88، 105، 106، 108، 222، 247.
• أحمد الشريف (أبو العباس) : 264.
• أحمد (ولد الشاعر ابن فركون) : 262.
• افتت الروم (فرناندو) : 47، 222.
• الأندلس : 11، 81، 105، 112، 222، 240.
• الأنصار : 13، 20، 81، 84، 94، 95، 99، 104، 212.
• بلقيس : (ملكة سبأ) : 68.
• تحيى : 88.
• حاتم (الطائي) : 41.
• حارم : 186.
• حسان (ابن ثابت) : 66.
• الحصيب (ممدوح أبي نواس) : 139.
• الحطيب (ابن) : 120.
• تبّع : 43.
• دنيال : 38.
• الرئيس البائس (؟) : 59، 87.
• الرشيد (الخليفة هارون) : 2، 28.
• الرضي (الشريف) : 171.
• الروم : 103، 137.
• سحبان : 38، 168.
• سعد : (ابن عبادة) : 6، 29.
• السعيد (محمد بن عبد العزيز المريني) : 50، 51، 53، 54، 55، 59، 65، 84، 85، 95، 96، 99، 106.
• سلمى (اسم رمزي) : 21، 145.
• سليم (اسم قبيلة) : 20.
• شدّاد : 171.
• الطائي (أبو تمام) : 20.
• طارق (ابن زياد) : 68، 95، 112.
• الطريمي (الحاجب) : 55.
• طيء (قبيلة) : 20.
• عاد : 171.
• عامر (ولد السلطان السعيد) : 54 (انظر أيضا ص. 88).
• عامر (قبيلة) : 20.
• العباس بن عمراس : 249.
• عبد الله (ولد يوسف الثالث) : 214.
• عبس : 38.
• العزّى (اسم صنم) : 13.
• عطاء (ابن واصل) : 73.
• علي (أبو الحسن المريني) : 71.
• علي (أخو السلطان يوسف الثالث) : 234.
• العمي بالله (محمد الخامس) : 13، 71.
• فارس (أبو عنان) : 71.
• قريش : 175.
• قس (ابن ساعدة الأيادي) : 2، 38، 200.
• قيس بن سعد : 2، 13، 29، 74.
• قيصر : 43، 66.
• كسرى : 66.
• المتنبي : 20.
• محمد (صلى الله عليه وسلم) : 117، 173، 180، 205.
• محمد (ولي عهد يوسف الثالث) : 258، 241، 258.
• مخلص (من عبيد يوسف الثالث) : 128.
• المرتضى (الشريف) : 171.

- المستنصر (أبو العباس أحمد بن أبي سالم) : 40.
- المسعود (ولد السعيد المريني) : 62 (انظر أيضا ص 88).
- المعز (معز الدولة أبو الحسن) : 72.
- المعز بن باديس : 72.
- معز الدولة (أبو الحسن شقيق يوسف الثالث) : 67، 234.
- ملك العدوتين (يوسف الثالث) : 17، 70.
- المنصور (العباسي) : 248.
- موسى (ابن نصير) : 95.
- الناصر (عبد الرحمن) : 6.
- الناصر (يوسف) : 6، 7، 9، 12، 16،، 23، 28، 31، 33، 36، 43، 46، 47، 48، 49، 53، 54، 55، 57، 59، 77، 81، 85، 90، 103، 111، 115، 123، 127، 133، 151، 152، 154، 156، 157، 160، 162، 176، 177، 189، 206، 236، 262.
- يحيى (السراج ؟) : 74.
- يحيى بن عبد الدائم : 163.
- يوسف (السي) : 106.
- يوسف (ممدوح الشاعر) : 1، 3، 5، 7، 8، 10، 12، 19، 21، 24، 28، 31، 34، 37، 39، 42، 43، 47، 48، 56، 57، 61، 64، 70، 71، 76، 81، 85، 87، 90.
- يوسف (ولد الشاعر ابن فركوس) : 126.
- واصل (ابن عطاء) : 73.
- ولد اللبابي (الحاجب) : 249.

فهرس الأماكن(*)

- افريقية (تونس) : 37.
- أنتقيرة : 222.
- بارق : 7، 93.
- بدر : (عروة) : 104.
- بر العدوة : 51.
- برحة : 168.
- البلاد العربية (المغرب) : 99.
- بلاد العدوتين : 94.
- بلاد الغرب : 227.
- البيضاء (المدينة البيضاء) : 97.
- تارة : 53.
- تلمسان : 68.
- تونس : 38.
- جبل شلير : 228.
- جبل الفتح (جبل طارق) : 50، 51، 53، 54، 55، 66، 67، 69، 70، 71، 87، 93، 95، 110، 142، 144، 164، 183، 237.
- جنة العريف (جنان العريف) : 158.
- الجحار : 116.
- حصن المتلين (المكلين) : 32.
- الحمة : 234.
- الحمراء (غرناطة) : 18، 225، 234، 235.
- الحرونة : 234.
- دار السلام (بغداد) : 248.
- رامة : 91.
- رعون (أرعون) : 222.
- ربدة : 46، 198، 200.
- الروم : 38، 16، 8.
- الرياض السعيد : 11، 27.
- رياض السيد (بمقالة) : 96.
- الريف (اقليم بالمغرب) : 54.
- الروراء (بغداد) : 48.
- سنة : 218، 224، 240، 242.
- السبيكة (في غرناطة) : 14، 30.
- سهيل (مكان بالاندلس يسمى اليوم Fuenjerola) 164.
- الشام : 18.
- شقورة : 80، 238.

(*) يشتمل هذا الفهرس على أسماء الأماكن الواردة في الديوان والاحالات المذكورة هي على صفحات المخطوط المسجلة في طرر المطبوع.

- شلوبانية : 206.
- شمامه (شميمة) : 66.
- شقورة : 80.
- صخرة عنّاد : 46، 222.
- طحة : 54.
- طيبة : 29، 116، 203، 245.
- العذيب : 28، 93.
- العرب (المعرب) : 65، 84، 85، 89، 91، 97، 101.
- غرناطة : 3، 18، 57، 106، 260.
- الغميم : 19.
- فاس : 59، 97، 198، 247، 249
- فاس الجديد : 54.
- قمة المشور (حمراء غرناطة) : 41، 90، 245، 255.
- القدس : 37.
- قرية واد : 8، 10.
- قشتالة : 222.
- قصر سله : 206، 225، 262.
- مالقة : 16، 17، 50، 57، 61، 84، 86، 96، 98، 124، 178، 225، 242.
- مجمع البحرين : 51، 67، 88، 112.
- المحدث (قصر مالقة) : 17.
- مرسلة : 164.
- المشور السعيد (بحمراء غرناطة) : 41، 106.
- مصر 18، 37، 106، 248.
- المعرب : 59، 84.
- مكة : 6، 101، 116.
- ملتماس : 234.
- منى : 93، 117.
- المنكّب : 206، 253.
- سله : 138.
- نحد (الحجار) : 7، 23.
- النيل : 106.
- همدان (قرية غرناطية) : 234.
- الهند : 30.
- يثرب : 6.
- اليمامة : 104.
- يوم حليمة : 107.
- وادي مالقة : 16.
- وادي النيل : 234.
- وحدة 260.
- ولخر : 228، 234.

فهرس الأشعار(*)

أول المطلع	القافية	عدد الأبيات	الصفحات
مقامُكَ	مُهَنَّأُ	37	20 — 19
يا أوحدا	وذكاء	10	192 — 192
أهْلاً	غَرَّاء	21	193 — 192
بُعْلاكَ	أَرْجَاءَهَا	97	249 — 245
أُسَيِّدِي	الثَّنَاءُ	11	264 — 264
بِحُبِّكَ	الْعَلاَءُ	1	264 — 264
حَادِيَهَا	مَذْهَبُ	54	6 — 4
مَا لِلْمَدَامِعِ	يَلْتَهِبُ	38	40 — 39
أَمِنْهَا	رَقِيبُ	27	45 — 44
فِي فِتْيَةٍ	الأَحْسَابِ	17	
شَمْسُ الْعَشِيَّةِ	مَشْرُوبِهَا	19	139 — 138
مَا لِقَلْبِي	وَحَبِيبُ	22	142 — 141
أَتَرَى	أَوْصَابِ	17	147 — 147
أَنَا ثَوْبٌ	السحب	8	155 — 154
وَمَا أَنَا	الصَّوَاتْ	2	161 — 160
الْوِرْدُ	وَجَبْ	2	163 — 163
هَيِّئاً	الْكِتَابَهْ	4	180 — 180
بَمَا أُتْبِي	وَالإِنَابَهْ	7	181 — 181
سَلِ الْبَانَ	قِنَانُهَا	136	221 — 216
تَرَكْتُمْ	خَرِبَا	2	232 — 232
مَهْلاً	وَصَبَا	16	232 — 232

(*) مرتب على حروف الهجا ؛ أما الاحالات فهي على صفحات المخطوط المسحلة في الطرر.

أول المطلـــع	القـــافية	عدد الأبيات	الصفحـــات
سَقَى	تِرْبَهُ	34	238 — 236
بُشْرَى	يَعْقُوبِ	44	255 — 253
سَلْ	وَأُقَلَّتْ	24	54 — 53
مَعَالِمَ	نُحِتَتْ	33	63 — 61
لِمَنْ أُوْجُهٌ	قَسِمَاتُها	62	102 — 99
بِحُلَى	للصَّلاةِ	02	160 — 160
مَانَالُ	أُعِنَّتَهَا	02	165 — 165
هُوَ النَّصْرُ	حَنَائِثُ	65	225 — 222
مَا لِلسُّرَى	حَدِيثَهَا	9	233
أَثَارَ	فِي الدُّجَى	48	80 — 78
هِيَ الْعُلَى	آراحُها	08	157 — 157
بشرى	يبتهج	44	211 — 209
أَمِنْ بَارِقٍ	نَارِجِ	41	8 — 7
تَجَلَّى	السَّرْحِ	58	69 — 66
مُحَيَّاكَ	وَمَطْمَحُ	65	93 — 90
وَمِمَّا	يَلُوحُ	17	137 — 136
مَالِي	صِحَاحْ	25	148 — 147
هَلاَ	مُتَاحَا	16	150 — 149
يَا عَجَبَا	الضُّحَى	02	150 — 150
أُنْدَعِيبِي	اقتراحِهْ	2	162 — 162
سَمْعاً	لاَ تُشْرَحُ	30	173 — 172
هَنِيئاً	صفْحِهَا	28	216 — 214
أُجِلُّهَا	وانْقِيَادَا	53	11 — 9
هَنِيئاً	الْمَقَاصِدَا	11	23 — 22
يَمِيناً	يُحْدِي	21	27 — 26
نَسِيمُ الصبَا	وَقْدُهُ	71	30 — 27
هَنِيئاً	النَّدَى	35	32 — 30

أول المطلع	القافية	عدد الأبيات	الصفحات
إِلَيْنَا	بِالْمُرَادْ	7	32 — 32
أَيَارَحْمَةَ	الْبِلَادْ	31	34 — 32
عَسَى	ويعيدُهُ	34	35 — 34
هُوَ النَّصْرُ	قِيَادَهُ	34	48 — 47
أُذَكِّرُ	عِنْدَهُ	4	58 — 58
هَذِي الْكَوَاكِبُ	صُعُودُها	75	106 — 102
هَذِي الْخِلَافَةُ	حِيَادُهَا	76	133 — 110
أَمَوْلاَيَ	أَعِدَّهْ	5	127 — 127
مَسْلُوكُ	وَحَدَّهْ	3	127 — 127
يَانَاصِرَ	مُؤَيَّدَا	10	128 — 127
بِيُوسُفَ	الْمَدَى	08	158
أَنَا	لِلسَّحُودْ	02	160
طَلَعْتُ	وَالْمُعْتَدِي	02	160
يَا عَجَبَا	الْهُدَى	02	161
تُصِيبُ	الْمَدَى	02	161
أَنَا	وُرَّاده	02	163
لَوْلاَ	قُصَّادِهِ	02	163
نِظَامُكَ	فَرِيدُ	06	170
زَمَان	يعود	13	107
تَبَارَكَ	يَزْدَادُ	02	171
سَمْعاً	وَتَعْدَادُ	09	171
أَبَا الْحُسَيْنِ	الْخَلَدِ	07	173
هَلْ بِالرَّوْضِ	الفَرَدِ	21	174
أبا الحسين	الخَلَدِ	22	176 — 175
حُفُوفٌ	سُهَادُهَا	30	192 — 191
هنيئا	عوائده	13	201 — 200
هَنِيئاً	وَالْبِشْرَا	40	4 — 2
هِيَ الْهَضْبَةُ	وَنَهَارُهَا	30	37 — 35

أول المطلـــع	القـــافية	عدد الأبيات	الصفحـــات
أَلاَلَيْتَ شِعْرِي	أَذْكُرُ	26	41 ــ 43
نَاصِرَ الدِّيرِ	شَارَهْ	21	54 ــ 55
هَيِئاً	عَشَائِرُ	59	84 ــ 86
وَتَزْعُمُ	يَجْرِي	3	132 ــ 133
وَظَنِّيَةٍ	والفكر	15	133 ــ 133
هَلِ الْأُفْقُ	الزَّهْرُ	10	152 ــ 153
أَنَا لِلْحُسْنِ	المصور	05	158 ــ 158
رُزْقَةُ	في نهر	02	162 ــ 162
أُنْدَعَ	وظَهَرْ	02	162 ــ 162
أَلاَ حَيِّهَا	عِرًا	19	169 ــ 169
حود	مسجز	02	162 ــ 163
سَلْ	أُنْسَهَا	32	37 ــ 38
نَفَرَتْ	كَوَانِسْ	68	69 ــ 72
يَا إِمَاماً	لَمْسَا	10	125 ــ 126
لَكَ	بَاسِ	7	136 ــ 136
عُهُودُ	دَوَارِسْ	17	146 ــ 146
لعمرك	تخلص	54	226 ــ 227
أَمِنْ نَارِقٍ	مَصَى	51	75 ــ 78
هَنِيئاً	الْخُطَا	62	72 ــ 75
أُبْعَداً	شَطَّا	11	189 ــ 189
فَتَاةٌ	اشْمَطَّا	14	190 ــ 190
بُدُورٌ	وَرُبُوعُها	31	16 ــ 17
نَذَرٌ بِقُبَّتِكَ	وَمُطْلِعُهُ	31	43 ــ 44
أُنَاصِرَ	السَّمْعَا	29	51 ــ 53
هَذِي	طَلاَئِعُهَا	57	96 ــ 99
أَحْبَابَنَا	يَرْتَجِعُ	14	143 ــ 144
يَا مُعْجَباً	قِنَاعُ	6	151 ــ 151
لِلّهِ	وَأَبْدَعَهْ	8	153 ــ 153

أول المطلـــع	القـــافية	عدد الأبيات	الصفحـــات
لِلّهِ		16	160 ــ 159
وَشُهْبِ	النَّجِيعِ	02	165 ــ 165
عَزَاءً	مَوْضِعَا	45	234 ــ 234
تُحَيِّيكَ	طَوالِعُ	77	253 ــ 250
أَبُو الْحُسَيْنِ	نَلَغَا	06	168
أَهْلاً	صَغَا	06	169
قِفْ	مَوْقِفِ	70	26 ــ 23
أَلَمّ	تأَسُّفِ	22	58 ــ 57
أَنَا	مُقَوَّفُ	06	154 ــ 154
بِنَاصِرِ	مُنْصَرَفُ	18	156 ــ 155
كَفُّ	لِلْمُقْتَفِي	02	161 ــ 161
وَقَالُوا	وُقُوفِ	02	164 ــ 164
هَنِيئاً	يُوسُف	09	228
أَنَا	وَيَكْتَفِي	15	262
لَكَ الْهَدْيُ	وَمَشْرِقَا	62	88 ــ 86
هُدىً	شَارِقُ	70	96 ــ 93
يَاطَالِباً	وَالْحَقِّ	4	124 ــ 124
يَاطَالِباً	الْمُوبِقِ	4	124 ــ 124
مَوْلَى الْمُلُوكِ	مَنْطِقِ	17	125 ــ 125
أَيَا شَرِيفَ	سَبَّاقَا	5	135 ــ 135
هَلْ بَعْدَ	تَلاَقِ	13	143 ــ 143
فُؤَادِي	يُطِيقُ	15	151 ــ 150
يوسف	فِي رَرَقِ	2	162 ــ 162
إِنْ غُلِّقَتْ	الْمَشْرِقِ	2	162
عَجَباً	وَبِمَشْرِقِ	2	164 ــ 164
أَأَنَاعَلِيّ	طريقِ	2	164 ــ 164
			196 ــ 194

أول المطلـــع	القـــافية	عدد الأبيات	الصفحـــات
أراحت	حقوقا	63	214 ــ 211
إلَيْكَ	مُتَهَلِّلَهْ	32	2 ــ 1
مَا لِلرَّكَائِبِ	سُؤالَها	108	16 ــ 11
لَوْ وَحَدْنَا	مَسِيلاَ	6	48 ــ 48
أَصْبَحَ	عَلِيلاَ	30	50 ــ 48
هَنَاءٌ	تَتَهَلَّلِ	52	61 ــ 59
مَوْلاَيَ	المُتَهَلِّلِ	43	82 ــ 80
كَوَاكِبُ	أُفُولُهَا	80	109 ــ 106
إِنَّمَا	الآمال	6	124
مَوْلاَيَ	لَهْ	8	128
خَلِيلَيَّ	الأَهْلِ	11	149
لِلّهِ	الْعُلاَ	8	157
حَكَيْتُ	نِصَالاَ	2	161
لَئِنْ	هِلاَلاَ	2	162
خَلِيلَيَّ	مَنالا	2	164
حَلَلْتُ	بِمَعْزِلِ	8	167
حَيَّا	الْعَلِيلْ	8	178
حَدِّثْ	الرَّحِيلْ	36	179
يَا وَحِيدَ النَّدَى	الْعَالِ	20	197
أَخْطَبٌ	تَهَلّلاَ	74	256
يَمِيناً	الْعُلاَ	52	260
هَنَاءٌ	لِلْمُتَوَسِّمِ	34	19 ــ 17
ثَنَاؤُكَ	لِلنّاسِمِ	23	41 ــ 40
هُنِّئْتَ	أَنْحُمَا	30	51 ــ 50
هَبِيئاً	مُقَسَّمَا	93	117 ــ 113
دَعِ الْمِصْبَاحَ	الْبَهِيمِ	14	139 ــ 139
أَمَا تُبْصِرُ	فِي عَمَى	16	142 ــ 142

أول المطلـــع	القـــافية	عدد الأبيات	الصفحـــات
وَمَا كُنْتُ	الْحِمَى	21	146 ــ 145
لِلّهِ	رُقُومِي	06	154 ــ 154
أَشْبَهْتُ	أَسْهُمِي	02	161
رَأْيُ	أَسْهُمِي	02	161
بِنَدَائِمِ	الْهائِمِ	02	163
وَمَجْلِسٍ	الْغَمَائِمِ	14	167 ــ 166
تَهَادَتْ	لاَ يَتَلَوَّمُ	117	206 ــ 201
لِمَنِ	وَتَلُوُّمِ	55	208 ــ 2
بُشْرَى	مَقْدَمُهُ	64	240
أمولاي	الحسيمة	8	233
أَلاَ يَا مَشوقاً	بالْحُسْنَى	36	22 ــ 21
صَرَفَ	وَسِمانُهْ	74	66 ــ 63
أَصَوْبَ الْحَيَا	بالرَّقْمَتَيْنِ	19	140 ــ 140
هِيَ	مَوْلاَنَا	06	154 ــ 154
أَحْرَزْتُ	الزَّمَنِ	12	157 ــ 156
يُوسُفٌ	أَوْدَعَنِي	02	162 ــ 162
إِنَّ الَّتِي	نَوَاهَا	44	57 ــ 55
أَدَارُهُمْ	وَحَيَّاهَا	50	186 ــ 182
جَادَ الْغَمَامُ	بِرَيَّاهَا	50	187
قِفَا	التحِيَّهْ	18	129 ــ 128
فَيَا عَدُولَ	يُدَاوِيهَا	9	144 ــ 144
أَلاَ حَدِّثَانِي	لِيَا	47	198 ــ 196

أعضاء أكاديمية المملكة المغربية

الحاج محمد ماحيبي · المملكة المغربية.
ليوبولد سيدار سنغور : السنغال
هنري كيسنجر الولايات المتحدة الأمريكية
محمد الفاسي المملكة المغربية
موريس دريون : فرنسا.
عبد الله كنون المملكة المغربية
بيل أرمسترونغ الولايات المتحدة الأمريكية
عبد اللطيف ابن عبد الخليل المملكة المغربية.
إدغارفور · فرنسا
محمد إبراهيم الكتاني المملكة المغربية
إميليو كارسيا كومين · المملكة الإسبانية
عبد الكريم غلاب : المملكة المغربية
أوطودو هاسبورغ النمسا
عبد الرحمان الفاسي المملكة المغربية
جورج فوديل : فرنسا
عبد الوهاب ابن منصور · المملكة المغربية
محمد عزيز الحبابي المملكة المغربية
هوان كسبانيا الصين
محمد الحبيب ابن الخوجة تونس
محمد ابن شريفة المملكة المغربية
أحمد الأخضر غزال المملكة المغربية
عبد الله عمر نصيف · المملكة العربية السعودية
عبد العزيز بعبد الله المملكة المغربية
أحمد عبد السلام الباكستاني
عبد الهادي التازي . المملكة المغربية
فؤاد سزكين تركية
محمد بهجة الأثري . العراق
عبد اللطيف بريش المملكة المغربية
محمد العربي الخطابي . المملكة المغربية
بيرماردان كاشين الفاتيكان
عبد المنعم القيسوني مصر

المهدي المنجرة · المملكة المغربية
أحمد الصبيحي المملكة العربية السعودية.
محمد علال سيناصر المملكة المغربية.
كوستنتان تساتسوس . اليونان.
أحمد صدقي الدجاني فلسطين
محمد شفيق : المملكة المغربية
اللورد شالفونت . المملكة المتحدة البريطانية العظمى
محمد المكي الناصري المملكة المغربية
عبد اللطيف الفيلالي . المملكة المغربية
أحمد عتار أمبو السنغال
أبو بكر القادري المملكة المغربية.
الحاج أحمد ابن شقرون : المملكة المغربية
عبد الله شاكر الكرسيفي المملكة المغربية.
جان بيار فرنسا
أليكس هالي : الولايات المتحدة الأمريكية.
روبير أمركحي : فرنسا
عز الدين العراقي المملكة المغربية.
أليكسندر دومارانش فرنسا
دونالد فريدركسن . الولايات المتحدة الأمريكية
عبد الهادي بوطالب : المملكة المغربية
إدريس جليل المملكة المغربية.
رجاء عارودي فرنسا
عباس الجراري المملكة المغربية
بيدرو راموبرقاسكير المكسيك.
الحاج أحمد أجيجو · الكاميرون.
بوريس بيتروفسكي الاتحاد السوفياتي.
محمد فاروق النبهان . المملكة المغربية
عباس القيسي المملكة المغربية.
عبد الله العروي المملكة المغربية.
عبد الله الفيصل المملكة العربية السعودية.

الأعضاء المراسلون

الغوصودي لاسيرنا · المملكة الإسبانية
روني جان دوبوي فرنسا
ريشارد ب ستون الولايات المتحدة الأمريكية
شارل ستوكتون الولايات المتحدة الأمريكية

أمين السر الدائم عبد اللطيف بريش
أمين السر المساعد · محمد العربي الخطابي

المدير العلمي
مصطفى الفاسي

مطبوعات
أكاديمية المملكة المغربية

I — سلسلة «الدورات»

- «الأزمات الروحية والفكرية في عالمنا المعاصر»، بحوث موضوع دورة الأكاديمية، نوفمبر 1981.
- «الماء والتغذية وتزايد السكان، القسم الأول»، بحوث موضوع الأكاديمية، أبريل 1982.
- «الماء والتغذية وتزايد السكان، القسم الثاني»، بحوث موضوع دورة الأكاديمية، نوفمبر 1982.
- «الامكانات الاقتصادية والسيادة الدبلوماسية»، بحوث موضوع دورة لأكاديمية، أبريل 1983.
- «الالتزامات الخلقية والسياسية في عزو الفضاء»، بحوث موضوع دورة الأكاديمية، مارس 1984.
- «حق الشعوب في تقرير مصيرها»، بحوث موضوع دورة الأكاديمية، أكتوبر 1984.
- «شروط التوفيق بين مدة الانتداب الرئاسي وبين الاستمرارية في السياسة الداخلية والخارجية في الأنظمة الديمقراطية» دورة أبريل 1985.
- «حلقة وصل بين الشرق والغرب : ابو حامد العرالي وموسى بن ميمون» دورة نونبر 1985.
- «القرصنة والقانون الأممي» دورة الأكاديمية، أبريل 1986.

II — سلسلة «التراث»

- «الذيل والتكملة»، لابن عبد الملك المراكشي، السفر الثامن، جزءان، تحقيق محمد ابن شريفة، عضو الأكاديمية، الرباط 1984.
- «الماء وما ورد في شربه من الآداب»، تأليف محمود شكري الألوسي، تحقيق محمد بهجة الأثري، عضو الأكاديمية، مارس 1985.
- «معلمة الملحون»، محمد الفاسي، عضو الأكاديمية، القسم الأول من الجزء الأول، أبريل 1986.
- «معلمة الملحون»، محمد الفاسي، عضو الأكاديمية، القسم الثاني من الجزء الأول، أبريل 1987.

III — سلسلة «المجلة»

- «الأكاديمية»، مجلة أكاديمية المملكة المغربية، العدد الافتتاحي، فيه وقائع افتتاح جلالة الملك الحسن الثاني للأكاديمية يوم الاثنين 5 جمادى الثانية عام 1400 هـ، الموافق 21 أبريل 1980.
- «الأكاديمية»، مجلة أكاديمية المملكة المغربية، العدد الأول، فبراير 1984.
- «الأكاديمية» مجلة أكاديمية المملكة المغربية، العدد الثاني، فبراير 1985.
- «الأكاديمية»، مجلة أكاديمية المملكة المغربية، العدد الثالث، نوفمبر 1986.

IV — سلسلة «الندوات»

- «فلسفة التشريع الاسلامي»، ندوة لجنة القيم الروحية والفكرية، 1987.

أكاديمية المملكة المغربية
طريق زعير، الرباط (كلم 6,4) ص.ب 1380
الربـاط ـــ المغـرب

رقم الايداع القانوني بالخزانة العامة وحفظ الوثائق 1987/266

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء